غراهام ألّيسون

حتميَّةَ الحرب

بين القوة الصاعدة والقوة المهيمنة

هل تنجح الصين وأمريكا في الإفلات من فخِّ ثيوسيديديز؟



تعريب وتعليق
إسماعيل بهاء الدين سليمان

دار الكتاب العربي


حتميَّة الحرب
بين القوة الصاعدة والقوة المهيمنة



حتميَّة الحرب

بين القوة الصاعدة والقوة المهيمنة

هل تنجح الصين وأمريكا في الإفلات من فخِّ ثيوسيديديز؟

غراهام ألّيسون

تعريب وتعليق
إسماعيل بهاء الدين سليمان

مراجعة وتنقيح
نهاد الحايك

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

حتمية الحرب
بين القوة الصاعدة والقوة المهيمنة

ISBN: 978-9953-27-440-9

Authorized Translation from the English Language Edition:

Destined For War

Published by special arrangement with
Houghton Miffin Harcourt Puplishing company

الناشر

DAR AL KITAB AL ARABI — دار الكتاب العربي

Beirut - Lebanon — بيروت - لبنان

Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178 هاتف
Fax (+961 1) 805478 فاكس

daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني
academia@dm.net.lb
kitab alarabi

www.kitabalarabi.com
www.academiainternational.com

محتويات الكتاب

تمهيد

قبل قرنين من الزمان حذّر نابليون قائلاً: "دعوا الصين نائمة، فعندما تستيقظ، سوف تهُز العالم". اليوم استيقظت الصين، وبدأ العالمُ يهتز.

رغم ذلك لا يزال كثيرٌ من الأمريكيين في حالةِ إنكارٍ لما يعنيه تحوُّل الصين من بلد زراعي خامد، إلى اللاعب الأكبر في تاريخ العالم، بالنسبة للولايات المتحدة. ما هي الفكرة الأساسية لهذا الكتاب؟ الإجابة في جملة واحدة، فخ ثيوسيديديز Thucydides Trap. عندما تمثل قوةٌ صاعدةٌ تهديدًا لقوةٍ سائدةٍ، تدق الأجراسُ مُنْذِرةً: الخطرُ قادمٌ. الصين والولايات المتحدة حاليًا على مسار صِدام يُفْضي بهما إلى الحرب، ما لم يتخذا، كلاهما، إجراءاتٍ قاسيةً ومؤلمةً لتلافي ذلك.

فبينما تمثل الصين الصاعدة بقوة تحديًا للهيمنة الأمريكية السائدة، تواجه الدولتان معًا مخاطر الوقوع في مصيدة قاتلة، كان أولَ من أشار إليها وعرَّفها المؤرخُ اليوناني القديم ثيوسيديديز. قال ثيوسيديديز في معْرِض كتابته عن الحرب التي خرّبت المدينتين-الدولتين city-states الأقوى والأكثر شهرة في العالم الإغريقي القديم قبل ألفي وخمسمائة عام: "لقد كان صعودُ أثينا والخوفُ الذي بثَّه ذلك الصعود في أسبرطة هو ما جعل الحربَ بينهما أمرًا حتميًّا"(*).

(*) عاش ثيوسيديديز خلال الفترة من 460 ق.م. إلى 395 ق.م. ويُعد الوالد المؤسس لما يُعرف اليوم باسم "التاريخ العلمي scientific history"، نظرًا لدقته الشديدة في تأصيل مرجعية كل حرف يكتبه، عندما يؤرخ لحدثٍ ما. كما يُعد مؤسس مدرسة الواقعية السياسية Political

تكشف هذه الرؤية الكلاسيكية الثاقبة عن نسقٍ تاريخي خطير. فبمراجعة سجلات الأعوام الخمسمائة الأخيرة في إطار "مشروع فخ ثيوسيديديز" Thucydides Trap Project الذي أُشرِف عليه في جامعة هارفارد، تم اكتشاف ست عشرة حالة، أسفر خلالها صعودُ أمةٍ كبيرةٍ عن زعزعةِ مكانةِ دولةٍ قائمة مهيمنة. وفي واحدة من أشهر تلك الحالات، هزَّت ألمانيا الصناعية، قبل قرن من الآن، موقعَ بريطانيا الذي كان مستقرًا على قمة الترتيب الهرمي للعالم. وقد استدعت النتائجُ الكارثيةُ للتنافس بين الدولتين شكلاً جديدًا من أشكال الصراع العُنْفيّ: حربٌ عالميةٌ. وقد كشفت أبحاثنا عن أن اثنتي عشرة حالة من تلك الحالات، أفضى فيها الصراعُ إلى قيام حرب، وأن أربعًا منها فقط، لم يُفض فيها الصراع إلى قيام حرب، وهو معدل لا يوحي بالاطمئنان أو الراحة، عندما يتعلق الأمر بأهم تنافس على ساحة الجغرافيا السياسية في القرن الحادي والعشرين.

هذا الكتاب ليس كتابًا عن الصين. إنه كتابٌ عن تأثير الصين الصاعدة على الولايات المتحدة والنظام العالمي. على مدار سبعة عقود منذ الحرب العالمية الثانية، حَدد إطارٌ تقوده الولايات المتحدة ويتكوَّن من مجموعة من القواعد الحاكمة، ملامحَ النظام العالمي world order، الذي أدى إلى خلق عصر يخلو من الحروب بين القوى الكبرى. الغالبية من الناس اليوم تنظر إلى هذه الفترة باعتبارها أمرًا عاديًا. بينما يصفها المؤرخون بأنها فترة نادرة من السلام الطويل الأمد. اليوم، توشك الصين، التي تتعاظم قوتها بشكل متزايد، على زعزعة هذا النظام، لتلقي في غياهب الشك والتساؤل، مصير ذلك السلام الذي اعتبرته عدة أجيال أمرًا بديهيًا.

في عام 2015، نشرت صحيفة أتلانتيك The Atlantic مقالاً لي بعنوان "فخ ثيوسيديديز: هل تتجه الولايات المتحدة والصين نحو الحرب؟" وقد

Reality. وقد ولِد مصطلح "فخ ثيوسيديديز" من رحم عبارة شهيرة جاءت في سياق كتابه "تاريخ الحرب البيلوبونيزية History of the Peloponnesian War"، الذي يؤرخ للحرب بين المدينتين-الدولتين أثينا وأسبرطة التي نشبت عام 431 ق.م. وانتهت بعد نحو سبع وعشرين سنة عام 404 ق.م. (المُعرِّب)

لفتُّ الانتباه في هذا المقال إلى أن هذه الاستعارة التاريخية توفر لنا عدسةً مثاليةً يمكن من خلالها تأملُ العلاقات بين الولايات المتحدة والصين اليوم. ومنذ ذلك الحين، أثار هذا المفهوم مناقشات واسعة النطاق. ولكن بدلاً من مواجهة الأدلة والنظر في التعديلات الضرورية وغير المريحة التي يتعيَّن على الطرفين إجراؤها، أثار خبراء السياسات العامة والرؤساء على حدٍ سواء جدلاً عقيمًا وتافهًا حول فكرة "الحتْميّة" ''inevitability''، كما أوردها ثيوسيديديز. ثم لم يلبث هؤلاء أن نسفوا الفكرة من أساسها مدّعين أن الحرب بين واشنطن وبيجين ليست أمرًا قدريًّا. لقد ناقش الرئيسان الأمريكي باراك أوباما Barak Obama والصيني شِي جينْ بينْغ Xi Jinping هذا الفخ باستفاضة، خلال القمة التي جمعت بينهما عام 2015. فقد أكد أوباما أن "الدولتين قادرتان على معالجة خلافاتهما"، بالرغم من الضغوط البنيوية التي خلقها صعود الصين. في الوقت نفسه، أكد الرئيسان على لسان الرئيس الصيني، "أن الدول الكبرى عندما تُجري حساباتٍ استراتيجيةً خاطئةً المرة تلو الأخرى، إنما تَنصب لنفسها مثل هذه الفخاخ، بأيديها".

أنا بدوري أؤيد وجهة النظر التي ترى أن الحرب بين الولايات المتحدة والصين ليست أمرًا حتميًّا لا مفر من وقوعه. الحقيقة أن ثيوسيديديز نفسه قد يوافق على أنَّ حتى الحرب بين أثينا وأسبرطة لم تكن حتمية. في هذا السياق، يمكننا أن نقرأ حديثه عن الحتمية باعتباره نوعًا من التهويل، أي المبالغة التي تهدف إلى التوْكيد. إن المغزى الحقيقي لفخ ثيوسيديديز لا يتعلق بالقدرية أو التشاؤم، بل على العكس من ذلك، يأخذنا إلى ما وراء عناوين الأخبار والخطب السياسية المبهرجة لندرك حجم الضغوط البنيوية التي يجب على كل من بيجين وواشنطن التعامل معها بمهارة لإرساء دعائم علاقة سلمية.

إذا أرادت هوليوود أن تصنع فيلمًا حول التسابق بين الصين والولايات المتحدة على الطريق نحو الحرب، لن يجد القائمون على اختيار

ممثلي الأدوار الأساسية أفضل من شِي جينْ بينْغ ودونالد ترامب. فكل منهما يجسد طموح بلده العميق للعظمة الوطنية. لقد أبرز تعيين شِي جينْ بينْغ زعيمًا للصين عام 2012 دور الصين كقوة صاعدة، بينما جاء انتخاب دونالد ترامب بعد حملة اعتمدت على تشويه صورة الصين، إيذانًا برد فعل ساحق من قِبَل القوة السائدة، في مواجهة القوة الصاعدة. على الصعيد الشخصي، ورغم أن الزعيمين الصيني والأمريكي بلغا أقصى درجات الاختلاف، كبطلين يتصارعان على الفوز بالمركز الأول، يجمع الرجلين تشابهٌ استثنائي، فكل منهما:

- يسوقه طموح غالب إلى أن يعيد إلى بلاده ما كان لها من عظمة.
- يعتبر الدولةَ التي يحكمها منافسُه، العقبةَ الرئيسيةَ على طريق تحقيق حلمه.
- يشعر بالزهو لما يراه في نفسه من قدراتٍ فريدةٍ كزعيم.
- يرى أنه يلعب دورًا محوريًا في بعث الحياة في بلده.
- يتبنى أجندة داخلية هائلة تدعو إلى إجراء تغييرات جذرية.
- نجح في حشد دعم شعبي جارف لحملة تهدف إلى تجفيف مستنقعات الفساد في الداخل، ومواجهة المحاولات التي يقوم بها كل منهما لإفشال الدور التاريخي لبلد منافسه.

هل يمكن أن يؤدي الصدام الوشيك بين هاتين الأمتين العظيمتين إلى حرب؟ هل سوف يسير ترامب وشِي جينْ بينْغ أو أولئك الذين سيأتون من بعدهم، على الخطى المأساوية لزعماء أثينا وأسبرطة أو بريطانيا وألمانيا؟ أم أنهما سوف يتمكنان من التوصل إلى طريقة فعّالة لتجنُّب الحرب على نحو ما فعلت بريطانيا والولايات المتحدة بشكل فعّال منذ قرن مضى، أو على نحو ما فعلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي خلال أربعة عقود من الحرب الباردة؟ بوضوح شديد، لا أحد يعرف. ورغم ذلك، نحن على

ثقة من أن الديناميات أو العناصر الدافعة التي أبرزها ثيوسيديديز سوف تزداد حدّةً في الأعوام القادمة.

إن إنكار فخ ثيوسيديديز لا يجعله أقل واقعية. كما أن الاعتراف به لا يعني التسليم به خيارًا وحيدًا مهما حدث. نحن مدينون للأجيال القادمة بضرورة مواجهة واحد من أشد الصدامات نزوعًا إلى العنف على مر التاريخ، كما أننا مطالبون ببذل كل ما في وسعنا لتحدّي الصعاب.



مقدمة

لم أكتب عملي هذا لأستدر الإعجاب أو التصفيق الآني، لكني كتبته وثيقةً صالحةً لكل العصور.

ــ ثيوسيديدز، تاريخ الحرب البيلوبونيزية

نحن اليوم على قمة العالم، وقد وصلنا إلى هذه القمة كي نبقى عليها إلى الأبد. هناك بالطبع ذلك الشيء الذي يُدْعى التاريخ. غير أن التاريخ مجرد أمر محزن يصيب قومًا آخرين.

ــ أرنولد توينبي(*)، مُستدعيًا ذكريات الاحتفال باليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا عام *1897*

كما هو الحال مع مؤرخين آخرين، غالبًا ما أُسْأَل عن "دروس التاريخ". ودائمًا أجيب أن الأمثولة الوحيدة التي تعلمتها من دراسة الماضي، هو أنه ما من فائز أو خاسر على الدوام.

ــ راماشاندرا غوها(**)

(*) أرنولد توينبي Arnold Toynbee مؤرخ بريطاني (1889-1975) يُعد أكثر كاتب أكاديمي في التاريخ قُرئت مؤلفاته بلغتها الأصلية أو مترجمة في جميع أنحاء العالم. (المُعرّب)

(**) راماشاندرا غوها Ramachandra Guha مؤرخ وأكاديمي هندي، ولد عام 1958، واشتهر بكتاباته الأكاديمية في مجالات التاريخ السياسي والاجتماعي، والقضايا البيئية. (المُعرّب)

"آهٍ، لو كُنّا فقط نعرف". كانت هذه أفضل إجابة استطاع المستشار الألماني تيوبالد فون بِتْمان هولفيغ(*) Theobald von Bethmann Hollweg تقديمها. وحتى عندما ضغط زميلٌ عليه، لم يستطع أن يشرح كيف أدّت خياراته وخيارات قادة أوروبيين آخرين إلى أشد ما عرفه العالم من الحروب تدميرًا حتى وقت قيامها. مع انتهاء مجازر الحرب العظمى عام 1918(**)، كان أطرافها الرئيسيون قد فقدوا كل ما قاتلوا من أجله: الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية انتهت، القيصر الألماني عُزِل، قيصر روسيا أُطيح به، فرنسا اسْتُنزِفت لعدة أجيال، وفقدت إنجلترا أثمن ثرواتها وأغلى شبابها. لِمَ جرى كل هذا؟ آهٍ، لو كُنّا فقط نعرف.

استوطنت عبارة بِتْمان هولفيغ عقل رئيس للولايات المتحدة، وسيطرت على تفكيره، بعد نحو نصف قرن من إطلاقها. ففي عام 1962، كان جون ف. كينيدي John F. Kennedy الذي يبلغ الخامسة والأربعين من عمره، في ثاني أعوام فترته الرئاسية، غير أنه كان يجاهد للتركيز على مسؤولياته كقائد أعلى للقوات المسلحة الأمريكية. كان كينيدي يعلم أن تحت إصبعه زرًا يطلق ترسانة نووية تستطيع القضاء على مئات الملايين من البشر خلال دقائق معدودة. ولكن من أجل ماذا؟ كان قد انتشر خلال تلك الفترة شعار يقول "أن تكون ميتًا أفضل من أن تعيش أحمر". كان كينيدي يرفض هذا التقسيم، ليس فقط باعتباره تقسيمًا سطحيًا، ولكن باعتباره تقسيمًا زائفًا. وكان رد كينيدي على مثل هذه الشعارات: "هدفُنا ليس السلام على حساب الحرية، بل السلام والحرية

(*) المستشار الذي قاد ألمانيا خلال معظم سنوات الحرب العظمى، حيث عمل مستشارًا لألمانيا ورئيسًا لوزراء بروسيا منذ عام 1909 حتى عام 1917، وبعد أن ترك منصبه سادت البلاد حالة من الفوضى السياسية أدت إلى أن يتعاقب على المنصب ثلاثة مستشارين خلال أقل من عام ونصف العام. (المُعرِّب)

(**) الحرب العظمى Great War هو الاسم الذي كان يطلق على ما نعرفه اليوم باسم الحرب العالمية الأولى، حيث لم ينتشر المسمّى الحديث لتلك الحرب إلا بعد أن أصبحت هناك حرب عظمى أخرى، هي ما نعرفه اليوم بالحرب العالمية الثانية. (المُعرّب)

معًا". السؤال الذي كان مطروحًا آنذاك هو كيف يستطيع كينيدي وإدارته تحقيق هذا الهدف المزدوج.

بينما كان كينيدي يقضي عطلة في مجمع العائلة في كاب كود، خلال صيف عام 1962، انهمك في قراءة كتاب باربارا توكمان(*) Barbara Tuchman مَدافع أغسطس The Guns of August، الذي يتضمن دراسة مستفيضة لأسباب اندلاع الحرب العظمى عام 1914. لقد تتبعت توكمان في كتابها أفكار وأفعال كل من فيلهيلم Wilhelm إمبراطور ألمانيا ومستشاره بتمان هولفيغ، وجورج George ملك بريطانيا ووزير خارجيته إدوارد غراي Edward Grey، ونيكولاس Nicholas قيصر روسيا، وفرانز جوزيف Franz Joseph إمبراطور النمسا–المجر، وشخصيات أخرى، لتكشف عن أن هذه الشخصيات كلها كانت تنزلق إلى الهاوية بلا وعي، أو بما يشبه السير أثناء النوم. من هنا ترى توكمان أنَّ أيًا من هؤلاء الرجال لم يكن يدرك خطورة ما ينتظره، كما لم يكن أيٌّ منهم يسعى إلى الحرب التي تورطوا فيها جميعًا، وتؤكد أنه إذا ما أتيحت لأي منهم الفرصة لأن يحيا تلك الفترة مرة أخرى، فهو لن يتخذ ما اتخذ من قرارات، ولن يختار ما اختار من خيارات. وقد تأثر كينيدي بتلك الدراسة متأملاً في مسؤولياته، ليقطع أمام نفسه عهدًا بأنه إذا ما وضعته الظروف في موقف يحتم عليه الاختيار بين حرب كارثية مدمرة والسلام، سيكون خياره أفضل كثيرًا من خيارات بتمان هولفيغ.

لم يكن لدى كينيدي في هذه اللحظات أدنى فكرة عما ينتظره في قادم الأيام. ففي تشرين الأول/أكتوبر 1962، وبعد شهرين فقط من قراءة كتاب توكمان، وجد كينيدي نفسه وجهًا لوجه أمام الزعيم السوفييتي نيكيتا

(*) باربارا توكمان مؤرخة وكاتبة أمريكية (1912-1989)، نالت عددًا كبيرًا من الجوائز المهمة سواء عن أعمال محددة أو عن مجمل إنجازاتها، وأبرز تلك الجوائز الجائزة الأمريكية الأكثر شهرة في مجال الكتابة، وهي جائزة بولِتزر Pulitzer Prize، التي تعادل قيمتها قيمة جائزة الأوسكار في عالم السينما. (المُعرّب)

خروتشيف Nikita Khrushchev في أخطر مواجهة في تاريخ البشرية: أزمة الصواريخ الكوبية. بدأت الأزمة عندما اكتشفت الولايات المتحدة أن السوفييت يحاولون تهريب عدد من الصواريخ التي تحمل رؤوسًا نووية إلى كوبا، التي لا تبعد أكثر من تسعين ميلاً عن سواحل ولاية فلوريدا الأمريكية. تصاعد الموقف بشكل سريع، فتحوَّل من مجرد تهديدات دبلوماسية إلى حصار أمريكي كامل للجزيرة، ثم إلى حشد عسكري أمريكي وسوفييتي، وعدد من المواجهات المسلحة، من بينها إسقاط طائرة تجسس أمريكية من طراز U-2 فوق كوبا. في ذروة الأزمة التي دامت ثلاثة عشر يومًا ثقيلة متوترة، أفضى الرئيس كينيدي إلى شقيقه روبرت بأنه يؤمن أن احتمال أن تفضي تلك الأزمة إلى حرب نووية "يتراوح بين ثلاثين وخمسين في المائة". ومنذ ذلك الحين، لم يرصد المؤرخون لحظة وصلت فيها احتمالات نشوب حرب نووية إلى تلك الدرجة العالية.

ولكن كينيدي، بالرغم من إدراكه خطورة تلك الأزمة، تبنى خيارات كان يعلم علم اليقين أنها تزيد من احتمالات نشوب حرب، بما في ذلك الحرب النووية. لقد اختار كينيدي أن يتحدى خروتشيف علانية (بدلاً من محاولة حل المسألة سرًا من خلال القنوات الدبلوماسية)، وأن يطالب بشكل لا لبس فيه بسحب الصواريخ السوفييتية من كوبا (بدلاً من أن يمنح نفسه مساحة أكبر للمناورة)، وأن يهدد بشن هجمات جوية لتدمير تلك الصواريخ (وهو يعلم أن تلك الغارات يمكن أن تثير ردًا سوفييتيًا يتمثل في غارات جوية على برلين)، وأخيرًا، أن يوجِّه إلى خروتشيف في اليوم قبل الأخير من أيام الأزمة إنذارًا نهائيًا محدد التوقيت (بأن الولايات المتحدة سوف تبادر بإطلاق الرصاصة الأولى، إذا لم يستجب لكافة طلباتها).

كان كينيدي يدرك جيدًا أن كل خيار من تلك الخيارات التي يتخذها، يزيد من مخاطر أن يؤدي تطور الأحداث وما قد يتخذه آخرون من خيارات لا يستطيع التحكم فيها، إلى نشوب حرب نووية تدمر مدنًا أمريكية، بما في ذلك العاصمة واشنطن (حيث أقامت عائلته طوال أيام الأزمة). على سبيل

المثال، عندما رفع كينيدي درجة تأهب الترسانة النووية الأمريكية إلى الحالة التي تعرف باسم ديفكون اثنان(*) Defcon II، جعل الولايات المتحدة أقل عرضة لهجوم سوفييتي استباقي أو إجهاضي، لكنه، وبالتزامن مع هذا، أرخى الكثير من مكابح الأمان المتعلقة بالترسانة النووية. فطبقًا لمقتضيات الحالة ديفكون اثنان، اتخذ الطيارون الألمان والأتراك مقاعدهم داخل طائرات حلف شمال الأطلسي NATO القاذفة المقاتلة المزودة بصواريخ تحمل رؤوسًا نووية، والتي تقف متأهبة للانطلاق من قواعد لا تبعد أكثر من ساعتين عن الأهداف المحددة لها داخل الأراضي السوفييتية. في تلك الأيام، لم تكن أنظمة الأمان الإلكترونية التي تتحكم في تلك الصواريخ قد اختُرعت بعد، ومن ثمّ لم تكن هناك وسيلة يدوية أو تكنولوجية يمكنها أن تمنع أيًّا من هؤلاء الطيارين من اتخاذ قرار بالانطلاق نحو موسكو، وإلقاء قنبلة نووية تكون بمثابة إطلاق إشارة بدء اندلاع الحرب العالمية الثالثة.

وفي غياب أي وسيلة لتلافي مخاطر لا يمكن التنبؤ بها أو التحكم فيها، سعى كينيدي ووزير دفاعه روبرت ماكنمارا Robert McNamara إلى اتخاذ إجراءات تنظيمية ومؤسساتية تهدف إلى التقليل قدر الإمكان من الحوادث أو الأخطاء. ورغم هذه الجهود، يرصد المؤرخون أكثر من عشرة حوادث حرجة وقعت خارج دائرة تحكُّم كينيدي، وكانت كل واحدة منها كفيلة بإشعال فتيل حرب. من هذه الحوادث، قيام دورية أمريكية مضادة للغواصات بإلقاء قنابل أعماق حول غواصة سوفييتية لإجبارها على أن تطفو على السطح، الأمر الذي أدى إلى اعتقاد قائد الغواصة بأنه يتعرض لهجوم، فكان على بعد خطوة من إطلاق طوربيد نووي باتجاه الدورية الأمريكية. وفي حادثة أخرى، حلَّق قائد طائرة تجسس أمريكية من طراز

(*) Defcon مختصر لمصطلح Defense Readiness Condition، الذي يعني حالة الاستعداد الدفاعي، وهو مقياس عسكري أمريكي يحدد درجة التهديد الذي يتعرض له الأمن القومي في وقت معيّن. يتكوّن هذا المقياس من خمس درجات أقلها ديفكون خمسة، وأعلاها وأشدها خطورة ديفكون واحد، وهي درجة لم تصل إليها الولايات المتحدة طوال تاريخها، حيث تعني ديفكون واحد أن البلاد تتعرض لهجوم نووي فعلي. (المُعرّب)

U-2، عن طريق الخطأ، فوق الأراضي السوفييتية، ما أثار مخاوف خروتشيف، الذي اعتقد أن واشنطن تستعد لشن هجوم نووي استباقي. ولو كان أحد هذه الحوادث أدى إلى إشعال فتيل الحرب العالمية الثالثة (النووية)، هل كان كينيدي سيتمكن من تبرير إسهام خياراته في إشعال تلك الحرب؟ هل كان سيتمكن من الرد على أسئلة المحققين بإجابات أفضل من إجابات بتمان هولفيغ؟

تُمثل الشؤون الإنسانية، بما تتضمنه من علاقات معقدة بين الأسباب والنتائج، معضلة مزعجة للفلاسفة، وجهابذة القانون، والباحثين في مجالات العلوم الإنسانية. في معرِض تحليل أسباب اندلاع الحروب، يركز المؤرخون بشكل أساسي على الأسباب القريبة أو المباشرة. فمن أسباب الحرب العالمية الأولى، اغتيال ولي عهد إمبراطورية النمسا–المجر الأرشيدوق فرانز فرديناند(*) Franz Ferdinand، وقرار نيكولاس الثاني قيصر روسيا بحشد الجيوش الروسية ضد الدول الوسطى أو دول المركز(**) The Central Powers. ولو أدت أزمة الصواريخ الكوبية إلى نشوب حرب، كان سببها المباشر ليكون قرارًا من قائد الغواصة السوفييتية بإطلاق طوربيد نووي، بدلاً من الغوص إلى أعماق المحيط، أو قرارًا من طيار تركي بالإقلاع بطائرته المحمَّلة بصواريخ تحمل رؤوسًا نووية إلى موسكو. صحيح أن الأسباب المباشرة للحروب مهمة ولا يمكن إنكارها، غير أن ثيوسيديدين، واضِعَ أسس علم التاريخ، يؤمن بأن أكثر أسباب سفك الدماء مباشرة ووضوحًا تُخفي وراءها أسبابًا أكثر دلالة. فهو يوضح أن تأثير العوامل

(*) اغتيل ولي عهد النمسا على يد شاب صربي، واتَّهمت بلادُه الحكومة الصربية بالضلوع في المؤامرة، وأعلنت الحرب عليها. الوحدة العرقية التي تجمع بين روسيا وصربيا دفعت قيصر روسيا إلى الوقوف إلى جوار صربيا، وإعلان الحرب على إمبراطورية النمسا-المجر وحلفائها. (المُعرّب)

(**) تعبير يُقصد به التحالف الذي جمع بين كل من الدولة العثمانية، والإمبراطورية الألمانية، والإمبراطورية النمساوية-الهنغارية، ومملكة بلغاريا، أثناء الحرب العالمية الأولى. تستمد تلك التسمية أصلها من الموقع الجغرافي لتلك الدول وسط ما كان يُعرف آنذاك بالحلفاء، حيث تحدُّها من الشرق روسيا، ومن الغرب إنجلترا وفرنسا. (المُعرّب)

البنيوية التي ترسي أسس حربٍ ما يفوق بكثير دور الشرارة التي تؤدي إلى اشتعالها، وتتمثل تلك العوامل في أوضاع تتصاعد في ظلها أحداث كانت تبدو تحت السيطرة، لتكتسب خطورة لم تكن متوقعة، ولتسفر عن عواقب لم يكن بالإمكان تخيُّلها.

فخ ثيوسيديديز

في واحد من أكثر اقتباسات السطر الواحد استخدامًا أو استدعاءً في مجال دراسة العلاقات الدولية، يقول المؤرخ اليوناني القديم ثيوسيديديز: "كان صعودُ أثينا والخوفُ الذي بثَّه ذلك الصعود في أسبرطة هو ما جعل الحربَ بينهما حتمية".

كان ثيوسيديديز يكتب عن الحرب البيلوبونيزية التي ابتلعت وطنه، الدولة–المدينة أثينا، في القرن الخامس قبل الميلاد، والتي التهمت، تقريبًا، في وقت من الأوقات، اليونان القديمة بكاملها. لقد شاهد ثيوسيديديز، المقاتلُ المتقاعد، أثينا وهي تتحدى القوة اليونانية المهيمنة آنذاك، أسبرطة الدولة–المدينة المعسكرة بالكامل. تابع ثيوسيديديز اندلاع الأعمال العدائية المسلحة بين القوتين، ورصد بالتفصيل نتائجها المروِّعة. لكن، ربما لحسن حظه، لم يمتد العمر به حتى يشهد النهاية المريرة لذلك الصراع، حيث استطاعت أسبرطة المنهكة المتهاوية، أن تحسم الصراع لصالحها، وأن تقهر أثينا.

وفي حين أبرز الآخرون منظومة من الأسباب المتضافرة للحرب البيلوبونيزية، دخل ثيوسيديديز مباشرة إلى صلب القضية. فعندما سلط الضوء على "صعودُ أثينا والخوفُ الذي بثَّه ذلك الصعود في أسبرطة" كشف عن قوة دافعة أساسية تستوطن جذور واحدة من أكثر حروب التاريخ كارثية وإرباكًا. فبغضّ النظر عن النوايا، عندما تهدد قوة صاعدة بإزاحة قوة مهيمنة عن عرشها، يكون الصدام المسلح العنيف الناجم عن

هذا التوتر البنيوي هو القاعدة، وليس الاستثناء. حدث ذلك بين أثينا وأسبرطة في القرن الخامس قبل الميلاد، وبين ألمانيا وبريطانيا منذ نحو قرن من الزمان، كما أوشك أن يؤدي إلى حرب بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.

لقد آمنت أثينا، كما هو الوضع في حالات كثيرة، بأن تقدمها وتطورها أمرٌ حميد خالٍ من السلبيات. فعلى مدار الأعوام الخمسين التي سبقت اندلاع الحرب البيلوبونيزية، رسخت أثينا حضورها على الساحة العالمية كقبَّة للحضارة. لقد امتلكت أثينا ناصية الفلسفة، والمسرح، والعمارة، والديمقراطية، والتاريخ، والقوة البحرية، بدرجة لم يشهد العالم مثيلاً لها من قبل. لقد بدأ تطور أثينا السريع يهدد أسبرطة، التي كان الوضع قد انتهى بها قوةً مهيمنة وحيدة على منطقة البيلوبونيز(*). ومع نمو ثقة الأثينيين في أنفسهم واعتزازهم ببلدهم، تزايدت مطالبهم الإقليمية بالاحترام والتقدير، كما تزايدت توقعاتهم بحتمية مراجعة الترتيبات القائمة لتعكس الحقائق الجديدة المتعلقة بموازين القوى. وهذه مطالب يرى ثيوسيديديز أنها رد فعل طبيعي لوضعها المتغير. فكيف يمكن للأثينيين ألا يؤمنوا بأن مصالحهم تستحق مزيدًا من الأهمية؟ وكيف يمكن للأثينيين ألا يتوقعوا أن يكون لهم دور أكبر، وتأثير أقوى، عند البحث عن حلول للخلافات؟

غير أنه من الطبيعي أيضًا، كما يشرح ثيوسيديديز، أن يرى الأسبرطيون في المطالب الأثينية قدرًا هائلاً من اللامعقولية، بل ونكران الجميل. لقد تساءل الأسبرطيون، ومعهم الحق في ذلك، مَن الذي وفَّر لأثينا البيئة الآمنة التي مكَّنتها من الازدهار؟

وهكذا، بينما كانت أوداج الأثينيين تنتفخ بفعل الإحساس المتزايد بالأهمية، وبينما كانوا يشعرون بأحقيتهم بأن يكون لهم دور أكبر، قولاً

(*) شبه جزيرة تقع في الجزء الجنوبي من اليونان الحالية، ولا تتجاوز مساحتها 21,549 كيلومترًا مربعًا. تعرف المنطقة في بعض الكتب القديمة باسمها السلافي "مورة Morea"، الذي يعني أرض البحر. (المُعرّب)

وعملاً، تمثل رد فعل أسبرطة في إحساس بالخوف، وعدم الأمان، والعزم على الحفاظ على الأمر الواقع والدفاع عنه.

يمكن أن نرى مثل هذه الديناميات في قلب منظومات أخرى من العلاقات، وحتى داخل العائلات. فما الذي يمكن أن نتوقعه عندما توحي فورة بلوغ صبي ما سن الرشد باحتمالات الإقدام على إزاحة شقيقه الأكبر (أو حتى والده)؟ هل ينبغي تبديل مواقع حجرات النوم، والمساحات الخاصة بحفظ الثياب، وأماكن الجلوس في غرفة المعيشة، بحيث تعكس جميعها الحجم النسبي لكل فرد، بالإضافة إلى عمره؟ وفي عالم المخلوقات التي تتميز بالهيمنة الذكورية، مثل الغوريلا، مع تزايد حجم وقوة الخليفة المنتظر، يتهيأ كل من الجالس على القمة والطامح إليها لصراع حياة أو موت. وفي عالم الأعمال، عندما تتيح التكنولوجيا الهائلة لشركات صاعدة مثل أبِلْ Apple وغوغل Google، أو حتى أوبِر Uber، أن تقيم، بسرعة، صناعات جديدة، غالبًا ما يؤدي ذلك إلى منافسة مريرة، تجبر شركات كبيرة مستقرة مثل هيوليت-باكارد Hewlett-Packard وميكروسوفت Microsoft، أو الشركات التي تدير شبكات من سيارات التاكسي، على تعديل أنماط عملها، أو الانسحاب من السوق.

باختصار، يشير فخ ثيوسيديديز إلى حالة الارتباك الحتمي والطبيعي التي تقع عندما تهدد قوة صاعدة بإزاحة قوة مهيمنة. ويمكن لهذه الحالة أن تحدث في أي مجال. غير أن عواقبها تكون أكثر تعقيدًا وأشد خطورة في الشؤون الدولية. ولأن المثال الأصلي لفخ ثيوسيديديز وِلِد من رحم حرب أجبرت اليونان القديمة على الركوع، سيطرت تلك الفكرة على عقول الدبلوماسيين على مدار القرون التي تلت تلك الحرب. اليوم، وضعت هذه الفكرة القوتين الأكبر في العالم على الطريق نحو كارثة لا يتمناها إنسان، كارثة ربما تثبت الدولتان أنهما غير قادرتين على تجنُّبها.

هل الحرب بين الولايات المتحدة والصين "قدرٌ محتوم"؟

لم يشهد العالم من قبل شيئًا يشبه التغيُّر التِكْتوني(*) السريع لموازين القوة العالمية الذي نتج عن صعود الصين. ويكفي أن نلقي نظرة على هذه الأرقام: خلال الأعوام التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة، وصل نصيب الولايات المتحدة من إجمالي الاقتصاد العالمي إلى 50 في المائة. في عام 1980 تناقصت هذه النسبة لتصل إلى 22 في المائة. وعلى مدار ثلاثة عقود من النمو الاقتصادي الصيني المزدوج الأرقام(**)، واصل الاقتصاد الأمريكي تراجعه لتصل هذه النسبة اليوم إلى 16 في المائة. وإذا ما واصلت الأمور سيرها على هذا النحو على مدار العقود الثلاثة القادمة، سوف تتقلص هذه النسبة إلى 11 في المائة فقط. على الجانب المقابل، وخلال الفترة المشار إليها، ازداد نصيب الصين من الاقتصاد العالمي بسرعة، من 2 في المائة عام 1980 إلى 18 في المائة عام 2016، وهو في طريقه إلى أن يشكل 30 في المائة من الاقتصاد العالمي عام 2040.

النمو الاقتصادي يحول الصين إلى منافس سياسي وعسكري مخيف. خلال سنوات الحرب الباردة، بينما كانت الولايات المتحدة ترد على الاستفزازات السوفييتية ردودًا خرقاء وبطيئة، كانت لوحة معلقة داخل البنتاغون(***) تقول: "إذا ما تحتم علينا مواجهة عدو حقيقي، سوف نجد أنفسنا في ورطة حقيقية". الصين عدو احتمالي حقيقي.

تبدو إمكانية أن تجد الولايات المتحدة والصين نفسيهما طرفين في حرب، غير مُرَجَّحة الحدوث، فضلاً عن كونها غير حكيمة، رغم أن الذكرى

(*) التِكْتونية tectonics هي العلم الذي يدرس البنى التركيبية الكبرى للأرض وأسباب وجودها، والانزياح التِكْتوني tectonic shift هو تغيُّر بنيوي كبير يحدث بسبب حركة قشرة الأرض. ومن ثم فإن المعنى المقصود هنا هو أن صعود الصين غيَّر وجه الأرض. (المُعرّب)

(**) النمو الاقتصادي المزدوج الأرقام هو نمو اقتصادي يتجاوز معدله 9 في المائة، بمعنى أنه نمو يجري بمعدل يتراوح بين 10 في المائة و99 في المائة. (المُعرّب)

(***) مقر وزارة الدفاع الأمريكية، ويطلق عليه هذا الاسم بسبب شكله المُخَمَّس الأضلاع. (المُعرّب)

المئوية للحرب العالمية الأولى تذكرنا دومًا بما للإنسان من قدرة على ارتكاب الحماقات. عندما نقول إن قيام مثل هذه الحرب يبدو أمرًا لا يمكن تصوره أو وقوعه، هل تتعلق هذه المقولة بما هو ممكن في هذا العالم؟ أم أنها تعبِّر عما تستطيع عقولنا المحدودة استيعابه؟

بقدر ما نملك من قدرة على التطلع إلى المستقبل، يبقى السؤال المحوري في ما يتعلق بالنظام العالمي: هل تستطيع كل من الصين والولايات المتحدة الإفلات من فخ ثيوسيديديز؟ إن معظم حالات التنافس التي تشبه نسق التنافس الحالي بين الصين والولايات المتحدة قد انتهت نهاية سيئة. فعلى مدار خمسمائة عام مضت، يمكننا رصد ست عشرة حالة، مثلت خلالها قوةٌ رئيسية صاعدة تهديدًا حقيقيًا لقوة حاكمة. وفي اثنتي عشرة حالة من تلك الحالات، أفضى ذلك الوضع إلى حرب بين القوتين. الحالات الأربع التي استطاعت تجنُّب تلك النهاية لم تستطع الإفلات من هذا الفخ إلاّ من خلال تعديلات هائلة ومؤلمة في السلوك والأفعال، من جانب المتحدِّي والمتحدَّى، على حدٍ سواء.

من هنا، يمكن للولايات المتحدة والصين أن تتجنبا نشوب حرب بينهما، شريطة أن تدركا وأن تقتنعا بحقيقتين صعبتين:

الأولى، أنه إذا واصلت الأمور مسارها الحالي، فإن الحرب بينهما خلال العقود القادمة ليست ممكنة فقط، بل إن احتمال نشوبها أكبر بكثير مما نعترف به اليوم. ووفقًا لسجلات التاريخ، فإن احتمالات قيام حرب ما، تكون دائمًا أكبر بكثير من احتمالات عدم قيامها. إن التهوين من شأن هذا الخطر، يزيد من مخاطره. ومن ثمّ، إذا واصل القادة في بيجين وواشنطن التصرف بالأساليب التي يتصرفون بها منذ نحو عقد من الزمان، سوف تنتهي الدولتان إلى حرب.

الثانية، أن الحرب ليست قدرًا محتومًا. فالتاريخ يعلمنا أن القوى الحاكمة الكبرى تستطيع إدارة العلاقات مع منافسيها، بمن فيهم أولئك الذين

يمثلون تهديدًا لموقعها القيادي، دون حاجة إلى إشعال حرب. إن سجل النجاحات، بل والإخفاقات، في هذا المجال، يقدم لزعماء الدول المعاصرة كثيرًا من الدروس. وكما يقول جورج سانتايانا(*) George Santayana: "الذين يفشلون في دراسة التاريخ، هم فقط الذين يُحْكم عليهم بتكراره".

الفصول التالية من هذا الكتاب تصف أصول فخ ثيوسيديدين، وتستكشف ديناميّاته، وتشرح ما يعنيه بالنسبة للتنافس الحالي بين الولايات المتحدة والصين، حيث يقدم الجزء الأول ملخصًا مُقْتضبًا لقصة صعود الصين. الجميع يعرفون أن الاقتصاد الصيني ينمو، غير أن من يعرفون مدى هذا النمو وعواقبه قليلون. وهنا أعيد صياغة عبارة شهيرة للرئيس التشيكي السابق فاسلاف هافيل Vaclav Havel: "إن الأمر قد حدث بسرعة، حتى إنه لم تتح لنا، حتى الآن، الفرصة كي نبدي اندهاشنا."

يرصد الجزء الثاني التطورات المعاصرة في العلاقات الأمريكية الصينية، وموقعها على الساحة التاريخية باتساعها. وهو أمر لا يساعدنا على فهم الأحداث الجارية فقط، بل يوفر لنا إشارات توضيحية في ما يتعلق باتجاهات ما هو قادم من أحداث. تعود بنا تلك المراجعة 2500 سنة إلى الوراء، يوم أن أحدث النمو السريع لأثينا صدمة لدى أسبرطة المُعَسْكرة المهيمنة، وأدى إلى إشعال الحرب البيلوبونيزية. كما تتيح لنا بعض الأمثلة الرئيسية المنتقاة من أحداث الأعوام الخمسمائة الماضية إلقاء نظرة متعمقة على طرق التصعيد التي تسلكها التوترات بين القوى الصاعدة والقوى الحاكمة، إلى أن تتحول تلك التوترات إلى حروب. إن النظير الأقرب للوضع الحالي - وأعني التحدي الذي مثلته ألمانيا بالنسبة للإمبراطورية البريطانية الحاكمة قبل الحرب العالمية - يجب أن يدفعنا جميعًا إلى وقفة تأمل.

(*) جورج سانتايانا أو خورخي سانتايانا (1863-1952) مفكر وفيلسوف وشاعر وكاتب روائي أمريكي من أصل إسباني. عاش سانتايانا في الولايات المتحدة. في سن الثالثة والأربعين استقال من عمله في جامعة هارفارد، وغادر الولايات المتحدة إلى أوروبا، حيث توفي في إيطاليا. (المُعرّب)

يتساءل الجزء الثالث عما إذا كان من الواجب علينا أن نرى في الاتجاهات الحالية لعلاقات أمريكا مع الصين عاصفة تتجمع، وقد توفرت لها أسباب عاصفة بريطانيا-ألمانيا. إن التقارير الإعلامية اليومية التي تتحدث عن سلوك الصين "العدواني"، وعدم رغبتها في قبول قواعد النظام الدولي الذي أرست الولايات المتحدة دعائمه عقب الحرب العالمية الثانية، تصف وقائع وحوادث تعيد إلينا ذكريات عام 1914(*). يأتي ذلك في وقت تبرز خلاله الحاجة إلى قدر من الإدراك الذاتي. فلو تصرفت الصين كما تصرفنا نحن الأمريكيون، عندما اقتحمت الولايات المتحدة القرن العشرين، مفعمة بالثقة في أن الأعوام المائة القادمة سوف تكون عصرًا أمريكيًا خالصًا، لكان الصراع أشد قسوة، وكان تجنُّبُ الحرب بين الدولتين أكثر صعوبة. لو اقتفت الصين إثر خطوات أمريكا، لشهدنا الجيوش الصينية تفرض إرادة بيجين من منغوليا إلى أستراليا، على نحو ما فعل ثيودور روزفلت(**) Theodore Roosevelt، عندما أعاد تشكيل ما أسماه نصف الكرة الأرضية الذي ننتمي إليه "our hemisphere"، وفقًا لما يُحب ويَرغب.

تسلك الصين مسارًا يختلف عن ذلك الذي سلكته الولايات المتحدة خلال تقدمها المندفع نحو الصدارة. غير أننا نشهد في كثير من عناصر صعودها، ملامح تتشابه مع بعض ما فعلته أمريكا في الماضي. ما الذي يريده الرئيس الصيني شِي جينْ بينْغ؟ في جملة واحدة: يريد أن يُعيد للصين عظمتها مرة أخرى. إن المطْمح الأعظم لأكثر من مليار مواطن صيني لا يقتصر على أن تكون الصين دولة غنية فقط، بل أن تكون، في الوقت نفسه، دولة قوية. إن هدفهم الحقيقي هو "صين" غنية جدًا، وقوية جدًا، إلى الحد الذي لا يترك للأمم الأخرى خيارًا سوى الاعتراف بما لها من مصالح، ومعاملتها بالاحترام الذي تستحقه. طموح هذا الحلم الجامح الذي لا تحده حدود، لا بد وأن يجرِّدنا

(*) العام الذي شهد مقدمات الحرب العالمية الأولى، والشرارة الأولى لمعاركها الطاحنة. (المُعرّب)

(**) ثيودور روزفلت (1858-1919) الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة (أيلول/سبتمبر 1901– آذار/مارس 1909). (المُعرّب)

من أي وهم قد يُصوِّر لنا أن التنافس بين الصين والولايات المتحدة سوف يتلاشى بشكل طبيعي إذا تحولت الصين إلى "مستثمر مقدِّر للمسؤولية". نحن أمام ما أطلق عليه زميلي السابق سام هانتينغتون Sam Huntington "صدام الحضارات"(*)، فصل من فصول التاريخ حيث يصبح التفاهم بين الدولتين أمرًا بالغ الصعوبة، لأن كلاً منهما تتبنى مجموعة من القيم والمبادئ المختلفة جذريًا عن تلك التي تتبناها الدولة الأخرى.

وبينما يبدو التوصل إلى حل للتنافس الحالي أمرًا يصعب تصوره، يبدو الصراع المسلح بعيدًا أو مستبعدًا. ولكن هل هو فعلاً كذلك؟ الحقيقة أن الطرق التي تؤدي إلى الحرب أكثر تنوعًا وأكثر منطقية، بل وأكثر واقعية، مما نريد أن نقنع به أنفسنا. فالمواجهات الحالية في بحر الصين الجنوبي، وبحر الصين الشرقي، والخلافات حول التحكم في الفضاء السيبراني(**) cyberspace، والصراع التجاري الذي يمكن أن يخرج عن السيطرة، كل هذه أمور يمكن أن تسفر بسهولة مخيفة عن سيناريوهات لمعارك دموية بين القوات الأمريكية والقوات الصينية. ورغم أن أيًا من هذه السيناريوهات لا يبدو مُرَجَّحًا، فإننا عندما نتذكر عواقب اغتيال ولي عهد النمسا-المجر(***) أو مغامرة خروتشيف

(*) صامويل فيليبس هانتينغتون (1927-2008). مفكر وسياسي أمريكي ينتمي إلى التيار المحافظ رغم أنه كان عضوًا بالحزب الديمقراطي. وقد عمل أستاذًا للعلوم السياسية في جامعة هارفارد لأكثر من ربع قرن، كما عمل مستشارًا للرئيس الأمريكي لندون جونسون عندما كان نائبًا للرئيس جون كينيدي، ومخططًا للسياسات الأمنية في مكتب الرئيس جيمي كارتر. اشتهر هانتينغتون بكتاب "صدام الحضارات Clash of Civilizations" الذي أثار ولا يزال يثير جدلاً واسعًا حول ما تضمنه من آراء، حيث تؤكد النظرية التي يروج لها كتابه أن الصراعات التي سوف تنشأ بعد انتهاء الحرب الباردة لن تكون صراعات أيديولوجية بين دول قومية، كما كان الحال في ما يتعلق بصراعات سنوات الحرب الباردة، بل ستكون صراعات ثقافية ودينية بين الحضارات الكبرى. (المُعرِّب)

(**) هذه هي الترجمة المعتمدة من الأمم المتحدة لهذا المصطلح، غير أن هذا لا يعني أنها الترجمة الوحيدة، حيث تتعدد ترجمات هذا المصطلح بتعدد الخلفيات الثقافية للمترجمين، كما تتعدد بتعدد الأُطُر التي يُستخدم المصطلح من خلالها. لهذا، نرى البعض يترجمه إلى الفضاء السايبري، أو الفضاء الإلكتروني، أو الفضاء المعلوماتي. (المُعرِّب)

(***) كما ورد من قبل، كان هذا الحدث الشرارة التي أشعلت حربًا عالمية. مجرد عملية اغتيال سياسي عادية، وقع قبل وقوعها وبعد وقوعها عشرات من العمليات المماثلة، وراح ضحية بعض تلك العمليات عشرات من السياسيين الذين يفوق حجمهم السياسي أي حجم كان لولي عهد النمسا-المجر، ومع ذلك لم تؤدِ واحدة من تلك العمليات إلى حرب عالمية. (المُعرِّب)

النووية في كوبا، سوف ندرك كم هي ضيقة تلك الهوة التي تفصل بين ما هو "غير مُرَجَّح" وما هو "مستحيل".

يشرح الجزء الرابع لماذا الحرب ليست قدرًا محتومًا. يشعر الجزء الأكبر من المجتمع السياسي والرأي العام برضى ساذج عن احتمالات نشوب حرب. من ناحية أخرى، يرى القدريون قوة قاهرة لا تقاوَم تقترب بسرعة من شيء راسخ عصي الحركة. الطرفان لا يدركان الأمر على حقيقته. إذا درس زعماء الطرفين نجاحات الماضي وإخفاقاته، سوف يجدان ثروة من الأفكار والإشارات التي يمكن أن تساعدهما على وضع استراتيجية تساعد كلاً منهما على تحقيق المصالح الأساسية لأمته دون حرب.

إن العودة بشعب يتجاوز تعداده 1.4 مليار نسمة إلى عظمة ووجاهة حضارة عمرها خمسة آلاف عام ليست مشكلة يجب إصلاحها. إنها حالة. حالة مزمنة ينبغي تدبر أمرها والتعامل معها على مدار جيل كامل. النجاح في تحقيق ذلك يتطلب ما هو أكثر من مجرد شعار رنان، إنه يتطلب لقاءات قمة رئاسية متكررة ومتقاربة، ومزيدًا من الاجتماعات الإضافية لمجموعات عمل من الجانبين. إن إدارة أمر هذه العلاقة دون حرب تتطلب من مسؤولي الحكومتين عنايةً واهتمامًا مستدامين، أسبوعًا وراء أسبوع، وعلى أعلى المستويات. يتطلب الأمر أيضًا مستوى عميقًا من التفاهم المتبادل، وهو أمر لم يتكرر منذ محادثات هنري كيسنجر- شو إن لاي التي أعادت العلاقات بين الولايات المتحدة والصين في السبعينيات. والأكثر أهمية، أن المسألة تتطلب إجراء تغييرات جذرية، تفوق كل ما قُدِّم حتى اليوم، في ما يتعلق بتوجهات ونوايا وأفعال القادة والجماهير على حدٍ سواء. إن الإفلات من فخ ثيوسيديديز يوجب علينا أن نكون راغبين في أن نفكر في ما لا يجري التفكير فيه عادة، وقادرين على أن نتخيل ما لم نعتد تخيُّله سابقًا. إن الإفلات من فخ ثيوسيديديز في هذه الحالة لا يمكن أن يتحقق بأقل من تحويل اتجاه دفة التاريخ.



الجزء الأول

صعود الصين



الفصل الأول

اللاعب الأكبر في تاريخ العالم

أنتم لا تعرفون إطلاقًا إلى أي نوع من البشر ينتمي أولئك الأثينيون. إنهم يفكرون دومًا في مكائد جديدة، وهم سريعون في تنفيذها. إنهم يضعون الخطة: فإذا نجحت، لن يكون النجاح شيئًا يذكر، مقارنة بما سوف يفعلونه بعد هذا النجاح.

— خطاب سفير كورينثيا *Corinthia* أمام برلمان أسبرطة، *432* قبل الميلاد. من كتاب ثيوسيديديز

دعوا الصين نائمة، فعندما تستيقظ، سوف تهز العالم.

— نابليون، *1817*

بعد فترة وجيزة من تقلده مهام منصبه كمدير لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA، في أيلول/سبتمبر 2011، ذهبت إلى زيارة أكثر مديري هذا الجهاز نجاحًا في التاريخ الأمريكي المعاصر، في مكتبه بمدينة لانغلي Langley، بولاية فرجينيا Virginia. كنت قد تعرفت على الرجل، ديفيد بيتريوس David Petraeus، في الثمانينيات من القرن الماضي، عندما كان يُعِد رسالة الدكتوراه، وكنت أنا عميدًا لمدرسة كينيدي التابعة لجامعة هارفارد Harvard Kennedy School. لم تنقطع

العلاقة بيننا منذ هذا اللقاء، وقد مثلت السنوات التي تلت تعارفنا رحلة صعود له على سلم الترقي من رتبة إلى رتبة أرفع داخل الجيش الأمريكي، بينما واصلتُ أنا عملي الأكاديمي، بالإضافة إلى العمل لعدة دورات داخل البنتاغون. وبعد دردشة أولية حول منصبه الجديد، سألت ديفيد عما إذا كان حفظة الأسرار من الكوادر القديمة بالوكالة قد بدأوا في فتح صناديق كنوزهم أمام عينيه، أقصد بالطبع الملفات التي تحتوي على أكثر أسرار الحكومة الأمريكية خطورة، وأشدها تأمينًا. ابتسم ديفيد بثقة وقال: "يمكنك أن تراهن على ذلك". وتوقف، منتظرًا مني أن أضيف المزيد.

توقفت برهة ثم سألته عن معلوماته عن "الغارقون في النوم" deep sleepers، وهم أفراد جنَّدتهم الوكالة، وتتلخص مهمة كل منهم في السفر إلى دولة معينة، والعيش فيها في أمن وبحبوحة حتى يتمكن من إدراك أو استيعاب كل ما يتعلق بأبناء هذه الدولة، وثقافتها، وحكومتها، مع الالتزام بأن يكون مفيدًا للولايات المتحدة من خلال ممارسة عمله، دون أن يصدر عنه ما يثير الشكوك حوله. كما تطلب الوكالة من كل واحد من هؤلاء الأفراد أن يكون على أهبة الاستعداد لتزويدها، في أي وقت ودون إثارة الشكوك حوله، برؤيته الخاصة أو تحليله لما يجري داخل الدولة التي زُرِعَ على أرضها، وما قد يجري داخلها أو يصدر عنها، وهي مهمة قد لا تتكرر أكثر من مرة أو مرتين كل عشر سنوات.

كان ديفيد خلال هذه اللحظات ينحني إلى الأمام مستندًا إلى حافة الطاولة، عندما بسطتُ أمامه تقريرًا أعدَّه شخص يمتلك رؤية مستقبلية ثاقبة واضحة، يمكن أن تكون مرشدة لما يجب على الولايات المتحدة القيام به في مواجهة أعظم تحدٍ جيوبوليتيكي في عصرنا. وأخبرت المدير الجديد أن هذا الشخص قد حقق نجاحًا جاوز كل التوقعات. لقد عايش عن قرب الثورات الصينية المتعاقبة من القفزة العظيمة إلى الأمام(*) Great Leap

(*) حملة اقتصادية واجتماعية أطلقها الحزب الشيوعي الصيني بقيادة زعيمه التاريخي ماو تسي

Forward، والثورة الثقافية Cultural Revolution في الستينيات، إلى الرأسمالية المحورية أو المركزية التي أطلقها دينْغ شياو بينْغ(*) Deng Xiaoping في الثمانينيات. وأكثر من ذلك كله، أقام ذلك الشخص علاقات عمل جادة ومهمة مع عدد من القادة الصينيين، ومن بينهم الرجل الذي سوف يصبح رئيسًا للصين في ما بعد، شِي جينْ بينْغ.

وبدأت قراءة أول مجموعة من الأسئلة التي تتضمنها خمسون صفحة من الأسئلة والأجوبة المهمة التي لا غنى عنها:

- هل قادة الصين الحاليون جادون في إزاحة الولايات المتحدة عن مقعد القوة المؤثرة رقم واحد في آسيا، خلال فترة منظورة؟
- ما هي الاستراتيجية التي تتبناها الصين في سعيها لأن تصبح رقم واحد؟
- ما هي العقبات الرئيسية التي تعترض طريق الصين وهي تنفذ هذه الاستراتيجية؟
- ما مدى احتمالات نجاح الصين في تنفيذ تلك الاستراتيجية؟
- في حال نجاح الصين، ما تأثير ذلك النجاح على جيرانها في آسيا؟ وما هو تأثيره على الولايات المتحدة؟
- هل الصدام بين الولايات المتحدة والصين قدرٌ محتوم؟

لقد قدم هذا الشخص إجابات بالغة الأهمية على هذه الأسئلة، وأسئلة أخرى كثيرة. وأزاح الستار من جديد عن أفكار الزعامة الصينية. وقدم

تونغ Mao Zedong عام 1958، وتواصلت فعاليتها دون انقطاع حتى عام 1962. هدفت الحملة، التي بدأت عندما أيقن الجميع أن الصين تقف على حافة مجاعة مهلكة، إلى تحويل البلاد، بأقصى سرعة ممكنة، من مجتمع زراعي موغل في الفقر والتخلف، إلى مجتمع اشتراكي حديث، وذلك من خلال التصنيع industrialization، وتطبيق عقيدة المركزية الجماعية collectivization. (المعرِّب)

(*) دينغ شياو بينْغ (1904-1997) زعيم ومنظِّر اقتصادي وسياسي قاد الصين من 1978 إلى 1997، وإليه يرجع فضل تحديث الاقتصاد الصيني، وتبنّي فكرة اقتصاد السوق، ولكن بنكهة صينية خاصة، لا تنهي دور الدولة تمامًا، إذ تحفظ لها مهمة التخطيط والمتابعة، وأحيانًا التنفيذ. (المعرِّب)

تقديرًا واضحًا وواعيًا حول مخاطر وقوع صدام عنيف بين الدولتين في يوم من الأيام. كما قدم معلومات استخبارية عملية قابلة للتنفيذ، تستطيع أن تحول دون وقوع ما لا يمكن تخيُّل عقباه.

بطبيعة الحال، لم يكن لي كُوان يِوْ Lee Kwan Yew، الرجل الذي أعد هذا التقرير، جاسوسًا يعمل لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، بل كان ينتمي بعقله وقلبه وروحه إلى بلده، سنغافورة، غير أن رجل الدولة المعمِّر هذا، الذي توفي عام 2013، كان نبعًا للحكمة والحصافة، يختفي وراء مظهر عادي. كان التقرير الذي قدمتُه إلى ديفيد يتضمن مراجعة موجزة سريعة لكتاب "لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم" Lee Kwan Yew: The Grand Master's Insight on China, the United States, and the World، وهو كتاب ألّفتُه عام 2013، بالاشتراك مع كل من روبرت بلاكويل Robert Blackwill، وعلي وين Ali Wyne. كمؤسس وزعيم حَكم تلك المدينة-الدولة الصغيرة لفترة طويلة، تسلم لي كُوان يِوْ قرية صيادين صغيرة، فقيرة، لا قيمة لها، وحوَّلها إلى حاضرة حديثة. تلقّى لي، ذو الأصول الصينية، تعليمه في جامعة كامبريدج Cambridge University، فكان تجسيدًا لمزيج خاص من القيم الكونفوشيوسية(*)، وقيم الطبقة العليا الإنجليزية. وقد ظل لي كُوان يِوْ حتى وفاته عام 2015 أفضل مراقب للصين في العالم كله، دون أدنى خلاف حول تلك المكانة.

رؤية لي كُوان يِوْ الثاقبة لما كان يحدث في الصين، وبشكل أوسع ما كان يحدث في العالم كله، جعلت منه المستشار الاستراتيجي الأعظم احترامًا والأكثر طلبًا، لدى الرؤساء في جميع قارات العالم، بما في ذلك كافة الرؤساء الأمريكيين من ريتشارد نيكسون Richard Nixon إلى باراك

(*) القيم التي تنبع من فلسفة الحكيم الصيني الكبير كونفوشيوس (551-479 قبل الميلاد). تتمحور هذه الفلسفة، التي لم ترق إلى مستوى غيرها من الديانات غير السماوية، حول الأخلاق، والآداب، والمعاملات بين الناس، وبعض أسس إدارة شؤون المجتمع. (المُعرِّب)

أوباما. لم ينعكس فَهمُ لي كُوان يِوْ العميق للصين وشغفُه بدراستها على فطنته الاستراتيجية الفريدة فقط، على حد تعبير هنري كيسنجر[1]، بل كان له أثر على رغبته الشديدة في الإحاطة بأقصى ما يمكن الإلمام به من معلومات عن هذا المارد الغافي. ورغم أن اقتصاديات الصين وسياساتها لم تكن واضحة بدرجة كافية من خلال ماركسية ماو تسي تونغ الزراعية Mao's agrarian Marxism، كانت الصين صرحًا هائلاً يلقي بظله الكثيف فوق بلد لي، الجزيرة التي تناضل من أجل قدر من أشعة الشمس التي تحتاج إليها للاستمرار على قيد الحياة. كان لي كُوان يِوْ واحدًا من أوائل الذين أدركوا طبيعة الصين الحقيقية، وإمكاناتها الكامنة كاملة.

في نموذج لم يسبق له مثيل، درس زعماء الصين لي كُوان يِوْ وبلاده، كما درس هو الصين وزعماءها. في أواخر السبعينيات، عندما بدأ دينْغ شياو بينْغ التفكير في قيادة الصين على الطريق السريع نحو اقتصاد السوق، نظر الزعماء الصينيون إلى سنغافورة باعتبارها معملاً ليس فقط للنمو الاقتصادي، ولكن للتطور السياسي أيضًا. لقد أمضى لي كُوان يِوْ آلاف الساعات في نقاشات مباشرة مع زعماء، ورؤساء وزارات، ووزراء وزعماء صاعدين لجاره الشمالي، الصين[2]. جميع زعماء الصين، من دينْغ شياو بينْغ إلى شِي جينْ بينْغ اتفقوا على إطلاق لقب "الناصح الأمين"(*) "Mentor"، على لي كُوان يِوْ، وهو لقب يحظى بمكانة عالية وإجلال كبير في الثقافة الصينية.

العبرة الأكبر، والأكثر أهمية، التي أخذتُها عن لي كُوان يِوْ، ونقلتُها إلى المدير الجديد لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، تعالج السؤال الأكثر إثارة للمشاكل والجدل، في ما يتعلق بالمسار الصيني: ماذا يمثل ذلك التحول الصيني الدراماتيكي بالنسبة لتوازن القوى العالمي؟ يجيب لي كُوان

(*) يرجع الأصل اللغوي لكلمة Mentor الإنجليزية إلى الكلمة اليونانية القديمة "مَنْطور"، وهو اسم صديق أوديسيوس بطل الملحمة اليونانية الشهيرة الأوديسّا. تروي الأسطورة أن أوديسيوس عندما قرر الخروج إلى حرب طروادة، عهد بابنه تليماخوس إلى صديقه مَنْطور أمانة بين يديه حتى يعود، وتروي الأسطورة أن مَنْطور كان نِعم المعلم الناصح الأمين لابن صديقه. (المُعرِّب)

يِوْ بوضوح لا لبس فيه: "إن حجم التغيير الذي تحدثه الصين في ميزان القوى العالمي، يحتم على العالم إيجاد توازن جديد. من المستحيل أن نتظاهر بأن الصين مجرد لاعب كبير آخر. فنحن أمام اللاعب الأكبر في تاريخ العالم[3].

هل يمكن أن تتراجع الولايات المتحدة إلى المركز الثاني؟

في مُقرر الأمن القومي الذي أُدرِّسه في جامعة هارفارد، تبدأ محاضرتي عن الصين بإجراء امتحان سريع موجز. في السؤال الأول أطلب من الطلاب أن يقارنوا بين مركز كل من الصين والولايات المتحدة عام 1980، ومركز كل منهما حاليًا. وفي كل مرة كانت نتائج المقارنة صادمة بالنسبة للطلاب. إن نظرة واحدة على الجدول التالي الذي يتضمن أرقامًا تعود إلى عام 2015، تكفي لشرح سبب تلك الصدمة.

الصين اقتصاديًا، كنسبة مئوية للولايات المتحدة

	عام 1980	عام 2015
إجمالي الناتج المحلي	%7	%61
الواردات	%8	%73
الصادرات	%8	%151
الاحتياطي	%16	%3140

(هذه النسب مقدرة بالدولار الأمريكي، ومصدرها البنك الدولي)

فعلى مدى جيل واحد، استطاعت أمة لم يكن لها وجود على قوائم الهيئات المالية الدولية، أن تتصدر تلك القوائم، بل وأن تحتل أعلى نقطة فيها. في عام 1980، كان إجمالي الناتج المحلي الصيني gross domestic product (المعروف اختصارًا بـ GDP) أقل من 300 مليار دولار، ومع حلول عام 2015، وصل هذا الناتج إلى 11 تريليون دولار، ليصبح الاقتصاد

الصيني ثاني أكبر اقتصاد في العالم، وفقًا لمعدلات سعر الصرف في الأسواق. في عام 1980 كان حجم تجارة الصين مع العالم الخارجي أقل من 40 مليار دولار، ومع حلول عام 2015، تضاعف هذا الرقم مائة مرة، ليصل إلى 4 تريليونات دولار وفقًا لإحصاءات البنك الدولي[4]. ومنذ عام 2008، أصبحت زيادة النمو في الناتج المحلي الصيني كل عامين، أكبر من اقتصاد الهند بكامله[5]. حتى عندما وصل معدل نمو الاقتصاد الصيني إلى أدنى معدلاته عام 2015، كانت الصين تنتج كل ستة عشر أسبوعًا ما يعادل الاقتصاد اليوناني بكامله.

خلال سنوات النمو الكبير بين عامي 1860 و1913، عندما صدمت الولايات المتحدة العواصم الأوروبية بتجاوز بريطانيا العظمى، بعد أن أصبح الاقتصاد الأمريكي الاقتصاد الأكبر في العالم، كان متوسط معدل النمو السنوي 4 في المائة[6]. ومنذ عام 1980، ينمو الاقتصاد الصيني بمعدل 10 في المائة سنويًا. ووفقًا للمعادلات العلمية التي تستخدم لتقدير التوقيت اللازم لمضاعفة اقتصاد ما، أو مضاعفة استثمارات معينة، نجد أن الاقتصاد الصيني يتضاعف مرة كل سبع سنوات.

لندرك القيمة الهائلة لهذا النمو، نحتاج إلى جدول زمني أكثر اتساعًا. في القرن الثامن عشر، خرجت بريطانيا على العالم بالثورة الصناعية، التي خلقت ما نعرفه اليوم بالعالم الحديث. في عام 1776، نشر آدم سميث Adam Smith كتابه الشهير "ثروة الأمم" The Wealth of the Nations، يشرح فيه كيف استطاعت رأسمالية السوق، أن تُنشِئ، بعد ألفية من الفقر، ثروة وطبقة متوسطة جديدة. بعد سبعة عشر عامًا، وصل إلى الصين مبعوث خاص من الملك جورج الثالث George III، (وهو نفسه جورج المجنون، الذي خسر معارك الثورة الأمريكية) ليقترح على الصينيين إقامة علاقات بين الدولتين. في هذا التوقيت، كانت إنتاجية العمال البريطانيين تفوق إنتاجية نظرائهم الصينيين بدرجة هائلة[7]. كان تعداد الصينيين كبيرًا، كما هو حالهم عبر القرون، لكنهم كانوا فقراء. في نهاية كل يوم عمل،

كانت إنتاجية العامل الصيني تكفي بالكاد نفقات طعامه وطعام أسرته، تاركًا فائضًا ضئيلاً نسبيًا للدولة، تدفع منه رواتب الجنود، أو تنفقه على معدات حربية مثل الأسطول (وهو أمر لم يقدم عليه أباطرة الصين على مدار أكثر من أربع ألفيات، تستثنى من ذلك فترة لا تتجاوز نصف قرن) لاستعراض القوة خارج حدودهم. اليوم، تقدر إنتاجية العامل الصيني بربع إنتاجية العامل الأمريكي، فإذا وصلت تلك الإنتاجية خلال عقد أو عقدين، إلى نصف إنتاجية العامل الأمريكي، سوف يصبح حجم الاقتصاد الصيني ضعف حجم الاقتصاد الأمريكي. وإذا استطاع العمال الصينيون مضاهاة إنتاجية العامل الأمريكي، سوف يصبح لدى الصين اقتصاد يصل إلى أربعة أمثال الاقتصاد الأمريكي.

تُمثِّل هذه العملية الحسابية الابتدائية مشكلة جوهرية لجهود واشنطن الرامية إلى إعادة التوازن مع الثقل المتنامي للصين. في عام 2011، نفخت وزيرة الخارجية آنذاك هيلاري كلينتون Hilary Clinton النفير ودقت الطبول معلنة عن منعطف جديد للسياسة الخارجية الأمريكية، يتحول بمقتضاه اهتمام الولايات المتحدة ومصادرها من الشرق الأوسط إلى آسيا[8](*). وكما قال الرئيس بارك أوباما: "بعد عقد من الزمان خضنا خلاله حربين دفعنا خلالهما ثمنًا باهظًا من الأرواح والأموال، تُحوِّل

(*) "كانت سياسة الأمن القومي الأمريكي على مدار الربع قرن الأخير منحازة جغرافيًا، الأمر الذي سبب خللاً استراتيجيًا واضحًا. فقد سخّرت الولايات المتحدة معظم اهتماماتها الدبلوماسية والعسكرية على مدار خمسة وعشرين عامًا لصالح الشرق الأوسط: حربان في العراق، وصراع طويل الأمد في أفغانستان، ومحاولات للتوصل إلى سلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، واتفاقية للتقليل من حجم برنامج إيران النووي، والتعامل مع تبعات الربيع العربي. خلق هذا الانحياز شعورًا لدى أصدقاء أمريكا وخصومها في آسيا بأن منطقتهم لم تعد تمثل أولوية بالنسبة للولايات المتحدة. وقد اكتسب هذا الإحساس مزيدًا من القوة عندما قارن هؤلاء بين تصرفات الولايات المتحدة تلك، وجهود الصين المتزايدة للعب دور فاعل من خلال المنظمات الاقتصادية الإقليمية، وأنشطتها العسكرية، وفوق ذلك كله، تمسكها بمطالبها الخاصة بحقوق خاصة في المجال الجوي وفي عدة جزر في بحر الصين الجنوبي وبحر الصين الشرقي." (ريتشارد هاس Richard Hass، في كتابه "عالمٌ في حيص بيص"، تعريب وتعليق إسماعيل بهاء الدين سليمان، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 2017)

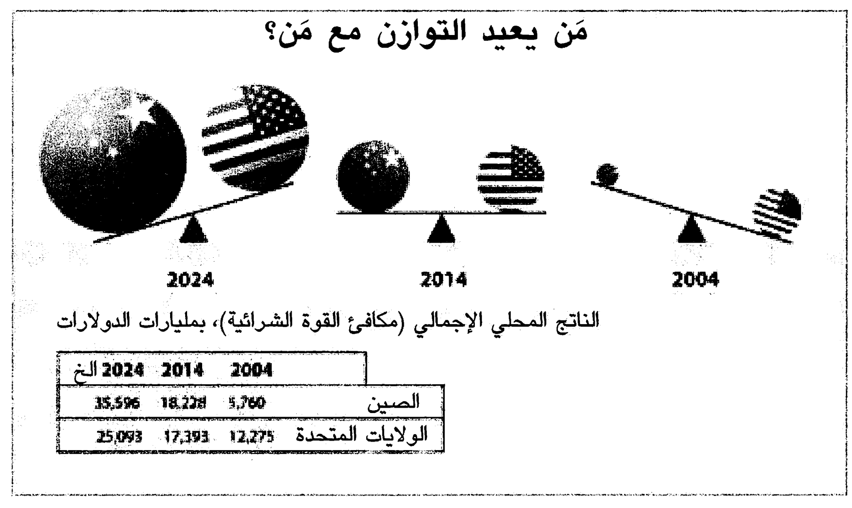
الولايات المتحدة تركيزها إلى منطقة آسيا-الباسيفيك بإمكانياتها الكبيرة الواعدة"[9]. ووعد أوباما بزيادة الوجود الأمريكي في المنطقة، دبلوماسيًا، واقتصاديًا، وعسكريًا، مؤكدًا تصميم الولايات المتحدة على أن تعيد إلى المنطقة التوازن الذي أخلّ به صعود الصين. واعتبر أوباما "إعادة التوازن" هذا، إنجاز إدارته الأكبر والأهم، في مجال السياسة الخارجية(*).

قاد هذه المبادرة كيرت كامبيل Kurt Campbell مساعد وزير الخارجية في إدارة أوباما ووزيرة خارجيته هيلاري كلينتون. وفي كتابه "التحول: مستقبل فن السياسة الأمريكية في آسيا" الذي صدر عام 2016، يبذل كامبيل أقصى ما في وسعه من أجل إثبات أن عملية التحول هذه كانت أكثر من مجرد "فكرة طموحة". ورغم ما بذله كامبيل من جهود في هذا المجال، عجز عن تقديم المؤشرات التي تدعم فرضيته. فإذا ما استخدمنا مقاييس أو مؤشرات مثل المساحة الزمنية التي حظيت بها هذه المبادرة من وقت الرئيس، أو الوقت الذي خصصه أعضاء مجلس الأمن القومي ومساعدوهم لمناقشتها، أو اللقاءات الشخصية المباشرة مع زعماء المنطقة، أو الميزانية التي خصصت لتنفيذها، سوف يكون من العسير جدًا أن نقرر أن هذا التحول قد وقع بالفعل، أو أنه قد وجد لمفرداته موضع قدم على أرض الواقع. لقد تضافرت الحرب الدائرة في العراق وأفغانستان، مع الحرب الجديدة في سوريا، والحرب على داعش على اتساع خريطة الشرق الأوسط، لتشكل جميعها حزمة واحدة تحتكر أجندة السياسة الخارجية الأمريكية، وتهيمن على نهار الرئيس وليله، طوال أعوام حكمه

(*) "هي وقفة أريدَ منها إرسال إشارة مفادها أن عصر التركيز المبالغ فيه على قضايا الشرق الأوسط قد انتهى. كان المفهوم نفسه صحيحًا، رغم أن طريقة عرضه أصابت بالقلق شركاء الولايات المتحدة التقليديين في أوروبا والشرق الأوسط، دون أن تنجح في إعادة الثقة والطمأنينة إلى شركائها في آسيا." (ريتشارد هاس Richard Hass، في كتابه "عالَمٌ في حيص بيص"، تعريب وتعليق إسماعيل بهاء الدين سليمان، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 2017). (المعرب)

الثمانية. وقد وصف أحد مسؤولي البيت الأبيض في عهد أوباما تلك الفترة، مؤخرًا، بقوله: "لم نشعر قط أننا قد تحولنا عن الشرق الأوسط. فما يقرب من 80 في المائة من اجتماعاتنا الرئيسية داخل مجلس الأمن القومي كانت تركز على الشرق الأوسط"(10).

حتى لو لم يكن اهتمام أمريكا منصبًا على مكان آخر، كانت واشنطن ستعاني كثيرًا من أجل التغلب على قوانين الجاذبية الاقتصادية. فلنقارن بين الوزن النسبي للاقتصاد الأمريكي والوزن النسبي للاقتصاد الصيني كما لو كانا كتلتين متنافستين على طرفي أرجوحة(*). النتيجة مؤلمة، بقدر ما هي واضحة. يتجادل الأمريكيون في ما بينهم منذ فترة، حول ما إذا كان يتعين عليهم تخفيف الحِمْل عن قدمهم اليسرى (الشرق الأوسط) من أجل تحميل القدم اليمنى (آسيا) حِمْلًا إضافيًا. في الوقت نفسه، تواصل الصين النمو،



	2004	2014	2024 الخ
الصين	5,760	18,228	35,596
الولايات المتحدة	12,275	17,393	25,093

المصدر: صندوق النقد الدولي، ووحدة البحوث الاقتصادية التابعة لمجلة ذي إيكونوميست.

(*) لعبة من ألعاب الأطفال التي تنتشر في الحدائق العامة والخاصة، وهي تتكون من لوح خشبي يرتكز عند المنتصف على كتلة تحفظ له توازن طرفيه. للعب عليها، يجلس كل طفل عند نهاية كل طرف من الطرفين، فيتأرجحان، صعودًا وهبوطًا، وفقًا لوزن كل منهما. (المُعرِّب)

بمعدل يساوي ثلاثة أمثال معدل النمو الأمريكي. نتيجة لهذا الوضع، يميل الطرف الأمريكي من النَوَّاسة إلى الارتفاع بدرجة سوف تجعل القدمين معلقتين في الهواء، قريبًا جدًا.

هذا هو المغزى المبطّن للسؤال الأول من أسئلة الامتحان السريع الموجز. ثم يجيء السؤال الثاني لينقض مزيدًا من الأوهام. يقول السؤال: متى يمكن أن تجد الولايات المتحدة نفسها في المرتبة الثانية؟ في أي عام يمكن للصين أن تتغلب على الولايات المتحدة، لتصبح رقم واحد في سوق السيارات، وأكبر سوق للسلع الترفيهية الفاخرة، أو لتصبح الاقتصاد الأكبر في العالم، وكفى؟

أصاب الذهول غالبية الطلبة عندما علموا أن معظم المؤشرات تشير إلى أن الصين قد تجاوزت الولايات المتحدة بالفعل. لقد أصبحت الصين أكبر منتج للسفن، والصلب، والألومنيوم، والأثاث، والغزل والنسيج، والملابس، والهواتف المحمولة، وأجهزة الكومبيوتر. باختصار، أصبحت الصين الـمُصَنِّع الرئيسي في العالم[11]. تزايدت دهشة الطلاب عندما اكتشفوا أن الصين قد أصبحت أيضًا المستهلك الأكبر في العالم لمعظم المنتجات. صحيح أن أمريكا هي مسقط رأس صناعة السيارات، غير أن الصين اليوم هي أكبر مُصَنِّع للسيارات، وأكبر سوق لتجارتها، في آن واحد. لقد اشترى المستهلكون الصينيون عشرين مليون سيارة عام 2015، وهو ما يزيد ثلاثة ملايين سيارة على عدد السيارات التي بيعت في الولايات المتحدة[12]، خلال العام نفسه. الصين أيضًا سوق الهواتف المحمولة الأكبر في العالم، وهي أكبر ساحة للتجارة الإلكترونية e-commerce، كما أنها تضم أكبر عدد من مستخدمي الإنترنت[13]. لقد استوردت الصين من البترول، واستهلكت من الطاقة، وأقامت من محطات الطاقة الشمسية، أكثر من أي دولة أخرى[14]. ونصل إلى أكثر ما يجرح الأمريكيين ويشوه الصورة التي يرسمونها لأنفسهم ووطنهم: ففي عام 2016، بينما كان العالم يعاني من الأزمة

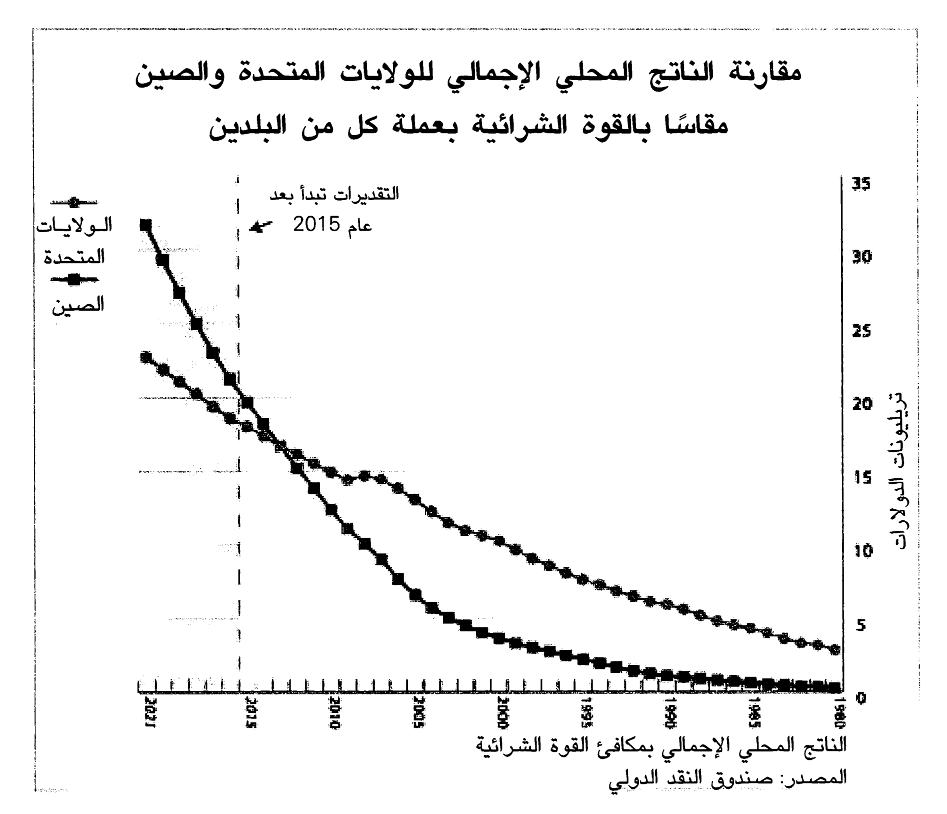
الاقتصادية التي بدأت عام 2008، واصلت الصين دورها كقوة دافعة أساسية للنمو الاقتصادي العالمي[15].

لكن، هذا مستحيل!

بالنسبة للأمريكيين الذين ولدوا وترعرعوا في عالم تحتل أمريكا فيه المرتبة الأولى، وهو ما يعني، حرفيًا، كل من وُلِد منذ عام 1870، تبدو فكرة أن الصين تستطيع أن تزيح الولايات المتحدة عن تلك القمة لتحتلها هي، فكرة غير واردة على الإطلاق. فالكثير من الأمريكيين يؤمنون بأن احتلال مركز الصدارة على ساحة الاقتصاد العالمي حقٌّ غير قابلٍ للتحويل، إلى درجة أن هذه الصدارة، أصبحت جزءًا من الهوية القومية.

ارتباط أمريكا الوثيق بموقعها على قمة العالم هو التفسير المنطقي لتلك العاصفة النارية التي انفجرت في اجتماعات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في واشنطن عام 2014، عندما أصدر صندوق النقد الدولي، المعروف اختصارًا باسم IMF، تقريره السنوي عن الاقتصاد العالمي. عندما نقلت وسائل الإعلام عن التقرير قوله: "أمريكا الآن هي رقم اثنان"، وعندما أطلقت مجلة "ماركِتْ ووتش" MarketWatch صرخة تقول: "ليست هناك طريقة مُلَطَّفة لقول ذلك، لهذا سوف نقولها كما هي: نحن لم نَعُدْ رقم واحد"[16]، وعندما لخصت صحيفة الفايننشال تايمز Financial Times رسالة الصندوق بطريقة صارمة ومتجهِّمة: "إنها حقيقة موثقة الآن. وفقًا لتقديرات صندوق النقد الدولي لعام 2014، وصل حجم الاقتصاد الأمريكي إلى 17.4 تريليون دولار، بينما وصل حجم الاقتصاد الصيني إلى 17.6 تريليون دولار." ولفتت الصحيفة الانتباه إلى أنه "في عام 2005 فقط، كان حجم الاقتصاد الصيني أقل من نصف حجم الاقتصاد الأمريكي، غير أن صندوق النقد الدولي يتوقع أن يزيد حجم الاقتصاد الصيني بنسبة 20 في المائة، عام 2019."

لتقدير حجم الاقتصاد الصيني، استخدم صندوق النقد الدولي المعيار المعروف باسم مقياس تكافؤ القوة الشرائية(*) purchasing power parity، المعروف اختصارًا باسم PPP، وهو المقياس الذي تستخدمه المؤسسات والهيئات الدولية الرئيسية، التي يدخل في نطاق مسؤولياتها إجراء مقارنات بين اقتصادات الدول المختلفة. وكما تؤمن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، فإن هذا المقياس "يوفر أفضل نقطة انطلاق ممكنة للمقارنة بين القوة الاقتصادية ومستوى الرفاهية بين الدول". من ناحيته، يشرح



(*) القوة الشرائية لعملة معينة هي الكمية النسبية من السلع أو الخدمات التي تستطيع وحدة محددة من هذه العملة شراءها، خلال فترة زمنية محددة، مقارنة بما كانت الوحدة نفسها تستطيع شراءه خلال فترة أو فترات سابقة. وبالطبع تزداد القوة الشرائية للعملة كلما انخفضت الأسعار، والعكس صحيح. (المُعرِّب)

صندوق النقد الدولي أهمية هذا المقياس: "إن معدلات سعر الصرف في الأسواق متقلبة، سريعة التغير، ومن ثَمّ يمكن أن يسفر استخدام هذه المعدلات عن تذبذبات كبيرة في مؤشرات النمو الإجمالية، حتى في حالة ثبات معدل النمو في كل دولة على حدة. لهذا، يسود الاتفاق على اعتبار مقياس تكافؤ القوة الشرائية الوسيلة الفُضْلى لقياس الرفاهية". وباستخدام مقياس تكافؤ القوة الشرائية، نجد أن الصين لم تتجاوز فقط الولايات المتحدة وتتفوق عليها، لكنها أصبحت تمتلك تقريبًا 18 في المائة من إجمالي الناتج المحلي لدول العالم بأسره، مقارنة بما كانت تمتلكه عام 1980، وهو 2 في المائة.

استفز إعلان صندوق النقد الدولي، أولئك الذين يرون أن منزلة أمريكا ركن من أركان الإيمان، فانطلقوا يبحثون عن طريقة قياس أخرى، يمكن من خلالها إثبات أن الولايات المتحدة لا تزال رقم واحد. من بين هذه المقاييس، إجمالي الناتج المحلي للفرد GDP per capita، الذي يأخذ في الاعتبار نوعية الحياة ودرجة الرفاهية، وهو نسخة منطقية مطوَّرة عن المقياس السابق الذي كان يقيس إجمالي الناتج المحلي وفقًا لمعدلات سعر الصرف في الأسواق. ولأن عددًا من الزملاء الذين يحظون باحترام أكاديمي يختلفون مع هذا المقياس، سألت الأستاذ ستانلي فيشر Stanley Fischer، الرائد الأكاديمي وأبرز محافظي البنك المركزي على مستوى العالم (الأستاذ السابق بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology، المعروف اختصارًا باسم MIT)، عن الطريقة المثلى لتقدير ثقل اقتصاد الولايات المتحدة بالنسبة لاقتصاد الصين. لقد ألف فيشر مرجعًا مهمًا عن الاقتصاد الكُلّي macroeconomics، وهو المُعلِّم الذي تخرَّج على يديه كل من بِن بِرْنانكي Ben Bernanke (الرئيس السابق لمنظومة الاحتياطي المركزي الأمريكي)، وماريو دراغي Mario Draghi (رئيس البنك المركزي الأوروبي)، ويشغل الآن منصب نائب رئيس الاحتياطي المركزي الأمريكي. لهذا كله، هو رجل يعرف عما يتحدث. يرى فيشر أن مقياس

تكافؤ القوة الشرائية هو عن حق أفضل معيار، ليس فقط لتقدير نسبية قوة اقتصادية، بل "وللمقارنة بين أحجام الاقتصادات الوطنية". ويضيف فيشر: "في مجال تقدير الاحتمالات الممكنة للقوة العسكرية المُقارنَة على نحو خاص، يُعَدُّ مقياس تكافؤ القوة الشرائية الخيارَ الأفضل. فمن خلاله نستطيع أن نعرف كم الطائرات، والصواريخ، والسفن، والطيارين، والطائرات التي تعمل بدون طيار، والقواعد العسكرية، وغيرها من المعدات والإمكانيات العسكرية، التي تستطيع دولة ما شراءها، والأثمان التي يجب أن تدفعها بعملتها الوطنية"[17]. من ناحية أخرى، يرى التقرير السنوي المرجعي الموثوق فيه، الذي يصدره المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية International Institute for Strategic Studies بعنوان "التوازن العسكري 2016"، أن الصين وروسيا هما أعلى الأصوات المطالبة باستخدام مقياس تكافؤ القوة الشرائية.

في الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب، تحظى كلمة "التباطؤ" slowdown لوصف الاقتصاد الصيني بأفضلية واضحة لدى وسائل الإعلام الغربي. إن أية عملية بحث عن مصطلح "الاقتصاد الصيني" في الصحف المتخصصة، خلال الفترة من 2013 إلى 2016، سوف تكشف أن كلمة "تباطؤ" هي أكثر كلمة استخدمت لوصف ما يجري هناك. السؤال الذي يتوقف القليلون عنده هو: التباطؤ، بالمقارنة مع من؟ فخلال الفترة نفسها، كان النعت المفضل لدى وسائل الإعلام الأمريكية لوصف أداء الاقتصاد الأمريكي هو أنه "يتعافى" recovering. المقارنة بين "التباطؤ" الصيني، و"التعافي" الأمريكي، تطرح سؤالاً آخر: هل تباطأ الاقتصاد الصيني حتى وصل معدلُ نموِّه إلى معدل نمو الاقتصاد الأمريكي؟ أم إلى معدل يزيد قليلاً على معدل النمو الأمريكي؟ أم إلى معدل يزيد كثيرًا جدًا على المعدل الأمريكي؟

من المؤكد أن الاقتصاد الصيني قد تباطأ بالفعل منذ الأزمة الاقتصادية والركود الكبير عام 2008، فقد تراجع من 10 في المائة خلال العقد السابق لعام 2008، إلى المعدلات الحالية التي تتراوح بين 6 و7 في

المائة عامي 2015 و2016. ولكن، بينما تناقص معدل نمو الاقتصاد الصيني بنسبة تقارب الثلث، مقارنة بالمستوى الذي وصل إليه قبل عام الأزمة، تراجع معدل نمو الاقتصاد العالمي بما يقارب النصف تقريبًا. الاقتصاد الأمريكي، الذي وُصِف بـ"المُتعافي"، ينمو بمعدل لا يتجاوز 2.1 في المائة في السنوات التي تلت الركود الكبير. في الوقت نفسه، لم تتجاوز معدلات نمو دول الاتحاد الأوروبي 1.3 في المائة سنويًا، ولا تزال متسمة بالركود. الأمر نفسه ينطبق على اليابان، التي لم يتجاوز معدل نموها الاقتصادي خلال الفترة نفسها 1.2 في المائة[18]. وسط كل هذه الضجة المثارة حول تباطؤ الاقتصاد الصيني، ينبغي علينا أن نتذكر حقيقة لا يمكن تجاهلها، لفرط وضوحها: منذ عام الركود الكبير، تحقق 40 في المائة من إجمالي النمو الاقتصادي للعالم كله، في دولة واحدة فقط: الصين[19].

هل يمكن بناء روما في أسبوعين فقط؟

في عام 1980، كان عدد زوّار الصين من الأمريكيين قليلاً جدًا. كانت الصين قد فتحت، للتو، أبوابها أمام الغرب، غير أن ترتيبات السفر كانت صعبة. الذين ذهبوا إلى الصين في تلك الفترة وجدوا أمامهم دولة تبدو كما لو كانت قد اقتلعت للتو من الماضي السحيق: دولة مترامية الأطراف، ريفية، جامدة، مبهمة، ونائمة. لقد شاهدوا بيوتًا بنيت من أعواد البامبو، وكتلاً متداعية من البنايات التي تحتوي على شقق سكنية، بنيت على النموذج السوفييتي، وشوارع مزدحمة بأعداد هائلة من الدراجات، يرتدي راكبوها ثيابًا متطابقة، تحاكي ثياب ماو تسي تونغ الباهتة. كان السائحون الذين خاطروا بالقدوم عن طريق البحر من هونغ كونغ Hong Kong يشاهدون أمامهم حقول غوانغزو Guangzhou، وشينزين Shenzhen التي ترقِّطُها مجموعة من القرى الصغيرة. كان الأمريكيون يرصدون، حيثما توجهوا، فقرًا مدقعًا: 88 في المائة من الصينيين الذين يبلغ تعدادهم مليار نسمة، يكابدون مشقة العيش بدخل لا يتجاوز 2 دولار في اليوم بحسب أرقام البنك الدولي، وهو وضع يعيشونه منذ ألف عام قبل الثورة الصناعية.

اليوم، تزدحم شوارع بيجين، التي كانت يومًا خاوية، بنحو ستة ملايين سيارة. هنا، يسترجع هنري كيسنجر، وزير الخارجية الذي لعب دورًا رئيسيًا في إعادة فتح الصين أمام الغرب، ذكريات مهمته الدبلوماسية إلى الصين في بداية السبعينيات، قائلاً: "لو أن إنسانًا عرض عليّ آنذاك، صورة لبيجين كما تبدو اليوم، وقال لي إن هذا ما سوف تبدو عليه بيجين بعد خمسة وعشرين عامًا من اليوم، لقلت هذا مستحيل تمامًا". لقد تحولت قرية شينزين إلى مدينة عصرية هائلة يسكنها أكثر من عشرة ملايين مواطن، وتنافس أسعار العقارات فيها، أسعار العقارات في وادي السليكون(*). رئيس الوزراء الأسترالي السابق كيفين رودّ Kevin Rudd، الذي يُعَدُّ واحدًا من المراقبين الجيدين للصين، وصف التطور الهائل الذي حدث في الصين قائلاً: "وكأن الثورة الصناعية البريطانية، وثورة المعلومات العالمية، قد انفجرتا في توقيت متزامن، وانضغطتا في ثلاثين عامًا فقط، لا في ثلاثمائة عام"[20].

عندما يتذمر المواطن الأمريكي من طول الفترة التي يستغرقها بناء بناية أو إصلاح طريق، غالبًا ما تردّ السلطات قائلة: "إن روما لم تُبْنَ في يوم واحد". من الواضح أن أحدًا لم يأخذ على عاتقه مسؤولية إبلاغ الصينيين بهذه المعلومة المهمة. فمع حلول عام 2005، كانت الصين تبني في أسبوعين فقط، مساحة تعادل مساحة مدينة روما الحالية[21]. وفي ما بين عامي 2011 و2013، أنتجت الصين واستخدمت كميات من الأسمنت، تعادل ما أنتجته الولايات المتحدة واستخدمته خلال القرن العشرين بكامله[22]. وفي عام 2011 أيضًا، بنت شركة صينية ناطحة سحاب تتكون من ثلاثين طابقًا في 15 يومًا فقط. بعد ثلاث سنوات، بنت شركة مقاولات معمارية أخرى، ناطحة سحاب تتكون من 57 طابقًا، في 19 يومًا[23]. لقد

(*) وادي السليكون Silicon Valley، منطقة تقع في الجزء الجنوبي من خليج سان فرانسيسكو في ولاية كاليفورنيا الأمريكية، تضم مقار الشركات الكبرى العاملة في مجال الكومبيوتر، وتكنولوجيا المعلومات، كما تضم مساكن العدد الأكبر من العاملين في هذه الشركات. (المُعرِّب)

استطاعت الصين أن تبني في 15 عامًا مناطق سكنية تعادل مجموع المناطق السكنية التي تضمها أوروبا بأكملها[24].

لقد اعترف توماس فريدمان Thomas Friedman، محرر صحيفة نيويورك تايمز New York Times الشهير، أنه شهق من فرط الدهشة عندما شاهد لأول مرة قاعة تيانجين ميجيانغ Tianjin Meijiang للمعارض والمؤتمرات "المشيدة بضخامة والمؤثثة بجمال"، التي بنيت خلال 8 أشهر فقط، لتستضيف المؤتمر الصيفي للمنتدى الاقتصادي العالمي World Economic Forum عام 2010. تأمل فريدمان هذا الإنجاز الهائل بذهول يمتزج بحزن وقلق. لقد استغرق بناء هذه القاعة فترة تماثل تمامًا الفترة التي استغرقتها عملية إصلاح اثنين من السلالم المتحركة، يتكون كل منهما من إحدى وعشرين درجةً، في آخر محطات الخط الأحمر لمترو واشنطن، بالقرب من منزله بولاية ميريلاند[25].

لقد أفرد فريدمان فصلاً كاملاً في كتابه "ساخنة، منبسطة، ومزدحمة" Hot, Flat, and Crowded، لرؤية تخيُّلية للإصلاحات الواسعة المدى التي يمكن للولايات المتحدة القيام بها لو "عاشت صينًا ليوم واحد". إن الصين تنجز اليوم في ساعات، ما يستغرق إنجازه في الولايات المتحدة أعوامًا. حقيقة أجد نفسي مجبرًا على تذكرها كل يوم، عندما أشاهد الجسر الذي يقام على نهر تشارلز Charles River ليربط بين مكتبي في مدرسة كينيدي بجامعة هارفارد، ومدرسة إدارة الأعمال بالجامعة نفسها. لقد مضت أربع سنوات ولا يزال الجسر قيد الإنشاء، بما يسببه ذلك من اختناقات مرورية. في تشرين الثاني/نوفمبر 2015، أزالت الصين جسر سانيوان Sanyuan Bridge الهائل، الذي يصل وزنه إلى 1300 طن، ووضعت مكانه جسرًا جديدًا، في 43 ساعة فقط[26]. بشكل عام، شَقَّت الصين بين عامي 1996 و2016، طرقًا يبلغ طولها 2.6 مليون ميل، من بينها 70 ألف ميل من الطرق السريعة، التي تربط بين 95 في المائة من قرى الصين، لتتجاوز الولايات المتحدة، وتصبح الدولة التي تملك أكبر شبكة من الطرق

السريعة في العالم، حيث تزيد الشبكة الصينية على الشبكة الأمريكية بنحو 50 في المائة[27].

على صعيد آخر، أنشأت الصين، خلال العقد الأخير، أطول شبكة للسكك الحديدية الخاصة بالقطارات الفائقة السرعة على مستوى العالم: 12000 ميل من الخطوط الحديدية التي تنقل المسافرين بين المدن، بسرعة 180 ميلاً في الساعة. إذا ما مُدّ هذا الخط في الولايات المتحدة، فسوف يغطي ضعف المسافة بين نيويورك وكاليفورنيا، ذهابًا وإيابًا. وبقطار تبلغ سرعته 180 ميلاً في الساعة، يستطيع الإنسان أن يقطع المسافة بين محطة القطارات الرئيسية في مدينة نيويورك Grand Central Terminal، ومحطة القطارات الرئيسية في العاصمة واشنطن Union Station، في نحو ساعة، وأن يقطع المسافة بين بوسطن وواشنطن في نحو ساعتين. إن ما تمتلكه الصين الآن من خطوط حديدية مخصصة للقطارات الفائقة السرعة، يفوق ما تمتلكه دول العالم مجتمعة من هذه الخطوط[28]. على صعيد الولايات المتحدة، وخلال الفترة نفسها 1996–2016، خاضت كاليفورنيا نضالاً حامي الوطيس من أجل إنشاء خط حديدي مفرد للقطارات الفائقة السرعة، يربط بين لوس آنجلوس وسان فرانسيسكو، بطول 520 ميلاً. لقد وافق المواطنون في استفتاء عام على إنشاء هذا الخط عام 2008، غير أن سلطات الولاية اعترفت مؤخرًا أن المشروع لا يمكن أن يكتمل قبل عام 2029، بتكلفة تصل إلى 68 مليار دولار، وهو ما يعني زيادة الميزانية التي أعلن عنها من قبل بمقدار 35 مليار دولار، وزيادة الفترة اللازمة لتنفيذ المشروع بمقدار 9 سنوات. على الجانب الآخر، في الفترة التي سيستغرقها إنشاء هذا الخط، تخطط الصين للانتهاء من إنشاء 16 ألف ميل جديدة من خطوط السكك الحديدية الفائقة السرعة.

وفي ما يتجاوز الإنجازات التي تتمثل في ناطحات السحاب، والجسور، وخطوط القطارات الفائقة السرعة، يبرز الأثر الإيجابي الرائع للتقدم الذي حققته الصين في مجالات التنمية البشرية. فمنذ جيل واحد

فقط، كان 90 من بين كل 100 مواطن صيني يعيشون على أقل من دولارين في اليوم. حاليًا، يقل عدد مَن يعيشون عند هذا الخط عن 3 من بين كل 100 مواطن. لقد ارتفع مستوى دخل الفرد في الصين من 193 دولارًا عام 1980، إلى ما يزيد على 8100 دولار حاليًا. وفي تقرير صدر عام 2010، لرصد ما تحقق من أهداف الأمم المتحدة الإنمائية للألفية، في ما يتعلق بتحسين أوضاع المواطنين الأكثر فقرًا حول العالم، يقول روبرت زويليك Robert Zoellick، رئيس البنك الدولي: "لقد نجحت الصين في إخراج أكثر من نصف مليار نسمة من حالة الفقر المدقع، بين عامي 1981 و2004، وهذه دون أدنى شك أكبر قفزة في سباق القضاء على الفقر على مر العصور".

تعكس السياسات التي تطبقها الصين في مجالات التعليم، والرعاية الصحية، وغيرها من المؤشرات ذات الصلة، تطورات مماثلة في ما يتعلق بتحسين مستوى معيشة المواطنين. في عام 1949، كان العمر المتوقع للمواطن الصيني ستًا وثلاثين سنة، وكان ثمانية من بين كل عشرة مواطنين لا يستطيعون القراءة. مع حلول عام 2014، تضاعف العمر المتوقع للمواطن الصيني، ليتجاوز ستًا وسبعين سنة، وأصبح 95 في المائة من عدد السكان يجيدون القراءة والكتابة. إذا واصلت الصين السير على طريق النمو والتطور الذي تسلكه حاليًا سوف يتضاعف مستوى معيشة المواطن الصيني خلال فترة حياته. على الجانب الآخر، إذا استمر معدل نمو دخل الفرد في الولايات المتحدة على ما كان عليه خلال العقد الماضي، سوف يحتاج المواطن الأمريكي إلى 740 عامًا، قبل أن يشهد مستوى معيشته تحسنًا مماثلاً. وكما شرحت مجلة الإيكونومست The Economist لقرائها أكثر من مرة: لأول مرة في التاريخ المعاصر، تكون آسيا أكثر ثراءً من أوروبا، في ما يتعلق بتراكم ثروات الأفراد. ومن المتوقع أن تتفوق آسيا على أمريكا الشمالية عام 2020 تقريبًا، بسبب الصين، التي تُعَدُّ القوة الدافعة الرئيسية لتراكم الثروة (التي تتضمن إجمالي الممتلكات المالية للعائلات)[29].

بين غمضة عين للتاريخ وانتباهها، لم تتوقف آثار النمو الاقتصادي

الصيني عند حد انتشال مئات الملايين من ضائقة الفقر فقط، لكنه أدى إلى ظهور طبقة جديدة، تضم عددًا غير عادي من المليونيرات والمليارديرات. ويكفي أن نعرف أن الصين قد تجاوزت الولايات المتحدة، لتصبح منذ عام 2015 الدولة التي تضم بين سكانها أكبر عدد من المليارديرات، وهي تضيف الآن إلى تلك القائمة مليارديرًا جديدًا كل أسبوع(30). وفي الوقت الذي يُعَدُ الصينيون من بين أشد المدَّخرين في العالم، حيث تدَّخر الأسرة الصينية أكثر من 30 في المائة من دخلها المتاح، لا يستطيع أحد أن يتخيَّل ما يمكن أن يقوله كارل ماركس Karl Marx إذا عرف كم من الصينيين "الشيوعيين" يتعاملون مع برادا(*) Prada. لقد اشترى المتسوقون الصينيون، عام 2015، نصف ما بيع في العالم كله من السلع الكمالية الباهظة الثمن(31)، لذا كان من الطبيعي أن تنظر شركات مثل لوي فيتون Louis Vuitton، وشانيل Chanel، وغوتشي Gucci، إلى الصينيين باعتبارهم العملاء الأساسيين. كما أنه أمر طبيعي أن شركات مثل سوثبي Sotheby وكريستي Christie، لم تعد تعقد مزادات معروضاتها الباهظة الثمن في نيويورك ولندن، بل في بيجين وشنغهاي.

ثورة العلوم والتكنولوجيا

قبل جيل واحد فقط، كانت الصين تستقر عند القاع، وفقًا لمعظم التصنيفات الدولية الخاصة بمستويات التعليم، والعلوم، والتكنولوجيا، والابتكار. ولكن، بعد عقدين من الاستثمار بعزم وإصرار في مجال ثروة البلاد البشرية، أصبحت الصين، منافسًا قويًا على الساحة العالمية، حيث تقف اليوم ندًا

(*) شركة إيطالية، أسسها ماريو برادا Mario Prada عام 1913، وهي تمتلك حاليًا 618 متجرًا حول العالم، تبيع أرقى وأغلى أنواع الأحذية والحقائب الجلدية والملابس، والمجوهرات، والأكسسوارات، والهواتف المحمولة، ومستحضرات التجميل، والعطور. يبلغ رأس مال الشركة، المسجلة في بورصة الأسهم والسندات في هونغ كونغ، 3,9 مليار دولار، وبلغت عائداتها عام 2016 أكثر من 330 مليون يورو. (المُعرِّب)

للولايات المتحدة، بل وتتفوّق عليها، وفقًا لبعض المؤشرات العالمية[32].

وبحسب اختبارات برنامج التقييم الدولي للطلاب Program for International Student Assessment، المعروف اختصارًا باسم PISA، وهو المقياس الذهبي المعترف به دوليًا في مجال المقارنة بين مستويات الأداء التعليمي لطلاب المدارس الثانوية حول العالم، احتلت الصين عام 2015، المرتبة السادسة في مجال الرياضيات، بينما جاءت الولايات المتحدة في المركز التاسع والثلاثين. وقد جاءت الدرجات التي سجلتها الصين أعلى بكثير من المتوسط العام الذي سجلته دول منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي (الأوروبية) المعروفة اختصارًا باسم OECD[*] بينما جاءت الدرجات التي سجلتها الولايات المتحدة أقل كثيرًا من ذلك المتوسط. حتى ولاية ماساشوستس Massachusetts التي تحتل قمة هرم مستوى التعليم في الولايات المتحدة، لن تتجاوز المرتبة العشرين، إذا ما أدرجناها كدولة مستقلة، وهو ما يمثل تراجعًا ملحوظًا عن المركز التاسع الذي كانت قد احتلته وفقًا للتقويم الذي جرى عام 2012[33]. من ناحية أخرى، أظهرت أحدث مقارنة أجرتها جامعة ستانفورد Stanford University الأمريكية بين الطلاب الذين التحقوا للتو بكليات الهندسة وعلوم الكومبيوتر، أن خريجي المدارس الثانوية الصينيين يتفوقون على نظرائهم الأمريكيين بنحو ثلاث سنوات، في ما يتعلق بمهارات التفكير النقدي[34] critical thinking skills.

على صعيد آخر، تجاوزت جامعة تسين غُوا Tsinghua University الصينية، عام 2015، معهد ماساشوستس للتكنولوجيا MIT، لتصبح الجامعة

(*) الحروف الأربعة الأولى من اسم منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي Organization for Economic Co-operation and Development. أنشئت هذه المنظمة عام 1961، لتحل محل منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي European Economic Community، التي كانت قد أنشئت عام 1948 بهدف الإشراف على تنفيذ خطة مارشال Marshall Plan، التي أعيد من خلالها بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. يقع المقر الرئيسي للمنظمة في باريس، وتضم في عضويتها 35 دولة، ليس من بينها، للأسف، دولة عربية واحدة، رغم أن المنظمة قبلت عام 2010 منح عضويتها للكيان الصهيوني الغاصب. (المُعرِّب)

الأولى في الهندسة، على مستوى العالم. وتوجد اليوم من بين كليات الهندسة العشرة الأولى على مستوى العالم، أربع كليات صينية، ومثلها أمريكية. وفي المجالات التي تُعرف اختصارًا باسم STEM(*)، والتي تُعتبر لُبَّ القوة الدافعة في العلوم، والتكنولوجيا، أسرع قطاعات الاقتصاد الحديث نموًا، تُخَرِّج الجامعات الصينية سنويًا ما يعادل أربعة أمثال مَن يتخرجون من الجامعات الأمريكية (1.3 مليون خريج صيني، في مقابل 300 ألف خريج أمريكي)، ولا يدخل ضمن هذه الأعداد ما يقارب 300 ألف طالب صيني يدرسون حاليًا في جامعات أمريكية. الفجوة العلمية التي تعبر عنها هذه الأرقام، موجودة بشكل متواصل منذ عشر سنوات، رغم مبادرة التعليم من أجل التجديد Educate to Innovate، التي أطلقتها إدارة أوباما عام 2009. أضافة إلى ذلك، منحت الجامعات الصينية في كل عام من الأعوام التي أعقبت إطلاق المبادرة، درجة الدكتوراه في شتى مجالات الـ STEM، لأعداد تفوق بكثير أعداد الحاصلين على تلك الدرجة من الجامعات الأمريكية.

الآثار الإيجابية للاستثمارات الصينية في مجال التعليم، تبدو واضحة على مختلف عناصر الاقتصاد الصيني: لقد ارتفع نصيب الصين من إجمالي القيمة المضافة عالميًا في مجال الصناعات التكنولوجية المتطورة من 7 في المائة عام 2003 إلى 27 في المائة عام 2014، بعد أن كانت الصين، لسنوات طويلة، مجرد مُنْتِج قليل التكلفة للسلع الاستهلاكية الرخيصة، وفقًا لتقرير صدر عن الهيئة العلمية القومية الأمريكية US National Science Foundation. وقد كشف هذا التقرير أن حصة الولايات المتحدة من هذه السوق، خلال الفترة المشار إليها، قد انخفضت من 36 في المائة إلى 29 في المائة، وضرب التقرير مثلاً من عالم الروبوتات الذي يتغير بسرعة: "في عام 2015، لم يتوقف إسهام الصين عند حدود مضاعفة عدد براءات الاختراع المُسجَّلة، لكنها زادت عدد الروبوتات التي تُستخدم في مرافقها

(*) الحروف الأولى من أربع كلمات هي: العلوم Science، التكنولوجيا Technology، الهندسة Engineering، الرياضيات Mathematics. (المُعرِّب)

الصناعية بمقدار مرة ونصف". إن الصين اليوم هي القوة العالمية الأولى في إنتاج أجهزة الكومبيوتر، وأشباه الموصِلات، وأجهزة الاتصال، بالإضافة إلى الصناعات الدوائية[35]. على صعيد آخر، احتلت الصين عام 2015، المرتبة الأولى في مجال تسجيل براءات الاختراع، بعد أن سجلت ضعف ما سجلته الدولة التالية لها، الولايات المتحدة، من براءات، كما أصبحت أول دولة في العالم تنتج مليون تطبيق كومبيوتري في عام واحد[36]. وإذا واصلت الصين السير على نهجها الحالي، سوف تتجاوز الولايات المتحدة، لتصبح عام 2019، الدولة الأولى على مستوى العالم، من حيث الإنفاق على مجالات البحث العلمي والتنمية[37]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم American Academy of Arts and Science نشرت عام 2014 تحذيرًا تقول فيه: "إذا لم تتحرك أمّتنا بشكل سريع، لدعم روح المبادرة العلمية، سوف تضيع الأفضلية التي حظينا بها زمنًا طويلاً، كقوة دافعة للابتكار، تُولِّد اكتشافات جديدة، وتشجع على زيادة فرص العمل".

حاول كثير من الأمريكيين، كرد فعل لصعود الصين في كافة المجالات تقريبًا، أن يُعزّوا أنفسهم باللجوء إلى تفسير يقول إنه رغم حجم الصين وجرأتها، فإن نجاحها لا يعدو كونه قصة ذات عنصرين: التقليد، ثم إنتاج السلع المُقلدة بكميات هائلة. تستند وجهة النظر هذه إلى عدد من المبررات الواقعية: فسرقة الممتلكات الفكرية، سواء بالطرق التقليدية عن طريق الجواسيس، أو، بشكل متزايد، عن طريق استغلال كثيرٍ من الثغرات السيبرانية، تشكل عنصرًا مهمًا من عناصر برامج التنمية الاقتصادية في الصين. وهو ما شرحه لي صديق صيني ذات مرة: "إن ما يسميه الأمريكيون R&D، أي البحوث والتطوير Research & Development، نفكر فيه نحن في الصين باعتباره RD&T، أي سرقة البحوث والتطوير، حيث يعبر حرف (T) عن كلمة theft أي سرقة". وبطبيعة الحال، لا تستهدف الصين سوى الأمم التي لديها ممتلكات فكرية تستحق السطو عليها، ومن الطبيعي أيضًا أن تكون الولايات المتحدة على رأس هذه الدول. ففي عام

2014، وصف جيمس كومي James Comey، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي FBI، كمية السرقات التي تتعرض لها الشركات الأمريكية بأنها مذهلة. وأضاف كومي: "لا يوجد في الولايات المتحدة سوى نوعين من الشركات الكبيرة. شركات تعرضت للقرصنة من قِبَل الصينيين، وشركات لا تعرف بعد أنها قد تعرضت للقرصنة من قِبَل الصينيين". في عام 2016، وفي السياق نفسه، كشف تقرير استقصائي أذيع عبر برنامج "60 دقيقة" 60 Minutes، الذي يُقدّم على شبكة CBS التلفزيونية الأمريكية، أن عمليات التجسس التي تمارسها الشركات الصينية، كلّفت الشركات الأمريكية مئات المليارات من الدولارات، الأمر الذي دفع مسؤولاً رفيع المستوى في وزارة العدل الأمريكية إلى أن يصف عمليات السرقة السيبرانية الصينية بأنها "تهديد خطير للأمن القومي الأمريكي".

ورغم أن الصين لا تزال مرتعًا للقرصنة السيبرانية وعمليات التجسس التجاري والصناعي، تتزايد، عامًا بعد عام، صعوبة تجاهل قوة الصين المتزايدة، كدولة لها ابتكاراتها واختراعاتها الخاصة بها. وهنا، يكفي أن نتدبر ما حدث في مجال إنتاج أجهزة الكومبيوتر الفائقة القدرة supercomputers، التي أكد مكتب البيت الأبيض للعلوم والتكنولوجيا White House of Science and Technology أنها "أساسية ولا غنى عنها في مجالات مثل التنافسية الاقتصادية، والاكتشافات العلمية، والأمن القومي"[38]. لهذا السبب، ولضمان استمرار الريادة الأمريكية في هذا المجال، أطلق الرئيس أوباما عام 2015 المبادرة الوطنية للحَوْسَبة الفائقة القدرة، لتكون بمثابة العمود الفقري لاستراتيجيته الخاصة بتجديد أمريكا. غير أن ما حدث على أرض الواقع كان مختلفًا: فمنذ حزيران/يونيو 2013، لم تَعُدْ أجهزة الكومبيوتر الفائقة القدرة والأعلى سرعة على مستوى العالم، موجودة في وادي السليكون، بل في الصين. فالقائمة التي تضم أسرع 500 كومبيوتر فائق القدرة في العالم، وهي قائمة لم يكن للصين تواجد فيها حتى عام 2001، تشير إلى وجود 167 جهازًا من هذه الأجهزة في الصين،

وهو ما يزيد بجهازين عما يوجد داخل الولايات المتحدة. وبغض النظر عن مسألة الكَمّ رغم أهميتها، ثمة حقيقتان لا يمكن تجاهلهما تزيدان الإحساسَ باتساع الهوة بين الولايات المتحدة والصين: الأولى، أن سرعة الأجهزة التي تحتل قائمة أجهزة الكومبيوتر الصينية الفائقة القدرة، تصل إلى خمسة أمثال سرعة أقرب الأجهزة الأمريكية المنافسة لها؛ الثانية، أن تلك الأجهزة التي كانت في ما مضى تعتمد بدرجة كبيرة جدًا على المُعالِجات الأمريكية، أصبحت، اعتبارًا من 2016، تعتمد اعتمادًا مطلقًا، على مُعالِجات صينية تنتَج محليًا[39].

على صعيد آخر، شهد عام 2016 إنجازين صينيين آخرين يمثلان مؤشرين يثيران قلق الولايات المتحدة حول مستقبل التنافس بين الدولتين: الإنجاز الأول، إطلاق أول قمر اتصالات اصْطِناعي كمِّي quantum communication satellite في العالم، مصمَّم لتوفير نطاقٍ غير مسبوق من الاتصالات التي لا يمكن اختراقها أو قرصنتها؛ الإنجاز الثاني، استكمال تنصيب أكبر تليسكوب راديوي radio telescope في العالم، مزودٍ بقدرات لا نظير لها، تُمكِّنه من البحث عن أية حياة ذكية في أعماق الفضاء. كل واحد من هذين الإنجازين يعكس ما للصين من قدرة على التفكير في مشروعات غير نمطية، ومكلفة، وطويلة المدى، ثم متابعة تنفيذها إلى أن تكتمل بنجاح، إدراكًا لأهميتها. على الجانب الآخر، تتضاءل قدرة الولايات المتحدة على تحقيق إنجازات مماثلة، وهي حقيقة يثبتها الفشل المتكرر في إنجاز مشروعات عملاقة تكلفت مليارات كثيرة من الدولارات. من هذه المشروعات، على سبيل المثال لا الحصر: أولاً، مشروع إعادة تخصيب البلوتونيوم في منطقة نهر سافانا Savannah River جنوبي كاليفورنيا (المشروع الذي ينتظر قرارًا بإلغائه، رغم إنفاق 5 مليارات دولار من أموال دافعي الضرائب، بعد أن أوضح تقدير حديث أن استكماله يتطلب إنفاق مليار دولار سنويًا، على مدار عدة عقود). ثانيًا: مشروع احتجاز وتخزين الكربون في وادي كِمْبِر Kemper بولاية ميسيسِبِّي Mississippi، وهو

المشروع الذي وصفه معهد ماساشوستس للتكنولوجيا MIT بالأساسي والحيوي (تجاوز المشروع ميزانيته المقررة بنحو 4 مليارات دولار، كما أنه متأخر عن الموعد المحدد لتنفيذه بنحو عامين، لهذا يواجه مستقبلاً غامضًا)[40].

فُوَّهات أكبر لمَدَافِع أضخم

لا يُعدُّ إجمالي الناتج المحلي GDP مجرد مقياس لصعود دولة ما، إذ إنه يوفِّر أساسًا لتقدير القوة الوطنية لتلك الدولة. وبينما لا يُتَرْجَمُ إجمالي الناتج المحلي لحظيًا أو أوتوماتيكيًّا إلى قوة اقتصادية أو عسكرية، يعلِّمنا التاريخ أن الأمم التي تمتلك ناتجًا محليًا أكبر، استطاعت عبر العصور المختلفة، أن تؤثر على مسار الشؤون الدولية، تأثيرًا كبيرًا، يتناسب مع الحجم النسبي لإجمالي ناتجها المحلي.

لن ينسى الصينيون أبدًا عبارة ماو تسي تونغ الشهيرة: "تولد القوة من ماسورة البندقيّة"، فهم يدركون أن الحزب الشيوعي يحكم الصين، بدلاً من أن يحكمه واحدٌ ممن خلفوا شيانغ كاي-شيك Chiang Kai-shek في رئاسة الغوميندانغ[*]، لسبب وحيد، هو أن ماو تسي تونغ ورفاقه المقاتلين، انتصروا في الحرب الأهلية[**]. وعندما تظاهر الطلبة ومؤيدوهم في ميدان تيانانمِن Tiananmen Square محتجّين، مَنْ الذي سحقهم من أجل أن تبقى السلطة في يد الحزب الشيوعي؟ الجنود الصينيون ومدافعهم

(*) غوميندانغ Guomindang، أو كومينتانغ Kuomintang، حزب سياسي صيني، أسسه سُنْ يات-سِنْ Sun Yat-Sen عام 1911، وقد حكم الحزب الصين بقيادة شيانغ كاي-شيك منذ عام 1928 حتى هزيمته أمام الثورة التي قادها ماو تسي تونغ عام 1946. بعد الهزيمة، تحوّل الحزب من حزب حاكم للصين كلها، إلى حزب يحكم تايوان فقط. (المعرِّب)

(**) أعتقد أن وصف ثورة ماو تسي تونغ العظيمة، التي أخرجت أمة من تحت التراب، ووضعتها على الطريق الذي أوصلها إلى أن تكون اليوم واحدة من القوى العظمى في العالم، بأنها كانت مجرد حربٍ أهلية، قول يعكس كثيرًا من التحيُّز ضد هذه الثورة، وقليلاً من الاحترام التاريخي الذي تستحقه. (المُعرِّب)

ودباباتهم. مع تحسن الاقتصاد الصيني ونموه، أصبحت المدافع والدبابات الصينية، وما يعادلها من أسلحة القرن الحادي العشرين، أفضل وأقوى، الأمر الذي أدى إلى ظهور مستوى جديد من التنافس مع القوى الكبرى، خاصة الولايات المتحدة. وكما استخدمت شركات التكنولوجيا الناشئة، مثل فايسبوك Facebook وأوبِر Uber، مفهوم الابتكار المُربِك disruptive innovation للتغلب على الشركات القائمة المهَيمنة، تُطوِّر العسكريةُ الصينيةُ، حاليًا، تكنولوجياتٍ جديدة، تستطيع أن تتصدى للسفن، والطائرات، والأقمار الاصْطِناعية التي طورتها الولايات المتحدة على مدار عقود طويلة، وبتكلفة لا تتجاوز جزءًا مما أنفقته الولايات المتحدة على أسلحتها. لقد أثبتت التجربة الصينية أن الدول التي تسعى إلى تعويض ما فاتها ليست مجبرة على استنساخ تجارب مَن سبقوها، خاصة من حيث الإنفاق على المعدات والمواقع العسكرية التقليدية. فالتكنولوجيات الجديدة توفِّر لمستخدميها القدرة على الرد بوسائل مختلفة، مثل الصواريخ التي يمكن إطلاقها من فوق الأراضي الصينية، لتدمير حاملات الطائرات، أو الأسلحة المضادة للأقمار الاصطِناعية التي تستطيع، بتكلفة لا تتجاوز مليون دولار، تدمير قمر اصطِناعي أمريكي، تكلف تصنيعه وتشغيله عدة مليارات من الدولارات[41].

رغم أن الصين لم تخصص لميزانية الدفاع منذ أواخر الثمانينيات حتى الآن، سوى ما يقارب 2 في المائة من إجمالي ناتجها المحلي (أنفقت الولايات المتحدة خلال الفترة نفسها ما يقارب 4 في المائة)[42]، وفّرت ثلاثة عقود من النمو الاقتصادي المزدوج الأرقام، الفرصة لتمدُّد القدرات العسكرية الصينية، حتى وصلت إلى ثمانية أمثال حجمها قبل حقبة الثمانينيات[43]. إن ميزانية الدفاع الصينية التي تقدر بنحو 146 مليار دولار وفقًا لمعدلات سعر الصرف في الأسواق (أو 314 مليار دولار وفقًا لمقياس تكافؤ القوة الشرائية PPP)، تأتي في المرتبة الثانية بعد ميزانية الدفاع الأمريكية، كما أنها تُقدَّر بضعف ميزانية الدفاع الروسية[44]. سوف نناقش

قوة الصين العسكرية الهائلة والمتنامية بمزيد من التفاصيل في الفصل السادس من هذا الكتاب. أما الآن، فيكفي أن نشير بسرعة إلى إن الصين تمتلك العديد من الميزات وعناصر التفوق، على أرض الميدان، وفقًا لتقدير رسمي يحظى بثقة ومصداقية كبيرتين على مستوى العالم، في ما يتعلق بالتغيُّر في موازين القوى في المنطقة. أقصد التقدير الذي ورد في تقرير أصدرته مؤسسة راند(*) RAND عام 2015، بعنوان "سجل التقييم العسكري للولايات المتحدة والصين". لقد أوضح هذا التقرير أن الصين، بحلول عام 2017، سوف تتفوّق على الولايات المتحدة، أو على الأقل سوف تتساوى معها، في ستة من المجالات التسعة الرئيسية للقدرات العسكرية التقليدية، ومنها على سبيل المثال: شن الهجمات على القواعد الجوية أو الأهداف الأرضية، وامتلاك التفوّق الجوي، والقدرة على منع العدو من استخدام أسلحة تعتمد على قواعد في الفضاء. ويخلص التقرير إلى أن "آسيا سوف تشهد انحسارًا تدريجيًا للهيمنة الأمريكية، في غضون فترة تتراوح بين خمس سنوات وخمس عشرة سنة"[45]. وكما هو الحال بالنسبة لتأثير نمو الاقتصاد الصيني على الولايات المتحدة، سوف يؤدي تزايد وتطور القوة العسكرية الصينية إلى تقويض سريع لمركز الولايات المتحدة كقوة عالمية مهيمنة، وإلى إجبار قادتها على مواجهة حقائق مريرة حول محدودية القوة الأمريكية.

توازن القوة الجديد

خلال فترة عملها وزيرة للخارجية الأمريكية، أشارت هيلاري كلينتون إلى أن توازنَ القوة مفهومٌ عتيقٌ بال[46]، وهو رأي عارضه بشدة رئيس وزراء

(*) الاسم المختصر لمؤسسة البحوث والتطوير Research and Development Corporation، وهي مؤسسة أمريكية غير ربحية، أُسِست عام 1948. تتلقى المؤسسة تمويلًا من بعض الجهات الحكومية الأمريكية، بالإضافة إلى الشركات والمنظمات الأهلية والأفراد، دعمًا لمهمتها الأساسية التي تتمثل في تزويد الجيش الأمريكي بالتحليلات والبحوث التي يحتاج إليها صانع القرار، مدنيًا كان أو عسكريًا. (المُعرِّب)

سنغافورة لي كُوان يِوْ، من منطلق الإيمان بأن فكرة توازن القوة تمثل حجر الزاوية الأساسي لفهم العلاقات بين الأمم. غير أن لي كُوان يِوْ كان يستدرك قائلًا: "وفقًا للمفهوم القديم لتوازن القوة، كان المقصود في معظم الحالات، توازن القوة العسكرية. بينما تُشير الرؤية الحديثة لهذا المفهوم إلى مجموعة متداخلة من العناصر الاقتصادية والعسكرية، وأنا أعتقد أن العناصر الاقتصادية تفوق العناصر العسكرية وزنًا وأهمية"[47].

وقد أُطلِق على توازن القوة، بهذه الرؤية الحديثة، مصطلحٌ جديد هو: الاقتصاديات الجغرافية geoeconomics، ويُقصد به استخدام كافة الأدوات الاقتصادية (من التجارة وسياسات الاستثمار إلى العقوبات، والهجمات السيبرانية، والمساعدات الأجنبية) لتحقيق أهداف جغرافية-سياسية geopolitical. وقد شرح كل من روبرت بلاكويل Robert Blackwill وجينيفر هاريس Jennifer Harris هذا المفهوم، بالتفصيل، في كتاب أصدراه عام 2016، بعنوان "الحرب بطرق أخرى: الاقتصاديات الجغرافية وفن الحكم" War by Other Means: Geoeconomics and Statecraft. أكد بلاكويل وهاريس أن "الصين هي أكثر دول العالم إسهامًا، وأشدها تأثيرًا، في مجال الاقتصاديات الجغرافية، لكنها، في الوقت نفسه، القوة الفاعلة وراء إعادة عملية تقدير الاحتمالات التي تنتظر مستقبل قوة محلية أو إقليمية إلى الأسلوب القديم، الذي يعتمد على الممارسات الاقتصادية، بدلاً من الاعتماد على الممارسات السياسية والعسكرية.

تمارس الصين سياستها الخارجية، في الأساس، من خلال العلاقات الاقتصادية، لأنها، بصراحة وبشكل واضح، قادرة على ذلك. فالصين، في الوقت الحاضر، هي الشريك التجاري الأكبر لأكثر من 130 دولة في العالم، بما في ذلك جميع الدول الرئيسية في آسيا. لقد وصل حجم تجارة الصين مع رابطة دول جنوب شرق آسيا[*] Association of Southeast Asian

---

(*) منظمة اقتصادية إقليمية أُسِست في بانكوك بتايلاند في آب/أغسطس 1967 وضمت عند تأسيسها خمس دول فقط هي إندونيسيا وماليزيا والفيليبين وسنغافورة وتايلاند. ثم انضمت

Nations، المعروفة اختصارًا باسم ASEAN's، في عام 2015 إلى 15 في المائة من إجمالي حجم التجارة الخارجية لدول الرابطة، بينما لم يتجاوز نصيب الولايات المتحدة من التجارة الخارجية لدول الرابطة 9 في المائة. ومن المتوقع أن يتصاعد اختلال التوازن هذا في غيبة اتفاق "الشراكة عبر المحيط الهادي"(*) Trans-Pacific Partnership، حيث تتحرك الصين بسرعة في اتجاه تأسيس مقابل خاص بها، لتلك الشراكة، في منطقة تشهد بزوغ حالة من الازدهار الاقتصادي المشترك[48].

تعود أصول استراتيجية الاقتصاديات الجغرافية هذه إلى قول سُنْ تْسُو(**) Sun Tzu المأثور: "لا تتمثل المهارة المطلقة في كسْب كل معركة تخوضها، ولكن في هزيمة العدو، دون الاضطرار إلى محاربته على الإطلاق". وقد شرح هنري كيسنجر، في كتابه "الصين" China، مفهوم النصر كما يراه سُنْ تْسو قائلاً إنه لا يتمثل في "انتصار مباشر لقوات مسلحة" ولكن في "تحقيق الغايات السياسية القصوى" التي يهدف الصراع العسكري إلى تأمينها. "إن التلاعب بالعدو، وحَشْرَه في وضع لا يستطيع الفِكاك منه، أفضل بكثير من مواجهته في ميدان المعركة". وهذا، بالضبط، ما تفعله الصين اليوم، في مجال العلاقات الاقتصادية.

بطبيعة الحال، تحتاج الهيمنة في مجال الشؤون الدولية إلى ما هو

إليها في ما بعد خمس دول أخرى هي بروناي (1984)، وفيتنام (1995)، ولاوس وميانمار (1997)، وكمبوديا (1999). (المُعرِّب)

(*) الشراكة عبر المحيط الهادي هي اتفاق تجارة حرة متعدد الأطراف يهدف إلى زيادة تحرر اقتصادات منطقة آسيا والمحيط الهادي. وقّع الاتفاق الأصلي بين كل من بروناي، وشيلي، ونيوزيلندا، وسنغافورة في 3 حزيران/يونيو 2005، ودخل حيز التنفيذ في 28 أيار/مايو 2006. ثم انضمت إليه في ما بعد كل من أستراليا، وماليزيا، وبيرو، والولايات المتحدة، وفيتنام، والمكسيك، وكندا، واليابان. وقد وقّع الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في 23 كانون الثاني/يناير 2017، أول يوم عمل له في البيت الأبيض، أمرًا رئاسيًا بانسحاب الولايات المتحدة من هذه المعاهدة، تنفيذًا لوعدٍ كان قد قطعه أثناء حملته الانتخابية. (المُعرِّب)

(**) سُنْ تْسو (544 – 496 ق.م)، قائد عسكري، ومنظِّر استراتيجي، وفيلسوف صيني، من أشهر أعماله كتاب "فن الحرب"، الذي كان ولا يزال مصدر إلهام لكثير من القادة العسكريين والسياسيين في الشرق والغرب على حدٍ سواء. (المُعرِّب)

أكثر من النفوذ الاقتصادي. فالحكومة التي تسعى إلى موقع الزعامة، يجب ألا يكون لها ثقل اقتصادي فقط، بل يجب أن تتمتع بالقدرة على استخدام الأدوات الاقتصادية بطريقة فعَّالة ومؤثرة. وقد أظهر الصينيون، بالفعل، مهارة فريدة في استخدام الأدوات القاسية لتلك القوة الناعمة. إنهم مستعدون على الدوام لاستخدام عصا القوة الاقتصادية وجزرتها، من بيع، وشراء، وعقوبات، واستثمار، ورشاوي، وسرقة، إذا ما أظهر بعض الشركاء تباطؤًا في إدراك معطيات الواقع الاقتصادي، أو ميلاً إلى مقاومته، إلى أن يعود هؤلاء الشركاء إلى صوابهم. فالدول التي تعتمد أسواقُها، بشكل رئيسي، على ما تزوِّدها به الصين من واردات أساسية، وتعتمد على الأسواق الصينية، بشكل رئيسي أيضًا، لتصريف صادراتها، تكون عادةً أكثر ضعفًا وحساسية، وأقل قدرة على تحدي الصين، والصمود، أمام عصاها وجزرتها: فعندما يبرز خلاف بين الصين ودولة ما، يكفي أن تعطل الصين شحن المنتجات الصينية المتجهة إلى أسواق تلك الدولة، وأن تحظر دخول المنتجات الواردة منها إلى الأسواق الصينية. من أبرز الأمثلة في هذا المجال: قرار الصين المفاجئ بإيقاف تصدير المعادن النادرة إلى اليابان عام 2010 (لإجبار اليابان على إعادة عدد من الصيادين الصينيين كانت قد احتجزتهم)، وقرارها بحظر استيراد أسماك السلمون من أسواق النرويج (عقابًا للنرويج على قرار لجنة اختيار الفائزين بجائزة نوبل، بمنح الجائزة إلى المنشق الصيني المعروف ليو شياوبو Liu Xiaobo)، وإصرارها على فحص وتفتيش شحنة من الموز القادم من الفيليبين، تفتيشًا دقيقًا، بطيئًا، ممتدًا، إلى أن فسدت الشحنة بالكامل على رصيف الميناء، عام 2012 (لإجبار الحكومة الفيليبينية على تغيير موقفها من الخلاف حول جزيرة سكاربورو(*) Scarborough Shoal، في بحر الصين الجنوبي).

التفوق الذي تتمتع به الصين في ما يتعلق بميزان القوة الاقتصادية، لا يترك لغيرها من الدول خيارات واقعية، سوى الرضوخ لرغباتها، حتى لو

(*) جزيرة صغيرة، تتنازع عليها كل من الصين، والفيليبين، وتايوان. (المُعرِّب)

وقفت الأنظمة الدولية المرعية في صف تلك الدول. ففي عام 2016، على سبيل المثال، رفضت الصين ببرود تام قرارًا صدر في غير صالحها عن المحكمة الدائمة للتحكيم(*) Permanent Court of Arbitration، بشأن خلاف بينها وبين الفيليبين في بحر الصين الجنوبي، لتطلق بذلك الرفض جولة جديدة من جولات صراع الإرادات في عالم اليوم. لقد أظهرت الصين خلال تلك المواجهة، ومواجهات أخرى تتعلق ببحر الصين الجنوبي، قدرتها على الجمع بين الود الزائف، والسخاء، والرشاوي، والابتزاز، للتوصل إلى تسويات تمنحها الجزءَ الأعظم مما تريده.

علّمتنا التجارب، على امتداد التاريخ، أن الهيئات والمؤسسات الدولية توفر لمن أنشأها أو مَن وضع الأسس التي قامت عليها، امتيازات تفوق بكثير ما يمكن أن يحصل عليه من خلال مفاوضات أو مساومات ثنائية(**). وقد وضعت الولايات المتحدة هذه الحقيقة نصب عينيها، وتتصرف وفقًا لها، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. من هذا المنطلق، عملت على إنشاء المجموعة الاقتصادية التي تعرف باسم مؤسسات بريتون وودز Bretton Woods Institutions وهي: صندوق النقد الدولي IMF (لتنظيم وتنسيق عمليات التمويل الدولية)، والبنك الدولي WB (لمساعدة الدول النامية من خلال قروض يقل معدل فائدتها عن معدل الفائدة السائد في الأسواق المالية)، والاتفاق العام للتعريفات الجمركية والتجارة GATT، وخليفته منظمة التجارة العالمية WTO، (لتنمية التجارة بين الدول

(*) منظمة دولية يقع مقرها الرئيسي في لاهاي بهولندا، أُسِست عام 1899، تطبيقًا لقرار صدر عن المؤتمر الأول للسلام الذي عقد هناك. وفي المؤتمر الثاني للسلام الذي عقد في المدينة نفسها عام 1907، أدخلت على النظام الأساسي للمنظمة مجموعة من التعديلات. والمحكمة الدائمة للتحكيم ليست محكمة بالمفهوم القانوني المتعارف عليه، حيث لا تتمتع بسلطات قضائية ملزمة، إذ يقتصر عملها على تقديم المشورة والآراء الاسترشادية التي يمكن أن تسهم في حل كثير من المشاكل بين الأعضاء، أو تيسر عليهم عملية التقاضي اللاحق أمام محكمة حقيقية، مثل محكمة العدل الدولية. (المُعرِّب)

(**) هل هناك مثل أصدق من مجلس الأمن الدولي، وهو الجائزة التي منحها المنتصرون في الحرب العالمية الثانية لأنفسهم على حساب العالم كله. (المُعرِّب)

وتعزيزها). ومن المعروف أنه داخل أهم هذه المؤسسات، ونقصد صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، لا تملك حق النقض، وحق رفض أية تعديلات على نظم العمل، سوى دولة واحدة، دولة واحدة فقط: الولايات المتحدة.

وكما هو متوقع، مع النمو المطرد للاقتصاد الصيني، عبَّر الزعماء الصينيون عن عدم الرضا على هذه الترتيبات المتوارثة. ولأن الاعتراض وحده لا يكفي، شرعوا في صياغة ترتيبات جديدة. وهكذا، بعد سنوات طويلة من الإصرار الأمريكي على رفض مطلب الصين بأن يكون لها دور أكبر في عمليات التصويت داخل البنك الدولي، فاجأت بيجين الولايات المتحدة عام 2013، بإعلان عزمها على تأسيس مؤسسة دولية جديدة، منافسة للبنك الدولي. البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية Asian Infrastructure Investment Bank، المعروف اختصارًا باسم AIIB. وعلى الرغم من أن واشنطن شنت حملة مكثفة لـثَني الدول عن دعم المشروع الصيني والمشاركة في تأسيس هذا البنك، وقعت أكثر من خمسين دولة على اتفاقية إنشاء البنك، قبل إطلاقه عام 2015، بما في ذلك مجموعة من حلفاء الولايات المتحدة الرئيسيين، في مقدمتهم المملكة المتحدة[*]. لقد قالت هذه الدول "لا" للولايات المتحدة، وقالت "نعم" للصين، على أمل الحصول على قروض ميسرة، بفائدة تقل عن معدلات الفائدة السائدة، بالإضافة إلى الحصول على عقود لتنفيذ المشروعات الإنشائية العملاقة التي يعتزم البنك تمويلها. كانت دوافع الصينيين واضحة لكل ذي عينين: فحتى قبل إنشاء البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية، نجح بنك التنمية الصيني China Development Bank في تجاوز البنك الدولي، وأصبح

(*) وقّع الأعضاء المؤسسون، وعددهم اثنتان وستون دولة (خمس وثلاثون من دول آسيا وسبع وعشرون من سائر أنحاء العالم) اتفاقية إنشاء البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية، عام 2014، برأس مال قدره خمسون مليار دولار. وفي 25 كانون الأول/ديسمبر، دخلت الاتفاقية حيّز التنفيذ، ليبدأ البنك نشاطه رسميًا في 16 كانون الثاني/يناير 2016. ومن المنتظر أن تنضم إلى عضوية البنك خلال الربع الثاني من 2017، عشرون دولة أخرى. من الدول العربية المؤسسة لهذا البنك: مصر، والأردن، والكويت، وعُمان، وقطر، والسعودية، والإمارات. (المُعرِّب)

الممول الأكبر للمشروعات التنموية الدولية[49]. يدخل في ذلك التزام البنك بتقديم 30 مليار دولار إلى البنك الآسيوي للتنمية، كرأس مال ابتدائي. وقد زاد إجمالي ما قدمته الصين من تمويلات لمشروعات التنمية حول العالم، عام 2016، عما قدمته بنوك التنمية الغربية الرئيسية الستة مجتمعة بنحو 130 مليار دولار[50].

لم تكن تلك أول مرة تقرر فيها الصين أن تُنشئ ملعبًا خاصًا بها، بدلاً من اللعب وفقًا لقواعد الغرب. ففي أعقاب الأزمة الاقتصادية والركود الكبير عام 2008، نظمت الصين التجمع المعروف باسم بريكس BRICS، الذي ضم البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا، وهي الدول التي تمتلك اقتصادات تنمو بسرعة، الأمر الذي يسمح لها باتخاذ قرارات والقيام بأفعال، دون إشراف من الولايات المتحدة، أو مجموعة الدول السبع G7. وبعد أن أرسل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين Vladimir Putin قوات روسية إلى أوكرانيا عام 2014، سحبت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي الدعوة التي سبق أن وجِّهت إليه لحضور ما كان من المفترض أن يعرف باسم مجموعة الثمانية G8، معلِنةً مقاطعتَه. بعد شهر واحد من هذا الإعلان، فتح الرئيس الصيني شِي جينْ بينْغ وزعماء دول البريكس الآخرون أحضانهم للرئيس الروسي، مرحبين بانضمامه إلى قمتهم.

وقد أطلقت الصين مبادرات أخرى كثيرة، حققت كل منها نتائج مشابهة: في أيلول/سبتمبر 2013، أعلن الرئيس الصيني شِي جينْ بينْغ أن بلاده تعتزم استثمار 1.4 تريليون دولار لإنشاء "طريق حرير جديد" يتكوّن من بنية أساسية تربط بين خمس وستين دولة في آسيا وأوروبا وشمال أفريقيا، يبلغ تعداد سكانها مجتمعة 4.4 مليار نسمة. وهكذا وُلِد "حزام طريق الحرير الاقتصادي" Silk Road Economical Belt، و"طريق الحرير الملاحي للقرن الحادي والعشرين" 21st-Century Maritime Silk Road، اللذان يعرفان مُجْتَمعَيْن باسم "حزام واحد، طريق واحد" One Belt, One Road، واختصارًا باسم OBOR. لتنفيذ هذا المشروع، تشيّد

الصين حاليًا، عبر أوراسيا(*) Eurasia، شبكة من الطرق السريعة، وخطوط السكك الحديدية الفائقة السرعة، والمطارات، والموانئ، وخطوط الأنابيب، وخطوط نقل الطاقة الكهربائية، وكابلات الألياف الضوئية. تُشكِّل هذه الحزمة من خطوط المواصلات والاتصالات الفعلية، بالإضافة إلى خطوط التجارة الصينية القائمة بالفعل، بيئة خصبة لروابط دبلوماسية، وتجارية، ومالية جديدة. فحتى هذه اللحظة فقط، وصل عدد المشروعات المزمع إقامتها على OBOR إلى 900 مشروع، بتكلفة تتجاوز 1.4 تريليون دولار، وهو مبلغ يزيد اثنتي عشرة مرة على تكلفة خطة مارشال، حتى بعد أن نأخذ في الاعتبار معدلات التضخم، وفقًا لخبير الاستثمار ستيفن جِنْ Stephen Jen، الخبير السابق بصندوق النقد الدولي[51].

نستطيع أن نصف ما تقدم بأنه نوع من السخاء، أو شكل من أشكال الإمبريالية الاقتصادية، أو غير ذلك مما نشاء من الصفات والأسماء. لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، هي أن الاقتصاد الصيني يتمدد وينتشر حول العالم، مُغيِّـــرًا توازن القوة، بطريقة تدفع حتى أقرب حلفاء الولايات المتحدة إليها وأكثرهم ارتباطًا بها، إلى أن يحيدوا عنها، وأن يحوِّلوا دفتهم باتجاه الصين. وضْعٌ رسَم لي كُوان يِو أبعادَه في عبارة موجزة وجامعة: "إن الصين 'تَشْفط' دول جنوب شرق آسيا إلى نظامها الاقتصادي. ومن المؤكد أن اليابان وكوريا الجنوبية سوف تُشفطان كذلك. إن الصين تمتص الدول وتهضمها دون حاجة إلى استخدام القوة. سوف يكون من الصعب جدًا، مقاومة نفوذ اقتصاد الصين المتنامي"[52]. وكما تقول النسخة الصينية من القاعدة الذهبية: "من يملك الذهب، يحكم".

تداعيات هذه التطورات على الوضع النسبي للصين والولايات المتحدة، اختصرها تعليق لا يمكن تجاهله، إذ صدر عن ستيفِن بوسوورث Stephen

(*) الاسم الجغرافي الذي يُطلق على الكتلة الأرضية التي تضم آسيا وأوروبا، التي تصل مساحتها إلى 54 مليون كيلومتر مربع. تعكس هذه التسمية وجهة نظر كثير من الجغرافيين، الذين ينظرون إلى القارتين باعتبارهما قارة واحدة، حيث لا تفصل بينهما بحار أو محيطات. (المُعرِّب)

Bosworth، الذي يُعَدُّ واحدًا من أكثر خبراء الشأن الصيني الأمريكيين خبرة وحكمة. خدم بوسوورث الحكومة الأمريكية لثلاثة عقود، بما في ذلك العمل سفيرًا في الفيليبين وفي كوريا الجنوبية، وفي عام 1998 عين عميدًا لمدرسة فليتشر للقانون والدبلوماسية Fletcher School of Law and Diplomacy في جامعة توفْتس Tufts University. خلال السنوات العشر التي تلت ذلك التعيين، حوّل بوسوورث اهتمامه عن آسيا، ليتفرغ كليًا لتلك المؤسسة التعليمية، إلى أن طلب منه الرئيس أوباما، عام 2009، أن يكون مبعوثه الخاص لكوريا الشمالية. عندما عاد بوسوورث من رحلة إلى المنطقة امتدت نحو أسبوعين، التقى خلالها بعدد من رؤساء الدول والحكومات، كتب في تقريره إلى الرئيس أنه يجد صعوبة بالغة في تصديق ما رآه. كتب يقول مسترجعًا ذكريات هذه الزيارة: "إن ما رأيته يبدو كتجربة ريب فان وينكِلْ " (*) Rip Van Winkle. ويضيف بوسوورث: " في الأيام الخوالي "، وهو هنا يقصد ما قبل عام 1998، "عندما كانت تنشب في هذه المنطقة أزمة أو مشكلة، كان أول سؤال يطرحه الزعماء الآسيويون هو: ما هو رأي أمريكا في هذه القضية؟ اليوم، عندما يحدث شيء من هذا القبيل، يسألون أولاً: ما هو رأي الصين في هذه القضية.

(*) عنوان قصة قصيرة كتبها الكاتب الأمريكي واشنطن إرفِنْغ Washington Irving عام 1819. تحمل القصة اسم الشخصية الرئيسية فيها، وهو مزارع أمريكي من أصل هولندي، يعيش في منطقة ريفية في جبال كاتسكيل Catskill Mountains، بولاية نيويورك. تدور أحداث القصة في الفترة التي سبقت الثورة الأمريكية، وتلك التي تلت انتهاءها مباشرة، وتتشابه حبكتها الدرامية مع قصة أهل الكهف تشابهًا واضحًا. بدأت القصة عندما قرر المزارع البسيط ريب فان وينكِل أن يهرب من زوجته التي لا تكفّ عن الشكوى والتذمر، وأن يهيم على وجهه في الجبال القريبة منه بصحبة كلبه. التقى وينكل في الجبل برجل هولندي لا يعرفه، بينما يعرف الرجل اسمه. طلب الرجل من وينكل أن يساعده في حمل أغراضه، حتى يتمكن من الوصول إلى قومه. لبّى وينكل طلب الرجل، وعندما وصل إلى هؤلاء القوم، قدموا له كأسًا مما يشربون، شرب وينكل الشراب وغرق في النوم، وعندما استيقظ اكتشف أن ثيابه قد بليت، وأن لحيته قد طالت لتصل إلى أكثر من قدم، وأن العالم من حوله قد تغير تمامًا. لقد استيقظ في يوم كان يجري خلاله حدث لا يفهمه، يطلق الناس عليه "الانتخابات الرئاسية". وتتوالى الأحداث. لقد نام وينكل عشرين عامًا كاملة، نام قبل قيام الثورة الأمريكية، واستيقظ بعد نجاحها، وتأسيس الولايات المتحدة، ليدخل رغمًا عنه في كثير من المشاكل، بسبب ما جرى أثناء نومه من تطورات. لهذا السبب وصف بوسوورث عودته إلى آسيا بعد عشر سنوات من الغياب، بأنها تجربة مشابهة لتجربة ريب فان وينكِل. (المُعرِّب).

هوامش

الفصل الأول

(1) من مقدمة هنري كيسنجر لكتاب لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم Lee Kuan Yew: The Grand Master's Insights on China, the United States, and the World، تأليف غراهام أليسون، بالاشتراك مع روبرت بلاكويل وعلي واين Graham Allison, Robert D. Blackwill, and Ali Wyne، 2013.

(2) زار لي كُوان يِوْ الصين 33 مرة خلال الفترة من 1976 حتى وفاته، بينما زار نحو 22 ألف مسؤول صيني رسمي سنغافورة خلال الفترة من 1990 حتى 2011 فقط، لدراسة نظام العمل داخل البلاد. يمكن مراجعة لي كُوان يِوْ: القائد الذي ارتأت الصين الاقتداء به In Lee Kuan, China Saw a Leader to Emulate، مقال كتبه كريس بَكلي Chris Buckley في صحيفة نيويورك تايمز New York Times في 23 آذار/مارس 2013. يمكن قراءة المقال عبر الرابط التالي: http://sinosphere.blogs.nytimes.com/2015/03/23/in-lee-kuan-yew-china-saw-a-leader-to-emulate.

(3) لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم، تأليف غراهام أليسون وآخرين.

(4) يمكن مراجعة المزيد من خلال الرابط التالي: http://data.worldbank.org/indicator/TM.VAL.MRCH.CD.WT?locations=CN، وكذلك من خلال: http://data.worldbank.org/indicator/TX.VAL.MERCH.CD.WT?locations=CN.

(5) بالفعل تضيف الصين إلى اقتصادها، كل عامين، ما يعادل قيمة الاقتصاد الهندي بكامله. على سبيل المثال، وصل إجمالي الناتج المحلي للصين إلى 8.6 تريليون دولار عام 2012، وإلى 10.6 تريليون دولار عام 2014. في هذين العامين، أضافت الصين إلى إجمالي الناتج المحلي 2 تريليون دولار. في الوقت نفسه، كان إجمالي الناتج المحلي للهند 1.8 تريليون دولار عام 2012، و1.9 تريليون دولار عام 2013، و2 تريليون دولار عام 2014. يمكن الاطلاع على المزيد من خلال الرابط التالي: http://imf.org/external/pubs/ft/weo/2016/02/weodata/index.aspx.

(6) الاقتصاد العالمي: إحصائيات تاريخية The World Economy: Historical Statistics، تأليف آنغوس ماديسون Angus Maddison، 2006.

(7) هناك كثير من الأمثلة على هذه الفجوة الإنتاجية: لقد أصبح العمال البريطانيون أعلى إنتاجية من العمال الصينيين، في مجال غزل الصوف، بنحو ست وستين مرة، بعد أن استخدموا

اختراعًا جديدًا هائلًا، عجز الصينيون عن التكيّف معه. (عن كتاب رافعة الأثرياء: الإبداع التكنولوجي والتقدم الاقتصادي The Lever of Riches: Technological Creativity and Economic Progress، تأليف جويل موكير Joel Mokyr، 1990). كما كانت إنتاجية عمال النسيج الهولنديين، التي تقارب إنتاجية نظرائهم البريطانيين، تقدر بنحو ستة أمثال إنتاجية العمال الصينيين في أكثر مناطق الصين تطورًا، وهي دلتا نهر يانغتسي Yangtze. (عن مقال بعنوان قبل التباعد الكبير Before the Great Divergence، كتبه بوزهونغ لي Bozhong Li وجان لويتِن فان زاندِن Jan Luiten van Zanden، في مجلة التاريخ الاقتصادي Journal of Economic History، في كانون الأول/ديسمبر 2012). وأكثر من ذلك كله، كانت القدرات العسكرية لدول الغرب عام 1800، أعلى من مثيلاتها في دول الشرق بخمس مرات. وهو الأمر الذي مكّن بريطانيا من اكتساح الصين بسهولة في أربعينيات القرن التاسع عشر. (عن كتاب لماذا يحكم الغرب حتى الآن Why the West Rules - for Now، تأليف إيان موريس Ian Morris، 2010).

(8) لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة الموضوع الذي نشرته هيلاري كلينتون في مجلة السياسة الخارجية Foreign Policy، يوم 11 تشرين الأول/أكتوبر 2011، بعنوان قرن أمريكا الباسيفيكي America's Pacific Century، من خلال الرابط التالي: http://foreignpolicy.com/2011/10/11/americas-pacific-century.

(9) جاء ذلك في سياق خطاب ألقاه أوباما أمام البرلمان الأسترالي في 17 تشرين الثاني/نوفمبر 2011. يمكن مراجعة النص الكامل للخطاب من خلال الرابط التالي: http://obamawhitehouse.archives.gov/the-press-office/2011/11/17/remarks-president-obama-australian-parliament.

(10) مزيد من التفاصيل في موضوع بعنوان اعتدال خطير Dangerous Modesty، نشرته مجلة إيكونومِست Economist يوم 6 حزيران/يونيو 2015، يمكن الاطلاع عليه من خلال الرابط التالي: http://www.economist.com/news/briefing/21653617-america-has-learnt-hard-way-it-cannot-fix-problems-middle-east-barack.

(11) صُنْعُ قوة اقتصادية عظمى: فكُّ لغز التقدم الصناعي السريع في الصين The Making of an Economic Superpower: Unlocking China's Secret of Rapid Industrialization، تأليف يِـي وين Yi Wen، 2016.

(12) يمكن الاطلاع على مزيد من التفاصيل في تقرير سكوشابنك العالمي عن السيارات Scotiabank Global Auto Report، الذي صدر يوم 29 أيلول/سبتمبر 2016، من خلال الرابط التالي: http://www.gbm.scotiabank.com/English/bns_econ/bns_auto.pdf.

(13) يمكن مراجعة مقال بعنوان كلما نضُج سوق الهواتف الذكيّة الصينية، يزداد انتشار الأجهزة المرتفعة السعر As China's Smartphone Market Matures, Higher-Priced Handsets Are on the Rise، المنشور في صحيفة وول ستريت جورنال Wall Street Journal، يوم 29 نيسان/أبريل 2016، من خلال الرابط التالي: http://blogs.wsj.com/chinarealtime/2016/04/29/as-chinas-smartphone-market-matures-higher-priced-handsets-are-on-the-rise/؛ وموضوع جائزة التجارة الإلكترونية الصينية، الذي كتبه كل من سيرج هوفمان Serge Hoffmann وبرونو لانِّيس Bruno Lannes، من خلال الرابط التالي: http://www.bain.com/Images/BAIN_BRIEF_Chinas_e-commerce_prize.pdf؛ وتقرير لشبكة CNN حول الموضوع نفسه، من خلال الرابط التالي: http://www.cnn.com/2015/02/03/world/china-internet-growth-2014/.

(14) الصين هي أكبر مستورد في العالم للبترول وسائر أنواع الوقود السائل، كما نشرت الإدارة

الأمريكية لمعلومات الطاقة US Energy Information Administration يوم 24 آذار/مارس 2014 على الرابط التالي: http://www.eia.gov/todayinenergy/detail.php?id=15531؛ كما تُمثل الصين اليوم ملحمة في مجال الطاقة الشمسية، على حد تعبير ريتشارد مارتين Richard Martin، في دراسة نشرها يوم 22 آذار/مارس 2016 في نشرة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT Technology Review، ويمكن الاطلاع عليها على الرابط التالي: http://www.technologyreview.com/s/601093/china-is-on-an-epic-solar-power-binge/

(15) يمكن مراجعة مداخلة بعنوان لماذا تعدُّ الصين محورًا للنمو العالمي، قدمها ستيفن روتش Stephen Roach إلى المنتدى الاقتصادي العالمي World Economic Forum، يوم 2 أيلول/سبتمبر 2016، على الرابط التالي: http://www.weforum.org/agenda/2016/09/why-china-is-central-to-global-growth.

(16) نشرت المجلة هذا الموضوع يوم 4 كانون الأول/ديسمبر 2014، ويمكن الاطلاع عليه من خلال الرابط التالي: http://www.marketwatch.com/story/its-official-america-is-now-no-2-2014-12-04.

(17) ويمضي فيشر قائلًا: "غير أنه من المهم أن نفهم أن هذا أول تقدير تقريبي. فبالنسبة للسلع التي يجري تداولها على المستوى الدولي، ومنها على سبيل المثال البترول، تُعدُّ معدلات سعر الصرف في الأسواق المقياس الأكثر ملاءمة. الأهم من ذلك، أن هناك عوامل أخرى، تتجاوز العوامل الاقتصادية التقليدية، تؤثر على القدرات العسكرية لدولة ما، ومنها القدرة السياسية على تحميل مواطنيها ضرائب إضافية، وقدرتها على تخصيص جانب من مواردها للإنفاق على وسائل تعزيز الأمن القومي". وقد حظيت هذه النقطة باهتمام عالم الاقتصاد تشارلز كِندلبيرغر Charles Kindleberger، الذي كتب يقول: "تعتمد إمكانية تمويل الإصلاحات، إلى حد كبير نسبيًا، على حجمها، كما تعتمد على مدى ما يبذله البلد المعني من جهود حازمة ومتماسكة للقيام بذلك، بصرف النظر عن إمكانية فرض تمويل هذه الإصلاحات بالقوة الجبرية الغاشمة، وهو طرح لا يمكن أن يتبناه عالِم اقتصاد بسهولة". لمزيد من التفاصيل، يمكن مراجعة كتابه الهَوَسُ والهَلَعُ، والانهيار Manias, Panics, and Crashes، 2005.

(18) دراسة بعنوان التوازن العسكري في عام 2016 The Military Balance 2016، صدرت عن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية International Institute for Strategic Studies.

(19) البيانات الخاصة بإجمالي الناتج المحلي مأخوذة عن صندوق النقد الدولي، والفترة التي توصف بأنها فترة الأزمة الاقتصادية والركود الكبير هي الفترة من عام 2010 إلى عام 2016. الأرقام الخاصة بعام 2016 منقولة من التحديث الذي أجراه الصندوق في تشرين الأول/أكتوبر 2016 على قاعدة الصندوق الخاصة بالبيانات الاقتصادية للعالم World Economic Database.

(20) يمكن مراجعة موضوع بعنوان ربما لا تكون الولايات المتحدة القوة الدافعة للاقتصاد العالمي لفترة طويلة قادمة، لديفيد هاريسون David Harrison، نشره في صحيفة وول ستريت جورنال في 8 آذار/مارس 2016، وذلك من خلال الرابط التالي: blogs.wsj.com/economics/2016/03/08/the-u-s-may-be-an-engine-of-the-world-economy-but-perhaps-not-for-long.

(21) من مقال له بعنوان الغرب ليس مستعدًا لصعود الصين، نشر في 16 تموز/يوليو 2012. ويمكن قراءته من خلال الرابط التالي: http://www.newstatesman.com/politics/international-politics/2012/07/kevin-rudd-west-isnt-ready-rise-china.

(22) عصر الطموح: السعي وراء الحظ، والحقيقة، والإيمان في الصين الجديدة Age of Ambition: Chasing Fortune, Truth, and Faith in the New China، تأليف إيفان أوسنوس Ivan Osnos، 2014.

(23) يمكن متابعة مزيد من التفاصيل في المقالين التاليين: تراجُع قطاع العقارات يزيد المخاوف من

الصين، لجميل أندرليني Jamil Anderlini، في صحيفة فايننشال تايمز، 13 أيار/مايو 2014، على الرابط: http://ft.com/content/4f74c94a-da77-11e3-8273-00144feabdc0؛ وكيف استعملت الصين كميات من الإسمنت في ثلاث سنوات فاقت ما استعملته الولايات المتحدة خلال القرن العشرين بكامله، لـ آنا سوانسن Ana Swanson، في صحيفة واشنطن بوست، 24 آذار/ مارس 2014: http://www.washingtonpost.com/news/wonk/wp/2015/03/24/how-china-used-more-cement-in-3-years-than-the-u-s-did-in-the-entire-20th-century/.

(24) يمكن مراجعة التقرير التالي الذي بثته شبكة CNN في 26 حزيران/يونيو 2015: http://cnn.com/2015/06/26/asia/china-skyscraper-prefabricated.

(25) يمكن مراجعة التقرير التالي الذي نشرته مجلة إيكونومِست عام 2011: http://www.eiu.com/Handlers/Whitepaper-Handler.ashx?fi=Building_Rome_in-a_day_WEB_Updated.pdf.

(26) هكذا كُنَّا: كيف تخلَّفت أمريكا في عالم من اختراعها، وكيف يمكننا العودة That Used to be Us: How America Fell Behind in the World It Invented and How We Can Come Back، تأليف توماس فريدمان Thomas Friedman وميخائيل ماندلباوم Michael Mandelbaum، 2012.

(27) يمكن متابعة مزيد من التفاصيل في مقال جسر في الصين يُستبدل في أقل من يومين، لـ جاي بينِّت Jay Bennett، نشرته مجلة بوبيولار ميكانيكس Popular Mechanics في 20 تشرين الثاني/نوفمبر 2015، من خلال الرابط التالي: http://www.popularmechanics.com/technology/infrastructure/a18277/beijing-overpass-replaced-in-less-than-two-days/.

(28) دراسة بعنوان اليد المرئية: دور الحكومة في ثورة الصين الصناعية التي طال انتظارها The Visible Hand: The Role of Government in China's Long-Awaited Industrial Revolution، أعدها جورج فورتير George Fortier ويي وين Yi Wen، لحساب البنك المركزي لسانت لويس Federal Reserve Bank of St. Louis، في آب/أغسطس 2016، ويمكن قراءتها من خلال الرابط التالي: http://research.stlouisfed.org/wp/more/2016-016.

(29) المرجع السابق.

(30) تنقل مجلة إيكونومِست Economist عن بحث أجرته مجموعة بوسطن الاستشارية Boston Consulting Group، أنه من المتوقع أن تصل ثروة آسيا إلى 75 تريليون دولار عام 2020، بينما تصل ثروة أمريكا الشمالية إلى 76 تريليون. ويفصِّل تقرير المجموعة ما تقدم قائلًا: "سوف تظل الولايات المتحدة في موقعها كأكثر دول العالم ثراءً، رغم أنه من المُتوقَّع أن تتجاوز دولُ آسيا-الباسيفيك، بما فيها اليابان، دولَ أمريكا الشمالية بعد عام 2020 مباشرة". مزيد من التفاصيل في التقرير الذي نشرته المجلة يوم 17 حزيران/يونيو 2015، وذلك من خلال الرابط التالي: http://www.economist.com/blogs/freeexchange/2015/06/asia-pacific-wealthier-europe.

(31) مزيد من التفاصيل في تقرير أذاعته شبكة CNBC يوم 24 شباط/فبراير 2016، ويمكن متابعته على الرابط التالي: http://www.cnbc.com/2016/02/24/china-has-more-billionaires-than-us-report.html. وقد كشف تقرير آخر نُشِر في الولايات المتحدة يوم 12 أيار/مايو 2016 أن الصين أفرزت 80 مليارديرًا جديدًا عام 2015، أي ما يقرب من 1,5 ملياردير كل أسبوع. مزيد من التفاصيل من خلال الرابط التالي: http://uhnw-greatwealth.ubs.com/billionaires/billionaires-report-2016/.

(32) يمكن مراجعة الموضوع الذي نشره كريستوفر هورتون Cristopher Horton في صحيفة نيويورك تايمز في 5 نيسان/أبريل 2016، تحت عنوان: عندما يتعلق الأمر بالرفاهية، لا تزال

الصين في المقدمة، وذلك من خلال الرابط التالي: http://www.nytimes.com/2016/04/05/fashion/china-luxury-goods-retail.html.

(33) وفقًا لمؤشر الابتكار العالمي لعام 2016 Global Innovation Index 2016، الذي تنشره جامعة كورنيل Cornell University، بالاشتراك مع المنظمة العالمية للمِلْكية الفكرية World Intellectual Property Organization، جاءت منظومة التعليم الابتدائي والثانوي الصيني في المرتبة الرابعة على مستوى العالم، بينما احتلت الولايات المتحدة المركز التاسع والثلاثين.

(34) في عام 2015، احتلت الولايات المتحدة المركز الحادي والثلاثين بين أعضاء منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي، الذين يبلغ عددهم خمسًا وثلاثين دولة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن أربع مقاطعات صينية فقط شاركت في تقديرات عام 2015، بينما تعكس المرتبة التي حصلت عليها الولايات المتحدة الاختبارات التي جرت في جميع أنحاء البلاد.

(35) غير أن الدراسة نفسها وجدت أن الطلاب الصينيين يفقدون مَيْزة التفكير النقدي هذه أثناء الدراسة الجامعية، حيث تتحسن مهارات الطالب الأمريكي خلال تلك المرحلة، بينما يظل الطالب الصيني على حاله. وقد اعتمدت هذه الدراسة على اختبار أجري على 2700 طالب صيني في 11 جامعة صينية.

(36) مؤشرات العلوم والهندسة لعام 2016، التي أصدرها المجلس الوطني للعلوم National Science Board.

(37) سجلت الصين نحو 38 في المائة من براءات الاختراعات التي سُجِّلت في العالم كله، وهو رقم يعادل مجموع ما سجلته الدول الثلاث التي تليها في الترتيب، وهي الولايات المتحدة، واليابان، وكوريا، بحسب المؤشرات العالمية للملكية الفكرية. التفاصيل في الرابط التالي: http://www.wipo-int/edocs/pubdocs/en/wipo_pub_941_2016.pdf.

(38) في عام 2012، أنفقت الولايات المتحدة 397 مليار دولار على مجالات البحث العلمي، بينما أنفقت الصين 257 مليار. غير أنه من المتوقع أن يرتفع الإنفاق الصيني ارتفاعًا هائلًا ليصل إلى 600 مليار دولار عام 2024، بينما يظل الإنفاق الأمريكي في العام نفسه أقل من 500 مليار دولار. وفقًا لمنظمة التنمية والتعاون في الميدان الاقتصادي، على الرابط التالي: http://www.oecd.org/newsroom/china-headed-to-overtake-eu-us-in-%20science-technology-spending.htm.

(39) نُشر هذا التقرير يوم 29 تموز/يوليو 2015، ويمكن قراءته كاملًا من خلال الرابط التالي: https://obamawhitehouse.archives.gov/blog/2015/07/29/advancing-us-leadership-high-performance-computing.

(40) مزيد من التفاصيل في تقرير نُشر على موقع قائمة الخمسمائة Top500List، يوم 20 حزيران/يونيو 2016، ويمكن متابعته على الرابط التالي: https://www.top500.org/news/new-chinese-supercomputer-named-worlds-fastest-system-on-latest-top500-list/.

بالإضافة إلى تقرير آخر نُشر على موقع فيرج The Verge، في اليوم نفسه، ويمكن متابعته على الرابط التالي: http://www.theverge.com/2016/6/20/11975356/chinese-supercomputer-worlds-fastes-taihulight.

(41) مزيد من التفاصيل في موضوع نشره ستيفن موفسون Steven Mufson في صحيفة واشنطن بوست يوم 9 أيلول/سبتمبر 2015، ويمكن الاطلاع عليه من خلال الرابط التالي: https://www.washingtonpost.com/business/economy/energy-secretary-is-urged-to-end-us-nuclear-fuel-program-at-savannah-river/2015/09/09/bc6103b4-5705-11e5-abe9-27d53f250b11_story.html. وكذلك في موضوع لدارِّن صامويلسون Darren Samuelson، نُشِر في مجلة بوليتيكو Politico يوم 26 أيار/مايو 2015، ويمكن قراءته من

خـلال الـرابـط الـتـالـي: http://www.politico.com/agenda/story/2015/05/billion-dollar-kemper-clean-coal-energy-project-000015.

(42) كما تعمل الصين على تقوية ترسانتها النووية، فعلى مدار عدة عقود، في أعقاب تحوُّلها إلى قوة نووية عام 1964، احتفظت الصين بقوة نووية صغيرة من الصواريخ البالستية العابرة للقارات intercontinental ballistic missiles، وهو ما يتركها عُرْضة للضربة الأولى من أي عدو لها. ومنذ منتصف التسعينيات، شرعت في نشر قوات نووية تجعلها أكثر قدرة على البقاء حتى بعد تلقّي الضربة الأولى، ومنها مؤخرًا صواريخ بالستية متحركة، وأخرى يمكن إطلاقها من الغواصات. وقد أجبر هذا الوضع الولايات المتحدة على أن توقِّع مع الصين اتفاقية للتدمير المتبادل للأسلحة النووية، على غِرار الاتفاقية الموقعة مع الاتحاد السوفييتي خلال سنوات الحرب الباردة. وقد انعكست آثار تلك الاتفاقية على تقرير استعراض الوضع النووي للولايات المتحدة الذي صدر عام 2010، حيث نصَّ على أن الولايات المتحدة سوف تحرص على عدم الإقدام على أي تصرفٍ يمكن أن يؤثر سلبيًا على استقرار العلاقات النووية مع كل من روسيا والصين.

(43) مزيد من التفاصيل في تقرير البنك الدولي عن الإنفاق العسكري، الذي يمكن الوصول إليه عبر الرابط التالي: http://data.worldbank.org/indicator/MS.MIL.XPND.GD.ZS.

(44) نتذكَّر هنا قاعدة الـ (72) التي تقول: إذا قسمنا 72 على معدل النمو السنوي، عرفنا كم سوف يستغرق هذا المعدل، كي يصل إلى ضعف ما هو عليه حاليًا.

(45) عن تقرير التوازن العسكري لعام 2016، الذي أصدره المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية.

(46) السجل العسكري الأمريكي–الصيني: القوات، والجغرافيا، وتطور ميزان القوى The US-China Military Scorecard: Forces, Geography, and the Evolving Balance of Power، دراسة أعدَّها إريك هيغِنبوثام وآخرون Eric Heginbotham et al.، 2015.

(47) في لقاء لها مع الصحافيين على هامش الحوار الاستراتيجي والاقتصادي Strategic and Economic Dialogue الذي عقد في بيجين في أيّار/مايو 2012، قالت هيلاري كلينتون: "نحن نتطلع إلى المستقبل بتفاؤل كبير. ونحن نؤمن أن أيًا منّا لا يستطيع أن يتحمل تبعات مواصلة النظر إلى العالم من خلال مفاهيم وسياسات قديمة مثل الإرث الاستعماري أو الحرب الباردة أو توازن القوى. انعدام التفكير لن يؤدي إلى انعدام النتائج، بل إلى نتائج سلبية. لهذا، فإن ما نحاول أن نفعله هو بناء علاقات واقعية تسمح لأمَّتَيْنا بالازدهار دون منافسة غير صحيَّة، أو عداء، أو صراع، ودون الإخلال بواجباتنا الوطنية والإقليمية". يمكن الاطلاع على تفاصيل ما دار في هذا المؤتمر الصحافي على الموقع الرسمي لوزارة الخارجية الأمريكية، من خلال الـرابـط الـتـالـي: https://2009-2017.state.gov/secretary/20092013clinton/rm/2012/05/189315.htm.

(48) جاء ذلك في مقابلة أجراها مؤلف هذا الكتاب مع لي كْوان يِو يوم 2 كانون الأول/ديسمبر 2011.

(49) مزيد من التفاصيل في إحصاءات التجارة الخارجية التي أصدرتها رابطة دول جنوب شرق آسـيـا، الـتـي يـمـكـن الاطـلاع عـلـيـهـا مـن خـلال الـرابـط الـتـالـي: http://asean.org/?static_post=external-trade-statistics-3؛ وكذلك من خلال موضوع نشرته صحيفة فاينشيال تايمز Financial Times يوم 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2016، ويمكن قراءته عبر الرابط التالي: https://www.ft.com/content/c3840120-aee1-11e6-a37c-f4a01f1b0fa1.

(50) مزيد من التفاصيل في مقال بعنوان الصين تصبح الدولة الرائدة عالميًا في تمويل التنمية China Becomes Global Leader in Development Finance، كتبه جيمس كينغ James Kynge لصحيفة فاينشيال تايمز Financial Times يوم 17 أيار/مايو 2016. ويمكن قراءته

مـن خـلال الـرابـط الـتـالـي: https://www.ft.com/content/b995cc7a-1c33-11e6-a7bc-ee846770ec15.

(51) قدَّم بنك التنمية الصيني وبنك الصادرات والواردات الصيني، بنهاية عام 2014، قدرًا هائلًا من القروض حول العالم، وصل مجموعها إلى 684 مليار دولار، وهو ما يقل بقدر قليل جدًا عن مجموع القروض البالغة 700 مليار دولار التي قدمتها ستة من المؤسسات المالية الدولية هي: البنك الدولي، وبنك التنمية الآسيوي، وبنك التنمية للبلدان الأمريكية، وبنك الاستثمار الأوروبي، والبنك الأوروبي لإعادة الإعمار والتنمية، وبنك التنمية الأفريقي. وبالإضافة إلى ما سبق، قدمت الصين ما يقدر بنحو 116 مليار دولار لمشروعات تنمية ثنائية وإقليمية، الأمر الذي يجعل إجمالي إسهاماتها في مجالات التنمية حول العالم، أكبر بكثير جدًا من إجمالي ما تقدمه بقية البنوك المتعددة الأطراف في جميع أنحاء العالم. مزيد من التفاصيل في ورقة عمل أعدها عدد من خبراء الاقتصاد في إطار مبادرة الحوكمة الاقتصادية العالمية لجامعة بوسطن Boston University Global Economic Governance Initiative، في أيار/مايو 2016. وهي متوفرة علـى الـرابـط الـتـالـي: http://www.bu.edu/pardeeschool/research/gegi/program-area/china-and-global-development-banking/fueling-growth-and-financing-risk/.

(52) لمزيد من التفاصيل يمكن الاطلاع على مقالة بعنوان جرّافاتنا، قواعدنا "Our Bulldozers, Our Rules، نشرتها مجلة إيكونومِست Economist يوم 2 تموز/يوليو 2016، من خلال الرابط الـتـالـي: http://www.economist.com/news/china/21701505-chinas-foreign-policy-could-reshape-good-part-world-economy-our-bulldozers-our-rules؛ وكذلك مقالة بعنوان خطة مارشال الصين التي كتبتها إندا كوران Enda Curan لشبكة بلومبرغ Bloomberg يوم 7 آب/أغسطس 2016، على الرابط التالي: www.bloomberg.com/news/articles/2016-08-07/china-s-marshall-plan.

(53) لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم، تأليف غراهام أليسون وآخرين

الجزء الثاني

دروس من التاريخ



الفصل الثاني

أثينا في مواجهة أسبرطة

حانت اللحظة الحاسمة الفاصلة، عندما وصلت قوة أثينا إلى ذروة واضحة لا تخطئها العين، وبدأ الأثينيون في التعدي على حلفاء أسبرطة. عند هذا الحد، أدركت أسبرطة أن الوضع لم يَعُدْ مقبولًا، وقررت المبادرة بإشعال هذه الحرب، من خلال تسخير كافة طاقاتها، للهجوم على الأثينيين، بل وتدميرهم إذا أمكن.

لقد كان صعودُ أثينا والخوفُ الذي بثَّه ذلك الصعود في أسبرطة هو ما جعل الحربَ بينهما أمرًا حتميًّا.

— ثيوسيديدز، تاريخ الحروب البيلوبونيزية

في بداية عهدي بالتعليم الجامعي، اخترت دراسة اللغة اليونانية القديمة. وقد أمضيت الجزء الأكبر من عامي الجامعي الأول في تعلم أبجدية جديدة، ومفردات جديدة، وبناء الجمل، والقواعد النحوية. غير أن أستاذنا وعَدَنا بأننا إذا اجتهدنا في التحصيل، سوف يكون باستطاعتنا مع نهاية الفصل الدراسي الثاني، أن نقرأ كتاب زينوفون(*) Xenophon الشهير

(*) زينوفون أو كسينوفون (430 – 354 ق.م) مؤرخ وفيلسوف وقائد عسكري يوناني، عاصر سقراط Socrates وتتلمذ على يديه. تدور معظم كتابات زينوفون حول ما شهدته الفترة التي عاصرها من أحداث، وهنا نقصد نهايات القرن الرابع، وبدايات القرن الثالث، قبل الميلاد. من كتاباته التاريخية الشهيرة كتاب هيلينيكا Hellenica، الذي يعتبره الكثيرون استمرارًا أو استكمالًا لكتاب ثيوسيديديز "تاريخ الحروب البيلوبونيزية". (المُعرِّب)

أناباسيز(*) Anabasis. وأضاف، مُحَفِّزًا، أن هناك جائزة في انتظار أولئك الذين يُظهِرون تفوقًا ملحوظًا في العام التالي: قراءة ثيوسيديديز.

لا تزال الطريقة التي نطق بها الاسم ترن في أذني حتى اليوم: **ثيوسيديديز!** لقد نطق اسم المؤرخ الأثيني بمزيج من الحيوية والتبجيل. كان البروفيسور لابان Laban يعتبر اليونان القديمة أول منارة عظيمة من منارات الحضارة. وكان يؤمن أن إجادة اللغة اليونانية القديمة، هي الطريقة الوحيدة للتعرف على من كان يطلق عليه لقب "أبو التاريخ". فرغم تقدير البروفيسور لابان لهيرودوت(**) Herodotus، كان يصرّ على أن ثيوسيديديز هو أول من ركَّز اهتمامه، بشكل حصري، على تدوين التاريخ "كما حدث بالفعل". كان ثيوسيديديز يمتلك عَيْنَ الصحافي القادرة على التقاط أدق التفاصيل، ودَأْبَ الباحث الأمين في بحثه عن الحقيقة من بين وجهات النظر المتعارضة، وقُدْرَةَ المؤرِّخ على تحديد الأسباب الأصلية التي تكْمُن خلف الأحداث المعقدة والمتشابكة. كما كان ثيوسيديديز، كما تعلمنا من معلمنا لابان، الرائد المؤسس لما نطلق عليه اليوم الواقعية السياسية realpolitik، أو الواقعية في العلاقات الدولية realism in international relations. ولأنني كنت طالبًا يخطو أولى خطواته في مجال دراسة السياسة العالمية، عقدت العزم على الفوز بالجائزة التي وعدنا بها البروفيسور لابان، وهو ما نجحت في تحقيقه نجاحًا باهرًا.

لم يترك لنا ثيوسيديديز إلاّ النذر اليسير مما يتعلق بحياته الشخصية.

(*) واحد من الكتب المهمة للفيلسوف والمؤرخ والقائدَ العسكري اليوناني القديم زينوفون. الذي يقدم في هذا الكتاب ما يشبه السيرة الذاتية لجزء مهم من عمره، وهي الفترة التي عاشها في بلاد فارس. وبسبب دقة هذا الكتاب، وما تضمنه من تفصيلات بالغة الأهمية، استعان به الإسكندر الأكبر كدليل، خلال غزوه لبلاد فارس. (المُعرِّب)

(**) هيرودوت مؤرخ يوناني (484–425 ق.م)، عاصر كلًا من سقراط وثيوسيديديز. يعتبره الكثيرون "أبو التاريخ"، ومن أشهر مؤلفاته كتاب تاريخ هيرودوت، الذي يتكوّن من تسعة مجلدات، وهو الوحيد من بين مؤلفاته الكثيرة الذي وصلنا كاملًا. يصف هيرودوت في هذا الكتاب مشاهداته، ويسجل انطباعاته عن شعوب وحضارات الدول والمدن التي زارها، خاصة في حوض البحر المتوسط. ومن أشهر ما يتناقله الناس عن هيرودوت، العبارة الشهيرة التي تقول: "مصر هبة النيل". (المُعرِّب)

فنحن لا نعرف عنه سوى أنه وُلِد في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وكان واحدًا من مواطني أثينا، التي كانت، بدورها، واحدة من اثنتين من أقوى المدن–الدول في اليونان القديمة. وكان جنرالاً، نُفي من بلده الأم، وطاف بأرجاء حوض البحر المتوسط، زمن احتدام الصراع الذي زعزع أركان العالم القديم، ووضع بلده الأم، أثينا، في مواجهة القوة المهيمنة الأولى في ذلك العصر، المدينة–الدولة أسبرطة، في حرب عظمى، انتهت بسقوط الطرفين. يُعَدُّ كتاب ثيوسيديديز "تاريخ الحرب البيلوبونيزية" السجلَ المُعْتمَد لهذا الصراع، وواحدًا من أهم إنجازات الحضارة الغربية في مجال التأليف. وقد بقي الكتاب حتى يومنا هذا نصًّا مؤثّرًا، لا تقتصر دراسته ومناقشته على المؤرخين والمتخصصين في دراسة الحضارات القديمة فقط، إذ تشمل قائمة المنشغلين به، الراغبين في الاستفادة منه، الخبراء الاستراتيجيين العسكريين والمدنيين في الجامعات والكليات العسكرية في جميع أنحاء العالم.

وكأن ثيوسيديديز كان يرى مستقبل كتابه بوضوح، فقد كتب في المقدمة أن الهدف من تسجيل تلك الأحداث مساعدة مَن سوف يأتي في المستقبل، من زعماء دول، وقادة عسكريين، ومواطنين عاديين، على فهم الحرب، ومن ثمَّ تجنب الأخطاء التي وقع فيها أسلافهم: "سوف أكون راضيًا وسعيدًا، إذا اعتبر الساعون إلى معرفة الماضي معرفة حقيقية، كتابي هذا عملاً مفيدًا، وعونًا على فهم المستقبل، الذي، في سياق مسار البشرية، يجب أن يشبه الماضي، إن لم يتطابق معه"[1]. وباعتباره المؤرخ التطبيقي الأول، كانت له رؤية عبَّرتْ عنها في ما بعد ملاحظةٌ بارعة لونستون تشرشِل(*) Winston Churchill، حين قال: "كلما أمعنتَ النظر في الماضي، زادت قدرتُك على استشراف المستقبل".

(*) ونستون تشرشل (1874-1965) رئيس الوزراء الأكثر شهرة في تاريخ المملكة المتحدة المعاصر. تولى تشرشل منصبه مرتين: الأولى من عام 1940 إلى عام 1945، حيث قاد بلاده خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، ثم عاد لتولي المنصب مرة ثانية من عام 1952 إلى عام 1955. لم يكن تشرشل سياسيًا بارعًا فقط، لكنه كان مفكرًا ومؤرخًا وأديبًا وفنانًا، ويكفي أنه رئيس الوزراء الوحيد، على مستوى العالم، الذي فاز بجائزة نوبل في الأدب. (المُعرِّب)

في العام الثاني، عرفنا، زملائي وأنا، من كتاب ثيوسيديديز، أن السلام دام زمنًا طويلاً، بعد انتهاء الحرب العظمى بين أثينا وأسبرطة. قرأنا عن تجربة أثينا الرائعة في الممارسة الديمقراطية، وتفجُّر طاقاتها الخلاقة في كل مجال، وبشكل غير مسبوق. لقد اخترع اليونانيون القدماء الفلسفة، والدراما، والعمارة، والنحت، والتاريخ، ومعدات الحروب البحرية، وغير ذلك كثير، وما لم يخلقوه بأنفسهم ارتقوا به إلى مستويات لم يصل إليها أحد قبلهم من البشر على مرّ التاريخ. إن ما خلّفَه لنا فلاسفة ومفكرون ومعماريون من أمثال سقراط(*) Socrates، وأفلاطون(**) Plato، وسوفوكليس(***) Sophocles، ويوريبيدس Euripides، وأرسطوفانيس Aristophanes، وإكتينوس Ictinus، وديموستينيس Demosthenes، وبريكليس Pericles، يشهد على دورهم الرائع في تقدم الإنسانية.

لقد كتب ثيوسيديديز هذا الكتاب لكي نفهم نحن كيف وجدت دول عظيمة نفسها في أتون حرب عاتية مدمرة، رغم أنها استطاعت العيش في سلام لعقود طويلة. وبينما يُبرز الآخرون أسبابًا تقريبية لتلك الحرب، يدخل ثيوسيديديز إلى قلب الموضوع مباشرة: "في ما يتعلق بالأسباب التي دفعت أثينا وأسبرطة إلى خرق ما كان بينهما من هدنة، أقترح أن نتحدث أولاً عن أسباب شكاوى كل منهما في حق الآخر، وعن الحالات المحددة التي شهدت تصادم مصالح بينهما". غير أن ثيوسيديديز يحذرنا موضحًا: "مثل هذه النقاشات والجدال، غالبًا ما يشوِّش على السبب الحقيقي للحرب".

(*) سقراط فيلسوف يوناني (428 – 348 ق.م)، يوصف بأنه أبو الفلسفة الغربية، كما يوصف بأنه الرائد الأول لما يُعرف بالفلسفة الأخلاقية moral philosophy. لم يصل إلى أيدينا كتاب كامل من أعمال سقراط، بينما وصلتنا أراؤه من خلال ما تناثر منها في كتابات تلامذته. (المُعرِّب)

(**) أفلاطون فيلسوف يوناني (469 – 399 ق.م)، كان تلميذًا وصديقًا لسقراط، وهو مؤسس "أكاديمية أثينا" التي تعد أول معهد للدراسات العليا في العالم. (المُعرِّب)

(***) سوفوكليس واحد من أشهر كتّاب التراجيديا اليونانية القديمة (496 – 406 ق.م). من أشهر أعماله: أوديب Oedipus، وإليكترا Electra، وأنتيغون Antigone. (المُعرِّب)

تحت سطح هذه العوامل المساعدة، يركز ثيوسيديديز اهتمامه على سبب يرى أنه أكثر أهمية وجوهرية، وأنه السبب الذي جعل الحرب "قدَرًا محتومًا، ألا وهو، "صعودُ أثينا والخوفُ الذي بثَّه ذلك الصعود في أسبرطة"[2].

هذه هي الظاهرة التي أسميتُها فخ ثيوسيديديز: الضغط البنيوي الذي يحدث عندما تهدد قوةٌ صاعدة بالانقلاب على قوة مهيمنة، وإزاحتها عن موقعها. في مثل هذه الحالات، لا ينفجر الصراع، فقط، عندما تقع أحداث غير عادية وغير متوقعة، بل إن خلافًا عاديًا عابرًا في مجال من مجالات الشؤون الخارجية، يمكن أن يؤدي إلى اشتعال حرب لا يعرف أحد مداها.

يكشف كتاب ثيوسيديديز، بوضوح، عن الكيفية التي دفعت بها تلك المؤثرات أثينا وأسبرطة إلى الحرب. يقول ثيوسيديديز إن أثينا وأسبرطة، اللتين وحَّدتا جيشيهما وخاضتا، بالجيش الموحد، حربًا عظمى ضد الفرس لطردهم من الأراضي اليونانية، استطاعتا إدارة التنافس بينهما بطريقة سلمية مكنتهما من حل سلسلة من المشاكل الخطيرة التي كانت تهدد باشتعال حرب بينهما، بما في ذلك التفاوضِ حول معاهدة تتيح للطرفين ثلاثين عامًا من السلام الشامل. لقد أدركت الدولتان أن ما بينهما من اختلافات واضحة في الثقافة والنظام السياسي، وتَعارُض في المصالح، يجعل التنافس الشرس بينهما أمرًا حتميًا. غير أنهما أدركتا، في الوقت نفسه، أن الحرب بينهما سوف تكون كارثية، ومن ثَمَّ كانتا مصمِّمتين على إيجاد طريقة تضمن لكل منهما تحقيق مصالحها، دون حرب.

إذًا، كيف انزلقت المدينتان–الدولتان اليونانيتان العظيمتان، إلى هاوية صراع كانت له عواقب كارثية مدمِّرة على كليهما؟ إن كل صفحة من الصفحات الستمائة لكتاب "تاريخ الحرب البيلوبونيزية"، تقدم تفاصيل دامغة ومقنعة للمنعطفات والتغيرات التي امتلأ بها الطريق الذي أودى بهما إلى تلك الحرب المهلكة[3]. قصص عن لقاءات دبلوماسية بين الدولتين الرئيسيتين ودول يونانية أخرى أقل حجمًا مثل ميلوس Melos، وميغارا

Megara، وكوركيرا Corcyra، وغيرها، تذخر بإشارات وتلميحات تعليمية وإرشادية حول أسس فن الحكم. غير أن الخط الرئيسي لرواية ثيوسيديديز هو القوة الجاذبة التي شدَّت أثينا وأسبرطة باتجاه التصادم: صعود أثينا الذي لا يعرف الكلل، وإحساس أسبرطة المتنامي بأن هذا الصعود يزعزع هيمنتها على اليونان. بعبارة أخرى، كان الموضوع أو الخط الرئيسي، فخ ثيوسيديديز، والطريقة التي استطاع من خلالها أن يوقع القوتين الأعظم في العالم القديم، رغم محاولاتهما المتكررة، لتجنب الوقوع في حبائله.

عندما يتصادم صاعد مع مهيمن

قبل الغزو الفارسي لليونان عام 490 قبل الميلاد، كانت أسبرطة القوة التي تهيمن على المنطقة على مدار قرن من الزمان. وكان على أسبرطة، وهي المدينة–الدولة التي تقع في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة اليونانية، المعروف باسم بيلوبونيز Peloponnese، أن تحتوي عددًا من القوى المتوسطة الحجم، التي تقع على حدودها، بالإضافة إلى استيعاب عدد كبير من العبيد المعروفين باسم هيلوتس(*) Helots، الذين وصل تعدادهم إلى سبعة أمثال تعداد مواطني أسبرطة[4].

كانت أسبرطة، وستبقى أبدًا، نموذجًا للثقافة العسكرية، أو الثقافة الـمُعَسْكَرة، المطلقة. فقد كان المبدأ الذي يحكم المجتمع بكامله، أفرادًا وعائلات وحكومات، هو تعظيم قدرات القوات المقاتلة، وشحذ عزيمتها. وفي هذا الإطار، كانت السلطات الأسبرطية تسمح للمواليد الأصحاء فقط بالبقاء على قيد الحياة، كما كانت تلك السلطات تأخذ الأبناء من أحضان عائلاتهم في عمر السابعة وتلحقهم بأكاديميات عسكرية، حيث يجري الاهتمام بتقوية

(*) اختلف المؤرخون حول أصل هذه التسمية، غير أنهم اتفقوا على أن هذه الطبقة من العبيد كانت تعمل، بشكل أساسي، في الحقول والمزارع، التي توفر لأسبرطة احتياجاتها الغذائية، ويقول بعض المؤرخين إن أسبرطة استخدمت الهيلوتس خلال بعض المعارك، سواء كمشاة في الخطوط الأمامية، أو كقوة بشرية لتحريك مجاديف السفن الحربية. (المُعرِّب)

أجسادهم، وتدريبهم، وإعدادهم للحرب. كان باستطاعة الشاب الأسبرطي أن يتزوج في سن العشرين، غير أنه كان مجبرًا على مواصلة العيش في التجمعات العسكرية، حيث يتناول مع أقرانه طعامًا جماعيًا، ويمارس معهم التدريبات العسكرية بشكل يومي. وعندما يبلغ الشاب الأسبرطي سن الثلاثين، يصبح مواطنًا كامل الأهلية، بعد أن يكون قد خدم الدولة ثلاثة وعشرين عامًا، ومن ثَمَّ يصبح من حقه حضور اجتماعات مجلس العموم، الذي يهيمن عليه المحافظون، وكبار السن من الأرستقراطيين، وهي تركيبة مخالفة تمامًا لتركيبة مجلس العموم المقابل له في أثينا. لم يكن الأسبرطي يُعفى من الاستدعاء لأداء الخدمة العسكرية إلا بعد أن يتجاوز الستين من عمره. وكما يقول بلوتارخ(*) Plutarch، كانت الأم تودع ابنها ساعة خروجه إلى الحرب قائلة: "عُد حاملاً درعك، أو محمولاً عليها"[5].

على العكس من ذلك، كانت أثينا مدينة ساحلية، تقع على نتوء خليجي جاف ذي أرض جرداء في منطقة آتيكا Attica، تعزلها عن بقية أراضي اليونان جبال عالية، تسكنها أعداد ضئيلة من السكان، وتستمد مكانتها من ثقافتها. كان الأثينيون على مر العصور أمة تعمل أساسًا بالتجارة مع التجار الذين يعبرون بحر إيجة Aegean Sea، ليبيعوا بضائعهم من زيت الزيتون وأخشابه، والمنسوجات، والأحجار الكريمة. وعلى النقيض من أسبرطة، التي كانت أشبه بثكنة عسكرية مغلقة، كانت أثينا مجتمعًا مفتوحًا، كما كانت أبواب أكاديمياتها مفتوحة أمام الطلاب القادمين من جميع أنحاء اليونان. وبعد قرون من الخضوع لنظام حكم فردي، تميَّز بعدد من الحكام الأقوياء، بدأت أثينا تجربة سياسية جديدة وجريئة، عُرِفت في ما بعد بالديمقراطية. اعتمدت تلك التجربة على هيئتين هما مجلس العموم ومجلس الخمسمائة. ومن خلال هاتين الهيئتين المفتوحتين، كان باستطاعة كافة أحرار المدينة-الدولة المشاركة في اتخاذ كافة القرارات المصيرية.

(*) لوسيوس ميستريوس بلوتارخوس Lucius Mestrius Plotarchus (46-120 ق.م)، مؤرخ وكاتب سيرة ذاتية يوناني. من أشهر مؤلفاته: السير المقارنة لعظماء اليونان Parallel Lives، والأخلاق Moralia. (المُعرِّب)

خلال الفترة التي سبقت القرن الخامس قبل الميلاد، كانت بلاد اليونان معزولة عن غيرها من دول العالم القديم بشكل كبير، ومنقسمة على نفسها إلى مجموعة من المدن–الدول التي تتمتع كل منها بحكم ذاتي. غير أن الغزو الفارسي عام 490 قبل الميلاد أجبر اليونانيين على التجمع معًا بشكل لم يحدث من قبل، لمواجهة هذا التهديد المشترك. في وقت لاحق، في ثيرموبيلاي Thermopylae، استطاعت قوة انتحارية أسطورية تتكون من ثلاثمائةٍ من خيرة مقاتلي أسبرطة الصمود في وجه جيش فارسي كامل، مُضَحّين بحياتهم في معركة انتحارية، من أجل تعطيل تقدم ذلك الجيش، إلى أن يكتمل تجميع القوات اليونانية المشتركة(*). على صعيد آخر، في ميناء سالاميس Salamis، استطاع أسطول للحلفاء اليونانيين، يقوده قائد أثيني، تدمير أسطول فارسي يقدَّر بنحو ثلاثة أمثال حجم الأسطول اليوناني(**). وفي عام 479 قبل الميلاد، انتصرت القوات اليونانية المشتركة، على القوات الفارسية الغازية، انتصارًا ساحقًا، وردَّتها على أعقابها للمرة الثانية، وإلى الأبد.

إدراك أثينا أنها لعبت دورًا محوريًا في انتصار اليونان، أطلق طموحها إلى أن تأخذ مكانها بين القوى التي تحتل مكانة بارزة في اليونان، وهو ما تحقق لها بالفعل. ففي أعقاب الانسحاب الفارسي، عاشت تلك المدينة–الدولة نهضة اقتصادية وعسكرية وثقافية هائلة. لقد أغرى انتعاش الاقتصاد

(*) Thermopylae كلمة يونانية قديمة تعني حرفيًا البوابات الملتهبة. ومنطقة ثيرموبيلاي ممر ساحلي تنتشر عليه مجموعة من ينابيع المياه الكبريتية الساخنة، ومن هذه الينابيع استمد الممر اسمه. وقعت معركة ثيرموبيلاي في الثامن من أيلول/سبتمبر عام 480 قبل الميلاد. وعلى مدار ثلاثة أيام، استطاعت القوة الأسبرطية المحدودة، إيقاف الجيش الفارسي الذي يتكوَّن من 150 ألف مقاتل، وفقًا لأقل التقديرات، في حين تقدر بعض المؤلفات القديمة تعداد هذا الجيش بنحو مليون مقاتل. ورغم أن المعركة انتهت بمصرع جميع أفراد القوة الخاصة، فهي قد بقيت علامة من علامات التاريخ العسكري، وبرهانًا يثبت أن التخطيط الدفاعي الجيد، يستطيع أن يتفوق على الكثرة العددية، ولو إلى حين. (المُعرِّب)

(**) في معركة سالاميس استطاع القائد اليوناني ثيمِيسْتوكليس Themistocles، بأسطول يتكوَّن من 380 سفينة فقط، أن يقهر الأسطول الفارسي، الذي كان يتكوَّن من 800 سفينة، يقودها الملك زيريكسيس Xerexes شخصيًا. (المُعرِّب)

الأثيني التجار والبحارة من جميع أرجاء العالم اليوناني، بالالتحاق بأسطولها التجاري. ومع نمو حجم تجارتها، أضافت أثينا إلى قوتها البحرية أسطولاً جديدًا من السفن التجارية، فتجاوز حجم تلك القوة ضعف حجم القوة البحرية لأقرب منافسيها، وفقًا لتقديرات ثيوسيديديز[6]. كانت كوركيرا Corcyra، التي تقع على مسافة بعيدة من أثينا، الدولة اليونانية الوحيدة التي تمتلك أسطولاً حقيقيًا، تأتي بعدها كورينث Corinth، الحليف الرئيسي لأسبرطة. غير أن أيًا من هاتين القوتين، لم تُشكِّل خطرًا حقيقيًا على أثينا، فقد أثبتت انتصارات أثينا الساحقة على الفرس، أن مهارة بحارتها أكثر أهمية من حجم أسطولها.

على مدار القرن الخامس قبل الميلاد، حوَّلت أثينا، بشكل تدريجي متصاعد، شبكة التحالف الدفاعية التي كانت قد شكلتها لمحاربة الفرس، إلى إمبراطورية بحرية، تفرض أمرًا واقعًا جديدًا في المنطقة. وقد أصرَّت أثينا على أن يتحمَّل حلفاؤها نصيبًا من أعباء الحفاظ على هذه الإمبراطورية، وعندما حاولت دول مثل ناكسوس Naxos التهرب من تلك الالتزامات، تصدَّت أثينا لتلك المحاولة بقوة، وقمعتها بعنف. مع حلول عام 440 قبل الميلاد، كانت كافة مستعمرات أثينا، باستثناء لِسْبوس Lesbos، وخيوس Chios، البعيدتين نوعًا ما، قد تخلَّت عن أساطيلها الخاصة، ووضعت نفسها تحت حماية أثينا، مقابل دفع ما يشبه الجزية السنوية. في أعقاب ذلك، وسَّعت أثينا خطوط تجارتها البحرية عبر المنطقة كلها (لتخلق نظامًا تجاريًا أدى إلى أنّ دولاً يونانية صغيرة كثيرة أصبحت أقل ثراءً وأكثر ارتباطًا بأثينا، من أي فترة سابقة). في الوقت نفسه، امتلأت خزائن أثينا بالذهب، فسخَّرت تلك الإمكانيات الهائلة لتمويل انطلاقة ثقافية تمثلت في بناء صروح معمارية لم ترها عين من قبل (منها على سبيل المثال البارثينون)، وإحياء حفلات متكررة لعرض مسرحيات سوفوكليس. ورغم أن أجزاءً أخرى من اليونان كانت تنظر إلى هذا الأمر بامتعاض واستياء، كان الأثينيون يرون أن توسع إمبراطوريتهم لا يشكل تهديدًا لأي طرف على

الإطلاق. وهو الأمر الذي عبّر عنه الأثينيون لاحقًا، مخاطبين أسبرطة: "لقد أقمنا هذه الإمبراطورية دون اللجوء إلى العنف، فالحلفاء هم الذين اختاروا الارتباط بنا، والانضمام إلينا، ثم طلبوا منّا بشكل عفوي، أن نتولى القيادة"[7].

لقي هذا الادعاء استهزاءً من قبل الأسبرطيين، الذين كانوا يعرفون أن الأثينيين لا يقلون عنهم قسوةً ومكرًا وخداعًا. وبالإضافة إلى ما تقدم، كانت شكوك الأسبرطيين تعكس التناقض المطلق بين مفهوم السياسة والثقافة لدى القوتين. كانت أسبرطة تعتمد نظامًا سياسيًا مختلطًا، يمزج بين الملكية المطلقة monarchy، والأوليغارشيَّة[*] oligarchy. وقد تميزت أسبرطة بعدم التدخل في شؤون غيرها من الدول التي تبعد عنها، إلا في حالات نادرة، حيث كان تركيزها ينصب على التصدي لمتمردي الهيلوتس في الداخل، وتأمين هيمنتها الإقليمية. صحيح أن الأسبرطيين كانوا يعتزّون بثقافتهم المتميزة، غير أنهم، وعلى عكس الأثينيين، لم يسعوا إلى إجبار أو حثِّ الآخرين على أن يقتدوا بهم. وبالرغم من امتلاك قوات برية مهيبة، كانت أسبرطة قوة محافظة، قانعة بما هي عليه[8]. وقد أشار سفير كورينثيا إلى هذا الأمر تلميحًا، في خطاب له أمام أعضاء مجلس العموم الأسبرطي: "إن الأثينيين مهووسون بالابتكار، وجميع تصميماتهم تتميز بالخفة والرشاقة سواء من حيث الإعداد أو التنفيذ. بينما أنتم تحافظون على ما لديكم، ولا تخترعون جديدًا، وعندما تجدون أنفسكم في موقف يجبركم على التصرف، تكون أفعالكم أقل بكثير مما يتطلبه الموقف"[9].

ربما تحمل وجهة نظر سفير كورينثيا قدرًا من السخرية، غير أنه قدر لا يبتعد بها عن الحقيقة كثيرًا. لقد أظهر الأثينيون جرأة في كل منحىً من مناحي حياتهم القومية. وآمن الأثينيون بأن ما يفعلونه يهدم الحدود

(*) المقصود هنا حكم الأقلية أو حكم النخبة، حيث تسيطر على الحكم مجموعة صغيرة من أفراد المجتمع، تجمع بين أفرادها وحدة المصالح، أو وحدة الانتماء الطبقي، أو وحدة الانتماء الفئوي "العسكر مثلاً". (المُعرِّب)

التي تقف عائقًا أمام طاقات البشر، وقدراتهم الإبداعية. لم يكن لدى الأثينيين أدنى تحفظ في ما يتعلق بالتدخل في شؤون الدول الأخرى عبر الجزر اليونانية، لإزاحة حكومات الأقليات فيها، وإقامة حكومات ديمقراطية محلها. في الوقت نفسه، كان الأثينيون يسعون باستمرار، وبإلحاح، إلى إقناع الدول المحايدة (مثل كوركيرا) بالانضمام إلى التحالف الذي تقوده أثينا. كان واضحًا أن طموح أثينا لا يعرف حدودًا، وهو الأمر الذي أزعج أسبرطة وأربكها، أكثر من أي شيء آخر. وقد عبَّر عن هذا الطموح، بوضوح، دبلوماسي أثيني، في سياق خطاب ألقاه أمام مجلس العموم الأسبرطي، قبل اندلاع الحرب بين الدولتين بفترة وجيزة: "نحن لم نبتدع قانونًا جديدًا، فالقانون السائد أبدًا، هو أن الأضعف، مجبر على أن يكون تابعًا للأقوى"[10].

بعد فترة قصيرة من انسحاب الفرس، أراد زعماء أسبرطة أن يذكِّروا العالم اليوناني بأنهم كانوا ولا يزالون أصحاب الهيمنة المطلقة على المنطقة، لذلك طلبوا من الأثينيين ألا يعيدوا بناء أسوار مدينتهم التي تهدمت أثناء الحرب، وهو الأمر الذي يعني أن يترك الأثينيون أنفسهم، طواعيةً، عرضة لأي غزو أرضي، ومن ثم لأي عقاب جماعي، من قِبَل أسبرطة، إذا ما تجرأوا على عصيان أمر من أوامرها. غير أن الأثينيين لم تكن لديهم نية على الإطلاق لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الغزو الفارسي. لقد آمن الأثينيون بأن التضحيات الجِسام التي قدموها في الحرب ضد الفرس، تمنحهم الحق في الحصول على قدر من الاستقلالية والحكم الذاتي. الأسبرطيون رأوا في هذا الرفض نوعًا من عدم الاحترام، بينما رأت فيه دول أخرى نذير شؤم لمولد طموح إمبريالي يهدد النظام السائد.

لم تكن القوة العسكرية المتصاعدة لأثينا تُشكِّل، حتى هذه اللحظة، تهديدًا حقيقيًا لأسبرطة، فقد كانت أعداد قوات أسبرطة وحلفائها مجتمعين، تفوق عدد جيش أثينا بنسبة اثنين إلى واحد. كانت الغالبية العظمى من مواطني أسبرطة تثق في الوضع العسكري لاتحادها الفيدرالي، بل وتعتبر هذا الاتحاد القوة العسكرية المهيمنة الوحيدة في بلاد اليونان. ورغم ذلك،

مع تزايد نمو قوة أثينا العسكرية، اقترح البعض توجيه ضربة استباقية إلى أثينا، لتذكير الجميع بأن أسبرطة كانت ولا تزال القوة الأولى في العالم اليوناني بكامله. كان أصحاب هذه الدعوة من زعماء أسبرطة يؤمنون أن السماح لأثينا بمواصلة صعودها دون عائق ولا رادع سوف يؤدي، في نهاية المطاف، إلى زعزعة الهيمنة الأسبرطية. ورغم أن مجلس العموم رفض هذه الدعوة إلى الحرب، كان نفوذ الصقور من زعماء أسبرطة يتزايد، بالتوازي مع تزايد نمو قوة أثينا.

لقد حافظت أسبرطة، لفترة من الزمن، على إيمانها بأن الدبلوماسية يمكن أن تكبح جماح صعود أثينا. وبعد الانزلاق إلى صراع شامل في منتصف القرن، عبر سلسلة من المعارك التي عرفت باسم الحرب البيلوبونيزية الأولى، استطاعت القوتان وضع إطار جديد لعلاقاتهما من خلال معاهدة شاملة عام 446 قبل الميلاد. أعوام السلام الثلاثون الشهيرة، التي تلت توقيع تلك المعاهدة، أرست الدعائم الرئيسية لنظام دقيق ومتطور للأمن الإقليمي، يحظر على أعضاء أي من التحالفين أن ينشق على التحالف الذي ينتمي إليه، لينضم إلى التحالف الآخر، ويرسم القواعد والإجراءات التنفيذية لنظام تحكيم ملزم، مع عدم التدخل في شؤون الدول الأخرى، فاستنَّ بذلك سُنَّة لا تزال مرعية ومستخدمة لحل الخلافات وتسوية النزاعات بين الأمم. خلال الفترة التي أعقبت توقيع تلك المعاهدة، اتفقت كل من أسبرطة وأثينا على تسوية النزاعات بينهما من خلال المفاوضات الثنائية، وفي حالة فشل المفاوضات في التوصل إلى تسوية، تلجأ الدولتان إلى التحكيم الملزم، الذي يتولاه طرف محايد مثل كهنة ضريح دِلْفي(*) Oracle of Delphi. ورغم أن الاتفاقية اعترفت بأثينا كشريك مساوٍ لأسبرطة،

(*) المقصود هنا كهنة، أو كاهنات، معبد الإله أبولو Apollo في مدينة دِلْفي، الذي كان واحدًا من أهم المواقع أو المزارات في اليونان القديمة. كان اليونانيون القدماء يعتقدون أن هذا الضريح يمثل مركز العالم، وأن الإله أبولو يوحي إلى كهنته بالإجابات الصحيحة عن كل ما يطرحه عليهم البشر من أسئلة، لهذا حظى بالاحترام والإجلال من قِبَل الجميع، كما حظى باستقلالية جعلته مقصدًا لكل من لديه سؤال مصيري، وكل من يبحث عن تسوية لنزاع خطير، سواء كان الباحث فردًا، أو جماعة، أو حتى دولتين تحاولان تجنب الدخول في نزاع مسلح. (المُعرِّب)

كان الأسبرطيون يشعرون بالارتياح، لأن الدول الحليفة المخلصة لهم، كورينث، وطيبة، وميغارا، الأعضاء الأساسيين في التحالف البيلوبونيزي الذي تقوده أسبرطة، تقع جميعها عند أبواب أثينا.

كانت ثمار السلام التي جنتها الدولتان حلوة، بقدر ما كانت ثمار الحرب مُرَّة. لقد أتاحت المعاهدة لكل من أثينا وأسبرطة الفرصة للتركيز على ما يقع في إطار نفوذها الدولي، فدعمت أسبرطة تحالفاتها التقليدية مع جيرانها، وزادت من قوتها العسكرية، بينما واصلت أثينا الاعتماد على قوة أسطولها لفرض هيمنتها على الدول الصغيرة التابعة لها حول بحر إيجة، والحصول على ذهبها. وفي هذا الإطار، استطاعت أثينا، بالفعل، تجميع احتياطي مركزي غير مسبوق، قُدِّر بنحو 6000 طالين(*) من الذهب، وكانت عائداتها تتزايد بمقدار 1000 طالين كل عام. حتى أسبرطة، بمجتمعها المعروف بأنه محافظ ورزين، عاشت نهضة ثقافية، وإن كانت أصغر حجمًا، وأضيق نطاقًا[11].

لقد وفر إطار العمل هذا فترة غير مسبوقة من التناغم بين أطراف العالم الهيليني Hellenic world، الذي يمتد من الكوت دازور(**) Cote d'Azur، إلى البحر الأسود Black Sea. غير أن سنوات السلام الثلاثين لم تعالج الأسباب الكامنة للتوتر، وإن علقتها بشكل مؤقت. وبسبب هذه الظروف، على حد تعبير ثيوسيديديز، لم يستغرق الأمر كثيرًا، قبل أن تشتعل النيران في كومة الحطب.

الشرارة

انطلقت الشرارة عام 435 قبل الميلاد، من خلال صراع محلي، لم يكن

(*) الطالين talent عملة ذهبية كانت تستخدم في اليونان وبلاد الشام، وكانت قيمتها تختلف من بلد إلى آخر. في بلاد اليونان، على سبيل المثال، كان الطالين الواحد يساوي 600 دراخمة. (المُعرِّب)

(**) شاطئ فرنسي شهير يقع على البحر الأبيض المتوسط ويشمل الريفيرا الفرنسية.

يوحي بأنه سوف يؤثر على مصالح أثينا، عندما استفزَّت كورينث، الحليفةُ المهمة لأسبرطة، كوركيرا، القوةَ المحايدة، إلى مواجهة حول إبيدامنوس Epidamnus، وهي مستوطنة بعيدة تقع اليوم داخل حدود ألبانيا[12]. في البداية، بدت الأمور وكأن الغلبة محسومة لكوركيرا: لقد استطاع أسطولها الذي يتكوَّن من 120 سفينة حربية أن يُلحِق بكورينث هزيمة منكرة خلال الجولة الأولى، غير أن الكورينثيين المجروحين بدأوا، على الفور، الاستعداد لخوض جولة ثانية، فدعموا أسطولهم بسرعة، من خلال تجنيد بحارة جدد من جميع أنحاء اليونان. وخلال فترة قصيرة، تمكنت كورينث من تجميع أسطول من الحلفاء، يتكوَّن من 150 سفينة حربية، ورغم صعوبة مقارنة تلك القوة بقوة أثينا، أصبح الأسطول الكورينثي ثاني أكبر الأساطيل في اليونان. أصاب الوضع الجديد كوركيرا بالرعب، فاستنجدت بأثينا تطلب مساعدتها.

أثارت أفعال كورينث في إبيدامنوس النائية مخاوف أثينا من نوايا أسبرطة العدوانية، ووضعتها أمام مأزق استراتيجي صعب. كان أمام الأثينيين خياران، أحلاهما مُرّ: فمساعدة كوركيرا بشكل مباشر سوف تثير عداوة كورينث، وربما تشكل انتهاكًا لمعاهدة سلام الثلاثين عامًا. في حين أن الامتناع عن التدخل، يعني المخاطرة بالسماح لكورينث بالاستحواذ على أسطول كوركيرا، وهو ما سوف يؤدي إلى تحويل ميزان القوة البحرية لصالح أسبرطة، بما يتضمنه ذلك التحوُّل من مخاطر.

كان الجو العام في مجلس العموم الأثيني مشحونًا بالإحساس بالخطر. لقد استمع الأثينيون باهتمام إلى الدبلوماسيَيْن الكورينثي والكوركيري، وكل منهما يعرض قضيته. امتدت النقاشات على مدار يومين، إلى أن طرح بيريكليس(*) Pericles، الذي يصفه ثيوسيديديز بالمواطن

(*) بيريكليس (495 – 429 ق.م)، قائد عسكري وزعيم سياسي أثيني، يجمع المؤرخون على أنه أعظم الساسة في اليونان القديمة، ويكفي أنه الزعيم الذي قاد الحرب البيلوبونيزية سياسيًا وعسكريًا، كما شهدت البلاد في عهده نهضة ثقافية لم يسبق لها مثيل. (المُعرِّب)

الأثيني الأول، تسوية تعتمد على حلٍ وسط يتضمن بعض التنازلات المتبادلة: ترسل أثينا إلى كوركيرا أسطولاً رمزيًا صغيرًا، مزودًا بأوامر مشددة بعدم المشاركة في القتال، إلا إذا تعرض لهجوم مباشر. لكن، لسوء الحظ، أثبتت فكرة الردع الدفاعي هذه أنها صغيرة إلى الحد الذي يجعلها غير رادعة، وكبيرة إلى الحد الذي يجعلها مثيرة للقلق والانزعاج. لقد سيطر الغضب والسخط على الكورينثيين لأن الأثينيين رفعوا السلاح ضدهم.

على الجانب الآخر، وجدت أسبرطة نفسها في ورطة مشابهة، فإذا دعمت الهجوم الكورينثي ضد كوركيرا، ربما تُفسِّر أثينا هذا الدعم بأن أسبرطة تهدف إلى امتلاك قوة بحرية تعادل قوتها، وأنها، أي أسبرطة، ربما تستعد لشن ضربة استباقية ضدها. وإذا امتنعت عن تقديم هذا الدعم، وبقيت على الحياد، سوف تكون قد خاطرت بالسماح لأثينا بأن تكون العنصر الحاسم والفاصل في ذلك الصراع، الأمر الذي يؤدي إلى الانتقاص من المصداقية الأسبرطية لدى حلفائها الآخرين من أعضاء عصبة التحالف البيلوبونيزي. كانت هذه المصداقية، بالنسبة لأسبرطة، خطًا أحمر لا يمكن تجاوزه، حيث إن الحفاظ على الاستقرار في المناطق التي تحيط بها أو تجاورها، كان أمرًا حيويًا لتنفيذ استراتيجيتها الخاصة باحتواء الهيلوتس، وما يشكلونه من تهديدات داخلية.

كذلك كانت أثينا وأسبرطة تقفان على طرفي نقيض في ما يتعلق بحليف آخر من حلفاء أسبرطة، ميغارا. كان بيريكليس قد أصدر عام 432، المرسوم الميغاري Megarian Decree، الذي يُعد مثالاً مبكرًا لمعركة سياسية انتهت بفرض بعض العقوبات الاقتصادية على ميغارا، بسبب قيامها بانتهاك حرمة بعض المعابد الأثينية، وإيواء عبيد فارين من أثينا. ورغم أن بنود معاهدة السلام الموقعة بين أثينا وأسبرطة تُضْفي على المرسوم الميغاري شرعية قانونية، اعتبرت أسبرطة المرسوم عملاً استفزازيًا، ورأت فيه علامة أخرى من علامات عدم الاحترام لمنظومة تحتل هي قمتها. وعندما طلبت أسبرطة من أثينا أن تعيد النظر في المرسوم، اعتبر بيريكليس

هذا الطلب نوعًا من التحدي لمصداقيته هو شخصيًا. فالتراجع سوف يشجع أسبرطة على تقديم احتجاجات مماثلة، بهدف التقليل من نفوذ أثينا في أي بقعة من الأراضي اليونانية، كما أنه، أي التراجع، سوف يثير غضب كثير من المواطنين الأثينيين الذين يؤمنون أن المرسوم صدر بهدف الحفاظ على حقوق وطنية.

كان بيريكليس وأرخيداموس الثاني Archidamus II ملك أسبرطة يرتبطان بصداقة شخصية. ربما لهذا السبب كان أرخيداموس الثاني يتفهم وجهة نظر الأثينيين، مدركًا أن الشعب الأسبرطي يتحرك مدفوعًا بعوامل عاطفية أكثر منها عقلانية أو منطقية. وفي محاولة منه لاستثارة روح الاعتدال في شعبه، ناشد أرخيداموس الثاني مجلس العموم الأسبرطي ألا يُشيْطِن الأثينيين، وألا يقلل من أهمية ما تتخذه الحكومة الأسبرطية من إجراءات تحسُبًا لأية تطورات سيئة: "نحن دائمًا نقيم استعداداتنا في مواجهة أي عدو من منطلق أن خططه جيدة وفعالة"[13].

غير أن صقور أسبرطة لم يقبلوا هذه المناشدات، ودفعوا بأن الأثينيين قد أصبحوا على درجة عالية من الغرور، إلى الحد الذي يشكل خطرًا لا يمكن قبوله، على أمن أسبرطة. وحرص هؤلاء المتشددون على تذكير أعضاء مجلس العموم بوقائع متكررة، تمثل تدخُلاً من أثينا في الشؤون الداخلية لعدد من الدول اليونانية الأخرى، من ناكسوس وبوتيدايا Potidaea، إلى الأزمة الراهنة في ميغارا وكوركيرا، كما حرص صقور أسبرطة على الضرب على وتر الخوف من احتمال انفراط عقد التحالف الأسبرطي. وطالبوا بردٍّ قوي وقاس، مؤكدين أن أثينا: "تستحق عقابًا مضاعفًا، مرة لأنها لم تعد دولة طيبة، وأخرى لأنها أصبحت دولة شريرة"[14].

كان منطق المجموعة المؤيدة للحرب في أسبرطة مباشرًا وبسيطًا، وقد دعم السفير الكورينثي لدى أسبرطة وجهة نظر هذه المجموعة بشكل لا يقل مباشرة وبساطة. ففي خطاب له أمام مجلس العموم الأسبرطي،

انتقد السفير عدم اكتراث أسبرطة بانطلاقة أثينا التي لا تعرف حدودًا ولا ضوابط: "أنتم مسؤولون عن ذلك كله..... أنتم الوحيدون الذين يراقبون في صمت قوة عدوهم وهي تنمو وتتضاعف، دون أن يتدخلوا للقضاء على تلك القوة في مهدها". وعندما لمَّح الكورينثيون إلى أنهم سوف ينسحبون من التحالف الذي يجمعهم إذا لم تتحرك أسبرطة بسرعة، شعر الأسبرطيون الحاضرون بمزيج من الصدمة والرعب. كانت الرسالة واضحة: صعود أثينا سوف يقضي على تحالف أساسي، ساعد على بقاء أسبرطة سالمة وآمنة، على مدار عدة قرون.

بعد نقاش حاد، صوَّت مجلس العموم الأسبرطي لصالح قرار الحرب. وكما يشرح ثيوسيديديز: "صوَّت الأسبرطيون لصالح قرار إعلان الحرب لأنهم كانوا خائفين من تزايد تنامي قوة أثينا مستقبلاً، خاصة أنهم كانوا يشهدون بأعينهم أن الجزء الأكبر من بلاد اليونان أصبح، بالفعل، تحت سيطرة أثينا"[15]. لم يعد الأمر يتعلق بمخاوف مستقبلية فقط. فقد أضحت الغالبية العظمى من زعماء أسبرطة مقتنعة بأن تضخم وتعاظم قوة أثينا، يشكل تهديدًا فوريًا لقوة أسبرطة وأمنها، وأنه لم يعد هناك ما يمكن لأي شخص أن يفعله، بما في ذلك الملك شخصيًا، لإقناع مواطني أسبرطة بعكس ذلك.

لماذا لم يتوقع الأثينيون رد الفعل هذا من جانب الأسبرطيين؟ سؤال تصعب الإجابة عليه، فحتى ثيوسيديديز لم يستطع أن يشرح لماذا فشل بريكليس في التوصل إلى طريقة للحيلولة دون تحوُّل الصراعات حول ميغارا وكوركيرا إلى حرب بين أثينا وأسبرطة. غير أن الأحداث التي سجَّلها تاريخ العلاقات الدولية خلال الأعوام التي أعقبت تلك الحرب، تُقدم لنا بعض الإشارات التي يمكن أن تساعدنا على التوصل إلى إجابة. عندما تُخفق الدول بشكل متكرر في التصرف وفقًا لما يبدو واضحًا أنه في صالحها، غالبًا ما يكون السبب أن سياساتها تعكس قدرًا كبيرًا من التوازنات الداخلية أو الحلول الوسط بين رغبات الأطراف المتنافرة

المشاركة في الحكومة، بدلاً من أن تعكس رؤية جماعية واحدة واضحة متماسكة. بتطبيق ذلك بأثر رجعي على الحرب البيلوبونيزية، نجد أن بريكليس كان يتمتع بقدر محدود من القوة أو النفوذ، رغم أنه كان قد أعيد انتخابه عدة مرات، فقد صُمِّم النظام الشرعي في أثينا، عن عمدٍ، بطريقة تضمن تحجيم قوة ونفوذ أي حاكم فردي، بهدف تجنب مخاطر تحوُّل هذا الحاكم إلى طاغية أو ديكتاتور[16]. بعبارة أخرى، كان بريكليس سياسيًا بقدر ما كان رجل دولة. لذا لم يتجاوز نفوذه حدود قدرته على الإقناع.

في الوقت الذي بدا فيه واضحًا أن مرسوم ميغارا قد أوصل العلاقات بين أثينا وأسبرطة إلى درجة الغليان، كان بريكليس يرى أن العقوبات شكل من أشكال الحلول الوسط الضرورية، وأنها لا تُشكِّل عملاً من أعمال الاستفزاز[17]. لذا لم يكن التراجع عنها خيارًا مجديًا، فضلاً عن كونه غير مطروح. فمع رفض الغالبية العظمى من الأثينيين الانصياع لمطالب أسبرطة، خَلُص بريكليس إلى أن عواقب إعادة النظر في المرسوم ربما تكون أكثر خطورة من عواقب الإصرار على بقائه. فإذا قبل مطالب أسبرطة في هذا الشأن، ثم أعلنت أسبرطة الحرب رغم قبول مطالبها، سوف تفقد أثينا مكانتها السياسية، وشرفها القومي. وهكذا رضخ بريكليس لضغوط الرأي العام، وشرع، مترددًا، في إعداد خطط الحرب.

لم يكن أي من الطرفين يمتلك من الأدوات ما يضمن له تفوقًا عسكريًا واضحًا، غير أن كلاً منهما كان واثقًا من قدراته الخاصة إلى حدٍ مهلك. ولأن الأسبرطيين لم يذوقوا طعم هزيمة عسكرية في الماضي القريب، فشل قادتهم في إدراك الحجم الحقيقي لقوات أثينا البحرية. فقبل بدء المعارك، قال أحد المتحدثين أمام مجلس العموم الأسبرطي إن جنود أسبرطة يستطيعون تجويع الأثينيين، من خلال حرق حقولهم ومخازن غذائهم، متناسيًا حقيقة أن الأسطول الأثيني يستطيع إعادة تزويد المدينة بكافة احتياجاتها الغذائية عن طريق البحر. في الوقت نفسه، كانت الحكومة الأثينية، التي أمضت سنوات في تكديس الذهب، تؤمن أنها صاحبة اليد

العليا في المنطقة. كانت تقديرات بريكليس أن أثينا تستطيع أن تصمد لمدة ثلاثة أعوام في وجه أي حصار إذا لزم الأمر، وهي فترة أكثر من كافية، باعتقاده، لهزيمة أسبرطة، ربما من خلال تحريض الهيلوتس على التمرد. من بين كافة المحللين، لم يُثبِت أحدٌ، سوى الملك أرخيداموس الثاني، أن قراءته كانت صائبة، وذلك عندما تنبأ بأن أيًّا من الطرفين لا يملك تفوقًا حاسمًا، وأن الحرب بينهما سوف تستمر لجيل كامل.

لقد أثبتت الحرب أنها مدمرة على النحو الذي تنبأ به أرخيداموس. ثلاثة عقود من سفك الدماء بين أثينا وأسبرطة، وضعت نهاية أليمة للعصر الذهبي للثقافة اليونانية. فقد انهار النظام العالمي الذي أُرسيت دعائمُه عقب انتهاء الحرب مع الفرس، والذي تأكدت قوته من خلال ضوابط متفق عليها، ومن خلال توازن قوى. ووجدت المدن–الدول اليونانية نفسَها في أتون فوضى تتسم بدرجة مروعة من العنف الدموي الذي لم يسبق أن مَرَّ بخيال كتّاب المسرح اليونانيين في ذلك العصر. فبعد الاستيلاء على مدينة ميلوس، على سبيل المثال، ذبح الجنود الأثينيون جميع الذكور البالغين، واتخذوا النساء والأطفال عبيدًا، في انتهاك واضح لقواعد الاشتباك التي احترمها اليونانيون لقرون طويلة. وقد خلَّد ثيوسيديديز تفاصيل هذه الحلقة من حلقات الصراع في نصه المعروف باسم المحاورات الميلوسية(*) Melian Dialogue، حيث يبرز السفير الأثيني جوهر ما يعرف اليوم بالواقعية السياسية قائلاً: "لن نزعجكم بادعاءات كاذبة مخادعة، من قبيل أننا نملك الحق في أن تكون لنا إمبراطوريتنا الخاصة لأننا نحن الذين طردنا الفرس، أو أننا نغزوكم الآن بسبب ما ارتكبتموه ضدنا من أفعال سيئة. أنتم

(*) سجَّل ثيوسيديديز نصوص المفاوضات التي دارت بين ممثلي القوات الأثينية المهاجمة، وحكام ميلوس، بطريقة تشبه الحوار الدرامي في المسرحيات اليونانية القديمة، وأطلق على هذا السجل اسم المحاورات الميلوسية. تحتل هذه النصوص الجزء الخامس (الفصول 84-116) من كتاب تاريخ الحرب البيلوبونيزية. كثيرًا ما ترد جمل ومقاطع كاملة من هذه المحاورات في سياق الدراسات المعاصرة التي يكتبها أكاديميون متخصصون في مجالات الفلسفة السياسية، حيث يعتبرها هؤلاء الأكاديميون نموذجًا صادقًا لما يعرف اليوم بالواقعية السياسية. (المُعرِّب)

تعلمون، كما نعلم نحن، أن الحق مسألة لا معنى لها، إلا في مجال العلاقات بين القوى المتساوية. فعلى أرض الواقع، يستطيع القوي أن يفعل ما يشاء، وعلى الضعيف أن يعاني ما يفرضُ عليه ضعفُه أن يعانيه"[(18)].

الأمر الأكثر أهمية، أن هذه الحرب دقت ناقوس إعلان وفاة الإمبراطورية الأثينية. لقد خرجت أسبرطة من هذه الحرب منتصرة، ولكن بعد أن خارت قواها تمامًا، فقد تمزقت شبكة تحالفاتها، واستُنْزِفت ثرواتها. وقد احتاج اليونانيون إلى ألفي عام قبل أن يتوحدوا من جديد، بإرادتهم الحرة. وهكذا كانت الحرب البيلوبونيزية، النموذج الأصلي لفخ ثيوسيديديز، نقطة تحول، ليس في التاريخ اليوناني فحسب، ولكن في تاريخ الحضارة الغربية كلها.

هل كانت الحرب أمرًا حتميًّا؟

لماذا أسفر التنافس بين القوتين العظميين في اليونان عن حرب دمرت ما كان يفخر به كل منهما؟ يكْمُن السبب الرئيسي، وفقًا لتفسيرات ثيوسيديديز، في أعماق التوتر البنيوي بين قوة صاعدة وأخرى حاكمة. لقد قاد ذلك التنافس أثينا وأسبرطة إلى سلسلة من المواجهات، التي دفعت بأصحاب الاتجاهات المتطرفة إلى المقدمة، فتزايد عُلوّ أصواتهم وضجيجهم، وتصاعد إحساسهم بالزهو والاعتزاز، كما أصبحت إدعاءاتهم بشأن ما يمثله الطرف الآخر من تهديد، أكثرَ قوة وأشدّ تركيزًا، وأضحت معارضتهم للزعماء الذين يحاولون الحفاظ على السلام، أكثرَ حدّة وأشدّ جرأة. وهنا يحدد ثيوسيديديز ثلاثًا من قوى الدفع الرئيسية، التي يرى أنها كانت وقودًا للآليّات التي دفعت الطرفين دفعًا نحو الحرب: المصالح، والخوف، والفخر.

المصالح القومية قوة دافعة واضحة لا لبس فيها. فبقاء الدولة، واستقلاليتها، وحريتها في اتخاذ القرارات التي تؤثِّر على محيطها أو مناطق نفوذها، دون إكراه من طرف آخر، معايير تقليدية في أية مناقشة تتعلق

بالأمن القومي. وينتقل ثيوسيديديز إلى الحديث عن أثر القوة الدافعة الثانية: "عندما بدأت أثينا في التوسع دون هوادة أو تباطؤ، شعرت أسبرطة بأنها أمام وضع لا يمكن قبوله أو التسامح معه"، ومن ثمَّ لم يَعُد أمامها من خيار سوى الحرب. "الخوف" هو الكلمة الأحادية التي اختارها ثيوسيديديز ليذكِّرنا بأن الأمر لا يتعلق بالوقائع البنيوية structural realities فقط. فالظروف الموضوعية لا يمكن إدراكها إلا من خلال البشر. والعدسات التي يُدرِك البشر من خلالها هذه الظروف، تتأثر، دومًا، بالعواطف والمشاعر الشخصية. بمزيد من الدقة، غالبًا ما تُضعف مخاوفُ القوة الحاكمة، القدرةَ على تقدير أبعاد المشاكل بشكل صحيح، وتزيدُ الإحساس بالخطر، بينما تُثير ثقةُ القوة الصاعدة في نفسها توقعاتٍ غير واقعية حول ما هو ممكن ومتوقع، وتقوّي الاستعداد أو الميْل للمخاطرة.

ولكن توجد، إضافة إلى المصالح والتصورات، قوة دافعة ثالثة، يطلق عليها ثيوسيديديز "الفخر"[19]. ربما تحمل هذه الكلمة شُبهةَ تبجُّح أو ادعاء، وفقًا لمفاهيم العصور الحديثة. غير أن مفهوم ثيوسيديديز الخاص لهذه الكلمة يستوعب ما نطلق عليه اليوم "إحساس الدولة بنفسها، وقناعاتها بما تستحقه من اعتراف واحترام"، بالإضافة إلى ما نطلق عليه "الكبرياء الوطني". فمع تنامي قوة أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، تزايد إحساسُها بالأفضلية والامتياز. وعندما احتكت بها دول حليفة لأسبرطة مثل ميغارا وكورينث، لم تمنع تلك الحقيقة السياسية أثينا من التصرف تجاه الدولتين، وفقًا لما يمليه عليها كبرياؤها الوطني. ويخلص المؤرخ العظيم ثيوسيديديز إلى أن القوى الدافعة الثلاث، عندما وصلت إلى درجة كبيرة من التضافر والتشابك، أفرزت سلسلة من المواجهات التي لم تستطع أثينا وأسبرطة تجنُّبها.

لم يفلح زعيما الدولتين، رغم جهودهما المخلصة لمنع الصدام، في إيقاف تدهور الأوضاع، والحيلولة دون الدخول في دوامة من سفك الدماء. فبينما كان كل منهما يمارس لعبة شطرنج في مواجهة الآخر، كان عليه أن

يخوض، في الوقت نفسه، جولات من الجدال الحاد مع مكوِّنات سياسية داخلية، يتزايد اقتناعها، يومًا بعد يوم، بأن الإخفاق في التصدي للطرف الآخر بقوة، سوف يكون أمرًا مُهينًا وكارثيًا. في نهاية الأمر، اضطُّر زعيما أثينا وأسبرطة إلى الرضوخ للاعتبارات السياسية الداخلية. لقد أدرك كل من بريكليس وأرخيداموس الرؤية التي تبناها بعد عدة قرون ريتشارد نويشتات Richard Neustadt الذي يُعدُّ واحدًا من أعظم المتخصصين في الشؤون الرئاسية الأمريكية. فقد لخّص نويشتات خصائص الرئاسة الأمريكية، مؤكدًا أن: "كلمة الضعف، لا تزال النقطة التي يجب أن نبدأ عندها"[20].

هل كان ثيوسيديديز محقًا عندما ادعى أن صعود أثينا جعل الحرب أمرًا حتميًا؟ لا أظن أنه كان محقًا مائة في المائة. كانت وجهة نظر ثيوسيديديز أن الدولتين، مع تزايد نمو أثينا وتصاعد مخاوف أسبرطة وقلقها، اختارتا طريقًا جعلت تجنُّب الحرب بينهما أكثر صعوبة. فمع تزايد المخاطر، تضخمت ثقة الأثينيين في أنفسهم حتى تحولت إلى غرور وعجرفة، بينما تحول عدم ثقة الأسبرطيين بأنفسهم إلى خوف مرضي. كما أن ما نصت عليه معاهدة السلام في شأن منع كل من الطرفين من التدخل في الشؤون الداخلية للدول التي تخضع لنفوذ الطرف الآخر، أشعل، عن غير قصد، حدة التنافس بين أثينا وأسبرطة على اجتذاب الدول التي كانت تقف على الحياد بين القوتين العظميين. ثم جاءت الأزمة التي نشبت في كوركيرا وميغارا، لتدفع إلى السطح ضغوطًا كانت تتجمع وتتكثّف في القاع لعدة عقود.

وهكذا، اقتنص فخ ثيوسيديديز أولى فرائسه. فبالرغم من وجود زعماء عظام، وأصوات حكيمة في كلٍ من أثينا وأسبرطة، ورغم تحذيرات أولئك وهؤلاء من أن الحرب سوف تنتهي إلى كارثة، دفع تغيُّر موازين القوى الطرفين إلى الإيمان بأن العنف هو أقل الخيارات المتاحة ضررًا، فكانت الحرب.

هوامش

الفصل الثاني

(1) تاريخ الحرب البيلوبونيزية History of the Peloponnesian War، تأليف ثيوسيديديز Thucydides، 1-23-6، والاقتباسات هنا من النسخة التي ترجمها إلى اللغة الإنجليزية روبرت ب. ستراسلر Robert B. Strassler، الذي سار بدوره على نهج ريتشارد كراولي Richard Crawley. الأرقام الثلاثة التي تصف الاقتباس تشير إلى ما يلي: رقم الكتاب، ثم رقم الفصل، ورقم السطر.

(2) المرجع السابق، 1-23-6.

(3) يحلل الكتاب الأول من تاريخ الحرب البيلوبونيزية الطريق إلى الحرب، بينما تقدم الكتب السبعة الأخرى سجلًا زمنيًا لوقائع تلك الحرب.

(4) كتاب التاريخ Histories، تأليف هيرودوت Herodotus، 9-10-1.

(5) كتاب الأخلاق Moralia، تأليف بلوتارخ Plutarch، صفحة 241.

(6) تاريخ الحرب البيلوبونيزية، تأليف ثيوسيديديز، 2–13–6.

(7) المرجع السابق، 1–76–2.

(8) المرجع السابق، 1–118–2.

(9) المرجع السابق، 1–70–2.

(10) المرجع السابق، 1–76–2.

(11) الاستراتيجية العظمى لأسبرطة الكلاسيكية: التحدي الفارسي The Grand Strategy of Classical Sparta: The Persian Challenge، تأليف بول راهي Paul Rahe، 2015.

(12) تاريخ الحرب البيلوبونيزية، تأليف ثيوسيديديز، 1–25–4. يقول ثيوسيديديز إن السبب الأصلي للصراع هو الكبرياء المجروح. لقد شعر الكورينثيون أنهم قد عوملوا باحتقار، خاصة من قبل أهل كوركيرا.

(13) المرجع السابق، 1–84–4.

(14) المرجع السابق، 1–86–2.

(15) تاريخ الحرب البيلوبونيزية، تأليف ثيوسيديديز، 1–88–1، ترجمة ريكس وارنر Rex Warner.

(16) كان لدى الأثينيين نظامٌ رسمي، هو نظام النفي دون محاكمة Ostracism، الذي يستخدم لإزاحة الزعماء السياسيين الذين يقبضون على كثير من مراكز القوة والنفوذ.

(17) الحرب البيلوبونيزية، تأليف دونالد كاغان Donald Kagan، 2004.

(18) تاريخ الحرب البيلوبونيزية، تأليف ثيوسيديديز، 5–105–2.

(19) من بين الأكاديميين المعاصرين، قدَّم دونالد كاغان التفسير الأكثر تبصُّرًا لهذه النقطة. يمكن مراجعة كتابه في أصول الحرب والحفاظ على السلام On the Origins of War and the Preservation of Peace الصادر عام 1995؛ ومقالته بعنوان مصالحنا وشرفنا Our Interests and Our Honor المنشورة في مجلة كومِّنتاري Commentary، في نيسان/أبريل 1997، من خلال الرابط التالي: https://www.commentarymagazine.com/articles/our-interests-and-our-honor/، 1990.

(20) السلطة الرئاسية والرؤساء المعاصرون: سياسات الزعامة من روزفلت إلى ريغان Presidential Power and the Modern Presidents: The Politics of Leadership from Roosevelt to Reagan، تأليف ريتشارد نويشتات Richard Neustadt.

الفصل الثالث

خمسمائة عام

جُبِل الإنسان على التمسكِ بالأمل البسَّام عندما يتوق إلى شيء ما، وعلى الاعتمادِ على المنطق الواضح، لتنحية ما لا يرغب فيه.

ـ ثيوسيديديز

الماضي، في حقيقته، مدخل.

ـ ويليام شكسبير

التاريخ لا يعيد نفسه أبدًا، لكنه يتبع، أحيانًا، قافية معينة.

ـ مارك توين

الأموات فقط شاهدوا نهاية الحرب.

ـ جورج سانتايانا

تُمثِّل الحرب بين أثينا وأسبرطة نموذجًا كلاسيكيًّا لفخ ثيوسيديديز. غير أن القرون التي تلت تلك الحرب شهدت حالاتٍ كثيرة، وجد الأسلاف أنفسهم خلالها أسرى للآليّات التي تحكم العلاقة بين قوة صاعدة وأخرى حاكمة، وتدفعهما باتجاه الحرب. لقد أجرى مشروع جامعة هارفارد عن فخ ثيوسيديديز Harvard Thucydides's Trap Project[1]، مراجعة دقيقة للأعوام الخمسمائة الماضية، واستطاع أن يستخلص من تلك المراجعة ست عشرة حالة، مثلت خلالها قوة صاعدة، تحديًا لقوة قائمة ومستقرة. ووجد أن الصراع قد أسفر عن حربٍ بين الطرفين، في اثنتي عشرة حالة من تلك الحالات[2].

يقدم هذا الفصل صورًا مصغرة لأبرز معالم الطرق التي قادت خمسًا من تلك الحالات إلى الحرب. سوف نُرتِّب تلك الحالات ترتيبًا زمنيًا تنازليًا، لذلك نبدأ باستكشاف ظروف ومبررات هجوم اليابان على بيرل هاربور Pearl Harbor، في كانون الأول/ديسمبر 1941، قبل أن ندرس المؤشرات المبكرة لصعود اليابان في القرن التاسع عشر، التي وضعتها على الطريق نحو الحرب، مع الصين أولاً، ثم مع روسيا. بعد ذلك، سوف نتابع مناورات أوتُّو فون بِسْمارك(*) Otto von Bismarck ضد فرنسا وتلاعبه بها، من أجل استفزاز حكامها، ودفعهم إلى بدء حرب يرى أنها سوف تكون عنصر تمكين حاسم لعملية توحيد ألمانيا. كما سوف نحلل الطريقة التي تعاملت بها جمهورية هولندا(**) Dutch Republic، القوة البحرية المهيمنة، مع عملية تدعيم الأسطول الإنجليزي في القرن السابع عشر، ثم نختتم بدراسة التحدي الذي مثلته أسرة هابسبورغ(***) Hapsburg لفرنسا في القرن السادس عشر.

القراء الذين يتساءلون عما إذا كان من الممكن أن يتصاعد الصراع التجاري، حتى يصل إلى حرب نووية، يتوجب عليهم أن يتأملوا بدقة ذلك المسار الغريب الذي قاد اليابان والولايات المتحدة إلى ما حدث في بيرل هاربور. وإذا كنتم عاجزين عن تصديق فكرة استفزاز دولة لدولة أخرى

(*) أوتُّو فون بِسْمارك (1815-1898)، سياسي ألماني محافظ، ألقت أفكاره بظلالها على أوروبا لعقود طويلة. وحَّد بسمارك الولايات الألمانية المختلفة، فكان له فضل تأسيس الإمبراطورية الألمانية ومن ثم كان أول مستشار لها (1871-1890). (المُعرِّب)

(**) عاشت المملكة الهولندية الحالية تحت الحكم الجمهوري خلال الفترة من عام 1581 إلى عام 1795، وكانت تعرف آنذاك باسم جمهورية هولندا، أو جمهورية البلدان السبعة المنخفضة المتحدة Republic of the Seven United Netherlands، وقد عاشت تلك الجمهورية أزهى عصورها خلال القرن السابع عشر، حين بسطت نفوذها الاستعماري على مناطق شاسعة من العالم، الأمر الذي وفَّر لها اقتصادًا قويًا، وأتاح لها لعب دور سياسي مهم على الساحة الدولية. (المُعرِّب)

(***) آل هابسبورغ House of Hapsburg، اسم يطلق على واحدة من أكبر الأسر الملكية في أوروبا، وأقواها تأثيرًا. فقد تولَّى أفراد هذه الأسرة عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ عام 1430 حتى عام 1740. كما اعتلى ملوك ينتمون إلى عائلة هابسبورغ عروش دول كثيرة مثل: إنجلترا، وألمانيا، والمجر، وأيرلندا، والبرتغال، وإسبانيا، وكرواتيا. تستمد العائلة اسمها من قلعة هابسبورغ العسكرية الحصينة، التي أنشأها أحد الآباء المؤسسين لهذه الأسرة، في سويسرا الحالية عام 1020. (المُعرِّب)

لدفعها نحو حرب تخدم أهدافًا داخلية للدولة الأولى، تَذكّروا بسمارك. وإذا كنتم تبحثون عن أفكار حول الطريقة التي يستطيع التنافس البحري من خلالها أن يدفع الحكومات الوطنية إلى حرب مدمرة، تأملوا التفاعلات التي شهدتها العلاقة بين هولندا وإنجلترا، لأنها تتضمن مادة ثريَّة تخدم البحث.

من الواضح أن هناك فروقًا جوهرية بين كل حالة من تلك الحالات الثلاث وغيرها. فبعضها يمثل أنظمة ملكية، والبعض الآخر يمثل أنظمة ديمقراطية. في بعض تلك الحالات، كان مجرد نقل رسالة دبلوماسية من طرفٍ إلى آخر، يحتاج إلى عدة أسابيع، بينما كانت حالات أخرى تحظى بفرصٍ وأدواتٍ للتواصل اللحظي. غير أننا وجدنا عاملاً مشتركًا بين هذه الحالات كلها: لقد واجه رؤساء تلك الدول معضلات استراتيجية إزاء منافسين يعانون حالة من الشك والقلق المزمن. اليوم، وبعد عدة قرون، ربما يميل بعض القراء إلى رفض أحكام هؤلاء القادة من منطلق أنها لم تكن عقلانية، أو أنها كانت نتيجة لتقديرات خاطئة. ولكن، بمزيد من التفكير المتروّي، سوف نفهم، بل ونتفهم، الضغوط، والآمال، والمخاوف، التي كانوا يشعرون بها، ومن ثَمَّ الخيارات التي اتخذوها.

صحيح أنه لم يكن من بين هذه الحروب ما لا يمكن تجنبه، غير أن ثِقَل العوامل المُرجِّحة للحرب يجعل من الصعب، أحيانًا، إدراك أن الصراع يمكن أن ينتهي بطريقة أخرى غير الحرب. فالمرء لا يحتاج إلى خيال واسع لمعرفة كيف كان ينبغي على أعضاء مجلس العموم الأثيني أن يصوتوا، بعد الاستماع إلى بريكليس وهو يتحدث عن الحرب، أو لمعرفة النصيحة التي كان من الواجب أن تُقدَّم إلى تشارلز الخامس Charles V إمبراطور هابسبورغ.

تبدو الملامح الأساسية للقوة الدافعة، كما عرَّفها ثيوسيديديز، واضحة في كل حالة من تلك الحالات. ولعل أكثرها وضوحًا، ما أطلقنا عليه، من خلال مشروع فخ ثيوسيديديز، اسم متلازمة القوة الصاعدة rising power syndrome، ومتلازمة القوة الحاكمة ruling power syndrome.

تُسلِّط الظاهرة أو المتلازمة الأولى الضوء على إحساس القوة

الصاعدة المتنامي بنفسها، ومصالحها، وما تستحقه من اعتراف واحترام. بينما تمثل الثانية صورة معكوسة تمامًا للأولى، حيث تُظهِر القوة القائمة قدرًا متعاظمًا من الإحساس بالقلق وانعدام الأمان، بسبب ما تشعر به من مخاوف من الانحدار وفقدان أهميتها ومكانتها. وفي الدبلوماسية، على غرار حالات التنافس بين الأشقاء، يمكن للمرء أن يلحظ، سواء على طاولة العشاء، أو على طاولة المؤتمرات الدولية، تطورات تنبئ بما سوف تؤدي إليه. فتنامي الإحساس بأهمية الذات ("صوتي يُحدِث فارقًا") يؤدي إلى ارتفاع سقف التوقعات في ما يتعلق بالاعتراف والاحترام ("أنْصِت إلى ما أود قولَه")، والرغبة في لعب دور أكثر تأثيرًا ("أنا أُصرُّ"). من المفهوم أن القوة القائمة تنظر إلى ما يقوم به مُحْدَث النعمة من محاولات لإثبات ذاته، باعتبارها أدلة على عدم الاحترام، والجحود، بل وباعتبارها عملاً استفزازيًّا خطيرًا. في اللغة اليونانية، تصبح المبالغة في تقدير أهمية الذات، غطرسةً hubris، وخوفًا لا يمكن تبريره، بل ونوعًا من جنون العظمة paranoia.

رقم	العصر	القوة الحاكمة	القوة الصاعدة	نطاق الصراع	النتيجة
1	أواخر القرن (15)	البرتغال	إسبانيا	الهيمنة الإمبراطورية عالميًا، والتجارية	لا حرب
2	النصف الأول من القرن (16)	فرنسا	هابسبورغ	الهيمنة البرية في غرب أوروبا	حرب
3	القرنان (16)، (17)	هابسبورغ	الإمبراطورية العثمانية	الهيمنة البرية في وسط وشرق أوروبا الهيمنة البحرية في البحر المتوسط	حرب
4	النصف الأول من القرن (17)	هابسبورغ	السويد	الهيمنة البرية والبحرية في شمال أوروبا	حرب
5	منتصف القرن (17) إلى نهايته	هولندا	إنجلترا	الهيمنة الإمبراطورية عالميًا، والهيمنة البحرية، والتجارية	حرب

6	أواخر القرن (17) إلى منتصف (18)	فرنسا	بريطانيا العظمى	الهيمنة الإمبراطورية، والهيمنة البرية في أوروبا كلها	حرب
7	أواخر القرن (18) وبدايات (19)	المملكة المتحدة	فرنسا	الهيمنة البرية والبحرية الأوروبية	حرب
8	منتصف القرن (19)	فرنسا والمملكة المتحدة	روسيا	الهيمنة الإمبراطورية عالميًا، وصراع على النفوذ في آسيا الوسطى، وشرق البحر المتوسط	حرب
9	منتصف القرن (19)	فرنسا	ألمانيا	الهيمنة البرية في أوروبا	حرب
10	أواخر القرن (19) وبدايات (20)	الصين وروسيا	اليابان	الهيمنة البرية والبحرية في شرق آسيا	حرب
11	بدايات القرن (20)	المملكة المتحدة	الولايات المتحدة	الهيمنة الاقتصادية على العالم، والتفوق البحري في نصف الكرة الغربية	لا حرب
12	بدايات القرن (20)	المملكة المتحدة مدعومة من كل من فرنسا وروسيا	ألمانيا	الهيمنة البرية في أوروبا، والبحرية على مستوى العالم	حرب
13	منتصف القرن (20)	الاتحاد السوفييتي فرنسا والمملكة المتحدة	ألمانيا	الهيمنة البرية والبحرية في أوروبا	حرب
14	منتصف القرن (20)	الولايات المتحدة	اليابان	الهيمنة البحرية، وصراع على النفوذ في منطقة آسيا- الباسيفيك	حرب
15	من الأربعينيات إلى الثمانينيات	الولايات المتحدة	الاتحاد السوفييتي	الهيمنة العالمية	لا حرب
16	من التسعينيات حتى اليوم	المملكة المتحدة وفرنسا	ألمانيا	النفوذ السياسي في أوروبا	لا حرب

اليابان في مواجهة الولايات المتحدة

منتصف القرن العشرين

في السابع من كانون الأول/ديسمبر 1941، أغارت الطائرات اليابانية على مقر قيادة البحرية الأمريكية في بيرل هاربور، بجزيرة هاواي، وأغرقت معظم قطع الأسطول الأمريكي الذي كان يتمركز هناك. في ذلك الوقت، لم يكن أحدٌ يتصور أن دولة صغيرة تتكون من عدة جزر، ذات اقتصاد وأسطول ضئيلين حجمًا وقوة، أمام اقتصاد الولايات المتحدة وأسطولها، يمكن أن تهاجم أقوى دولة في العالم. غير أن اليابان كانت ترى أن عواقب أي تصرفٍ بديل، سوف تكون أكثر سوءًا من عواقب هذا الهجوم.

كانت واشنطن قد حاولت إجبار اليابان على إيقاف اعتداءاتها الإقليمية، بما فيها تلك التي ترتكبها ضد الصين، من خلال استخدام أدوات اقتصادية مثل العقوبات المالية والتجارية. إلاّ أن الحكومة اليابانية اعتبرت أن هذه العقوبات تخنقها وتهدد بقاءها. ورغم الاحتجاجات اليابانية، أخفقت الولايات المتحدة في إدراك عواقب تلك العقوبات، كما فشلت في التنبؤ بطبيعة الرد الياباني عليها. فقبل خمسة أيام من الهجوم المفاجئ على بيرل هاربور، قدم السفير الياباني لدى الولايات المتحدة إلى واشنطن تحذيرًا واضحًا: "لقد خَلُصت حكومة اليابان إلى أن الولايات المتحدة قد وضعتها تحت ضغوط شديدة، حتى تخضع للموقف الأمريكي، غير أنها تُفضِّل القتال، على الخضوع لتلك الضغوط"[3]. تجاهلت واشنطن هذا التحذير، وبقيت واثقة في وضعها، ومطمئنة إلى أن اليابان لن تجرؤ على اتخاذ قرار بالدخول في حرب ضد قوة عظمى، لا يمكن التشكيك في تفوُّقها.

كان الطريق إلى بيرل هاربور قد بدأ قبل نصف قرن من وقوع الهجوم، عندما شقَّت الولايات المتحدة طريقها إلى آسيا لأول مرة. فمن بين غنائم الحرب الإسبانية الأمريكية[*] عام 1898، حصلت الولايات المتحدة

(*) حرب خاضتها الولايات المتحدة ضد إسبانيا، دعمًا لثوار كوبا الذين كانوا يسعون إلى التحرر

على أول مستعمرة رئيسية لها، وهي الفيليبين Philippines، كما حصلت على غوام Guam. في العام التالي، أطلق وزير الخارجية الأمريكي جون هاي John Hay ما أسماه سياسة الباب المفتوح Open Door Policy، معلنًا أن الولايات المتحدة لن تسمح لأية قوة أجنبية باحتلال الصين أو احتكار التجارة معها، وأن الصين ستكون مفتوحة الأبواب أمام كافة المصالح الاقتصادية (خاصة مصالح الولايات المتحدة) على أساس من المساواة.

رأت اليابان، الدولة التي تنمو بسرعة من خلال التصنيع، أن المراسيم التي تصدرها قوى عظمى بعيدة عن المنطقة مستثنيةً مستعمراتها من الخضوع لأحكام تلك المراسيم، بينما تحرم بلاد الشمس المشرقة من تحقيق ما تتطلع إليه، هي مراسيم غير عادلة على الإطلاق. فبريطانيا تحكم الهند، بالإضافة إلى أجزاء أخرى كثيرة من العالم. وهولندا استولت على إندونيسيا. وروسيا ابتلعت سيبيريا واستولت على جزيرة ساخالين Sakhalin، الأمر الذي حوّلها إلى جار مباشر لليابان. هذا فضْلاً عن أن القوى الأوروبية أجبرت اليابان على الانسحاب من المناطق التي استولت عليها بعد هزيمة الصينيين خلال الفترة من 1894 إلى 1895. وبعد هذا كله، يأتي الأمريكيون ليعلنوا أن اللعبة قد انتهت؟ لا. لا يمكن أن تنتهي اللعبة، ما دام لدى اليابانيين ما يقولونه بشأنها.

بعد استعدادات جرت بحرصٍ شديد، دخلت اليابان حربًا ضد روسيا عام 1904، فهزمتها بسهولة، وفرضت سيطرتها على شبه جزيرة لياودونغ Liaodong Peninsula، وميناء بورت آرثر Port Arthur، وسكك حديد جنوب منشوريا South Manchuria Railway، ونصف جزيرة ساخالين. في ذلك الوقت، كانت اليابان قد طردت الصين من جزيرة تايوان واحتلت كوريا. في عام 1931، غزت طوكيو الأراضي الصينية، وتوغلت القوات اليابانية مسافة

من الاستعمار الإسباني، خاصة أن الأحداث التي واكبت الثورة كبَّدت المستثمرين الأمريكيين في كوبا خسائر فادحة. مثَّلت تلك الحرب التي استغرقت أقل من 4 أشهر بداية لتمدُّد الولايات المتحدة كقوة استعمارية عالمية، وبداية تقلُّص دور إسبانيا العسكري والسياسي حول العالم، لتتحول إلى مجرد قوة إقليمية. (المُعرِّب)

خمسمائة ميل في عمق البلاد، لتُحكِم سيطرتها على أكثر من نصف مساحة الصين. (سَجَّل الصينيون تفاصيل هذه العملية الوحشية، التي يطلقون عليها اسم اغتصاب نانكينغ Rape of Nanking، وأدرجوها، بكافة تفاصيلها، في الكتب المدرسية، لتضمن الحكومة أن كل طالب في الصين اليوم، قد اطلع على تلك الأحداث المهمة).

في عام 1933، أعلنت طوكيو عقيدة مونرو اليابانية Japanese Monroe Doctrine، مُتَبنِّيةً شعار آسيا للآسيويين، ومؤكدة أنها سوف تتحمل، من الآن فصاعدًا، مسؤولية الحفاظ على السلام وإقرار النظام في الشرق الأقصى. كان هذا الإعلان شهادة ميلاد لما عرف باسم منطقة الرخاء المشترك الكبرى في شرق آسيا Greater East Asia Co-Prosperity Sphere. وقد عكست الاستراتيجية اليابانية قناعة لا هوادة فيها بمبدأ كل شيء أو لا شيء: "إذا لم تكن الشمس مشرقة، فهي إذًا قد أَفَلَتْ"[4].

رأت الولايات المتحدة، التي نصبت نفسها حارسًا وراعيًا لسياسة الباب المفتوح، أن طموحَ اليابان وأفعالَها، أمورٌ غيرُ مقبولة. وهنا يقول المؤرخ بول كينيدي Paul Kennedy: "لم يكن أمام الولايات المتحدة خيار سوى الرد على العدوان الياباني، لأنها رأت فيه تهديدًا لسياسة الباب المفتوح، التي يعتمد عليها، نظريًا، نمط الحياة الأمريكي إلى درجة كبيرة"[5]. بدأت أولى خطوات الرد الأمريكي من خلال وسائل اقتصادية لا عسكرية. فقد فرضت الولايات المتحدة حظرًا على تصدير خُردة الحديد العالية الجودة، ووقود الطائرات، إلى اليابان. وفي ما بعد، صعَّدت واشنطن عقوباتها، لتشمل المواد الخام الأساسية مثل الحديد، والبرونز، والنحاس، ثم لم تلبث أن أضافت إلى ما تقدم، حظرًا على تصدير البترول.

لقد ثبتَ أن حظر البترول الذي فرضه فرانكلين روزفلت(*) Franklin

(*) فرانكلين روزفلت (1882-1945) هو الرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة ويُعرف اختصارًا باسم FDR. انتُخِب روزفلت لأربع فترات رئاسية من 4 آذار/مارس 1933 إلى وفاته في 12 نيسان/أبريل 1945. (المُعرّب)

Roosevelt في آب/أغسطس 1941، كان بمثابة القشة الشهيرة التي قصمت ظهر البعير. فكما يقول المحلل السياسي شارلز ماكلينغ Charles Maechling، في كتابه بيرل هاربور: أول حروب الطاقة Pearl Harbor: The First Energy War: "لم يكن البترول السبب الوحيد لتدهور العلاقات، إلاّ أنه، فور استخدامه كسلاح دبلوماسي(*)، أصبحت الأعمال العدائية أمرًا لا يمكن تجنُّبه"[6]. في أجواء يخيِّم عليها اليأس، أقرَّ قادة اليابان خطة تقضي بتوجيه ضربة استباقية قاضية إلى الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور. وفي اجتماع ضمّ أعضاء الحكومة، لخّص الأدميرال إيسوروكو ياماموتو Isoroku Yamamoto، القائد الذي وضع خطة الهجوم، الوضع العسكري لقواته على النحو التالي: "خلال المرحلة الأولى من الحرب ضد الولايات المتحدة وانجلترا، التي تتراوح بين ستة أشهر وعام كامل، سوف أضرب بوحشية، وسوف أقدم لكم سلسلة متواصلة من الانتصارات". غير أن ياماموتو حذر مستمعيه قائلاً: "لكنني لا أستطيع أن أجزم بتحقيق نصرٍ نهائي، إذا ما امتدت الحرب لعامين أو ثلاثة"[7].

كانت آثار الصدمة واضحة على ردود أفعال صنَّاع السياسة الأمريكيين، وهم يستنكرون ما وصفوه بالهجوم الياباني غير المبرَّر. غير أنهم، إزاء المفاجأة الصارخة التي صعقتهم، لا يستطيعون أن يلوموا إلا أنفسهم[8]. فلو أن هؤلاء القادة جلسوا عصر يومٍ ما لقراءة ثيوسيديدين، والتفكير في عواقب إعلان ميغارا الذي أصدرته أثينا، أو التفكير في ما بذلته بريطانيا من جهود لاحتواء صعود ألمانيا في الحقبة التي سبقت عام 1914 (وهي الحلقة التي سوف نتعرض لها بالتفصيل في الفصل القادم من هذا الكتاب)، لربما استطاعوا أن يتوقعوا الخطوة التي أقدمت عليها اليابان. وقد فعل البعض هذا، ولكن بشكل شخصي. فمع تغليظ العقوبات الأمريكية على اليابان عام 1941، كتب جوزيف غرو Joseph Grew، السفير الأمريكي

(*) هكذا وردت في النص الأصلي، وإن كنت أرى أن الصواب أن يقال "كسلاح اقتصادي"، وليس "كسلاح دبلوماسي". (المُعرِّب)

لدى طوكيو، في يومياته الخاصة: "دائرة الانتقام والانتقام المضاد المُفْرغة تتواصل..... والنتيجة الحتمية في نهاية المطاف هي الحرب"[9].

في كثير من الحالات، يُشعِل التسابقُ بين قوة صاعدة وأخرى حاكمة، التنافسَ على الموارد النادرة، ويجعله أكثر حدةً. فعندما يُجبِر صاحبُ الاقتصاد الأكبر، الطرفَ الأول على الوصول إلى أبعد ما يستطيع لتأمين السلع الأساسية، بما في ذلك ما يقع منها تحت سيطرة أو حماية الطرف الثاني، يتحول التنافس إلى تدافع. كما أن حرمان دولة من واردات ترى أنها حيوية لضمان بقائها، يمكن أن يشعل حربًا.

اليابان في مواجهة روسيا والصين

أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين

كان صعود اليابان، كمنافِسَة لروسيا والصين، في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، مقدمة أساسية لما وقع في بيرل هاربور. بدأت المسألة عام 1853، عندما أنهى القائد الأمريكي ماثيو بِرِّي Matthew Perry، وأسطوله المسمى السفن السوداء Black Ships، قرنين من انعزال اليابان وإصرارها على رفض اقتراحات أوروبية متكررة. فقد وضع بِرِّي إمبراطور اليابان أمام لحظة اختيار حاسمة: إذا لم يفتح الموانئ اليابانية أمام السفن الأمريكية الراغبة في إعادة التزود بالوقود، سوف يجِد نفسه هدفًا لمعدات حربية حديثة لم تخطر له على بال. اختارت اليابان الخيار الأول، وعلى الفور وجدت نفسها مبهورة بما شهِدته من مظاهر التحديث.

بعد أقل من عقدين، وفي أعقاب نهضة ميجي Meiji Restoration عام 1868، التي أعادت للإمبراطور وضعه كسلطة وطنية عليا(*)، انطلقت اليابان

(*) نهضة ميجي، أو ثورة ميجي، أو إصلاحات ميجي، حدث بالغ الأهمية في تاريخ اليابان، إذ حوَّلها من دولة إقطاعية منعزلة، إلى دولة صناعية منفتحة على العالم. كما أصلحت هذه الثورة النظام السياسي الياباني، فأعادت السلطة الفعلية إلى الإمبراطور، بعد أن كان أباطرة اليابان قد

في سباق للتطور بهدف اللحاق بالقوى الغربية. وبالفعل وصل حجم الناتج القومي الإجمالي عام 1899 إلى ثلاثة أمثال حجمه عام 1885[(10)]، بفضل جهود التكنوقراط اليابانيين الذين طافوا جميع أرجاء العالم بحثًا عن المنتجات والأنظمة والممارسات الصناعية التي يمكن استعارتها، أو تعديلها، أو تقليدها، أو حتى سرقتها. عمَّقت هذه الاندفاعة الاقتصادية عزْم اليابان على الوقوف على قدم المساواة مع الغرب. وبينما كانت دول الغرب تواصل، بنَهَم، تحويل المزيد من المناطق المجاورة لليابان إلى مستعمرات ومناطق نفوذ، غمر اليابانيين ما أسماه المؤرخ الياباني أكيرا إيريي Akira Iriye "إحساسٌ بالحاجة المُلِّحة إلى العمل باندفاع أكبر، لتجنُّب الإيذاء القادِم من قِبَل الغرب العدواني، ولتعزيز القدرات الذاتية من أجل اللحاق برَكْب القوى العظمى"[(11)].

أدت الجهود التي انطلقت من هذا الإحساس إلى زيادة كبيرة في معدلات بناء القوات المسلحة اليابانية، برية كانت أو بحرية. الأمر الذي أدى إلى زيادة حجم الإنفاق العسكري من 19 في المائة في ميزانية عام 1880، إلى 31 في المائة في ميزانية عام 1890[(12)]. وقد صاحب تزايدَ القدرات العسكرية اليابانية، تصاعدٌ في حدَّة مواقف اليابان من جيرانها، ومعظمهم من الموالين للغرب. في عام 1894، أرسلت كل من الصين واليابان قوات عسكرية إلى كوريا بعد أن اندلعت هناك حركة تمرد[(13)]. تصادم الطرفان على الأرض الكورية، وتمكنت اليابان من هزيمة الصين، وأجبرتها على تسليم كوريا، وتايوان، وجنوب شرقي منشوريا، حيث يقع بورت آرثر، الميناء التجاري الذي يتمتع بأهمية استراتيجية. أثارت تلك التطورات حفيظة الغرب، فمارست موسكو وحلفاؤها الأوروبيون ضغوطًا هائلة على اليابان

تحوَّلوا على مدار أكثر من قرنين إلى مجرد رموز، وانتقلت السلطة إلى نظام سياسي إقطاعي. قاد هذه الثورة الإمبراطور ميجي العظيم Meiji The Great (تشرين الثاني/نوفمبر 1852- تموز/يوليه 1912)، الذي حكم اليابان من شباط/فبراير 1867 حتى وفاته في تموز/يوليو 1912. وميجي هو صاحب المقولة الشهيرة: "سوف نسعى لطلب المعرفة في جميع أنحاء العالم، وعلى أساس هذه المعرفة سوف نرسي دعائم الحكم الإمبراطوري". (المُعرِّب)

حتى أجبرتها على التخلي عن مطالبها في منشوريا، بعد ستة أيام فقط من توقيع معاهدة شيمونوسيكي(*) Treaty of Shimonoseki مع الصين. وفي هذا السياق، أبلغت روسيا اليابان، بوضوح، أنها لن تسمح لها بالتعدي على أي إقليم تعتبره حيويًا بالنسبة للمصالح الروسية[14].

وكما كان متوقعًا، اشتعلت اليابان غضبًا، بسبب فقدان ماء الوجه وتبعات ذلك من الناحية الجيوسياسية. وفي عام 1904، كتب الأكاديمي الياباني كان أيْشي أساكاوا Kan Ichi Asakawa أن روسيا "بعد أن أصبحت منشوريا، وفي نهاية المطاف كوريا، في يدها، سوف تكون: أولاً، قادرة على امتلاك نفوذ بحري وتجاري قوي، يُمَكِّنها من فرض هيمنتها على الشرق، وثانيًا، قادرة على القضاء على طموحات اليابان كأمة قضاءً مُبْرمًا، ودفعها ببطءٍ نحو المجاعة والاضمحلال، بل ربما تُلْحقها بها سياسيًا"[15]. وقد بسط هذا الكابوس جناحيه على اليابانيين بصورة محسوسة، عندما أجبرت روسيا الصين على أن تؤجِّر لها القاعدة المنشورية الموجودة في ميناء بورت آرثر، وعندما بدأت العمل على تمديد خط سكة حديدية إلى سيبيريا Trans-Siberian Railway، لتوفير اتصال مباشر بين موسكو والبحر الأصفر(**) Yellow Sea.

بعد المهانة التي تعرضت لها اليابان عام 1895، قضى قادة البلاد عقدًا كاملاً في الإعداد بتأنٍ وتروٍّ لحرب قادمة لا محالة مع روسيا[16]. كانت روسيا، في سعيها لتأمين مصالحها الاستراتيجية والتجارية، قد مدَّت

(*) وقِّعت هذه المعاهدة في مدينة شيمونوسيكي اليابانية في 17 نيسان/أبريل 1895، بعد نحو شهر من المفاوضات بين إمبراطورية اليابان وإمبراطورية كوينغ Qing الصينية. لقد أنهت هذه المعاهدة الحربَ الصينية اليابانية الأولى التي استمرت ما يقرب من عام، ومن أبرز بنودها اعتراف الصين الكامل باستقلال كوريا، والموافقة على أن تدفع الصين إلى اليابان 7500 كيلوغرام من الذهب، كتعويضات حرب، وبالإضافة إلى ذلك تضمن الصين لليابان مركز الدولة الأَوْلى بالرعاية في مجال التجارة الخارجية. (المُعرِّب)

(**) هو البحر الذي يُعرف في شطري شبه الجزيرة الكورية باسم بحر الغرب West Sea. والبحر الأصفر ليس بحرًا مستقلاً، لكنه جزء من بحر الصين الشرقي، الذي هو بدوره جزء من المحيط الهادي. يستمد البحر الأصفر اسمه من لون مياهه التي يغلب عليها اللون الأصفر، بسبب الرمال التي يحملها إليه نهر هوانغ، الذي يعرف هو أيضًا باسم النهر الأصفر. (المُعرِّب)

خط سكّة حديدية إلى أراضي الإقليم ذاته الذي كانت اليابان قد استولت عليه بعد انتصارها الكاسح على الصين، ثُم انتزع منها عن طريق التدخل الغربي. ضاعفت هذه التطورات اقتناع القادة اليابانيين بأنهم لن يستطيعوا بعد الآن الانصياع لمطالب الغرب، وهو اقتناع بُني في الأساس على فهمهم العميق لنفسية المواطن الياباني. بعد اكتمال الاستعدادات العسكرية عام 1904، طلبت اليابان من روسيا أن تتنازل لها عن السيطرة على عدد من المناطق الرئيسية في منشوريا. وعندما رفضت روسيا هذا الطلب، وجهت اليابان إليها ضربة استباقية، ثم أعقبت تلك الضربة بشن حرب، انتهت بهزيمة روسيا هزيمة ساحقة.

إحساس اليابان بالاستعجال، والقلق، واللهفة، والاضطهاد، ورغبتها في الانتقام، عوامل تُعَمِّق فهمنا لمتلازمة القوة الصاعدة. فتعامل الغرب مع طوكيو بطريقة مُهينة، عندما كانت أضعف من أن تعترض على تلك المعاملة، زرع وغذّى بداخلها تصميمًا شرِسًا على تأسيس وشَغْل ما تعتبره مكانها الصحيح والعادل في العالم، وفقًا لفكرة الترتيب الهرمي(*) pecking order. وقد لعب هذا النمط النفسي دوره مرة بعد مرة، في أوساط الدول الصاعدة، عبر القرون المختلفة.

ألمانيا في مواجهة فرنسا

منتصف القرن التاسع عشر

وضع انتصار بروسيا Prussia على الدانمارك عام 1864، وعلى النمسا عام 1866، القوى البارزة في أوروبا في حالة يصفها المؤرخ مايكل هاورد

(*) مصطلح دخل إلى عالم السياسة وعلم الاجتماع قادمًا من علوم الحيوان، أصل هذا المصطلح هو "هرمية النقر"، ويقصد به تسلسل هرمي يحكم مجتمع الدجاج، فيُمكِّن أيًّا من أعضاء هذا المجتمع من فرض سيطرته على الأعضاء الأكثر ضعفًا عن طريق النقْر. وفي الوقت نفسه، يجعله عُرضة للنقْر من قِبَل أعضاء آخرين، يفوقونه قوة وعنفًا. (المُعرِّب: بتصرف عن قاموس المورد الأكبر، منير البعلبكي، صفحة 1338)

Michael Howard في كتاب الحرب الفرنسية البروسية The Franco-Prussian War، بأنها: "الأخطر من بين كافة الحالات المِزاجيّة للدول، وهنا أقصد حالة القوة العظمى عندما ترى نفسها وهي تنحدر إلى المرتبة الثانية"[17]. أو كما قال مسؤول فرنسي في تلك الفترة: "إن العظمة مسألة نسبيِّة، فقوة دولة ما يمكن أن تتضاءل لمجرد وجود قوى جديدة تتراكم حولها"[18].

لقد صدمت سرعة صعود بروسيا باريس، وشجّعت برلين. فمع إلحاق بروسيا مقاطعات ألمانية أخرى ضمن حدودها، ازداد عدد سكانها من ثلث عدد سكان فرنسا عام 1820، إلى أربعة أخماس عددهم عام 1870. وارتفع حجم إنتاج بروسيا من الحديد والصلب من نصف حجم الإنتاج الفرنسي عام 1860، إلى ما يفوقه بعد نحو عشر سنوات[19]. كذلك كانت بروسيا تُحَدِّث قوتها العسكرية بسرعة كبيرة. ومع حلول عام 1870، أصبحت قوة بروسيا العسكرية أكبر من القوة الفرنسية بمقدار الثلث. وقد لخّص جوفري واورو Georey Wawro الخبير العسكري المتخصص في شؤون تلك الفترة، هذا الوضع في عبارة واحدة: "سيطر الذهول على فرنسا، فبين عشيةٍ وضحاها تقريبًا، تحوَّل جار صغير، يمكن التعامل معه بسهولة، إلى صرح صناعي وعسكري هائل"[20]. كذلك استطاعت الإمبراطورة الفرنسية أن تُعبِّر عن المِزاج السائد في باريس وقتها عندما أعربت عن خوفها من أن "تذهب إلى النوم فرنسية، وتستيقظ لتجد نفسها بروسية"[21].

كان طموح بسمارك إلى توحيد المقاطعات الناطقة بالألمانية في إمبراطورية واحدة، القوة الدافعة التي تحركه، غير أن زعماء كثيرٍ من هذه المقاطعات أصروا على التمسك بسلطاتهم وامتيازاتهم كحكَّام لولايات مستقلة. وما كان من الممكن أبدًا أن يقبل هؤلاء أن يكونوا تابعين لبروسيا، لو لم تهتز عروشهم من أثر صدمة أخرجتهم من دائرة الأنانية، وجعلتهم يشعرون أن بقاءهم معرَّض للخطر. فكما يقول روبرت هاورد لورد Robert

Howard Lord فـي كـتـابـه جـذور حـرب 1870 The Origins of the War of 1870، لقد قدَّر بِسْمارك، وكان محقًا في تقديره، أن حربًا مع فرنسا سوف توفر ما يحتاج إليه لتحقيق حلم توحيد ألمانيا، خاصة أنه، وجنرالاته، كانوا يعرفون أنهم مستعدون جيدًا للتعامل مع القوات الفرنسية[22].

لقد أدرك بسمارك أن النجاح في حشد أمراء المقاطعات الجنوبية المترددين خلف قضية واحدة، يتطلب أن تبدو فرنسا أمامهم في صورة الدولة المعتدية. ولأن الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث Napoleon III كان قلقًا ومتوترًا، بالفعل، بسبب صعود بروسيا السريع، لم يجد بِسْمارك أدنى صعوبة في استثارة مخاوف الفرنسيين. ففي ضربة جريئة، اقترح تنصيب أمير ألماني من أسرة هوينْتسولّيرن House of Hohenzollern، على عرش إسبانيا، وبذلك يضع فرنسا في مأزق بين الألمان على الجانبين. وكما توقع بِسْمارك، أصاب باريسَ الرعبُ، بسبب شبح التطويق الذي ينتظرها[*]. وكما يقول جوناثان شتاينبرغ Jonathan Steinberg كاتب السيرة الذاتية لبِسْمارك، كان وزير الخارجية الفرنسي يرى أن ترشيح أميرٍ هوينْتسولّيرني لاعتلاء عرش إسبانيا يُشكِّل محاولة خطيرة لتغيير موازين القوى في أوروبا، على حساب إمبراطورية فرنسا، وأن ذلك أصاب مصالحَ فرنسا وشرفَها بجرح غائر[23]. لهذا، استجاب نابليون الثالث للضغوط الداخلية التي تطالبه بالتصدي للتهديدات البروسيّة المتزايدة، وطالب ملكَ بروسيا بأن يعلن تخلّيه نهائيًا عن فكرة تنصيب أحد أقربائه على عرش إسبانيا[24]. كان نابليون مقتنعًا اقتناعًا تامًّا بأن جيشه قادر على أن يسحق برلين، إذا ما نشبت الحرب بين الدولتين. رفضت بروسيا الطلب الفرنسي. ومع بدء حالة التوتر، تزايدت المخاوف من الحرب، مخاوف حرصت على تغذيتها صحيفة إمْز تِليغرام Ems Telegram (نشرة صحفية لا تتحرى

(*) المقصود هنا أن تنصيب أمير من أسرة بروسية ملكًا على إسبانيا، يعني أن فرنسا قد أصبحت محاصرة بين دولتين تسيطر عليهما أسرة ألمانية واحدة، وهي مسألة لها خطورتها، خاصة في ظل العداء التاريخي بين فرنسا وألمانيا. (المُعرِّب)

الصدق التام، كان بِسْمارك يستغلها لتضخيم مخاوف الفرنسيين)، الأمر الذي دفع نابليون الثالث إلى إعلان الحرب على بروسيا. وكما توقع بِسْمارك منذ البداية، استطاعت القوات البروسيّة المدعومة من وحدات مختارة من قوات بعض أمراء المقاطعات، أن تُلحِق بالفرنسيين هزيمة ساحقة، ومن خلال هذا الانتصار، وُلِدت الإمبراطورية الألمانية الموحدة.

يوفر بِسْمارك نموذجًا دراسيًا أكاديميًا لكيفية استغلال متلازمة السلطة الحاكمة: الاستفادة من المخاوف المبالغ فيها، والإحساس بعدم الأمان، والفزع من حدوث تغيُّرات في الوضع الراهن، لإجبار الطرف الآخر على القيام برد فعل طائش. وقد شرح علماء السلوك المعاصرون هذه المسألة على المستوى النفسي الأساسي، مُشيرين إلى أن خوف الناس من الخسران (أو تخويفهم من الانحدار)، يقضي على آمالهم في الفوز، ويدفعهم، في معظم الحالات، إلى خوض مخاطر غير معقولة، لحماية ما بين أيديهم من أوراق رابحة. فالدول، بحماقتها، يمكن أن تعرِّض نفسها لمزيد من الخسارة في محاولتها الحفاظ على الوضع الراهن، خصوصًا في حالات التمدد أو التوسع الإمبراطوري الزائد عن الحد، حيث تصبح مصالح القوة العظمى والتزاماتها العالمية، أكبر من قدرتها على الدفاع عنها كلها في آن واحد، على حد تعبير بول كينيدي[25].

إنجلترا في مواجهة جمهورية هولندا

من منتصف القرن السابع عشر إلى نهايته

خلال عصرها الذهبي في النصف الأول من القرن السابع عشر، برزت جمهورية هولندا باعتبارها القوة البحرية الأولى في أوروبا، وهو ما تجلى بوضوح من خلال فرض هيمنتها على التجارة، والنقل البحري، والموارد المالية. غير أن إنجلترا، العائدة إلى الساحة الدولية بعد غياب، والمدعومة بأسطول يتزايد حجمه يومًا بعد يوم، سرعان ما مثلت تحديًا للنظام القائم

الذي أسسته الجمهورية الهولندية، ولشبكة التجارة الحرة التي ترعاها. كان الطرفان يؤمنان بأن المنافسة بينهما مسألة وجودية. وكما يقول الباحث الأكاديمي الإنجليزي جورج إدموندسون George Edmundson: "كانت كل من الدولتين تدرك بطريقة غريزية أن مصيرها مرتبط بالماء ارتباطًا وثيقًا، وأن امتلاك السيادة البحرية ضرورة لا غنى عنها لوجودها القومي"[(26)]. لقد آمنت كل منهما أنه في لعبة المجموع الصِفْري[(*)] zero-sum game التي تمارسانها، لا يوجد سوى خيارين: "إما إذعان أحد الطرفين للطرف الآخر بإرادته، أو خَوض اختبار قوة من خلال محنة الحرب"[(27)].

كان وضع الجمهورية الهولندية في العالم، خلال القرن السابع عشر، يستند إلى ركيزتين: التجارة الحرّة، وحرية الملاحة. لقد مكَّن عالم القرن السابع عشر، الذي لم يكن يعرف الحواجز، دولة صغيرة نسبيًّا، هي هولندا، من ترجمة ما تتميَّز به من إنتاجية عالية وكفاءة إدارية، إلى ثقل سياسي واقتصادي هائل، وهو إنجاز فذّ، اعتقدت لندن أنه تحقق على حسابها. وكما يقول عالم الاقتصاد السياسي جاك ليفي Jack Levy: "لقد انتشر في إنجلترا على نطاق واسع، اعتقاد جازم بأن نجاح الاقتصاد الهولندي بُني على أساس استغلال إنجلترا"[(28)].

كانت إنجلترا خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، أضعف بكثير من أن تتحدّى النظام الذي فرضته هولندا. غير أن استياءها من هذا

(*) المجموع الصفري مصطلح رياضي يُستخدم في المجال الاقتصادي وفي مجال الألعاب التفاعلية التي يمارسها أكثر من شخص، ويُقصد به النقطة التي يتساوى عندها إجمالي المكاسب التي حققها طرف ما، مع إجمالي الخسائر التي مُني بها سائر أطراف اللعبة مجتمعين، أو اللحظة التي تساوي فيها خسائر شخص ما، إجمالي مكاسب سائر أطراف اللعبة مجتمعين. أفضل مثال على حالة المجموع الصفري هي السرقة. فعندما ينجح نشَّال في سرقة خمسة من ركاب الحافلة معًا، فإن المبلغ الذي دخل جيبه، يساوي تمامًا مجموع المبالغ التي خرجت من جيوب الركاب الخمسة. يختلف هذا الوضع عن حالات البيع والشراء، فالبائع الذي يبيع سلعة ما بعشرة جنيهات مثلاً، يؤمن أن الجنيهات العشرة أعلى قيمة من السلعة نفسها، بينما يؤمن المشتري أن قيمة السلعة المُشتراة، بالنسبة له على الأقل، أكبر من قيمة الجنيهات العشرة التي دفعها. (المُعرِّب)

النظام ورفضها له كانا يتزايدان، وبين عامي 1649 و1651، ضاعفت لندن حجم أسطولها، من تسع وثلاثين إلى ثمانين سفينة، فاقتربت به كثيرًا من حجم أسطول منافستها[29]. ومع تنامي قوة إنجلترا، تزايدت جرأتها، فأعلنت فرض سيادتها على البحار التي تحيط بجزيرتها، وأصدرت في عام 1651، أول قانون دولي للملاحة، الذي منحت نفسها بموجبه، منفردة، السلطة الكاملة لفرض التشريعات التي تنظم التجارة بين مستعمراتها. كما نص هذا القانون على أن عمليات نقل التجارة الإنجليزية حقٌّ حصريٌّ للسفن الإنجليزية. وقد بررت لندن هذه السياسات الحازمة والمتحدّية بأن "التوسع الاقتصادي لإنجلترا، يجب أن يتضمن التحرر من علاقتها مع هولندا التي تحمل طابعًا استعماريًا حقيقيًا"[30]. من ناحية أخرى، أكد الزعيم الهولندي يوهان دي ويتْ Johan de Witt أن نظام التجارة الحرة الذي وضعته بلاده، حقٌّ طبيعي Natural Right، وقانون أممي Law of Nations، في آن واحد[31]. كذلك اعتبر الهولنديون أن سياسات إنجلترا التجارية تمثل تهديدًا مباشرًا لبقاء دولتهم، لهذا أعلن دي ويت، بجرأة ودون مواربة: "لن نعترف بسيادة إنجلترا الوهمية على البحار، ما بقيت في أجسادنا نقطة دم واحدة"[32].

قبل أن تصل الأمور إلى نقطة الانفجار، حاول الطرفان الابتعاد عن شفير الهاوية: في عام 1651، اقترح الإنجليز توقيع معاهدة دفاع مشترك بين الدولتين، وإنشاء اتحادٍ كونفدرالي يجمعهما، وهو ما رفضه الهولنديون، إذ اعتبروه محاولة مكشوفة من قبل الدولة الأكبر، للهيمنة عليهم سياسيًا. ورد الهولنديون باقتراح عقد عدد من الاتفاقات الاقتصادية، غير أن لندن رأت أن الاتفاقات المقترحة لن تؤدي إلاّ إلى تأبيد أو استدامة ما تحظى به جمهورية هولندا حاليًا من امتيازات هائلة. في نهاية المطاف، خاضت الدولتان، ابتداءً من عام 1652، ثلاث حروب في أقل من ربع قرن. وقد خَلُص جورج إدموندسون إلى أن "هذه الحروب كانت مُحصلة حتمية لصدام مصالح طويل ومتواصل، وقد كان هذا الصدام حيويًا وذا أهمية جوهرية بالغة، لرخاء الأمتين[33].

تذكِّرنا هذه الحروب بأن إجراء بعض التعديلات على الترتيبات، والمؤسسات، والعلاقات القائمة، لتعكس ما لحق بموازين القوى من تغيُّر، يتفق مع ما أسماه مشروع فخ ثيوسيديديز الاحتكاك الانتقالي transitional friction. في إطار هذه الآلية، تؤمن القوى الصاعدة، عادةً، بأن المؤسسات القائمة لا تتغير بالسرعة اللازمة، وترى في هذا التباطؤ دليلاً على أن الدولة الراسخة تحاول احتواءها. في الوقت نفسه، تشعر القوة الحاكمة أن الدولة الصاعدة تتجاوز حدودها عندما تطالب بأن تكون عملية التغيير سريعة، حيث ترى أن تسريع عملية التغيير يجعلها غير مفيدة وغير آمنة.

هابسبورغ في مواجهة فرنسا

النصف الأول من القرن السادس عشر

مثَّل صعود أسرة هابسبورغ، في بدايات القرن السادس عشر، تهديدًا لمكانة فرنسا المتميزة على الساحة الأوروبية. وقد تصدرت المشاكلُ بين الطرفين المشهدَ السياسي الدولي عندما نازع تشارلز الأول Charles I ملكُ إسبانيا (المعروف لاحقًا باسم تشارلز الخامس) الملك فرانسيس الأول Francis I، على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة. فقد كان فرانسيس والبطانة التي تحيط به يتوقعون، منذ فترة طويلة، أنه هو من سيخلف جدَّه ماكسيميليان الأول Maximilian I، على هذا العرش.

كان فرانسيس، الذي يحكم أكبر قوة مسيطرة على الأرض في أوروبا الغربية، والذي أخضع لسلطانه أجزاءً واسعة من إيطاليا، بما في ذلك ميلان، قد تجاوز كل ملوك أوروبا، سواء من حيث الثروة أو من حيث السلطان، على حد تعبير البابا ليو العاشر آنذاك. لهذا، عندما وقع اختيار البابا على الملك تشارلز، ليشغل العرش الروماني المقدس، استشاط فرانسيس غضبًا. وقد عبَّرت المؤرخة ماريا رودريغز سالاغادو Maria Rodriguez Salagado، المتخصصة البارزة في تاريخ تلك الفترة عن حالة

فرانسيس قائلةً: "لقد توقع الملك الفرنسي، فور تجاوزه، قيام الحرب، ليس ضد الكفّار، ولكن بينه وبين تشارلز"[34].

بعد تتويج تشارلز إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة، سارع إلى بسط نفوذه على هولندا، ومعظم أجزاء ما نعرفه اليوم بإيطاليا، وإمبراطورية في العالم الجديد، لتصبح أوروبا، بفضله، مَلَكِية عالمية، بدرجة أكبر مما كانت عليه في أي وقت منذ القرن التاسع. وقد اعتمد تشارلز على التفوق العسكري، اعتمادًا أساسيًا، ليفرض سيطرة لا يمكن لأحدٍ أن يتحداها، على جميع أنحاء مملكته المترامية الأطراف، التي كان يصفها بأنها الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس أبدًا[35].

كان كثير من الأوروبيين، ومن بينهم فرانسيس، يعتقدون أن تشارلز يسعى إلى الهيمنة على العالم كله، رغم أن تشارلز نفسه لم يعلن ذلك صراحة[36]. وقد عبرت ماريا رودريغز سالاغادو عن هذا الإحساس بقولها: "سواء كان تشارلز الخامس يَنشُد إمبراطورية عالمية أم لا، سوف تبقى حقيقةٌ مؤدّاها أن سلطانَه كان سلطانًا عالميًا بامتياز، وقد ألحق هذا السلطان الضرر بكثير من المصالح، الأمر الذي أثار ضده مشاعر الغضب والاستياء على نطاق واسع"[37]. وتصدّر فرانسيس قائمة الغاضبين المستائين. فتشارلز لم يُلقِ بظلاله على مكانة الملك الفرنسي المجيدة فقط، لكنه، بمواصلة توسعاته، أثار خوف فرانسيس من احتمالات أن ينجح آل هابسبورغ وحلفاؤهم في إحكام الخناق حول فرنسا[38].

خلُص فرانسيس إلى أن أفضل وسيلة لتحسين وضعه، هي استغلال نقاط ضعف غريمه، فشجّع حلفاءه على غزو المقاطعات التي يحكمها آل هابسبورغ، والتي تقع في ما يُعرف اليوم بإسبانيا، وفرنسا، ولوكسمبورغ[39]. وردَّ تشارلز بتجنيد قوات إنجليزية للمساعدة في التصدي لعدوان فرانسيس، بينما أرسل قواته الخاصة لغزو المقاطعات التي تقع تحت سيطرة فرنسا في إيطاليا، ليخوض، في نهاية المطاف، سلسلة من الحروب غير الحاسمة مع فرنسا. وقد تواصلت الحروب المتقطعة بين

فرنسا وإسبانيا لفترة طويلة، حتى أن عمرها تجاوز أعمار القادة الذين كانوا أطرافًا فيها.

يلقي الصراع بين فرنسا وآل هابسبورغ الضوء على الطرق المتعددة التي تجعل التصورات الخاطئة تضلل الدول، مثلما تضلل بالتأكيد الأفراد. نحن نتميَّز بأننا نرى أنفسنا أكثر طيبة ولُطفًا مما نحن عليه بالفعل، ونسارع في إلصاق تهمة سوء النوايا وخُبْث الدوافع بأي منافس مُحتمَل. ولأن الدولة لا تستطيع مطلقًا أن تثق في نوايا الدول الأخرى، فهي تركِّز اهتمامها على معرفة إمكانيات منافساتها. إن الأعمال الدفاعية التي تقوم بها قوة ما، غالبًا ما تمثل تهديدًا لخصومها، على النحو الذي يذكِّرنا به مصطلح روبرت جيرفيس Robert Jervis، المعضلة الأمنية(40). من الممكن أن تُسقِط القوة الصاعدة مخاوف القوة الحاكمة من حساباتها، لأنها تعرف نفسها، وتعرف حُسْن مقاصدها. أما خصومها فيسيئون فهم حتى مبادراتها الإيجابية، إذ يعتبرونها مطالب مبالَغًا فيها، بل وشكلاً من أشكال التهديد. إن رفض أسبرطة القاطع لمحاولات أثينا تقديم العون إلى ضحايا الزلزال المدمر الذي ضرب المنطقة عام 464 قبل الميلاد، يعكس هذه النزعة.

كذلك يذكرنا مثال فرانسيس-هابسبورغ بمخاطر التحالفات ومزاياها. فسعيًا لتطويق التغيّر في ميزان القوى، تستطيع كل من الدولتين، الصاعدة والقائمة، تقوية تحالفاتها القائمة بالفعل، أو تكوين تحالفات جديدة(*). وتصبح كل منهما أكثر استعدادًا لاتخاذ ترتيبات كانت قد رفضتها في السابق. وربما تجد كل منهما نفسها أكثر استعدادًا للتهوين من شأن التعارض بين مصالحها ومصالح حلفائها الجدد. وعندما تكون الدول أكثر اهتمامًا بالحفاظ على مصداقيتها، فهي قد تبني تحالفات جديدة يتضح في نهاية الأمر، أنها كانت معوِّقة، أكثر من كونها مُساعِدة.

(*) وبالطبع لا يوجد ما يحول دون الجمع بين الوسيلتين معًا: تعزيز تحالفات قديمة، واستحداث أخرى جديدة. (المُعرِّب)

أخيرًا، يستطيع المرء أن يسمع في مناورات فرانسيس البارعة بحلفائه كقطع شطرنج بهدف استفزاز تشارلز، وكذلك في تحالف ملك هابسبورغ مع الملكية الإنجليزية، أصداءً لرغبة أسبرطة في أن تُنحّي جانبًا عداوتها مع كورينث، واعتراضات أولئك الذين دفعوا عن حق، كما تبين لاحقًا، بأن التحالف بين هاتين القوتين، سوف يخلق من المشاكل أكثر مما سوف يعالج.

هوامش

الفصل الثالث

(1) الملف الكامل لحالات فخ ثيوسيديدين، وهو جزء من مشروع مركز بِلفِر للتاريخ التطبيقي بجامعة هارفارد Belfer Center's Applied History Project، موجود في نهاية الكتاب، تحت عنوان "الملحق الأول".

(2) العامل المتغيِّر المُستقل independent variable factor في هذه الدراسة هو التغيُّر السريع في توازن القوى (العلاقة التبادلية بين القوى correlation of forces) بين قوة حاكمة كبيرة وقوة صاعدة يمكن أن تزيحها لتحلّ محلها. يمكن أن تكون الهيمنة أو الصدارة أو الزعامة داخل حدودٍ جغرافية (القارة الأوروبية بالنسبة لآل هابسبورغ في القرن السادس عشر)، كما يمكن أن تكون في مجالٍ ما (الهيمنة البريطانية على البحار في القرن التاسع عشر). العامل المُتغيِّر التابع dependent variable factor في هذه الدراسة هو الحرب، ونقصد بها أيَّ نزاع مسلح يُسفر عن سقوط ما لا يقل عن ألف قتيل في العام، وهو التعريف الذي صاغه مشروع ارتباطات الحرب Correlates of War Project، الذي بدأته جامعة ميشيغان University of Michigan عام 1963. للتعريف بتلك الحالات وتلخيصها، اتَّبعنا ما حملته لنا روايات تاريخية رائدة، وتجنَّبنا، على نحو خاص، إغراء اللجوء إلى تفسيرات مبتكرة أو تمييزية للأحداث. وقد حاولنا أن نُضَمِّن هذه الدراسة كافة الأحداث التي تعرضت خلالها قوة رئيسية حاكمة، لتحدٍ من قِبَل قوة صاعدة، منذ عام 1500. من الناحية التقنية، لم نبحث عن عيِّنة مُمَثِلة، بل عن كافة الحالات التي تدخل في نطاق البحث. لهذا، وكما يقول دليل أكسفورد للمنهجية السياسية Oxford Handbook of Political Methodology: "بقدر ما يختار باحثو الدراسات التاريخية المقارنة ما يمكن اعتباره، بحق، العالم الكامل للحالات المزمع دراستها، تنعدم مشكلة الاختيار المنحاز التقليدية". يمكن التعرف على مزيد من التفاصيل الخاصة بطريقة البحث هذه، من خلال الرابط التالي: http://belfercenter.org/thucydides-trap/thucydides-trap-methodology.

(3) الجزء الثاني من كتاب أوراق خاصة بالعلاقات الخارجية بين الولايات المتحدة واليابان، 1931-1941 Papers Relating to the Foreign Relations of United States and Japan, 1931-1941، إصدار وزارة الخارجية الأمريكية US Department of State، 1943.

(4) أسطورة الإمبراطورية: السياسات الداخلية والطموح الدولي Myths of Empire: Domestic Politics and International Ambition، تأليف جاك سنايدر Jack Snyder، 1993.

(5) صعود وانهيار القوى العظمى: التغير الاقتصادي والصراع العسكري من عام 1500 إلى عام

2000 The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000، تأليف بول كينيدي Paul Kennedy، 1987.

(6) بيرل هاربور: أول حروب الطاقة Pearl Harbor: The First Energy War، مقال كتبه تشارلز ميكلينغ Charles Maechling، في مجلة التاريخ اليوم History Today، في كانون الأول/ ديسمبر 2000.

(7) فخُّ الحرب The War Trap، تأليف بروس بوينو دي ميسكيتا Bruce Bueno de Mesquita، 1987.

(8) بيرل هاربور: التحذير والقرار Pearl Harbor: Warning and Decision، تأليف روبرتا ولستيتر Roberta Wohlstetter، 1962. وبيرل هاربور: محكمة التاريخ Pearl Harbor: The Verdict of History، تأليف غوردون و. برانج Gordon W. Prange، 1986.

(9) الطريق إلى بيرل هاربور: اقتراب الحرب بين الولايات المتحدة واليابان The Road to Pearl Harbor: The Coming of the War Between the United States and Japan، تأليف هيربرت فايس Herbert Feis، 1965.

(10) إحصاءات دولية تاريخية: أفريقيا وآسيا وأوقيانوسيا، 1750-1993 International Historical Statistics: Africa, Asia and Oceania, 1750-1993، تأليف ب. ر. ميتشيل B. R. Mitchell، 2003.

(11) مسيرة اليابان نحو وضْع القوة العظمى Japan's Drive to Great-Power Status، تأليف أكيرا إيريي Akira Iriye، وهو جزء من تاريخ اليابان الذي أصدرته جامعة كامبريدج، الجزء الخامس، وعنوانه القرن التاسع عشر، إشراف ماريوس جانسِن Marius Jansen، 1989.

(12) يمكن مراجعة الرسوم التوضيحية الخاصة بالنفقات العسكرية اليابانية، المتوفرة في كتاب إحداث الهزات: السياسات والبروباغاندا ونشوء البحرية الامبراطورية اليابانية 1866-1922، Making Waves: Politics, Propaganda, and the Emergence of the Imperial Japanese Navy 1868-1922، تأليف ج. تشارلز شينكينغ J. Charles Schencking، 2005.

(13) بينما دعا ملك كوريا القوات الصينية لمساعدته، سارعت اليابان إلى التدخل هناك بقواتها، كي لا تسمح للصين بتقويض ما أرسته من نفوذ ياباني إقليمي.

(14) يمكن مراجعة كتاب الصراع الروسي–الياباني: أسبابه وقضاياه The Russo-Japanese Conflict: Its Causes and Issues، تأليف كان أيْشي أساكاوا Kan Ichi Asakawa، وكذلك كتاب المِعْداد والسيف: الاختراق الياباني لكوريا، 1895–1910 The Abacus and the Sword: The Japanese Penetration of Korea, 1895-1910، تأليف بيتر دووس Peter Duus، 1995.

(15) الصراع الروسي–الياباني: أسبابه وقضاياه، تأليف كان أيْشي أساكاوا.

(16) روسيا في مواجهة اليابان، 1904–1905: نظرة جديدة على الحرب الروسية–اليابانية Russia Against Japan, 1904-1905: A New Look at the Russo-Japanese War، تأليف ج. ن. ويستوود J. N. Westwood، 1986.

(17) الحرب الفرنسية–البروسية The Franco-Prussian War، تأليف مايكل هاورد Michael Howard، 1961.

(18) الحرب الفرنسية–البروسية: انتصار ألمانيا على فرنسا 1870–1871 The Franco-Prussian War: The German Conquest of France in 1870-1871، تأليف جوفري واورو Geoffrey Wawro، 2013.

(19) لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة مشروع مقدمات الحروب ونتائجها، قاعدة بيانات القدرات المادية الوطنية، النسخة الرابعة، 1816–2007، وذلك من خلال الرابط التالي: //:http

www.correlatesofwar.org/data-sets/national-material-capabilities. كما يمكن مراجعة توزيع القدرات، والريبة، وحرب القوى الكبرى 1972، 1820-1965 ,Capability Distribution, Uncertainty, and Major Power War, 1820-1965، تأليف ج. ديفيد سينغر J. David Singer، وستيوارت بريمر Stuart Bremer، وجون ستاكّي John Stuckey. وهو جزء من دراسة بعنوان السلم، والحرب، والأرقام Peace, War, and Numbers، أشرف على إعدادها بروس روسِّيت Bruce Russet.

(20) الحرب الفرنسية–البروسية: انتصار ألمانيا على فرنسا 1870–1871، تأليف جوفري واورو.

(21) المرجع السابق.

(22) جذور حرب 1870 The Origins of the War of 1870، تأليف روبرت هاورد لورد Robert Howard Lord.

(23) بسمارك: قصة حياة Bismarck: A Life، تأليف جوناثان شتاينبرغ Jonathan Steinberg.

(24) الدبلوماسية Diplomacy، تأليف هنري كيسنجر Henry Kissinger.

(25) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(26) التنافس الإنجليزي الهولندي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر Anglo-Dutch Rivalry During the First Half of the Seventeenth Century، تأليف جورج إدموندسون.

(27) المرجع السابق.

(28) صعود وانحسار العداء الإنجليزي–الهولندي، 1609-1689 The Rise and Decline of the Anglo-Dutch Rivalry, 1609-1689، تأليف جاك ليفي Jack Levy، وهو جزء من كتاب عداءات القوى العظمى Great Power Rivalries، الذي أشرف على إعداده ويليام ر. طومسون William R. Thompson.

(29) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(30) الكسْب والقوة: دراسة في حروب إنجلترا وهولندا Profit and Power: A Study of England and the Dutch Wars، تأليف تشارلز ويلسون Charles Wilson، 1957.

(31) المرجع السابق.

(32) صعود وانحسار العداء الإنجليزي–الهولندي، 1609-1689، تأليف جاك ليفي.

(33) التنافس الإنجليزي الهولندي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، تأليف جورج إدموندسون.

(34) طبقًا لما جاء في حروب هابسبورغ–فالْوَا The Hapsburg-Valois Wars، الذي كتبته ماريا ج. رودريغز سالاغادو، في الجزء الثاني من كتاب التاريخ الحديث الذي أصدرته جامعة كامبِريدج Cambridge Modern History في عام 1990: "كان شن الحروب على المسلمين "الكُفّار" جزءًا من مسؤوليات إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة".

(35) حروب هابسبورغ–فالْوَا، تأليف ماريا ج. رودريغز سالاغادو.

(36) إسبانيا 1469–1714: مجتمع الصراعات Spain, 1469-1714: A Society of Conflict، تأليف هنري كامِن Henry Kamen، 2014.

(37) إسبانيا تحت حكم آل هابسبورغ، الجزء الأول Spain Under the Hapsburgs, vol. 1، تأليف جون لينش John Lynch، 1964.

(38) حروب هابسبورغ–فالْوَا، تأليف ماريا ج. رودريغز سالاغادو.

(39) إسبانيا تحت حكم آل هابسبورغ، الجزء الأول، تأليف جون لينش.

(40) ورد المصطلح في سياق مقال بعنوان: التعاون في ظل المعضلة الأمنية Cooperation Under the Security Dilemma، نُشِر في مجلة السياسة العالمية World Politics، عدد كانون الثاني/ يناير 1978.

الفصل الرابع

بريطانيا في مواجهة ألمانيا

حاوِل، بكل الوسائل الممكنة، أن تمنع أي طرف آخر من امتلاك أسطول إذا كان ذلك ممكنًا، وإن لم تستطع، اتخذ من الأقوى، صديقًا لك.

— ثيوسيديدين، تاريخ الحرب البيلوبونيزيّة

إنهم يبنون الأساطيل، ليلعبوا دورًا في شؤون العالم. المسألة بالنسبة لهم رياضة، غير أنها بالنسبة لنا، مسألة حياة أو موت.

— ونستون تشرشل، أمام مجلس العموم، آذار/مارس *1914*

لأن ألمانيا متخلفة في المجال البحري بالذات، فإن تعويض ما فاتها مسألة حياة أو موت، باعتبارها قوة عالمية ودولة ذات ثقافة عظيمة.

— أدميرال ألفريد تيربيتز *Alfred Tirpitz*، مستشار القيصر فيلهِلْم الثاني *Wilhelm II, 1899*

في 24 تشرين الأول/أكتوبر 1911، أصبح ونستون تشرشل أول أميرٍ للبحرية البريطانية، التي تضم الأسطول الملكي، الحارس الأمين لبريطانيا وإمبراطوريتها، رغم أن عمره لم يكن قد تجاوز ستة وثلاثين عامًا. وُلِد تشرشل، الذي يُشكِّل ظاهرة سياسية بريطانية متميزة، في قصر بلينْهايم Blenheim Palace لواحدة من أعرق عائلات إنجلترا، وتلقى تعليمه في هارّو

Harrow وساندهيرست Sandhurst، ثم خاض ثلاث حروب إمبراطورية أثبت خلالها جدارته. وقد انتُخب تشرشل عضوًا في البرلمان في سن الخامسة والعشرين، وكتب خلال حياته أحد عشر كتابًا، وعشرات المقالات، حظيت جميعها بانتشار واسع النطاق. باختصار، كان تشرشل نموذجًا حيًا يجسد جُرأة أمة-جزيرة صغيرة، حكمت ربع البشرية.

في رابع يوم له في منصبه، أرسل تشرشل مذكرة لزملائه في مجلس الوزراء، مُذكِّرًا إياهم بمسؤوليتهم الأساسية، مُستلهمًا الوصية الرومانية الشهيرة "إذا كنت تريد السلام، كن مستعدًا للحرب". كتب تشرشل في هذه المذكرة: "إن الجاهزية الصحيحة للحرب هي الضمانة الوحيدة للحفاظ على أراضي الدولة، وثرواتها، ومصادرها الطبيعية". وأضاف أن الاستعداد الجيد يتطلب فهمًا صحيحًا لثلاثة أمور: "الخطر المحتمل الذي يمكن أن يظهر"، والدروس المستفادة من التاريخ في ما يتعلق بـــ "أفضل وسيلة عامة" لمواجهة المخاطر والتهديدات، ثم كيفية استخدام "أدوات الحرب المعاصرة"، بأكثر الطرق فعالية[1].

في عام 1911، تحوَّل "الخطر المحتمل" إلى خطر وشيك يستحيل أن تفوت ملاحظته: الحشد العسكري الألماني المتسارع، خاصة في ما يتعلق بالأسطول الألماني الذي زاد حجمه بأكثر من الضعف، خلال الحقبة السابقة[2]. كذلك كانت "أفضل وسيلة عامة" لمواجهة هذا الخطر واضحةً وضوحَ الخطر نفسه: الحفاظ على تفوُّق البحرية البريطانية. انطلاقًا من معيار القوة المزدوجة Two-Power Standard، الذي صدر عام 1889، عندما أعلنت بريطانيا أنها سوف تحافظ على أسطول من السفن الحربية، يساوي عدُد سفنه مجموعَ سفن أسطولي الدولتين التاليتين لها حجمًا[*]. ثم جاء

(*) يُعَدُّ هذا المعيار أبرز مكوِّنات قانون الدفاع البحري Naval Defense Act، الذي أصدره البرلمان البريطاني عام 1889 ويُعتبر من أهم محطات سباق التسلح في الفترة التي سبقت اندلاع الحرب العظمى، التي عُرِفت في ما بعد بالحرب العالمية الأولى. جدير بالذكر أن الدولتين اللتين كانتا تحتلان المركز الثاني والثالث بعد بريطانيا، وقت صدور القانون، هما فرنسا وروسيا. ثم لم تلبث أن حلّت ألمانيا محل روسيا. (المُعرِّب)

انفتاح تشرشل على التطورات التكنولوجية وسعيه إلى امتلاك أدواتها، ليؤكد على فكرة "الاستخدام الأكثر فعالية" لأدوات الحرب العصرية. لهذا، لم يكتف تشرشل بتشييد سفن جديدة فقط، بل زوَّد هذه السفن بأحدث إنجازات التكنولوجيا العسكرية، لتكون أكثر قوةً وأشد تدميرًا: فقد سُلِّحت سفن الأسطول البريطاني بشكل أفضل، اعتمادًا على مدافع جديدة من عيار خمس عشرة بوصة، كما أصبحت تلك السفن أكثر سرعة بعد أن عُدِّلت محركاتها لتعتمد على البترول كوقود بدلاً من الفحم. وبالإضافة إلى ما تقدم، زُوِّد الأسطول البريطاني بأحدث مُعدَّة حربية في العالم، الطائرة[3].

خلال الأيام الألف التي مرَّت بين صدور مذكرة تشرشل واندلاع الحرب العالمية الأولى، قاد تشرشل جُهودًا هِرَقْليةً(*) للحفاظ على تفوُّق البحرية البريطانية، بالتوازي مع تحركات ووساطات دبلوماسية جريئة، من أجل التوصل إلى انفراجة للأزمة مع ألمانيا، واقتناص أية ميزة يمكن أن تستفيد منها بريطانيا إذا ما نشبت الحرب. كان إلحاح تشرشل ينبع من اقتناعه بأن الطفرة التي حققتها ألمانيا في المجال البحري لا تشكل فقط تهديدًا للأمن القومي البريطاني، بل أيضًا تهديدًا وجوديًا لبريطانيا. كان تشرشل يعرف أن السفن الحربية البريطانية "تعْكِس قدْر الإمبراطورية البريطانية، وعظمتها، وهيبتها، وهيمنتها، وقدرتها"، وأن هذه الإمبراطورية "سوف تتلاشى تمامًا، كما يتلاشى الحُلم، إذا قُدِّر لهذا الأسطول أن يتحطم"، وأن أوروبا كلها سوف تسقط بالتبعية "في قبضة التيوتون(**)

(*) النسبة هنا إلى البطل الروماني هِرقل Hercules، صاحب القوة البدنية الخارقة، والمقصود أن تشرشل بذل مجهودات خارقة وغير عادية. (المُعرِّب)

(**) يشير اللفظ في الأساس إلى قبيلة جرمانية مقاتلة، ورد ذكرها في عدد من المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة. ورغم الاختلاف في تحديد الموطن الأصلي لتلك القبيلة التي ظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد، يرجِّح كثيرون أنها نشأت في شمال المنطقة الإسكندنافية. مع مرور الزمن، أُطلِق هذا الاسم على الشعوب التي تتحدث واحدة من اللغات الجرمانية، وأبرزها: الإنجليزية، والألمانية، والسويدية، والدانماركية، والنرويجية. ومع بدايات القرن العشرين تقريبًا، أصبح استخدام هذا الاسم قاصرًا على الشعب الألماني فقط، خاصة في مجال الهجوم على العسكرية الألمانية أو التخويف من قسوتها. (المُعرِّب)

Teuton الحديدية، بكل ما يترتب على هذا السقوط من ويلات". ولتجنُّب وقوع تلك الكارثة، كان تشرشل يصرّ دائمًا على أن "البحرية الملَكية هي سلاحنا الوحيد"[4].

هنا واجهت بريطانيا معضلة شائكة، يسعى الاستراتيجيون، حتى في أيامنا هذه، إلى التهرب منها، عندما يمارسون أيَّ نوع من تمارين التخطيط[5]. فمن ناحية، كان التفوُّقُ البحري مسألةً غيرَ قابلةٍ للنقاش. فبدونها، تكون القواعد البريطانية في الهند، وجنوب أفريقيا، وكندا، ناهيك عن بريطانيا نفسها، عُرضة للتهديد. وفوق ذلك كله، يتطلب توفيرُ الأمن الدائم لبريطانيا، ألاَّ تسيطر أيةُ قوة أخرى على أوروبا الغربية. فكما يقول تشرشل نفسه: "على مدار أربعمائة عام، كانت السياسة الخارجية البريطانية صدَّادة في وجه القوى الأكبر، والأكثر عدوانية، والأشد هيمنة، من بين دول القارة الأوروبية"[6]. إن هيمنة أية قوة على منافسيها بريًا، تتيح لها توجيه مصادرها إلى بناء قوة بحرية تفوق القوة البحرية البريطانية، كما أن سواحل أوروبا المواجهة للجزر البريطانية، تمثل منصةً مثاليةً لانطلاق أية عملية غزو لتلك الجزر. لهذا، لا تستطيع أية حكومة بريطانية أن تقبل، أو أن تتسامح مع، أي تحدٍ لهيمنتها البحرية، أو أية محاولة لتغيير موازين القوة في أوروبا. ومن ناحية أخرى، كان تشرشل وقادة بريطانيون آخرون، يدركون أن الجهود التي تُبذل لمنع ألمانيا من بناء قوة بحرية مهيمنة، أو لمنعها من التفوق على خصومها الأوروبيين، يمكن، في حد ذاتها، أن تكون سببًا في إشعال حرب أكثر فظاعة من أية حرب عرفها الإنسان على مرّ العصور المختلفة.

كان البريطانيون محقين عندما فكَّروا في معضلتهم الاستراتيجية من منطلق أنها نذير شؤم كارثي. فعندما انتهت الحرب العالمية الأولى عام 1918، كان الغرب قد تحوَّل إلى كومة من الأنقاض. وانتهت بشكل مأساوي خمسمائة عام كانت أوروبا خلالها المركز السياسي للعالم.

كانت الحرب كارثةً وُلِدت من رَحِم حسابات خاطئة، لا من رَحِم

الجهل. كان لدى القادة الأوروبيين ما يكفي من التحذيرات من أن الحرب سوف تدمر اقتصاداتهم ونظامهم الاجتماعي. غير أن صراعًا عقلانيًا بامتياز حول الهيمنة أفرز حالة من الضغط التكتوني - خاصة بين بريطانيا وألمانيا، وأيضًا بين ألمانيا وروسيا - اعتبر القادة الأوروبيون من خلاله، أن المجازفة بدخول الحرب أفضل من البديل المُتَصوَّر، وهو التدمير الوطني أو الاستسلام.

اتسمت تطورات الحرب العظمى بالنمط الكئيب نفسِه الذي اتسمت به صراعات ثيوسيديديزيّة أخرى على مرِّ العصور، كما اتبعت هذه التطورات كثيرًا من آليات تلك الصراعات. كانت بريطانيا مشحونة بالقلق، على غِرار كثير من القوى الحاكمة أو القائمة، وكانت ألمانيا مدفوعة بطموح القادمين الصاعدين وسخطهم. وقد حوَّل لهيبُ هذا التنافس، إلى جانب حالة التهوُّر وقصر النظر التي سادت أوروبا آنذاك، عمليةَ اغتيالٍ وقعت في سراييفو إلى حريق عالمي هائل[7]. لم تكن لبريطانيا، في منطقة البلقان، مصالح وطنية حيوية معرّضة للخطر. ورغم ذلك، سُحِبت سحْبًا إلى أتون تلك النار، لسببٍ جزئي يتمثل في تحالفاتها المتشابكة، وآخر جوهري، يتمثل في خوفها من أن تجاهل ألمانيا القوية، وتركها ترتع في أوروبا دون رادع، يشكل تهديدًا للوجود البريطاني نفسه.

في وقت لاحق، كتب تشرشل في كتابه الأزمة العالمية The World Crisis، أنه بينما لم يصدق القادة البريطانيون أن الحرب أمرٌ حتميٌ، وفكروا في الحيلولة دون وقوعها، كانت إمكانية سفك الدماء تشغل تفكيرهم طوال الوقت. وأعاد تشرشل التذكير بأنه على مدار العقد السابق لعام 1914، عاش أولئك الذين كانت مسؤولياتهم تفرض عليهم السهر على أمن البلاد وسلامتها، في عالمين فكريين مختلفين في آن واحد: "فقد كانوا مشتتين، تتوزع أفكارهم بين العالم المرئي المُعاش، بأنشطته السلمية، وغاياته التي يتقاسمها كل البشر، وعالم افتراضي، يسوده القلق والترقب، إذ يبدو رائعًا خلّابًا في لحظة ما، ثم لا يلبث أن يتحول في اللحظة التالية إلى ظلال وحشية تتحرك بتشنج، منذرة بكارثة لا يعرف أحدٌ كُنْهها"[8].

لقد تحوَّل كابوس تشرشل المُنتظر إلى واقع ملموس في آب/ أغسطس 1914، وقبل أيام معدودة من انفجار الحرب عبر أراضي أوروبا، كتب تشرشل إلى زوجته قائلاً: "كل شيء يسير باتجاه كارثة وانهيار... لقد اجتاحت موجةٌ من الجنون عقلَ العالم المسيحي... ورغم ذلك ننجرف جميعًا إلى نوع من غيبوبة أحلام اليقظة"[9]. وأكد تشرشل في خطابه: "إنني مستعدٌ لأن أخاطر، باعتزاز وعن طيب خاطر، بحياتي كلها إذا تطلَّب الأمر ذلك، من أجل أن يبقى هذا البلد عظيمًا، وذائع الصيت، ومزدهرًا، وحرًا. غير أن المشاكل بالغة الصعوبة. فالمرء مضطر إلى قياس غير المحدد، ووزن غير القابل للوزن"[10].

مُذكّرة كرو[11]

رصد المؤرخون ظهورًا واضحًا للمنطق البارد غير الواعي، الذي وضع برلين ولندن على مسار تصادمي، قبل اندلاع الحرب بينهما بسنوات، وذلك من خلال ما يُطلَق عليه مذكرة كْرو Crowe Memorandum. ففي عام 1905، سأل الملك إدوارد السابع Edward VII حكومته لماذا يُظهِر البريطانيون طوال الوقت موقفًا غير ودي تجاه ألمانيا، الدولة ذات السيادة، التي تَصادف أن يكون الجالسُ على عرشها، القيصر فيلهِلم الثاني، ابن شقيقته. أراد الملك أن يعرف لماذا تبالغ بريطانيا في شكوكها تجاه أمة كانت تُعْتبر حتى وقت قريب حليفًا ممكنًا، بينما تلهث خلف فرنسا، الدولة التي كانت تُعد في يوم من الأيام أكبر عدو لبريطانيا[12]؟

كلفت الحكومة آير كْرو Eyre Crowe، كبير خبراء الشأن الألماني في مكتب الشؤون الخارجية، بإعداد ردٍ على سؤال الملك. كان كْرو نصف ألماني، متزوجًا من سيدة ألمانية، نشأ في ألمانيا، وعَشِق الثقافة الألمانية. غير أنه كان غاضبًا من نفوذ بروسيا العسكري على رفيقاتها من المقاطعات الألمانية، مجموعة الممالك الصغيرة التي لم يكن يجمع بينها، حتى وقت

قريب، أي عامل مشترك في ما عدا اللغة الألمانية. ورغم ذلك، استطاع القائد البروسي أوتُّو فون بِسْمارك، مع حلول عام 1871، أن يجمع شِتات هذه المقاطعات، ويُشكِّل منها دولة واحدة، تحت قيادة ملك بروسيا آنذاك فيلهِلم الأول Wilhelm I، جَدّ الإمبراطور فيلهِلم الثاني (تغيَّر لقب الحاكم بعد الوحدة من ملك بروسيا إلى إمبراطور ألمانيا). بعد عام كامل من البحث عن إجابة، قدَّم كْرو يوم رأس السنة عام 1907 "جوهرة دبلوماسية"، على حد تعبير مارغريت ماكميلان Margaret MacMillan، في كتاب الحرب التي أنهت السلام The War That Ended Peace.

اعترف كْرو أن "الأنشطة السليمة التي تمارسها ألمانيا القوية"، تصب في صالح العالم. وأضاف أن بريطانيا يجب أن تُشيد بالمنافسة الألمانية على "الزعامة الثقافية والأخلاقية"، وأن "تلحق بركب هذا السباق"، بدلاً من الخوف من التمدد الألماني ما وراء البحار. ولكن ماذا لو كان الهدف النهائي لألمانيا "تمزيق الإمبراطورية البريطانية واحتلال موقعها؟" كان كْرو يعلم أن القادة الألمان ينكرون، بسخط وغضب، وجود "أية مخططات ذات طبيعة تخريبية"، ويعلم أنه من المحتمل ألا تكون ألمانيا قد "تبنّت عن عمد مخططات من هذا النوع". في الوقت نفسه، لم يكن في مقدور بريطانيا المخاطرة بتحمُّل التبعات المحتملة لتصديق تأكيدات ألمانيا، فربما كانت ألمانيا تبحث عن "هيمنة سياسية عامة، وتفوُّقٍ بحريٍّ، يهددان استقلال جيرانها، ويُشكِّلان، في خاتمة المطاف، تهديدًا لوجود بريطانيا نفسها".

في النهاية، خَلُص كْرو إلى أن المشكلة ليست في نوايا ألمانيا، ولكن في قدراتها. فأي سياسة مبهمة للنمو، يمكن أن تتحول في أي وقت إلى مخطط هائل للهيمنة السياسية والبحرية. وحتى إذا اكتسبت ألمانيا القوة تدريجيًا، ودون خطة مسبقة أو نية مُبيّتة للهيمنة، سوف تحتل بفضل هذه القوة مكانة تمثِّل خطورة على جيرانها، وتهديدًا لهم. علاوة على ذلك، سواء كانت لدى ألمانيا خطة من هذا القبيل، أو كانت صادقة في إنكار ذلك، فإنه

سوف يكون من قبيل الحكمة، بالتأكيد، أن تشيِّد أسطولاً كبيرًا، وأن تُزوِّده بأقصى ما تستطيع من قوة. لقد ساعد نمو ثروات ألمانيا وتزايد قوتها على زيادة حجم البحرية الألمانية، حتى أصبح التفوُّق البحري الألماني متنافرًا مع مقتضيات وجود واستمرار الإمبراطورية البريطانية. وهكذا، سواء فكَّرت ألمانيا، أو لم تفكر، في إزاحة الإمبراطورية البريطانية وأخذ موقعها، لم يكن أمام بريطانيا بديل حكيم واحترازي سوى التصدي للتجاوزات الألمانية التي تبدو واضحة للعيان، وبناء أسطول يفوق الأسطول الألماني عددًا وعَتادًا.

نهاية القرن البريطاني

يمكن أن نلتمس لبريطانيِّي نهاية القرن العذر في خوفهم من توجُّه الأمور نحو الهاوية، لا محالة. فعلى مدار القرنين السابقين، استطاعت تلك الجزيرة التي لا تبعد عن شواطئ أوروبا سوى عشرين ميلاً، أن تُقيم إمبراطورية تمتد عبر قارات العالم. ومع بدء القرن العشرين كانت هذه الإمبراطورية تشمل ما نعرفه اليوم بالهند، وباكستان، وبورما، وماليزيا، وسنغافورة، وأستراليا، ونيوزيلندا، وكندا، بالإضافة إلى معظم بلدان القارة الأفريقية. كما كان لها تأثير قوي، يصل إلى حد ممارسة النفوذ الفعلي، في دول الخليج العربي ومصر. فبالتحكُّم في البحار، من خلال أسطول منقطع النظير، حكمت بريطانيا إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، فعلاً لا قولاً.

لقد أصبحت بريطانيا، مسقط رأس الثورة الصناعية، ورشة عمل وإنتاج للعالم كله، ومع حلول عام 1880، كانت تلك الورشة تُنْتِج ما يقرب من ربع حجم إنتاج العالم ومبيعاته من كافة السلع، ومن ثَمّ تُوِّجت لندن عاصمة مالية للعالم كله، كما يقول بول كينيدي في كتابه صعود وانهيار القوى العظمى The Rise and Fall of the Great Powers. عززت استثمارات بريطانيا معدل نمو الاقتصاد العالمي، ووفر أسطولها الحماية للتجارة

العالمية. وكما يشرح زميلي نايل فيرغسون Niall Ferguson، في كتابه الصادر عام 2003 الإمبراطورية: كيف صنعت بريطانيا العالم الحديث Empire: How Britain Made the Modern World، "كانت بريطانيا، بالنسبة للعالم، الشرطي والمصْرفيَّ في آنٍ واحد... كانت أول قوة عظمى حقيقية". هكذا رأت بريطانيا نفسها، وهكذا أرادت أن يراها العالم كله: الرقم واحد.

ولكن، إذا كانت بريطانيا قد امتلكت القرن التاسع عشر دون منازعة، فإن بعض البريطانيين شككوا في صحة أية مزاعم مشابهة بشأن القرن العشرين. لقد طفت على السطح علامات قلق كانت كامنة في الأعماق، خلال مهرجان الإمبراطورية البريطانية الذي أقيم عام 1897، احتفالاً باليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا Queen Victoria، التي يعتبرها الجميع التجسيد الحي لتفوق بريطانيا واستقامتها. كانت فيكتوريا تجلس على العرش منذ عام 1837، وكانت البيوتات الملكية في أوروبا، بما فيها ألمانيا، آهلةً برجال ونساء من نسلها. احتفالاً بهذه المناسبة، كان الشاعر والروائي روديارد كيبلينغ Rudyard Kipling، أشهر كُتَّاب ذلك العصر، قد نَظَمَ قصيدة لتمجيد الدور الذي لعبته الإمبراطورية البريطانية في نشر الحضارة في جميع أنحاء العالم. ولكن، في علامة على تبدُّل الأحوال، استبدلها بقصيدته الأكثر تأملية، ترنيمة الانسحاب Recessional، التي أثارت إحساسًا بالقلق والانزعاج وقد أوردتها مارغريت ماكميلان في كتابها "الحرب التي أنهت السلام":

متواريًا عن الأنظار...

ينسحب...

ما كنَّا ندعوه أسطولنا...

على الكُثبان وفي الخلجان...

تنكفئ منطفئة...

شُعلتنا التي كانت.

واعجباه!

كل ما كان لنا من أبهة وبهاء...

أضحى، هو وصورُ ونينوى...

سواءً بسواء

يا قاضي مصائر الأمم...

ما حانت ساعتنا بعد...

فاسْتبْقِنا...

كي لا ننسى

كي لا ننسى.

بعد شهر واحد فقط من هذا الاحتفال، تصدى ونستون تشرشل، الشاب الذي لا يتعدى عمره الثانية والعشرين، لشبح الانحدار هذا، في أول خطاب سياسي رسمي له. فمن فوق منصة صغيرة، وفي مواجهة حشد من مواطنيه، أكد تشرشل أن "بريطانيا سوف تواصل تحمُّل مسؤوليات الدور الذي اختصتنا به يدُ القدر الحكيمة، وستواصل تنفيذ المهام التي تتمثل في حماية السلام، ورعاية الحضارة، ونشر سُبل الحكم الصالح، حتى في أقصى بقعة من بقاع العالم". وفي تجاهل تام لأولئك الذين يدّعون أن "إمبراطوريتنا قد وصلت خلال عام اليوبيل الماسي إلى ذروة مجدها وقوتها، وأنها بدأت رحلة الانحدار نحو النهاية، تمامًا كما انحدرت بابل، وقرطاج، وروما"، طالب تشرشل الحاضرين بأن "يكشفوا كذب نعيق هؤلاء الكئيب". وقال إنه بدلاً من هذا النعيق المتشائم، يجب على المواطنين البريطانيين أن ينهضوا وأن "يُظهِروا بالأفعال أن قوة وحيوية عِرقنا لم تفسد، وأننا عازمون على إعلاء شأن الإمبراطورية التي ورثناها، نحن الإنجليز، عن آبائنا، والحفاظ عليها".

غير أن أولئك الناعقين كان لديهم ما يبرر تشاؤمهم، فقد ظهرت علامات مثيرة للقلق تشير إلى أن بريطانيا تعيش حالة انحدار، خاصة إذا

ما قورِنت بقوى أخرى[13]. في عام 1899، اشتعلت الحرب مع البوير Boers (سلالة سكنت ما يُعرف اليوم بجنوب أفريقيا، وترجع أصولها إلى المستوطنين الهولنديين الأوائل)[*]. وكان قد مرَّ على بريطانيا نصف قرن منذ أن خاضت حربًا ضد جيش مدرَّب تدريبًا راقيًا، ومسلح بأسلحة حديثة. كان جيش البوير، الصغير العدد، المسلح بعزيمة وإرادة قويتين، قد استطاع أن يلحق بأعدائه، الأكثر قوة والأكبر عددًا، سلسلةً من الهزائم المُهينة[**]. اندفع تشرشل إلى المشاركة في القتال، على نحو ما فعل سابقًا في الهند والسودان، غير أنه لم يلبث أن وقع في أسر قوات البوير. وقد تابعت الصحف حول العالم، آنذاك، قصة هروبه من الأسر، ورحلته إلى الحرية[14]. في نهاية الأمر، كسبت بريطانيا الحرب، ولكن بتكلفة باهظة، هزت سمعتها وهيبتها الإمبراطورية[***]. درس المسؤولون الألمان حرب البوير بعناية فائقة، وخلصوا منها إلى أن بريطانيا "سوف تجد أنه من المستحيل عليها أن تدافع عن الهند في مواجهة أي هجوم روسي، وأنها إذا لم تقم بإعادة بناء أنظمتها العسكرية، وإعادة هيكلتها بشكل شامل، سوف تضمحل الإمبراطورية نفسها وتختفي خلال عقدين"، كما يقول بول كينيدي في كتابه صعود العداء الأنجلو-ألماني.

في غضون ذلك، كانت مجموعة من الدول المنافِسة قد قطعت شوطًا طويلاً في مجالات العلوم والصناعة، وهي المجالات التي سبق أن عززت موقع بريطانيا على قمة العالم، في أعقاب النصر الذي حققته على فرنسا النابوليونية عام 1815، بعد قتال مرير. بعد انتهاء الحرب الأهلية

(*) المقصود هنا هو ما يعرف باسم حرب البوير الثانية، للتفريق بينها وبين الحرب الأولى التي نشبت في 16 كانون الأول/ديسمبر 1880، وانتهت في 23 آذار/مارس 1881. (المُعرِّب)

(**) كان معظم أعداء البوير من المستوطنين البريطانيين، وبعض الفئات والطوائف التي تدين بالولاء لبريطانيا. وكان النزاع بين هذه الأطراف يدور حول حقوق السيطرة على مناجم الذهب في منطقة ويتوترسراند Witwatersrand. (المُعرِّب)

(***) فقدت القوات البريطانية خلال هذه الحرب 22092 قتيلًا، كما أصيب من جنودها 22828 جنديًا، وفُقِد 934. كما كلفت الحرب الخزانة البريطانية 211,156,000 جنيه إسترليني، وهو مبلغ يعادل اليوم 202 مليار جنيه إسترليني. (المُعرِّب)

الأمريكية(*)، ونجاح بِسْمارك في توحيد ألمانيا عام 1871، شاهدت بريطانيا دولاً أخرى تتبنى إنجازاتها التكنولوجية، فتتسارع معدلات نموها الاقتصادي، وتتحول إلى قرينات منافسات لها. من بين تلك الدول، كانت بريطانيا تشعر بقلق خاص تجاه كلٍ من روسيا، وفرنسا، والولايات المتحدة، وألمانيا[15].

استطاعت روسيا أن تلقي بظلالها السياسية على العالم، بفضل امتلاكها أكبر جيش في أوروبا، وثالث أعظم أسطول بها، وقاعدة صناعية تزداد اتساعًا، وأكبر رقعة من الأرض تمتلكها أمة واحدة. لقد مكَّنت خطوط القطارات الحديثة روسيا من نشْر واستعراض قوتها بطريقة أسرع، والوصول بها إلى أبعد مما كانت تصل إليه، بينما أدت توسعاتها المتواصلة إلى تحريك حدودها، لتقترب خطوطها، بشكل ثابت ومتواصل، من حدود مناطق النفوذ البريطاني في وسط وغرب وجنوب آسيا[16]. وأكثر من ذلك، زاد التحالف بين روسيا وفرنسا احتمالات أن تجد بريطانيا نفسها يومًا ما، مضطرة إلى خوض حرب ضد الاثنتين في وقت واحد، ليس في أوروبا وحدها، ولكن في الهند أيضًا.

كذلك كانت فرنسا منافِسة حقيقية لبريطانيا، رغم قاعدتها الصناعية الضعيفة، فهي ثاني أكبر إمبراطورية في العالم. لقد أدّت النزاعات الاستعمارية إلى احتكاكات متكررة بين باريس ولندن، وكان الخوف من نشوب حرب بينهما يتجدد بين حين وآخر. في عام 1898، أُجْبِرت فرنسا على التراجع عن مواجهة بسبب فاشودا Fashoda (تقع حاليًا في الدولة الجديدة جنوب السودان)، عندما أدركت أنها ليست لديها فرصة لكسب هذا الصراع البحري. غير أن الحفاظ على معيار القوة المزدوجة، تحقيقًا للتوازن مع القوتين البحريتين لروسيا وفرنسا، اللتين لا تتوقفان عن النمو والتوسع، كان يلقي بضغوط متزايدة على الميزانية البريطانية[17].

(*) انتهت تلك الحرب في 9 أيار/مايو 1865، بعد معارك استمرت 4 سنوات و3 أسابيع و6 أيام. وكان ذلك قبل توحيد ألمانيا بخمس سنوات. (المُعرِّب)

في غضون ذلك، كانت الولايات المتحدة قد برزت على الساحة الدولية كقوة قارِّية، تهدد النفوذ البريطاني في نصف الكرة الغربي (سوف نستكشف هذا الأمر بالتفصيل في الفصلين الخامس والتاسع من هذا الكتاب). فبتعداد سكان يصل إلى ضعف تعداد سكان بريطانيا، وموارد طبيعية تبدو غير محدودة، ونهم لا يشبع إلى النمو والتوسع، سوف يكون من قبيل المفاجأة ألا تنجح أمريكا في التفوق على طاقات بريطانيا الصناعية الضخمة[18]. لقد تجاوز الاقتصاد الأمريكي الاقتصاد البريطاني (وليس إجمالي الاقتصاد الإمبراطوري) عام 1870 تقريبًا، ومن يومها، لم يفقد الأمريكيون هذا التفوق. في عام 1913، كان نصيب بريطانيا من إجمالي الإنتاج الصناعي في العالم 13 في المائة، بعد أن كانت تلك الحصة 23 في المائة عام 1880، وعلى العكس من ذلك، ارتفع نصيب الولايات المتحدة إلى 32 في المائة[19]. وهكذا، بدأت واشنطن في تأكيد وتثبيت وضعها في نصف الكرة الغربي، بشكل أقوى، مدعومة بأسطول حديث ومتطور. في عام 1895، وصلت لندن وواشنطن إلى حافة الحرب بسبب الخلاف حول حدود فنزويلا (راجع الفصل الخامس). يومها، لفت رئيس الوزراء البريطاني نظر وزير المالية في حكومته إلى أن الحرب مع الولايات المتحدة "في المستقبل غير البعيد، أصبحت أكثر من مجرد احتمال، وعلى ضوء تلك الحقيقة، يجب علينا أن نراجع تقديرات قادة البحرية". وحذّر رئيس الوزراء من أن الحرب مع الولايات المتحدة "أقرب إلى الواقع من التحالف الروسي الفرنسي المُتوقَّع"[20].

وعلى مسافة لا تبعُد كثيرًا عن الأراضي البريطانية، فرضت ظاهرة صناعية أخرى نفسها على الساحة الدولية، مسلحة بطموح بحري متزايد. فمنذ انتصارها على فرنسا، وتوحيدها تحت قيادة بِسْمارك، أصبحت ألمانيا أقوى قوة برية في أوروبا، بالإضافة إلى امتلاك ديناميكية اقتصادية تتماشى مع تلك القوة. دخلت المنتجات الألمانية في منافسة شرسة مع المنتجات البريطانية، فتحولت برلين إلى غَريم تجاري هائل للندن. غير أن

الإمبراطورية البريطانية، حتى عام 1900، كانت ترى في ذلك الأمر تهديدًا اقتصاديًا، أكثر منه تهديدًا استراتيجيًا. وأكثر من ذلك، كان كثير من السياسيين البريطانيين يفضلون التحالف مع ألمانيا، بل إن بعضهم سعى بالفعل إلى لعِب دورِ الوسيط، من أجل قيام ذلك التحالف، كما يقول بول كينيدي[21].

ولكن مع حلول عام 1914، كانت حسابات لندن قد تغيرت تمامًا. فقد وجدت بريطانيا نفسها تقاتل بجانب منافستَيها السابقتين روسيا وفرنسا (والولايات المتحدة لاحقًا) لمنع ألمانيا من فرض هيمنتها الاستراتيجية على أوروبا. إن كيفية حدوث هذا - كيف أصبحت ألمانيا، من بين كل المنافسين، العدو الرئيسي لبريطانيا[22] - هي شهادة على صواب فكرة الخوف الذي يعتري القوة الحاكمة، عندما تشعر بأن صعود قوة ناشئة، يمثل تهديدًا لأمنها القومي. في حالة بريطانيا، كان هذا الخوف منصَبًّا على نمو الأسطول الألماني، الذي لا يمكن إلا أن يكون مخصصًا للاستخدام ضد الأسطول الملكي البريطاني

ألمانيا تبحث عن "مكان تحت الشمس"

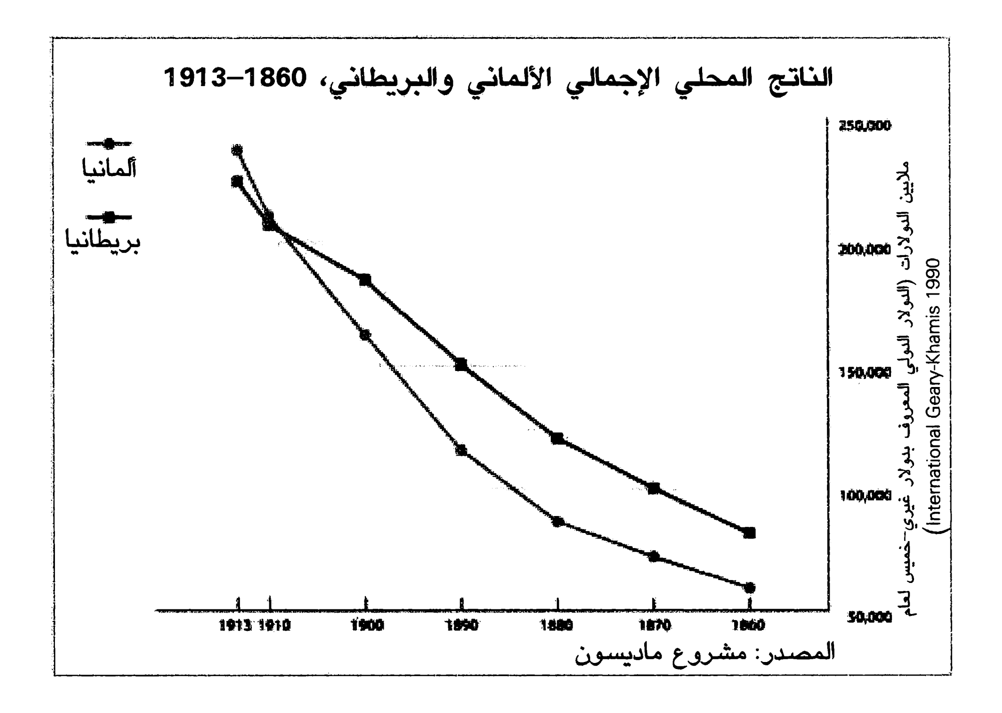
قصة صعود ألمانيا، والقلق الكبير الذي بثته في نفوس البريطانيين عندما قررت أن تُشيِّد أسطولاً قويًا، قصة بسيطة. إنها قصة دولة مرّت بتطورات سريعة، بل ومربكة، خلال فترة قصيرة جدًا، لكنها رأت أن طريقها نحو العظمة العالمية موصدٌ من قِبَل ما اعتبرته قوة ظالمة، تطمع في السيطرة على كل شيء.

منذ أن استطاع بِسْمارك أن يجمع خليطًا من عشرات المقاطعات في إمبراطورية ألمانية واحدة، في أعقاب انتصاراته في الحربين اللتين خاضهما على التوالي، ضد النمسا عام 1866، وضد فرنسا عامي 1870 و1871، برزت ألمانيا على الساحة كظاهرة اقتصادية وعسكرية وثقافية مهيمنة على

القارة الأوروبيّة. لم يَعُد الألمان، كما كانوا من قبل، "مفعولاً به" فاعلُه تاريخُ شعب آخر، بل أصبحوا "الفاعل" والمحرك لتاريخهم وقصتهم الخاصة التي تفيض بالعظمة الوطنية.

وكما شرح جورج كينّان George Kennan، أعظم رجال الاستراتيجية الأمريكية خلال سنوات الحرب الباردة، ضمنت دبلوماسية بِسْمارك البارعة لألمانيا أن تجد نفسها، على الدوام، محاطة بالأغلبية، عندما يتعلق الأمر بإدارة مصالح أوروبا ومواقفها المتصارعة. لقد فعل بِسْمارك كل ما يتعيّن فعله، لإبقاء فرنسا، بروحها الانتقامية، في حالة من العزلة، كما استطاع أن يحافظ على علاقات طيبة مع روسيا[23]. صحيح أن روسيا القيصرية كانت تمتلك أكبر جيش في أوروبا كلها، لكن ألمانيا كانت تمتلك القوة المقاتلة الأقوى، والأرقى تدريبًا.

علاوة على ذلك، كانت الأرجوحة التي تحتل كلٌّ من ألمانيا وبريطانيا أحدَ طرفَيها تتأرجح، صعودًا وهبوطًا، بلا هوادة ولا توقُّف. فمع حلول عام 1914، كان تعداد سكان ألمانيا البالغ خمسة وستين مليون نسمة، يفوق تعداد سكان بريطانيا بنسبة 50 في المائة[24]. وكانت ألمانيا قد أصبحت، منذ عام 1910، القوة الاقتصادية الأولى في أوروبا، متجاوزة بريطانيا[25]. كما أصبحت مصدرًا لنحو 14.8 في المائة من إجمالي الإنتاج الصناعي للعالم كله، متفوقة على بريطانيا التي كانت تنتج 13.6 من إجمالي ما ينتجه العالم من مصنوعات[26]. كانت المقاطعات الناطقة بالألمانية، قبل التوحيد، تنتج نصف ما تنتجه بريطانيا من الصلب، وفي عام 1914، وصل إنتاج ألمانيا الموحدة من الصلب إلى ضعف الإنتاج البريطاني. في عام 1980، وقبل أن تشهد الساحة العالمية ظاهرة صعود الصين، تساءل بول كينيدي، في كتابه "صعود العداء الأنجلو-ألماني"، عما إذا كانت "القوة الإنتاجية النسبية، وبالتبعية القوة الوطنية النسبية، لأي دولتين جارتين قد تبدلت بهذه الطريقة الاستثنائية، قبل أو منذ ذلك الحين وخلال جيل واحد فقط، على النحو الذي حدث بين بريطانيا وألمانيا"[27].



شعرت بريطانيا بتأثير النمو الصناعي الألماني على الفور، إذْ حلّت الصادرات الألمانية محل المنتجات البريطانية داخل بريطانيا وخارجها. صحيحٌ أن حجم الصادرات البريطانية إلى ألمانيا تضاعف بين عامي 1890 و1913، إلاّ أن هذه الصادرات لم تتجاوز نصف حجم الواردات البريطانية من ألمانيا، التي تضاعفت ثلاث مرات، خلال الفترة نفسها[28]. في عام 1896، وفي واحد من أكثر الكتب مبيعًا في عصره - كتاب صُنِع في ألمانيا(*) Made in Germany – حذّر المؤلف البريطانيين من أن "هناك دولة تجارية عملاقة آخذة في الصعود، لتهدِّد ازدهارنا، ولتنافسنا بقوة في كافة مجالات التجارة العالمية"[29].

(*) ألّف هذا الكتاب الذي تُعاد طباعته حتى اليوم، إرنست إدوين ويليامز Ernest Edwin Williams. تحدث المؤلف في البداية عما أسماه المجد الزائل، ثم فصَّل المجالات التي تفوَّقت فيها الصناعة الألمانية على مثيلتها البريطانية وهي: الحديد والصلب، والسفن، والمعدات الصناعية الكبيرة، والنسيج، والكيماويات. وبعد أن شرح أسباب التفوُّق الألماني في هذه المجالات، طرح تصوراته الخاصة لما يجب على بريطانيا القيام به، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. (المُعرِّب)

واصلت ألمانيا تجاوز بريطانيا والتفوُّق عليها، ليس فقط في الصناعات الثقيلة ومنتجات المصانع، التي تنتمي إلى الثورة الصناعية الأولى، ولكن، أيضًا، في الأجهزة الكهربائية والصناعات البتروكيميائيّة، أحدث إنجازات الثورة الصناعية الثانية. فمع مطلع القرن العشرين، كانت المنتجات الألمانية في مجال الكيمياء العضوية تتحكم في 90 في المائة من الأسواق العالمية لتلك المواد، وفي مجال الطاقة الكهربائية[30]، ووفقًا لأرقام عام 1913، لم يكن إجمالي ما تنتجه إيطاليا، وفرنسا، وإيطاليا، من الكهرباء، يتجاوز 80 في المائة من الكهرباء التي تنتجها ألمانيا[31]. وفي عام 1914، وصل عدد خطوط الهاتف في ألمانيا إلى ضعف عدد مثيلاتها في بريطانيا، كما وصل طول خطوط قطاراتها إلى ضعف طول خطوط القطارات البريطانية[32]. وفي مجالات العلوم والتكنولوجيا، تخطَّت ألمانيا بريطانيا، لتصبح الدولة الأولى في العالم، بفضل ما توفره الحكومة من دعم للبحث العلمي، وبفضل مجهودات مَن يتخرَّجون في جامعاتها من كوادر متميزة[33]. وما بين عام 1901، العام الذي مُنِحت فيه جائزة نوبل لشخصية ألمانية لأول مرة، وعام 1914، عام اشتعال الحرب العالمية الأولى، فاز مواطنون ألمان بثمان عشرة جائزة، وهو أكثر من ضعف ما حصل عليه مواطنو بريطانيا، وأربعة أمثال ما حصل عليه مواطنو الولايات المتحدة من هذه الجائزة. حتى في مجال الكيمياء والفيزياء فقط، فازت ألمانيا بثمان جوائز، وهو ضعف ما حصلت عليه بريطانيا والولايات المتحدة مجتمعتين[34].

بالرغم من النمو الاقتصادي السريع، والإنجازات الوطنية المذهلة، شعر كثيرٌ من الألمان أنهم لا يُعاملون كما ينبغي أن يُعامَلوا، وأنهم يَلْقَون أقل مما يستحقون. أدرك الألمان أن المستقبل، كما يرونه ويؤمنون به، لم يَعُد ملكًا للقوى الأوروبية العظمى European Great Powers، ولكن لمن يُعرفون باسم القوى العالمية World Powers، وهي قوى عظمى، يَسمح لها حجمُها، وتعدادُ سكانها، ومصادرُها الطبيعية، بالهيمنة على القرن العشرين.

فأمريكا وروسيا قوتان بحجم قارتين. وبريطانيا تمتلك إمبراطورية مترامية الأطراف في ما وراء البحار، يحميها أسطول ضخم. من هنا أدرك الألمان أن بلادهم لن تستطيع خوض غِمار منافسة واسعة النطاق مع هذه الدول الثلاث، إلا إذا توفرت لها مستعمراتُها الخاصة، وهو الأمر الذي يتطلب امتلاك وسائل للاستحواذ على هذه المستعمرات، ووسائل أخرى لحمايتها، وضمان استمرار السيطرة عليها[35].

خلال هذه الفترة، انتهجت دول كثيرة، بما فيها اليابان، وإيطاليا، والولايات المتحدة، بل وحتى بلجيكا، نهجًا إمبرياليًا خالصًا. وفي ما يتعلق بألمانيا، كان هناك أمر مهم، لا يفوت على المراقب إدراكه، ألا وهو ذلك المزيج الثنائي الذي اتسمت به السياسة الألمانية آنذاك: فمن ناحية، هناك رغبة في تغيير الأمر الواقع المُتمثِّل في الحالة الاستعمارية في العالم، وهناك قوة وطنية هائلة توفر لألمانيا فرصةً لتنفيذ تلك الرغبة؛ ومن ناحية أخرى، كان يسود ألمانيا إحساس قوي بأنها قد خُدِعت وحُرِمت من الحصول على ما تستحقه من نصيب عادل، لمجرد أنها جاءت متأخرة إلى المائدة التي كانت تشهد عملية سريعة لتقسيم العالم[36].

لم يُجسِّد انسان هذا المزيج الملتهب من العجرفة والاستياء، قدر ما جسَّده إمبراطور ألمانيا الجديد، القيصر فيلهِلم الثاني Wilhelm II، الذي اعتلى العرش عام 1888. كان بِسْمارك، في جلساته الخاصة، يشبِّه ملِكَه الجديد بالبالون ويقول: "إذا لم تقبض بقوة على الخيط الذي يربطه، فإنك لا تدري إلى أين سوف ينطلق"[37]. بعد عامين من اعتلاء العرش، قطع فيلهِلم بنفسه ذلك الخيط، وأقال الرجل الذي وحَّد ألمانيا، وجعل من برلين عاصمة لقوة أوروبية عظمى[38]. بعد إقالة بِسْمارك، تخلَّت الحكومة الجديدة عن معاهدة سرية كان قد تفاوض بشأنها مع روسيا، ليضمن عدم مشاركتها مع فرنسا في أي هجوم قد تشنه الأخيرة على ألمانيا، وقد اقتنصت باريس هذه الفرصة، لإنهاء عزلتها، فسارعت، فور سقوط المعاهدة، إلى عقد تحالف مع روسيا[39].

مدفوعًا برغبته في أن يرى ألمانيا قوة عظمى، وانطلاقًا من رؤية تتجاوز الحدود الألمانية، طالب القيصر فيلهِلم الثاني حكومته بوضع ما يُطلَق عليه باللغة الألمانية "فيلتبوليتيك" Weltpolitik جديد، أي إطار لسياسة خارجية عالمية جديدة. وفي صيف العام الذي احتفلت فيه بريطانيا باليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا، وقع اختيار القيصر على برنارد فون بِولو Bernhard von Bülow لشغل منصب وزير الخارجية، معلنًا أن "بِولو سوف يكون بِسْماركي أنا الخاص"[40]. لم يكن بِولو يخجل من طموحه أو يخفيه، بل كان يردد بوضوح: " لقد انقضت إلى غير رجعة تلك الأيام التي كان الألمان يمنحون خلالها الأرض لأحد جيرانهم، ويهبون البحر لجار آخر، ولا يحتفظون لأنفسهم إلا بالسماء، وذلك من منطلق عقائدي بحت. نحن لا نسعى إلى وضع أحد في الظل، غير أننا، بدورنا، نريد مكانًا لنا، تحت الشمس"[41].

كانت الفيلتبوليتيك تتعلق بالسياسة الداخلية، بقدر ما تتعلق بما يجري وراء الحدود الألمانية[42]. صحيحٌ أن المكاسب الاستعمارية خلال الأعوام العشرين التالية كانت متواضعة، إلاّ أن فكرة التوسع العالمي استحوذت على المُخيِّلة الألمانية تمامًا. ففي عام 1897، تحدث هانز ديلبروك Hans Delbruck، الذي يُعَد واحدًا من أشهر المؤرخين الألمان والذي كان يعمل رئيسًا لتحرير مجلة واسعة الانتشار، باسم كثير من زملائه، لافتًا الأنظار إلى أنه "سوف يجري تقسيم مساحاتٍ هائلة من الأراضي في جميع أركان الأرض، في غضون العقود القليلة المقبلة. والأمة التي تخرج من هذه العملية خالية الوفاض، سوف تُسْتبعَد لأجيال قادمة، من مصاف الشعوب العظيمة التي تحدد معالم الروح الإنسانية"[43]. أما بِولو، فقد كان أكثر صراحة ومباشرة حيث قال: "القضية ليست هل نرغب في أن تكون لنا مستعمرات أم لا... القضية هي أننا يجب أن تكون لنا مستعمرات، سواء أحببنا ذلك أو لم نحب". وقد شبّه بِولو الرافضين لفكرة الاستعمار بوالد متغطرس، عقد العزم على منع ذرِّيته من أن يكبروا[44].

"إن مستقبل ألمانيا بكامله وسط الأمم العظيمة، يعتمد على تحوُّلها إلى قوة عالمية". هكذا قال هانز ديلبرِوك. "غير أن أمة واحدة تعترض طريقنا. نحن نستطيع أن ننتهج سياسة استعمارية، مع بريطانيا أو بدونها. لكن مع بريطانيا يعني أن الأمر سوف يتحقق في سلام، وضد بريطانيا يعني أن يتحقق ما نريد من خلال الحرب، وفي كلتا الحالتين لن تكون هناك عودة إلى الوراء[45]. لن تُجبَر ألمانيا مرة أخرى على الانصياع لما تمليه عليها القوى الكبرى التي كانت، بل سوف تتمسك بمطالبها تجاه العالم الذي سوف يكون". وفي عام 1899، أبلغ بِولو البرلمان الألماني - الرايخستاغ Reichstag - أن ألمانيا لا يمكنها أن تسمح، من الآن فصاعدًا، لأية قوة أجنبية، أو أي جوبيتر(*) Jupiter أجنبي، بأن يملي عليها ما يجب أن تفعله. "إن الأرض قد قُسِّمت بالفعل، وخلال القرن القادم، سيتحتم على ألمانيا أن تختار، فإما أن تكون مطرقةً أو تكون سِنْدانًا". وفي حديث خلال حفل تدشين مدمِّرة في العام نفسه، أظهر القيصر قدرًا مماثلاً من الوضوح والمباشرة عندما لخَّص ما يجري على الساحة العالمية بقوله: "إمبراطوريات قديمة تتنحى عن الطريق، وأخرى جديدة تدخل طور التشكيل"[46]. كان سعي الألمان إلى التحوُّل إلى قوة عالمية مسألة أساسية وجوهرية، فقد كانوا، كما كتب مايكل هاورد، "غير معنيين بالتمدد داخل ما رأوه نظامًا عالميًا يخضع للهيمنة البريطانية. بل إن هذا النظام بالتحديد، هو ما رأوا فيه وضعًا لا يُطاق، وقد عقدوا العزم على تحدِّيه على أساس من المساواة"[47].

اعتقاد بعض البريطانيين بأن ألمانيا ربما تدفع بريطانيا لتسقطها عن القمة، أو على الأقل لتُفسح لنفسها موقعًا مجاورًا أو مساويًا لها، منح القيصر الألماني راحة نفسية هائلة. لقد كانت لدى فيلهِلم الثاني مشاعر

(*) جوبيتر هو رب السماء، ورب الرعد، وملك الآلهة جميعًا في الديانة الرومانية القديمة، وكان الرومان ينسبون إليه القوانين التي تحكم البلاد خلال كافة العصور قبل أن تتحوَّل الدولة رسميًا إلى الديانة المسيحية. من هنا يمكن فهم تلك العبارة على أنها رفض قاطع لأي فكر أو فلسفة أو عقيدة غير ألمانية، مهما كانت قوة تلك العقيدة خارج حدود ألمانيا. (المُعرِّب)

مختلطة تجاه بريطانيا – مسقط رأس والدته، كُبرى بنات الملكة فيكتوريا – حيث كان يشير إلى بريطانيا دائمًا بقوله "هناك تقيم عائلتي اللعينة". فمن ناحية، كان فيلهِلم يتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، وكان محبًا لجدته الملكة فيكتوريا. وقد شعر بسعادة غامرة عندما عيَّنته أدميرالاً شرفيًا في البحرية الملكية البريطانية، وكان من فرط سعادته واعتزازه بهذا القرار، يرتدي الزي الرسمي لهذا المنصب كلما سنحت له فرصة لارتدائه. وفي أواخر 1910، أخبر فيلهِلم الثاني الرئيس الأمريكي السابق ثيودور روزفلت، الذي كان يزور برلين في إطار جولة أوروبية، أن الحرب بين ألمانيا وبريطانيا أمر لا يمكن تصوُّر حدوثه، وقال فيلهِلم بشغف واضح: "لقد نشأتُ في إنجلترا... وأنا أشعر أنني رجل إنجليزي، ولو جزئيًا". ثم أضاف مخاطبًا روزفلت وهو يضغط على حروفه باعتزاز واضح: "**أنا أعشق إنجلترا**"[48].

في الوقت نفسه، لم يكن فيلهِلم قادرًا على إخفاء استيائه من البريطانيين أو طموحه إلى منافستهم. وفي كتابها الكاشف، الحرب التي أنهت السلام (صدر عام 2013) تقدم مارغريت ماكميلان رؤية ثاقبة لما كان يتصف به القيصر الألماني من إحساس هائل بعدم الاستقرار وانعدام الأمان، حتى أنها وصفته بأنه "ممثلٌ يشعر في قرارة نفسه بأنه لا يمتلك المؤهلات اللازمة لأداء الدور الصعب الذي أُسنِد إليه"، خصوصًا أن ذراعه اليسرى كانت قد تعرضت للضرر أثناء ولادته، فبقيت ضعيفة ضامرة إلى نهاية عمره. وكان فيلهِلم مُستاءً على الدوام من إصرار والدته البريطانية على أن موطنها متفوِّق بالفطرة على ألمانيا. لهذا، غالبًا ما أسفرت جهوده لكسب احترام ذوي القُربى من أعضاء العائلة الملكية البريطانية عن نتائج عكسية. ورغم أن فيلهِلم كان دائمًا موضع ترحيب حار أثناء السباقات السنوية لنادي اليخت الملكي التي كانت تجري في مدينة كاوز Cowes الساحلية، كان خاله (الذي أصبح الملك إدوارد السابع) ساخطًا عليه بسبب سلوكه المتعجرف، وكان يطلق عليه "الفاشل الأكثر بروزًا على مر التاريخ". ومن أجل أن يكون منافسًا للعائلة المالكة البريطانية، أقام فيلهِلم

أسبوعًا للسباقات البحرية في مدينة كِيل Kiel الساحلية الألمانية، وكان يحرص على أن تكون هذه السباقات أكثر دقة وتنظيمًا من تلك التي تجري في كاوز، وكان يستقبل بكل ترحاب العائلات الملكية الأوروبية، بمن فيهم قريبه نيكولاس قيصر روسيا[49]. غير أن هذه التصرفات لم تمنع ثيودور روزفلت من أن يقول: "إن الرجل الذي يقود أعظم إمبراطورية عسكرية في هذا العصر، يشعر بغيرة وحساسية مفرطة تجاه رأي الإنجليز فيه، كما لو كان مجرد مُحدَث نعمة أو مجرد مليونير صاعد، يحاول الدخول إلى المجتمع اللندني".

وأشار روزفلت كذلك إلى ما لاحظه على القيصر الألماني من ازدواجية في مشاعره تجاه خاله، إذْ "كان يشعر بعاطفة واحترام حقيقيين تجاه الملك إدوارد، وكان، في الوقت نفسه، يُضمر له نوعًا من الحسد والكراهية. وفور أن يظهر الشعور الأول، يطفو الشعور الثاني على سطح تفكيره، فيظهر بوضوح في أحاديثه"[50]. كانت حاجة القيصر الفردية المُلحة إلى الاعتراف والتقدير تنعكس على المستوى الوطني، متمثلة في طبيعة العلاقة بين القوة الصاعدة والقوة الحاكمة، وهي العلاقة التي يشرح جوناثان شتاينبِرغ أبعادها على النحو التالي: "إن حاجة الأخ الأصغر، أو مُحدث النعمة إلى الاعتراف أمر غير قابل للتفاوض، وبناء على ذلك فإنه من غير المُسْتغرَب أن البريطانيين لم يتمكنوا أبدًا من تحقيق ما أراده الألمان، أو التوصل إلى اتفاق معهم بالمفهوم العادي للدبلوماسية. إن أمة على استعداد لإعلان الحرب بسبب عدد قليل من الجزر في المحيط الهادي، أو شريحة من الأرض في شمال أفريقيا، حيث لا توجد لها مصالح حقيقية، لا يمكن التعامل معها ببساطة من خلال الحِيل والألاعيب التقليدية المتعارف عليها عند تسوية المسائل الدولية. لقد كان الألمان يريدون ما يعتقدون أن البريطانيين يتمتعون به، لكنهم كانوا يريدونه دون تدمير بريطانيا في الطريق إلى تحقيق أهدافهم. لم يكن بإمكان ألمانيا أن تستمتع بالمساواة، إذا ما تحتم عليها تدمير الإمبراطورية البريطانية من أجل تحقيقها[51]".

في مواجهة الظروف التي تحيط به، وفي مقدمتها ما كان ينظر إليه باعتباره تزمُتًا بريطانيًا مُزمِنًا، تزايد إصرار القيصر فيلهلم الثاني على أن يضمن لألمانيا المكانة التي تستحقها تحت الشمس. غير أنه خَلُص إلى أن الإمبراطورية العالمية الحاكمة لن تمنحه هو أو مواطنيه الاحترام الذي يستحقونه قبل أن تثبت ألمانيا عمليًا أنها نَدٌّ لبريطانيا، ليس فقط في استضافة أفضل سباقات اليخوت، ولكن من خلال بناء أسطول يُضاهي الأسطول البريطاني[52].

مُستقبلنا يتوقف على المياه

في عام 1890، نشر الخبير الاستراتيجي البحري الأمريكي ألفريد ت. ماهان Alfred T. Mahan كتابًا بعنوان تأثير القوة البحرية على التاريخ The Influence of Sea Power upon History. مُعتمدًا على بريطانيا كمثال تطبيقي أساسي، وصف ماهان القوة البحرية بأنها المُحدِّد الرئيسي لنجاح أية قوة عظمى، وبأنها مفتاح الطريق إلى النصر، وضمٍّ المستعمرات، وجلْبِ الثروات. أضاء الكتاب كومْضة برق سماوات أكثر من عاصمة، من واشنطن وطوكيو، إلى برلين وسان بطرسبورغ. غير أنه لم يلق قارئًا أشد تحمسًا وفِطنة من القيصر الألماني فيلهِلم الثاني، الذي صرّح عام 1894 بأنه "يحاول أن يحفظ الكتاب عن ظهر قلب"، كما أمر بتوزيع نسخ من الكتاب على كل سفينة من سفن الأسطول الألماني[53]. كانت أفكار ماهان الأساس الذي بنى عليه القيصر قناعاته بأن مستقبل ألمانيا يتوقف على المياه. وبحسب تعبير المؤرخ جوناثان شتاينبرغ، "كان البحر والقوات البحرية بالنسبة للقيصر رمزين لعظمة الإمبراطورية البريطانية، التي يشعر تجاهها بالإعجاب والحسد في آن واحد"[54]. إن امتلاك أسطول مماثل للأسطول البريطاني لن يُمكِّن ألمانيا من تحقيق ما تصبو إليه كقوة عالمية فقط، لكنه سوف يُنهي ضعفها الذي لا يطاق تجاه ما يمثله الأسطول البريطاني من قوة ساحقة.

لقد شعر القيصر بما لليد البريطانية من ثِقَل بعد أن أرسل برقية تحريضية إلى قيادات البوير في جنوب أفريقيا عام 1896، مُلمِّحًا إلى إمكانية دعمهم في مواجهة بريطانيا. فقد استشاطت لندن غضبًا بسبب تلك البرقية. وحذَّر مسؤول كبير في وزارة الخارجية الأمريكية السفيرَ الألماني في لندن من أن أي تدخل سيُعَدُّ عملاً من أعمال الحرب ويؤدي إلى حصار هامبورغ Hamburg وبريمن Bremen. وإمعانًا في التهديد والتخويف أضاف المسؤول البريطاني: "إن إبادة الأسطول التجاري الألماني في أعالي البحار، سوف تكون بالنسبة للأسطول البريطاني لعبة أطفال"[55]. كانت هذه حقيقة فظيعة، يصعب تجاهلها. إن ألمانيا لا تمتلك سوى نصف ما تمتلكه بريطانيا من سفن حربية، فكيف يمكن لها أن تحلُم بلعب دورٍ عالمي، حين يكون في مقدور الأسطول البريطاني إرغامها على التراجع إلى الوراء. في عامي 1895 و1896، جاءت أزمة الخلاف بين واشنطن ولندن حول حدود فنزويلا، لتلقِّن ألمانيا الدرس نفسه مرة أخرى، فقال القيصر: " عندما نستطيع أن نلوِّح في وجه الأسد البريطاني بقبضتنا الحديدية، ساعتها فقط سوف ينسحب، كما فعل مؤخرًا في وجه التهديدات الأمريكية"[56].

في عام 1897، اختار فيلهِلم الثاني ألفريد تيربيتز Alfred Tirpitz لبناء تلك القبضة الحديدية، حيث عيَّنه رئيسًا لإدارة شؤون البحرية الألمانية. وقد أبلغ تيربيتز القيصر أن ألمانيا تحتاج إلى بحرية قوية، قادرة على المنافسة، من أجل أن تلحق بالولايات المتحدة، وروسيا، وبريطانيا، فتصبح واحدةً من القوى البحرية العالمية الأربع الكبرى. ونبَّه تيربيتز إلى أن "تعويض ما فات، واللحاق بمن سبق، مسألة حياة أو موت بالنسبة لألمانيا"[57]. وقد وصفته مارغريت ماكميلان بأنه "دارويني اجتماعي، ينظر إلى التاريخ من منظار حتميّ باعتباره سلسلة من الصراعات من أجل البقاء". والصراع في هذه الحالة، بين "ألمانيا التي تحتاج إلى التوسع، وبريطانيا التي يجبرها وضعها كقوة مهيمنة على محاولة إيقاف ذلك"[58]. ولتقريب الصورة، قارن تيربيتز بين هذا النضال والمنافسة في مجال الأعمال: "المؤسسة الأقدم

والأقوى سوف تسعى حتمًا إلى محاربة المؤسسة الجديدة الصاعدة، قبل أن يفوت الأوان". وقال بعد الحرب: "هذا هو السبب الرئيسي للصراع الأنجلو-ألماني"[59].

وبينما كان تيربيتز يؤكد علانية أن ألمانيا في حاجة إلى توسيع أسطولها لحماية تجارتها الخارجية[60]، كانت وجهة نظره في الجلسات المغلقة تتطابق مع وجهة نظر القيصر الذي يرى أن الهدف الرئيسي للأسطول الألماني الجديد، هو أن يكون سلاحًا في وجه الهيمنة البحرية البريطانية. من هذا المنطلق، كتب تيربيتز في أول مذكرة رفعها إلى قيصره، في حزيران/يونيو 1897، الشهر الذي شهِد احتفالات اليوبيل الماسي البريطاني: "إن أخطر عدوٍ لألمانيا في الوقت الحاضر هو بريطانيا. إنها العدو الذي تتطلب مواجهته أن يتوفر لدينا، على وجه السرعة، قدرٌ معيَّن من القوة البحرية، لاستخدامها كعامل قوة سياسية"[61].

كان الهدف النهائي لتيربيتز امتلاك أسطولٍ ألماني تعادل قوتُه وحجمُه قوةَ أسطول إنجلترا وحجمَه[62]. غير أن تيربيتز، الذي كان يدرك أن تشييد أسطول كهذا يحتاج إلى وقت طويل، أكد أنه حتى الأسطول الأصغر حجمًا من مثيله الإنجليزي، يمكن أن يُشكِّل عامل قوة سياسية بالغ الأهمية. فبريطانيا، بتمددها الزائد عن طاقتها، وأسطولها الذي يضطلع بمهام متعددة في جميع أنحاء العالم، إذا خافت من مخاطر وقوع هجوم ألماني خاطف على مدنها الساحلية، سوف تتعامل مع ألمانيا المُسلحة بحريًا بمزيد من الاحترام[63]. علاوة على ذلك، وبناء على ما أسماه تيربيتز "نظرية المخاطرة"، إذا أصبح الأسطول الألماني قويًا إلى درجة القدرة على إصابة البحرية الملكية البريطانية بأضرار جسيمة تجعلها أكثر ضعفًا في مواجهة الهجمات التي قد تشنها عليها قوى عظمى أخرى، فإن هذا التحوّل سوف يردع بريطانيا عن شن هجوم على ألمانيا. جرى الإفصاح عن جوهر هذه الاستراتيجية من خلال الوثائق التفسيرية لقانون البحرية الثاني Second Navy Law، الذي نصَّ على أنه: "يجب أن يكون لألمانيا أسطول حربي

قوي إلى درجة تجعل الدخول في معركة ضده، حتى من قِبَل واحدةٍ من القوى البحرية العظمى، مغامرةً محفوفةً بالمخاطر التي يمكن أن تؤثر على مكانة هذه القوة وأوضاعها في العالم"[64]. كان بِولو يدرك أن الفترة التي تقع بين لحظة إطلاق عملية تشييد هذا الأسطول واللحظة التي يستطيع عندها الدفاع عن ألمانيا ضد بريطانيا، يمكن أن تكون "منطقة خطِرة"[65]، لهذا نصح رفاقه قائلاً "يجب علينا أن نعمل بحذر، كما تفعل اليرقة، قبل أن تتحول إلى فراشة".

على ألمانيا أن تبذل غاية ما في وسعها لضمان ألاّ تُسْتدرج إلى حرب ضد بريطانيا قبل أن يصبح أسطولها قويًا بدرجة كافية. وبالتالي، لا معنى لأية ترتيبات أمنية قبل أن يُرغِم الأسطول الجديد بريطانيا على الإقرار بالوضع الجديد لألمانيا. في الوقت نفسه، أَمِلَ بِولو أن تجعل بريطانيا مهمته أسهل، بتورطها في حرب ضد روسيا، الأمر الذي يتيح لألمانيا أن تزيد قوتها الاقتصادية والبحرية في هدوء. وفور أن تصبح البحرية الألمانية أمرًا واقعًا، سوف تجد بريطانيا نفسها مجبرة على التعايش مع هذا الواقع الجديد[66].

طمأن تيربيتز القيصر إلى أن امتلاك أسطولٍ كبيرٍ من السفن الحربية سوف يعزز الروح الوطنية للمواطنين الألمان، ويدعم وحدة ألمانيا. كان تيربيتز بارعًا في حشد الرأي العام خلف البرنامج البحري المقترَح، والحصول على تأييد أعضاء البرلمان - الرايخستاغ - اللازم لتنفيذه. كان القانون البحري الأول، الذي صدر عام 1898، قد دعا إلى تشييد تسع عشرة سفينة حربية. وقد سَعِد القيصر كثيرًا عندما أوصى تيربيتز في العام التالي، بتسريع برنامج توسيع الأسطول، وسارع إلى الموافقة على ذلك، خاصة بعد أن لفت تيربيتز نظر الإمبراطور إلى ذلك الاحتمال المُغري بأن بريطانيا "سوف تفقد أي مَيل لمهاجمتنا، وكنتيجة لعملية التوسيع، سوف تُقِر بوجود جلالتكم البحري، الذي يمنحكم الحق في اعتماد وتنفيذ سياسة عظمى في ما وراء البحار". في عام 1900، صدر قانون البحرية

الثاني The Second Naval Law، الذي ضاعف حجم الأسطول الذي يجري تشييده إلى ثمان وثلاثين سفينة حربية[67].

عندما زار الملك إدوارد السابع ألمانيا عام 1904 للمشاركة في سباق كِيل لليخوت، أقام ابن شقيقته، القيصر فيلهِلم الثاني، حفل عشاءٍ على شرفه في نادي اليخت الإمبراطوري. وفي تناقض تام مع جهود تيربيتز للتستر على طموحات ألمانيا، استولت على القيصر متعةُ التفاخر، فتعمّد استعراض أكبر قدر من قواته البحرية أمام خاله. واتضح أن البرنامج الزمني الخاص ببناء السفن يسير على الطريق الصحيح نحو تشييد أسطول منافس للأسطول البريطاني. وقد أعلن القيصر وهو يرفع كأسه ليشرب نخب خاله: "عندما كنت طفلاً صغيرًا، كان مسموحًا لي بزيارة بورتسموث Portsmouth وبليموث Plymouth... كنت معجبًا بالسفن الإنجليزية الضخمة في هذين الميناءين الرائعين. ثم استيقظَتْ في داخلي الرغبة في أن أشيِّد سفنًا مثل هذه السفن يومًا ما، وأن أمتلك، عندما أكْبُر، أسطولاً ممتازًا مثل الأسطول الإنجليزي"[68]. خلال شهر واحدٍ من استعراض فيلهِلم الطائش والمتسرع، كانت بريطانيا قد أعدَّت أولى خططها الرسمية، للحرب ضد ألمانيا[69].

معظم البَلْطجيَّة يَجْبُنون، عندما يُواجَهون

في وقت مبكر من عام 1900، اعترفت قيادة البحرية البريطانية بأن ألمانيا سوف تتمكن من تجاوز روسيا، في غضون أعوام قليلة، لتصبح القوة البحرية الثالثة في العالم بعد بريطانيا وفرنسا. وأدركت القيادة أن هذا يحتِّم على لندن مراجعة معيار القوة الثنائية أو القوة المزدوجة، والحفاظ على أسطول بريطاني موازِن في بحر الشمال[70].

في عام 1902، خاطب قائد البحرية البريطانية مجلسَ الوزراء، مُسْتشْهِدًا بقانون البحرية الألمانية الذي صدر قبل عامين، قائلاً: "إني على ثقة من أن عملية بناء الأسطول الألماني الكبير الجديد تجري بعناية من

منطلق الاستعداد لشن حربٍ ضدنا"[71]. في العام نفسه، خلُص مدير المخابرات البحرية البريطانية إلى أن إنجلترا "يتحتَّم عليها أن تخوض حربًا من أجل الحفاظ على سيادتها على بحر الشمال، على غِرار الحرب التي خاضتها ضد الهولنديين في القرن السابع عشر". ورغم أن البعض، في كل من ألمانيا وبريطانيا، قد تقبل لبعض الوقت ما طرحه تيربيتز من مبررات حول احتياج ألمانيا إلى أسطول لحماية تجارتها، لم يصمد هذا الادعاء طويلاً. وكما لاحظ بول كينيدي، عندما انكشفت الحقيقة وأدركت لندن أن المُسْتهدَف الحقيقي من بناء الأسطول الألماني هو بريطانيا نفسها، "كان تأثير ذلك على العلاقات الأنجلو-ألمانية كارثيًا، وغير قابلٍ للعلاج". ويضيف كينيدي: "تزامن القلق البريطاني المتصاعد من البرنامج البحري الألماني مع تذمر إنجليزي عام تجاه مواقف الدبلوماسية الألمانية. ففي عام 1901، وبسبب المراوغات الألمانية الواضحة تجاه بريطانيا، خاصة في ما يتعلق بتفاهم مأمول حول الصين، فَقَدَ الوزراء البريطانيون المؤيدون لعقد تحالف أنجلو-ألماني كثيرًا من الرغبة التي أبدوها سابقًا في عقده"[72].

تزامن تدهور العلاقات الأنجلو-ألمانية مع تغيُّر سريع حاد في ديناميَّات القوة داخل أوروبا وخارجها، ومع ما تقوم به بريطانيا من إعادة تقييم لوضعها العالمي[73]. لقد أدركت بريطانيا، تدريجيًا، أنها لم تعد قادرة على الحفاظ على تفوُّقها البحري في جميع أنحاء العالم، في مواجهة مجموعة من القوى الصاعدة. فالأساطيل الأمريكية، واليابانية، والروسية، وأساطيل دول أخرى كثيرة تتزايد قوةً وعددًا، غير أن الأسطول الوحيد الذي يمثل خطرًا يسْتفحِل على بُعد بضع مئات من الأميال البحرية من السواحل البريطانية هو الأسطول الألماني[74]. لقد تنازلت البحرية البريطانية، لأسباب تكتيكية، عن السيادة على بحار ومحيطات نصف الكرة الغربي لصالح الولايات المتحدة، وفي عام 1902، أنهت بريطانيا ما كان يُعرف بالعزلة الرائعة splendid isolation، ووقَّعت تحالفًا دفاعيًا مع اليابان، الأمر الذي أسفر عن تخفيف أعباء الأسطول الملكي البريطاني في الشرق الأقصى[75].

التحالف الأنجلو-ياباني كان موجهًا في الأساس ضد روسيا، إلا أنه، في الوقت نفسه، أنهى الحاجة إلى عقد تفاهم مع ألمانيا بشأن الصين، وشرَّع الأبواب أمام تعاون أكبر مع فرنسا. كانت بريطانيا وفرنسا تشعران أن اليابان وروسيا تقتربان من الحرب، ولم تكن أيٌّ منهما، بريطانيا وفرنسا، ترغب في أن ترى نفسها مجبرة على التورط في حرب مع الأخرى يفرضها حليفاهما(*)(76). كما وجدت الدولتان أن الفرصة قد حانت لتسوية ما بينهما من خلافات بقيت عالقة لسنوات طويلة، وهكذا وقَّعت الدولتان عام 1904 التفاهم الودي The Entente Cordiale، الذي حلَّ كثيرًا من المشاكل المتعلقة بالمستعمرات(**). ورغم أن هذا التفاهم لم يرق إلى درجة التحالف، رأت فيه ألمانيا تهديدًا لوضعها الدبلوماسي، فحاولت، بطريقة غير متعقِّلة، أن توقِع بين بريطانيا وفرنسا من خلال إثارة بعض القلاقل في المغرب. لهذا لم يكن من المُستغَرب أن تدفع تلك التصرفات لندن وباريس نحو مزيد من التقارب.

في غضون ذلك، وفي عام 1905، كانت اليابان قد ألحقت بروسيا هزيمة ساحقة في نزاعهما حول منشوريا وكوريا. كان إغراق الأسطول الروسي يعني أن ألمانيا قد انتقلت إلى المرتبة الثالثة بين القوى البحرية العالمية، بعد بريطانيا وفرنسا(77). في البداية بدا انهيار روسيا وكأنه خبر سعيد بالنسبة لبريطانيا، من منطلق أن موسكو أصبحت أقل خطورة على مصالح لندن. غير أن هذا الانهيار كان يعني، في الوقت نفسه، أن فرنسا

(*) كانت فرنسا ترتبط بتحالف قوي مع روسيا منذ زمن بعيد، بينما كانت بريطانيا حليفة حديثة مع اليابان. (المُعرِّب)

(**) تضمن هذا التفاهم الودي عددًا من الاتفاقات المنفصلة، التي جاءت لتنهي نحو ألف عام من الصراعات المختلفة الأشكال بين الدولتين، وهي صراعات تواصلت دون انقطاع تقريبًا، غير متأثرة بتعاقب الحكام أو تغيّر أنظمة الحكم في الدولتين. من أبرز ما تضمنه هذا التفاهم، في ما يخص العالم العربي، تعهُّد فرنسا بإطلاق يد بريطانيا في مصر، وتعهُّد بريطانيا بإطلاق يد فرنسا في المغرب، بالإضافة إلى تعهُّد الدولتين بضمان حرية الملاحة في قناة السويس. وكأن العالم العربي قد كُتِب عليه أن يحتل خانة المفعول به في أية اتفاقية أو معاهدة دولية، بغض النظر عن أطرافها. (المُعرِّب)

فقدت حليفًا مُهمًا في مواجهة ألمانيا، ولو إلى حين. المحصِلة أنه أصبح هناك احتمال حقيقي أن تتمكن ألمانيا من الإخلال بتوازن القوى في أوروبا[78].

هل تسمح لندن لبرلين بإعادة صياغة النظام الأوروبي، أم تدافع عن بقاء الأمر الواقع؟ فرضت المصالح والاعتبارات الأمنية الوطنية على بريطانيا الخيار الثاني. وقد وصف آير كْرو دور بريطانيا في الحفاظ على توازن القوى – من خلال الحيلولة دون انفراد أية قوة بالهيمنة على أوروبا – بأنه تطبيق عملي لناموس الطبيعة law of nature. كما حذَّر مسؤول بريطاني كبير في مجال التخطيط العسكري من أنه "ليس هناك شك في أن صراعًا هائلاً للهيمنة والسيادة سوف يشتعل بين ألمانيا وأوروبا، خلال فترة محدودة"[79]. لم يُلزم التفاهم الودي بريطانيا بالدفاع عن فرنسا، ولكن في عامي 1905–1906، بدأت لندن وباريس سلسلة من المحادثات العسكرية السرية في شأن ترتيبات دفاعية معينة. وفي عام 1907، وقَّعت بريطانيا مع روسيا معاهدة قضت بتجميد ما بينهما من خلافات حول المستعمرات، ومن ثمَّ أوجدت تلك المعاهدة تحالفًا ثلاثيًا بين بريطانيا من ناحية والحلف الفرنسي–الروسي من ناحية أخرى، وهو ما أصبح معروفًا بالتفاهم الثلاثي Triple Entente.

وهكذا، في أعقاب الحرب اليابانية–الروسية، منحت بريطانيا عناية قصوى لمسألة إمكانية، أو احتمالية أن تصبح ألمانيا الصاعدةُ قوةً مُهيمنةً على أوروبا، لإدراكها أن ألمانيا عندما تبسط هيمنتها على أوروبا، سيكون في مقدورها حشد موارد تكفي لتقويض السيادة البحرية البريطانية، تاركة بريطانيا فريسة سهلة لأي غزو[80]. وقد عبَّر الملك إدوارد عن هذه المخاوف عام 1909 قائلاً: "إذا بقيت بريطانيا منعزلة أو متحفظة خلال أي صراع قادم، سوف تتمكن ألمانيا من القضاء على أعدائها، واحدًا بعد الآخر، ونحن جالسون مكتوفي الأيدي. وبالطبع من المرجح أنها سوف تواصل عملها، وتهجم علينا"[81].

استخلصت برلين من الحرب اليابانية-الروسية دروسًا مختلفة، خاصة في ما يتعلق بالضربة الاستباقية التي وجهتها اليابان ضد الأسطول الروسي في بورت آرثر، وهو الهجوم الذي كان بمثابة نبوءة بالهجوم المماثل الذي وقع على الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور بعد أقل من أربعين عامًا. فقد رأى الألمان في الهجوم الياباني نموذجًا يمكن لبريطانيا أن تطبقه من خلال شن هجوم غادر على الأسطول الألماني في ميناء كِيل المطل على بحر الشمال. هذا بالإضافة إلى أن الألمان درسوا مِرارًا الهجوم المفاجئ الذي شنّه الأسطول البريطاني على كوبنهاغن عام 1807، والذي أسفر عن أسر الأسطول الهولندي قبل أن يتمكن نابليون من نجدته. وكما يلاحظ المؤرخ جوناثان شتاينبرغ، آمن القيصر دون تحفُّظ بإمكانية وقوع هجوم مماثل لهذين الهجومين، الياباني والبريطاني، على أسطوله. وبالفعل، في أواخر عام 1904 أضطرّ سفيره في لندن إلى أن يؤكد له في لقاء شخصي أن "مثل هذا الهجوم غير وارد". وفي أوائل عام 1907، عندما راجت في كِيل شائعات حول قرب وقوع هجوم بريطاني، سحب أولياء الأمور القلقون أطفالهم من المدارس. لم تكن المخاوف الألمانية في غير موضعها بشكل كامل. وهنا نقتبس عن هنري كيسنجر ما قاله في مناسبة أخرى: "حتى المصابون بجنون العظمة لهم أعداء حقيقيون". لقد حدث بالفعل أن أوصى قائد البحرية البريطانية - الأدميرال جون فيشر John Fisher، الذي عُيّن في أعلى منصب عسكري بالبحرية البريطانية في تشرين الأول/أكتوبر 1904 - في أكثر من مناسبة بضرورة أن تَشُنّ البحريةُ الملكيةُ البريطانيةُ هجومًا على الأسطول الألماني، مماثلاً للهجوم الذي شنته على الأسطول الهولندي في كوبنهاغن. وعندما قدّم فيشر هذا الاقتراح إلى الملك إدوارد للمرة الأولى عام 1904، كان رد الملك: "يا إلهي!، لا بد أنك مجنون يا فيشر!". ولكن بعد أن شرح الأدميرال الفكرة مرة أخرى، بعد أربع سنوات، أنصت الملك إلى الاقتراح بمزيدٍ من الاهتمام. لقد آمن فيشر بأن ردع الخصم من خلال التصريحات التي تنم عن الميل إلى القتال، هو أفضل وسيلة لمنع الحرب، لكن القادة الألمان وجدوا في الخطاب البريطاني

أسبابًا أكثر من كافية لمضاعفة استثماراتهم في دعم وتوسيع قوتهم البحرية[82].

من سخرية القدر، أن قائد الأسطول الألماني اتُهِم هو الآخر بارتكاب خطأ فادح عندما أساء تقدير أثر أفعاله على الطرف المعادي. فقد افترض تيربيتز أن بريطانيا لن تنتبه إلى القوة التي تنمو وتتعاظم على الطرف الآخر لبحر الشمال، وأن لندن لن تكون قادرة على إعادة تنظيم جهودها الدبلوماسية وحشدها، من أجل تحييد خصومٍ آخرين، وتَجنُّب التوصل إلى تفاهمات معيّنة مع ألمانيا. وقد ثبت خطأ الافتراضين معًا[83]. كان تيربيتز قد افترض أيضًا أن بريطانيا لن تكون قادرة على توجيه أسطولها بكامل قوته ضد ألمانيا، ولن تكون راغبة في إنفاق المبالغ اللازمة لمعادلة البرنامج الألماني لتشييد السفن. وقد أثبتت الأحداث، مرة أخرى، خطأ تقديراته[84].

لقد فعلت بريطانيا كل ما كان الألمان يعتقدون أنها لن تفعله، بل وفعلت ما هو أكثر منه. لقد قاد فيشر عمليةً تهدف إلى إعادة هيكلة البحرية البريطانية لتكون قادرة على مواجهة الخطر الألماني. في عام 1906، كتب فيشر إلى الملك إدوارد: "إن عدونا المحتمل الوحيد هو ألمانيا. فألمانيا تضع أسطولها بكامله على بُعْدِ ساعاتٍ قليلةٍ من إنجلترا. لهذا يجب علينا الاحتفاظ بأسطول ذي قوة مضاعَفة وجاهزية كاملة، على بُعْد ساعات قليلة من ألمانيا"[85]. إعادة تنظيم العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا واليابان، وبشكل أقل رسمية، مع الولايات المتحدة، كانت تعني أن فيشر يستطيع تنفيذ عملية إعادة التوازن البحري مع ألمانيا، من خلال تخصيص 75 في المائة من السفن الحربية البريطانية لمواجهة الأسطول الألماني وحده[86].

لفت كْرو الانتباه في المذكرة التي قدَّمها عام 1907، إلى أن مجرد مطالبة ألمانيا بإيقاف عملية توسيع قوتها البحرية، سوف يدفع برلين إلى تسريع تلك العملية. وقال كْرو إن الألمان لا يفهمون سوى لغة واحدة فقط: الفِعْل. يجب أن تُظهر بريطانيا عزمَها على تشييد أسطول أكبر من الأسطول

الألماني، لإجبار الألمان على إدراك عدم جدوى البرنامج الذي شرعوا في تنفيذه. وقد لقي هذا النهج، بالتأكيد، صدى طيبًا لدى الملك إدوارد، الذي كان قد قال عن ابن شقيقته ذات مرَّة: "فيللي بَلْطَجي، ومعظم البلْطجية، يَجْبُنون، عندما يُواجَهون"[87].

لم يقتصر عمل البريطانيين على زيادة حجم أسطولهم فقط، فقد أشرف فيشر على تطوير نوعية جديدة من السفن الحربية، وهي المُدَرَّعَة (الدَّرَدْنوط) Dreadnought، التي دُشِّنت أول قطعة منها عام 1906، وهي طراز جديد من السفن الحربية، تمتاز بأنها أسرع، وأكبر، وأقوى تسليحًا من كافة الطرازات التي سبقتها، كما أن المدفعية التي جُهزت بها، وهي من عيار اثنتي عشرة بوصة، توفِّر لها قوة ناريّة مضاعفة، وتزيد المسافة التي يمكن أن تصل إليها قذائفها إلى الضعف[88]. لقد غيرّت المُدَرَّعة (الدَّرَدْنوط) تاريخ البحرية في العالم، وأصبحت جميع الأساطيل مجبرة على تشييد مدّرعات بحريّة ثقيلة خاصة بها، إذا كانت ترغب في منافسة الأسطول البريطاني. علِم تيربيتز ببرنامج التسليح البريطاني الجديد في عام 1905. وبحلول خريف العام نفسه، قدم إلى البرلمان الألماني - الرايخستاغ - ملحقًا جديدًا لقانون البحرية يزيد الإنفاق على البحرية عمَّا كان مقررًا في قانون 1900 بمقدار 35 في المائة، الأمر الذي يسمح ببناء مُدرَّعتَيْن جديدتين كل عام. وبالإضافة إلى ذلك، بدأ تيربيتز الاستعدادات اللازمة لتوسيع قناة كِيل Kiel Canal، بتكلفة باهظة، حتى تتمكن المُدرَّعات الألمانية الثقيلة الجديدة من الانتقال بسرعة من بحر البلطيق إلى ميدان المعركة المتوقَّع في بحر الشمال[89].

على الجانب الآخر، رصد فيشر، بنظرته الثاقبة، معالم الطريق نحو الصراع، على نحو ما ورد في كتاب "من الدَّرَدْنوط إلى سكابا فلو(*)"

(*) سكابا فلو مسطّحات مائية كبيرة تحيط بجزر أوركني Orkney islands في إسكتلندا. في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، وبعد أن أصبحت هزيمة ألمانيا مؤكدة، اقتيد الأسطول الألماني إلى هذه المنطقة، واحتُجز هناك لفترة طويلة، في انتظار قرار من المشاركين في توقيع معاهدة فرساي Treaty of Versailles بتقرير مصيره. في حزيران/يونيو 1919، أصدر لودفيغ

From the Dreadnought to Scapa Flow، تأليف آرثر ج. ماردر Arther J. Marder. ففي عام 1911، تنبأ بأن الحرب مع ألمانيا سوف تبدأ بعد اكتمال عملية توسيع قناة كِيل. لقد توقع فيشر، في واقع الأمر، هجومًا ألمانيًا مُباغتًا، كما توقع أن يقع هذا الهجوم خلال عطلة من عطلات نهاية الأسبوع الطويلة. كان الموعد الذي توقعه فيشر لمعركة أرماغدُّون(*) Battle of Armageddon، على حد تعبيره، هو 21 تشرين الأول/أكتوبر 1914. (صحيحٌ أن الحرب العظمى بدأت قبل هذا الموعد بنحو شهرين، أي في آب/أغسطس 1914، لكنها بدأت خلال واحدة من عطلات نهاية الأسبوع، وبعد شهر واحد من إتمام عملية توسيع القناة(90).

كان السباق البحري يجري بفعل قوة دفع خاصة به، يحركه تزايد حماس المواطنين وقلقهم في الدولتين. لقد أدخل الألمان عدة تعديلات على القوانين البحرية، بغرض زيادة حجم الأسطول أو زيادة معدلات تشييد سفنه. كانت تلك التعديلات تجنح إلى كونها رد فعل لما يجري في بريطانيا من تطورات، مثل إنتاج البوارج الثقيلة، أو رد فعل لما يتصور الألمان أنها إهانات تتلقاها بلادهم على الساحة الدولية: ومنها على سبيل المثال ما حدث في عام 1906 في أعقاب أزمة طنجة(**) Tangiers Crisis، وفي 1908

فون ريوتر Ludwing von Reuter، الضابط القائم بعمل قائد الأسطول، أوامره إلى جنوده بإغراق سفن الأسطول، بحجة أن المهلة المقررة لتحديد مصيره قد انقضت، رغم أنه كان قد أُبلغ بقرار تمديد تلك المهلة. وقد فشلت كافة المحاولات التي بُذِلَت لإنقاذ السفن من الغرق، إذ تبين في ما بعد أن الألمان قد استغلوا الفترة الطويلة التي استغرقتها عملية التفاوض في الإعداد لإغراق السفن، حتى لا تستولي عليها بريطانيا في حالة صالحة للاستخدام. (المُعَرِّب)

(*) تستمد معركة أرماغدون اسمها من تل أرماغدون Armageddon Tell الذي يقع في شمال فلسطين المحتلة، عند نقطة كانت تتوسط طريق التجارة بين مصر الفرعونية وبلاد الشام. وقد شهِد هذا الموقع معارك كثيرة، في أزمنة مختلفة. ورغم أن اسم معركة أرماغدون مصطلح توراتي يطلَق على معركة يؤمن كثيرون أنها سوف تقع في نهاية الزمان بين قوى الخير وقوى الشر، وأنها سوف تكون بمثابة نهاية للعالم، تعارف كثير من الكتّاب على إطلاق هذا الاسم على أية حرب كبيرة، متعددة الأطراف، تمتد آثارها إلى معظم أنحاء العالم، بما في ذلك مَن لم يشاركوا في معاركها. (المُعرِّب)

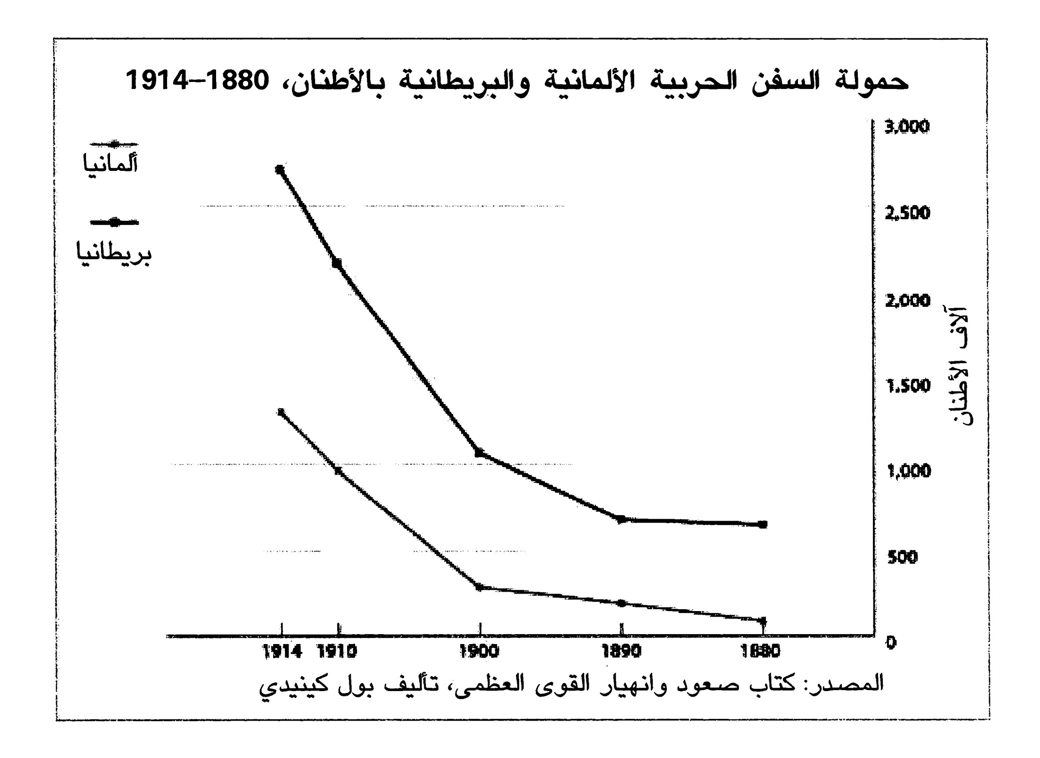
(**) تُعرف هذه الأزمة بالأزمة المغربية الأولى First Moroccan Crisis، وهي أزمة دولية استمرت

عندما خشيت ألمانيا من عملية تطويق لها، وفي عام 1912 في أعقاب أزمة أغادير(*) Agadir Crisis[91].

في عامي 1908 و1909، اتهمت بريطانيا ألمانيا بأنها تُشيِّد في السر سفنًا حربية بمعدلات أعلى بكثير من المُعلن رسميًا. رفضت ألمانيا فكرة التفتيش المُتبادَل، لتثير المخاوف من أن يكون الأساس الوحيد لتقدير حجم الخطر الألماني، هو مدى قدرة ألمانيا على تشييد السفن. وهكذا، حان الوقت الذي تقع فيه بريطانيا نفسها تحت وطأة الذعر من هجمات مفاجئة قد تُشن عليها، ووطأة مطالب مواطنيها - الذين كانوا مستهلِكين متعطشين لثقافة الغزو - بتسريع عملية التشييد[92]. ورغم أن لجنة الدفاع الإمبراطوري قدَّرت في عام 1903، وأعادت تأكيد هذا التقدير مرة أخرى في عام 1908، أن البحرية المَلَكية لا تزال قادرة على حماية الوطن، تَواصل صُراخ الرأي العام المُطالب بمزيد من البوارج الثقيلة. وبعد شكوك أوليّة في إمكانية تمرير ذلك، اقترح ديفيد لويد جورج David Lloyd George وزير المالية، في خاتمة المطاف، فرض زيادات ضريبية لتمويل عمليات التشييد الجديدة، بدعوى أن الحكومة "لا تريد أن تُعرِّض للخطر التفوُّق البحري الذي يُعدُّ ضروريًا ليس فقط لوجودنا الوطني، ولكن، وفقًا لتقديرنا، لضمان المصالح الحيوية للحضارة الغربية"[93].

لأكثر من عام. وقد نشبت في أعقاب زيارة قام بها القيصر فيلهِلم الثاني إلى المغرب، وأعرب خلالها عن دعمه لاستقلال المغرب وسيادته، الأمر الذي أثار غضب فرنسا. وقد تركت هذه الأزمة صدْعًا كبيرًا في العلاقة بين عُضوَيْ التفاهم الثنائي (إنجلترا وفرنسا) من ناحية، وأعضاء التحالف الثلاثي (ألمانيا والنمسا-المجر وإيطاليا) من ناحية أخرى. (المُعرِّب)

(*) تُعرف هذه الأزمة بالأزمة المغربية الثانية Second Moroccan Crisis، وقد نشبت في أعقاب قيام فرنسا بنشر عدد كبير من قواتها داخل العمق المغربي. ألمانيا لم تعترض على العملية من حيث المبدأ، إلّا أنها أصرت على الحصول على تعويض استعماري مقابل موافقتها على ما أقدمت عليه فرنسا. وقد انتهت الأزمة باعتراف ألمانيا بالسيادة الفرنسية على المغرب، مقابل تنازل فرنسا لألمانيا عن جزء بسيط من أراضي الكونغو الفرنسي، وهو ما اعتبره المواطنون الألمان تنازلًا صوريًا. (المُعرِّب)



حذرت مذكرة كْرو من أن ألمانيا تتصرّف في المجال الاستعماري "كمُبْتزٍّ محترفٍ"، وأن التنازلات تدفع المُبْتزّين، عادةً، إلى طلب المزيد، وأن العلاقات قد تتحسن إذا اتخذت بريطانيا موقفًا حاسمًا، كما فعلت مع فرنسا في أعقاب أزمة فاشودا في شرق أفريقيا[94]. في النهاية، فشل تَشدُّد بريطانيا، وإعادة ترتيب تحالفاتها الدبلوماسية في تحقيق النتائج المرجوَّة، كما سبق وفشلت فكرة "أسطول المُخاطرة" (أي القوة البحرية التي كان تيربيتز يرى أنها يمكن أن تردع لندن، وأن تقنعها في نهاية المطاف بالاعتراف بالوضع العالمي لألمانيا).

مع تتابع سنوات العِقْد، أصبحت مزاعم ألمانيا أكثر حدّة، في ما يتعلق بكونها ضحية، وفي ما يتعلق بالكوارث الكثيرة التي تقول إنها توشك أن تُحْدِق بها[95]. عندما وقعت الأزمة البوسنية Bosnian crisis في عام 1908 – بعد أن أعلنت النمسا – المجر ضمَّ البوسنة والهرسك إليها، الأمر

الذي أثار ردَّ فعل دوليًّا مُعاكسًا وسريعًا، مما اضطر برلين إلى التدخل لمساعدة حلفائها في فيينا - ادّعت الصحافة الألمانية أن "ألمانيا المُحبة للسلام" تم تطويقها بتحالف عسكري يضم بريطانيا وروسيا وفرنسا، وأنها لا تستطيع أن تعتمد إلاّ على النمسا-المجر، التي تحتاج، لهذا السبب، إلى دعم ألماني قوي[96]. كانت القوميّات المختلفة التي تتشكل منها النمسا-المجر على خلاف متزايد في ما بينها، وكان الوضع ينذر بانتقال تعقيدات البلقان ومشاكله إلى المقاطعات النمساوية. فقد كانت صربيا، أكبر صداع في رأس فيينا، مدعومة من روسيا. وكانت ألمانيا، مثلها في ذلك مثل بريطانيا، تخشى أن يؤدي انهيار شريكتها، إلى تركها وحيدة، فريسة سهلة لاعتداءات خصومها. وعندما قام الملك إدوارد بجولة أوروبية عام 1907، وهي الجولة التي رأت فيها ألمانيا خطوة نحو مزيد من التآمر عليها، أخبر القيصر جمعًا من ثلاثمائة شخص أن خاله شيطان، وأضاف: "لن تستطيعوا أبدًا أن تتخيلوا أي نوع من الشياطين هو"[97].

من المفيد هنا أن نقارن بين فهم كل من الملك إدوارد والقيصر فيلهِلم لعواقب إصرار بريطانيا على التصدي للتجاوزات الألمانية. لقد آمن كل منهما بأن خصومة بلديهما هي انحرافٌ عما كانا يعتقدان أنه تحالف عرقي طبيعي بينهما. غير أن كلاً منهما كان يُلقي بمسؤولية هذا الانحراف على عاتق ما يُكنُّه الآخرُ من حقد عليه. في عام 1908، شعر الملك إدوارد أن استمرار قوة بريطانيا ويقظتها سوف تجبران ألمانيا على "قبول ما لا مفر منه، وعلى التعامل معنا بوِدّ". غير أن ذلك لم يكن صحيحًا: ففي عام 1912، كانت لدى القيصر رؤية تصادمية، حيث أكد غاضبًا أنه "بدافع من الخوف من تحوُّلنا إلى قوة أكبر، سوف يدعم البريطانيون خصوم برلين في صراعهم الوشيك ضد الشعوب الجرمانية في أوروبا، من أجل الوجود"[98]. وقوِيَت التحالفات، لتفرز ما اصطلح هنري كيسنجر على تسميته "دبلوماسية يوم القيامة"، التي سمحت بأن تتحول عملية اغتيال وقعت في البلقان، إلى حرب عالمية.

كادت الحرب أن تندلع في صيف 1911، عندما أرسلت ألمانيا قطعة بحرية – النمِر The Panther – إلى أغادير، على أمل تأمين قاعدة بحرية ألمانية على شاطئ المحيط الأطلسي، متحدِّية بذلك الهيمنة الفرنسية على المغرب. طلبت فرنسا العون من بريطانيا. خشي مجلس الوزراء البريطاني أن يكون هدف برلين إحراج باريس، وإضعاف علاقاتها مع لندن. وفي خطاب له في منزل عمدة لندن الذي يعرف باسم مانشن هاوس Mansion House، أوضح لويد جورج بجلاء أن الحرب هي الخيار الأفضل، حيث البديل استسلام بَغيض من شأنه أن يُقوِّض وضع بريطانيا كقوة عظمى. في النهاية تراجعت ألمانيا، وانتهت الخصومة سلميًا، غير أن كثيرًا من الألمان شعروا أنهم لم يحصلوا على تنازلات كافية مقابل هذا التراجع، فتزايد إحباطهم من بريطانيا وغضبهم عليها[99]. لقد آمن عدد كبير من مواطني ألمانيا وقادتها أن المستعمرات أمر حيوي لبقائها، وبعد أزمة أغادير بدا واضحًا أن توسع ألمانيا المصيري يجري التصدي له وإحباطه، وأن ذلك سيؤدي إلى عواقب وخيمة[100].

كان تشرشِل، وزير الداخلية وقت وقوع أزمة أغادير، يؤمن بأن بريطانيا يجب أن تدافع عن فرنسا إذا هاجمتها ألمانيا، متفقًا في ذلك مع وزير المالية لويد جورج. كما كان تشرشِل سعيدًا "برؤية البلطجي يتراجع مستسلمًا". لقد بدا واضحًا أن بريطانيا بقوتها وإصرارها على التصدي للعدوان نجحت في أن تُثني ألمانيا عن "القيام بأي عمل استفزازي جديد" متصلٍ بتلك الأزمة، وأن الأمر كله سوف "ينتهي بانتصار سلس"، كما أخبر تشرشِل زوجته. لكنّ خطر اشتعال الحرب كان حقيقيًا. كان تشرشِل يعلم أن الرهانات الحقيقية لبريطانيا في صراع كهذا لا تتمثل في استقلال المغرب أو بلجيكا، ولكن في "عدم نجاح اليونكر البروسيين Prussian Junkers في سحق فرنسا ونهبها، وهي كارثة مدمرة للعالم، قاتلة ساحقة لوطننا"[101].

عندما عُيِّن تشرشِل وزيرًا للبحرية بعد عدة أشهر، لم تكن قد فارقته

بعد الصدمة التي أصابته جرَّاء عدم جاهزية حكومته أثناء أزمة عام 1911. لهذا وجَّه جُلَّ اهتمامه إلى كيفية علاج ضَعف حصانة بريطانيا في مواجهة أي اعتداء. كان "عقله مشغولاً تمامًا بأخطار الحرب"، وكان قلبه ملتزمًا التزامًا تامًا "بأن يجعل بريطانيا محصنة تمامًا من ناحية البحر... كان يرى أن كل نقيصة يجب أن تتحول إلى ميزة، وأن كل فجوة يجب أن تُمْلأَ، وأن كل حالة طارئة يجب تكون متوقَّعَة مُسبقًا"، على حد تعبير مارتين غيلبرت. غير أن الاستعداد لا يعني أن تشرشِل كان يؤمن بأن كل شيء مقدَّرٌ ومكتوبٌ سلفًا، وأن الإنسان لا يملك تغيير ما قُدِّر له. فبينما كان يبذل كل ما في طاقته للتأكد من جاهزية بريطانيا للدخول في أية معركة، كان يرفض رفضًا قاطعًا "نظرية حتمية الحرب"، وكان يأمل أن يؤدي تأخير وصول اليوم المشؤوم، إلى منع نشوب الحرب، لأنه مع مرور الوقت، ربما تحدث داخل المجتمعات الأجنبية تغيرات إيجابية، مثل ظهور قوى ديمقراطية أكثر ميلاً إلى السلام، فتضع حدًا لنفوذ طبقة اليونكِر في الحكومة الألمانية(102).

بذل تشرشِل جهودًا شاقة ومضنية لإيقاف أو إبطاء السباق البحري. في عام 1908، رفض القيصر فيلهِلم اقتراحًا بريطانيًا بتحجيم سباق التسلح، كما ذهبت أدراج الرياح مناقشات أنجلو-ألمانية إضافية جرت بين عامي 1909 و1911. غير أن ذلك لم يُثْنِ تشرشِل عن مسعاه. ففي كانون الثاني/يناير 1912، أبلغ السير إرنست كاسّيل Sir Ernest Cassel، الوسيطَ لدى القيصر، أنه إذا خفضت ألمانيا وتيرة برنامجها البحري، سيحقق ذلك "انفراجةً فورية". وبالفعل اقترح كاسيل على القيصر أن يُسلِّم بالتفوق البحري البريطاني، وأن يخفض برنامجه، على أن تدعم بريطانيا، في مقابل ذلك، سعي ألمانيا إلى امتلاك مستعمرات خاصة بها، بالإضافة إلى امتناع كلٍ من لندن وبرلين عن القيام بأي أعمال عدوانية تجاه الأخرى. بدا القيصر، كما ورد في تقرير كاسيل بعد عودته "مسحورًا بشكل صبياني تقريبًا". ولكن، عندما ذهب وزير

الدولة البريطانية لشؤون الحرب إلى ألمانيا في مهمة متابعة، أوضح الألمان له أنهم مستعدون لتخفيض إيقاع برنامجهم البحري فقط، في مقابل حياد بريطاني في حالة نشوب حرب داخل القارة الأوروبية. لم يكن في مقدور بريطانيا أن توافق على محاولة ألمانيا قلب ميزان القوى. ورغم أنها كانت مستعدة للتعهد بعدم المشاركة في أي هجوم على ألمانيا، رفض القيصر بغضب الموقف البريطاني[103].

في 12 آذار/مارس 1912، أقرَّ القيصر ملحقًا لقانون البحرية يدعو إلى إضافة ثلاث بوارج جديدة، وإبقاء الأسطول الألماني في أعلى درجات الاستعداد. بعد أسبوع واحد من صدور هذا الملحق، أعلن تشرشِل أمام البرلمان أن بريطانيا سوف تستبدل مبدأ القوة الثنائية أو المضاعَفة، وأنها، من الآن فصاعدًا، سوف تحرص على أن تمتلك من البوارج ما يزيد عما يمتلكه خصمها الرئيسي بمعدل 16 إلى 10. علاوة على ذلك، أعلن تشرشِل أن بريطانيا سوف تُشيِّد سفينتين في مقابل كل سفينة جديدة تُضاف إلى الأسطول الألماني تطبيقًا لملحق القانون البحري الألماني. كما اقترح تشرشِل الموافقة على تعليق أنشطة توسيع الأسطول تحت اسم عُطلة البحرية، حتى تواكب بريطانيا ألمانيا، إذا قررت يومًا ما تعليق برنامجها الخاص بتشييد السفن. على سبيل المثال، إذا تخلت ألمانيا عن السفن الثلاث التي كان من المفترض أن تُشيِّدها في عام 1913، سوف تتخلى بريطانيا عن تشييد السفن الخمس التي كان من المفترض أن تُشيِّدها في مقابل السفن الثلاث الألمانية. رفض الألمان عرض تشرشِل (الذي أعاد طرحه في العام التالي)، ورأوا فيه محاولة للحفاظ على الهيمنة البريطانية، وتقويض الدعم المحلي للأسطول الألماني. ومع ذلك، بعد عام واحد، في شباط/فبراير 1913، وبسبب افتقاد الدعم السياسي لزيادة الإنفاق البحري، أعلن تيربيتز أنه يقبل من حيث المبدأ معدل 16 إلى 10، الخاص بالبوارج. وقد ذكر باتريك كيلي Patrick Kelly في كتابه تيربيتز والبحرية الإمبراطوريّة العامة Tirpitz and

the Imperial General Navy، أن تيربيتز كان يؤكد في أحاديثه الخاصة أن هذا المعدل لا ينطبق على الطرَّادات(*).

بدا أن السباق البحري قد انتهى. ورغم أن ألمانيا نجحت، بشكل درامي، في تقليص الفجوة بين حمولة أسطولها وحمولة الأسطول البريطاني – من 7,4 إلى 1 عام 1880، إلى 3,6 إلى 1 عام 1890، ثم إلى 2,1 إلى 1 عام 1914[104] – كانت بريطانيا تمتلك 20 بارجة ثقيلة مقابل 13 لألمانيا، عندما بدأت الحرب[105]. لقد فشلت عملية توسيع الأسطول الألماني في تجاوز بريطانيا، رغم تكلفتها المالية والدبلوماسية الباهظة. وكما أوضح تشرشِل في ما بعد، فإن البرنامج البحري الألماني "زاد من تماسك التفاهم الودي، ومع كل مسمار دقَّه تيربيتز في سفينة من سفنه الحربية، كان الرأي العام البريطاني يزداد توحدًا وتماسكًا... والمطارق التي كانت ضرباتُها ترنّ على سواحل كِيل وفيلهِلمهافِن Wilhelmhaven، كانت تُشكِّل التحالف الدولي الذي سوف يهزم ألمانيا، ويطيح بها في نهاية الأمر"[106].

هل كان السباق البحري الأنجلو–ألماني سببًا لاشتعال الحرب العالمية الأولى؟ الإجابة: لا. سباقات التسلح لا تسفر، بشكل حتمي، عن صراع مسلح. فكما أوضح مايكل هاورد، "إن أطوَل وربما أعنف سباق للتسلح في التاريخ الحديث" كان بين الأسطولين الفرنسي والبريطاني، على مدار الأعوام التسعين التي تلت عام 1815، ومع ذلك لم ينته هذا السباق بالحرب، بل بتوقيع التفاهم الوِدّي[107].

وعلى العكس من ذلك، أرسى سباق التسلح بين لندن وبرلين، من خلال عدة طرق، أسس قيام الحرب. لم يؤدِّ التحدي الذي مثلَّه نمو الاقتصاد الألماني إلى جعل العداء بين الدولتين أمرًا لا يمكن تجنُّبه (بل إنه لم يؤدِّ إلى منع الصفوة البريطانية من النظر إلى ألمانيا باعتبارها حليفًا

(*) الطرَّاد cruiser سفينة حربية سريعة، أكبر حجمًا من المدمِرة destroyer، وأصغر حجمًا وأقل تسليحًا من البارجة battleship. (المُعرِّب)

محتملاً)، بينما مثَّل نمو البحرية الألمانية، من خلال نقاط تمركزها القريبة من بريطانيا، خطرًا وجوديًا فريدًا. انتشار الإحساس بانعدام الثقة، وتفشي الخوف من البرنامج البحري الألماني، أسهما في تشكيل وجهة النظر البريطانية التي ترى في برلين العدو الأساسي. وما أن تمكَّن هذا المفهوم من عقلية البريطانيين، أصبح المعيارَ الوحيدَ الذي يقيس به البريطانيون سائر تصرفات ألمانيا. ومن بين خصوم بريطانيا الكثيرين، كانت ألمانيا الوحيدة التي تستطيع الإخلال بتوازن القوى في أوروبا، وبناء قدرات بحرية يمكن أن تهدد بقاء بريطانيا(108). ورغم أن تيربيتز تقبَّل حتى هذه اللحظة تفوُّق خصمه في بحر الشمال عام 1913، كان البريطانيون يعلمون أن هذا التنازل ينبع، في الأساس، من عقبات داخلية ومالية، وأنه، عندما تتغير هذه الظروف، سوف تتغير خطط تيربيتز(109). لم يخفف ما أسماه البعض انتصار بريطانيا في السباق البحري مخاوفَها من الخطر الذي تمثله ألمانيا. لهذا، عندما غزت ألمانيا فرنسا والبلدان المنخفضة(*) عام 1914، بدت الحرب الخيار الأفضل، في مواجهة بديل يتمثل في نجاح ألمانيا في فرض هيمنتها على القارة الأوروبية، ومن ثمَّ تهديد بقاء بريطانيا.

هناك ديناميَّةٌ ثيوسيديديزيةٌ ثانية وموازية تمثل مفتاحًا لفهم سبب دخول بريطانيا وألمانيا الحرب عام 1914. فبينما كان صعود ألمانيا يثير مخاوف البريطانيين، كانت برلين ترى تهديدًا ضاغطًا لمصالحها، يتمثل في روسيا، القوة الصاعدة التي تمثِّل تحديًا لوضع ألمانيا باعتبارها القوة البرية الأعظم في أوروبا(110). الهزيمة في الحرب ضد اليابان عام 1905، وفترة الاضطرابات الثورية المتواصلة والمتصاعدة، وجهتا إلى روسيا ضربة ساحقة. غير أنها سرعان ما برزت كقوة عسكرية حديثة تُبعَث من جديد عند الحدود الألمانية. ففي عام 1913، أعلنت روسيا ما أسمته البرنامج الكبير لتوسيع جيشها من خلال عدد من المبادرات. كان من المُتوقَّع أن يتجاوز الجيش الروسي نظيره الألماني بنسبة ثلاثة إلى واحد، مع حلول

(*) البلدان المنخفضة Low Countries اسم يُطلق على هولندا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ. (المُعرِّب)

عام 1917. في الوقت نفسه، كانت الخطة الألمانية للحرب على جبهتين تتطلب تحقيق انتصار سريع على فرنسا، قبل الاتجاه إلى الشرق لمواجهة القوة الروسية العملاقة البطيئة الخطوات. ولكن، مع حلول عام 1914، كانت الاستثمارات الفرنسية الكثيفة في مجال تطوير خطوط القطارات الروسية، قد سمحت بخفض الوقت الكافي لحشد القوات الروسية إلى أسبوعين، بدلاً من الأسابيع الستة التي كانت الخطة الألمانية قد بُنيت على أساس أن روسيا سوف تحتاج إليها[111].

التطورات السريعة في روسيا، جنبًا إلى جنب مع الإحساس العام بحتمية قيام حرب أوروبية في نهاية المطاف، شجعت القيادات السياسية والعسكرية الألمانية على اتخاذ مواقف متشددة. فقد تبنى البعض فكرة شن حرب وقائية ضد روسيا، حيث لا تزال إمكانية الانتصار قائمة، خاصة أن حربًا ناجحة كهذه يمكن أن تسمح لألمانيا بكسر حالة التطويق التي تعاني منها. وفي عام 1914، سنحت للألمان فرصة للقضاء على نفوذ روسيا في البلقان، أو لدحر القوة العسكرية الروسية قبل فوات الأوان[112].

في 28 حزيران/يونيو، اغتيل الأرشيدوق فرانز فرديناند ولي عهد إمبراطورية النمسا–المجر على يد شاب من القوميين الصرب في البوسنة. وخلال المواجهة التي جرت بين النمسا–المجر وصربيا عقب الاغتيال، وقفت روسيا وراء صربيا. وفي تموز/يوليو، منحت برلين فيينا ما أسماه المؤرخون "الصك الأسود السيِّئ السمعة"، الذي طمأنت من خلاله النمسا–المجر إلى أنها سوف تتلقى، وفقًا لنص كلمات القيصر، "دعم ألمانيا الكامل" في ردها الثأري على صربيا، حتى لو أسفر ذلك الدعم عن "تعقيدات أوروبية خطيرة"[113].

كانت ألمانيا مستعدة للمخاطرة بخوض حرب ضد روسيا، ومن ثَّمَّ ضد فرنسا، عام 1914، أولاً بسبب خوفها من انهيار حليفتها الوحيدة إذا لم تنجح النمسا–المجر في سحق أعدائها في البلقان، وثانيًا بسبب احتمال أن تصبح عاجزة أثناء أي صراع مع موسكو في المستقبل. وهكذا،

بتشجيع من دعم برلين لها، وجهت فيينا، في 23 تموز/يوليو، إنذارًا صارمًا إلى بلغراد، يتضمن عدة مطالب من بينها أن تسمح صربيا لضباط من النمسا–المجر بدخول أراضيها، سعيًا وراء اعتقال أعضاء الشبكة التي ينتمي إليها منفِّذ عملية الاغتيال. كان الألمان يدركون أن فيينا قد صاغت الإنذار بأسلوب يجبر بلغراد على رفضه. لهذا كانت التعليمات الصادرة إلى سفير النمسا–المجر في بلغراد تنص على أنه "أيًّا كان الرد الصربي على الإنذار، يجب أن يُفضي الأمر إلى قيام حرب". بعد أسبوع من الدبلوماسية العشوائية وغير المُمَنْهَجَة، بدأت الأحداث تكتسب زخمًا خاصًا، لتُدْخِل أولئك الذين يخشون عواقب قرارات سابقة، في دوامة من القلق. وعندما عاد القيصر من إجازته، وقرأ الرد الصربي الذي تضمَّن موافقة صربيا على كل ما تضمنه إنذار النمسا–المجر من مطالب، أخبر فيلهِلم وزير الحربية في حكومة بلاده أن هذا الرد قد أسقط "كل مبررات الحرب". غير أن وزير الحرب رد قائلاً: "إن الأمر قد خرج عن سيطرة جلالتكم"(114). في اليوم نفسه، أعلنت فيينا الحرب على بلغراد.

في إطار ما يعرف اليوم بأزمة تموز/يوليو، أصبحت الديناميَّات الثيوسيديديزية المُتزامنة بين لندن وبرلين، وبين برلين وموسكو، متشابكة. فإصرار ألمانيا على دعم حليفتها، والمبادرة إلى إيقاف روسيا الصاعدة، قادها إلى إعلان الحرب على قيصر روسيا وحليفته فرنسا. كانت خطة رئيس الأركان الألماني التي ترمي إلى إلحاق هزيمة سريعة بفرنسا، تتطلب غزو كل من لوكسمبورغ وبلجيكا. ولكن عندما غزت القوات الألمانية بلجيكا، في طريقها نحو سحق فرنسا، اعتبرت بريطانيا أن ألمانيا قد تجاوزت خطًا أحمر.

أثار احتمال انتصار ألمانيا على فرنسا مخاوف لندن من قيام هيمنة أوروبية أمضت قرونًا طويلة محاولةً الحيلولة دون قيامها. كما ساعد انتهاك حياد بلجيكا - الذي كانت بريطانيا قد تعهدت بحمايته وفقًا لبنود معاهدة لندن Treaty of London عام 1839 – على شحن الرأي العام البريطاني، وتوحيد الحزب الليبرالي الحاكم، الذي كان منقسمًا على نفسه بشأن قرار

المشاركة في هذا الصراع. غير أن بريطانيا دخلت هذه الحرب، في المقام الأول، بسبب إدراكها أن مصالحها الوطنية الحيوية سوف تتعرض للخطر، إذا أصبحت ألمانيا القوة المهيمنة على أوروبا. كانت العوامل الأمنية التي دفعت كلاً من بريطانيا وألمانيا إلى الحرب واضحة. وكما قال وزير الخارجية البريطاني إدوارد غراي أمام البرلمان يوم 3 آب/أغسطس: "لن تقبل بريطانيا أن يكون غرب أوروبا بكامله معاديًا لنا... بسبب سقوطه تحت هيمنة قوة واحدة منفردة"[115].

وقد وصف بول كينيدي هذه المسألة بعناية عندما قال: "إن قادة بريطانيا وألمانيا كانوا يعتبرون أن الصدام الذي وقع بينهما عام 1914 مجرد استمرار لما يجري بينهما منذ خمسة عشر أو عشرين عامًا"، وأن الحرب بينهما قد بدأت "لأن القوة الأولى - بريطانيا - تريد أن تحافظ على الأمر الواقع القائم، بينما تتخذ القوة الثانية - ألمانيا - عدة خطوات لتغيير هذا الوضع، بسبب خليط من الدوافع الهجومية والدفاعية[116].

تحويل التيّار القاتل

من بين الظواهر المتناقضة في عام 1914، الفصلُ بين التحذير من الحرب والاستعداد لها من ناحية، والصدمةُ من سرعة سقوط القارة في حالة من الفوضى من ناحية أخرى[117]. فقد قُتِل الأرشيدوق فرانز فرديناند في 28 حزيران/يونيو. وفي 9 تموز/يوليو، شكَّكَ أقدم مسؤول في وزارة الخارجية البريطانية "في ما إذا كانت النمسا ستتخذ أي إجراء ذي طبيعة خطيرة"، وتوقع "أن تهْدأ العاصفة". وكان تركيز تشرشِل ومجلس وزرائه منصبًا، بشكل أساسي، على مخاطر اشتعال حربٍ أهليةٍ في أيرلندا، حتى ساعة إبلاغه بالإنذار النمساوي الذي وُجِّه إلى صربيا في 25 تموز/يوليو[118]. وبعد أقل من أسبوعين، اشتعلت الحرب، ليس في أيرلندا، ولكن في كافة ربوع أوروبا.

غزت ألمانيا لوكسمبورغ في 2 آب/أغسطس، ثم غزت بلجيكا في 4 آب/أغسطس. في ذلك اليوم، طلبت لندن من ألمانيا الانسحاب من بلجيكا قبل الحادية عشرة مساء بالتوقيت الإنجليزي. ووجد تشرشِل نفسه في مقر قيادة البحرية البريطانية، ينتظر انقضاء المهلة التي حددها الإنذار البريطاني. وعندما أعلنت دقات ساعة بيغْ بِنْ Big Ben تمام الحادية عشرة، دون أن تقبل ألمانيا الانسحاب احترامًا لحياد بلجيكا، انتقل تشرشِل إلى الخطوة التالية. فأُرسِلت برقية الحرب إلى سفن الأسطول الملكي البريطاني حول العالم تطلب منها: "بدء الأعمال العدائية ضد ألمانيا"[(119)].

عزز الضغط البنيوي احتمالات اشتعال الحرب التي دمرت أوروبا، لكنه لم يجعلها حتمية. وقد اكتشف قادة كثيرون، لاحقًا، أنه من المريح الاعتقاد بأن ما من شيء كان يمكنه منع انفجار الصراع. غير أن تشرشِل لم يكن واحدًا من هؤلاء. لقد بذل تشرشِل، الذي كان مؤرخًا بارعًا بقدر ما كان صانعَ سياساتٍ عظيمًا، جُهدًا مُضنيًا ليفهم ما الذي فعله هو ونظراؤه من السياسيين، وما الذي فشلوا في عمله. وبعد عشر سنوات من إصدار برقية الحرب، نشر تشرشِل كتابه "الأزمات العالمية"، وهو عمل يتكوَّن من عدة مجلدات من التحليلات الثاقبة، التي كُتبت بلغة راقية تصفُ "الطريقة التي سعيتُ من خلالها إلى الوفاء بحصتي من تلك المسؤوليات الخطيرة"[(120)].

هل كان بالإمكان تجنُّب الحرب؟ اعترف تشرشِل بأن التأمل المتأني في جذور الصراع يترك "إحساسًا بالسيطرة المعيبة والمنقوصة للأفراد على الشؤون العالمية". غير أنه رفض الاستسلام لفكرة حتمية تلك الحرب. وعدّدَ الفرص الضائعة التي كان بالإمكان استخدامها لتهدئة المخاوف الأمنية المعقولة للجانبين، ولمنع، "أو على الأقل، تأخير النزوح الجماعي القاتل من ميادين العمل الدبلوماسي"، وربما "لتحويل التيار القاتل" الذي كان يتدفق باتجاه الحرب. وأطلق تشرشِل لخياله العنان متسائلاً: "هل كان بإمكاننا نحن في إنجلترا، ربما ببعض الجهد، وبقليل من التضحية بمصالحنا المادية،

وبمبادرة يصعب رفضها، تُطرح من منطلق الصداقة والقيادة معًا، أن نُصلح ما بين فرنسا وألمانيا، وأن ننشئ، في الوقت نفسه، تلك الرابطة الكبيرة التي لا يمكن بدونها تحقيق عظمة أوروبا ونشر السلام في ربوعها، بطريقة آمنة؟ أجاب تشرشِل: "لا أملك الإجابة"[121].

وبعد ما يقرب من قرن على نشر انطباعات تشرشِل حول تلك المعضلة، لا نزال عاجزين عن التوصل إلى إجابات حول الطريقة التي كانت بريطانيا تستطيع من خلالها مقاومة التيار الذي كان يسحب أوروبا كلها نحو الحرب، مع الحفاظ على المصالح البريطانية الحيوية[122]. التوازي بين هذه القضية والتحديات الحالية التي تمثلها الصين لم يصل بعد إلى حالة التطابق، لكنه لا يزال مثيرًا للقلق. فعلى غِرار ألمانيا، تشعر الصين بأنها سُلِبت مكانتها الصحيحة من قِبَل دولٍ كانت قويةً، عندما كانت هي ضعيفةً. وعلى غِرار ألمانيا أيضًا، تمتلك الصين من الرغبة والوسائل ما تستطيع أن تغيّر به الأمر الواقع.

في الوقت نفسه، وعلى غِرار بريطانيا، تشعر الولايات المتحدة بالغيرة على مكانتها على الساحة العالمية، وتعمل على الحفاظ على تلك المكانة، وقد عقدت العزم على مقاومة محاولات الصينيين التي تهدف إلى تعديل النظام السياسي العالمي. من الطبيعي أن تعتبر كل دولة من الدولتين أن الأعمال التي تقوم بها عادلة ومنطقية، وأن أعمال الدولة الأخرى مثيرة للشك وخطيرة. وكما سوف نرى في الفصل التالي، من الممكن أن يتفهم الأمريكيون "صين" اليوم بشكل أفضل، لو كانوا على درايةٍ بسلوك قوة صاعدة أخرى، كانت أكثر جرأة وأصعب مِراسًا خلال مرحلة مماثلة من مراحل نموها وتطورها: الولايات المتحدة في عهد ثيودور روزفلت.

آنذاك، نجحت لندن، رغم العدوانية الأمريكية، في تجنُّب الدخول في حرب مع الولايات المتحدة الصاعدة، بل ونجحت في مُداواة الجروح القديمة، وتمهيد الأرض لصداقة مستقبلية وثيقة العُرى. ولكن من قبيل

المجازفة الحمقاء أن نطمئن إلى أن تلك المجموعة من العوامل غير الاعتيادية التي أفرزت نتائج سعيدة للدولتين، يمكن أن تكرر نفسها. إن ما تشهده كل من بيجين وواشنطن اليوم من انتشارٍ لتفاؤل في غير محله، وسيادة لإحساسٍ بأن كل شيء على ما يرام، سوف يؤدي، على الأرجح، إلى نشوء ديناميكية تشبه، بشكل وثيق، الديناميكية التي سادت العلاقة بين بريطانيا وألمانيا، ولا تشبه، بأي شكلٍ، الديناميكية التي سادت العلاقة بين بريطانيا وأمريكا وتُعرف بالتقارب الكبير great rapprochement.

إن حجم الكارثة التي حلَّت بأوروبا، وإمكانيةَ تكرارِ وقوعها من خلال تنافس القرن الحادي والعشرين الكبير، يجب أن يكون حافِزًا لنا على اتباع نموذج تشرشِل. يجب أن نفكِّر خارج الصندوق ونحن نتساءل عما إذا كان إجراء تغييرات على ما يعتبره قادة البلدين ضروريًا، يمكن أن يُحوِّل التيَّار القاتل في عصرنا الحالي. يجب أن نُصلي سائلين الله أن نتجنب يومًا نردد فيه إجابة المستشار الألماني بيتمان هولفيغ المحزنة، عندما سُئل عن سبب الحرب في أوروبا: "آه، لو كنا، فقط، نعرف"[123].

هوامش

الفصل الرابع

(1) تشرشِل: قصة حياة Churchill: A Life، تأليف مارتين غيلبِرت Martin Gilbert، 1991.

(2) سلاح البحرية: الاستراتيجية، التكتيك، والتكنولوجيا في البحرية الإمبراطورية اليابانية Kaigun: Strategy, Tactics, and Technology in the Imperial Japanese Navy، تأليف ديفيد إيفانس David Evans ومارك بيتّي Mark Peattie، 1997.

(3) خلال شهرين فقط من تعيينه، أعلن تشرشل أن "الطيران الحربي يجب أن يكون أشرف مهنة يسعى الشاب الإنجليزي إلى احترافها، لأنها الأخطر". وكي يُقْرِن أقواله بالأفعال، مارس الطيرانَ الحربي بنفسه. ولكي يضمن للسفن الحربية مصادر للطاقة يمكن الاطمئنان إلى توفرها في أي وقت، قاد تشرشل بنفسه عملية أفضت إلى امتلاك الحكومة البريطانية للغالبية العظمى من أسهم الشركة البريطانية الفارسية للبترول Anglo-Persian Oil Company، التي عُرفت في ما بعد باسم بريتيش بِتْروليوم British Petroleum. تشرشِل: قصة حياة، تأليف مارتين غيلبِرت؛ والأزمة العالمية، الجزء الأول، تأليف ونستون تشرشِل، 1923.

(4) الأزمة العالمية، تأليف ونستون تشرشِل.

(5) في كثير من حلقات العمل التي عُقِدت داخل مدرسة كينيدي التابعة لجامعة هارفارد، اكتشفنا أن المتخصصين في مجال الأمن القومي يجدون صعوبة بالغة في وضْع خطة قابلة للتحقيق، تهرب بها بريطانيا من هذه المعضلة، رغم إلمامنا اللاحق بحقائق وتفاصيل ما جرى منذ أكثر من قرن.

(6) كان تشرشل يرى أننا "إذا نظرنا إلى هذه القرون الأربعة من منظور تاريخي، سوف نجد أنها، بما تميزت به من ثبات على المبدأ، وسط تغيُّرات هائلة في المظاهر والحقائق، وفي الظروف والأوضاع، تستحق أن توصف بأنها واحدة من أبرز الحلقات التي يحفل بها تاريخ أي جنس، أو أمة، أو دولة، أو شعب. لقد اختارت بريطانيا طوال تلك القرون، الطريق الأكثر صعوبة. ففي كل مواجهة بين طرفين أوروبيين، من المؤكد أنه كان الأسهل، وربما الأكثر إغراء، أن تنضم إلى الطرف الأقوى، وتشاركه مكاسبه. ورغم ذلك، كانت بريطانيا تختار دائمًا الانحياز إلى الأطراف الأقل قوة، والجمع بينها في كيان مختلط، ومن ثم التغلب على الطاغية العسكري أيًا كان اسمه، وأيًا كانت الأمة التي يقودها. وهكذا حافظنا على حرية أوروبا، ونمو مجتمعاتها المتنوعة، المُفْعمة بالحيوية. وبرزنا على الساحة الدولية، بعد خوض أربعة صراعات مرعبة، بسُمْعة أوسع انتشارًا من أي وقت مضى، وإمبراطورية تتزايد اتساعًا، وأرسينا وضعًا تتمتع فيه الدول الضعيفة بالأمن والاستقلال". الحرب العالمية الثانية، الجزء الأول: العاصفة التي تتجمع The

Second World War, vol. 1: The Gathering Storm، تأليف ونستون تشرشل، 1948.

(7) العوامل والأحداث التي أدت إلى قيام الحرب معقدة بشكل هائل، وغالبًا ما تبدو محاولات تحديدها نوعًا من المبالغة. هذه عينة صغيرة من العوامل التي اتهِمت بلعب دور رئيسي في اندلاع الحرب: المعايير الذكورية للشرف، وخوف الصفوة من فوضى محلية لا يمكن حلُّها إلا من خلال حرب وطنية، والاتجاهات القومية، واتجاهات الداروينيّة الاجتماعية بنزعتها القدَرية أو الجبرية، وفي بعض الأحيان مجرد تمجيد ما تمّ تصويره على أنه صراع مستقبلي لا مفر منه، وطائفة تعتنق مذهبًا عدوانيًا، أو التعبئة العسكرية المنتظمة والمتعمدة التي تعزز تشدد الدبلوماسية المحلية، بالإضافة إلى عوامل أخرى. المهم، لا يوجد عنصر واحد، يكفي لتفسير حدث معقد كالحرب. يمكن مراجعة السائرون نيامًا: كيف مضت أوروبا إلى الحرب في 1914 Sleepwalkers: How Europe Went to War in 1914، تأليف كريستوفر كلارك Christopher Clark، 2012؛ والحرب التي أنهت السلام: كيف تخلت أوروبا عن السلام لتخوض الحرب العالمية الأولى The War That Ended Peace: How Europe Abandoned Peace for the First World War، تأليف مارغريت ماكميلان Margaret MacMillan، 2013. لا يهدف هذا الفصل من الكتاب إلى الحكم بين المدارس التاريخية المتنافسة، بترجيح إحداها، أو إلقاء المسؤولية على لاعبين تاريخيين بعينهم، كما لا يهدف إلى شرح الحرب بكافة تعقيداتها، لكنه يسعى إلى إظهار كيف أدى الضغط الثيوسيديدزي إلى تورط بريطانيا وألمانيا في حرب غيَّرت وجه العالم إلى الأبد.

(8) الأزمة العالمية، تأليف ونستون تشرشِل.

(9) يمكن مراجعة تشرشِل: قصة حياة، تأليف مارتين غيلبِرت. وفي هذا الشأن يقول كريستوفر كلارك، في كتابه السائرون نيامًا: "كان أبطال عام 1914 يسيرون نيامًا، ينظرون لكنهم لا يرون، كانوا مسكونين بالأحلام، لكنهم مَعميُّون عن رؤية حقيقة الرعب الذي يوشكون على إطلاقه في جميع أنحاء العالم". ولمعرفة كيف تحولت أحلام العسكرية الألمانية إلى كابوس، ثم إلى حقيقة واقعة، يمكن مراجعة أحلام وكوابيس: القيادات العسكرية الألمانية وصور الحرب في المستقبل، Dreams and Nightmares: German Military Leadership and the Future of Warfare 1871-1914، تأليف شتيغ فورستر Stig Förster، وهو جزء من كتاب تَوقُّع حرب شاملة: التجربتان الألمانية والأمريكية Anticipating Total War: The German and American Experiences, 1871-1914.

(10) تشرشِل: قصة حياة، تأليف مارتين غيلبِرت.

(11) الاسم الكامل لمذكرة كرو هو: مذكرة حول الوضع الحالي لعلاقات بريطانيا مع كل من فرنسا وألمانيا Memorandum on the Present State of British Relations with France and Germany. ويمكن الاطلاع على نصها الكامل ضمن الوثائق البريطانية الخاصة بمقدمات وجذور الحرب العالمية الأولى، 1898-1914، المجلد 3: اختبار التوافق British Documnets on the Origins of the war 1898-1914, vol. 3: The Testing of the Entente، 1928.

(12) بعبارة أكثر دقةً، وكما أظهرت الوثائق الحكومية لاحقًا، أعرب الملك مرارًا عن قلقه بسبب ما اعتبره الموقف غير الودي المتعمَّد تجاه ألمانيا، الذي يتناقض مع ما يراه من رغبة عارمة في الجري وراء فرنسا، وتنفيذ أي شيء يطلبه الفرنسيون. صعود العداء الأنجلو–ألماني 1860-1914 The Rise of the Anglo-German Antagonism، تأليف بول كينيدي 1980.

(13) العملاق المُنهَك: بريطانيا وتجربة الانحدار النسبي 1895-1905 The Weary Titan: Britain and the Experience of Relative Decline 1895-1905، تأليف آرون فريدبيرغ Aaron Friedberg، 1988.

(14) سجلت الكاتبة الأمريكية كانديس ميلارد Candice Millard تفاصيل مغامرات تشرشل في جنوب أفريقيا في كتابها بطل الإمبراطورية: حرب البوير، والهروب الجريء، وصُنْع ونستون

تشرشِل Hero of the Empire: The Boer War, a Daring Escape, and the Making of Winston Churchill، 2016.

(15) يقول بول كينيدي في كتابه صعود وانهيار القوى العظمى: "يتفق المراقبون المعنيون بالشؤون الدولية على أن إيقاع التغيرات الاقتصادية والسياسية كان يزداد سرعةً، وهو الأمر الذي يرجح أن النظام الدولي سوف يصبح أقل ثباتًا واستقرارًا من ذي قبل. لقد تعرضت موازين القوى لكثير من التعديلات، الأمر الذي أدى إلى مزيد من حالات عدم الاستقرار، بل وبعض الحروب. وكما يقول ثيوسيديديز في كتاب الحرب البيلوبونيزية، إن ما جعل الحرب أمرًا حتميًا هو تزايد قوة أثينا، والخوف الذي سبَّبه ذلك لأسبرطة. ولكن مع حلول الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كانت التغيرات التي تؤثر على القوة العظمى الحاكمة، أوسع انتشارًا، وأكثر حدة وسرعة، من أي وقت مضى. كان توفُّر شبكة عالمية للتجارة والاتصالات، يعني أن كل جديدٍ في مجالات العلم والتكنولوجيا، وأي تقدم في وسائل الإنتاج، يمكن أن يُنْقل أو يَنْتَقِل من قارة إلى أخرى في غضون أعوام قليلة".

(16) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(17) الحرب العالمية الأولى، الجزء الأول The First World War, vol. 1، تأليف هيو شتراخان Hew Strachan، 2001.

(18) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(19) المرجع السابق.

(20) بريطانيا وتوازن القوى في أمريكا الشمالية، Britain and the Balance of Power in North America, 1815-1908، تأليف كينيث بورن Kenneth Bourne، 1979.

(21) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(22) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.

(23) انهيار نظام بِسمارك الأوروبي: العلاقات الفرنسية–الروسية، The Decline of Bismarck's European Order, 1875-1890، تأليف جورج كينَّان George Kennan.

(24) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(25) في عام 1910، وصل إجمالي الناتج المحلي البريطاني إلى 210 مليارات دولار، (وهو رقم لا يتضمن الإمبراطورية بكاملها) بينما بلغ إجمالي الناتج المحلي الألماني 207 مليارات دولار. مزيد من التفاصيل في الفصل المعنون "مستويات الناتج المحلي في 12 دولة من دول أوروبا الغربية، 1869–1918"، في كتاب الاقتصاد العالمي: إحصائيات تاريخية، تأليف آنغوس ماديسون.

(26) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(27) صعود العداء الأنجلو–ألماني، تأليف بول كينيدي.

(28) المرجع السابق.

(29) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان. كما يمكن مراجعة السائرون نيامًا، تأليف كريستوفر كلارك.

(30) التاريخ الاقتصادي لأوروبا في القرن التاسع عشر: التنوع والتصنيع An Economic History of Nineteenth-Century Europe: Diversity and Industrialization، تأليف إيفان بيريند Ivan Berend، 2012.

(31) السائرون نيامًا، تأليف كريستوفر كلارك.

(32) الهمجية والحضارة: تاريخ أوروبا في العصر الحالي Barbarism and Civilization: A History of Europe in Our Time، تأليف بِرنارد واسِّرشتايْن Bernard Wasserstein، 2007.

(33) طقوس الربيع: الحرب العظمى ومولد العصر الحديث Rites of Spring: The Great War and

the Birth of the Modern Age، تأليف مودريس إكشتاينز Modris Eksteins، 1994. للاطلاع على مناقشة حول عداء جامعات الصفوة البريطانية وخريجيها للأعمال والصناعة، على العكس من مؤسسات التعليم العالي في ألمانيا والولايات المتحدة، يمكن مراجعة كتاب الثقافة الإنجليزية وتدهور الروح الصناعية 1850-1980، English Culture and the Decline of the Industrial Spirit, 1850-1980، تأليف مارتِن ج. وينر Martin J. Wiener، 1981.

(34) حتى نفهم، على مستوى شخصي، مدى ما يتمتع به الألمان من براعة علمية، يكفي أن نتدبر حقيقة أن نصف ما تحتوي عليه أجسادنا من ذرات نتروجين تم استخلاصها في الأصل من الغلاف الجوي، وتحويلها إلى بلورات من خلال عملية هابر بوش Haber-Bosch Process، التي ابتُكرت عام 1913، وهي العملية التي تنتج اليوم الأسمدة الكيميائية اللازمة لنصف الإمدادات الغذائية للبشرية. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة كتاب ستة مركَّبات كيميائية غيَّرت الزراعة Six Chemicals That Changed Agriculture، تأليف روبِرت ل. زيمدال Robert Zimdahl، 2015.

(35) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(36) إذا كانت ألمانيا قد حضرت إلى المائدة متأخرة، فإن الجزء الأكبر من أسباب هذا التأخير يرجع إلى أن بِسْمارك كان متحفظًا تجاه المغامرات الاستعمارية، وكان يصف ألمانيا بأنها "قوة مُكْتفية" ذات اهتمامات مختلفة. ففي أوج التكالُب الاستعماري على أفريقيا الذي بدأ عام 1880، أشار بِسْمارك، الذي كان يتحدث مع أحد المسْتكشفين، إلى موقع على خريطة وُضِعت أمامه، وقال: "خريطة أفريقيا بالنسبة لي موجودة هنا، في أوروبا. فهنا تقع روسيا، وهنا تقع فرنسا، وهنا نقع نحن، في المنتصف بينهما تمامًا. هذه هي نسختي الخاصة من خريطة أفريقيا". لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ وصعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي. وللتعرف على الاستياء الذي أصاب الألمان بسبب حرمانهم من تبوُّء المكانة العالمية التي تتناسب مع قوتهم الوطنية، يمكن مراجعة كتاب: ألمانيا والحرب القادمة Germany and the Next War، الذي صدرت طبعته الأولى عام 1912، وهو كتاب واسع الانتشار، كتبه الجنرال فريدريش فون برناردي Friedrich von Bernhardi، ففي فصل يحمل عنوان قوة السقوط The Power of Downfall، يخاطب الجنرال برناردي كتائب القراء قائلًا: "لقد قاتلنا في الحروب السابقة لتحقيق وحدتنا القومية، وتأكيد موقعنا بين القوى الأوروبية الكبرى. الآن، يتحتم علينا أن نقرر ما إذا كنا نرغب في أن نُشيِّد إمبراطورية عالمية ونحافظ عليها، وأن نوفر للروح والأفكار الألمانية الاعتراف الذي تستحقه، والذي لا تزال محرومة منه حتى الآن".

(37) الحرب العالمية الأولى، تأليف هيو شتراخان.

(38) يقول المؤرخ الأمريكي روبرت ك. ماسِّي Robert K. Massie، في كتاب الدَّرِدْنوط: بريطانيا، وألمانيا، ومجيء الحرب العظمى Dreadnought: Britain: Germany, and the Coming of the Great War: إن القيصر أقال بِسْمارك لأسباب داخلية بحتة، لا علاقة لها بالسياسة الخارجية.

(39) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.

(40) صعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي.

(41) السائرون نيامًا، تأليف كريستوفر كلارك.

(42) لم يحدث على الإطلاق أن طُرِح تعريف ثابت متسق مع نفسه لفكرة الفيلتبوليتيك، على نحو ما ورد في السائرون نيامًا، تأليف كريستوفر كلارك، والحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.

(43) السائرون نيامًا، تأليف كريستوفر كلارك.

(44) صعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي.
(45) عُقْدة كوبنهاغن The Copenhagen Complex، بحث لجوناثان شتاينبِرغ Jonathan Steinberg نُشر في تموز/يوليو 1966 في مجلة التاريخ المعاصر Journal of Contemporary History.
(46) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.
(47) الالتزام القاريّ The Continental Commitment، تأليف مايكل هاورد Michael Howard، 1989.
(48) نشأت الملكة فيكتوريا نفسها وهي لا تتحدث سوى اللغة الألمانية طوال سنوات طفولتها الأولى. الدَّرِدْنوط: بريطانيا، وألمانيا، ومجيء الحرب العظمى، تأليف روبرت ك. ماسِّي؛ الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ ثيودور روزفلت وعصره: كما يظهران في رسائله الخاصة Theodore Roosevelt and His Time: Shown in His Own Letters، تأليف جوزيف بكْلين بيشوب Joseph Bucklin Bishop، 1920. بعد لقائهما في برلين بوقت قصير، التقى القيصر وروزفلت مرة أخرى في لندن، أثناء مشاركتهما في مراسم تشييع الملك إدوارد السابع. وقد خلف إدوارد السابع على العرش ابنُه جورج الخامس.
(49) لم يتحقق لمدينة كيل أبدًا ما كان لمدينة كاوز من بريق. كان صبر الملكة فيكتوريا قد بدأ في النفاد، عندما علمت بما يوجهه القيصر من انتقادات إلى إدوارد في وقت مبكر من حكمه، بسبب ما أسماه عدم الاحترام الكافي تجاه ابن شقيقته. وقالت الملكة: "لقد كانت علاقتنا مع فيلهِلم حميمية على الدوام، غير أنه من الجنون المطلق أن يتصور أننا سوف نعامله في لقاءاتنا الخاصة كما نعامله في العلن، ونناديه بجلالة الإمبراطور!". الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ والدَّرِدْنوط: بريطانيا، وألمانيا، ومجيء الحرب العظمى، تأليف روبرت ك. ماسِّي.
(50) ثيودور روزفلت وعصره: كما يظهران في رسائله الخاصة، تأليف جوزيف بكْلين بيشوب؛ والحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.
(51) عُقْدة كوبنهاغن، تأليف جوناثان شتاينبِرغ.
(52) يمكن مراجعة الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان، للتعرف على نماذج أخرى من الاستعارات ذات الصلة بالبحر، التي بَشَّرت ببناء أسطول فيلهِلم.
(53) كان من بين من آمنوا بما كتبه ماهان، الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت، كما كان الكتاب بمثابة دليل إرشادي لمؤيدي عملية توسيع الأسطول الأمريكي التي جرت على مدار العقدين التاليين لصدوره. الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.
(54) عقدة كوبنهاغن، تأليف جوناثان شتاينبرغ.
(55) السائرون نيامًا، تأليف كريستوفر كلارك.
(56) صعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي.
(57) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.
(58) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.
(59) عقدة كوبنهاغن، تأليف جوناثان شتاينبرغ.
(60) صعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي؛ والدَّرِدْنوط: بريطانيا، وألمانيا، ومجيء الحرب العظمى، تأليف روبرت ك. ماسِّي.
(61) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.
(62) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.
(63) صعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي.
(64) تكشف هذه العبارة عن ضيق أفق تيربيتز، حيث يبدو أنه لم يكن يتوقع أن تلاحظ بريطانيا هذا التلميح الواضح جدًا، إلى أن ألمانيا تضعُها نُصْب أعينها. الحرب التي أنهت السلام، تأليف

مارغريت ماكميلان، وقوة ألمانيا البحرية: صعودها، تطورها، وأسسها الاقتصادية German Sea-Power: Its Rise, Progress, and Economic Basis، تأليف أرشيبالد هورد Archibald Hurd وهنري كاسل Henry Castle، 1913.

(65) عندما طلب القيصر من حكومته عام 1897 أن تُعِدّ خطة سرية للحرب ضد بريطانيا، اقترح العرضُ الحكومي الذي رُفِع إليه شن هجوم مفاجئ للاستيلاء على بلجيكا المحايدة وهولندا، واستخدام أراضي الدولتين منصة لغزو المملكة المتحدة. وقد حظِيت الخطة بتأييد واسع النطاق داخل البحرية الألمانية، غير أن تيربيتز رفضها قائلًا إن مثل هذا الغزو يُعَدُّ عملًا جنونيًا، إذا تَمَّ قبل أن يصبح الأسطول أكثر قوة. عقدة كوبنهاغن، تأليف جوناثان شتاينبرغ. (انتهى هامش المؤلف). ألا يتعارض هذا الرأي مع وجهة نظر مارغريت ماكميلان التي تتهم تيربيتز بضيق الأفق؟ (المُعرِّب)

(66) بعد الحرب قال تيربيتز: "إن معاهدة أُبرمت وفقًا للرغبة الإنجليزية في السيطرة، ما كان لها أن تكون على الإطلاق متوافقة مع الاحتياجات أو الأولويات الألمانية. ولتحقيق هذا التوافق، كان من الضروري أن تتحقق المساواة بين الطرفين مسبقًا. الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ وصعود العداء الأنجلو–ألماني، تأليف بول كينيدي.

(67) رغم أن نمو أسطوله العظيم سوف يستغرق بعض الوقت، كان القيصر يتطلع إلى اليوم الذي يصبح فيه قادرًا على التعبير عن نفسه بالطريقة التي تناسبه، أو كما أخبر السفير الفرنسي: "عندما يكتمل بناء قوتي البحرية بعد عشرين عامًا، سوف أتحدث بلغة أخرى مختلفة". الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ والدِّرِدْنوط: بريطانيا، وألمانيا، ومجيء الحرب العظمى، تأليف روبرت ك. ماسِّي؛ والحرب العالمية الأولى، تأليف هيو شتراخان.

(68) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ والقيصر فيلهِلم الثاني: إمبراطور ألمانيا الأخير Kaiser Wilhelm II: Germany's Last Emperor، تأليف جون فان دير كيستي John Van der Kiste، 1999؛ والأسطول التَرَفِيّ: البحرية الإمبراطورية الألمانية، 1888-1918 Luxury Fleet: The Imperial German Navy, 1888-1918، تأليف هولغِر هـ. هيرفيغ Holger H. Herwig، 1987.

(69) القيصر فيلهِلم الثاني: إمبراطور ألمانيا الأخير، تأليف جون فان دير كيستي، والأسطول التَرَفيّ: البحرية الإمبراطورية الألمانية، 1888-1918، تأليف هولغِر هـ. هيرفيغ.

(70) كانت تقديرات تيربيتز تؤكد أن ألمانيا تستطيع تشييد قوة بحرية هائلة في مياهها الإقليمية، دون أن يستطيع البريطانيون ملاحظة ذلك، ودون أن يكونوا قادرين على الرد. وقد أثبتت الأيام أن تلك التقديرات كانت خاطئة منذ اللحظة الأولى. صعود العداء الأنجلو–ألماني، تأليف بول كينيدي.

(71) الطريق البحري نحو الهاوية: السباق البحري الأنجلو–ألماني، 1895-1914 The Naval Route to the Abyss: The Anglo-German Naval Race, 1895-1914، تأليف ماتيو س. سيليغمان Matthew S. Seligmann وآخرين 2015.

(72) صعود العداء الأنجلو–ألماني، تأليف بول كينيدي.

(73) المرجع السابق.

(74) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان. ادَّعى كل من القيصر فيلهِلم الثاني وتيربيتز أن ألمانيا كانت ضحية لعملية تمييز انتقائي، وهو الادعاء الذي علَّقت عليه الخارجية البريطانية بالقول: "إذا كانت الصحافة تولي تنامي قوة الأسطول الألماني اهتمامًا يفوق الاهتمام الذي توليه للتنامي المماثل في قوة الأسطول البرازيلي، وهو الأمر الذي يعتبره الإمبراطور تحيُّزًا، فإن هذا الاهتمام يرجع، دون شك، إلى قُرب السواحل الألمانية من سواحلنا، وبُعد سواحل البرازيل عنها. صعود العداء الأنجلو–ألماني، تأليف بول كينيدي.

(75) العملاق المُنهَك: بريطانيا وتجربة الانحدار النسبي 1895–1905. تأليف آرون فريدبيرغ.
(76) صعود العداء الأنجلو–ألماني، تأليف بول كينيدي.
(77) نهاية العزلة: سياسة بريطانيا الخارجية، 1900-1907 The End of Isolation: British Foreign Policy, 1900-1907، تأليف جورج و. مونغِر George W. Monger، 1963.
(78) الالتزام القاريّ، تأليف مايكل هاورد.
(79) صعود العداء الأنجلو–ألماني، تأليف بول كينيدي.
(80) المرجع السابق.
(81) القيصر فيلهِلم الثاني: حياة موجزة Kaiser Wilhelm II: A Concise Life، تأليف جون روول John C. G. Rohl، 2014.
(82) في عام 1905، صرَّح فيشر في جلسة خاصة بأن إرهاب العدو هو أفضل وسيلة لتجنُّب الحرب، وأضاف قائلًا: "إذا أكدتَ في الداخل والخارج أنك على استعداد لشن حربٍ في التو واللحظة، وأن كل عنصر من عناصر قوتك يقف على الخطوط الأمامية متأهبًا، وأنكَ تحب أن تكون البادئ بالهجوم، فتلكُم عدوَك في بطنه لتطرحه أرضًا ثم تركله بقدميك، وأنك مستعد لأن تلقي بأسراه (إن أسرت أحدًا من رجاله) في الزيت المغلي، وأن تعذب نساءه وأطفاله، سوف يبتعد الأعداء جميعًا عن طريقك. إذا كنت تريد السلام، كن جاهزًا للحرب (Si vis pace para bellum)، هذا ما قاله يوليوس قيصر Julius Caesar، وهو رأي لا يزال صحيحًا". في ذلك العام، عندما أعلن واحد من مسؤولي سلاح البحرية أن "الأسطول الملكي سوف يضرب ضربته الأولى، قبل أن يُتاح للطرف الآخر الوقت اللازم كي يعرف من الصحف أن الحرب قد أعلِنت"، حاول القيصر أن يستصدر من الحكومة البريطانية توبيخًا لهذا المسؤول. وقد لخص فيلهِلم رد فعله على ذلك التصريح في ملحوظة وجَّهها إلى أحد قادة البحرية الألمانية: "لقد كان هؤلاء الأشخاص على صواب، أقصد أولئك الذين رأوا في التهديدات البريطانية المتواصلة مبررًا لتسريع برنامجِ التسليح البحري. وأولئك الذين يريدون تجنُّب أيِّ تسريع إضافي لبرنامج تطوير أسطولنا خوفًا من إنجلترا، إنما ينكرون على الشعب الألماني أن يكون له مستقبل على الإطلاق". لم يكتف فيشر بطرح اقتراحه الخاص بالضربة الوقائية على الملك، ففي لقاء له مع قائد البحرية، عام 1905، قال: "إذا أردتَ تحطيم البحرية الألمانية، أنا مستعد لتنفيذ ذلك الآن. وإذا انتظرتَ خمسة أو ستة أعوام، سوف تكون المهمة أكثر صعوبة". عندما علِم رئيس الوزراء بحديث فيشر قال: "يجب إبلاغ فيشر بما يلي: نحن لا نريد تحطيم البحرية الألمانية، ولكن نريد أن نكون على أهبة الاستعداد لتحطيمها". أجاب فيشر: "حسنًا، لكن تذكَّر أنني حذَّرتُك". بعد انتهاء الحرب، اشتكى فيشر من أن بريطانيا لم يكن لديها لا بيت Pitt ولا بِسْمارك لإصدار أمر بشن هجوم مماثل لهجوم كوبنهاغن، غير أنه لا يوجد دليل على أن مثل هذا الاقتراح قد طُرِح، بينَ جدران القيادة البحرية، كخيار حقيقي. يمكن مراجعة كتاب: عقدة كوبنهاغن، تأليف جوناثان شتاينبرغ؛ ومقالة القيود على الحرب الوقائية قبل 1914 Restraints on Preventive War Before 1914، تأليف ويليام موليغان William Mulligan، الواردة ضمن كتاب اندلاع الحرب العالمية الأولى: البنية، السياسات، وصنع القرار The Outbreak of the First World War: Structure, Politics, and Decision-Making، 2014؛ وكتاب الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ وكتاب ذكريات Memories، تأليف جون أربوثنوت فيشر 1919.
(83) نقلًا عن كتاب الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.
(84) كذلك فشِل تيربيتز في التنبؤ بالخيار الاستراتيجي البريطاني النهائي في الحرب - وهو حصار ألمانيا بدلًا من شن معركة حاسمة ضدها – كما فشل في التنبؤ بأن الغواصات الألمانية، يمكن أن تلعب دورًا حاسمًا في الحرب، بدلًا من السفن الحربية الباهظة التكاليف، على حد تعبير مارغريت ماكميلان في كتابها الحرب التي أنهت السلام. لم يغفل آخرون داخل ألمانيا عن

العيوب والنواقص التي تعتري خطة تيربيتز، وكما يقول بول كينيدي حرفيًا في كتابه صعود العداء الأنجلو-ألماني: "مع مرور الأعوام، ثبتت صحة وجهة نظر كل فرد من هؤلاء المنتقدين، ورغم ذلك، رفض تيربيتز، على مسمع من القيصر، الاعتراف بصحة حجج منتقديه، ليمضي السباق في طريقه، متجاهلاً تلك الحجج".

(85) من الدَّرِدْنوط إلى سكابا فلو From the Dreadnought to Scapa Flow، تأليف آرثر ج. ماردر Arthur J. Marder، 1961-1970.

(86) الحرب العالمية الأولى، تأليف هيو شتراخان.

(87) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان. من ناحية أخرى، كان الاعتقاد السائد أن برلين ترى أن أيّ تردد بريطاني في ملاحقة أو معادلة عملية تشييد السفن الحربية التي تقوم بها، يرجع إلى "نقص في الروح القومية". وكما كتب تشرشِل لاحقًا في كتابه الأزمات العالمية: "هذا دليل آخر على أن هذا السباق المحموم يجب أن يتواصل حتى يحل محل تأثير المجتمع المُبالِغ في السلمية والتحضر، الذي لم يَعُد قادرًا على الحفاظ على مكانة بريطانيا العظمى في العالم".

(88) الحرب العالمية الأولى، تأليف هيو فرانسيس شتراخان.

(89) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.

(90) الدَّرِدْنوط: بريطانيا، وألمانيا، ومجيء الحرب العظمى، تأليف روبرت ك. ماسِّي.

(91) المرجع السابق.

(92) صعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي؛ وعقدة كوبنهاغن، تأليف جوناثان شتاينبرغ.

(93) واجهت الحكومة البريطانية الليبرالية - التي كانت تضم تشرشِل بعد انشقاقه عن المحافظين - ضغوطًا هائلة من أجل زيادة الميزانية المخصصة للتسليح البحري. وقد امتدت تلك الضغوط من الملك إدوارد نفسه، الذي كان معروفًا عنه رغبته في إضافة ثمان بوارج جديدة إلى الأسطول الملكي، إلى الشعار الجماهيري: "We want eight and we won't wait"، أي "نريد ثمانية، ولن ننتظر ثانية". في عام 1909، توصلت الحكومة إلى حلٍ وسط، يتمثل في تشييد أربع بوارج في العام الحالي، وأربع أخريات في العام القادم. في الوقت نفسه، أشعل اقتراح زيادة الضرائب انتفاضة سياسية، غير أن الحكومة استطاعت في النهاية تمرير مشروع القانون. الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ والحرب العالمية الأولى، تأليف هيو شتراخان.

(94) للتعرف على وجهة نظر نقدية لرؤية كْرو، يمكن مراجعة كتاب السائرون نيامًا، تأليف كريستوفر كلارك.

(95) وكما يقول هيو شتراخان في كتاب الحرب العالمية الأولى: "إن استخدام صفات مثل "مريض بالشك" أو "جبري متشائم"، لوصف حالة ألمانيا بعد عام 1905... لا يبدو استخدامًا في غير محله".

(96) صعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي.

(97) مَدافع أغسطس The Guns of August، تأليف باربارا و. توكمان Barbara W. Tuchman، 1962.

(98) في عام 1908، خاطب الملك إدوارد قائد البحرية البريطانية - الأدميرال جون فيشر مُعلِّقًا على الأعمال العدائية بين الألمان والإنجليز قائلاً: "إنه أمر مناف لمزاج المرء وميله الفطري أن نجد أنفسنا مضطرين إلى تجاهل الساكسون Saxon، لصالح السيلتيك Celtic، الذين يفترض أنهم أعداؤنا الطبيعيون. غير أنني أعترف أن الحقد الدفين الذي تضمره الدول والأعراق التي تنتمي إلى الفئة الأولى، تجعل منها، لسوء الحظ، أسوأ أعدائنا". لكنه أعرب عن أمله في أن تحفظ اليقظة البريطانية البلاد من أي خطر: "أنا لم أفقد الأمل بعد في أنهم، إذا ما تمسكنا بموقفنا بحزم، كما نفعل الآن، سوف يسلمون بما لا مهرب منه، ويتصرفون معنا بودّ. غير أننا لا يمكن

أن نتوقف للحظة واحدة عن المتابعة الدقيقة لكل ما يجري على الجانب المقابل من بحر الشمال". نقلاً عن كتاب اخش الله، ولا تخف أحدًا: مراسلات قائد الأسطول الأدميرال فيشر لورد كيلفِرستون Fear God and Dread Nought: The Correspondence of Admiral of the Fleet Lord Fisher of Kilverstone، تأليف آرثر ج. ماردِر Arthur J. Marder، 1959-1956. ويوم أن تلقّى فيلهِلم مذكرة من سفيره في لندن، يخبره فيها أن بريطانيا لن تقبل أبدًا أن تسحق ألمانيا فرنسا، وأن تبزغ على الساحة كقوة قارية مهيمنة، علّق القيصر على المذكرة مخاطبًا وزير خارجيته بقوله: "إنجلترا سوف تقف، دون أدنى شك، وراء فرنسا وروسيا ضد ألمانيا بدافع من الحقد والكراهية. إن النضال الوشيك من أجل الوجود الذي يتحتم على شعوب أوروبا الجرمانية (النمسا وألمانيا) أن تخوضه ضد السلافيين (روسيا) ومؤيديهم اللاتينيين أو الغال، سوف يكشف عن اصطفاف الأنجلو-ساكسونيين إلى جوار السلافيين. السبب: حقد دفين، وخوف من تزايد قوتنا". يمكن مراجعة أهداف ألمانيا في الحرب العالمية الأولى Germany's Aims in the First World War، تأليف فريتز فيشر Fritz Fisher، 1967. والفصل الخاص بألمانيا في كتاب جذور الحرب العالمية الأولى، الذي أعدّه هولغِر هـ. هيرفيغ، 2003.

(99) الأزمة العالمية، تأليف ونستون تشرشِل، والحرب العالمية الأولى، تأليف هيو شتراخان، وهِلْموت فون مُولتْكِ وجذور الحرب العالمية الأولى Helmuth von Moltke and the Origins of the First World War، تأليف أنّيكا مومباور Annika Mombauer، 2001.

(100) كانت هذه هي البيئة التي أنتج خلالها الجنرال فريدريش فون برناردي Friedrich von Bernhardi، الرجل الأكثر ولعًا بالقتال، كتابه الأكثر مبيعًا، ألمانيا والحرب القادمة، الذي صدر عام 1912. يركّز الكتاب على حاجة ألمانيا المُلِحَّة إلى أن تكون قوة عالمية. وكما يقول برناردي نصًا: "نحن لا نحتاج فقط إلى التنمية المادية الكاملة لأمّتنا، على نطاق يتناسب مع أهميتها الفكرية، وعلى قاعدة سياسية موسعة، ولكن... نحن مُجبرون على إيجاد أماكن لمواطنينا الذين تتزايد أعدادهم، كما أننا مجبرون على خلق أسواق لمنتجاتنا التي تنمو وتزداد. غير أن بريطانيا تقف بحزم في وجه كل خطوة نخطوها في هذا الاتجاه... ولأن الصراع، كما يبدو من خلال الاستقصاء الكامل للمسألة الدولية، أمر حتمي ولا بديل له، وجب علينا أن نخوض غِماره، أيًا كانت تكلفته". إن أيَّ قارئ بريطاني لما كتبه برناردي سوف يجد أسبابًا كثيرة للقلق من إصرار ألمانيا على تغيير الأمر الواقع، وهو مبدأ تصرُّ بريطانيا على عدم المساس به، بينما يرى برناردي أنه "لا يوجد في التاريخ ما يُعرف بثبات حالٍ ما على نحو دائم... فمن الواضح أن الحفاظَ على أمر واقع بشكل دائم، وهو ما حاولته الدبلوماسية مرات كثيرة، مسألةٌ مستحيلة... يجب أن تُسْحقَ فرنسا تمامًا، حتى لا تعترض طريقنا مرة أخرى على الإطلاق... إن مبدأ توازن القوى في أوروبا، الذي يتواصل منذ مؤتمر فيينا، يفرض وضعًا شبه مقدس، رغم عدم وجود ما يبرر هذه القدسية على الإطلاق، لهذا يجب تجاهل هذا المبدأ تمامًا".

(101) اليونكر هم أعضاء الطبقة الأرستقراطية في بروسيا. قبل أزمة أغادير كان تشرشِل أكثر تفاؤلاً في ما يتعلق بألمانيا. ففي عام 1908، شارك لويد جورج تحفظاته بشأن زيادة النفقات البحرية. وقد كتب في وقت لاحق أنه بينما كان هو ولويد محقّين "بالمعنى الضيق" في شكوكهما حول المدّ البحري الألماني المتوقع"، كانا "مخطئَين تمامًا في ما يتعلق بتقلبات القضاء والقدر الغامضة". كما ورد في كتاب تشرشل: قصة حياة، تأليف مارتين غيلبرت؛ وكتاب الأزمة العالمية، تأليف ونستون تشرشِل.

(102) خلال أزمة أغادير كان القادة البريطانيون يخشون وقوع هجوم ألماني مفاجئ، خاصة أن الأسطول كان مُشتتًا وضعيفا، ومن ثمَّ لن يقوى على التصدي لهذا الهجوم إن وقع. وقد أدرك مجلس الوزراء أن الشخص الوحيد الذي يعرف خطة الحرب السرية الخاصة بالبحرية، هو

الرجل الذي خلف فيشر القائد السابق للبحرية في منصبه، وهو الآن في عطلة. اكتشف تشرشِل يومها أن القيادة البحرية رفضت أن توفر حماية مسلحة للمخازن غير المحصنة التي توجد بها ذخائر أسلحة الأسطول البريطاني. لهذا، اتخذ، على مسؤوليته شخصيًا، قرارًا بتخصيص قوات لحماية تلك المخازن، كما أذِن باعتراض المراسلات المُشتبه فيها، وأكتشف "أننا خاضعون لدراسة دقيقة وعلمية من قِبَل السلطات العسكرية والبحرية الألمانية". في آب/ أغسطس 1911، وضع تشرشِل تصوراته الأولية الرائعة حول شكل أي هجوم ألماني مستقبلي على فرنسا. كانت توقيتات تشرشِل صحيحة إلى حد بعيد. وفي عام 1914، وصف أحد زملائه تلك المذكرة بأنها "انتصار لوحي إلهي". وقد أصبح فيشر، رغم تقاعده، المستشار المخلص لتشرشِل، قائد البحرية الجديد. تشرشل: قصة حياة، تأليف مارتين غيلبِرت؛ والأزمة العالمية، تأليف ونستون تشرشِل؛ ومن الدَّرِدْنوط إلى سكابا فلو، تأليف آرثر ج. ماردر.

(103) كان تشرشِل قد أبلغ كاسيل أيضًا أنه إذا كان الألمان متصلِّبين، فإنني "لا أرى في الأفق إلا القليل، عدا الكياسة والاستعدادات"، كما ورد في كتاب تشرشل: قصة حياة، تأليف مارتين غيلبرت. كان المطلب الخاص بحياد بريطانيا النقطة الشائكة في مناقشات أنجلو-ألمانية سابقة، لم يُكتب لها الاستمرار، خلال الفترة من 1909 إلى 1912. كانت وزارة الخارجية البريطانية تخشى أن يكون الألمان يسعون إلى استخدام المباحثات الخاصة بالبحرية كوسيلة لإبقاء بريطانيا على الحياد، عندما تسعى ألمانيا في المستقبل إلى فرض هيمنتها على أوروبا. من ناحية أخرى، لم يكن لدى المستشار الألماني الجديد، تيوبالد فون بيتمان هولفيغ، النفوذ اللازم لإجبار تيربيتز على إجراء تخفيضات حقيقية على برنامجه البحري المُحبب إلى قلبه. يمكن مراجعة كتاب بريطانيا وجذور الحرب العالمية الأولى Britain and the Origins of the First World War، تأليف زارا شتاينر Zara Steiner وكيث نيلسون Keith Neilson، 1977؛ وكتاب الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ وكتاب الحرب العالمية الأولى تأليف هيو شتراخان.

(104) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي. الأرقام الخاصة بأعداد السفن منقولة عن كتاب ويلات الحرب The Pity of War، تأليف نايل فيرغُسون Niall Ferguson، 1999.

(105) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.

(106) الدَّرِدْنوط: بريطانيا، وألمانيا، ومجيء الحرب العظمى، تأليف روبرت ك. ماسِّي؛ والحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.

(107) الإمبراطوريات، والأمم، والحروب Empires, Nations, and Wars، تأليف مايكل هاورد 2007.

(108) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان؛ وصعود العداء الأنجلو-ألماني تأليف بول كينيدي؛ وكتاب بريطانيا وجذور الحرب العالمية الأولى، تأليف زارا شتاينر، 1999.

(109) في عام 1913، كان السباق البحري مظهرًا من مظاهر الخوف البريطاني من صعود ألمانيا، وليس السبب الوحيد للخوف نفسه. وقد اعترف إدوارد غراي وزير الخارجية بهذا الأمر: "ما قاله تيربيتز ليس له وزن كبير، وهو لم يقل ما قاله حُبًّا في عيوننا الجميلة، ولكن بسبب الخمسين مليون جنيه الإضافية التي تتطلبها عملية زيادة الجيش الألماني. لقد شعر البعض في الدولتين أن العلاقات قد تحسنت قليلًا خلال الفترة من 1912 إلى 1914، ولكن ما أطلق عليه آنذاك التفاهم الأنجلو-ألماني كان وهميًا. يمكن مراجعة كتاب صعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي.

(110) مثلما كانت ميزانية ألمانيا البحرية تمثِّل انعكاسًا لموقفها من بريطانيا، كانت ميزانية جيشها مؤشِرًا كاشفًا لخوف برلين من موسكو. ففي عام 1898، كانت نفقات البحرية الألمانية أقل من خُمْس ميزانية الجيش؛ ومع حلول عام 1911، تزايد حجم هذه النفقات ليصل إلى أكثر من نصف حجم ميزانية الجيش. وخلال السباق البحري مع بريطانيا من عام 1904 إلى عام 1912،

زادت نفقات البحرية الألمانية بنسبة 137 في المائة، بينما ارتفعت ميزانية الجيش بنسبة 47 في المائة فقط. ولكن بعد هذه النقطة، انعكس اتجاه الميزان، فزادت ميزانية البحرية خلال الفترة من 1910 إلى 1914، بنسبة تقل عن 10 في المائة، بينما ارتفعت ميزانية الجيش بنسبة 117 في المائة. يمكن مراجعة كتاب الأسطول التَّرَفيّ: البحرية الإمبراطورية الألمانية، 1888–1918، تأليف هولغِر هيرفيغ؛ وكتاب دراسة للحرب A Study of War، تأليف كوينسي رايت Quincy Wright، 1965.

(111) مع حلول عام 1914، وُجِّه نحو ربع إجمالي الاستثمارات الفرنسية إلى العمليات السريعة التي تهدف إلى تحويل روسيا إلى دولة صناعية. بالإضافة إلى ذلك، في عام 1914، تجاوزت نفقات الأسطول الروسي، التي ازدادت ثلاثة أمثال منذ عام 1907، نفقات الأسطول الألماني. نقلًا عن كتاب الحرب العالمية الأولى، تأليف هيو شتراخان.

(112) في كانون الأول/ديسمبر 1912، ألحَّ رئيس الأركان المشتركة هِلموت فون مُولتْكِ على القيصر أن يشن الحرب على روسيا، مؤكدًا أنه "كلما عجَّلنا بشن الحرب، كان ذلك أفضل". وذكر وزير الخارجية الألمانية بأن مُولتْكِ أخبره في ربيع 1914، أنه "ليس هناك بديل إلّا شن حرب وقائية، حتى ننتصر على العدو في وقت يسمح لنا بالخروج من هذه الحرب ونحن في حالة جيدة، وإلّا فإننا لن نتمكن من التعامل مع روسيا بعد إعادة تسليحها". بعد فترة قصيرة جدًا، في أيار/مايو، أخبر مُولتْكِ نظيرَه النمساوي أن "الانتظار أكثر من ذلك يعني ضياع ما لدينا من فرص". وفي ذروة أزمة تموز/يوليو، أخبر مُولتْكِ القيصر أنه "لن تسنح لنا أبدًا فرصة كالتي بين أيدينا الآن، حيث لم تستكمل فرنسا وروسيا بعد، عملية توسيع قواتهما". كان القيصر نفسه متحيِّـرًا على مدار شهر كامل قبل اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند، حول ما إذا كان من الأفضل شن هجوم على روسيا قبل أن تكتمل عملية تحديث جيشها أم لا. كان مستشاره بيتمان هولفيغ قد لفت الانتباه إلى أن روسيا "تنمو، وتنمو، وأنها تتحول إلى كابوس يجثم على أنفاسنا"، بل إنه نصح بألا تُغْرس أيُّ شجرة في أرضه، مُعللًا ذلك بأن هذه الأرض قد تسقط قريبًا في أيدي الروس. في صيف 1914، أكد هولفيغ أنه "إذا كان لا مفرّ من الحرب، فإن شنَّها الآن سوف يكون أكثر فائدة لنا من شنِّها في وقت لاحق". كما ورد في كتاب الحرب العالمية الأولى: ألمانيا والنمسا–المجر 1914-1918 The First World War: Germany and Austria-Hungary 1914-1918، تأليف هولغِر هـ. هيرفيغ Holger H. Herwig، 2014.

(113) أبلغ وزير خارجية النمسا–المجر مجلسَ الوزراء أن برلين سوف تدعم فيينا "حتى لو أدّت عملياتنا ضد صربيا إلى قيام حرب عظمى". كما يقول هولغِر هيرفيغ في كتابه الحرب العالمية الأولى: ألمانيا والنمسا–المجر 1914–1918.

(114) قرار القيصر بدعم فيينا، الذي صدر في بداية تموز/يوليو، نبع أيضًا من إحساسه بالإهانة بسبب عدم وقوفه في وجه أعدائه خلال عدة أزمات نشبت مؤخرًا. لقد رأى القيصر في هذه الأزمة الجديدة فرصة جيدة للقضاء على النفوذ الروسي في البلقان، حتى لو أدى ذلك إلى حرب ضد موسكو. عندما قرأ القيصر تقرير سفيره الذي يشير إلى أن النمسا تخطط للهجوم على صربيا، ردًا على عملية الاغتيال، علَّق على ذلك بقوله "الآن، وإلّا فلا". في نهاية تموز/يوليو، عندما بدا واضحًا أن بريطانيا سوف تدخل الحرب، انضم بيتمان هولفيغ إلى جهود القيصر الرامية إلى تحجيم التدخل النمساوي في صربيا، مقترحًا "تهدئة الأوضاع في بلغراد"، غير أن مُولتْكِ نقض تلك الرسالة الموجهة إلى فيينا وأبطل مفاعيلها، وأبلغ النمساويين أن كلًا من النمسا وألمانيا يجب أن تحشد قواتها ضد روسيا فورًا، كما يقول هولغِر هيرفيغ في كتابه الحرب العالمية الأولى: ألمانيا والنمسا–المجر 1914–1918، ومارغريت ماكميلان في كتاب الحرب التي أنهت السلام. إلى أي حدٍ كان القيصر يسعى إلى الدخول في حرب ضد روسيا، مسألة غير واضحة. من المحتمل أنه كان سيقتنع بمجرد انتصار إرادة النمسا–المجر على

الإرادة الروسية في البلقان، غير أنه كان بالتأكيد مستعدًا لتقبل فكرة الدخول في حرب مع سانت بطرسبرغ إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

(115) الإمبراطوريات، والأمم، والحروب، تأليف مايكل هاورد؛ وصعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي. من ناحية أخرى، شبَّه تشرشِل الخطر الذي مثلته ألمانيا عام 1914، بخطر كلٍ من: إسبانيا الإمبراطورية، ولويس الرابع عشر، ونابليون، مُشيرًا إلى أن بريطانيا قد أنقذت أوروبا من الهيمنة العسكرية لتلك الأنظمة. الأزمة العالمية، تأليف تشرشل.

(116) صعود العداء الأنجلو-ألماني، تأليف بول كينيدي.

(117) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.

(118) تشرشل: قصة حياة، تأليف مارتين غيلبرت.

(119) أبلغ تشرشِل مجلسَ الوزراء أن الدول المتحضِّرة عندما تفكر في أمر الحرب تراها كارثة مُروِّعة، لكنه لا يزال واحدًا من أقوى الأصوات المؤيدة لتدخُّل بريطانيا دفاعًا عن فرنسا. على المستوى الشخصي، كان تشرشِل يستمتع بما تتضمنه الحرب من إثارة. لقد تولى تشرشِل بنفسه قيادة القوات المسلحة أثناء الحرب. وفي الخطاب الذي حذَّر فيه زوجته من "الكارثة والانهيار"، اعترف بأنه "مُسْتثارُ الانتباه، ومُسْتعِدٌّ، وسعيد". وفي ملاحظة سجلها في ما بعد واحدٌ من المقرَّبين إليه، صاح تشرشِل: "يا إلهي! هذا تاريخ يُصنع أمام أعيننا، فكل ما نقوله أو نفعله مثيرٌ ومفعمٌ بالحياة، وسوف تقرأ آلاف الأجيال تفاصيله، فكِّر في هذا الأمر. لماذا يستحيل أن أكون خارج هذه الحرب المجيدة اللذيذة، مهما غلت قيمة ما يمكن أن يقدمه العالم إليَّ مقابل ذلك الخروج (وقد تألقت عيناه رغم ما بهما من مسحة قلق، خوفًا من تأثير كلمة "لذيذة" الصادم عليّ). وهنا، أرجو ألا تعيد ترديد كلمة لذيذة، فأنت تعرف ماذا أقصد". تشرشل قصة حياة، تأليف مارتين غيلبرت؛ وكتاب الأزمة العالمية، تأليف ونستون تشرشِل.

(120) الأزمة العالمية، تأليف ونستون تشرشِل.

(121) من المثير للاهتمام أن تشرشِل لم يكن يعتقد أن إعلانًا استباقيًا واضحًا لا لبس فيه من قِبَل غراي، يؤكد أن بريطانيا ستتدخل في الحرب، يمكن أن يساعد على منعها، حيث كان يشعر أن مثل هذا الإعلان لم يكن ليلقى دعمًا سياسيًا، وأنه كان سيؤدي إلى انهيار الحكومة. ودفع تشرشِل بأنه كان من المستحيل على بريطانيا تجاهُل فرنسا وروسيا، وأنه في ما يتعلق بالأزمة النهائية، لم يكن باستطاعة وزير الخارجية البريطاني أن يفعل شيئًا غير ما فعله. الأزمة العالمية، تأليف ونستون تشرشِل.

(122) محاولة الإجابة عن سؤال كهذا تتطلب تفكيرًا مغايرًا للمنطق counterfactual reasoning. إن تساؤلات من نوع "ماذا لو؟" تستثير طاقات العقل وتُغري بإعمال الفكر، غير أنها غير مريحة بالنسبة للتيار الغالب من المؤرخين. ورغم ذلك، تعدّ هذه التساؤلات جزءًا رئيسيًا من مشروع التاريخ التطبيقي لجامعة هارفارد Applied History Project at Harvard، فالتفكير المغاير للمنطق يقع في صميم تقييم أي مؤرخ للأهمية النسبية للعوامل السببية. والتحدي الذي يواجه المؤرخ هنا هو أن يكون واضحًا وصارمًا على الدوام.

(123) أثناء أزمة تموز/يوليو، قال بيتمان هولفيغ "إن قَدَرًا يفوق قدرة البشر، يخيِّم فوق أوروبا وشعبنا". في الحقيقة، كان بيتمان هولفيغ واعيًا للدور الذي لعبه في إشعال فتيل الحرب. فقبل أقل من عام، اعترف بذنب أبدي: "هذه الفكرة لا تفارقني أبدًا، إنني أحيا معها بشكل دائم". يمكن مراجعة كتاب الحرب العالمية الأولى، تأليف هولغِر هيرفيغ. صحيح أن ادعاءات هولفيغ بالجهل هي ادعاءات كاذبة، لا تخدم إلا مصالحه الذاتية، إلّا أنها تلقي الضوء على تناقض آخر هو: حتى عندما تكون الجهات الفاعلة على بيِّنة من النتائج الكارثية المحتملة لقراراتها الواعية، فإنها يمكن أن تشعر بأنها مُكرَهة بفِعل قوى أساسية كامنة، إلى حد الشعور لاحقًا بأنها كانت عاجزة.



الجزء الثالث

نُذُر عاصفةٍ تتجمّع



الفصل الخامس

تخيَّل لو كانت الصين مثلنا

إنه أمر مستحيل بالنسبة للأثينيين، إما أن يستمتعوا بالسلام والهدوء لأنفسهم، أو أن يسمحوا للآخرين بالاستمتاع بهما.

ـــ سفير كورينثيا

في خطاب له أمام برلمان أسبرطة، في عام 432 قبل الميلاد

وفقًا لقانون الطبيعة، يحكم المرءُ بقدر ما يستطيع. نحن لم نخترع هذا القانون. لقد كان هناك عندما وصلنا إلى الحكم، وسوف نتركه لأولئك الذين سيأتون من بعدنا.

ـــ الأثينيون، مخاطبين الميلوسيين، في عام 416 قبل الميلاد

اللهم امنحنا القوة...

كي نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون!

ـــ روبرت بيرنز(*)

يجد الأمريكيون متعة في إسداء النصح إلى الصينيين بأن "كونوا مثلنا". ربما يجب أن يكون الأمريكيون أكثر حذرًا في ما يتمنونه، فبعض الأمنيات،

(*) روبرت بيرنز Robert Burns (25 كانون الثاني/يناير 1759-21 تموز/يوليو 1796) شاعر إسكتلندي شهير، كان يكتب باللغة الإسكتلندية، وباللغة الإنجليزية التقليدية، والإنجليزية المنطوقة باللهجة الإسكتلندية. ورغم وفاته في سن مبكرة - في السابعة والثلاثين - يُعدّ بيرنز واحدًا من أعظم شعراء اللغة الإنجليزية، كما أنه مؤسس ورائد المدرسة الرومانسية في الشعر. (المُعرِّب)

إن تحققت، لن تُسْعِدَ مُتمنّيها. تاريخيًا، كيف تصرفت القوى المهيمنة البازغة؟ وكي نكون أكثر تحديدًا، كيف تصرفت واشنطن منذ أكثر من قرن مضى عندما قاد ثيودور روزفلت الولايات المتحدة نحو ما كان يؤمن بثقة فائقة بأنه القرن الأمريكي؟

في التاسع عشر من نيسان/أبريل 1897، التحق ثيودور روزفلت - الذي كان يُعَدُّ ظاهرة سياسية رغم أنه لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره - بإدارة الرئيس ويليام ماكّينلي William McKinley، ليشغل ثاني أكبر المناصب المدنية في وزارة البحرية. ولِد روزفلت لواحدة من أعرق العائلات في نيويورك، وتلقى تعليمه في جامعة هارفارد، واشتد عوده كراعي بقر في براري داكوتا Dakota Badlands، وقويت عزيمته عندما عمل مفوضًا لشرطة مدينة نيويورك، واستقر في الوجدان كمثقف جماهيري كتب خمسة عشر كتابًا، حظيت جميعها بالاهتمام، ونوقشت على نطاق واسع. كان روزفلت، كما وصفه أحد رفاقه في لعبة الملاكمة للوزن الثقيل: "رجلاً قويًا، شديد المِراس، يصعب إيذاؤه، ويستحيل إيقافه"[1].

بعد سبعة أيام من تسلُّمه منصب مساعد وزير البحرية، رفع روزفلت إلى ماكّينلي مذكرة خاصة مطوَّلة، يصف فيها الأوضاع الحالية (غير المقبولة) للبحرية الأمريكية، ويؤكد الحاجة إلى إعادة بنائها بسرعة (لتأمين السلم في نصف الكرة الغربي)، مُشدِّدًا على المخاطر التي تسببها السيطرة الإسبانية في كوبا، التي تقع على مقربة من السواحل الأمريكية[2]. قبل أن ينقضي الشهر، ودون إبلاغ رئيسه المباشر، أو الرئيس ماكّينلي، أرسل مساعد الوزير الجديد تعليمات إلى قيادة كلية الحرب البحرية Naval War College - التي كانت تعد في ذلك الوقت قُمْرة القيادة الحكومية عند التخطيط لحرب ما - مُطالِبًا هذه القيادة بوضع خطط عملية يمكن تطبيقها في حالة قيام حرب مع إسبانيا (حول كوبا)، أو مع اليابان (حول هاواي، التي ساعدت الولايات المتحدة على الإطاحة بنظامها الملكي الموالي لطوكيو في عام 1893)[3].

ورغم أن الولايات المتحدة كانت قد بزغت للتو على الساحة الدولية، كان ثيودور روزفلت يؤمن في قرارة نفسه بأن الأعوام المائة القادمة يجب أن تكون عصرًا أمريكيًا خالصًا، وقد نذر نفسه لعمل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك. وإيمانًا منه بأن العزيمة هي اليدُ التي تُعِين القدَر على تنفيذ إرادته، اقتنص روزفلت، وفي بعض الأحيان اختلق، كل الفرص التي تساعد على تشكيل هذا القرن وفقًا لرؤيته الخاصة. خلال العقد التالي لوصوله إلى واشنطن، أعلنت الولايات المتحدة الحرب على إسبانيا، فطردتها من نصف الكرة الغربي، واستحوذت على بورتو ريكو Puerto Rico، وغوام Guam، والفيليبين Philippines، وهدّدت بريطانيا وألمانيا بالحرب إذا لم تقبلا تسوية نزاعاتهما مع الولايات المتحدة وفقًا للشروط الأمريكية، وساندت عصيانًا مسلحًا في كولومبيا بغرض إنشاء دولة جديدة، هي بنما Panama، لتشق قناة(*)، كما أعلنت نفسها شرطيًا لنصف الكرة الغربي، مؤكدةً على حقها في التدخل كلما وأينما رأت ذلك ضروريًا. وقد مارست الولايات المتحدة هذا الحق تسع مرات، خلال السنوات السبع لحكم ثيودور روزفلت[4].

لم يحدث أن نجح رئيس قبل ثيودور روزفلت، ابتداءً من أول الرؤساء الأمريكيين، وحتى أحدث هؤلاء الرؤساء، في خلق حسٍّ وطني عظيم لدور بلاده في العالم، على نحو ما فعل هو(**). لقد قاد روزفلت الأمة إلى فهم جديد لما يعنيه أن يكون المرء أمريكيًا. فقد كان يُصرُّ على أن العظمة الوطنية تستند إلى شرطين أساسيين: تبنّي مهمة النهوض بالحضارة في الداخل والخارج، وامتلاك القوة اللازمة لتحقيق تلك المهمة، وعلى وجه الخصوص، جيش متفوق تفوقًا ساحقًا، قِوامه رجال يجسِّدون القوة والشجاعة وإرادة القتال.

لقد احتفى روزفلت بالمستوطنين الأقوياء القُساة الذين قدَّموا

(*) المقصود هنا قناة بنما Panama Canal، التي تربط المحيط الهادي بالمحيط الأطلسي، فتختصر الرحلة البحرية بين نيويورك على ساحل المحيط الأطلسي، وسان فرانسيسكو على ساحل المحيط الهادي من 20,900 كيلومتر، إلى 8,370 كيلومترًا. (المُعرِّب)

(**) رغم أن عددًا غير قليل من هؤلاء الرؤساء، لم يتوقف عن المحاولة طوال فترة وجوده في البيت الأبيض. (المُعرِّب)

التضحيات، وأشاد بما حققوه من نجاحات من خلال قوة صمودهم، وثقتهم بأنفسهم، وذكائهم، واستعدادهم لاستخدام العنف. ووفقًا لكلماته، "كانت السمة الرئيسية للحياة في التخوم هي الحرب التي لا نهاية لها بين المستوطنين والهنود الحُمْر"[5]. بالنسبة إلى روزفلت، عاشق القراءة، المريض بداء الربو، والذي أتم دراسته الثانوية ثم التحق بجامعة هارفارد، كانت السنوات التي قضاها في براري داكوتا سنوات تكوين وتَشَكُّل. ففي تلك البراري، وجد نفسه وجهًا لوجه مع الخطر في صراع دارويني من أجل البقاء. لقد قاتل روزفلت يدًا بيد الهنود الحُمْر والخارجين عن القانون، وأطلِقت عليه النار وأشرف على الموت مرارًا، غير أنه نجا على حساب دماء آخرين وحياتهم. ويرى روزفلت أن هذه التجربة جعلت منه رجلًا، أكثر مما فعلت به أية تجربة أخرى في حياته. كما أقنعته تلك التجربة بأن أولئك الذين لا يقدرون على القتال، أو لا يريدون القتال دفاعًا عن أنفسهم، سوف يخضعون رغمًا عنهم لسطوة من يقدرون ويريدون. "إن كافة الأجناس العظيمة التي حكمت وسادت، كانت أجناسًا مقاتلة". هذا ما قاله روزفلت في أول خطاب عام يلقيه بعد تعيينه مساعدًا لوزير البحرية، وأضاف محذِّرًا: "في اللحظة التي يفقد فيها جنس ما فضيلة القتال بضراوة، يكون قد فقد حقَّه في الافتخار بأنه الأفضل، بغضّ النظر عما يتبقى له، وما يتميز به من مهارة في الاقتصاد والتجارة، في العلوم أو الفنون. فالجُبن لدى جنس مثل الجُبن لدى فرد، خطيئة لا تُغتفَر"[6]. وقد أصبح كتاب روزفلت ذو المجلدات الأربعة "الفوز بالغرب" Winning of the West الإنجيل الرسمي المعلَن للأَمْرَكَة(*) Americanism. يُفصِّل المجلد الأول، الذي نشره وهو في الحادية والثلاثين من عمره، سعي الأمة الذي لا يعرف الكلل أو الملل نحو القارة الأمريكية، يحركها "قَدَرُنَا"(**) "Manifest

(*) مُصطلح مُستحدَث يُقصَد به المبادئ الأساسية التي ترتكز عليها الثقافة الوطنية الأمريكية. كما يُقصَد به الولاء للولايات المتحدة الأمريكية، والتعلق بمُثُلِها وتقاليدها. (بتصرفٍ عن قاموس المورد الأكبر لمنير البعلبكي). (المُعرِّب)

(**) يعني هذا المصطلح في الأصل "القدر المحتوم"، غير أنه تحوَّل إلى عقيدة سياسية عنوانها

Destiny''، الذي يتمثّل في الإيمان الراسخ بأن " ضم كافة الأراضي المتاخمة للولايات المتحدة هو تنفيذ لا مفر منه لمأمورية أخلاقية ألقتها العناية الإلهية نفسها على عاتق الأمة "[7]. وقد شبّه روزفلت توسُّع الولايات المتحدة غربًا بالحرب الأهلية وتحرير العبيد من حيث الأهمية، ووصف هذا التوسع بأنه ذروة انتصارات الشعوب الناطقة بالإنجليزية، وتتويج لمسيرتها نحو الحضارة على امتداد مساحات العالم المُهْمَلة "[8].

كما آمن روزفلت، علاوة على ذلك كله، بأن مهمة أمريكا لا تنتهي عند شاطئ المحيط الهادي. لهذا رفع، بالاشتراك مع عدد من الشخصيات العسكرية وبعض أعضاء الكونغرس الذين يشاركونه آراءه، راية التوسعية، ليس بغرض طرد إسبانيا من كوبا ونصف الكرة الغربي فقط، ولكن بهدف أن تصبح الولايات المتحدة القوة الوحيدة في المحيطين الأطلسي والهادي. وكما قال روزفلت في أعقاب انقلاب هاواي: "إني أؤمن بامتلاك سفن أكثر، وأؤمن بطرد كل القوى الأوروبية من هذه القارة نهائيًا، ولا أريد أن أرى عَلَمنا وهو ينزل عن مكان كان مرفوعًا عليه "[9].

يتطلب تحقيق شعار "الأمريكتان للأمريكيين" قدرة عسكرية هائلة، وعلى نحو خاص، تفوُّقًا بحريًا ساحقًا. كان روزفلت قد بدأ، أثناء سنوات الدراسة في هارفارد، في إعداد دراسة جامعية جادة حول حرب عام 1812. وعندما نُشِرت هذه الدراسة لاحقًا تحت عنوان "حرب 1812 البحرية"،

"قَدَرُنا"، سادت الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر. كان معتنقو هذه الفكرة أو العقيدة يرون أن من حق الولايات المتحدة، بل ومن واجبها، أخلاقيًا، أن تستحوذ على كافة أراضي أمريكا الشمالية، باعتبار أن هذا التوسع في كل الاتجاهات هو قدَر محتوم رسمته لها يدُ العناية الإلهية! ورغم تأصُّل تلك الفكرة في العقل السياسي الأمريكي الجمعي حتى يومنا هذا، لا يزال حكام العرب مقتنعين بمقولة الرئيس المصري الأسبق أنور السادات المشؤومة "إن تسعة وتسعين في المائة من أوراق حل القضية الفلسطينية في يد الولايات المتحدة"، وكأن مَن يدّعون أن الله قد وعدهم بقارة كاملة واستباحها لهم، يمكن أن يُنكروا على العصابات الصهيونية ما يدّعونه من أن نفس الإله قد وعدهم بقطعة أرض صغيرة، تَصادف أن اسمها فلسطين، كما تَصادف أنه كان يسكنها نوع آخر من الهنود الحمر، اسمه العرب. (المُعرِّب)

اعتبرها الجميع سجلاً رسميًا لتلك الحرب. وأصدر قائدُ كلية الحرب البحرية أوامر تقضي بتسليم نسخٍ منها إلى قائد كل سفينة من سفن الأسطول الأمريكي، وبـإلزام كافة أفراد القوات البحرية بقراءتها. توصل روزفلت في تحليله في هذه الدراسة إلى استنتاج أساسي مهم، أو حقيقة بسيطة، على حد تعبيره، هي أن "الجانب الذي امتلك تفوقًا في القوة بنسبة ثلاثة إلى اثنين، لم يتمكن من تحقيق النصر". هكذا كتب الرجل الذي سوف يصبح رئيسًا للولايات المتحدة[10].

لم يشعر أي ممن قرأوا "حرب 1812 البحرية" بأية دهشة عندما تبنّى مساعد وزير البحرية الجديد، بعزم وإصرار، مسألة تشييد قوة بحرية أكبر وأقوى، تكون بمثابة العمود الفقري لقوة أمريكية عالمية. وفي خطابه أمام كلية الحرب البحرية، بعد سبعة أسابيع من تسلمه مهام منصبه، نصح روزفلت بـأن "الجاهزيةَ للحرب أفضلُ ضمانة للسلام"، محذرًا ومنذرًا بأن الولايات المتحدة "لا يمكنها أن تقف ساكنة، إذا أرادت الحفاظ على احترامها لنفسها". وأضاف أن "الدبلوماسية شيء ممتاز"، لكنه أكد أنه "في خاتمة المطاف، من الحكمة أن يعتمد أولئك الذين يتمنون أن يروا هذا البلد يحيا في سلام مع الدول الأجنبية، على أسطول من الطراز الأول، يتكوَّن من سفن من طراز رفيع، بدلاً من الاعتماد على أية معاهدة تحكيم يمكن أن يحتال أي إنسان على صياغتها"[11].

وقد اهتدت أمريكا بنصيحة روزفلت. ففي حين لم تكن البحرية الأمريكية في عام 1890 تمتلك أية بارجة، انتهت في عام 1905 من تشييد خمس وعشرين بارجة، وأصبحت قوة بحرية رائدة على مستوى العالم[12]. حتى بريطانيا أدركت مع الوقت أنها لا ترغب في محاربة أمريكا في فنائها الخلفي، خاصة مع وجود القوة الألمانية الصاعدة على مسافة أقرب كثيرًا من السواحل البريطانية.

لقد أثبتت الولايات المتحدة أنها معنية باستخدام قوتها الاقتصادية والعسكرية الجديدة لفرض وتأكيد نفوذها المتصاعد، أكثر من اهتمامها

بتوسيع حدودها(*). ورغم أن روزفلت كان ينظر بحزن إلى غربي كندا (الذي كان خاضعًا لسيطرة الإمبراطورية البريطانية)، لم يؤمن معظم دعاة التوسع بإمكانية الاستحواذ على مزيد من الأراضي في الأمريكتين، وفضَّلوا، بدلاً من ذلك، أن تكتفي الولايات المتحدة بالهيمنة على نصف كرة يتكوَّن من جيران يسود بينهم الاحترام والتوافق، متحررين من تدخلات القوى الخارجية الأجنبية. من الناحية العملية، يعني هذا أن يفهم الجميع وأن يُسلِّموا بأن مصالح الولايات المتحدة التي تقع داخل إطار نفوذها في نصف الكرة الغربي، غير قابلة للتفاوض، وأن هذه الحقوق، كما قال روزفلت، "تدعمها القوة، وما يلزم لاستخدام هذه القوة من إرادة وجاهزية"(**).

لم يكن روزفلت يطيق الصبر على معارضي خططه وأفكاره. فقد كان يرى أن "كل توسع في نشر الحضارة، هو توسع في انتشار السلام. وكل توسع لقوة متحضرة عظمى، هو انتصار للقانون، والنظام، والقيم النبيلة"[13]. حتى عندما اعترف بأن الولايات المتحدة تتصرف من منطلق منفعتها الذاتية، أصرَّ على أن تمدُّد النفوذ الأمريكي يُحسِّن حياة أولئك الذين لا يزالون غير قادرين على أن يحكموا أنفسهَم بأنفسهِم. كان تبريره للاحتلال الأمريكي للفيليبين يُجسِّد ما وصفه المؤرخ ألبرت فاينبِرغ، بامتعاض، بأنه "مفهوم فحولي لفكرة الإيثار الدولي". لقد طالب روزفلت أبناء وطنه بإدراك أن "مسؤوليتنا تجاه البشر الذين يعيشون حياة بربرية، هي تحريرهم من تلك القيود، وأننا لن نستطيع تحريرهم إلا بتدمير

(*) إنه الاستعمار الجديد، أو الذي كان جديدًا في بدايات القرن العشرين. حيث تحل فكرة الهيمنة السياسية التي يمكن إلباسُها ثوب الصداقة، فيشعر الواقع تحت سطوة تلك الهيمنة أنه حليفٌ للمُهَيمِن مستفيدٌ منه، محل فكرة الاحتلال التقليدي التي تعتمد على قوة عسكرية موجودة على الأرض، الأمر الذي يستفز صاحب الأرض، ويجعله في حالة مقاومة دائمة لقوة الاحتلال، باليد، أو بالكلمة، أو بالقلب، وهذا أضعف أشكال المقاومة. إذا أردنا استلهام الحديث النبوي الشريف عن مقاومة أو تغيير المُنْكَر. (المُعرِّب)

(**) ثيودور الملك Theodore Rex، تأليف إدموند موريس Edmund Morrois، 2001 (المؤلف) - جدير بالذكر أن ريكس Rex كلمة لاتينية قديمة كانت تطلق على ملوك روما القديمة. (المُعرِّب)

البربرية نفسها". وفي كلمات من شأنها أن ترسم الابتسام على وجهي روديارد كيبلينغ وسيسيل رودِس Cecil Rhodes، دفع روزفلت بقوله "لكلٍ من المُبَشِّر، والتاجر، والجندي، دور في عملية التدمير تلك، وما يعقبها من عمل لرقيٍّ ونهضةِ أولئك البشر"[14].

اليوم، يشعر أمريكيون كثيرون بأن تلك الكلمات مزعجة، وأنها إمبريالية أو عنصرية، رغم أننا نسمع أصداءً لها في ما يتردد في القرن الحادي والعشرين من مزاعم حول زعامةٍ أمريكيةٍ تدعم نظامًا ليبراليًا يستند إلى قواعد دولية. وعلى غِرار معظم الأمريكيين في عصره، آمن روزفلت بأن تقدُّم الحضارة "مفعم بفوائد دائمة" لكافة المجتمعات، وذلك لأن "أفضل ما يمكن أن يحدث لأي شعب لا يملك حضارة خاصة متقدمة، هو أن يستوعب الأفكار الأمريكية أو الأوروبية وينتفع بها"[15]. وكان يصف ما تفعله أمريكا في هذا المجال بقوله إن "حصتنا من المهام العالمية" تلزمنا بمتابعة خطى إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا في "نشر أفكار الحضارة والمسيحية"[16]. وكما وعد روزفلت في خطابه الأول عن حالة الاتحاد State of the Union Address، "سوف تقدِّم الولايات المتحدة للفيليبينيين ما لم يُقدَّم من قبل لشعب من الشعوب المَدارية، ليصبحوا قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم، على طريقة الدول التي تتمتع بحرية حقيقية"[17].

لقد آمن روزفلت بأن العناية الإلهية اختارت الولايات المتحدة للعب دور فريد من نوعه كحارس للحضارة الغربية. وتنفيذًا لمهمة توسيع الحضارة، وسَّع روزفلت الإمبراطورية الأمريكية إلى الحد الذي أصاب منافسيها في الصميم. وكما كتب زميلي جوزيف ناي Joseph Nye "كان روزفلت أول رئيس أمريكي يتعمَّد استعراض القوة الأمريكية على الساحة العالمية"[18]. فمن الكاريبي إلى الفيليبين، ومن فنزويلا إلى بنما إلى ألاسكا، بشَّر روزفلت بالقدرات الأمريكية الجديدة، ومقاصدها البعيدة المدى، بغرض إخضاع نصف الكرة الغربي لسيطرة مماثلة لتلك التي فرضتها الأجيال السابقة من الأمريكيين على التخوم.

أربع من حلقات الاستعراض هذه، على وجه الخصوص، تصف مسار صعود أمريكا، وتعبِّر عن ثقل القوة التي تدفعها إلى أن تصبح قوة عالمية، أو بمعنى أكثر دقة، إلى أن تصبح القوة العالمية الوحيدة. وكما قال روزفلت: "سنوات القرن العشرين تلوح أمامنا حُبْلى بمصائر أمم كثيرة. فإذا وقفنا مكتوفي الأيدي، وإذا اكتفينا بمجرد التفاخر بتحقيق سلام وضيع بسهولة كسولة، وإذا تملَّصنا من المنافسات الشاقة، حيث يفوز الرجال من خلال المخاطرة بحياتهم وتعريض كل عزيز لديهم للخطر، سوف تتخطانا الشعوب الأقوى والأكثر جرأة، وتهيمن بنفسها ولنفسها على العالم"[19].

الحرب الإسبانية-الأمريكية

قبل أن يلتحق روزفلت بإدارة الرئيس ماكِّينلي، كان متلهفًا إلى الحرب مع إسبانيا. فبالنسبة لرجل مثله يؤمن أن "كل وطني حقيقي... يجب أن يتطلع إلى يوم لا يكون فيه لقوة أوروبية واحدة موطئ قدم على التراب الأمريكي"[20]، كانت السيطرةُ الإسبانيةُ على مناطق تقع على بعد لا يتجاوز تسعين ميلاً من الولايات المتحدة أمرًا مُهينًا. ومع ذلك لم يكن روزفلت أولَ صانع قرار أمريكي يثير وضعُ كوبا غضبَه. ففي عام 1823، سبقه وزير الخارجية جون كوينسي آدامز John Quincy Adams الذي شبَّه كوبا بتفاحة سوف تَقطع، يومًا، "صلتها غير الطبيعية" بإسبانيا وتسقط بين أيدي أمريكا[21]. وعلى الرغم من الاضطرابات المتكررة، وسلسلة من حركات الاستقلال، سيطرت إسبانيا على كوبا لمدة سبعة عقود أخرى[22].

اعتزم روزفلت أن يقطع هذه "الصلة غير الطبيعية"، وأصر على أن الولايات المتحدة بحاجة إلى "دفع الإسبان إلى الخروج من كوبا"، رغم أن أمنيته الأولى، وكما أشار في عام 1895، كانت خوض حرب فورية ضد بريطانيا العظمى، لغزو كندا[23].

شعر الرئيس ماكِّينلي ببعض التحفظ إزاء تعيين روزفلت مساعدًا لوزير البحرية، بسبب مواقفه المعادية للإسبان، خاصة أنه، أي ماكِّينلي، كان قد تعهد في خطاب التنصيب بتجنُّب "الحروب التي تهدف إلى الغزو"، ومقاومةِ "إغراءات الاعتداء الإقليمي"، مشيرًا إلى أن "السلامَ مُفضلٌ لديه على الحرب في جميع الظروف تقريبًا"[24].

لم يأتِ قلق ماكِّينلي من روزفلت من فراغ، فخلال أسبوع واحد من التحاق روزفلت بالإدارة، قال لألفريد ماهان: "إلى أن نطرد إسبانيا نهائيًا من تلك الجزر (ولو كان الأمر بيدي لحدث ذلك غدًا)، سوف نظل مُهَدَّدين بالمتاعب والقلاقل التي تأتينا من هناك"[25]. صحف تلك الأيام المهمة الواسعة الانتشار، التي كان يملكها ويليام راندولف هيرست William Randolph Hearst وجوزيف بوليتزر Joseph Pulitzer، كانت تدعو هي الأخرى إلى الحرب. ومن أقوال هيرست الشائعة آنذاك، قوله لأحد رسّاميه: "سوف تُزوِّد أنت (الجريدة)[*] بالصور، وأزوِّد(ها) أنا بالحرب"[26].

بعد أربعة أشهر من تولي روزفلت مهام منصبه في وزارة البحرية، قدَّم إلى ماكِّينلي خطة كاملة لغزو كوبا، تعهَّد خلالها بتحقيق النصر خلال ستة أسابيع[27]. وقد أتيحت الفرصة لروزفلت، بعد فترة وجيزة، للانتقال من التخطيط إلى المشاركة في غزو الولايات المتحدة لكوبا. ففي 15 شباط/فبراير 1898، أغرق انفجارٌ المدمرة الأمريكية يو إسْ إسْ ماين USS Main، في ميناء هافانا، وقُتِل في الانفجار 266 أمريكيًا. ورغم ضغوط روزفلت، ووسائل الإعلام، والرأي العام الغاضب، رفض ماكِّينلي فكرة الانتقام الفوري، وأمر، بدلاً من ذلك، بإجراء تحقيق حول ما حدث. فشعر روزفلت بسخط كبير، وكان قد قال لزملائه قبل بضعة أسابيع من وقوع الحادث "كنت آمل أن نتدخل في كوبا[28]، وقد عمِلتُ من أجل ذلك بغيْرة وحماس". وأضاف أنه بات يشعر بغضب جارف "لأن دماء من قُتلوا على ظهر المدمرة ماين لا تصرخ مطالبة بتعويض عما حدث، ولكن بكَفَّارة

(*) أضفتُ كلمة الجريدة، والضمير العائد إليها، لإيضاح الجملة. (المُعرِّب)

هائلة، لا يمكن أن تتم إلا من خلال طرد الإسبان من العالم الجديد"[29]. وقد أخبر روزفلت صِهره يومها بأن "صلابة عزيمة الرئيس لا تفوق كثيرًا صلابة قِوام قطعة إكلير بالشوكولاتة"[30].

بعد أن خَلُص التحقيق الرسمي الذي أمر ماكِّينلي بإجرائه، إلى أن انفجار المدمرة نتج عن لغم، لم يَعُد أمامه من خيارٍ سوى إعلان الحرب[31]. استقال روزفلت على الفور من منصبه كمساعدٍ لوزير البحرية، وحصل على رتبة مقدم في الجيش الأمريكي، ومن ثم تولى تنظيم أول فوج للفرسان المتطوعين في الولايات المتحدة – أطلِق على هؤلاء اسم "الخيالة غير النظاميين" Rough Riders. وقد تحوَّل روزفلت وفرسانه إلى أسطورة خلال معركة سان خوان San Juan، حيث كان لهم دور كبير في الاستيلاء على مرتفع سان خوان، يوم 1 تموز/يوليو 1898، بعد قتال فوضوي عنيف استخدمت فيه البنادق فقط. وقد حوَّل روزفلت خلال هذه المعركة الشجاعة الرجولية، التي طالما كتب عنها، من قولٍ إلى عمل. وقد أعرب أحد جنوده عن دهشته للطريقة "التي كان روزفلت يتحرك بها في خِضّم الانفجارات العنيفة... حيث كان يؤْثِر الوقوف مُنتصبًا أو التجول في أرجاء الميدان، مستنشِقًا عَبَق هواء المعركة". وقد وصف روزفلت معركة الأول من تموز/يوليو، في ما بعد، بأنها أعظم أيام حياته[32].

انتصرت الولايات المتحدة على إسبانيا قبل أن ينتهي شهر آب/أغسطس 1898، ووقَّعت معها معاهدة سلام في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه. كانت شروط المعاهدة مجحفة بحق إسبانيا: فقد حصلت كوبا على استقلالها، وتنازلت إسبانيا للولايات المتحدة عن كلٍ من بورتوريكو، وغوام، والفيليبين[33]. وفي أعقاب الحرب، أعلن المؤرخ بروكس آدامز Brooks Adams، كاتم أسرار روزفلت وصديقه الحميم، أن أحداث عام 1898 "نقطة تحوُّل في تاريخنا"، وفي نبوءة مستقبلية قال "سوف نُهيمن على العالم، كما لم تهيمن أمة أخرى في العصر الحالي... إنني أتطلع إلى الأعوام العشرة القادمة باعتبارها، على الأرجح، فترة تأوُّج أمريكا"[34].

تطبيق مبدأ مونرو(*)

في أعقاب الحرب الأمريكية الإسبانية، وبعد فترة قصيرة قضاها في منصب حاكم ولاية نيويورك، قَبِل روزفلت الدعوة إلى الالتحاق بإدارة الرئيس ماكِّينلي مرة أخرى، من خلال الترشح على منصب نائب الرئيس في الانتخابات الرئاسية لعام 1900. وقد فاز المرشحان، ماكِّينلي-روزفلت، بهذه الانتخابات بسهولة. وعندما اغتيل ماكِّينلي في أيلول/سبتمبر عام 1901، دخل روزفلت المكتب البيضاوي بعد أن كان قد قضى ستة أشهر فقط في منصب نائب الرئيس. خلال عامه الأول كرئيس للولايات، سنحت لروزفلت الفرصة لفرض القوة الكاملة للنفوذ الأمريكي بعد سنوات من الإحباط بسبب عدم ثقة أسلافه في أنفسهم(**). جاءت هذه الفرصة عام 1902 عندما فرضت ألمانيا، مدعومة من بريطانيا وإيطاليا، حصارًا بحريًا حول فنزويلا بعد أن رفضت دفع ديون مضت على استحقاقها فترة طويلة. بعد فترة من الحصار، رفعت ألمانيا سقف عملياتها العدائية فأغرقت بعض السفن الفنزويلية وهددت بشن هجوم على ميناء بورتو كابيللو Puerto Cabello.

(*) يشير المؤلف هنا إلى المبدأ الذي أعلنه جيمس مونرو James Monroe الرئيس الخامس للولايات المتحدة، وآخر الرؤساء الذين ينتمون إلى ما يعرف بجيل الآباء المؤسسين founders fathers، في خطاب له أمام الكونغرس الأمريكي في 2 كانون الأول/ديسمبر 1823. (المُعرِّب)

(**) أعتقد أن هذا الرأي يحتوي على قدر لا بأس به من التعميم القاسي، وربما كان الأجدر بالمؤلف أن يقول "عدم ثقة بعض أسلافه في أنفسهم"، وأن ينتبه إلى أن بعض من يرميهم بعدم الثقة في أنفسهم كانوا محافظين أو متحفظين سياسيًا وتنفيذيًا، ولم يكونوا من فاقدي الثقة في أنفسهم، خاصة أن عددًا لا بأس به من هؤلاء الأسلاف كان قد شارك بشكل مباشر في الحرب الأهلية، ويكفي أن نشير إلى أن سلف روزفلت المباشر الرئيس وليم ماكِّينلي، آخر مَن تولى رئاسة الولايات المتحدة من بين مقاتلي الحرب الأهلية، هو صاحب انتصار بلاده في الحرب الأمريكية الإسبانية، وهو أول من فرض رسومًا لحماية الصناعات الأمريكية، كما أنه وقف في وجه كثير من الاقتصاديين، وتمسك ببقاء الذهب كغطاء للعملة الأمريكية، وكلها قرارات لا يتخذها شخص لا يثق في نفسه. يرجع هذا التعميم، وفقًا لتصوري الخاص، إلى تحيُّز المؤلف لروزفلت، وانبهاره به، مع التأكيد على أننا لا نقلل من الدور الرائد الذي لعبه روزفلت في إعادة تشكيل الدور الأمريكي في العالم، سواء اتفقنا مع رؤيته لهذا الدور أو اختلفنا معها. (المُعرِّب)

إحساسًا منه بما أسماه إدموند موريس، مؤرخه المُعتمد، "تطويقُ مُفْترِسٍ بعيد"، ولأنه كان يشك في أن ألمانيا تسعى إلى إقامة نقطة ارتكاز بَحْرية دائمة في فنزويلا، اغتنم الرئيس روزفلت الفرصة ليرسل إلى أوروبا رسالة لا يمكن أن يخطئ طرفٌ في إدراك مغزاها[35]. فقد حذر روزفلت برلين من أن الولايات المتحدة "ستكون مُلْزَمَة بالتدخل بالقوة إن لزِم الأمر، إذا لم تسحب ألمانيا سفنها خلال عشرة أيام"[36]. وطالب الأوروبيين بتسوية خلافاتهم مع فنزويلا من خلال التحكيم، الذي سوف يعد هو العدة له. وأصدر روزفلت تعليماته إلى السفير الألماني ثيودور فون هولِّبين Theodor von Holleben: "أخْبِر الإمبراطور أن محاولة خداعي مقامرةٌ خطيرة، لأن البوكر هو اللعبة الوطنية الأولى في الولايات المتحدة، وأنا على استعداد لكشف خِداعه". ولضمان أن القيصر لن يفوته إدراك ما يعنيه، واصل روزفلت حديثه إلى السفير الألماني: "إذا لم يسحب سفنه الحربية من المياه الإقليمية الفنزويلية فورًا، لن أتردد في استخدام ما أحتكم عليه من قوة لتدمير تلك السفن"[37]. كما حذَّر روزفلت القيصر من أنه "لن تكون ألمانيا في أي بقعة من العالم أكثر ضعفًا مما ستكون عليه في البحر الكاريبي، في حال نشب صراع بينها وبين الولايات المتحدة[38].

استحضرت مُطالبة روزفلت لألمانيا بأن تذعن للولايات المتحدة المبدأ الذي كان الرئيس جيمس مونرو قد أرساه عام 1823: لم يَعُد نصف الكرة الغربي مفتوحًا أمام الاستعمار الأوروبي أو التدخل الأجنبي[39]. ورغم اتساع مجال تطبيقه، كان مبدأ مونرو في الأصل نوعًا من الطموح أو التمني، أكثر منه قرارًا عمليًا قابلاً للتطبيق، وقد بقي هكذا حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولأن الولايات المتحدة كانت تفتقر إلى الوسائل اللازمة لفرض هذا المبدأ، لم تضع أية عراقيل أمام البريطانيين عندما استولوا على جزر فوكلاند Falkland من الأرجنتين عام 1833، ولم تمنعهم من الاحتفاظ بوجود بحري ملحوظ على امتداد سواحل نيكاراغوا، أو من الاستيلاء مؤقتًا على ميناء كورينتو Corinto في نيكاراغوا عام 1895. الألمان أيضًا أعربوا

عن رفضهم لهذا المبدأ، فكانوا يرسلون سفنهم الحربية من وقت إلى آخر، لتسوية نزاعات تجارية في بعض الدول الصغيرة مثل هايتي[40].

قبل فترة وجيزة من توليه منصب الرئاسة، كان روزفلت قد عقد العزم على أن يوفِّر لمبدأ مونرو أنيابًا ومخالب. فبعد أن احتلت بريطانيا كورينتو، خشي روزفلت أن يكون الدور قد أتى على فنزويلا. وقد أعرب عن مخاوفه هذه في رسالة إلى صديقه السيناتور هنري كابوت لودج Henry Cabot Lodge، أحدِ أعضاء جماعةٍ تمارس ضغوطًا في اتجاه التوسع. كتب روزفلت: "إذا سمحنا لبريطانيا بأن تغزو فنزويلا كنوعٍ من التعويض المادي، كما حدث في حالة كورينتو، سنفقد تفوُّقنا ومكانتنا في الأمريكتين[41]". إن تردد الرئيس غروفر كليفلاند(*) Grover Cleveland، وامتناعه عن اتخاذ موقف متشدد من تصرفات بريطانيا ضد فنزويلا، أفزع روزفلت، الذي قال في ما بعد "إن الصخب الذي تثيره الجماعات السياسية الداعية إلى السلام، يشعرني أن هذا البلد في حاجة إلى حرب"[42]. كانت إدارة كليفلاند قد حذرت بريطانيا، في خاتمة المطاف، من انتهاك مبدأ مونرو عبر تعديات مستعمراتها في غينيا البريطانية على أراضٍ تقول فنزويلا إنها تابعة لها. وأكدت إدارة كليفلاند أن الولايات المتحدة اليوم تمارس سيادتها في هذه القارة بشكل عملي، وأن أوامرها تسري مسرى القانون على الموضوعات التي يحق لها الاعتراض عليها". ولأن البريطانيين شعروا أن كليفلاند يعني ما يقوله، قبلوا، على مضضٍ، رسم الحدود الصحيحة المتنازَع عليها من خلال التحكيم بدلاً من اختبار مدى صبر أمريكا على مزاعم بريطانيا بشأن تلك الخلافات الحدودية، باعتبار أنها أمر واقع[43].

(*) ستيفن غروفر كليفلاند (28 آذار/مارس 1837 - 24 حزيران/يونيو 1908) الرئيس الثاني والعشرون، والرابع والعشرون للولايات المتحدة. أنتُخب أول مرة عام 1885، ليخلف شيستر آرثر Chester Arthur، الرئيس الحادي والعشرين، وأنتُخب مرة أخرى عام 1893، ليِخلف توماس هندريكس Thomas Hendricks، الرئيس الثالث والعشرين. وقد خلفه ويليام ماكِينلي، الرئيس الخامس والعشرون. (المُعرِّب)

تألَّق وجه روزفلت وهو يؤكد أن الولايات المتحدة "أصبحت قوية بما فيه الكفاية ليكون لكلمتها ثقل وتأثير في مجال السياسة الخارجية"، ولتُخرِس أولئك الذين يتساءلون عما إذا كان تهديد الولايات المتحدة لبريطانيا بسبب ما تفعله في منطقة نائية من أمريكا الجنوبية، عملاً عقلانيًا وقانونيًا. وقد كتب روزفلت: "مبدأ مونرو ليس مسألة قانونية، بل مسألة سياسية... والدفع بأنه لا يمكن الاعتراف به كمبدأ من مبادئ القانون الدولي، هو مجرد مضيعة للجهد"[44].

أظهر روزفلت التصميم نفسه في مواجهته مع برلين ولندن. فأقنع إنذارُه البلدين بسحب قواتهما من المياه الإقليمية لفنزويلا، وحل نزاعاتهما معها في لاهاي The Hague، بشروط مُرضية للولايات المتحدة. هكذا جاءت النتائج مبررةً لتصميم روزفلت وإصراره على "وجوب التعامل مع مبدأ مونرو باعتباره السمة الرئيسية التي تميز سياسة الولايات المتحدة الخارجية". وحذر روزفلت من "فرض مبدأ مونرو على الآخرين إلاّ إذا كنا عازمين على دعمه، لأن تطبيقه دون دعم أسوأ من تعطيله، ودعمُه لا يمكن أن يتم إلا بواسطة قوة بحرية جيدة تمامًا"[45]. إن التفوُّق البحري الأمريكي في الكاريبي يعبِّر عن الحزم بصورة يعجز عنها أيُّ كلام. قال روزفلت مخاطبًا جمعًا من المواطنين في شيكاغو: "إذا تحدثت الأمة الأمريكية بهدوء، بينما تبني قوة بحرية فعالة، وتحافظ عليها من خلال أعلى درجات التدريب، سوف يصل تنفيذ مبدأ مونرو إلى أبعد مدى"[46]. وقبل أن يمضي وقت طويل، عرف العالم إلى أي مدى يعتزم روزفلت أن يصل، في تطبيق هذا المبدأ.

قناة بنما

كانت القوى العظمى في أوروبا تحلم، منذ القرن السادس عشر، بقناة تصل المحيط الأطلسي بالمحيط الهادي. غير أن محاولاتٍ كثيرة لشق هذه القناة انتهت دون نتيجة. خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، شرعت فرنسا في

تنفيذ مشروع جاد بقيادة ذائع الصيت فرديناند دي ليسيبس Ferdinand de Lesseps، الذي كان وراء شق قناة السويس في ستينيات القرن نفسه. لكن المشروع غرق في سلسلة من الإخفاقات، كما فشلت مشروعات أمريكية وبريطانية مماثلة، جرت في كل من بنما وجارتها نيكاراغوا. مع تنامي القوة الأمريكية، تعهد روزفلت بأن يحقق ما عجز الآخرون عن تحقيقه، كما تعهد بأن يكون هذا الممر تحت سيطرة بلاده.

كان روزفلت يرى أن شق قناة عبر أراضي أمريكا الوسطى أمر مهم لدواعي الأمن القومي. فبدون هذه القناة يتحتم على السفن الأمريكية التي تتمركز على ساحل الأطلسي أن تقطع أربعة عشر ألف ميل(*)، في رحلة تستغرق أكثر من شهرين تدور أثناءها حول رأس هورن Cape Horn في شيلي(**)، للوصول إلى الساحل الغربي، وحماية المصالح الأمريكية في المحيط الهادي، والعكس صحيح. فعلى سبيل المثال، اضطرت المدمِّرة أوريغون Oregon التي كانت تتمركز في منطقة بيوجِت ساوند(***) Puget Sound إلى أن تعبر أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية بالكامل، لتتمكن من الوصول إلى كوبا أثناء الحرب الأمريكية الإسبانية[47]. ولمّا كانت هذه القناة ضرورة حيوية من وجهة نظر روزفلت، لم يكن مستعدًا لأن يسمح لأي شيء باعتراض سبيل تنفيذها، بما في ذلك قوة عظمى بعيدة مثل فرنسا، ومن بابٍ أَولى أمة من الدرجة الثانية مثل كولومبيا، التي كانت تسيطر على بنما، وتعتبرها مقاطعة تابعة لها، منذ عام 1821.

(*) المقصود هنا أربعة عشر ألف ميلٍ بحري، وهي مسافة تعادل ستة عشر ألف ميل، أو أربعة وعشرين ألف كيلومتر، على سطح الأرض. (المُعرِّب)

(**) تقع مدينة هورن عند أقصى الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية، في منطقة وعرة، شديدة البرودة، تهبُّ عليها طوال الوقت عواصف قوية، الأمر الذي يجعل الملاحة فيها مغامَرة محفوفة بالمخاطر. وأمام سواحل هورن، عند رأسها الذي يمتد مسافة طويلة داخل المياه، وترتفع أرضه عن سطح المحيط ما بين 150 و180 مترًا، ترتطم مياه المحيط الأطلسي بمياه المحيط الهادي، فينجم عن هذا الارتطام موجات هائلة عملاقة. (المُعرِّب)

(***) لسان بحري يمتد بطول الساحل الشمالي الغربي لولاية واشنطن الأمريكية المطل على المحيط الهادي وعلى جزء من بحر ساليش Salish Sea. (المُعرِّب)

عندما رفضت الحكومة الكولومبية عرضه بشق قناة تمر خلال المناطق التابعة لها في بنما، رفض روزفلت قبول هذا الرفض، وقال لاحقًا "لقد استوليت على البرزخ (الذي سوف تجري القناة خلاله)، وبدأت العمل (في شق القناة)، ثم تركت الكونغرس، لا ليناقش (موضوع) القناة، ولكن ليناقشني أنا"(*)(48). وقد اتهم المنتقدون روزفلت بافتعال ثورة في كولومبيا للاستيلاء على جزء من أراضيها، في حلقة مخزية من حلقات ما يُعرف بدبلوماسية القارب المسلح(**) gunboat diplomacy. لم يكن روزفلت ممن يبالون بالانتقادات، بل أعلن في ما بعد أنه يؤمن "أن أهم قرار اتخذته في مجال الشؤون الخارجية عندما كنت رئيسًا، هو ما يتعلق بقناة بنما"(49).

المؤرخ ديفيد ماكُّولَّه David McCullough وصف قصة القناة بأنها "أعظمُ المَشاهِد دراميةً" في فترة رئاسة روزفلت. وفي تقريره الشامل عن عملية إنشاء هذه القناة، كتب ماكُّولَّه أنه بالنسبة لروزفلت "كانت القناة أولاً، وأخيرًا، ودائمًا، الطريق الحيوي - الذي لا غنى عنه - لتحقيق ما قُدِّر للولايات المتحدة من مكانة على مستوى العالم"(50). وكما أبلغ روزفلت الكونغرس "إذا كانت هناك أية حكومة، قد تلقت في أي وقت من الأوقات، تفويضًا من الحضارة لإنجاز عمل كان مطلوبًا تحقيقه لصالح البشرية، فهي قطعًا الولايات المتحدة في تحمُّلها مسؤولية شق تلك القناة التي تصل ما بين محيطين"(51).

عندما رفض مجلس الشيوخ الكولومبي، بالإجماع، في آب/أغسطس 1903، المعاهدة التي تمنح الولايات المتحدة حق شق القناة، بسبب مخاوف واعتراضات تتعلق بالسيادة وبعض الشروط المالية، انفجر روزفلت غاضبًا

(*) الجُمل الموجودة بين قوسين في هذا الاقتباس هي من عندي أنا، أضفتها لإيضاح معنى الاقتباس المقتضب الذي اقتطعه المؤلف من حديث لروزفلت. (المُعرِّب)

(**) مصطلح أمريكي يعرف في بعض الأدبيات السياسية والتاريخية بدبلوماسية العصا الغليظة big stick diplomacy، يقصد به تحقيق أهداف سياسية من خلال التلويح بالقوة البحرية، والتأكيد على استخدام الطرف الأقوى تلك القوة إذا لم يستجِب الطرف الآخر لمطالبه. (المُعرِّب)

بسبب ما أسماه "جهلاً مُطْبِقًا". وقال لوزير خارجيته جون هاي John Hay، "لا أعتقد أنه ينبغي السماح لتلك الطغمة من القوارض البرية التي تعيش في بوغوتا(*) بأن تمنع إلى الأبد إنشاء واحدٍ من طرق المستقبل السريعة نحو الحضارة"(52). وردًا على قرار أعضاء مجلس الشيوخ الكولومبي، أعلن روزفلت أنه "عازم على عمل ما يجب عمله، دون أدنى اعتبار لهم"(**)(53).

اعتمد روزفلت، في بادئ الأمر، على تفسير غير موضوعي للمعاهدة الأمريكية الكولومبية الموقعة عام 1846، محاولاً إثبات أن أمريكا لديها، بالفعل، موافقة سارية المفعول على إنشاء القناة. وقد أفضى روزفلت إلى أحد حلفائه من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي بقوله "أنا أشعر أن لدينا مبررات أخلاقية لا شك فيها، وبالتالي، لدينا، وفقًا لمعاهدة 1846، مبررات قانونية للتدخل بسرعة، وإعلان أن القناة يجب أن تُنْشَأَ، وأنهم مُلْزمون بألا يمنعوا ذلك"(54). ولكن عندما جاء المهندس ورجل الأعمال الفرنسي فيليب بونو-فاريلا Philippe Bunau-Varilla بأخبار تقول إن ثورةً تختمر الآن في بنما، ترجَّل روزفلت عن حصانه، وقرر الاعتماد على أحصنة الآخرين.

في اجتماع بالبيت الأبيض عُقد في 9 تشرين الأول/أكتوبر 1903، بمشاركة بونو-فاريلا الذي كان إنشاءُ القناة يمثل مصلحة اقتصادية كبرى له،

(*) بوغوتا Bogota، هي عاصمة كولومبيا. (المُعرِّب)

(**) من الواضح أن إعلاء شأن الديموقراطية، واحترام سيادة الشعوب، والإقرار بحقها في تقرير ما تفعله على ترابها الوطني، تراثٌ متأصلٌ جينيًّا في تاريخ الولايات المتحدة، وفي وجدان قادتها. صحيح أنه قد يختفي لدورة رئاسية أو دورتين، لكنه سرعان ما يطل برأسه القبيح من جديد. ومن هنا يمكن أن نقول إن غزو كوريا والنجاح في تقسيمها، وغزو فيتنام والفشل في تقسيمها، والمحاولات المتكررة للإطاحة بنظام الحكم في كوبا وغيرها، لم تكن فقط وليدةً لـ"مكارثية" النصف الأول من القرن العشرين؛ وأن غزو العراق والسعي المتواصل إلى تقسيمه جغرافيًا بعد نجاح تقسيمه سياسيًا، لم يكن فقط اختراعًا مفاجئًا للمسيحية الصهيونية، الديانة الأمريكية للنصف الثاني من القرن العشرين، التي اعتنقها كثيرون، من بينهم وزير دفاع جورج بوش الابن دونالد رامسفيلد ووزيرة خارجيته كوندوليزا رايس؛ وأن محاولات تقسيم سوريا وليبيا لم تكن مجرد وليدةٍ لقصور رؤية باراك أوباما أو حماقات هيلاري كلينتون. (المُعرِّب)

طرح المهندسُ الفرنسي على الرئيس الأمريكي سؤالاً مباشرًا عما إذا كانت الولايات المتحدة سوف تدعم تمردًا بنميًا ضد حكم كولومبيا. أبدى روزفلت اعتراضه على السؤال، لكنه رفض أن يقول إن الولايات المتحدة سوف تدعم حلفاءها الكولومبيين ضد حركة الاستقلال. وبدلاً من إعلان ذلك، قال: "لا حاجة لي إلى حكومة تفعل ما فعلته هذه الحكومة". وقد ألمح في ما بعد إلى أن بونو-فاريلا "سوف يكون رجلاً غبيًا" لو لم يكن قد فهِم مغزى كلامه[55].

بعد التحقق من أن ما ذكره بونو-فاريلا عن ثورة محتملة كان صحيحًا، أرسل روزفلت سفنًا حربية لتراقب الساحل الكولومبي، وأمر الجيش الأمريكي بالاستعداد لعملية إنزال بري محتملة[56]. وقد أبلغ وزير الخارجية جون هاي المهندس الفرنسي بونو-فاريلا بتلك الاستعدادات. في 2 تشرين الثاني/نوفمبر، أصبح بالإمكان مشاهدة السفينة الحربية الأمريكية يو إسْ إسْ ناشفيل USS Nashville من شواطئ كولون[*] Colón، بالإضافة إلى تسعة قوارب مسلحة أخرى على سواحل بنما المطلة على المحيط الأطلسي والمطلة على المحيط الهادي[57].

في 3 تشرين الثاني/نوفمبر، أصدر المتمردون إعلان استقلال بنما، فدخلت فرقة من مشاة الأسطول الأمريكي إلى البلاد، وأغلقت خطوط السكك الحديدية لمنع القوات الكولومبية من الوصول إلى مدينة بنما، بينما منعت السفن الحربية الأمريكية الكولومبيين من إرسال تعزيزات بحرية إلى مناطق التمرد. في الوقت نفسه، حذر روزفلت الحكومة الكولومبية من أنها سوف تواجَه بقواتٍ أمريكية على أراضيها، إذا ما حاولت الاعتراض على استقلال بنما والتصدي له. وبعد أقل من اثنتين وسبعين ساعة من إعلان متمردي بنما الاستقلال عن كولومبيا، كانت الولايات المتحدة أول دولة في العالم تعترف بالدولة الجديدة، وتقيم معها علاقات دبلوماسية[58].

تفاوض بونو-فاريلا، وأنجز بسرعة، معاهدة جديدة منحت الولايات

(*) الميناء الرئيسي لبنما اليوم، وهو يقع عند نهاية قناة بنما من الناحية التي تُطل على المحيط الهادي. (المُعرِّب)

المتحدة "إلى الأبد" حق ملكية القناة التي سوف يتم إنشاؤها، مقابل 10 ملايين دولار تدفع مقدمًا، و250,000 دولار تدفع كل عام. وهي صفقة اعترف وزير خارجية روزفلت سرًا بأنها "مُرضية للغاية، ومفيدة للولايات المتحدة إلى حد بعيد جدًا، ويجب علينا أن نعترف أنها، رغم أي تظاهر بعكس ذلك، ليست مفيدة لبنما بالمثل"[59]. وقد اثبتت الترتيبات خلال الأعوام التالية أن المعاهدة تفتقد إلى التوازن والعدالة بشكل أكبر مما بدت عليه على الورق. فعلى سبيل المثال، بينما استمرت بنما في الحصول على 250,000 دولار فقط من عائدات القناة كل عام، جمعت الخزانة الأمريكية من وراء تلك العائدات 1 مليون دولار عام 1921، و14 مليون دولار عام 1925، وما يفوق 18 مليون دولار سنويًا خلال الفترة من 1928 إلى 1930[60]. علاوة على ذلك، تلك الأرقام لا تتضمن تأثير القناة على انخفاض تكلفة الشحن، الأمر الذي أدى إلى انخفاض أسعار البضائع المستوردة في الأسواق الأمريكية، وزيادة قدرة المنتجات الأمريكية على المنافسة في الأسواق العالمية. خلال السبعينيات من القرن الماضي، تجاوزت عائدات القناة 100 مليون دولار سنويًا، ومع نهاية القرن العشرين، عندما وافقت الولايات المتحدة أخيرًا على نقل ملكية القناة إلى بنما، بموجب المعاهدة التي وقَّعها الرئيس الأسبق جيمي كارتر(*)، كانت عائدات القناة قد وصلت إلى 540 مليون دولار سنويًا[61]. وإذا ما نظرنا إلى الصورة بكامل أبعادها، فإن المقارنة بين إجمالي ما دفعته الولايات المتحدة إلى بنما طبقًا

(*) وقَّع كارتر معاهدة نقل ملكية القناة إلى بنما عام 1977، وتمت عملية نقل الملكية في كانون الأول/ديسمبر عام 1999، في احتفال حضره كارتر، وامتنع عن حضوره كبار المسؤولين الأمريكيين وقتها، وعلى رأسهم الرئيس بيل كلينتون Bill Clinton، ووزيرة خارجيته مادلين أولبرايت Madeleine Albright. وقد وصف كارتر يومها معاهدة إنشاء القناة بالجائرة والمجحفة بحقوق بنما. من غرائب السياسة الأمريكية أن الأمريكيين هاجموا كارتر يومها، لأنه وقَّع معاهدة نقل ملكية القناة مع رئيس جاء عبر انقلاب عسكري، غافلين عن أنهم لم يحصلوا على امتياز القناة إلا من خلال حكومة جاءت بانقلاب عسكري، بل وصنعت عن طريق هذا الانقلاب دولة جديدة. وعندما حان موعد تسليم القناة، رفضت إدارة كلينتون المشاركة بسبب حكاية الانقلاب، رغم أن الجنرال المُنقلِب، عمر تورِّيخوس Omar Torrijos، الذي وقَّع المعاهدة مع كارتر عام 1977، كان قد قُتل في حادث تحطم طائرة عام 1981، أي قبل ثمانية عشر عامًا من موعد التسليم. (المُعرِّب)

للمعاهدة النهائية، والمَبالغ التي كان من المفترض أن تدفعها (أو أن تدفعها فرنسا) وفقًا لستة عقود سابقة (أقل قهرية)، تكشف أن الصفقة التي قام بها روزفلت حرمت بنما من دخل سنوي يتراوح بين 120 و370 في المائة من إجمالي ناتجها المحلي[62].

وقد بقي روزفلت، حتى آخر يوم من عمره، مُصرًا على أن ثورة بنما كانت تعبيرًا طبيعيًا عن إرادة شعبها في الاستقلال ورغبته في تشييد القناة[63]. ورغم الابتهاج بنتائج عمل روزفلت، لم يكن أحد مقتنعًا بكلامه، فحتى مؤيدوه كانوا يصفون وجهة نظره بأنها: "هُــراءٌ وكــلام فــارغ". وقد قال له وزير الحرب في حكومته ذات يوم: "لقد تظاهرتَ بأنك كنتَ متهمًا بالإغواء، لكنك أثبتَّ، بشكل قاطع، أنك مذنب بجريمة اغتصاب"[64].

النزاع الحدودي على ألاسكا

روزفلت الذي كان يدعم ويشجع حركة الاستقلال في بنما، أثار، في الوقت نفسه تقريبًا، خلافًا حدوديًا مع جارة الولايات المتحدة الشمالية كندا، ومع بريطانيا - الراعي الإمبراطوري لتلك الجارة - حول الحدود بين غرب كندا، وما سوف يصبح في ما بعد ولاية ألاسكا الأمريكية[*].

واليوم، نستطيع أن نرى بوضوح نتيجة الخلاف حول ألاسكا على خريطة أمريكا الشمالية. فمن الكتلة القاريّة للأسكا، نلاحظ خروج شريط ثخين من اليابسة يمتدّ جنوبًا بطول نحو خمسمائة ميل، عازلاً كندا عن

(*) من خلال النشاط التجاري والاستيطاني، استقرت السيطرة الروسية على ألاسكا اعتبارًا من عام 1799. وبعد أقل من 70 عامًا، ساءت الأوضاع المالية للإمبراطورية الروسية، وقلّت عائدات التجارة مع المستوطنين، وسيطر على الروس الخوف من سقوط ألاسكا في أيدي الإمبراطورية البريطانية، التي كان وجودها في ألاسكا قد سبق الوجود الروسي هناك. لذلك، قررت روسيا بيعها إلى الولايات المتحدة. وفي 1 آب/أغسطس 1876، تمت الصفقة مقابل شيك مسحوب على البنك المركزي الأمريكي، قيمته 7,200,000 دولار، فإذا علمنا أن مساحة ألاسكا تقدر بنحو 1,717,856 كيلو مترًا مربعًا، سنكتشف أن الولايات المتحدة اشترتها من روسيا مقابل ثمن لا يتجاوز 4,2 دولارات للكيلو متر المربع. (المُعرِّب)

المحيط الهادي. لقد ورثت الولايات المتحدة الحدود، غير المحددة بدقة، بين كولومبيا البريطانية ولسان ألاسكا Alaska Panhandle، عندما اشترت ألاسكا من روسيا عام 1867. وعلى مدار عدة سنوات لم تجد واشنطن غضاضة في ترك الحدود غير واضحة(65). وعقب انضمام كولومبيا البريطانية إلى الاتحاد الفيدرالي الكندي عام 1871، بُذلَت محاولات متقطعة لتحديد الحدود. غير أن تلك المحاولات لم تفض إلى نتيجة، وبقي الوضع على ما هو عليه إلى أن اكتُشِفَ الذهب في يوكون(*) Yukon الكندية عام 1897. فجأة اكتسبت مسألة تعيين الحدود أهمية جديدة ملحّة، لسبب بسيط: كانت مناجم الذهب في كندا، بينما تتحكم الولايات المتحدة في الطرق الحيوية من المحيط إلى كلوندايك(**) Klondike، التي كان الوصول إليها عن طريق البر، من داخل كندا، أمرًا بالغ الصعوبة. طالبت كندا بأن تبدأ حدودها على بعد ثلاثين ميلاً من أطراف الجزر الصغيرة التي تقع قُبالة الساحل، وليس على بعد ثلاثين ميلاً من الساحل (وهي الطريقة التي اعتادت الولايات المتحدة على تطبيقها). كان ترسيم الحدود وفقًا للطريقة التي تطالب بها كندا يضمن لها طريقًا مباشرًا إلى البحر، ويمنحها ملكية جونو Juneau، وسكاغواي Skagway، وقناة لين Lynn Canal، وخليج غلاسير Glacier Bay(66).

شكَّك روزفلت في المطالب الكندية التي وصفها بأنها "لا حُجَّة لها على الإطلاق، وأنها لا تختلف عن المطالبة بملكية جزيرة نانتاكيت(***) Nantucket.(67) وبعد إرسال قوات لحماية الحدود المُعترف بها أمريكيًا،

(*) يوكون هي المقاطعة الأصغر من بين ثلاث مقاطعات تقع في أقصى الشمال الغربي لكندا، كما أن عدد سكانها هو الأقل بين أعداد سكان سائر المقاطعات الكندية، إذ لا يتجاوز 36,000 نسمة. (المُعرِّب)

(**) منطقة من المناطق الوعرة في مقاطعة يوكون، اكتُشف فيها الذهب في آب/أغسطس عام 1896، فسارع بالهجرة إليها أكثر من مائة ألف من المنقِّبين الباحثين عن الثراء، في ما عُرف بحمّى ذهب كلوندايك Klondike Gold Rush. وهي تسمية تُعيد إلى الأذهان ظاهرة حمّى الذهب التي تفشت في أنحاء متفرقة من الأمريكيتين، خاصة الولايات المتحدة، في أواخر القرن السابع عشر. (المُعرِّب)

(***) جزيرة سياحية صغيرة تقع على بعد نحو 30 ميلًا جنوبي كاب كود Cape Cod، على ساحل ولاية ماساشوسِتس Massachusetts الأمريكية. تُعَد الجزيرة أفضل نموذج حي لما كان عليه

هدّد روزفلت باللجوء إلى إجراءات عنيفة ضد كندا إذا تطلَّب الأمر ذلك. كما حذَّر السفيرَ البريطاني، خلال لقاء خاص، من أن الأمر سيأخذ منحىً قبيحًا، إذا حاولت بريطانيا أو كندا الوقوف في وجهه[68]. غير أن روزفلت، استجابة منه لالتماس من وزير الحرب رووت(*)، وافق على عرض النزاع الحدودي على محكمة دولية، خاصة بعد أن أكد له رووت أن المحكمة سوف تصدِّق على وجهة النظر الأمريكية. وكي يفي رووت بوعده لروزفلت، شكَّل المحكمة بشكل يمنح كلَّ جانبٍ حق اختيار ثلاثة قضاة، وبذلك يكون قد ضمِن، في أسوأ الأحوال، الحصول على تصويت منقسم بنسبة 3 إلى 3. وحتى لا يُتركُ شيءٌ للصدفة، عيَّن روزفلت ثلاثة من أقرب حلفائه الذين يشاركونه نهجه في التفكير - لودج، وروت، والسيناتور السابق جورج تيرنر - George Turner رغم أن القواعد المنظِمة لعمل المحكمة تدعو إلى وجود قضاة محايدين. كذلك لم يكن هناك شك في الاتجاه الذي سوف يذهب إليه تصويت اثنين من أعضاء الفريق الكندي[69]. لهذا، أصبح العضو الثالث والأخير في الفريق الكندي - كبير قضاة بريطانيا اللورد ألفِرستون - Lord Chief Justice Alverstone of Britain صاحبَ الصوت الحاسم أو المُرجِّح.

طمأن رووت روزفلت إلى أن البريطانيين (من خلال ألفِرستون) سوف يدعمون المطالب الأمريكية لأنها في صالحهم بشكل واضح جدًا. فإذا تَذكَّرنا الإذعان الذي أبدته بريطانيا في تسوية نزاعين حدوديين مع فنزويلا عام 1895 وعام 1902، سنعرف أنها لا يمكن أن تدخل في مواجهة مع الولايات المتحدة حول قضية ثانوية كهذه. ومع ذلك، وحتى لا يدع

الطراز المعماري والطراز البيئي لموانئ نيو إنغلند New England في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. (المُعرِّب)

(*) إليهو رووت Elihu Root (15 شباط/فبراير 1845 - 7 شباط/فبراير 1937)، شغل منصب وزير الحرب في إدارة الرئيس ثيودور روزفلت من 19 تموز/يوليو 1905 إلى 27 كانون الثاني/يناير 1909. من المفارقات الغريبة في حياة هذا الرجل أنه، رغم كونه وزيرًا للحرب، كان ضد التدخل الأمريكي في كولومبيا، حتى أنه شبهه بجريمة اغتصاب، كما كان ضد حل النزاع الحدودي مع كندا عن طريق القوة، لهذا اقترح على روزفلت فكرة التحكيم الدولي، وأصر عليها. (المُعرِّب)

شيئًا للصدفة، استغل روزفلت الزيارة التي قام بها قاضي المحكمة الدستورية العليا أوليفر ويندل هولمز الابن .Oliver Wendell Holmes Jr إلى لندن، وكلفه بتحذير وزير المستعمرات البريطاني من أنه "إذا وصلت المحكمة إلى طريق مسدود، سوف أتخذ موقفًا يقضي على إمكانية اللجوء إلى التحكيم من الآن فصاعدًا". كما طلب من هاي أن يُذكِّر لندن بأنه إذا لم تتمكن المحكمة من التوصل إلى اتفاق فوري، "سوف تُضْطرّ الولايات المتحدة إلى التصرف بطريقة تجرح حتمًا كبرياء بريطانيا"[70]. كان روزفلت أكثر صراحةً ووضوحًا مع أعضاء الجانب الأمريكي في المحكمة: "أنا لا أريد قرارات سريعة، ولكن في حالة أي اعتراض مُماحِك أو مُخادِع من جانب الإنجليز، سوف أرسل لواءً من القوات النظامية الأمريكية إلى ساكاغواي، للاستيلاء عليها، وضمِّها، بقوة الولايات المتحدة وسلطانها"[71].

أذعنت لندن للضغوط الأمريكية، وفي تشرين الأول/أكتوبر 1903، أصدرت المحكمة قرارها بأغلبية أربعة أصوات مقابل صوتين، لتمنح الولايات المتحدة نصرًا ساحقًا تمثَّل في الاستجابة لكافة مطالبها الحدودية. كان صوت ألفِرستون حاسمًا، وقد رفض المُفوَّضان الكنديان التوقيع على صيغة الحكم النهائي، مُحتجَّيْن بأنهما كانا "عاجِزيْن عن منع" مكائد الولايات المتحدة وبريطانيا. وقد أثار الحكم، داخل كندا، واحدة من أشدِّ موجات الغضب والاستياء حدَّةً وكثافة في تاريخ البلاد، على حد تعبير المؤرخ الكندي نورمان بينلينغتون. فقد رأت الصحافة أن كندا "ضُحِيَّ بها"، وأنها "خُدِعَت"، وأن "حقَّها سُلِبَ منها"، كما سخرت الصحافة الكندية من ألفِرستون الذي باع كندا، إرضاء للرئيس الأمريكي الجشِع[72]. على الجانب الآخر، ذكرت صحيفة واشنطن مورنينغ بوست Washington Morning Post أن روزفلت وإدارته "يعتبرون أن قرار المحكمة هو، بكل المقاييس، أعظم نجاح دبلوماسي حققته الولايات المتحدة على مدار جيل كامل"[73]. ففي مقابل عدد قليل من التنازلات الصغيرة لصالح كندا، احتفظت الولايات المتحدة بشريط ساحلي ممتد ومتصل: خمسة وعشرون

ألف ميلٍ مربعٍ من الساحل والجزر، بالإضافة إلى مضيق ألاسكا، وجزءٍ من براري تسونغاس Tsongas البكر، التي ستصبح أكبر الغابات الوطنية في أمريكا. عندما تمَّ كل شيء قولاً وعملاً، أضافت الأرض التي ربحها روزفلت من كندا، إلى الأراضي الأمريكية، مساحةً تقارب مساحةَ رود آيلاند Rohde Island(*)(74).

وتَخَيُّل "لازِمة شـــي جينبينغيَّة"(**)

مُنْتعِشًا بانتصاراته على إسبانيا وألمانيا وبريطانيا، وهيمنته التي تمتد من ألاسكا إلى فنزويلا، أعلن روزفلت في خطابه عن حالة الاتحاد لعام 1904، أن الولايات المتحدة أصبحت مسؤولة عن حفظ السلم والاستقرار في جوارها الجيوبوليتيكي. "إن الأفعال الخاطئة المزمنة، أو العجز الذي يؤدي إلى تفكك عُرَى المجتمع المتحضر، سواء في أمريكا أو في أي مكان آخر، أمورٌ تتطلب في النهاية تدخلاً من أمة متحضرة، وفي ما يتعلق بنصف الكرة الغربي، يحتم الالتزام بمبدأ مونرو على الولايات المتحدة، أن تمارس، ولو على مضض، دور الشُّرطيِّ الدُّوليِّ، في الحالات الصارخة التي تشهد أعمالاً خاطئة، أو عجزًا عن القيام بتصرفات واجبة"(75). وقد أصبح هذا القرار معروفًا باسم اللّازِمَة الروزفلتيَّة لمبدأ مونرو Roosevelt Corollary to the Monroe Doctrine.

(*) واحدة من ولايات نيو إنغلند التي تقع على المحيط الأطلسي في الشمال الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية. تُعَدُّ رود آيلاند أصغر الولايات الأمريكية على الإطلاق، إذ تبلغ مساحتها 1214 ميلًا مربعًا، أي ما لا يتجاوز 3144 كيلومترًا مربعًا. (المُعرِّب)

(**) اللّازِمَة corollary، قضية تُسْتنتَج بشكل مباشر من قضية أخرى، فإذا وجِدت الأولى، كان وجود الثانية حتميًا. وهي نتيجة حتمية لنظرية ثبتت صحتُها بالتجربة والبرهان. هي إذًا أمر يُصاحب أمرًا ويلازمه. وهنا ينسب المؤلف اللازمة إلى الزعيم الصيني شِي جين بينغ، وقد فضلت كتابتها بهذا الشكل المدمج، ليخرج الاسم كلمة واحدة. (المُعرِّب)



كارتون سياسي يصور النسر الأمريكي كطائر نَهِم، يبحث عن فريسة جديدة في أعقاب ما فعلته الولايات المتحدة في بنما وألاسكا. نشر الكارتون في صحيفة ستار التي كانت تصدر في مونتريال 1903

النسر الأمريكي: "دعنا نتفقد، ماذا يوجد لدينا هنا أيضًا؟"

صحيفة ستار (مونتريال)

وقد كشف روزفلت، في ما تبقى من فترته الرئاسية، عن مفهومه الخاص لمصطلحات مثل "القيام بأفعال خاطئة" أو "العجز عن القيام بتصرفات واجبة". فقد تدخل عسكريًا في جمهورية الدومينيكان، وهندوراس، وكوبا، خلال فترات من عدم الاستقرار التي شهدتها تلك البلدان ومثّلت خطرًا على مصالح الولايات المتحدة التجارية. ورغم فشل محاولات روزفلت للإطاحة بحكومة المكسيك، شجَّع خلفُه ويليام هوارد(*) William Howard الثوار المكسيكيين المقيمين في الولايات المتحدة على

(*) ويليام هوارد تافت William Howard Taft (15 أيلول/سبتمبر 1857 - 8 آذار/مارس 1930)، الرئيس السابع والعشرون للولايات المتحدة (1909-1913). وبعد انتهاء ولايته بسنوات، شغل هوارد منصب رئيس المحكمة الدستورية العليا منذ عام 1921 حتى قبيل وفاته بأيام في عام 1930، ليكون بذلك الشخص الوحيد في تاريخ الولايات المتحدة الذي تولى أعلى منصب تنفيذي، وأعلى منصب قضائي في البلاد. (المُعرِّب)

تسليح أنفسهم، وتنظيم صفوفهم ضد الرئيس المكسيكي بورفيريو دياز(*) Porfirio Díaz، كما قدم لهم الدعم اللازم بعد الإطاحة به. وعندما بدأ هؤلاء الثوار في إثارة المشاكل للولايات المتحدة، دعم هاورد انقلابًا عسكريًا أطاح بهم. لقد تدخلت الولايات المتحدة، من خلال مشاة الأسطول أو السفن الحربية، في أمريكا اللاتينية إحدى وعشرين مرة في السنوات الثلاثين التي مرت منذ الإعلان عن اللاّزِمَة الروزفلتيَّة وحتى إعلان الرئيس فرانكلين روزفلت عن سياسة حُسْن الجوار Good Neighbor Policy، في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي، مُتخليًّا عن أسلوب التدخل الذي كان ابنُ عمِه وسَلَفُه - ثيودور روزفلت - يتبناه بحماس شديد.

كان ثيودور روزفلت قد أخبر أحد أصدقائه - بعد أن غادر البيت الأبيض - أنه: "إذا كان عليّ أن أختار بين سياسة الحديد والدم، وسياسة الحليب والماء، سوف أختار الأولى، ليس لأنها الأفضل بالنسبة للأمة فقط، ولكن لأنها الأفضل للعالم كله، على المدى الطويل"[(76)]. ومع ذلك، لا يزال تأثير "مهمة روزفلت الحضارية" و"قوته الشُرَطيَّة" مصدرَ إزعاج للكثيرين في نصف الكرة الغربي[(77)]. في عام 1913، خاطب الكاتب والزعيمُ السياسي الأرجنتيني مانويل أوغارتي Manuel Ugarte الرئيس الأمريكي المنتخب لتوِّه وودرو ويلسون(**) Woodrow Wilson مشيرًا، دون لفٍ أو دوران، إلى أن الكثير من دول أمريكا اللاتينية "أصبحت مجالاً مفتوحًا

(*) بورفيريو دياز José de la Cruz Porfirio Díaz Mori (15 أيلول/سبتمبر 1830- 2 تموز/يوليو 1915) قائد عسكري وسياسي، تولى حكم المكسيك لسبع فترات رئاسية دامت ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا، من 1 كانون الأول/ديسمبر 1884 إلى 25 أيار/مايو 1911. ورغم كراهية الإدارة الأمريكية الشديدة لدياز، يرى كثير من المؤرخين أن فترة حكمه كانت عصرًا ذهبيًا للمكسيك، حيث وصل اقتصادها إلى حجم الاقتصاد البريطاني والفرنسي والألماني. وقد حصل دياز على أوسمة ونياشين من 17 دولة حول العالم، ليس من بينها الولايات المتحدة، بالطبع. (المُعرِّب)

(**) وودرو ويلسون Woodrow Wilson (28 كانون الأول/ديسمبر 1856- 3 شباط/فبراير 1924)، الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة (1913-1921). كان ويلسون سياسيًا وأكاديميًا مرموقًا على الساحة الداخلية، كما كان له دور رائد في مؤتمر السلام الذي عقد في باريس عام 1919، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. (المُعرِّب)

لأحقر الغرائز التي لا يمكن التغاضي عنها في الولايات المتحدة نفسها، لأنها تُعَدُّ انتهاكًا للمسؤولية الجماعية والرأي العام... ونتيجة لهذا السلوك، أصبحت الولايات المتحدة، تدريجيًا، أقل دول العالم شعبية بيننا". وقد لخص دياز هذه المشاعر في جملة رثاء شهيرة تقول: "ما أتعس حظ المكسيك، بعيدة جدًا عن الله، وقريبة جدًا من الولايات المتحدة"[78].

اليوم، ونحن نشهد جرأة الصين المتجددة في منطقتها، وعلى وجه الخصوص في مناطق بحر الصين الجنوبي وبحر الصين الشرقي الملاصقة لها، هل يذكِّرنا ذلك بتصرفات ثيودور روزفلت في منطقة الكاريبي؟ لو أصبح للصين نصف ما كان لأمريكا روزفلت من مطالب وتطلعات، هل يستطيع القادة الأمريكيون اليوم إيجاد طريقة للتكيُّف مع مطالب الصين وتطلعاتها ببراعة، كما فعل البريطانيون في ما مضى؟ إن استعراض مجريات الأحداث حتى هذه اللحظة، يظهر أن نقاط الاختلاف بين شِي جين بينغ وثيودور روزفلت أكثر إثارة للانتباه من نقاط التشابه بينهما. ومع ذلك، هناك علامات قليلة تشير إلى أن الأمريكيين يُعِدُّون أنفسهم لتقبُّل مصير بريطانيا. ولو أن ثيوسيديديز موجود بيننا اليوم، يراقب اتجاهات الأحداث، من المرجح أنه كان سيقول: اربطوا أحزمة الأمان، فأنتم لم تروا شيئًا بعد.

هوامش

الفصل الخامس

(1) صعود ثيودور روزفلت The Rise of Theodore Roosevelt، تأليف إدموند موريس Edmond Morris.

(2) مذكرة إلى الرئيس ويليام ماكّينلي في 26 نيسان/أبريل 1897. الرسائل المختارة لثيودور روزفلت The Selected Letters of Theodore Roosevelt، إعداد هـ. و. براندز H. W. Brands، 2001.

(3) صعود ثيودور روزفلت، تأليف إدموند موريس.

(4) خلال سنوات رئاسة ثيودور روزفلت تدخلت الولايات المتحدة ثلاث مرات في كولومبيا، ومرتين في هندوراس وجمهورية الدومينيكان، ومرة واحدة في كل من كوبا وبنما. لمطالعة ملخص عن تلك التدخلات وتدخلات أخرى حتى عام 1935، يمكن مراجعة كتاب الإمبراطورية كنمط حياة Empire as a Way of Life، تأليف ويليام أبّلمان وليامز William Appleman Williams، 1980. كما يمكن الحصول على وثيقة PDF بعنوان حالات استخدام القوات المسلحة الأمريكية في الخارج بين عامي 1798-2015 Instances of Use of United States Armed Forces Abroad, 1798-2015، وذلك عبر الرابط التالي: https://fas.org/sgp/crs/natsec/R42738.pdf، والوثيقة من إعداد إدارة البحوث في الكونغرس الأمريكي.

(5) التوسع والسلام Expansion and Peace، جزء من الحياة المُضْنية The Strenuous Life، حديث لثيودور روزفلت، 10 نيسان/أبريل 1899. يمكن متابعة الحديث على الرابط التالي: http://voicesofdemocracy.umd.edu/roosevelt-strenuous-life-1899-speech-text/.

(6) من الخطاب الذي ألقاه في كلية الحرب البحرية في 2 حزيران/يونيو 1897. يمكن الحصول على نص الخطاب في وثيقة PDF، على الرابط التالي: http://www.theodore-roosevelt.com/images/research/speeches/tr1898.pdf.

(7) قَدَرُنا: دراسة للتوسعية القومية في التاريخ الأمريكي Manifest Destiny: A Study of Nationalist Expansionism in American History، تأليف ألبِرت فاينبِرغ Albert Weinberg، 1935.

(8) الاستيلاء على الغرب، الجزء الأول، تأليف ثيودور روزفلت.

(9) شرف في التراب: ثيودور روزفلت، الحرب في الفيليبين، وصعود وانهيار الحلم الإمبراطوري الأمريكي Honor in the Dust, Theodore Roosevelt, War in the Philippines, and the Rise and Fall of America's Imperial Dream، تأليف غريغّ جونز Gregg Jones، 2012.

بعد ما يقرب من سبعين عامًا من عبارة روزفلت تلك، أشار فان وُودْوُرد Van Woodward إلى أن "الأمان المجّاني الذي تمتعت به الولايات المتحدة - بفضل هدية الطبيعة التي تمثلت في المحيط الأطلسي، والمحيط الهادي، والمحيط المتجمد الشمالي، بالإضافة إلى الحماية التي وفّرها لها الأسطول البريطاني في المحيط الأطلسي في ثمانينيات القرن التاسع عشر، بينما كانت السفن التجارية الأمريكية تقطع البحار ذهابًا وإيابًا - كان له دورٌ فعّالٌ في نمو القوة الأمريكية ونزعاتها التوسعية". وأضاف وُودْوُرد: "طالما كانت الأرض المجانية خصبة وقابلة للزراعة، وطالما أن الأمن ليس فقط مجانيًا، بل وقوي وفعّال، لا عجب إذًا أن يبدو العالم كمخزن خيرات خاص، تغترف منه أمريكا ما تشاء". يمكن مراجعة الدراسة التي كتبها وُودْورد بعنوان عصر إعادة التأويل The Age of Reinterpretation، ونشرت في العدد رقم 66 من مجلة مُراجعات تاريخية أمريكية American Historical Review الذي صدر في تشرين الأول/أكتوبر عام 1960.

(10) حرب 1812 البحرية The Naval War of 1812، تأليف ثيودور روزفلت، 1882، وأعيد نشره في 1999.

(11) من الخطاب الذي ألقاه تشرشِل في كلية الحرب البحرية في حزيران/يونيو 1897.

(12) كيف يصبح الأعداء أصدقاء: مصادر السلام المستقر How Enemies Become Friends: The Sources of Stable Peace، تأليف تشارلز كوبكان Charles Kupchan، 2010.

(13) التوسع والسلام، حديث لثيودور روزفلت.

(14) قَــدَرُنــا: دراسة للتوسعية القومية في التاريخ الأمريكي، تأليف ألبِرت فاينبرغ.

(15) تمدُّد الجنس الأبيض The Expansion of the White Race: خطاب ألقاه روزفلت أثناء الاحتفال باليوبيل الماسي للكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية، في العاصمة الأمريكية واشنطن، 18 كانون الثاني/يناير 1909. يمكن الوصول إلى نص الخطاب عبر الرابط التالي: http://www.theodore-roosevelt.com/images/research/speeches/trwhiteraces.pdf.

(16) الخطاب السنوي الرابع لثيودور روزفلت، 6 كانون الأول/ديسمبر 1904. يمكن الوصول إلى الخطاب عبر الرابط التالي: http://www.presidency.ucsb.edu/ws/?pid=29545.

(17) الخطاب السنوي الأول لثيودور روزفلت، 3 كانون الأول/ديسمبر عام 1901. يمكن الوصول إلى الخطاب عبر الرابط التالي: http://www.presidency.ucsb.edu/ws/?pid=29542.

(18) الزعامة الرئاسية وخلق العصر الأمريكي Presidential Leadership and the Creation of the American Era، تأليف جوزيف ناي، 2013.

(19) الحياة المُضْنية The Strenuous Life، حديث لثيودور روزفلت، 10 نيسان/أبريل 1899. يمكن متابعة الحديث على الرابط التالي: http://voicesofdemocracy.umd.edu/roosevelt-strenuous-life-1899-speech-text/.

(20) مبدأ مونرو The Monroe Doctrine، مقال لثيودور روزفلت، نشر في مجلة بكالوريوس الآداب The Bachelor of Arts، في آذار/مارس عام 1896.

(21) كوبا في الخيال الأمريكي: الاستعارة والروح الإمبراطورية Cuba in the American Imagination: Metaphor and the Imperial Ethos، تأليف لويس بيريز الابن Louis Pérez Jr، 2008.

(22) بدءًا من الستينيات من القرن التاسع عشر، واجهت إسبانيا عددًا من حركات الاستقلال الكوبية المتتالية: حرب السنوات العشر (1868–1878)، الحرب الصغيرة (1879–1880)، وأخيرًا حرب الاستقلال (1895–1898)، التي أدت إلى التدخل الأمريكي.

(23) صعود ثيودور روزفلت، تأليف إدموند موريس.

(24) يمكن مراجعة خطاب التنصيب الأول للرئيس الأمريكي ويليام ماكّينلي، في 4 آذار/مارس 1897، على موقع مشروع أفالون الذي تنظمه كلية الحقوق ييل Avalon Project, Yale Law School، من خلال الرابط التالي: http://avalon.law.yale.edu/19th_century/mckin1.asp.

(25) يمكن قراءة نموذجين من الرسائل التي أعرب فيها روزفلت عن رغبته في طرد الإسبان من كوبا، في كتاب صعود ثيودور روزفلت، تأليف إدموند موريس. وبالنسبة لملحوظاته لماهان، يمكن مراجعة رسالة إلى ألفريد ثاير ماهان، في 3 أيار/مايو 1897، التي وردت ضمن كتاب الرسائل المختارة لثيودور روزفلت، إعداد هـ. و. براندز H. W. Brands. وفي صفحة 560 من كتاب صعود ثيودور روزفلت يكشف إدموند موريس عن عدم ارتياح ماكِّينلي لأن روزفلت "يعمل على توريط الولايات المتحدة في الحرب".

(26) ويليام راندولف هيرست: السنوات الأولى، 1863-1910 William Randolph Hearst: The First Years, 1863-1910، تأليف بِنْ بروكتِر Ben Procter، 1998.

(27) صعود ثيودور روزفلت، تأليف إدموند موريس.

(28) يمكن مراجعة رسالة إلى هيرمان سبيك فون شتيرنبيرغ، بتاريخ 17 كانون الثاني/يناير 1898، في كتاب الرسائل المختارة لثيودور روزفلت، إعداد هـ. و. براندز.

(29) صعود ثيودور روزفلت، تأليف إدموند موريس.

(30) شرف في التراب: ثيودور روزفلت، الحرب في الفيليبين، وصعود وانهيار الحلم الامبراطوري الأمريكي، تأليف غريغّ جونز.

(31) لم يوجه التحقيق الاتهام صراحة إلى عناصر إسبانية أو كوبية، ولكن كان من الواضح أن الانفجار حدث بسبب عامل خارجي يتمثل في اللغم. وقد بقيت هذه المسألة نقطة خلاف حتى اليوم، فقد رجَّحت بعض التحقيقات التي جرت في ما بعد، أن الانفجار كان حدثًا عرضيًا.

(32) الخيّالة غير النظاميين: ثيودور روزفلت، فوج رعاة البقر، ورحلة صعود تل سان خوان الخالدة Rough Riders: Theodor Roosevelt, His Cowboy Regiment, and the Immortal Charge Up San Juan Hill، تأليف مارك لي غاردينر Mark Lee Gardener، 2016.

(33) في أيار/مايو 1898، دمرت السفن الأمريكية الأسطول الإسباني في خليج مانيلا Manila Bay، محرزة نصرًا سريعًا غير متوقع قبل شهور من تسوية مشكلة كوبا. بعد انتهاء الحرب، دفعت الولايات المتحدة للفيليبين 20 مليون دولار، ثم احتلت الأرخبيل، الأمر الذي أدى إلى قيام الحرب الفيليبينية الأمريكية التي بدأت عام 1898 واستمرت حتى عام 1902. في الوقت نفسه، كان استقلال كوبا، التي تحررت لتوِّها، استقلالًا اسميًّا فقط، إذ ضمِن دستور البلاد الجديد للولايات المتحدة التحكّم في علاقات كوبا ببقية دول العالم، كما منح الأمريكيين حق التدخل تحت شعار حفظ النظام. وقد مارست الولايات المتحدة هذا الحق من خلال عدد من التدخلات التي جرت خلال الفترة من 1906 إلى 1909، وعام 1912، وخلال الفترة من 1917 إلى 1922.

(34) رجال الرجاء الصالح: قصة التقدميين الأمريكيين Men of Good Hope: A Story of American Progressives، تأليف دانيال آرون. Danial Aaron، 1951.

(35) في وصفه لهذه الفترة من رئاسة روزفلت، كتب المؤرخ ريتشارد كولِّين Richard Collin "كانت مهمة روزفلت الأساسية إقناع أوروبا بجدية أمريكا". ثيودور روزفلت، الثقافة، الدبلوماسية، والتوسع: رؤية جديدة للإمبريالية الأمريكية Theodore Roosevelt, Culture, Diplomacy, and Expansion: A New View of American Imperialism، 1985. وفي مكان آخر، أشار كولِّين إلى رغبة روزفلت في "منع ألمانيا القوية من أخذ مكان إسبانيا الضعيفة في البحر الكاريبي. كانت عصا روزفلت الغليظة موجهة إلى أوروبا، لا إلى أمريكا اللاتينية". كاريبي ثيودور روزفلت: قناة بنما، ومبدأ مونرو، والسياق الأمريكي اللاتيني Theodore Roosevelt's Caribbean: The Panama Canal, the Monroe Doctrine, and the Latin American Context للمؤلف نفسه، 1990. ولتفاصيل شكوك روزفلت في ما يتعلق بنوايا ألمانيا في فنزويلا، يمكن مراجعة ثيودور روزفلت والنظام العالمي: القوة الشُّرَطيَّة في العلاقات الدولية Theodore Roosevelt and World Order: Police Power in the International

Relations، تأليف جيمس ر. هولمِز James R. Holmes، 2006.

(36) ثيودور الملك، تأليف إدموند موريس.

(37) قليل من الأيام الحَوامِل A Few Pregnant Days، مقال لإدموند موريس، منشور في صحيفة جمعية ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt Association، الذي صدر في شتاء 1989، كما نشر موريس تفاصيل هذه الواقعة في كتابه ثيودور الملك.

(38) قليل من الأيام الحوامِل، تأليف إدموند موريس.

(39) وفقًا لما نص عليه مبدأ مونرو "لن يكون نصف الكرة الغربي بعد الآن موضعًا لإنشاء مستعمرات تابعة لأية قوة أوروبية"، كما حذر المبدأ من أن الولايات المتحدة "لن تنظر إلى أي تدخُّل من قِبَل أية قوة أوروبية إلا بكونه مظهرًا من مظاهر التصرف العدائي ضد الولايات المتحدة". يمكن مراجعة الخطاب السنوي السابع لجيمس مونرو في 2 كانون الأول/ديسمبر 1823، وذلك من خلال الرابط التالي: http://www.presidency.ucsb.edu/ws/?pid=29465.

(40) ثيودور روزفلت، وقناة بنما، واللّازِمَة الروزفلتيَّة Theodor Roosevelt, the Panama Canal, and the Roosevelt Corollary، تأليف ستيفن راب Stephen Rabe، في الدليل إلى معرفة ثيودور روزفلت A Companion to Theodore Roosevelt، 2011. مجموعة دراسات أشرف عليها سيرجي ريكارد Serge Ricard؛ والديمقراطية الإمبريالية: بزوغ أمريكا كقوة عظمى Imperial Democracy: The Emergence of America as a Great Power، تأليف إرنست ماي Ernest May، 1961؛ وأمريكا اللاتينية، والولايات المتحدة، والقوى الأوروبية Latin America, The United States and the European Powers 1830-1930، دراسة بالجزء الرابع من تاريخ أمريكا اللاتينية الذي أعدته جامعة كامبريدج The Cambridge History of Latin America, vol. 4، 1986.

(41) تحت وطأة الولايات المتحدة: تاريخ السياسة الأمريكية تجاه أمريكا اللاتينية Beneath the United States: A History of U.S. Policy Toward Latin America، تأليف لارس شولتز Lars Schoultz، 1998.

(42) رسالة إلى هنري كابوت لودج، 27 كانون الأول/ديسمبر 1895. في التوقيت نفسه تقريبًا، قال روزفلت: "إذا نشبت حرب، سوف أسعى إلى أن أكون مشاركًا فيها بنفسي، أعني مشاركة فعلية باليدين"، كتاب الرسائل المختارة لثيودور روزفلت، إعداد هـ. و. براندز.

(43) الخلاف الحدودي المشار إليه موصوف بالتفصيل في كتاب تحت وطأة الولايات المتحدة: تاريخ السياسة الأمريكية تجاه أمريكا اللاتينية، تأليف لارس شولتز.

(44) مبدأ مونرو، مقال لثيودور روزفلت، نشر في مجلة بكالوريوس الآداب، في آذار/مارس 1896.

(45) الخطاب السنوي الثاني لثيودور روزفلت، 2 كانون الأول/ديسمبر 1902. يمكن الوصول إلى الخطاب عبر الرابط التالي: http://www.presidency.ucsb.edu/ws/?pid=29543.

(46) كاريبي ثيودور روزفلت: قناة بنما، ومبدأ مونرو، والسياق الأمريكي اللاتيني: تأليف ريتشارد كولِّين. في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه، وصل عدد السفن الحربية الأمريكية في الكاريبي إلى 53 سفينة، مقابل 10 سفن ألمانية، وفقًا لكلام إدموند موريس في مقاله قليل من الأيام الحوامِل، المنشور في صحيفة جمعية ثيودور روزفلت، عدد شتاء 1989.

(47) ثيودور روزفلت، وقناة بنما، واللّازِمَة الروزفلتيَّة، تأليف ستيفن راب؛ والانتصار العظيم الأول: كيف حوَّل خمسة أمريكيين بلدهم إلى قوة عالمية First Great Triumph: How Five Americans Made Their Country a World Power، تأليف وارِّن زيمّرمان Warren Zimmerman، 2002.

(48) خطاب في جامعة كاليفورنيا في 23 آذار/مارس 1911. نص الخطاب منشور في الجزء 13 من حوليّات جامعة كاليفورنيا University of California Chronicle. Vol. 13.

(49) ثيودور روزفلت، وقناة بنما، واللّازِمَة الروزفلتيَّة، تأليف ستيفن راب.

(50) مسارٌ بين البحار: إنشاء قناة بنما The Path Between Seas: The Creation of the Panama Canal 1870-1914، تأليف ديفيد ماكُولّه، 1977.

(51) رسالة خاصة من ثيودور روزفلت يوم 4 كانون الثاني/يناير 1904. يمكن الاطلاع على الرسالة عبر الرابط التالي: http://www.presidency.ucsb.edu/ws/?pid=69417.

(52) تحت وطأة الولايات المتحدة: تاريخ السياسة الأمريكية تجاه أمريكا اللاتينية، تأليف لارس شولتز، وكاريبـي ثيودور روزفلت: قناة بنما، ومبدأ مونرو، والسياق الأمريكي اللاتيني: تأليف ريتشارد كولِين. رغم أن مجلس الشيوخ الكولومبي هو الذي أحبط مشروع إنشاء القناة بشكل رسمي، ألقى روزفلت باللوم على الرئيس الكولومبي خوسيه مارُّوكين José Marroquín، واتهمه بأنه لم يستخدم نفوذه لدفع المجلس، الذي كان سهل الانقياد، إلى الموافقة على المعاهدة.

(53) حياة ورسائل جون هاي، الجزء الثاني The Life and Letters of John Hay, vol. 2، تأليف ويليام روسكو ثاير William Roscoe Thayer، 1915.

(54) ثيودور الملك، تأليف إدموند موريس. كما يمكن التعرف على تفاصيل المذكرة القانونية التي قُدِّمت إلى روزفلت، والتي تدافع عن النتيجة التي توصل إليها، وذلك في كتاب كاريبـي ثيودور روزفلت: قناة بنما، ومبدأ مونرو، والسياق الأمريكي اللاتيني: تأليف ريتشارد كولِين.

(55) ثيودور الملك، تأليف إدموند موريس؛ 9 روزفلت، وقناة بنما، واللّازِمَة الروزفلتيَّة، تأليف ستيفن راب.

(56) للتحقق من أن الثورة التي أشار إليها بونو–فاريلا سوف تحدث بالفعل، التقى روزفلت في البيت الأبيض مع اثنين من ضباط الجيش، كان قد أرسلهما في مهمة سرية في بداية العام نفسه، لاستكشاف وتقويم الأوضاع في بنما. دخل الضابطان البلاد كسائحيْن، وتمكنا من إجراء عمليات استطلاع واسعة النطاق، وعادا بتقارير تؤكد أن التخطيط لعملية التمرد قد بدأ بالفعل.

(57) ثيودور الملك، تأليف إدموند موريس؛ ومسارٌ بين البحار: إنشاء قناة بنما، تأليف ديفيد ماكُولّه.

(58) احتفظت الولايات المتحدة بوجود عسكري في بنما، في إشارة إلى الكولومبيين بألا يفكروا في التدخل، وفي الوقت نفسه في إشارة إلى البنميين بأن استقلالهم الهش مرهون باستمرار الدعم الأمريكي. هذا، ولا يزال الحجم الحقيقي لمعرفة روزفلت المسبقة بهذه الثورة، والدور الذي لعبه قبلها وبعدها، مصدرَ جدل دائم. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، ثيودور الملك، تأليف إدموند موريس، ومسارٌ بين البحار: إنشاء قناة بنما، تأليف ديفيد ماكُولّه.

(59) تحت وطأة الولايات المتحدة: تاريخ السياسة الأمريكية تجاه أمريكا اللاتينية، تأليف لارس شولتز.

(60) ما استولى عليه روزفلت: التأثير الاقتصادي لقناة بنما What Roosevelt Took: The Economic Impact of the Panama Canal, 1903-1937، مقال كتبه نويل ماورِر Noel Maurer وكارلوس يو Carlos Yu، في العدد رقم 68 من مجلة تاريخ الاقتصاد Journal of Economic History، المجلد 3 لعام 2008.

(61) التخلي الكبير: كيف استحوذت أمريكا على قناة بنما، وأنشأتها، وأدارتها، وفي النهاية تخلّت عنها The Big Ditch: How America Took, Built, Ran, and Ultimately Gave Away the Panama Canal، تأليف نويل ماورِر وكارلوس يو 2010.

(62) لقد دافع روزفلت عن نفسه قائلًا: "إن سكان بنما كانوا ساخطين على جمهورية كولومبيا منذ فترة طويلة، ولم يكن يبقيهم في حالة هدوء إلا الأمل في إتمام توقيع المعاهدة. وعندما تبيَّن لهم بوضوح أن هذا الأمل قد ضاع، هبّوا هبة رجل واحد". وقد دفع هذا الرأي أحدَ أعضاء مجلس الشيوخ إلى الرد على روزفلت بعنف: "نعم، وقد كان هذا الرجل

الواحد هو روزفلت". مسارٌ بين البحار: إنشاء قناة بنما، تأليف ديفيد ماكُّولَّه. في وقت لاحق، قال روزفلت: "يقول بعض الناس إنني حرَّضت على قيام عصيان مسلح في بنما... الحقيقة أنني لم أكن في حاجة إلى التحريض، وكل ما فعلته هو أنني تركته يحدث". روزفلت كما عرفناه Roosevelt As We Knew Him، تأليف فريدريك س. وود Frederick S. Wood 1927. وكما أشار كل من إدموند موريس وريتشارد كولين، ذكَّر روزفلت منتقديه مرارًا، بأن بنما كانت قد واجهت عدة محاولات ثورية على مدار العقود السابقة، وأن الحكومة الكولومبية غالبًا ما كانت تطلب مساعدة أمريكا في الحفاظ على النظام. علاوة على ذلك، أكد ريتشارد كولين أنه بعد عام 1855 "كانت القطع البحرية الأمريكية تخدم بالقرب من بنما أو على سواحلها، وأن أعداد هذه القوات كانت تزيد عند وقوع عمليات تمرُّد مسلحة. لم يكن الوجود البحري الأمريكي شكلًا من أشكال التدخل الأجنبي، بل كان نقطة ارتكاز للسياسة والدبلوماسية الكولومبيتين، يعمل بشكل متعارف عليه، وبناء على طلب كولومبيا، كضامن قانوني وعملي لسيادة كولومبيا على بنما المتحيِّرة دومًا بين الاستقلال والاستقرار". ثيودور الملك، تأليف إدموند موريس، وكاريبي ثيودور روزفلت: قناة بنما، ومبدأ مونرو، والسياق الأمريكي اللاتيني، تأليف ريتشارد كولِّين.

(63) بقيت مسألة الحدود الصحيحة موضع شك لفترة زمنية طويلة: فقد أسست معاهدةُ عام 1825 الموقَّعة بين روسيا وبريطانيا للنفوذ البريطاني على الجزء الأكبر من المناطق المتنازع عليها، غير أن الخرائط الروسية لم تعكس الإحداثيَّات التي ورد ذكرها في المعاهدة. وهكذا أصبحت الخرائط، الخالية من إحداثيَّات، أمرًا واقعًا، ودليلًا للحدود الإقليمية، ولم يعترض البريطانيون على ذلك أبدًا، مُتجاهلين الاختلافات الحقيقية الملحوظة بين الحدود الرسمية، والحدود الفعلية على الأرض.

(64) ثيودور روزفلت وكندا: ألاسكا، العصا الغليظة، ومثلث شمال الأطلسي Theodore Roosevelt and Canada: Alaska, the Big Stick, and the North Atlantic Triangle, 1901-1909، وهو مقال كتبه توني ماكّولوك Tony McCulloch، ضمن كتاب الدليل إلى معرفة ثيودور روزفلت، الذي يضم مجموعة دراسات أشرف عليها سيرجي ريكارد، 2011؛ ومقال بعنوان جبهة كندا الباردة: دروس من خلاف ألاسكا الحدودي للحدود القطبية اليوم Canada's Cold Front: Lessons of the Alaska Boundary Dispute for Arctic Boundaries Today، كتبه كريستوفر ساندس Christopher Sands، في العدد رقم 65 من مجلة الجريدة الدولية International Journal، شتاء 2009-2010.

(65) رسائل ثيودور روزفلت The Letters of Theodore Roosevelt، إعداد إلتينغ إ. ماريسون Elting E. Marison، 1954. وقد شرح السيناتور هنري كابوت لودج وجهة النظر الأمريكية "ما من أمة لديها ذرة من احترام النفس"، يمكن أن تتنازل طواعية عما أصبح جزءًا ذا قيمة كبيرة من أراضيها. "لا يمكن على الإطلاق أن يوجد رئيس أمريكي يمكن أن يخطر في باله، ولو للحظة واحدة، أن يقدم تفريطًا كهذا، وبالتالي، يمكنك أن تثق ثقة عمياء في أنه من المستحيل أن يُقْدِم روزفلت على فِعْلة كهذه". يمكن كذلك مراجعة نزاع ألاسكا الحدودي The Alaska Boundary Dispute، إعداد جون أ. مونرو John A. Munro، 1970.

(66) ثيودور روزفلت وصعود أمريكا إلى قوة عالمية Theodore Roosevelt and the Rise of America to World Power، تأليف هاورد بييل Howard Beale، 1956.

(67) لمزيد من التفاصيل حول اختيار أعضاء المحكمة، يمكن مراجعة نزاع ألاسكا الحدودي: إعادة تقييم نقدي The Alaska Boundary Dispute: A Critical Reappraisal، تأليف نورمان بينلينغتون Norman Penlington، 1972.

(68) ثيودور روزفلت والإمبراطورية البريطانية: دراسة في فن الحكم الرئاسي Theodore Roosevelt and the British Empire: A Study in Presidential Statecraft، تأليف ويليام تيلشين William Tilchin، 1997.

(69) روزفلت كما عرفناه، تأليف فريدريك س. وود.

(70) يمكن مراجعة بيان المفوضَين الكنديَين، وردود الأفعال الكندية في كتاب نزاع ألاسكا الحدودي: إعادة تقييم نقدي، تأليف نورمان بينليغتون، وكتاب نزاع ألاسكا الحدودي، تأليف جون أ. مونرو. وقد صدرت الاتهامات الموجهة إلى ألفِرستون عن المفوضين الكنديين أيضًا، وكما يتذكر السيناتور تيرنر: "كان الجدل بين اللورد ألفِرستون وزميليه الكنديين في ذلك الوقت، مشحونًا ولاذعًا، فقد اتهماه بالتخلي عن المصالح الكندية، بناء على إصرار الحكومة البريطانية، لأسباب دبلوماسية. يمكن مراجعة روزفلت كما عرفناه، تأليف فريدريك س. وود.

(71) نزاع ألاسكا الحدودي، تأليف جون أ. مونرو.

(72) نعومة الحديد: دبلوماسية ثيودور روزفلت Velvet on Iron، تأليف فريدريك ماركس الثالث Frederick Marks III، 1979.

(73) روزفلت، الخطاب السنوي الرابع.

(74) المُثُل والمصلحة الشخصية في علاقات أمريكا الخارجية Ideals and Self-Interest in America's Foreign Relations، تأليف روبرت أوزغود Robert Osgood، 1953.

(75) لقد اهتمت مصادر متعددة بمناقشة المواقف المعادية للولايات المتحدة والتصورات السلبية لها. على سبيل المثال: في بدايات القرن العشرين انتشرت في مجتمعات أمريكا اللاتينية مخاوف وشكوك في أن المشروع الأمريكي يهدف إلى فرض هيمنة أمريكية. صُنْع الأمريكتين: الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية من عصر الثورات إلى عصر العولمة Making of the Americas: The United States and Latin America from the Age of Revolutions to the Era of Globalization، تأليف توماس أوبرين Thomas O'Brien، 2007؛ وفي العشرينيات، وصل انعدام الثقة في البَهِيْموث (يمكن الاطلاع على شرح لهذه الكلمة أدناه) الموجود في الشمال والانتقادات الموجهة إليه إلى أقصى حدٍ ممكن. حدود وجسور: تاريخ العلاقات بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية Borders and Bridges: A History of US-Latin American Relations، تأليف ستيوارت بريور Stuart Brewer، 2006؛ وفي الفترة بين 1898 و1933 سادت المشاعر العدائية الفظيعة تجاه الولايات المتحدة. العداء للأمرَكة في أمريكا اللاتينية والكاريبي Anti-Americanism in Latin America and the Caribbean، إعداد آلان ماكفِرسون Alan McPherson، 2006. (انتهى هامش المؤلف). البَهِيْموث Behemoth، حيوان ضخم ورد ذكره في التوراة، ويُعتقد أنه فرس النهر. يُطلق هذا الاسم على الشخص أو الكيان الذي يمتلك جسدًا ضخمًا وقوةً هائلة، والمقصود هنا بالطبع الولايات المتحدة. (المُعرِّب)

(76) التطلع نحو الشمال: كتابات من أمريكا الإسبانية عن الولايات المتحدة، من 1800 حتى الوقت الحاضر Looking North: Writings from Spanish America on the US, 1800 to the Present، إعداد جون هاسِّيت John Hassett وبراوليو مونوز Braulio Munoz، 2012. كما وردت عبارة دياز في قاموس أكسفورد للاقتباسات الأمريكية Oxford Dictionary of American Quotations.

الفصل السادس

ماذا تريد صين شِي جِينْ بينْغ

سوف نستحوذ على إعجاب الأجيال الحاضرة والقادمة، لأننا لم نترك قُوَّتنا دون شهود... لقد أخضعنا كل بحر وكل أرض، واتخذنا منها جميعًا طريقًا سريعًا لجرأتنا، وتركنا وراءنا في كل مكان، سواء للخير أو للشر، آثارًا لا يدركها الفناء.

— ثيوسيديدين، خطاب في جنازة بريكليس، عام *431* قبل الميلاد

السماء فوق، والأرض تحت، وما بين السماء والأرض هناك الصين. أما أولئك الموجودون على الأطراف فهم أجانب. والأجانب ينتمون إلى الخارج، بينما تنتمي الصين إلى الباطن.

— شِي جيا، "عن المملكة الوسطى"، عام *1040*

أعظم حلم صيني، هو تجديد شباب الأمة الصينية.

— شِي جِينْ بينْغ، عام *2012*

ماذا يريد الرئيس شِي جِينْ بينْغ للصين؟ الإجابة في جملة واحدة: أن يُعيد للصين عظمتها من جديد.

كان هذا الطموح الأساسي واضحًا أمام أهم متابع للصين في العالم منذ أن أصبح شِي جِينْ بينْغ رئيسًا لها. كان لي كْوان يِو يعرف الرئيس

الجديد جيدًا، وقد أدرك أن طموح الصين غير المحدود، يقف وراءه تصميمٌ لا يُقْهر على استعادة عظمة الماضي. إذا سألت معظم مثقفي الصين عما إذا كان شِي جِينْ بينْغ ورفاقه يؤمنون جديًا أن الصين يمكن أن تأخذ مكان الولايات المتحدة وتصبح القوة المهيمنة على آسيا في المستقبل القريب، سوف يتملص هؤلاء من السؤال بعبارات مثل "المسألة ليست بهذه البساطة... فمن ناحية... ومن ناحية أخرى...". ولكن عندما طرحت هذا السؤال على لي كْوان يِو خلال لقاء معه قبل فترة وجيزة من وفاته عام 2015، اتسعت عيناه الثاقبتان غير مصدِّق، وكأنه يتساءل مستنكرًا: "أتمزح معي؟" وأجاب بشكل مباشر: "طبعًا، ولما لا؟ كيف يمكن ألا يطمحوا إلى أن يكونوا الرقم واحد في آسيا، وفي العالم كله؟"[(1)].

لقد تنبأ لي كْوان يِو بأن القرن الحادي والعشرين سوف يكون "ميدانًا للتسابق والتنافس على سيادة آسيا"[(2)]. ومع صعود شِي جِينْ بينْغ إلى صدارة المشهد السياسي الصيني عام 2012، أعلن لي، للعالم كله، أن هذا السباق يتزايد حدّة. ومن بين كل المراقبين الأجانب، كان لي أول من أشار إلى هذا الرجل التكنوقراطي المجهول بالنسبة للكثيرين، قائلاً "راقبوا ذلك الرجل".

في الواقع، ولأول وآخر مرة، خلال خمسين عامًا من الاهتمام بتقويم الزعماء الأجانب وتقدير حجمهم، شبَّه لي كُوان يِو الرئيسَ الصيني بنفسه. لقد شكلت الرجلين تجاربُ تركت جروحًا عميقة في روحيهما. فبالنسبة إلى لي كْوان يِو، "انهار العالم كله أمام عينيه" عندما غزت اليابان سنغافورة عام 1942. "لقد كان ذلك الغزو أكبر درس سياسي قائم بذاته في حياتي. وأهم ما فيه أنني، ولمدة ثلاثة أعوام ونصف العام شاهدتُ بعينيّ ماذا تعني كلمة سلطة"[(3)]. وعلى نحو مشابه، تتلمذ شِي جِينْ بينْغ على الصراع من أجل البقاء في خضم جنون ثورة ماو الثقافية[(*)]. وفي إشارة إلى هذه

(*) يطلق مصطلح الثورة الثقافية، أو ثورة البروليتاريا الثقافية العظمى، على حركة سياسية اجتماعية أطلقها عام 1967 ماو تسي تونغ، الذي كان يتزعم الحزب الشيوعي الصيني آنذاك،

التجربة، قال لي كْوان يِو إنه قد لاحظ أن "أولئك الذين لا يحظون بخبرة التعامل المباشر مع السلطة، أولئك الذين عاشوا حياتهم بعيدين عنها، يميلون إلى اعتبارها شيئًا غامضًا". على العكس من ذلك، تعلم شِي جِينْ بينْغ أن "ينظر إلى ما وراء المظاهر السطحية والظاهرية للسلطة: الزهور، والمجد، والإطراء". وكان يقول بدلاً من ذلك: "أنا أنظر إلى المعتقلات، وتقلبات العلاقات الإنسانية، وأفهم السياسة على مستوى أعمق"[4].

لقد صهرت الاضطرابات والمصاعب شِي جِينْ بينْغ، فخرج منها مُسلحًا بما أسماه لي كْوان يِو إرادة صلبة وعزيمة لا تلين. وفي واحدة من أغرب المقارنات التي أجراها أي إنسان بين شِي وزعيم دولي آخر، قَرَنَ لي بين شِي ونيلسون مانديلا، حيث كان يرى أن كلاً من الزعيمين "يتمتع بقدر هائل من الثبات الانفعالي، إلى حد أنه لا يسمح لما يحل به من مصائب أو ما يعانيه من متاعب بالتأثير على تقديره للأمور"[5].

كانت رؤية شِي جِينْ بينْغ للصين تتسم بقدر مماثل من الصلابة والوضوح. فالصين التي يحلم بها تجمع بين الازدهار والقوة، على نحو يُزاوِج بين رؤية ثيودور روزفلت، التي تعتمد على القوة، لما أسماه القرن الأمريكي، والبرنامج الحكومي الهائل New Deal الذي أطلقه فرانكلين روزفلت(*). وتأخذ رؤيته هذه في الاعتبار تَوْقًا جارفًا لمليار صيني إلى أن

واستمرت حتى وفاته عام 1976. كان الهدف المعلن للثورة، وفقًا لقياداتها، إعادة فرض مبادئ الماركسية الماوية، والتصدي لانحرافات عدد من القيادات الحزبية الكبيرة، والقضاء على ما سُمي بمظاهر التغلغل الرأسمالي، والتحلل البرجوازي التي ظهرت في البلاد. غير أن كثيرًا من المؤرخين يرون أن الهدف الحقيقي لماو من وراء تلك الثورة هو إحكام سيطرته على مقاليد الحكم في البلاد منفردًا. وما يعنينا هنا هو أنه بغضّ النظر عن الهدف الحقيقي للثورة، أوصلت تلك الحركة الصين إلى درجة غير مسبوقة من الفوضى، ووضعت البلاد على حافة حرب أهلية، لم يوقف طبولَها إلا موتُ ماو تسي تونغ شخصيًا، ثم ما تبع وفاته من اعتقال لكبار مساعديه الذين عُرفوا باسم عصابة الأربعة، الذين كانت تتصدرهم أرملة ماو نفسها. (المُعرِّب)

(*) مصطلح يقصد به السياسات والإجراءات الاقتصادية والمالية التي اتخذها الرئيس فرانكلين روزفلت للخروج من الكساد الكبير الذي عانت الولايات المتحدة من ويلاته في نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن الماضي. وقد استدعى تطبيق هذا البرنامج عام 1933 إدخال تعديل على الدستور الأمريكي، هو التعديل الحادي والعشرون الذي رفع بعض القيود التي كان التعديل الثامن عشر قد فرضها على عمل الحكومة الفيدرالية. وقد عظُم برنامج

يكونوا أغنياء وأقوياء ويتمتعون بمكانة محترمة. كان شِي مسكونًا بثقة هائلة في أن الصين تستطيع، خلال حياته، أن تنجز تلك الأهداف الثلاثة، من خلال الحفاظ على منجزاتها الاقتصادية الإعجازية، وشحذ الحس الوطني في نفوس المواطنين، وعدم الانصياع لمشيئة أية قوة خارجية في ما يتعلق بالشؤون العالمية. وبينما نظر معظم المراقبين إلى تلك الطموحات الهائلة نظرة تشكيك، لم يراهن لي كُوان يِوْ ولا أنا شخصيًا على عكس ما كان يراه شِي. وقد قال لي كُوان يِوْ: "إن هذا الإحساس بالقدر أو المصير، الذي بُعث من جديد، هو قوة طاغية لا تُقاوَم"[(6)].

إن استعادة عظمة الصين مرة أخرى تعني:

- إعادة الصين إلى حالة الهيمنة على آسيا التي كانت تتمتع بها قبل تدخل الغرب.
- إعادة فرض السلطة المركزية للدولة على كافة مناطق الصين العظمى، بما في ذلك، ليس فقط شين جيانغ والتيبت، بل وهونغ كونغ وتايوان أيضًا.
- استعادة مجال نفوذ الصين التاريخي على طول حدودها، والمناطق البحرية المحاذية لها، حتى يعاملها الآخرون بالاحترام الذي تحرص الدول العظمى دائمًا على أن تحظى به.
- مطالبة القوى العظمى الأخرى باحترام وجهة نظر الصين في كافة المحافل الدولية.

يقع في القلب من تلك الأهداف القومية، إيمان حضاري بأن الصين هي مركز هذا الكون. ففي اللغة الصينية، تعني كلمة الصين، جون غوا (Zhong guo) المملكة الوسطى. غير أن كلمة وسطى في هذا السياق، لا تعني أن الصين تقع في المنتصف بين الممالك المنافسة، لكنها تقع في

روزفلت دور الحكومة في توفير العيش الكريم لمواطنيها. فقد قدمَّت الحكومة الفيدرالية مساعدات مالية كبيرة للمحتاجين، وأسست هيئات حكومية تعمل على توفير فرص عمل للعاطلين، بالإضافة إلى تنفيذ عدد من المشروعات الإنشائية والعمرانية الفيدرالية الكبيرة، التي ضخت الأموال في جيوب أصحاب الأعمال والعمال على حدٍ سواء. (المُعرِّب)

منتصف كل ما يقع بين السماء والأرض(*). وفي عبارة واحدة، يلخص لي كُوان يِو وجهة نظر مئات القادة الصينيين الذين جاءوا إليه ملتمسين النصيحة (بما في ذلك الزعماء الكبار بدءًا من دينغ شياو بينغ(**) Ding Xiaoping) "كانوا كلهم يستدعون صورة عالم كانت الصين فيه قوة مهيمنة، تتعلق بها دول أخرى تَعلُّقَ المُريد بصاحب المقام الرفيع، بينما يتوافد التابعون على بيجين لتقديم فروض الطاعة والولاء"(7). وفقًا لهذه الرؤية وهذا السرد يكون صعود الغرب في القرون الأخيرة نوعًا من الشذوذ التاريخي، ما كان ليقع لولا ضعف الصين تكنولوجيًا وعسكريًا، عندما وجدت نفسها في مواجهة مع القوى الإمبراطورية المهيمنة. وقد وعد شِي جِينْ بينْغ مواطنيه بأن هذا الوضع لن يتكرر أبدًا.

العالم من وجهة نظر الصين

يتمتع الصينيون، من بين كافة شعوب الأرض، بإحساس متأصل فريد بالتاريخ، بشكل يتلاءم مع كونهم أصحاب أقدم حضارة حية، لم تنقطع يومًا صِلتُها بجذورها. فليست هناك دولة، غير الصين، يفسِّر قادتُها المعاصرون قراراتِهم السياسية من خلال "استخلاص المبادئ الاستراتيجية من أحداث عمرها ألفية كاملة"(8). في عام 1969، عندما فاجأ الرئيس ريتشارد نيكسون الجميع باختيار هنري كيسنجر، الأستاذ بجامعة هارفارد، مستشارًا لشؤون الأمن القومي، أبلغ الرئيسُ مستشارَه الجديد أنه يعتزم استكشاف الانفتاح على الصين. كان كيسنجر قد صنع لنفسه مكانة علمية من خلال ما بذله، قراءةً وكتابةً، في مجال الدراسات المتعلقة بتاريخ

(*) بعبارة أخرى، وسطية الصين أو توسطها ليس موقعًا تحدده الجغرافيا، لكنها منزلة يحددها التاريخ، وهي منزلة تتوسط الأرض بكل ما حوَتْ، وكل ما شهدت، والسماء بكل ما قد تحتويه. (المُعرِّب)

(**) دينغ شياو بينغ (22 آب/أغسطس 1902 - 19 شباط/فبراير 1997) هو الزعيم الذي حكم الصين خلال الفترة من 1978 إلى 1992. وهو الرجل الذي أطلق شرارة تحول الصين إلى نموذج خاص من اقتصاد السوق، بعد عقود من الاقتصاد الموجّه المغلق. (المُعرِّب)

أوروبا، وليس تاريخ آسيا. أدرك كيسنجر حاجته إلى دورة دراسية سريعة في تاريخ آسيا، فبدأ بدورة استغرقت عطلة نهاية أسبوع، قضاها في صحبة زميله في جامعة هارفارد، جون كينغ فايربانك John King Fairbank، العميد المؤسس لدراسات الصين في الولايات المتحدة. ومن خلال عُجالة طرحها فايربانك عَلِم كيسنجر أن السياسة الخارجية الصينية التقليدية تقوم على ثلاثة مبادئ رئيسية هي:

- الرغبة في "الهيمنة الإقليمية".
- الإصرار على أن تعترف الدول المجاورة "بالتفوق الصيني" الأصيل وأن تحترمه.
- الاستعداد لاستخدام تلك الهيمنة وهذا التفوق لأركسة(*) "التعايش المتناغم مع جيرانها"[9].

وقد تعلَّم كيسنجر من فايربانك أن "ازدراء أسلوب التأديب الجسدي والاستخفاف به، مبدأ متأصل بعمق في التعاليم الكونفوشيوسية". فبالنسبة إلى الصين، "يمثل استخدامُ القوة العسكرية الخيارَ الأخير". كما أوضح فايربانك أن مفهوم الصين للنظام الدولي هو انعكاس لنظامها الداخلي. ووفقًا للتلخيص الكلاسيكي الذي قدَّمه فايربانك: "ينزع الصينيون إلى التفكير في علاقاتهم بالدول الأجنبية باعتبارها طرحًا خارجيًا للمبادئ التي تحكم النظام الاجتماعي والسياسي الصيني في الداخل". نتيجة لهذا، "تتسم علاقات الصين بالدول الأجنبية بطابع تراتُبي هرمي، لا يعترف بالمساواة"[10]. فكما تقمع الصين المعارضين، وتُلزِم المواطنين بالخضوع لسلطة الحكومة المركزية، هكذا تتوقع أن تنبطح القوى الإقليمية أمام بيجين.

وفي الختام، أوضح فايربانك لكيسنجر أن الحضارة الصينية حضارة

(*) هكذا يترجم منير البعلبكي صاحب قاموس المورد الحديث كلمة orchestration. (المُعرِّب)

مُسْتَعْرِقة(*) بعمق، وأن ثقافتها تؤمن بتفوُّق جنسها، وتؤمن بأنها تمثِّل أوجَ أيِّ نشاط بشري ذي معنى. "فبحسب هذه الحضارة، يُنظر إلى إمبراطور الصين ويُعترف بأنه يمثِّل قمةَ هرم التراتبية السياسية في العالم، وحكام الدول الأخرى، نظريًا، ملحقون به أو تابعون له[11]". في إطار هذه المنظومة، كما هو الحال بالنسبة للمنظومة الاجتماعية الكونفوشيوسية داخل الصين، يقوم النظام أو التناغم على دعائم التراتبية. إن الواجب الأساسي للدول في الخارج، كما هو للإفراد في الداخل، تلخصه الوصية الكونفوشيوسية التي تقول "اعرَفْ مكانك". من هنا، وجب على الحكام الأجانب أن يُقرّوا بمكانتهم (الأدنى) من خلال أداء شعيرة الخضوع التي تتمثل في لمس الأرض بالجباه في حضرة الإمبراطور. يقف خلف هذه الإشارة تاريخ حقيقي لا يمكن التشكيك فيه: آلاف السنين، حافظت الصين خلالها على موقعها كقوة سياسية واقتصادية وثقافية مهيمنة في آسيا، "وسط محيط من الدول الأقل شأنًا، التي تنهل من الحضارة الصينية، وتُشيد بعظمتها". وقد استقر في وجدان كيسنجر أن الزعماء الصينيين يرون أن هذا الوضع يمثل النظام الطبيعي للكون"[12].

في انعكاس لطبيعة الحضارة الصينية التي تميل نحو المركزية، تسعى السياسة الخارجية الصينية، بما يحكمها من تقاليد، إلى الحفاظ على التراتبية الدولية، ولا تسعى إلى التوسع وتمديد حدودها من خلال الغزو العسكري. وكما كتب كيسنجر بعد أن غادر منصبه: إن إحساس الصين بحتمية أن تحتل قمةَ هرم تراتبيةِ منطقتِها... لم يفرض عليها بالضرورة أن تكون في خصومة مع شعوب الدول المجاورة لها". وأضاف كيسنجر أنه "بينما تؤمن الصين، على غرار الولايات المتحدة، أنها تلعب دورًا خاصًا في العالم، فهي لم تعتنق أبدًا المفهوم الأمريكي للشمولية universalism، ولم تتخذه مبررًا لنشر مبادئها حول العالم، واكتفت، بدلاً من ذلك، بإحكام

(*) الحضارة المُسْتَعْرِقة حضارة يؤمن أصحابها بتفوقها العرقي، وبأنها المرجع الذي يقاس به تقدُّمُ أية حضارة أخرى وتخلُّفها، بناء على قربها منها أو بعدِها عنها. (المُعرِّب)

سيطرتها على المناطق غير المتمدْيِنة على حدودها، كما سعت إلى الحصول على اعتراف الدول التي تدور في فلكها بمكانتها المتميزة، مقابل منح تلك الدول حقوقًا تجارية. باختصار، توسعت الصين من خلال التناضُح أو الأُسموزية الثقافية(*)، وليس من خلال الاندفاع التبشيري"[13].

غير أن آلاف السنين من الهيمنة الصينية انتهت فجأة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما وجدت أسرة تشينغ الحاكمة(**) نفسها وجهًا لوجه مع القوى الاستعمارية الغربية لأوروبا المتقدمة صناعيًا. وقد اتسمت العقود التالية بهزيمة عسكرية، وحرب أهلية نشبت بسبب تأثيرات خارجية، واستعمار اقتصادي، واحتلال عسكري من قِبَل قوى خارجية: الإمبرياليون الأوروبيون أولاً، ثم من بعدهم اليابانيون.

على مدار جزء كبير من هذه الفترة، مارست القوى الأجنبية على الأراضي الصينية نفوذًا يفوق نفوذ الحكومة الصينية نفسها. وعندما حاولت حكومة تشينغ منع التجار البريطانيين من بيع الأفيون إلى الصينيين في الثلاثينيات من القرن الماضي، كان رد لندن سريعًا، وألحقت بالصينيين هزيمة ساحقة في حرب الأفيون الأولى First Opium War التي بدأت عام 1839. وعندما سعت حكومة تشينغ إلى السلام، استغلت بريطانيا هذا المسعى لمصلحتها من خلال معاهدة نانجينغ The Treaty of Nanjing، التي سلَّمت الصينُ بموجبها السيادةَ على هونغ كونغ إلى بريطانيا، وفتحت خمسة من الموانئ الصينية أمام التجارة الأجنبية، ومنحت المواطنين البريطانيين حصانة أمام القضاء الصيني[14]. وقد أجبرت معاهدة بوغ The Treaty of Bogue التي وقِّعت لاحقًا حكومةَ تشينغ على الاعتراف ببريطانيا

(*) التناضُح الثقافي cultural osmosis، هو الاستيعاب التدريجي الهادئ، أو غير الواعي، للأفكار والقيم والمبادئ والمعارف. (المُعرِّب)

(**) تأسست أسرة تشينغ Qing Dynasty أو إمبراطورية تشينغ عام 1636، وحكمت الصين من عام 1644 حتى عام 1912، حين سقط آخر أباطرة هذه الأسرة، وتحولت الصين إلى النظام الجمهوري. ثم لم تلبث جمهورية الصين تلك أن سقطت على يد الثورة الشيوعية عام 1949، وهو العام الذي شهد قيام الصين كما نعرفها اليوم: جمهورية الصين الشعبية. (المُعرِّب)

كدولة مساوية للصين. وبعد ثلاثة عشر عامًا، انضم الفرنسيون إلى البريطانيين في حرب الأفيون الثانية عام 1856، التي انتهت بإحراق القصر الإمبراطوري الصيفي في بيجين وتسويته بالأرض عام 1860. وقد أُجبِرت الحكومةُ الصينيةُ المنهزمةُ على الإقرار بشرعية ما يقوم به التجار الأجانب من محاولات تهدف إلى توريط الصينيين في إدمان الأفيون، وما تقوم به بعثات التنصير من محاولات لتحويل الصينيين إلى المسيحية(15).

كذلك مُنِحت السفن الأجنبية حق الملاحة في مجاري الأنهار الصينية وقتما تشاء وكيفما تشاء، مخترقة أكثر مناطق الصين أهمية وحيوية. وفي واحدة من تلك الاختراقات، تجرأ قارب حربي على التوغل لمسافة 975 ميلاً في عمق الأراضي الصينية، مبحرًا في مياه نهر يانغتسي(16). وفي هذا المجال يقول ستابلِتون روي Stapleton Roy، وهو دبلوماسي مُحنَّك، وُلِد في نانجينغ وعمل سفيرًا للولايات المتحدة في الصين من عام 1991 إلى عام 1995: "خلال الفترة من 1845 إلى 1941 تجوَّلت السفن الحربية الأمريكية في أنهار الصين الداخلية لحماية المصالح الأمريكية. ومنذ عهد غير بعيد عام 1948، أثناء الحرب الأهلية الصينية، عندما كنت صبيًا في الثالثة عشرة من عمري، تم إجلائي من نانجينغ إلى شنغهاي، عاصمة البلاد في ذلك الوقت، على ظهر مدمرة أمريكية أبحرت نحو مائتي ميل في نهر يانغتسي"(17).

لقد أثبتت الأيام عدم جدوى الجهود التي بذلتها حكومة تشينغ للدفاع عن سيادة الصين من خلال تعزيز قدراتها العسكرية. فطوال عدة قرون تعاملت الصين مع اليابان باعتبارها دولة تابعة. ولكن في عام 1894، شنَّت اليابان، الدولة الـمُتعَصْرنة modernizing، هجومًا أسفر عن احتلال منشوريا، وتايوان، بالإضافة إلى كوريا التي كانت مجرد مقاطعة ملحقة بالصين. وبعد خمسة أعوام، هاجم متمردو الانتفاضة الصينية المعروفة باسم انتفاضة المُلاكم(*) Boxer Rebellion، المناطق والمصالح التي يسيطر عليها

(*) انتفاضة شعبية صينية اعتمدت أسلوب المقاومة المسلحة العنيفة، ضدّ كل ما هو أجنبي على الأراضي الصينية، حيث كانت عمليات المنتفضين موجهة ضد قوات الاحتلال، وأصحاب

الأجانب، وهم يرفعون شعار: "إحياء تشينغ، والقضاء على الأجانب". تصديًا لتلك الانتفاضة، شنَّ تحالف من ثماني دول إمبريالية هجومًا على المدن الصينية الرئيسية، وأباح لجنوده تلك المدن في مهرجان من السلب والنهب(18). وقد تمكن دبلوماسي أمريكي يُدعى هربرت ج. سكويرز Herbert G. Squiers، من ملء عدد من عربات السكك الحديدة بالأعمال الفنية وقطع البورسلين المسروقة(*). ويُشاع أن بعض هذه المسروقات معروض اليوم في متحف المتروبوليتان Metropolitan Museum، في نيويورك(19).

تماسكت إدارة تشينغ المنهكة قدر ما استطاعت، ولكن في عام 1912، انهارت تلك الأسرة بعد ما لحق بها من مذلة وهوان، وغرقت البلاد في محيط هائج من الفوضى. لقد مزق أمراء الحرب أوصال البلاد، وخاضوا فيما بينهم حربًا أهلية دامت ما يقرب من أربعين عامًا. وقد استغلت اليابان حالة التشرذم والضعف هذه، فغزت الصين عام 1937، واحتلت كثيرًا من مدنها، وشنت ضد مواطنيها حملات قمع وحشية راح ضحيتها أكثر من عشرين مليون مواطن صيني. واليوم، يتعلم طلاب وطالبات المدارس الثانوية الصينية كيف يشعرون بعار هذا "القرن من المهانة". ومن هذا العار يتعلمون درسًا لا لبس فيه: لا تنس ذلك ما حييت، ولا تسمح بتكراره أبدًا!

المصالح التجارية، وبعثات التنصير الغربية. غير أن أعمال تلك الانتفاضة لم تستمر طويلاً، فقد بدأت عام 1899 وانتهت عام 1901، وهي الأعوام الأخيرة من عمر مملكة تشينغ. الاسم الذي عرفت به هذه الانتفاضة في كتب التاريخ أطلقه عليها المبشرون والصحافيون الغربيون، لأن معظم قادتها كانوا من ممارسي الفنون القتالية، ومن بين هذه الفنون بالطبع فن الملاكمة. (المُعرِّب)

(*) من الواضح أن ظاهرة نهب التراث الحضاري والكنوز الأثرية للشعوب الواقعة تحت الاحتلال سلوك متأصل في عقلية الإمبريالي الأمريكي، سواء كان دبلوماسيًا أو عسكريًا، ربما لإحساسه بالغيرة، وشعوره بالنقص أمام ما يمتلكه كثير من شعوب العالم، ويفتقده أحفاد مستوطني أمريكا الشمالية، من تاريخ طويل تجسده تلك الآثار. فما حدث في الصين مطلع القرن الماضي، يكشف عن زيف الادعاءات التي تقول إن ما حدث في العراق من عمليات سلب ونهب أمريكية لكنوز المتاحف والقصور الرئاسية العراقية كان مجرد أعمال فردية متفرقة، قام بها نفر من مرتزقة الشركات الإجرامية المسماة بالشركات الأمنية التي تستعين بها الحكومة الأمريكية، وفي مقدمتها شركة بلاك ووتر Black Water، التي لم يسلم من شرورها بشر، أو أثر، أو حجر. (المُعرِب)

لم ينته ما تعرَّض له الصينيون من غَبْن وجَوْر إلا بالانتصار الذي أحرزه الشيوعيون بقيادة ماو تسي تونغ، في الحرب الأهلية في نهاية المطاف عام 1949. ورغم أن الإمبراطورية التي كانت يومًا عظيمة، تحولت إلى رُكام وأنقاض، أعلن ماو بكل فخر وزهو أن "الشعب الصيني قد نهض من عثرته".

على مدار سنوات المجاعة التي واكبت القفزة العظيمة إلى الأمام(*) Great Leap Forward، والفوضى التي صاحبت ثورة ماو الثقافية، وحملات التطهير التي قادها بلا هوادة، بقيت إنجازات ماو العمود الفقري لشرعية الحزب الشيوعي الصيني: لقد أنقذ هذا الحزب البلاد من هيمنة القوى الإمبريالية الأجنبية. واليوم، بعد ثلاثة عقود من النمو الاقتصادي المحموم، تؤمن الصين أنها تعود، أخيرًا، إلى تبوء مكانتها الطبيعية في العالم. غير أن استعادة تفوقها وتميزها لن يتحقق فقط عندما تصبح دولةً ثرية، ولكن عندما تصبح أيضًا دولةً قوية، كما فعل شي جِينْ بينْغ في أوج أتون الثورة الثقافية.

من هو شِـي جِيـنْ بينْغ؟

وُلِد شِـي ابنًا للثورة، ولما لا؟ فهو ابن لواحد من أهل الثقة وأصحاب

(*) حملة اقتصادية واجتماعية أطلقها الحزب الشيوعي الصيني بقيادة ماو تسي تونغ عام 1958، واستمرت أربع سنوات. كانت الحملة تهدف إلى إنقاذ وطن يتهاوى على كافة المستويات، وتحويل الاقتصاد الصيني والمجتمع الصيني، بسرعة وبأسلوب القفزات العملاقة، من اقتصاد ومجتمع إقطاعي متخلف، إلى اقتصاد ومجتمع اشتراكي متطور، من خلال التصنيع وكيانات العمل الجماعية. ويؤكد مؤرخون كثيرون أن الأسلوب القمعي وغير الإنساني الذي أديرت به عملية التحول هذه أسفر عن مصرع أعداد هائلة من الضحايا. فقد وصل عدد هؤلاء الضحايا وفقًا لتقديرات موثوق بها إلى أكثر من 55 مليون مواطن، بينما وصل عددهم وفقًا لأقل تقدير إلى 19 مليون. كما يرى معظم المؤرخين، وكثير من خبراء الشأن الصيني، أن الانتقادات الهائلة التي وجِّهت إلى هذه الحملة قبل وأثناء انعقاد المؤتمر العام للحزب الشيوعي الصيني في أيار/مايو 1962، كانت أحد أسباب إطلاق ما عرف بالثورة الثقافية، التي سعى ماو تسي تونغ من خلالها إلى التخلص من كبار معارضي سياساته الداخلية. (المُعرِّب)

الحظوة لدى الزعيم ماو تسي تونغ، شِي جونغ شون(*) Xi Zhongxun، نائب رئيس مجلس الدولة، الذي خاض معارك الحرب الأهلية الصينية بجوار ماو. غير أن الصبي الذي كان من المفترض أن ينمو ويترعرع في قلب بيجين "حاضنة القادة"، استيقظ بعد فترة وجيزة من عيد ميلاده التاسع عام 1962، ليكتشف أن ماو، الذي أصابه جنون العظمة، قد اعتقل والده. في الأيام التي تلت ذلك، تعرض والدُ شِي لكثير من الإهانات والتحقير، وانتهى به المطاف إلى قضاء سنوات الثورة الثقافية حبيس معتقَله. خلال تلك الفترة التي يصفها شِي الابن بأنها كانت فترة "بائسة"، أجبره جنود الحرس الأحمر، في أكثر من مناسبة، على أن يعلن إدانته لوالده. وعندما أغلقت مدرسته، وجد شِي نفسه مُشردًا، مُجبرًا على خوض معارك شوارع متواصلة دفاعًا عن حياته، كما وجد في سرقة الكتب من المكتبات المغلقة وسيلة جيدة لتعليم نفسه بنفسه[20]. وعندما أمر ماو بإرساله إلى الريف من أجل "إعادة تأهيله"، وجد شِي نفسه يعيش في كهف في قرية نائية في منطقة يان-آن Yan'an، يجمع روث الماشية، وينفذ كل ما يأمره به المزارع الذي يدير المكان. وقد عانت أخته الكبرى، غير الشقيقة، شِي هِي بينغ Xi Heping من الاكتئاب بسبب سوء المعاملة، الأمر الذي دفعها إلى شنق نفسها.

(*) شِي جونغ شون (15 تشرين أول/أكتوبر 1913- 24 أيار/مايو 2002)، واحد من أبرز الزعماء الصينيين في القرن العشرين، سواء على المستوى العسكري أو السياسي. فقد شارك في جميع المعارك السياسية والعسكرية التي خاضها الشعب الصيني منذ انضمامه إلى عصبة الشباب الشيوعي الصيني عام 1926، مرورًا بالقتال في صفوف ما عرف بالجيش الأحمر عام 1930، وخوض الحرب الصينية اليابانية الثانية، وانتهاءً بالمشاركة في الحرب الأهلية الشاملة التي اندلعت معاركها عام 1947. بعد انتصار الشيوعيين وقيام جمهورية الصين الشعبية تولى شِي الأب الكثير من المناصب الحزبية والتنفيذية، وكانت له إسهامات أيديولوجية مهمة خلال فترة تحوُّل الصين من دولة إقطاعية متخلفة إلى دولة صناعية. ورغم قربه من الزعيم ماو تسي تونغ، لم يسلم شِي من الاتهامات التي طالت زعماء كثيرين خلال ما عُرف بالثورة الثقافية، فجُرِّد من جميع مناصبه، وألقي به في السجن حيث بقي حتى عام 1975. في نهاية عام 1978، أعيد إلى شي جونغ شون اعتباره، وبدأ نجمه في الصعود مرة أخرى، وبخطوات متسارعة، إلى أن وصل إلى منصب نائب رئيس مجلس الدولة عام 1981، وبقي في هذا المنصب إلى أن قرر اعتزال الحياة العامة عام 1988. (المُعرِّب)

في المقابل، اختار شِي التعايش مع أدغال الأمر الواقع بديلاً للانتحار. فهناك، كما قال في كلمة معبرة، "وُلِد من جديد". وكما أخبر واحدٌ من أصدقائه الذين عاشروه فترة طويلة دبلوماسيًا أمريكيًا: لقد اختار شِي أن يكون شيوعيًا أكثر من عُتاة الشيوعيين من أجل البقاء، وقرر أن يفعل كل ما بوسعه ليشق في الصخر طريقًا يُعيده مرة أخرى إلى القمة[21]. غير أن شِي ما كان له أن يكون شخصًا له قيمته، لولا ما يتمتع به من مثابرة وعزيمة. فزعيم الأمة التي يبلغ تعداد سكانها مليارًا وأربعمائة مليون نسمة، وقائد الحزب الذي يضم 89 مليون عضو، كان قد رُفِض طلبه الالتحاق بالحزب تسع مرات، قبل أن ينجح في تحقيق مراده في المحاولة العاشرة.

وبمساعدة عددٍ من أصدقاء والده السابقين تمكن شِي من العودة إلى بيجين، والالتحاق بجامعة تسينغ هوا Tsinghua المرموقة. وبعد التخرج حصل على وظيفة في أدنى درجات السلم الوظيفي باللجنة العسكرية المركزية. ومن أجل الحصول على مرتبة أعلى، عاد شِي مرة أخرى إلى الريف، حيث خاض ما وصفه المؤرخ كيري براون Kerry Brown، المتخصص في سيرة شِي الذاتية، بأنه "تدريب سياسي قاس وغير فتَّان لمسؤول محلي"[22]. غير أن شِي شق طريقه من هناك، مرتقيًا درجات السلم الوظيفي، وفي عام 1997 حصل، بالصدفة، على مقعد في اللجنة المركزية للحزب. (كانت الانتخابات تجري على 150 مقعدًا فقط، وجاء شِي في المركز 151، وما كان ليفوز بعضوية اللجنة لو لم يقرر زعيم الحزب آنذاك جيانغ زيمين Jiang Zemin، بصورة استثنائية، زيادة عدد الأعضاء إلى 151 عضوًا)[23]. عندما أُرسِل شِي إلى مقاطعة جي جيانغ Zhejiang عام 2002، ليتولى رئاسة الحزب هناك، شهِدت المقاطعة تحت قيادته نموًا اقتصاديا مذهلاً: لقد زادت الصادرات بنسبة 33 في المائة سنويًا خلال السنوات الأربع التي قضاها في منصبه[24]. كما أثبت شِي براعته في اكتشاف ودعم أصحاب المشروعات المحلية الواعدين، ومنهم جاك ما Jack

Ma، مؤسس الكيان الاقتصادي العملاق علي بابا Alibaba، المنافس الخطير حاليًا لأمازون Amazon.

وبينما أظهر شِي مهاراته كمسؤول إداري، كان حريصًا على عدم جذب الانتباه إليه، متجنبًا ولع كثير من زملائه بالتباهي بما حققوه من ثروات. وعندما بدأت أسماء قادة الحزب المحتملين في التداول عام 2005، لم يكن اسمه واحدًا من تلك الأسماء المُتداولَة. ولكن، في بداية عام 2007، عندما اجتاحت فضيحة فساد رفيعة المستوى شنغهاي، شعر الرئيس الصيني هو جين تاو Hu Jintao وزملاؤه في اللجنة الدائمة للمكتب السياسي للحزب، بحاجة ماسة إلى التصرف بسرعة وحزم. ولمعرفتهم بما اشتهر عن شِي من استقامة وانضباط، اختاروه لإخماد نيران هذه الفضيحة. وقد أدى شِي ما عُهِد به إليه بمزيج من الحسم والدهاء، الأمر الذي أثار إعجاب أقرانه. ومع حلول صيف عام 2007، تصدَّر اسمُه القوائم الداخلية للحزب، التي ترصد أكثر الأفراد قدرة على احتلال مكان ومكانة بين الجيل القادم من القادة.

وحان وقت الحصاد، فعندما اجتمع الأربعمائة الكبار، الذين يشكلون اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني، في تشرين الأول/أكتوبر 2007، لاختيار أعضاء اللجنة الدائمة التسعة الذين سوف يقودون الأمة في السنوات الخمس التالية[25]، برز اسم شِي، ليس كعضو في تلك اللجنة فقط، ولكن كوريث واضح للرئيس هُو جين تاو. كان شِي متواضعًا بقدر ما كان طموحًا، وقد حافظ على تواضعه هذا وهو يتسلق بدأب ومثابرة سلم الحزب، متفوقًا على لي كي شيانغ Li Keqiang، صاحب الحظوة والمكانة المرموقة، ليحتل قمة قائمة المرشحين للمنصب الأعلى في الصين. وعندما أعلنت الصحافة أن شِي هو الخليفة المرجح لهُو جين تاو، كان اسمه غير معروف على الإطلاق خارج الدائرة الداخلية للحزب، إلى حد أن نكتة قد انتشرت على نطاق واسع آنذاك: "من هو شِي جِينْ بينْغ؟"... الإجابة "هو زوج بينغْ لي وان Peng Liyuan"، وهو اسم مغنية الفولكلور التي كان شِي متزوجًا منها[26].

بعد وفاة ماو عام 1976، بذل أعضاء الحزب أقصى ما في طاقتهم للحيلولة دون صعود الأوتوقراطيين المحتملين إلى مراكز السلطة(*). لتحقيق هذا الهدف، وضعوا معايير اختيارٍ لا تأخذ بالكفاءة فقط، بل أيضًا بطبيعة الشخص المختار ومزاجه العام، فحرصوا على اختيار شخصيات تتصف بالقوة، والثقة، ولكنهم فضلوا أن لا تتمتع بالكاريزما أو الجاذبية الجماهيرية الآسرة. لقد أصبح الزعيم مجرد عضو في فريق يتكون من تسعة من كبار التكنوقراطيين في الحزب، يتخذون القرارات السياسية بالتوافق في ما بينهم. لقد جرى العرف على أن يكون أعضاء المكتب الدائم، نُسخًا متطابقة doppelgängers. ففي الصور الفوتوغرافية، يرتدون بدلات وقمصانًا وربطات عنق متشابهة، وغالبًا ما يتعذر على نظرائهم من الأجانب التفريق بينهم. كان هُو جين تاو مثالاً جيدًا لهذا النموذج من القادة، حتى أنه كان غالبًا ما يسجل نقاط الموضوع الذي يرغب في طرحه على بطاقات ملاحظات صغيرة، بل كان في بعض الأحيان يستخدم هذه الطريقة، خلال لقاءاته المنفردة مع زعماء آخرين. لقد رأى الجميع في شِي شخصًا خُلِق من نفس العجينة، مفترضين أنه سوف يكون متحدثًا مقبولاً باسم القيادة الجماعية.

من الواضح أنهم لم يعرفوا الرجل جيدًا. فمع نهاية العام الثاني من فترته الرئاسية الأولى، كان شِي قد جمع بين يديه كافة السلطات، حتى أنه كان غالبًا ما يُشار إليه باسم الرئيس بِتاع كُلُّه "Chairman of Everything". وعلى عكس سياسة المُسايرة والتعايش التي كان أسلافه يتبعونها، هَمَّش شِي الآخرين تمامًا، حتى أنه لم يعيِّن نائبًا له، ولا يُعرف له خليفة واضح. وبالرغم من أن نائب رئيس مجلس الوزراء لي كي شيانغ يواصل، على الورق، قيادة برنامج الإصلاح الاقتصادي، انتقلت عملية اتخاذ القرار بشأن كافة القضايا الرئيسية إلى مجموعة جديدة هي المجموعة الرائدة للشؤون

(*) المقصود هنا القادة الحزبيون الذين يحملون بذرة الاستبداد وتدل شواهد سابقة على أنهم يميلون إلى ممارسة سلطة مطلقة. (المعرب)

المالية والاقتصادية، التي يرأسها صديق شِي المقرب لِيو هِي Liu He، والتي تتبع الرئيس مباشرة. لقد دبّر شِي ببراعة، واستغل إلى أقصى درجة، حملة علنية لمكافحة الفساد، من أجل إحكام قبضته على السلطة. لقد استطاع التخلص من عشرات المنافسين الأقوياء، الذين كان يُعتقد أن المساس بهم أمرٌ مستحيل، بمن فيهم الرئيس السابق لجهاز الأمن الداخلي الصيني جو يونغ كانغ Zhou Yongkang، الذي أصبح أول عضو في اللجنة الدائمة يُحاكَم بتهمة الفساد. وسعيًا لتوطيد دعائم حكمه، مَنح شِي نفسه أكثر من عشرة ألقاب، بما في ذلك رئيس مجلس الأمن القومي الذي أنشئ حديثًا، والقائد الأعلى للجيش، وهو لقب لم يحصل عليه ماو شخصيًا. كما عَمَّد نفسه "مرشدًا أساسيًا" للصين، وهو مصطلح يرمز إلى أهميته المركزية بالنسبة للدولة التي فتح سَلفُه هُو جين تاو الأبواب أمام زوالها. ولعل الأهم من كل ذلك، أنه، حتى كتابة هذه السطور، يبدو أن شِي يُعِدّ المشهد السياسي، لتجاوز حدود فترته الرئاسية التقليدية، والبقاء في السلطة إلى ما بعد عام 2022[27].

تحقيق حلم الصين

يرى الزعيم السنغافوري لي كُوان يِو، المرشد السياسي لشِي جِينْ بينْغ، أنه يجب على زعيم أية أمة أن "يرسم رؤيته لمستقبل شعبه، وأن يترجم تلك الرؤية إلى سياسات، كما يتحتم عليه إقناع شعبه بأن تلك السياسات تستحق الدعم، وأن يحفِّزهم على مساعدته في تنفيذها"[28]. وهذا ما فعله شِي، فبعد أن رسم رؤية جريئة لحلم الصين، ها هو يحشد، بإصرار كبير، المناصرين من أجل تنفيذ خطة عمل بالغة الطموح، تسير خطواتها على أربع جبهات مترابطة:

- إنعاش الحزب، وتطهيره من الفساد، واستعادة إحساسه بالمهمة الملقاة على عاتقه، وإعادة إرساء سلطته في أعين الشعب الصيني.

- إحياء القومية الصينية والمشاعر الوطنية، ليغرس في نفوس الصينيين الاعتزاز بأنهم صينيون.
- تصميم وإطلاق ثورة اقتصادية ثالثة[29]، مع علمه بأن هذه الثورة سوف تؤدي إلى إصلاحات هيكلية مؤلمة سياسيًا، للحفاظ على معدلات نمو مستدامة في الصين، بعد سنوات طويلة من عدم استدامة تلك المعدلات وعدم استقرارها.
- إعادة تنظيم وإعادة بناء الجيش الصيني بحيث يكون بمقدوره، على حد تعبير شِي، "أن يقاتل، وأن يحقق النصر".

تبدو كل واحدة من هذه الجبهات الأربع أكثر من كافية للاستحواذ على جهود معظم رؤساء الدول على مدار عقدٍ من الزمان .ورغم ذلك اختار شِي وفريقه التعامل مع الجبهات الأربع في وقت واحد، لأنهم يرون أنها مُحكَمةُ الترابط. وقد حذر العديد من المحاورين الغربيين، بمن فيهم مستشارون أصدقاء للصين، من هذا الحِمل الزائد. بل إن عددًا من العلماء الجديين راهن على أن شِي لن ينجح حتى في استكمال فترته الرئاسية الأولى التي يفترض أن تنتهي في خريف عام 2017. إلا أن شِي قَدَّم نموذجًا حيًا لما يُطلِق عليه أندرو ناثان Andrew Nathan، الباحثُ المتخصصُ في الشأن الصيني، "الثقة النابليونية بالنفس"[30]. وكما قال رئيس الوزراء الأسترالي كيفن رود Kevin Rudd (الذي يَعرف شِي منذ 1980، عندما كان كلٌ منهما مسؤولاً صغيرًا في حكومة بلاده) "إن شِي يتمتع بإحساس عميق برسالته الوطنية، ويمتلك رؤية سياسية واضحة للبلاد، وهو رجلٌ في عجلة كبيرة من أمره[31]".

إن المسؤولين الصينيين يدركون تمامًا العقبات التي يواجهونه. فعلى سبيل المثال، يحتفظ ليو هِي المستشار الاقتصادي الرئيسي لشِي، الذي أعرفه منذ عقدين، لأنه كان طالبًا في مدرسة كينيدي بجامعة هارفارد، بقائمة تضم أكثر من عشرين مشكلة، من بينها: الديمغرافيا (هل سوف تصبح الصين دولة لكبار السن، قبل أن تتمكن من أن تصبح دولة غنية؟)؛

والتحديات الخاصة بتعزيز الابتكار؛ وتحديات الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي مع تقليص حجم المؤسسات غير الفاعلة المملوكة للدولة؛ والوفاء بأحتياجات البلاد من الطاقة، دون تحويل البيئة إلى مكان لا يمكن العيش فيه. وقد حلل ليو هِي كل تحدٍ من هذه التحديات من خلال نظرة تتفوَّق، بعمقها ووضوحها، على ما طرحه أيُّ مراقب غربي ممن قرأتُ لهم. وإدراكًا من شِي وأعضاء الحزب لكل هذه المخاطر أو التحديات، فهُم يواصلون مضاعفة جهودهم على كل الجبهات.

في حواراتي المطولة مع ليو هِي، يعزو الرجل مصدر هذه الثقة إلى الأزمة المالية العالمية التي ضربت وول ستريت في عام 2008[32]. ويستعرض، دون تفاخر أو مباهاة، سجل أداء الاقتصاد الصيني في مواجهة هذا التحدي. لقد كانت الصين الدولة الوحيدة، من بين الاقتصادات الكبرى في العالم، التي تمكنت من مواجهة تلك الأزمة وما أسفرت عنه من ركود كبير، دون الوقوع في هوة النمو السلبي[33]. ولأن قادة الصين رفضوا وجهة نظر واشنطن المطالِبة بتحرير الأسواق المالية الصينية أثناء أزمة عام 2008، توفرت لديهم وسائل كثيرة للتعامل مع تلك الأزمة، وقد استخدموا تلك الوسائل. وكما فعلت إدارة أوباما، قدم المسؤولون الصينيون في عام 2009 مُحفِّزاتٍ اقتصاديةً غير مسبوقة، إذ بلغت قيمتها 586 مليار دولار. ونتيجة لذلك، أصبح بإمكان الصينيين الآن السفر على القطارات السريعة بين مدنهم الرئيسية. على الجانب الآخر، ما هو المقابل الذي حصلت عليه الولايات المتحدة من ضخ 983 مليار دولار؟[34]

لإقناع بقية القادة الصينيين ومواطنيه بأن الحلم الصيني ليس مجرد شعارٍ رنان، انتهك شي واحدة من القواعد الأساسية التي تضمن للسياسي طول البقاء على كرسيِّه: "لا تجمع أبدًا بين هدف واضح ملموس، وتاريخ محدد في جملة واحدة". ففي غضون شهرٍ من تولّيه زعامة الصين في عام 2012، أعلن شِي عن هدفين واضحين، وحدد الموعد النهائي لإنجاز كل منهما. سوف تنجز الصين، لتحقيق حلمها، هدفين كبيرين بحلول الاحتفالين

المئويين التاليين. أولاً، سوف تبني "مجتمعًا مُزْدهرًا بلا إسراف" (وهو ما يعني مضاعفة الناتج المحلي الإجمالي للفرد الواحد، ليصل إلى نحو 10,000 دولار) بحلول عام 2021، موعد الاحتفال بالذكرى المائة لتأسيس الحزب الشيوعي الصيني. ثانيًا، سوف تصبح دولة "مُحَدَّثة، ومتقدمة بصورة كاملة، وغنية وقوية" بحلول الذكرى المائة لقيام جمهورية الصين الشعبية في عام 2049[35].

من المقرر أن يحين الموعد النهائي لإنجاز الهدف الأول في العام التاسع من فترة رئاسة شِي جِينْ بينْغ المقرر لها عشر سنوات. وإذا ما نجحت الصين في تحقيق هذا الهدف، سوف يكون اقتصادها أكبر من اقتصاد الولايات المتحدة بنسبة 40 في المائة (باستخدام مقياس تعادل القوة الشرائية PPP)، بحسب تقديرات صندوق النقد الدولي[36]. وإذا ما أنجزت الصين الهدف الثاني بحلول عام 2049، فإن اقتصادها سوف يكون قد وصل إلى ثلاثة أمثال الاقتصاد الأمريكي. وعلاوة على ذلك، فإن التفوق الاقتصادي بحسب خطة شِي، هو مجرد حجر أساسٍ للحلم الصيني. رجل الأعمال الأمريكي روبرت لورانس كُون Robert Lawrence Kuhn، هو واحد من عدد قليل من الغربيين الذين يحظون بالتواصل المستمر مع الدائرة الداخلية لشِي، لاحظ أن أعضاء هذه الدائرة، عندما يتحاورون في ما بينهم، يؤكدون أن اعتلاء دولةٍ ما المركز الأول، لا يعني تفوُّقها من الناحية الاقتصادية فقط، بل أيضًا في مجالات الدفاع والعلوم والتكنولوجيا والثقافة[37]. وبالتالي، ليس مقصد شِي جِينْ بينْغ من جعْل الصين دولة عظيمة مرة أخرى أن تصبح دولة غنية فقط، بل أن تصبح دولة تشعر بالفخر والاعتزاز، وأن يصبح الحزب، باعتباره القوة الدافعة للمشروع بأكمله، طليعة تتقدم الشعب وتقوده من جديد.

كابوس شِي جِينْ بينْغ

عندما يرى شِي كابوسًا أثناء النوم، فإن الشبح الذي يتراءى له، هو ميخائيل غورباتشوف. فبعد فترة قصيرة من تولي السلطة، وجَّه شِي إلى زملائه المقربين سؤالاً بلاغيًا(*): "لماذا انهار الاتحاد السوفييتي؟" لأنه، دون أن يملَّ أبدًا من تكرار تذكيرهم، "درسٌ عميق بالنسبة لنا". وبعد تحليل دقيق، خلُص شِي إلى أن غورباتشوف ارتكب ثلاثة أخطاء فادحة: لقد خفف من السيطرة السياسية على المجتمع قبل أن يستكمل إصلاح اقتصاد بلده. وسمح هو وأسلافه للحزب الشيوعي بالانزلاق إلى هوة الفساد، فتحول في نهاية المطاف إلى كيان أجوف. كما أنه أضفى على الجيش السوفييتي الصفة القومية، وهو ما يتطلب أن يُقْسم القادة على الولاء للأمة، وليس للحزب وزعيمه. ونتيجة لذلك، "تُرِك الحزبُ أعزلاً منزوع السلاح". وعندما هبَّ المعارضون للإطاحة بالنظام، لم يكن هناك أحدٌ "لديه من الرجولة ما يكفي للصمود والتصدي"، على حد تعبير شِي[38].

لقد لاحظ شِي أن الحزب الشيوعي الصيني اتخذ في السنوات التي تلت حادث ساحة تيانانمِن عام 1989، مسارًا يشبه، إلى درجة خطيرة، ذلك الذي اتخذه غورباتشوف، خصوصًا بعد أن سادت مانترا(**) تقول "المجد للأغنياء"، حيث أصبح، تقريبًا، كل من يملك القدرة أو السلطة اللازمة لتحقيق الثراء ثريًا. وبالطبع شمل ذلك كثيرًا من قادة الحزب الشيوعي والمسؤولين الحكوميين وضباط الجيش. ومع بروز مظاهر هذا الثراء من خلال استعراض أصحابه التفاخُري لما يتمتعون به من ترف، خامر

(*) السؤال البلاغي rhetorical question، سؤال يهدف صاحبه إلى تحفيز عقلية من يوجهه إليهم، وإحداث أثر مقصود في نفوسهم، لا إلى الحصول على إجابة، يعرفها مسبقًا. (المُعرِّب)

(**) المانترا Mantra في العقيدتين البوذية والهندوسية جملة أو ترنيمة تشبه تعبير "سبحان الله" في الموروث الإسلامي، وتعبير "هللويا" في الموروث المسيحي. تتخلل هذه الترنيمة الخطابات والصلوات بغرض المساعدة على زيادة التركيز على موضوع ما. (المُعرِّب)

المواطنين، ومعهم كل الحق، إحساس بالشك في الجوهر الأخلاقي للحزب، وفي مدى إخلاص قادته لمهمتهم. وحذر شِي المسؤولين في الحزب من أن "تذبذب الإيمان الأيديولوجي هو أخطر أشكال التذبذب، وانهيار أي حزب سياسي غالبًا ما يبدأ بفُقدان أو انعدام الإيمان بمُثُله، كما أن هذا التذبذب يقوِّض ثقة الجماهير والتزامها"[39].

كان شِي يدرك أن مصداقية القائد الأعلى تعتمد بشكل جوهري على تسلسل قيادي، يمكن من خلال حلقاته أن يدفع أمرٌ أصدره جنديًا إلى إطلاق النار على مواطنيه. لهذا، عندما ناقش شِي ولي كُوان يوْ مصير غورباتشوف، توصلا إلى نتيجة واحدة، عبَّر عنها لي بقوله: "يوم قال غورباتشوف للجماهير في موسكو: لا تخافوا من الكي جي بي KGB، أخذتُ نفسًا عميقًا، إذ رأيتُ أنه يجلس على رأس آلة إرهابية تقبض بيدها على مقاليد الأمور، ويقول: "لا تخافوا". وأكد لي أنه لم يفاجأ بالنتائج "لقد قفز غورباتشوف إلى الطرف العميق من حوض السباحة دون أن يتعلم كيف يسبح" .وأضاف: "لقد آمنت دومًا بصحة وجهة نظر ميكيافيلي في ما يتعلق بالاختيار بين أن تكون محبوبًا وأن تكون مرهوبًا. وإذا لم أكن مرهوبًا فأنا لا قيمة لي[40].

كانت عملية إضفاء الطابع الشرعي على حزب قوي الخطوة الحتمية الأولى على طريق تحقيق ما يحلم به شِي للصين، ليكون الحزب بمثابة طليعة للجماهير ووصيًا على الدولة. لهذا، وبعد فترة وجيزة من توليه منصبه، قال شِي لزملائه من أعضاء المكتب السياسي: "إن كسْب الدعم الشعبي أو فقدانه هو مسألة تتعلق ببقاء أو فناء الحزب الشيوعي الصيني". وحذر شِي الأعضاء بشكل صارخ: "الفساد يمكن أن يقضي على الحزب". ومُقْتبِسًا من أقوال الحكيم الصيني كونفوشيوس Confucius، تعهد بأن يحكم بنزاهة واستقامة، وأن يحافظ على النظام من خلال العقوبات"[41]. لم يكن شِي يطلق تهديداتٍ جوفاء، فقد شنَّ بالفعل حملةً لمكافحة الفساد، على نطاق لم يسبق له مثيل، سلَّم زمامها لأقرب معاونيه،

وانغ تشي شان Wang Qishan. وقد وضع شِي رهن تصرف وانغ 18 فرقة عمل على رأس كلٍ منها ملازمٌ موثوقٌ به، يقدم تقاريره إلى شِي مباشرة. ومنذ عام 2012، جرى تأديب أكثر من 900,000 من أعضاء الحزب، وطُرد 42000 شخص وحوكموا أمام المحاكم الجنائية. وكان من بين هؤلاء 170 ممن يعرفون بالنمور، وهُم شخصيات رفيعة المستوى، من بينها عشرات من ضباط الجيش ذوي الرتب العالية، و18 عضوًا من أعضاء اللجنة المركزية المكوَّنة من 150 عضوًا، بالإضافة إلى أعضاء سابقين في اللجنة الدائمة(42). وفي إطار متابعة هذه الحملة، وضع شِي والمقربون منه من أعضاء الدائرة الداخلية للحزب، استراتيجية تهدف إلى إضفاء الطابع الرسمي على أعمال تلك الحملة، بطرق تعزز سيادة القانون.

وعلى النقيض من غلاسنوست Glasnost غورباتشوف(*)، طالبَ شِي بالانصياع الأيديولوجي، وبتشديد السيطرة على الخطاب السياسي، وأصرّ على أن تعزِّز وسائل الإعلام مصالح الحزب بقوة، بل إنه، في واقع الأمر، وضع نموذجًا يُقْتَدَى به لتتبع السلوك المالي والاجتماعي والرقمي لكل مواطن، وجعله جزءًا من قاعدة البيانات الهائلة الخاصة بالائتمان الاجتماعي"(43)، على نحو يذكرنا برواية "1984" لجورج أورويل(**)

(*) مصطلح ظهر في الفترة الأخيرة من عمر الاتحاد السوفييتي، أطلقه ميخائيل غورباتشوف، آخر الزعماء السوفييت، عام 1985. يقصد بهذا المصطلح الانفتاح السياسي من قبل السلطة المركزية، بحيث تكون أكثر تقبُلًا للرأي الآخر، وأكثر تسامحًا مع نشر وانتشار المعلومات. (المُعرِّب)

(**) رواية تنتمي إلى ما يُعرف بأدب المدينة الفاسدة Dystopia، وهي النقيض الافتراضي لما يُعرف بالمدينة الفاضلة Utopia. تدور أحداث الرواية في دولة اسمها المهبط رقم واحد Airstrip One، بريطانيا سابقًا، يخضع مواطنوها لأشد أشكال التسلط والطغيان، حيث تفرض الحكومة عليهم أيديولوجية خاصة، تحدد ما يمكنهم أن يفعلوه وما يجب ألا يفعلوه، وتضعهم تحت المراقبة المتواصلة ليلًا ونهارًا. وُلِدت فكرة الرواية لدى مؤلفها في أعقاب ما عُرِف بمؤتمر تقسيم العالم الذي عُقد في مقر السفارة السوفييتية في طهران خلال الفترة من 28 تشرين الثاني/نوفمبر إلى 1 كانون الأول/ديسمبر 1943، وضم الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت، والزعيم السوفييتي جوزيف ستالين، ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل. نُشِرت الرواية عام 1947، وخلال السنوات التي أعقبت نشرها، تُرجمت إلى معظم لغات العالم، كما تحولت إلى أعمال سينمائية وتلفزيونية أكثر من مرة. وقد تجاوز تأثير رواية جورج أورويل عوالم الفن والأدب إلى عالم الاجتماع والسياسة، ويكفي أن نعرف أن مصطلح "الأخ الأكبر" أو "Big Brother" الذي نرمز

George Orwell. وفي الوقت نفسه، تحرك شِي لتوطيد دعائم مركزية الحزب داخل منظومة الحكم في الصين. كان دينْغ شياو بينْغ قد طرح فكرة فصل الحزب عن الحكومة، وتعزيز بيروقراطية الدولة الصينية في مواجهة الحزب. غير أن شِي رفض تلك الفكرة رفضًا قاطعًا، مؤكدًا "الحزب هو الأهم أيها الغبي". وبعد فترة وجيزة من تولي شِي السلطة، بلورت افتتاحية لصحيفة الشعب اليومية People's Daily موقفه قائلة: "إن مفتاح إدارة شؤون الصين بشكل جيد، وتحقيق الحلم الصيني، يكمن في يد الحزب"[44].

كي تصبح الصين، من جديد، فخورة بنفسها

يعرف شِي أن نظافة الحزب وحدها لا تكفي. فعلى الرغم من أن إصلاحات دينغ، المتمثلة في الاتجاه نحو اقتصاد السوق، وسَّعت نطاق النمو الاقتصادي السريع بعد عام 1989، لا يزال الحزب يناضل من أجل إبراز المبرر الرئيسي لوجوده raison d'être. لماذا يتعيّن على الشعب الصيني أن يسمح لهذا الحزب بأن يحكمه؟ يأتي جواب الحزب عن هذا السؤال في المرتبة الثانية ضمن قائمة أولويات ما يحلُم به شِي للصين: إحساس متجدد بالهوية الوطنية التي يعتنقها بفخر مليار مواطن صيني. لقد وضع ماو وزملاؤه الثوريون، في إطار ممارستهم الشرسة للشيوعية، الهوية الصينية في مرتبة تالية، أو مرتبة أدنى، في مواجهة أيديولوجية عالمية كانت في واقع الأمر غربية بامتياز. ولكن لطالما بدا المفهوم الماركسي العالمي "الاشتراكي الجديد" new socialist man، لكثير من الصينيين مفهومًا دخيلًا. وقد أثبتت القومية nationalism، كمفهوم قُطْري، أنها أكثر فعالية وديمومة[45].

به للأجهزة الأمنية التي تراقب المواطنين وتحصي عليهم أنفاسهم وتحركاتهم قبل أقوالهم، ورد لأول مرة في سياق هذه الرواية. (المُعرِّب)

إن شِي يُعيد تعميد وتنصيب الحزب باعتباره خليفة القرن الحادي والعشرين للمندرينيين العظماء(*)، حُرّاس الحضارة التي تبعث على الفخر، الذين يحملون على عاتقهم دورًا رياديًا تاريخيًا. فهو يقول: "قبل عدة آلاف من السنين، سلكت الأمة الصينية طريقًا يختلف عن الطرق التي سلكتها الدول الأخرى. ولم يكن من قبيل المصادفة أن بدأنا في تطبيق اشتراكية ذات خصائص صينية، فهذا أمر ينطلق من الميراث التاريخي لبلادنا"(46). وقد سلط مارك إليوت Mark Elliott، الباحث المتخصص في الشأن الصيني، الضوء على ما وصفه بأنه "خط مشرق يمتد مباشرة من الإمبراطورية إلى الجمهورية. لقد أصبحت جمهورية الصين الشعبية وريثة لإمبراطورية تشينغ. كما أصبحت تستمد شرعيتها من تلك المعادلة، بصورة متزايدة"(47).

قاد شِي عمليةً تهدف إلى إحياء الفكر الصيني الكلاسيكي، وأمَر المسؤولين في جميع أنحاء البلاد بحضور محاضرات عن "الرؤى الرائعة" لكونفوشيوس وفلاسفة صينيين آخرين لتشجيع وتعزيز "الثقة بالنفس على المستوى الوطني"، مُعلنًا أن "الحزب الشيوعي الصيني هو الامتداد الطبيعي لهذه الثقافة الصينية التقليدية الرائعة"(48). وبقدر ما كانت عظمة الإمبراطورية الرومانية مصدر إلهام خلال عصر النهضة الإيطالية، أصبحت أمجاد العصر الذهبي (شينغ شي)، وهي الفترة التي سبقت سقوط أسرة تشينغ، مصدر فخر للصين الحديثة. وليس من قبيل المصادفة أن مصطلح "تجديد" rejuvenation (فوك سينغ)، الذي يعكس حالة شعورية من الرغبة في استعادة ما كان، ويشكل محورًا مركزيًا مهمًا على طريق تحقيق ما يحلم به شِي للصين، يمكن أن يترجم إلى "نهضة" renaissance.

وفي الوقت نفسه، أصبحت عبارة وُوَانغ غوتشي، أو "لن ننسى أبدًا

(*) الماندرين mandarin هي اللغة الصينية الشمالية التي يتحدث بها أكثر من 750 مليون مواطن، غير أن مصطلح المندرينيين يقصد به المسؤولون الذين كانوا يتولون المناصب القيادية العليا في عصور الحكم الإمبراطوري المختلفة على مدار التاريخ الصيني. (المُعرِّب)

إهانتنا الوطنية"، ترنيمة تُذْكي الروح الوطنية التي ترتكز على إحساس المواطن الصيني بأنه كان ضحية للعدوان، وتغرس داخله الرغبة في الثأر. وكما أوضح جيوف ديير Geo Dyer: "لقد واجه الحزب الشيوعي تهديدًا بطيئًا لشرعيته منذ أن تخلى عن ماركسية ماركس لصالح اقتصاد السوق". وهكذا استحضر الحزب ذكريات ما تعرضت الصين له من إذلال في الماضي على يد اليابان والغرب "لخلق شعور بالوحدة التي تعرضت للتفتت، وتحديد هوية صينية تختلف بشكل أساسي عن الحداثة الأمريكية[49].

وخلال التسعينيات، عندما كان كثيرون من قادة الفكر الغربيين يحتفلون بما أطلقوا عليه "نهاية التاريخ" في مواكبة للانتصار الواضح الذي أحرزته الديمقراطيات التي تقوم على اقتصاد السوق، اعتقد عدد من المراقبين أن الصين أيضًا كانت على طريق التحول إلى نظام ديمقراطي. واليوم، لا يرى سوى عدد قليل من الصينيين أن الحريات السياسية أكثر أهمية من استعادة مكانة الصين الدولية وكبريائها الوطنية. وقد عبَّر لي كُوان يِو عن ذلك بوضوح: "إذا كنت تعتقد أن ثورة من نوع ما ستندلع في الصين من أجل الديمقراطية، فأنت مخطئ". وتساءل لي بشكل استفزازي: "أين هم طلاب تيانانمِن الآن؟" مجيبًا بشكل صريح: "لم يعد لهم مكان، فالشعب الصيني يريد إحياء الصين"[50]. وهكذا، ما دام شِي قادرًا على الوفاء بوعده باستعادة عظمة الصين التي كانت، سيبقى مستقبل الحزب (ومستقبله هو شخصيًا) في أمان.

استِدامةُ غير المُسْتدام

يعرف شِي أن دعم الشعب الصيني لدور كاسحٍ وشاملٍ للحزب يعتمد، إلى حد كبير، على قدرته على تحقيق مستويات من النمو الاقتصادي لم تحققها دولة أخرى من قبل. غير أن استمرار الأداء الاقتصادي الصيني غير العادي

يتطلب تَدْويم عملٍ فريدٍ من نوعه. إن تنفيذ وعد شِي الذي لا لبس فيه بتحقيق نمو بنسبة 6.5 في المائة سنويًا حتى عام 2021 يتطلب ما وصفه البعض بأنه "اسْتِدامةُ غير المُسْتدام".

هناك اتفاق عام حول ما يجب على الصين القيام به من أجْل مواصلة النمو بهذه الوتيرة لسنوات عديدة قادمة. وقد وردت العناصر الرئيسية اللازمة لتحقيق ذلك في أحدث خطة اقتصادية خمسية في الصين، ومن بين تلك العناصر: تسريع عملية الانتقال إلى النمو الذي يعتمد على الطلب أو الاستهلاك المحلي(*)؛ إعادة هيكلة المؤسسات غير الفعالة المملوكة للدولة أو إغلاقها؛ تعزيز قاعدة العلم والتكنولوجيا لدفع الابتكار؛ تعزيز روح المبادرة لدى الصينيين؛ وتجنب مستويات الديون التي لا يمكن تحمُّل أعباء خدمتها.

تحتاج الصين، في وضعها الحالي على درجات سُلّم التنمية، إلى سنوات عديدة من النمو بمعدلات مرتفعة، كي تلحق بمستويات المعيشة في الدول صاحبة الاقتصادات الأكثر تقدمًا في العالم. فدخْل الفرد في الصين لا يزال أقل من ثلث دخل نظيره في كوريا الجنوبية أو إسبانيا، وهو لا يتجاوز خُمس دخل الفرد في سنغافورة أو الولايات المتحدة. وإذ تتحول الصين باطراد من تصنيع السلع الأساسية البسيطة إلى تصنيع منتجات وتقديم خدمات عالية القيمة، يجب أن يكون ذلك مصحوبًا بارتفاع الدخل المواطن الصيني. غير أن شِي يبدي حذره وتخوفه مما يُطلَق عليه فخ

(*) الطلب المحلي domestic demand، هو مجموع المبالغ التي ينفقها مواطنو دولة معينة وشركاتها وحكومتها على السلع والخدمات المتوفرة بالفعل، أو التي يمكن أن ينفقونها حال توفر تلك السلع والخدمات. ولتطبيق فكرة النمو الاقتصادي من خلال الاعتماد على الاستهلاك المحلي domestic consumption-driven demand، التي تتبناها الصين، يجب توفير ثلاثة شروط أساسية: أولًا زيادة الناتج المحلي من السلع والخدمات؛ ثانيًا زيادة جودة وكفاءة تلك السلع والخدمات؛ ثالثًا زيادة الأجور والدخول حتى يكون الأفراد والشركات قادرين على اقتناء السلع المعروضة والاستفادة من الخدمات المتوفرة. وهنا نود أن نشير إلى أنه بينما يرى الاقتصاديون التقليديون أنه إذا قلَّ العرض زاد الطلب، يرى أصحاب بعض المدارس الاقتصادية الجديدة أن العكس هو الصحيح، بمعنى أن زيادة توفر السلع والخدمات الجيدة في الأسواق، يؤدي إلى زيادة الطلب عليها. (المُعرِّب)

الدخل المتوسط middle-income trap، الذي أوقع عددًا من البلدان النامية في شرك زيادة الأجور، مما أفقدها القدرة التنافسية في مجال التصنيع. وهذا هو الدافع أو المحرك لما يسميه الإصلاحات في جانب العرض supply-side reforms، وهي إصلاحات تهدف إلى إعادة التوازن في الاقتصاد الصيني بين التصدير من جهة والاستهلاك المحلي والخدمات من جهة أخرى. وبالفعل، حقق قطاع الخدمات في الصين نموًا وصلت نسبته إلى 8 في المائة عام 2015، ليمثل، لأول مرة في تاريخ الصين، أكثر من 50 في المائة من إجمالي الناتج المحلي[51].

ومن أجل الحدّ من عدم كفاءة الشركات المملوكة للدولة، تعهدت الصين بأن "تستأصل بلا رحمة الشركات الزومبي[*]"، التي تعمل على الرغم من افتقادها الكفاءة الفنية اللازمة للاستمرار. وفي هذا السياق ألغِيت أربعة ملايين وظيفة[52]. وفي الوقت نفسه، تدعو الخطة التي أطلق عليها "صنع في الصين 2025" إلى زيادة جودة المنتجات الصينية، ورفع مواصفاتها الفنية.

لقد عقد شِي العزم على أن تصبح الصين دولة رائدة في مجال العلوم والتكنولوجيا والابتكار بحلول منتصف القرن الحادي والعشرين. وقد عزز الإنفاق على البحوث والتطوير، واحتضن الشركات الناشئة التي تعمل في مجال التكنولوجيا، ودعا إلى قيام ثورة في عالم الروبوتات. (في عام 2016، استخدمت الصين الروبوتات أكثر من أي دولة أخرى)[53]. يؤمن شِي أن تركيز السلطة في يد الحكومة يمنح الصين مزايا أساسية لا تتوفر لمنافسيها الغربيين، حيث تستطيع تجميع مواردها الأساسية لتحقيق مهمة رئيسية"[54]. وعلى عكس الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة، تستطيع

(*) zombie enterprises تسمية مستمدة من شخصية الميت الحي التي تمتلئ بها نوعية خاصة من أفلام الرعب في السينما الأمريكية، وذلك أن تلك الشركات الغارقة في غيبوبة اقتصادية، تشترك مع شخصية الزومبي التقليدية في صفة بالغة الخطورة، هي أنها تستهلك إلى حد القضاء على الأخضر واليابس، في حين أنها لا تقدم أي عائد أو مردود اقتصادي. كلاهما يقتات على الحياة، دون أن يضيف إليها. (المُعرِّب)

الصين الوفاء بالتزامات تمتد على مدى عقد أو أكثر إذا لزم الأمر، وهو ما أثبتته عمليًا عندما احتلت المرتبة الأولى في مجالات القطارات السريعة، والطاقة الشمسية، وأجهزة الكومبيوتر الفائقة القدرة، وغيرها من المجالات.

ويلتزم شِي، على نحو مماثل باستعادة البيئة الصالحة للعيش من خلال معالجة التلوث المتفشي في البلاد، الذي يقتل أربعة آلاف صيني كل يوم، وفقًا لبعض التقديرات[(55)]. وقد أصبح الضباب الدخاني في بيجين كثيفًا في بعض المواسم إلى درجة أجبرت الحكومة على إغلاق محطات توليد الطاقة والمصانع التي تعمل بالفحم قبل انطلاق أحداث مثل دورة الألعاب الأولمبية أو اجتماعات مجموعة العشرين. كما تشبعت بعض الأنهار بالنفايات الصناعية إلى درجة أدت إلى اشتعال النيران وانتشارها فوق سطح أحد هذه الأنهار عام 2014. ووفقًا لتقديرات البنك الدولي، تتكبّد الصين كل عام خسائر تشكِّل نسبة ملحوظة من إجمالي الناتج القومي، بسبب البيئة التي يتزايد تلوثها وتتناقص صلاحيتها للحياة[(56)]. ومن أجل عكس هذه الاتجاهات، شرعت الصين في تنفيذ ما أسماه مجلس الدفاع عن الموارد الطبيعية "الخطة الخمسية الأكثر اخضرارً على الإطلاق"، التي تضمنت ثلاثة وثلاثين هدفًا إلزاميًا، يتعلق ستة عشر منها بالبيئة[(57)].

ويصف صندوق النقد الدولي ديون الشركات، التي تبلغ حاليًا 145 في المائة من إجمالي الناتج المحلي، بأنها "صَدْعٌ رئيسي في الاقتصاد الصيني"[(58)]. غير أن بعض هذه الديون يمكن تحويله إلى الحكومة التي تنخفض نسبة ديونها إلى 17 في المائة من إجمالي الناتج المحلي[(59)]. وتتحرك الصين أيضًا بحذر نحو مزيد من التعويم الحر لعُملتها، وتقليل الضوابط المفروضة على رأس المال. وفي الوقت نفسه، تسعى إلى تجنُّب ما يعتبره بعض الصينيين مخاطر المقامرات غير المقوننة، التي تتبع النمط الغربي الذي يتيح للنظام المالي العالمي فرض سطوة كبيرة على السياسة الاقتصادية الوطنية.

كذلك يسلط كثير من المحللين الغربيين الضوء على عواقب سياسة

الطفل الواحد المتعسفة التي كان دينغ شياو بينغ قد فرضها عام 1980. صحيح أن تلك السياسة أسهمت في تحقيق هدف إخراج نصف مليار شخص من دائرة الفقر المدقع خلال جيل واحد، إلا أنها تركت الصين مثقلة بمشاكل ديمغرافية خطيرة (ألغى شِي سياسة الطفل الواحد عام 2015). ومع ذلك، فإن عدد الوافدين الجدد إلى سوق العمل سيستمر في الازدياد حتى عام 2041. ومع انتقال 300 مليون صيني إضافي من المناطق الريفية الفقيرة إلى المدن الجديدة، وازدياد العمر الإنتاجي للعمال، لا تزال بيجين في حاجة إلى عدة عقود للتخفيف من هذا الخطر[60].

وبالنظر إلى اتساع نطاق خطة شِي وطموحها، لا يُخفي معظم الاقتصاديين الغربيين وكثير من المستثمرين تشاؤمهم. غير أن معظم هؤلاء الاقتصاديين والمستثمرين سبق وأن خِسروا رهاناتهم ضد الصين على مدار الأعوام الثلاثين الماضية. وكما قال مارتِن فلدشتين Martin Feldstein، الرئيس السابق لمجلس المستشارين الاقتصاديين للبيت الأبيض في عهد الرئيس رونالد ريغان: "ليس من الضروري أن تنجح كل هذه السياسات... فإذا نجح من بينها عدد كاف، سوف يكون تحقيق نمو بنسبة 6.5 في المائة على مدار السنوات القليلة المقبلة، أمرًا غيرَ بعيد المنال"[61].

تترافق مع الإصلاحات المحلية تغيُّرات دراماتيكية مماثلة في دور الصين في الاقتصاد العالمي. ففي عام 2013، أعلن شِي عن مشروع البنية التحتية الكبير "حزام واحد، طريق واحد" OBOR، الذي يستغرق تنفيذه عدة عقود، ويكلِّف عدة مليارات من الدولارات. يهدف هذا المشروع إلى إنشاء شبكة للنقل والتكنولوجيا تغطي أوراسيا وجميع البلدان المتاخمة للمحيط الهندي تقريبًا. وسوف تتيح هذه الشبكة الفرصة لاستغلال فائض الإنتاج الصناعي الصيني بطريقة فعالة من خلال تصديره، وستوفر الدعم لصناعات البناء والصلب والإسمنت التي بذلت جهودًا خارقة خلال السنوات الأخيرة لإنجاز الكثير من مشروعات البنية التحتية ذات الأولوية القصوى. من ناحية أخرى، تتميز المشروعات المخطط لإنشائها في الخارج بضخامة

هائلة: فمن الرواق الذي يمتد عبر باكستان لمسافة 1800 ميل وبتكلفة تصل إلى 46 مليار دولار ويضم مسارات من الطرق وخطوط السكك الحديدية وخطوط الأنابيب، إلى السدود الكهرومائية والمناجم في ميانمار، والمنشأة البحرية الجديدة في جيبوتي في القرن الأفريقي، تتحرك الصين بوتيرة متسارعة لم تشهدها تلك البلدان من قبل.

ولكن الـــ OBOR أكثر بكثير من مجرد وسيلة لإعادة توجيه فائض القدرات الصناعية الصينية. فكما أن طريق الحرير الأصلي لم يُحفِّز التجارة فحسب، بل حفَّز أيضًا المنافسة الجيوسياسية (بما في ذلك "لُعبة القرن التاسع عشر العظمى" التي وضعت بريطانيا في مواجهة مع روسيا من أجل السيطرة على آسيا الوسطى)، كذلك فإن طريق الحرير الجديد OBOR سيسمح للصين ببسط سلطانها عبر عدة قارات. إن ما يبشر به OBOR من تكامل بين دول أوراسيا، يعكس رؤية تتحول فيها موازين القوى الجيوستراتيجية إلى آسيا. وهنا يمكن أن نسمع أصداء النبوءات والأفكار التي أطلقها منذ نحو قرنٍ مضى هالفورد ماكيندر Halford Mackinder، مؤسس علم الجغرافيا السياسية. ففي عام 1919، أطلق ماكيندر على أوراسيا اسم "الجزيرة العالمية"، وقال قولته الشهيرة "مَن يحكم الجزيرة العالمية يقود العالم"[62]. فإذا تحققت الأهداف الحالية للصين بحلول عام 2030، فإن مفهوم ماكيندر لأوراسيا يمكن أن يصبح للمرة الأولى حقيقة واقعة: فخطوط السكك الحديدية الفائقة السرعة سوف تختصر الوقت اللازم لنقل البضائع من روتردام إلى بيجين من شهر إلى يومين. بل ربما تطغى رؤية ماكيندر حتى على أطروحة ماهان[*] حول مركزية القوة البحرية التي هيمنت على عقول الاستراتيجيين لأكثر من قرن من الزمان (كما رأينا في الفصلين الرابع والخامس).

(*) الخبير الاستراتيجي البحري الأمريكي ألفريد ت. ماهان Alfred T. Mahan، مؤلف كتاب تأثير القوة البحرية على التاريخ The Influence of Sea Power upon History. (المُعرِّب)

رسالة لأمريكا: خَلِّيكوا في حالكوا

فور أن تندمج سوق الصين الاقتصادية المهيمنة وبنيتها التحتية المادية مع جيرانها في منطقة الازدهار المشترك الصينية، فإن الوضع الذي اكتسبته الولايات المتحدة في آسيا بعد الحرب العالمية الثانية، سيصبح غير قابل للاستمرار. وعندما طلبت من أحد الزملاء الصينيين أن يقترح اختصارًا مكثفًا لرسالة يمكن أن توجهها الصين إلى الولايات المتحدة، أجاب: "تراجعوا" Back off، بينما اقترح زميل آخر إجابة أخرى، أكثر صراحة: "خَلِّيكوا في حالكو" Butt out.

يدرك القادة الصينيون، وهم تلامذة واقعيون للتاريخ، أن الدور الذي قامت به الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية، كحارس للأمن والاستقرار الإقليميين، كان دورًا أساسيًا في نهوض دول آسيا، بما فيها الصين نفسها. لكنهم يعتقدون أنه، مع انحسار المد الذي أوصل الولايات المتحدة إلى آسيا، يجب على أمريكا أن تركب تلك الأمواج المتراجعة، وتنسحب من آسيا. فكما تلاشى دور بريطانيا في نصف الكرة الغربي في بداية القرن العشرين، يجب أن يتلاشى دور أمريكا في آسيا، مع بدء القوة الآسيوية العظمى في استعادة مكانتها التاريخية في المنطقة .وكما أخبر شِي تجمُّعًا لقادة آسيا وأوروبا عام 2014، "في التحليل النهائي، فإن شعوب آسيا هي المسؤولة عن إدارة شؤون آسيا، وحل مشاكل آسيا، والحفاظ على أمن آسيا"[63].

ومؤخرًا، أصبحت محاولات إقناع الولايات المتحدة بقبول الواقع الجديد أكثر حدّة في بحر الصين الجنوبي، وهي منطقة يقارب حجمُها حجمَ منطقة البحر الكاريبي، وتحدُّها الصين وتايوان وستٌ من دول جنوب شرق آسيا. كما يتضمن هذا البحر بضع مئات من الجزر والشعاب المرجانية، وغيرها من المعالم التي يبقى كثير منها تحت الماء بفعل موجات المد العالية. خلال سنوات منتصف القرن العشرين، حين كان تركيز الصين

مُنصبًا على شؤونها الداخلية، ادَّعت دول أخرى ملكية بعض الجزر في بحر الصين الجنوبي، وأقامت بالفعل عددًا من مشاريع البناء على ما ادَّعت ملكيتَه. ففي عام 1956، على سبيل المثال، احتلت تايوان جزيرة إيتو أبا Itu Aba، وهي الأكثر تميُّزًا من بين مجموعة جزر سبراتلي Spratly، وحشدت على أرض الجزيرة مئات من القوات[64]. وفي أيلول/سبتمبر 1973، ضمت فيتنام الجنوبية(*)، رسميًا، عشرَ جزر من جزر سبراتلي، ونشرت المئات من الجنود للدفاع عن تلك الجزر التي تدَّعي ملكيتها[65].

وخوفًا من ضياع مصالحها تحت أقدام جيرانها، سيطرت الصين، عام 1974، على أقرب هذه الجزر إلى حدودها، باراسيلز Paracels، التي كانت تسيطر عليها فيتنام[66]. وفي عام 2012، استولت الصين على سكاربورو شول Scarborough Shoal، التي كانت تحت سيطرة الفيليبين. ومنذ ذلك الحين، وسّعت الصين نطاق مطالبها، مؤكدة ملكيتها الحصرية لبحر الصين الجنوبي بأكمله، وأعادت تحديد المنطقة من خلال رسم خريطة جديدة تتضمن ما يعرف باسم "الخط الفاصل رقم تسعة" nine-dash line، الذي يطوِّق 90 في المائة من المنطقة. فإذا قَبِل الآخرون هذا الترسيم، سيخلق هذا الوضع، كما يرى جيران الصين، مَعلمًا جغرافيًا جديدًا، يمكن أن يطلق عليه "بحيرة جنوب الصين" South China Lake.

وقد أقامت الصين مشاريع معمارية رئيسية على المعالم البارزة والمتميزة في جميع أنحاء البحر، وأنشأت عددًا من المواقع الاستيطانية على سبع مناطق متميزة مختلفة في جزر سبراتلي .وبحلول حزيران/يونيو 2015، استعادت الصين أكثر من 2900 فدان من الأراضي، مقارنة بـ 80 لفيتنام، و70 لماليزيا، و14 للفيليبين، و8 لتايوان[67]. وفي إطار تلك الجهود، أقامت الصين موانئ، ومهابط للطائرات، ونصَّبت أجهزة رادار ومنارات،

(*) انقسمت فيتنام إلى دولتين عام 1946، عقب نجاح المقاومة الشعبية بقيادة الزعيم الفيتنامي التاريخي هو شي منّه Ho Chi Minh في تحرير شمال البلاد من الاحتلال الفرنسي. وبعد ثماني سنوات من الحرب ضد فرنسا، وأكثر من عشرين عامًا من الحرب ضد أمريكا، استطاع هو شي منّه تحرير فيتنام بالكامل، وإعلان قيام دولة موحدة في 17 حزيران/يونيو 1975. (المُعرِّب)

وأنشأت مباني لتقديم الدعم والخدمات[68]. هذه المشروعات تُوسِّع نطاق وصول السفن والطائرات الحربية الصينية، وتسمح لبيجين بتغطية المنطقة بأجهزة الرادار والمراقبة.

لا يخامر البنتاغون أدنى شك حول الدوافع الحقيقية لهذه الأعمال. فقد أشار تقرير صدر حديثًا عن وزارة الدفاع، إلى أن "أعمال استرداد الأراضي وعمليات البناء التي جرت في الصين مؤخرًا، سوف تسمح لها أيضًا بإيصال سفنها إلى مناطق أكثر عمقًا والرسو الآمن هناك، بالإضافة إلى توسيع مجال إنفاذ القانون ووجودها البحري في مناطق أكثر إيغالاً في بحر الصين الجنوبي. وربما تعمل الطائرات، انطلاقًا من تلك المنشآت، التي تُشكِّل حاملة طائرات افتراضية، الأمر الذي سيمكِّن الصين من القيام بعمليات مستمرة بالتنسيق مع حاملات الطائرات الحقيقية التي تتواجد في المنطقة "[69].

كما أن هدف الصين الأطول أجلاً واضح. فعلى مدار عقود كانت الصين تعرب عن غضبها بسبب عمل سفن التجسس الأمريكية في المياه المتاخمة لحدودها، وتؤكد أنه يتعين على الولايات المتحدة، بموجب اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار، أن تطلب أذنًا للسماح لهذه السفن بالعمل في المنطقة الاقتصادية التي تخضع لسيادة الصين، والتي تمتد بعمق مائتي ميل بحري من الشواطئ الصينية، وهو طلب رفضته الولايات المتحدة رفضًا قاطعًا. ومع ذلك، فإن بناء منشآت رادار على المعالم المتميزة في بحر الصين الجنوبي، بالإضافة إلى إنشاء مهابط للطائرات وموانئ، سيجعل من السهل على الصين تتبع (بل ومضايقة) السفن الأمريكية التي تقوم بعمليات مراقبة في المنطقة. وإذا ما تمكنت الصين من استعراض قوتها في المنطقة، فسوف يمنحها ذلك قدرة أكبر للتأثير على 5.3 تريليون دولار، هي حجم التجارة التي تمر عبر بحر الصين الجنوبي كل عام[70]. وبينما تعمل الصين على إخراج الولايات المتحدة من هذه المنطقة بقوة ولكن ببطء، تعمل أيضًا على استيعاب دول جنوب شرق آسيا وضمِّها إلى مدارها

الاقتصادي، بل إنها تسعى كذلك إلى سحب كل من اليابان وأستراليا في الاتجاه نفسه. وقد نجحت في ذلك حتى الآن دون قتال، ولكن إذا ما كان القتال حتميًا، فإن شِي قد عقد العزم على أن يكسبَه.

"قاتِل، وانتصِر"

على الرغم من كل التحديات الأخرى على جدول أعماله، يتولى شِي، وبالتوازي مع مهامه الأخرى، الإشراف على إعادة تنظيم القوات المسلحة الصينية، وإعادة بنائها، وهي العملية التي يصفها أندريه كوكوشين Andrei Kokoshin الخبير الروسي الأبرز في شؤون الجيش الصيني، بأنها "غير مسبوقة من حيث الحجم والعمق"[71]. وقد طرح الكثيرون السؤال: لماذا الآن؟ فعملية إعادة تنظيمٍ كبرى مثل هذه، بما تعنيه أو تتطلبه من استبعاد لمئات الجنرالات ذوي النفوذ الهائل الذين بنوا إمبراطوريات شخصية، تنطوي على مخاطر سياسية كبيرة بالنسبة لشِي. كما أن مشهد الآلاف من الجنود النظاميين الذين خرجوا في تشرين الأول/أكتوبر 2016، محتجين على البطالة وتخفيض معاشات التقاعد، مشهدٌ لا يتمنّى أيُّ زعيم صيني رؤيته[72].

لكن شِي يؤمن بضرورة ضمان ولاء الجيش غير المشروط للحزب، وعلى وجه التحديد لقائده. ولأنه كان يتوقع أن تلقى مبادراته الأخرى البعيدة المدى مقاومة، كان في حاجة إلى التيَقُّن من أنه يستطيع الاعتماد على أولئك الذين يحملون الأسلحة التي تُسْتمَد منها القوة السياسية .وكما أشار ويليام كيربي William Kirby، الباحث المتخصص في الشؤون الصينية، "لقد لعب الجيش دورًا حاسمًا عند كل نقطة من نقاط التحول الرئيسية في التاريخ السياسي الصيني الحديث"[73]. إن شِي جينْ بينْغ يسعى إلى تحقيق هدفٌ مهم: بنيةُ قيادةٍ عسكريةٍ تفرض على القوات المسلحة للحزب سيطرة فعلية. وهو يريد قادة عسكريين "يلتزمون بولاء

ثابت لا يتزعزع للقيادة المطلقة للحزب" وبالتحديد لقائده العام[74]. وفي خضم الضجة التي أثارتها حملة مكافحة الفساد، ومن ورائها حملة تطهير القيادة العسكرية العليا، انتقى شِي، بعناية، ضباطًا مخلصين، يثق أنهم سوف يقفون إلى جانبه، أيًا كان القادم من أحداث.

كما يؤمن شِي بأن الجيش الذي يمتلك "القدرة على القتال وكسْب الحروب"، ضروري لتحقيق كل عنصر من عناصر الحلم الصيني الأخرى. فقد قال: "لإحياء عظمة الأمة الصينية، يجب أن نضمن وجود تناغم وانسجام بين بلد مزدهر وجيش قوي"[75]. بينما تبني كل القوى العظمى جيوشًا قوية، يمثل حلم الجيش القوي أهمية خاصة للصين، لأنها تسعى إلى التغلب على آثار ما لحق بها من إذلال على أيدي القوى الأجنبية.

في عام 1991، صُدِم القادة الصينيون بالفعالية المدمرة للجيش الأمريكي خلال عملية عاصفة الصحراء في العراق. وقد تعزّز هذا الإحساس وتأكدَّ عام 1999، خلال حملة حلف شمال الأطلسي (الناتو) في كوسوفو (عندما قصفت قاذفات القنابل الأمريكية الشبحية السفارة الصينية في بلغراد عن طريق الخطأ). لهذا، يواصل القادة العسكريون الصينيون دراسة التطورات والإنجازات الأمريكية الحديثة في مجالات التسليح، بما في ذلك استخدام الطائرات بدون طيار لأغراض التجسس والقصف الجوي على السواء. في عام 1991، هزمت الولايات المتحدة القوات المسلحة لصدام حسين في شهر واحد، بخسائر بلغت أقل من 150 قتيلاً من بين المقاتلين الأمريكيين. في هذه الحرب القصيرة غير المتوازنة، كان الأمريكيون يتمتعون بما يسميه المخططون العسكريون "الهيمنة التكنولوجية الكاملة" من خلال الجمع بين منظومة من التكنولوجيات الجديدة مثل أنظمة الملاحة والمراقبة الفضائية، والقنابل البعيدة المدى المُوجَّهة عن بُعد، والطائرات الشبحية التي لا تستطيع أجهزة الرادار رصدها. وقد عزَّزت قدرةَ أمريكا على استغلال هذه الأدوات الجديدة، مجموعةٌ من التغيرات الهيكلية التنظيمية، التي أتاحت للأفرع العسكرية الرئيسية الثلاثة، القوات البرية والقوات

البحرية والقوات الجوية، العمل في حالة من التعاضد والتناغم الهائلين. كما أن استهداف الولايات المتحدة لأنظمة القيادة والتحكم في الجيش العراقي، أصاب القادة العراقيين بحالة من العمى والصمم[76]. وفور استيعاب هذا المشهد، قرر القادة الصينيون اكتساب القدرات الفنية اللازمة لمواجهة ما يطلقون عليه في بعض الأحيان "السحر الأمريكي"، بل والانتصار عليه في خاتمة المطاف. وقد رصد هذه الطموحات مايكل بيلسبري Michael Pillsbury، الباحث المتخصص في الشأن الصيني، في دراسة تقويمية أجراها لحساب وزارة الدفاع الأمريكية[77].

كذلك استفاد الجيش الصيني دروسًا أخرى من أزمة مضيق تايوان عام 1996. فخوفًا من أن تكون تايوان قد انجرفت نحو الاستقلال، سعت بيجين إلى تأديب تايبيه عن طريق استعراض للقوة تمثّل في إجراء عدد من "التجارب الصاروخية" الصينية في محيط الجزيرة، مهددةً، بتلك التجارب، أمن وسلامة التجارة البحرية التي يعتمد عليها اقتصاد تايوان. وعندما رد الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بإرسال اثنتين من حاملات الطائرات إلى المنطقة، في أكبر انتشار للقوة العسكرية الأمريكية في آسيا منذ حرب فيتنام، لم تجد الحكومة الصينية أمامها أيَّ خيار سوى التراجع. لم تسفر تلك الواقعة عن ضجة كبيرة داخل الولايات المتحدة، لكن في الصين جاءت بمثابة رشٍ للملح على جرح لا يزال مفتوحًا، إذ أيقظت ذكرياتٍ مؤلمة خلّفها قرنُ الإذلال، وزعزعت الثقة في القادة العسكريين، الذين تعهدوا بفعل كل ما هو ضروري لتجنُّب تعريض البلاد لمثل هذا الإهانة مرة أخرى.

تعكس الإصلاحات العسكرية التي يقوم بها شِي اليوم، إلى حد كبير، مرسومَ غولدووتر – نيكولز[*] لعام 1986، الذي نفذته الولايات المتحدة

(*) الاسم المختصر لمرسوم غولدووتر - نيكولز لإعادة تنظيم الدفاع Goldwater-Nichols Department of Defense Reorganization Act، الذي أصدره الرئيس الأمريكي رونالد ريغان يوم 4 تشرين الأول/أكتوبر 1986. وقد أحدث هذا القانون داخل وزارة الدفاع الأمريكية عددًا من التغيرات الجذرية التي لم يشهد البنتاغون مثيلًا لها منذ صدور قانون الأمن القومي لعام 1947. فقد أعاد القانون الجديد تشكيل هيكل قيادة الجيش الأمريكي، وزاد سلطات وصلاحيات رئيس

بنجاح لتحسين العمليات المشتركة قبل حرب الخليج وغيرها من الصراعات العسكرية الأخرى في التسعينات. فالصين تعمل اليوم على دمج العمليات الاستخبارية وعمليات المراقبة وعمليات الاستطلاع في إطار منظومة متكاملة من الأسلحة التي تعمل أرضًا وجوًا وبحرًا. وقد تخلت الصين بالفعل عن التنظيم العسكري التقليدي الذي كان يقسِّم الجيش إلى سبعة أقسام ذات مسؤوليات تركز في الأساس على المهام الداخلية، واستبدلته بنظام جديد على رأسه خمسة من قادة مسرح العمليات، المكلفين بإدارة العمليات المشتركة ضد الأعداء الخارجيين[78].

من خلال تسليط الضوء على الفساد باعتباره تهديدًا وجوديًا للجيش، اتخذ شِي خطوات جريئة للقضاء على الكسب غير المشروع، الذي شمل بيع وشراء الرتب العسكرية علانية. وتحت شعار مكافحة الفساد، استطاع شِي أن يُحجِّم مراكز القوى التاريخية داخل جيش التحرير الشعبي، التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي في السابق، وأن يضعها بالكامل تحت سلطة الحزب. كما ألغى الإدارات العامة الأربع للجيش، التي استفحل أمرها في عهد هو جين تاو، حتى أصبحت مستقلة وفاسدة بشكل خطير. وفي إطار عملية إعادة التنظيم، تحوّلت الإدارات العامة الأربع إلى خمس عشرة هيئة منفصلة تُقدم تقاريرها مباشرة إلى اللجنة العسكرية المركزية، التي يرأسها شِي جينْ بينْغ شخصيًا.

مثل هذه التعديلات البيروقراطية لا تكون في العادة حدثًا يُنذر بتطورات مهمة، لكنها، في حالة شِي، جاءت تأكيدًا لالتزام بيجين الحاسم والقاطع ببناء جيش حديث قادر على مواجهة جميع الخصوم وإلحاق الهزيمة بهم، خاصة الولايات المتحدة. وفي حين أن المخططين العسكريين

هيئة الأركان المشتركة Chairman of the Joint Chiefs of Staff. وقد جاء معظم مواد المرسوم تطبيقًا لتوصيات كانت لجنة باكارد Packard Commission التي يرأسها ريغان بنفسه، قد أصدرتها عام 1985. يستمد هذا المرسوم اسمه من اسمَي باري غولدووتر Barry Goldwater عضو مجلس الشيوخ، ووِيليام فلينت نيكولز William Flynt Nichols عضو مجلس النواب. (المُعرِّب)

الصينيين لا يتنبأون بالحرب، فإن الحرب التي يُعِدُّون الصين لها هي حرب ضد الولايات المتحدة تدور معاركها في البحر. فالقوى التي سيطرت على الصين خلال قرن الإذلال اعتمدت جميعُها على التفوق البحري لفرض سطوتها. وكما يحذر أحد المحللين الصينيين: "تجاهلُ المحيطات خطأٌ تاريخي ارتكبناه، ونحن ندفع الآن، بل وسوف ندفع في المستقبل، ثمن هذا الخطأ"[(79)]. من هذا المنطلق، يبدو شِي عازمًا على عدم تكرار هذا الخطأ، لهذا يعمل على تعزيز القدرات البحرية والجوية والصاروخية لجيش التحرير الشعبي الصيني، التي تلعب دورًا حاسمًا في السيطرة على البحار، مع خفض عدد جنود الجيش بمقدار 300 ألف جندي وتقليص الهيمنة التقليدية للقوات البرية على سائر أفرع القوات المسلحة[(80)]. وفي غضون ذلك، يستعد الاستراتيجيون العسكريون الصينيون للنزاع البحري باستراتيجية تعتمد على "الدفاع المتقدِّم" forward defense، من خلال السيطرة على البحار المجاورة للصين ضمن "سلسلة الجزر الأولى" التي تمتد من اليابان عبر تايوان إلى الفيليبين وبحر الصين الجنوبي[(81)]. لقد لاحظ الأستاذان بكلية الحرب البحرية الأمريكية جيمس هولمز James Holmes وتوشي يوشيهارا Toshi Yoshihara، أن "الفكرة الماهانيَّة[(*)] Mahanian conceit التي تقول إن العظمة الوطنية تُستمد من القوة البحرية، تسيطر على أفئدة وعقول كثير من الاستراتيجيين الصينيين"، كما سيطرت على القيصر الألماني والرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت من قبلهم. وخلُص هولمز ويوشيهارا إلى أننا ينبغي أن نتوقع أن تُثمِّن الصين غاليًا القتال والفوز في مياه البحار التي تحيط بها"[(82)].

كان مستشار الأمن القومي السابق برنت سكوكروفت Brent Scowcroft أول من شرح عواقب إهانة عام 1966، عندما أجبرت حاملتا

(*) فكرة تنتسب إلى الخبير الاستراتيجي البحري الأمريكي ألفريد ت. ماهان Alfred T. Mahan، مؤلف كتاب "تأثير القوة البحرية على التاريخ The Influence of Sea Power upon History"، الذي يتخذ من تاريخ بريطانيا مثالًا تطبيقيًا، لإثبات صحة وجهة نظره. (المُعرِّب)

الطائرات الأمريكيتان الصين على التراجع. فبعد ذلك، كان من الممكن التنبؤ بقائمة التسوق الصيني العسكري: أنظمة تسليح تضمن لبيجين أن تخرج منتصرة، إذا حدثت مثل تلك المواجهة مع الولايات المتحدة مرة أخرى. واليوم، فإن ترسانة الصين التي تضم أكثر من ألف صاروخ مضاد تنتشر على شواطئها وفوق سفن أسطولها، تجعل من المستحيل على أي سفينة حربية أمريكية أن تعمل بأمان داخل منطقة تبعد نحو ألف ميل عن السواحل الصينية. في الوقت نفسه، تقوم 62 غواصة مسلحة بطوربيدات وصواريخ مضادة للسفن، بدوريات في المياه المجاورة، بينما توفر منظومة من الأسلحة المضادة للأقمار الصناعية للصين القدرة على تعطيل، أو حتى تدمير، الأقمار الصناعية الأمريكية، التي تقوم بأعمال المراقبة والاتصالات في المنطقة. وقد ساهمت هذه القدرات، مجتمعة، في إضعاف الهيمنة العسكرية التي اعتادت الولايات المتحدة ممارستها في المحيط الهادي، منذ معركة ميدواي Battle of Midway عام 1942. ولم تعد للولايات المتحدة سيطرة بحرية وجوية على امتداد الممر المتاخم للشواطئ الصينية، الذي يبلغ عرضه ألف ميل من مياه المحيط. وفي إطار استغلال ما يعرف بالمزايا غير المتماثلة asymmetric advantages، استفادت الصين من قربها الجغرافي من ساحة المعركة المتوقعة، الذي يوفر لها، كما أشار أحد المخططين البحريين، ما يعادل مليون حاملة طائرات. ومع ترسانة من الصواريخ التي تصل تكلفة الواحد منها إلى مليون دولار، يمكن مهاجمة وإغراق حاملة طائرات تصل قيمتها إلى عدة مليارات من الدولارات.

فمن خلال تزوّدها بالقدرات العسكرية الدفاعية والوقائية التي تهدد حاملات الطائرات الأمريكية وغيرها من السفن العملاقة، تدفع الصين البحرية الأمريكية باطراد إلى خارج البحار المجاورة لها. ورغم ذلك، لا تزال السفن الأمريكية ترفع أعلامها، وتقوم بدوريات بحرية في مضيق تايوان وبحر الصين الجنوبي. كما أشارت الولايات المتحدة إلى أن حاملات طائراتها ستبقى، في حالة الحرب، وراء السلسلة الأولى من الجزر، الأمر

الذي يجعلها بعيدة عن متناول الصواريخ الأرضية الصينية. غير أن الطائرات التي تتمركز فوق سطح الحاملات، لن يكون في استطاعتها الوصول إلى أهداف تقع داخل الأراضي الصينية، انطلاقًا من هذا الموقع الآمن. لهذا، تسعى البحرية الأمريكية جاهدة إلى إيجاد وسيلة يمكن، من خلالها، أن تبقى حاملات الطائرات وما عليها من طائرات فاعلة وقادرة على إحداث الفارق. وتنطلق جهود البنتاغون الرئيسية في هذا المجال من العقيدة القتالية المعروفة باسم "المعركة البحرجوية"[83]. تتطلب تلك النوعية من المعارك أن ترسل القوات الجوية قاذفات بعيدة المدى مزودة بصواريخ بعيدة المدى أيضًا، لتدمير بطاريات الصواريخ الأرضية الصينية المضادة للسفن، مما يسمح لحاملات الطائرات الأمريكية بالتحرك في أمان، بالقرب من حدود الصين، للمشاركة في القتال. وكما سوف نناقش لاحقًا في الفصل الثامن، للمعارك البحرجوية عيوب كثيرة، ليس أقلها قابليتها للتصعيد الدراماتيكي عند وقوع أية مواجهة.

كما ناقشنا في الفصل الأول، أوضح التقدير الذي ورد في تقرير يتمتع بالثقة والمصداقية أصدرته مؤسسة راند[*] RAND عام 2015 بعنوان "سجل التقييم العسكري للولايات المتحدة والصين"، أن الصين، بحلول عام 2017، سوف تتفوّق على الولايات المتحدة، أو على الأقل سوف تتساوى معها، في ستة من المجالات التسعة الرئيسية للقدرات العسكرية التقليدية، التي تعتبر مهمة في حالة وقوع مواجهة حول تايوان، وأربعة من أصل تسعة تعتبر مهمة في حالة وقوع صراع في بحر الصين الجنوبي. ويخلص التقرير إلى أنه على مدى السنوات الخمس إلى الخمس عشرة القادمة، "ستشهد آسيا تراجعًا تدريجيًا لهيمنة الولايات المتحدة"[84]. ويعني هذا بالنسبة للولايات المتحدة احتمال خسارة أي نزاع تقليدي يمكن أن ينشب في المنطقة.

(*) الاسم المختصر لمؤسسة البحوث والتطوير Research and Development Corporation، وقد تحدثنا عنها تفصيلًا في هوامش الفصل الأول. (المُعرِّب)

بطبيعة الحال، لا يعني حرص الصين على أن تكون قادرة على "القتال والفوز" أنها تريد القتال. من الواضح أنها لا تريد ذلك، لكن، مع سعيها لتحقيق أهدافها، فإن خصومتها مع الولايات المتحدة تتفاقم بسبب الاختلافات الثقافية العميقة. إن الصدام بين الثقافات لم يكن، في أي وقتٍ مضى، أكثر تأثيرًا على العالم مما هو عليه اليوم.

هوامش

الفصل السادس

(1) لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم، تأليف غراهام أليسون، وآخرين.
(2) المرجع السابق.
(3) المرجع السابق.
(4) وُلِد أحمر، مقال كتبه إيفان أوسنوس Evan Osnos في مجلة نيو يوركر New Yorker، يوم 6 نيسان/أبريل 2015. يمكن قراءة المقال من خلال الرابط التالي: http://www.newyorker.com/magazine/2015/04/06/born-red.
(5) لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم، تأليف غراهام أليسون، وآخرين.
(6) المرجع السابق.
(7) المرجع السابق.
(8) عن الصين، تأليف هنري كيسنجر.
(9) يمكن مراجعة: السياسة الخارجية الصينية من منظور تاريخي China's Foreign Policy in Historical Perspective، مقال بقلم جون كينغ فايربانك، نشر في العدد 74 من مجلة فورين أفّيرز Foreign Affairs، عام 1969. وكذلك إحياء الصين: المملكة الوسطى تتطلع إلى سنة 2020 وما وراءها China Restored: The Middle Kingdom Looks to 2020 and Beyond، تأليف إريك أندِرسون Eric Anderson، 2010.
(10) يمكن مراجعة: تنويعات الخبرة العسكرية الصينية Introduction: Varieties of the Chinese Military Experience، المقدمة التي كتبها جون كينغ فايربانك في كتاب الطرق الصينية في الحرب Chinese Ways in Warfare، الذي اشترك في تأليفه مع فرانك أ. كيرنان الابن Frank A. Kiernan Jr.، 1974؛ وكذلك مقال إطار عمل ابتدائي A Preliminary Framework، الذي كتبه فايربانك ضمن كتاب النظام العالمي الصيني: علاقات الصين الخارجية التقليدية The Chinese World Order: Traditional China's Foreign Relations، 1968.
(11) عن الصين، تأليف هنري كيسنجر.
(12) المرجع السابق. وقد أدى هذا المفهوم الأجنبي للنظام العالمي إلى توسيع مدارك كيسنجر، الرجل الذي درس النظام العالمي، وكتب عنه رسالة لنيل درجة الدكتوراه، نُشرت بعنوان عالمٌ أعيدَ ترميمُه A World Restored، حيث قدَّم كيسنجر تحليلاً لمؤتمر فيينا، وأعرب عن إعزازه

وتقديره لمناقب التناغم بين القوى الأوروبية ولدبلوماسية توزان القوى التي وفرت لأوروبا قرنًا من السلام. يمكن مراجعة: النظام العالمي World Order، تأليف هنري كيسنجر، 2014.

(13) عن الصين، تأليف هنري كيسنجر.

(14) وُقِّعت تلك المعاهدة على ظهر المدمرة البريطانية هـ. م. س. كورنواليس HMS Cornwallis، التي كانت راسية على شاطئ نهر يانغتسي Yangtze، بالقرب من نانجينغ، بعد أن أبحر البريطانيون في النهر، حيث استولوا على صنادل الشحن الصينية التي كانت محملة بأموال الضرائب.

(15) أجبِرت الصين على أن تفتح عشرة موانئ أخرى أمام التجارة الأجنبية، كما أجبِرت على نقل السيادة على أجزاء من شنغهاي Shanghai وكانتون Canton إلى بريطانيا وفرنسا. يمكن مراجعة: البحث عن الصين الحديثة The Search for Modern China، تأليف جوناثان د. سبينس Jonathan D. Spence، 1990؛ والتجارة والدبلوماسية على الساحل الصيني Trade and Diplomacy on the China Coast، تأليف جون ك. فايربانك، 1964.

(16) دوريّة يانغتسي: البحرية الأمريكية في الصين Yangtze Patrol: The U.S. Navy in China، تأليف كِمْب تولي Kemp Tolley، 2013.

(17) التغيرات الجيوبوليتيكية لشرق آسيا The Changing Geopolitics of East Asia، ورقة عمل مقدمة من ستابِلتون روي إلى مركز بول تساي لدراسات الصين في كلية الحقوق بجامعة ييل الأمريكية Paul Tsai China Center, Yale Law School، في 25 تموز/يوليو 2016. يمكن الاطلاع على نص الورقة من خلال الرابط التالي: https://www.law.yale.edu/system/files/area/center/china/document/stapletonroy_final.pdf.

(18) بين النهب والامتعاض: الخطاب الأخلاقي ونهب بيجين، 1900-1901 Looting and Its Discontents: Moral Discourse and the Plunder of Beijing ,1900-1901، وهو بحث كتبه جيمس ل. هيفيا James L. Hevia، في كتاب الملاكمون، الصين والعالم The Boxers, China, and the World، الذي أشرف على إعداده عدد من الكُتَّاب.

(19) تطويق بيجين: قصة انتفاضة الملاكم عام 1900 Besieged in Peking: The Story of the 1900 Boxer Rising، تأليف ديانا بريستون Diana Preston. كما يمكن مراجعة الموضوع الذي نشرته صحيفة نيويورك تايمز يوم 3 أيلول/سبتمبر 1901، تحت عنوان "هدية من بيجين إلى متحف الفن: هدايا هـ. ج. سكويرز إلى هذه المدينة من برونزيات وتحف مدهشة"، من خلال الرابط التالي: http://query.nytimes.com/gst/abstract.html?res=9A07E7DE153DE433A25759c0A96F9C946097DeCF.

(20) وُلِد أحمر، مقال كتبه إيفان أوسنوس.

(21) المرجع السابق.

(22) الصين: صعود شِي جِينْ بينغْ China: The Rise of Xi Jinping، تأليف كيري براون Kerry Brown، 2016.

(23) المرجع السابق.

(24) المرجع السابق.

(25) قرر شِي جِينْ بينْغ في ما بعد تقليص عدد أعضاء اللجنة الدائمة إلى سبعة أعضاء، بدلًا من تسعة.

(26) وُلِد أحمر، مقال كتبة إيفان أسنوس.

(27) يمكن مراجعة الموضوع الذي نشره كريس بوكلي Chris Buckley، في صحيفة نيويورك تايمز في 30 تشرين الأول/أكتوبر 2016، تحت عنوان "شِي جِين بينْغ هو المرشد الرئيسي للصين:

ماذا يعني ذلك"، من خلال الرابط التالي: http://www.nytimes.com/2016/10/31/world/asia/china-xi-jinping-communist-party.html، وكذلك الموضوع الذي نشره كلٌ من جيرمي بايج Jeremy Page ولينغلينغ وِي Lingling Wei، في صحيفة وول ستريت جورنال، في 26 كانون الأول/ديسمبر 2016، تحت عنوان "لعبة القوة التي يمارسها شِي تنذر بتحول تاريخي في طريقة الحكم في الصين"، من خلال الرابط التالي: http://www.wsj.com/articles/xis-power-play-foreshadows-radical-transformation-of-how-china-is-ruled-1482778917.

(28) لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين والولايات المتحدة والعالم، تأليف غراهام أليسون، وآخرين.

(29) كان دينغ شياو بينغ Ding Xiaoping قد أطلق الثورة الاقتصادية الأولى عام 1978، لتبدأ الصين مسيرتها نحو اقتصاد السوق، من خلال عدد من المناطق الاقتصادية الخاصة، في ما يُعد أولى مراحل الخصخصة. وقد تصاعدت، بعد ذلك، إجراءات الإصلاح الاقتصادي والانفتاح على العالم الخارجي من خلال ما عُرف بالثورة الاقتصادية الثانية، التي أشرف عليها جيانغ زيمين، الذي رعى عقودًا من النمو الفائق السرعة.

(30) مقال بعنوان من هو شِي؟ كتبه أندرو ناثان Andrew Nathan في مجلة New York Review of Books في 12 أيار/مايو 2016، وهو متاح على الرابط التالي: https://www.nybooks.com/articles/2016/05/12/who-is-xi/.

(31) يمكن مراجعة الموضوع الذي كتبه كيفن رود Kevin Rudd، في صحيفة هافينغتون بوست، تحت عنوان "كيف نكسر سوء الفهم المتبادل الراسخ بين الولايات المتحدة والصين"، من خلال الرابط التالي: http://www.huffingtonpost.com/kevin-rudd/us-china-relations-kevin-rudd-report_b_7096784.html.

(32) يمكن مراجعة هذه الحوارات ضمن ورقة عمل أصدرها مركز بِلفر للعلوم والشؤون الدولية، في تموز/يوليو 2014، بعنوان "التغلب على الركود الكبير: دروس من الصين"، من خلال الرابط التالي: http://belfercenter.org/publication/24397.

(33) بينما وصل متوسط معدلات النمو السنوي في الهند إلى 7 في المائة منذ عام 2008، لا تُعد الهند دولة ذات اقتصاد قوي، من منطلق أنها لم تكن واحدة من الدول العشر ذات الاقتصادات الأقوى، وقت وقوع الأزمة المالية.

(34) يمثل المبلغ 983 مليار دولار مجموع المُحفِّزات المالية والكفالات والمساعدات التي قدمتها البنوك، خلال فترتي حكم كل من جورج بوش (الابن) وباراك أوباما.

(35) الجدير بالذكر أن المسؤولين الصينيين والوثائق العامة يختارون المقاييس الاقتصادية بطريقة انتقائية واعية. فعند تقييم حجم الاقتصاد الصيني بصورة علنية، يستخدم المسؤولون دائمًا أسعار الصرف في السوق MER لقياس الناتج المحلي الإجمالي GDP، بدلًا من مقياس تعادل القوة الشرائية PPP، من أجل أن يبدو الاقتصاد أصغر وأقل تهديدًا. بينما يستخدمون وراء الأبواب المغلقة، عند مقارنة الصين والولايات المتحدة، مقياس تعادل القوة الشرائية (يمكن مراجعة المناقشة الخاصة بهذين المقياسين في الفصل الأول). في الحالة التي نحن بصددها، الهدفان المئويان لشِي، يُستخدم مقياس MER. أما إذا استخدِم مقياس PPP، فسوف نكتشف أن الهدف الأول قد تحقق بالفعل.

(36) قاعدة بيانات آفاق الاقتصاد العالمي، الصادرة عن صندوق النقد الدولي، في تشرين الأول/أكتوبر 2016.

(37) يمكن مراجعة الموضوع الذي كتبه روبرت لورانس كُون في صحيفة نيويورك تايمز في 4 حزيران/يونيو 2013، بعنوان "حلم شِي جِين بينْغ للصين"، من خلال الرابط التالي: http://www.nytimes.com/2013/06/05/opinion/global/xi-jinpings-chinese-dream.html.

(38) وُلِد أحمر مقال كتبه إيفان أوسنوس.

(39) يمكن مراجعة الموضوع الذي نشره شون هان وونغ Chun Han Wong في صحيفة وول ستريت جورنال، في 1 تموز/يوليو 2016، بعنوان "الزعيم الصيني شِي يحذر الحزب الشيوعي من التذبذب الأيديولوجي"، من خلال الرابط التالي: http://wsj.com/articles/chinas-xi-exhorts-communist-party-to-hold-fast-to-marxism-1467380336.

(40) لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم، مرجع سبق ذكره.

(41) لمزيد من التفاصيل، يمكن مراجعة المواقع التالية: http://news.xinhuanet.com/english/china/2013-06/18/c_132465115.html, http://usa.chinadaily.com.cn/epaper/2012-11/20/content_15944726.htm, http://www.theatlantic.com/international/archive/2015/04/xi-jinping-china-corruption-political-culture/389787/.

(42) لمزيد من التفاصيل، يمكن مراجعة الموقعين التاليين: http://www.chinaeconomicreview.com/cartography/data-transparency-corruption, http://chinapower.csis.org/can-xi-jinping-anti-corruption-campaign-succeed/.

(43) يمكن مراجعة الموضوع الذي كتبه جوش شين وغيليان وونغ Josh Chin and Gillian Wong، في صحيفة وول ستريت جورنال يوم 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2016، تحت عنوان "أدوات السيطرة الاجتماعية الجديدة في الصين: تقويم ائتماني لكل شيء"، من خلال الرابط التالي: http://www.wsj.com/articles/chinas-new-tool-for-social-control-a-credit-rating-for-everything-1480351590.

(44) لمزيد من التفاصيل، يمكن مراجعة الموضوع الذي كتبه جوزيف فيوسميث Joseph Fewsmith في العدد رقم 14 من مجلة نافذة على زعماء الصين China's Leadership Monitor، الصادر في ربيع عام 2013، وعنوانه "انطلاقة شِي جين بينغ السريعة، عبر الرابط التالي: http://www.hoover.org/sites/default/files/uploads/documents/CLM41JF.pdf.

(45) يستدعي ما يحلم به شِي للصين مفهوم العظمة المفقودة المستعادة، وهو مفهوم تعود أصوله في التاريخ الأدبي والفكري الصيني إلى القرن الثاني عشر على الأقل. وكان هذا التوق إلى التجديد قوة دافعة للعملية السياسية في البلاد خلال قرن المَهانة. وقد صوَره بطريقة تنبض بالحياة الباحث فِنغ غي فين Feng Guifen عام 1860 عندما تساءل، وهو يقصد بريطانيا وفرنسا: "لماذا هم أقوياء جدًا رغم صِغَر حجمهم، ولماذا لا نزال نحن ضعفاء جدًا رغم كِبَر حجمنا؟... من المؤكد أن الصينيين يتفوقون ذكاء وحكمة على الشعوب البربرية.... إذًا ما علينا أن نتعلمه من هؤلاء هو شيء واحد فقط: سفن قوية وبنادق فعالة". كانت تلك العبارة مبعث أملٍ لحركة تعزيز الذات Self-Strengthening Movement التي انطلقت في العام نفسه من أجل "إحياء" الصين اقتصاديًا وعسكريًا، والتصدي للقوى الإمبريالية. لكن، وفي ما يشبه الكابوس المتكرر، سُحِق الحلم الموعود قبل أن يتمكن الصينيون من تحقيقه. للمزيد، يمكن مراجعة الموضوع الذي نشره ريان ميتشل Ryan Mitchell، تحت عنوان "تطهير بعض المفاهيم الخاطئة حول ما يحلم به شِي للصين"، الذي نشر في صحيفة هافينغتون بوست، في 20 آب/أغسطس 2014، من خلال الرابط التالي: http://www.huffingtonpost.com/ryan-mitchell/clearing-up-some-misconce_b-8012152html.، كما يمكن مراجعة كتاب البحث عن الصين الحديثة The Search for Modern China، تأليف جوناثان د. سبينس Jonathan D. Spence، 1990.

(46) يمكن مراجعة الموضوع الذي نشره ديدي كريستن تاتلو Didi Kristen Tatlow، في صحيفة نيويورك تايمز، في 14 تشرين الأول/أكتوبر 2014، تحت عنوان "شِي جِين بينْغ واستثنائية الخصائص الصينية"، من خلال الرابط التالي: http://sinosphere.blogs.nytimes.com/2014/10/14/xi-jinping-on-exceptionalism-with-chinese-charactristics/.

(47) الرؤية التاريخية لعصر الازدهار The Historical Vision of the Prosperous Age، موضوع نشره مارك إليوت في العدد 29 من المجلة الفصلية تراث الصين China Heritage Quarterly، في آذار/مارس 2012، ويمكن الاطلاع عليه من خلال الرابط التالي: http://www.chinaheritagequarterly.org/articles.php?searchterm=029_elliot.inc&issue=029.

(48) البعث الكونفوشيوسي للحزب الشيوعي الصيني The Chinese Communist Party's Confucian Revival، موضوع نشره جين كاي Jin Kay في مجلة ديبلومات Diplomat، في 30 أيلول/سبتمبر 2014، ويمكن الاطلاع عليه من خلال الرابط التالي: http://thediplomat.com/2014/09/the-chinese-communist-partys-confucian-revival/.

(49) سباق القرن The Contest of the Century، تأليف جيوف ديير، 2014.

(50) لي كُوان يوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم، تأليف غراهام ألّيسون وآخرين.

(51) يمكن مراجعة موضوع "الصين تطلق نفير اقتصادها الخِدْمي"، الذي كتبه ديكستر روبرتس Dexter Roberts لشبكة بلومبرغ، يوم 28 كانون الثاني/يناير 2016، من خلال الرابط التالي: http://www.bloomberg.com/news/articles/2016-01-28/china-trumpets-its-service-economy.

(52) يمكن مراجعة موضوع "اقتصاد الدولة الغارق في غيبوبة"، الذي كتبه غابرييل ويلداو Gabriel Wildau في صحيفة فايننشيال تايمز، يوم 29 شباط/فبراير 2016، من خلال الرابط التالي: https://www.ft.com/content/253d7eb0-ca6c-11e5-84df-70594b99fc47.

(53) يمكن مراجعة موضوع "ثورة الروبوت الصينية" الذي كتبه بِنْ بلاند Ben Bland في صحيفة فايننشيال تايمز، يوم 6 حزيران/يونيو 2016، من خلال الرابط التالي: https://www.ft.com/content/1dbd8c60-0cc6-11e6-ad80-67655613c2d6.

(54) يمكن مراجعة موضوع "شِي يحدد أهداف السيادة الصينية العلمية والتكنولوجية" الذي نشره موقع شين هاو Xinhua، يوم 30 أيار/مايو 2016، من خلال الرابط التالي: http://news.xinhuanet.com/english/2016-05/30/c_135399691.

(55) يمكن مراجعة موضوع "تلوث الهواء في الصين يقتل 4 آلاف إنسان كل يوم، كما كشفت دراسة جديدة"، الذي نشرته صحيفة الغارديان البريطانية نقلاً عن وكالة أسُّوشيتيد بريس للأنباء في 13 آب/أغسطس 2015، من خلال الموقع التالي: https://www.theguardian.com/world/2015/aug/14/air-pollution-in-china-is-killing-4000-people-every-day-a-new-study-finds.

(56) يمكن مراجعة الدراسة التي صدرت عن البنك الدولي عام 2007 بعنوان "تكلفة التلوث في الصين: تقديرات اقتصادية للأضرار الطبيعية"، من خلال الرابط التالي: http://documents.worldbank.org/curated/en/782171468027560055/Cost-of-pollution-in-China-economic-estimates-of-physical-damages.

(57) يمكن مراجعة موضوع "الصين تحشد فرقًا خاصة خضراء لتحقيق أهدافها المناخية"، الذي كتبه جون سيسيليانو John Siciliano لصحيفة واشنطن إكزامينر، يوم 19 آذار/مارس 2016، من خلال الرابط التالي: http://www.washingtonexaminer.com/china-deploys-green-swat-teams-to-meet-climate-goals/article/2586271.

(58) يمكن مراجعة التقرير الذي نشرته وكالة رويتر للأنباء تحت عنوان "مسؤول بصندوق النقد الدولي يحذر: يجب أن تتصدى الصين بسرعة لمشكلة الديون المتزايدة على الشركات"، يوم 10 حزيران/يونيو 2016، من خلال الرابط التالي: http//www.reuters.com/article/us-china-imf-debt-idUSKCN0YX029.

(59) يمكن مراجعة التقرير الذي كتبه مارتِن فيلدشتين Martin Feldstein تحت عنوان "أجندة الصين التالية" ونشرته صحيفة بروجيكت سينديكيت Project Syndicate، يوم 29 آذار/مارس 2016، من خلال الرابط التالي: https://www.project-syndicate.org/commentary/china-growth-through-pro-market-reforms-by-martin-feldstein-2016-03.

(60) يمكن مراجعة دراسة بعنوان "آفاق التمدين في العالم: مراجعة عام 2014"، أصدرتها إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة، من خلال الموقع التالي: https://esa.un.org/unpd/wup/publications/files/wup2014-highlights.pdf.

(61) يمكن مراجعة التقرير الذي كتبه مارتِن فيلدشتين Martin Feldstein بعنوان "أحدث خطة خمسية صينية" في صحيفة بروجيكت سينديكيت، يوم 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2015، من خلال الرابط التالي: https://www.project-syndicate.org/commentary/china-new-five-year-plan-by-martin-feldstein-2015-11?barrier=true.

(62) يمكن مراجعة الخطاب الذي ألقاه شِي جينْ بينْغ بعنوان "مفهوم آسيوي جديد للأمن، من أجل تقدم جديد في مجال التعاون الأمني"، أمام القمة الرابعة لمؤتمر التفاعل ومؤشرات بناء الثقة في آسيا، المنعقد في شنغهاي، يوم 21 أيار/مايو 2014، من خلال الرابط التالي: http://www.fmprc.gov.cn/mfa_eng/zxxx_662805/t1159951.shtm.

(63) المُثُل الديموقراطية والواقع: دراسة في سياسات إعادة الإعمار Democratic Ideals and Reality: A Study in the Politics of Reconstruction، تأليف هالفورد ماكِيندر Halford Mackinder. يمكن مراجعة الخطاب الذي ألقاه شِي جينْ بينْغ بعنوان "مفهوم آسيوي جديد للأمن، من أجل تقدم جديد في مجال التعاون الأمني"، أمام القمة الرابعة لمؤتمر التفاعل ومؤشرات بناء الثقة في آسيا، المنعقد في شنغهاي، يوم 21 أيار/مايو 2014، من خلال الرابط التالي: http://www.fmprc.gov.cn/mfa_eng/zxxx_662805/t1159951.shtm.

(64) يمكن مراجعة موضوع "قبل وبعد: تحولات بحر الصين الجنوبي"، الذي كتبته ميرا رابّ-هوبر Mira Rapp-Hooper لمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، في 18 شباط/فبراير 2015، من خلال الرابط التالي: https://amti.csis.org/before-and-after-the-south-china-sea-transformed/.

(65) بحر الصين الجنوبي The South China Sea، تأليف بيل هايتون Bill Hayton.

(66) يمكن مراجعة موضوع "معركة باراسيلز البحرية عام 1974: تقويم للحملة"، الذي كتبه توشي يوشيهارا Toshi Yoshihara في المجلد الثاني من العدد رقم 69 لمجلة كلية الحرب البحرية Naval War College Review، الذي صدر في ربيع 2016.

(67) يمكن مراجعة "استراتيجية الأمن البحري لآسيا والباسيفيك"، التي أصدرتها وزارة الدفاع الأمريكية في آب/أغسطس 2015، من خلال الرابط التالي: http://www.defense.gov/Portals/1/Documents/pubs/NDAA%20A-P_Maritime_SecuritY_Strat egy-08142015-1300-FINALFORMAT.PDF.

(68) يمكن مراجعة موضوع "ماذا تبني الصين في بحر الصين الجنوبي"، الذي كتبه ديريك واتكينز Derek Watkins لصحيفة نيويورك تايمز، في 29 شباط/فبراير 2016، من خلال الرابط التالي: http://www.nytimes.com/interactive/2015/07/30/world/asia/what-china-has-been-building-in-the-south-china-sea-2016.html.

(69) "استراتيجية الأمن البحري لآسيا والباسيفيك"، التي أصدرتها وزارة الدفاع الأمريكية.

(70) يصل حجم التجارة الأمريكية إلى 1,2 تريليون دولار من الحجم الإجمالي للتجارة في المنطقة الذي يقدر بنحو 3,5 تريليون دولار، كما جاء في دراسة بعنوان "الصدام المسلح في بحر

الصين الجنوبي"، كتبها بوني غلاسِر Bonnie Glaser لمركز بلفور للعلوم والشؤون الدولية، في 4 نيسان/أبريل 2016. يمكن الاطلاع على الدراسة من خلال الرابط التالي: http://www.cfr.org/asia-and-pacific/armed-clash-south-china-sea/p27883.

(71) يمكن مراجعة ورقة العمل بعنوان "إصلاحات 2015 العسكرية في جمهورية الصين الشعبية: الدفاع، قضايا محلية وخارجية"، التي أعدها أندريه كوكوشين Andrei Kokoshin لمركز بلفور للعلوم والشؤون الدولية، في تشرين الأول/أكتوبر 2016، من خلال الرابط التالي: http://belfercenter.org/publication/27040.

(72) يمكن مراجعة موضوع "أكثر من 1000 يحتجون أمام وزارة الدفاع الصينية"، الذي كتبه نورمان ميرشانت Norman Merchant لوكالة أسوشيتيد بريس، يوم 11 تشرين الأول/أكتوبر 2016، من خلال الرابط التالي: http://www.military.com/daily-news/2016/10/11-1-000-protest-front-chinese-defense-ministry.html.

(73) هل يمكن للصين أن تقود؟ Can China Lead?، تأليف ريجينا أبرامي Regina Abrami، وويليام كيربي William Kirby، وارِّن مكْفارلان Warren McFarlan، 2014.

(74) يمكن مراجعة موضوع "الرئيس شِي يضغط لتطوير جيش التحرير الشعبي"، التي نشرها موقع شين هوا يوم 27 تموز/يوليو 2016، من خلال الرابط التالي: http://news.xinhuanet.com/english/2016-07/27/c_135544941.htm.

(75) يمكن مراجعة موضوع "حلم القوة العسكرية الصينية لدى الرئيس شِي"، الذي كتبه جيرمي باج Jeremy Page لصحيفة وول ستريت جورنال، يوم 13 آذار/مارس 2013، من خلال الرابط التالي: http://www.wsj.com/articles/SB10001424127887324128504578348774040546346.

(76) لقد أصابت منظومةَ القيادة والتحكم العراقية حالةٌ من الفوضى والارتباك، حتى أن صدام حسين أجبر في نهاية الأمر على استخدام مراسيل يركبون دراجات نارية لنقل أوامره إلى الخطوط الأمامية. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة كتاب "المنطقة المظلمة: التاريخ السري للحرب السيبرانية" Dark Territory: The Secret History of Cyber War، تأليف فريد كابلان Fred Kaplan، 2016.

(77) نُشِر مضمون هذه الدراسة في كتاب "الصين تناقش البيئة الأمنية المستقبلية" China Debates the Future Security Environment، الذي نشرته جامعة الدفاع الوطني في واشنطن عام 2000. كما يمكن مراجعة كتاب "الرؤى الصينية للحرب المستقبلية" Chinese Views of Future Warfare، للمؤلف نفسه.

(78) وكما يلاحظ أندريه كوكوشين: "كان القادة والمفوضون السياسيون في المناطق العسكرية الرئيسية، الذين يسيطرون على عدة مقاطعات في الوقت نفسه، عنصرًا مهمًا في الحفاظ على القوة السياسية المركزية لبيجين. فقد كانوا جميعًا يخضعون لسيطرة الإدارة السياسية الرئيسية في جيش التحرير الشعبي، التي ترفع تقاريرها مباشرة إلى رئيس اللجنة العسكرية المركزية في جمهورية الصين الشعبية. وفي حالات الأزمات الداخلية، كان لدى هؤلاء القادة والمفوضين السياسيين في المناطق العسكرية الرئيسية مجموعة كبيرة ومتنوعة من الخيارات التي تمكنهم من السيطرة، بصورة طارئة، على المقاطعات الواقعة داخل هذه المناطق. من بين القضايا الأساسية التي واجهت الحزب وكبار المسؤولين في الدولة، وهم يتدبرون عمق الإصلاح العسكري المطلوب، مدى الارتباط بين قدرات القوات المسلحة على استخدام القوة بكفاءة لمتابعة مصالح السياسة الخارجية، والحفاظ على دور جيش التحرير الشعبي في حل الأزمات الداخلية المحتملة".

(79) سباق القرن، تأليف جيوف ديير.

(80) تشير كلمة جيش Army، في عبارة جيش التحرير الشعبي People's Liberation Army، إلى كافة القوات العسكرية، بما في ذلك القوات الجوية، والأسطول، بالإضافة إلى ثلاثة أنواع من القوات البرية، في حين يقصد بكلمة جيش في الولايات المتحدة، القوات البرية فقط.

(81) يمكن مراجعة الفصل المعنون "نهج الصين المتغير للاستراتيجية العسكرية: علم الاستراتيجية العسكرية من 2001 إلى 2013"، الذي كتبه م. تايلور فرافيل M. Taylor Fravel، ضمن كتاب "الاستراتيجية العسكرية المتطورة للصين" China's Evolving Military Strategy، الذي أشرف على إعداده جوي مكرينولدز Joe McReynolds، وكتاب "نجمة حمراء فوق المحيط الهادي: صعود الصين والتحدي الذي تطرحه على الاستراتيجية البحرية الأمريكية" Red Star over the Pacific: Chinas Rise and the challenge to U.S. Maritimes strategy، تأليف توشي يوشيهارا وجيمس هولمز، 2010.

(82) نجمة حمراء فوق المحيط الهادي.

(83) في عام 2015، غيّرت وزارة الدفاع مُسمى "المعركة البحرجويَّة" Air-Sea Battle، إلى "المفهوم المشترك للدخول والمناورة في المشاعات الكونية" Joint Concept for Access and Maneuver in the Global Commons، ويرمز إليها اختصارًا بـ"JCAM-GC". ورغم ذلك لا يزال المصطلح القديم مستخدمًا على نطاق واسع. لمزيد من المعلومات، يمكن مراجعة الموضوع الذي نُشر يوم 20 كانون الثاني/يناير، على الرابط التالي: https://news.usni.org/2015/01/20/pentagon-drops-air-sea-battle-name-concept-lives.

(84) يمكن مراجعة "سجل التقييم العسكري للولايات المتحدة والصين: القوات، الجغرافيا، وتطور ميزان القوى، 1996-2017"، إعداد إريك هيغنبوثام Eric Heginbotham، 2015.

الفصل السابع

صراع الحضارات

لدينا شكلٌ من أشكال الحكم لا يحاكي ممارسات جيراننا.... وفي مقاربتنا للحرب، نختلف عن خصومنا.... وفي الأمور الطيبة نتناقض مع معظم الناس.... كما أن جهودنا لا مثيل لها بين أولئك الذين لا يشاركوننا هذه القيم.

ـ ثيوسيديدين، خطبة جنازة بريكليس، *431* قبل الميلاد

ضعوا في اعتباركم التباين الكبير بين الشخصيتين الوطنيتين، فهو تباين لا تدركونه، لأنكم لم يخطر في بالكم حتى الآن أي نوعٍ من الخصوم سوف تواجهون عندما تواجهون الأثينيين، كما أنكم لا تدركون إلى أي حدٍ هم مختلفون عنكم.

ـ سفير كورينثيا مخاطبًا برلمان أسبرطة، *432* قبل الميلاد

تقوم فرضيتي الجدلية على أن المصدر الأساسي للنزاع في هذا العالم الجديد لن يكون أيديولوجيًا أو اقتصاديًا في المقام الأول، الانقسامات العظيمة بين البشر ستكون انقسامات ثقافية، حيث سيهيمن صراع الحضارات على السياسة العالمية.

ـ صامويل هانتينغتون، "صدام الحضارات؟"، *1993*

عندما وصل اللورد جورج ماكارتني George Macartney إلى بيجين قادمًا من لندن عام 1793، مبعوثًا للملك جورج الثالث George III، بدا وكأنه قادمٌ

من المريخ. لقد قَدِم ماكارتني في مهمة تهدف إلى إقامة علاقات دبلوماسية بين بريطانيا العظمى وإمبراطورية شينغ الصينية، غير أنه لم يكن لدى أيٍ من المسؤولين الصينيين آنذاك أية فكرة عن هويته، أو من أين جاء، أو ماهية تلك المهمة التي يتحدث عنها. لم يكن لدى هؤلاء أي تصور لمقترحه حول "العلاقات الدبلوماسية"، إذ لم تكن الصين قد أقامت مثل هذه الروابط مع أي دولة أخرى على الإطلاق، بل إنها، في واقع الأمر، لم تسمح قط لأية دولة بفتح سفارة على الأراضي الصينية، كما أنها لم ترسل قط أي سفيرٍ لها إلى الخارج. ولم يكن لدى الحكومة الصينية حتى وزارة للخارجية[1]. علاوة على ذلك، فإن إهانة الإهانات، تمثلت في أن هؤلاء "العجم ذوي الشعر الأحمر" الذين تجرأوا على مغامرة الوقوف بين أيديهم، لا يستطيعون التحدث بلغتهم. كان "مترجم ماكارتني" كاهنًا صينيًا من نابولي Naples لا يتحدث الإنجليزية. و للترجمة بين الطرفين، كان يترجم كلمات أهل الدار من الماندرين إلى اللاتينية، حتى يتمكن ماكارتني، الذي درس تلك اللغة قبل ذلك بعقود في كلية ترينيتي Trinity College، من الفهم، ولو جزئيًا[2].

كانت لندن قد أصدرت تعليمات إلى ماكارتني بالعمل على إنشاء بعثة دبلوماسية دائمة في بيجين، وفتح موانئ وأسواق جديدة للبضائع البريطانية، والتفاوض على نظام أكثر مرونة للتعاملات التجارية في مقاطعة كانتون Canton الساحلية. كما كان ماكارتني مُطالَبًا بأن يستأجر مُجمعًا يمكن للتجار البريطانيين أن يعملوا من خلاله على مدار السنة، وأن يجمع معلومات استخباراتية عن "قوة الصين الحالية، وسياساتها، وحكومتها"[3]. وللتأثير على مضيفيه وإثارة اهتمامهم بالصادرات البريطانية، جلب ماكارتني معه مجموعة من الهدايا التي قدمها للإمبراطور، باعتبارها نماذج من المنتجات البريطانية، بما في ذلك بعض قطع المدفعية، وعربة حربية، وتلسكوبات، ومنتجات من البورسلين، ومنسوجات، وساعة يد مرصعة بالألماس[4].

بعد رحلة امتدت تسعة أشهر، من لحظة مغادرة بريطانيا، وصل ماكارتني والوفد المرافق له إلى منتجع جبل شنده Chengde Mountain Resort في مقاطعة ريهي Rehe، حيث كان عليهم أن ينتظروا موعدًا للقاء الإمبراطور شان لونغ Qianlong[5]. ولكن ماكارتني برهن، منذ اللقاء الأول وإلى اللقاء الأخير مع نظرائه الصينيين، على أنه غير قادر على التواصل معهم. فوفقًا للأعراف الصينية التي تمتد لآلاف السنين، يتحتم على البشر العاديين الفانين، عندما يكونون في حضرة الإمبراطور السماوي المقدس، أن يسجدوا تسع سجدات، منبطحين على الأرض، حتى تلتصق أجسادهم المنبسطة بها. وقد اقترح ماكارتني أن يتصرف، بدلاً من ذلك، وفقًا لما يقضي به البرتوكول البريطاني، فينحني على ركبة واحدة، كما يفعل أمام مليكه. واقترح كذلك أن يؤدي مسؤول صيني من رتبته الحركة نفسها أمام لوحة للملك جورج الثالث كان قد أحضرها معه هدية للإمبراطور. وقد سخِر المسؤولون الصينيون من هذا الاقتراح، مؤكدين أن "مساواة ملك إنجلترا بالإمبراطور غير واردة، لانعدام التكافؤ بينهما". هذا ما كتبه عالِم السياسة الفرنسي آلان بيريفيت Alain Peyrefitte، في تلخيصه لتلك الواقعة، مضيفًا: "كان هناك إمبراطور واحد فقط، وهو ابن للسماء، أما أولئك الذين يجلسون على عروش الممالك الأخرى فهُم مجرد ملوك صغار الشأن kinglets"[6]. على الجهة المقابلة كان ماكارتني يرى أنه قَدِم من أقوى أمة على وجه الأرض، إلى دولة فقيرة متخلفة، وأنه يصنع لتلك الدولة معروفًا عندما يساوي بينها وبين بريطانيا. غير أن مضيفيه لم يروا فيه، أي ماكارتني، سوى تابعٍ ذليل جاء يقدم فروض الطاعة والولاء لابن السماء.

ترك مضيفو ماكارتني ضيفهم ينتظر في شنده ستّة أيام. ثم في الثالثة من صباح 14 أيلول/سبتمبر 1793، أيقظوا المبعوث البريطاني والوفد المرافق له، وساروا بهم ثلاثة أميال في الظلام حتى وصلوا إلى بلاط الإمبراطور، وهناك جعلوهم ينتظرون أربع ساعات أخرى حتى ظهر الإمبراطور[7]. (ليس من قبيل المصادفة أن أول اجتماع لهنري كيسنجر مع

ماو تسي تونغ كان تكرارًا لسيناريو لقاء ماكارتني/شان لونغ.) وعندما حظي ماكارتني في النهاية بالمقابلة التي انتظرها طويلاً، اتّبع التقليد البريطاني، منحنيًا على ركبة واحدة. إلاّ أن الرواية الرسمية الصينية لهذه الواقعة، تحدثت عن قصة أخرى، إذ زعمت أنه: "عندما دخل السفير إلى حضرة جلالته، سيطرت عليه الرهبة والعصبية، فخانته قدماه ووقع منبطحًا على الأرض، ليؤدي دون نية مسبقة أو قصد، السجدة الإجبارية[8].

وقد قرأ ماكارتني رسالة الملك جورج التي يحدد فيها مقترحاته، وتوقع أنه خلال الأسبوع القادم أو نحو ذلك، سيتفاوض على التفاصيل مع نظرائه الصينيين. ولكن المسؤولين الصينيين اعتبروا اللقاء مجرد خاتمة ناجحة لمناسبة عبَّرت بريطانيا خلالها عن إجلالها وتقديرها للصين، واقترحوا على ماكارتني أن يعود إلى بلاده قبل أن يحل فصل الشتاء[9]. بعد عدة أيام، وبعد أن أعرب ماكارتني عن إلحاحه واستيائه، تلقى ردًا مكتوبًا من الإمبراطور. أشار الرد إلى أن الإمبراطور يدرك "رغبة الملك جورج المتواضعة في الاستفادة من مزايا الحضارة الصينية" ويعترف بأن مبعوثه "قد عبر البحار وقدَّم علامات الاحترام في بلاطي". لكن الإمبراطور رفض بشكل قاطع جميع مقترحات ماكارتني .وعلى وجه التحديد، فإن طلب إنشاء سفارة أجنبية في بكين "أمر لا يمكن قبوله مطلقًا". واعترافًا بأن "الشاي والحرير والبورسلين الذي تنتجه الإمبراطورية السماوية سلع ضرورية جدًا للدول الأوروبية ولكم"، فإن الصين ستسمح للتجار الأجانب بمواصلة العمل وفقًا للترتيبات الحالية التي تتيح لهم تبادل البضائع في ميناء كانتون. لكن من غير الوارد على الإطلاق، السماح بافتتاح مواقع تجارية إضافية، أو إنشاء مجمع يقيم فيه البريطانيون ويعملون على مدار السنة.

وفي ما يُعد تلخيصًا لوجهة نظره بشأن المقابلة، أنهى الإمبراطور خطابه قائلاً: "إذا كان تقديسُكم لسلالتنا السماوية يجعلكم مليئين بالرغبة في أن تنهلوا من حضارتنا، فإن مناسكنا ومدوناتنا القانونية تختلف تمامًا

عن مناسككم ومدوناتكم، وحتى لو تمكن مبعوثكم من الحصول على المبادئ الأساسية لحضارتنا، لن يكون في مقدوركم أن تزرعوا أخلاقنا وعاداتنا في تربتكم الغريبة"[10] وبهذا، أبحر ماكارتني عائدًا إلى لندن.

لن يكون من الإنصاف أن ندعو لقاءً لم تتوفر له أية فرصة للنجاح، فشلاً ذريعًا. فبدلاً من بناء جسر بين الصين والغرب، كشفت بعثة ماكارتني الدبلوماسية عن الهوة بينهما. ورغم أن بيجين والعواصم في جميع أنحاء العالم تنخرط اليوم في علاقات تجارية ودبلوماسية، لا تزال الاختلافات الأساسية بين هذين النظامين القديمين قائمة .لقد سهّلت العولمة المعاملات، لكنها لم تمحُ خطوط الصدع الأساسية.

صدام الحضارات

بعد مائتي سنة بالضبط من مهمة ماكارتني، نشر أستاذ علم السياسة الأمريكي صامويل هانتينغتون Samuel Huntington مقالاً بالغ الأهمية، في مجلة فورين أفيرز Foreign Affairs بعنوان "صدام الحضارات؟" The Clash of Civilizations?، أكد فيه أن المصدر الأساسي للصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة لن يكون أيديولوجيًا، أو اقتصاديًا، أو سياسيًا، ولكنه، بدلاً من ذلك كله، سوف يكون صراعًا ثقافيًا. وتنبأ هانتينغتون بأن "صدام الحضارات" سيهيمن على السياسة العالمية[11]. وقد أثارت أطروحة هانتينغتون عاصفة نارية من الانتقادات. فقد كان يكتب في مناخ تسوده ثقافة اللياقة السياسية political correctness، حيث كانت تحليلات معظم الأكاديميين تخْلو مما يمكن أن نعتبره تمييزًا بين الحضارات أو الثقافات المختلفة. وقد اعترض هؤلاء المنتقدون على مفهوم هانتينغتون للحضارة، وشككوا في حديثه عن الحدود الفاصلة بينها.

ومع ذلك، وفي السنوات التي تلت نشر المقالة، عمد خبراء السياسة والباحثون في الشؤون السياسية إلى إدراج مفهوم الحضارة هذا، الذي لا

يزال عصيًا على التعريف، في الدراسات عن الحروب، ولا سيما ما يتعلق منها بالحرب المتواصلة بين الديمقراطيات الغربية من ناحية، والجماعات الإرهابية مثل القاعدة وتنظيم الدولة "داعش"، من ناحية أخرى. كما شكَّل مفهوم صدام الحضارات، وإن بدرجة أقل إلى حدٍ بعيد، تفكير صانعي السياسة والمخططين العسكريين والباحثين الذين يدرسون العلاقات الأمريكية الصينية وخطر اندلاع صراع عنيف بين هاتين الحضارتين الفائقتَي القوة.

يُعرِّف هانتينغتون الحضارة بأنها كيان يُشكل المستوى الأكثر رحابة للمنظومة الثقافية. وفي هذا يقول "الحضارة هي أسمى تجمع ثقافي للناس، وأوسع مستوى من مستويات الهوية الثقافية، وهي ما يميز البشر عن سائر الكائنات". ويضيف هانتينغتون أن "الحضارة تحددها عناصر موضوعية مشتركة، مثل اللغة، والتاريخ، والدين، والتقاليد، وكذلك الهوية الذاتية للناس". قد تنضوي تحت لواء حضارة واحدة عدة دول قومية أو دولة واحدة فقط، كما يمكن أن تتداخل حضارة ما مع الحضارات الأخرى، أو تحتويها. ووفقًا لهانتينغتون، فإن الصين ودولاً قليلة أخرى تُشكِّل الحضارة "الكونفوشيوسية"، في حين تقع الولايات المتحدة وسط مجموعة من الدول التي تشكل، مجتمعة، الحضارة "الغربية". ومع التسليم بأن "الخطوط الفاصلة بين الحضارات نادرًا ما تكون دقيقة وصارمة"، يرى هانتينغتون أن "تلك الحدود موجودة بالفعل"[(12)].

لم يستبعد هانتينغتون بأي حال من الأحوال حدوث نزاعات مستقبلية عنيفة بين المجموعات التي يجمعها إطار حضارة مشتركة. فبرأيه أن عالم ما بعد الحرب الباردة، لم تتلاشَ فيه خطوط الصدع الحضاري لتصب معًا في تيار واحد يتجه صوب نظام عالمي ليبرالي، بل أصبحت أكثر وضوحًا، وهو رأي معاكس لما تنبأ به تلميذه سابقًا، وعالِم السياسة حاليًا، فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، في مقالته الشهيرة "نهاية التاريخ؟" التي نشرها عام 1989[(13)]. ويعترف هانتينغتون بأن "الاختلافات لا تعني

بالضرورة الصراع، وأن الصراع لا يعني بالضرورة العنف"، غير أنه يستدرك قائلاً: "على الرغم من ذلك، أدت الاختلافات بين الحضارات، على مدار القرون، إلى نشوب أطول الصراعات وأكثرها عنفًا"[14].

كان هانتينغتون حريصًا على تحرير القراء من وَهْم الأسطورة الغربية المعروفة بالقيم العالمية universal values، التي قال إنها ليست فقط ساذجة بل معادية لحضارات أخرى، لا سيما الحضارة الكونفوشيوسية، التي تحتل الصين مركز القلب منها". وبالمثل، فإن "المفهوم القائل بإمكانية وجود حضارة عالمية universal civilization، هو مفهوم غربي، يتناقض بشكل مباشر مع خصوصية معظم المجتمعات الآسيوية، وتركيزها على ما يميز شعبًا ما عن شعبٍ آخر"[15]. فبينما يؤمن الغرب أن هناك مجموعة أساسية من القيم والمعتقدات، مثل الفردية individualism، والليبرالية liberalism، والمساواة equality، والحرية liberty، وسيادة القانون rule of law، والديمقراطية democracy، وحرية السوق free markets، والفصل بين الكنيسة والدولة separation of church and state، يجب أن تتبناها الإنسانية جمعاء، تُثمِّن الثقافات الآسيوية، غاليًا، مجموعاتها الفريدة من القيم والمعتقدات التي تميزها عن غيرها من الشعوب.

في النسخة المطولة من مقالته، التي صدرت في كتاب بعنوان صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order، يحدد هانتينغتون خمسة جوانب رئيسية من جوانب الاختلاف بين المجتمعات الغربية والكونفوشيوسية. أولاً، تعكس الثقافات الكونفوشيوسية روحًا تعزز "قيم السلطة، والتراتب الهرمي، وثانوية الحقوق والمصالح الفردية، وأهمية الإجماع، وتجنُّب المواجهة، وحفظ ماء الوجه، وبشكل عام، الإيمان بسيادة الدولة على المجتمع، وسيادة المجتمع على الفرد". ويشير هانتينغتون إلى التناقضات بين هذه القيم "وإيمان الأمريكيين بالحرية، والمساواة، والديموقراطية، والفردية"، وعلاوة على ذلك، "ميل الأمريكيين إلى عدم الثقة بالحكومة، ومعارضة السلطة،

وتعزيز آليات التحقق والتوازن، وتشجيع المنافسة، وتقديس حقوق الإنسان"[16].

ثانيًا، الثقافة الكونفوشيوسية، التي تمثل الصين مركزها الرئيسي، تُعرِّف الهوية بمفهوم عِرقي: "إن الصينيين هم أولئك الذين يشتركون في العِرق والدم والثقافة". ويشير هانتينغتون إلى أن الصينيين يطرحون ذلك المبدأ بشكل استفزازي، حيث يقولون: "إن هوية الصينيين، والمنحدرين من أصول صينية الذين يعيشون في مجتمعات غير صينية، تتحدد من خلال اختبار المرآة: انظر في المرآة، تعرف من أنت". هذا المفهوم المنبثق عن الثقافة الكونفوشيوسية/الصينية، يجمع بين نقيضين، فهو ضيقٌ للغاية، وفي الوقت نفسه، فضفاضٌ للغاية. لهذا، فهو يقود الحكومة الصينية إلى الإيمان بأن "الأشخاص المنحدرين من أصول صينية، هم أعضاء في المجتمع الصيني، ومن ثمَّ فهم يخضعون لسلطة الحكومة الصينية، إلى حدٍ ما، حتى لو كانوا يحملون جنسية بلد آخر"[17].

ثالثًا، وتمشيًا مع هذا المفهوم، يرى هانتينغتون أن رؤية الصين للشؤون الخارجية هي في الأساس امتداد لمفهومها للنظام الداخلي، حيث يعكس كلاهما التأكيد الكونفوشيوسي على تحقيق التناغم من خلال التراتب الهرمي، الذي يحتل الزعيم الصيني قمته. وكما قال كونفوشيوس، مثلما "لا يوجد شمسان في السماء، لا يمكن أن يكون هناك إمبراطوران على الأرض"[18]. رابعًا، وبينما تُسْقِط الصين نظامها الداخلي على الخارج، فإنها تعاني إحساسًا غريزيًا بعدم الثقة في أي تدخل خارجي في شؤونها الداخلية. وكما يُستدلّ من بعثة ماكارتني الفاشلة إلى الصين في القرن الثامن عشر، فإن الصينيين، حتى قبل قرن الإذلال بوقت طويل، كانوا يتعاملون بحذر مع الأجانب الذين هبطوا على شواطئهم. فقد منعوهم من تعلم اللغة الصينية أو العيش وسط المواطنين الصينيين العاديين. وتمتد خيوط الشك والارتياب هذه إلى عصرنا الحالي. المؤرخ الأميركي كرين برينتون Crane Brinton يجسد عمق الاستياء من هذا السلوك في واحدة من

حكايات كتابه "تشريح الثورة": "سوف نحمل نحن الأميركيون، لفترة طويلة، وِزْر تلك اللوحة التي كانت مرفوعة عند مدخل حديقة عامة في شنغهاي، وقد كتب عليها: (ممنوع دخول الكلاب والصينيين)"[19]. على نحو مشابه، وكما أخبر نائب عمدة شانغهاي أحد أصدقائي: "سوف أعرف أن الصين قد عادت دولة غنية مرة أخرى، عندما يكون في كل بيت من بيوت الطبقة المتوسطة العليا في شنغهاي خادم أمريكي". ويرى هانتينغتون أن ذكريات الماضي هذه عززت الإجماع الواسع النطاق "بين الزعماء والمفكرين الصينيين على أن الولايات المتحدة تسعى إلى تفتيت الصين جغرافيًا، وتقويضها سياسيًا، واحتوائها استراتيجيًا، وإحباطها اقتصاديًا"[20].

خامسًا وأخيرًا، يلاحظ هانتينغتون أن الصينيين، كأعضاء في مجتمع تتواصل حلقات عمره منذ آلاف السنين، يعتمدون مقاييس زمنية تختلف عن المقاييس التي يعتمدها الغربيون، اختلافًا جوهريًا. فالصينيون، على حد تعبيره، "يفكرون في تطوير مجتمعهم على مدار القرون والألفيَّات، وإعطاء الأولوية لتعظيم المكاسب الطويلة المدى"، وهذا النمط في التفكير يقابله نقيض في المعتقدات الأمريكية التي تمنح أولوية لنسيان الماضي، وتجاهل المستقبل، والتركيز على تعظيم المكاسب الفورية أو الآنيَّة"[21].

إن الملامح الخمسة للحضارة الكونفوشيوسية، التي حددها هانتينغتون، شاملة وكاسحة لا محالة، لكنها تحدد الخطوط العريضة المتينة للثقافة الصينية التي استمرت عبر القرون. والأكثر من ذلك، أن هذه الملامح هي بمثابة مؤشرات للعناصر التي تجعلها متميزة، وفي بعض الأحيان، غير متوافقة، مع ثقافات دول غربية مثل الولايات المتحدة. إذا ما تخطاك منافسٌ تجمعك به قيم مشتركة، فهذا أمر يمكن التسامح معه، مثل بريطانيا عندما تفرجت بحسدٍ ومرارة، على الدولة المحدثة النعمة، الولايات المتحدة، وهي تتفوق عليها وتتخطاها، ولكن مع الحفاظ على نفس المعتقدات الثقافية والدينية والسياسية إلى حد كبير. بينما سيكون من غير المقبول أن يتفوق

عليك الخصم الذي تختلف قيمُه عن قيمِك بشكل مذهل. وقد تحدثت هيلاري كلينتون بلسان حال معظم الأميركيين عندما قالت: "لا أريد أن يعيش أحفادي في عالم يهيمن عليه الصينيون"[(22)]. لنفهم كيف يمكن أن تتحول الاختلافات الواسعة في الميول الثقافية إلى مواجهة، يجب أن ندرس عن كثب كيف ينظر كل من الأمريكيين والصينيين إلى طبيعة الحكومة وهدفها، من مُنطلَقين مختلفين تمامًا[(*)].

(*) ينظر كثيرون، لست واحدًا منهم، إلى ما يجري في الصين منذ صعود شِي جين بينغ، باعتباره تجربة فريدة أو منفردة، في عالم ظن البعض أنه المرحلة الأخيرة من مراحل التاريخ. وهنا أقصد تجربة النظام الجمهوري الذي يخلق لنفسه شرعية دستورية جديدة، من خلال إعادة إحياء نظام إمبراطوري سقط منذ عقودٍ طويلةٍ جدًا، على يد نظام جمهوري سالف. إن ما يحدث في تركيا أردوغان، لا يختلف كثيرًا عما يحدث في صين شِي جين بينغ، فالرئيس التركي ينفخ في رماد الإمبراطورية العثمانية، والرئيس الصيني ينفخ في رفات إمبراطورية شينغ، وسلاح الرئيسين/النافخيْن واحد: التذكير المُلِحّ بأمجاد الماضي البعيد، والضغط الأكثر إلحاحًا على آلام ومرارة جراح الماضي القريب، أو الأقل بُعْدًا، قرن الإذلال والمهانة بالنسبة للصينيين، ومائدة تمزيق أشلاء الإمبراطورية العثمانية وتقاسم أطرافها، بالنسبة للأتراك. لهذا، يجب ألا نشعر بأي نوع من الدهشة عندما يأمر شِي بتدريس التعاليم الكونفوشيوسية لكوادر الحزب الشيوعي وطلاب المدارس والجامعات، أو عندما نرى ونسمع أردوغان وهو يتغنى ليلاً ونهارًا بأمجاد الدولة العثمانية. وإذا كان شِي يغلِّف أحلامه الإمبراطورية بغلاف من الماركسية التي يصفها بأنها صينية خالصة، فإن أردوغان يغلِّف سعيه الحثيث إلى إعادة الخلافة، مضمونًا لا شكلاً وتسمية، بغلالة شفافة من علمانية أتاتورك. وكما يُعْلي شِي من شأن الفكر الكونفوشيوسي الذي يقرر صراحة أنه "مثلما لا يوجد شمسان في السماء، لا يمكن أن يكون هناك إمبراطوران على الأرض"، يُعْلي أردوغان، وإن بشكل أقل جرأة وأكثر خبثًا، من شأن آراءٍ ترى في الخلافة أصلاً من أصول الدين، وليس مجرد شكل من أشكال النظم السياسية. جهود الزعيمين التي قد تبدو، لقُصّار النظر، مختلفة، أثمرت ثمرتين متطابقتين، في موسم حصاد واحد: ففي 21 كانون الثاني/يناير 2017، أقرّ البرلمان التركي تعديلات تعزز صلاحيات الرئيس وتُضاعفها، وتتيح له البقاء في الحكم حتى عام 2029، وربما إلى ما بعدها. وفي 11 آذار/مارس من العام 2018، أقرَّ البرلمان الصيني تعديلات أكثر جرأة وصراحة من تعديلات مثيله التركي، فقد ألغى البرلمان الصيني أية قيود على عدد فترات الرئاسة، ليفتح الباب أمام شِي، الذي جمع كافة السلطات في يده، للبقاء رئيسًا للبلاد مدى الحياة. وكم كنتَ مخطئًا يا مستر فوكوياما، فالتاريخ لم ينته، بل إنه، بشكل أو بآخر، وفي أكثر من مكان، يعود إلى الوراء، أو بتعبير أكثر دقة، يعودُ إلى بعضِ ما كان، ليمنحه دورة حياة أخرى. (المُعرِّب)

الولايات المتحدة والصين

من نحن؟ ما هو مكاننا الصحيح في العالم؟ ما الذي يُشكِّل النظام، سواء داخل مجتمعنا أو في العلاقات مع الدول الأخرى؟ تحمل الإجابات القصيرة على هذه الأسئلة العميقة مخاطر التشويه الكاريكاتوري، لكنها تسلط الضوء على الاختلافات الجوهرية بين أمريكا والصين. إن هذه التناقضات، وفي بعض الحالات التضاربات، وبمعزل تام عن الضغوط البنيوية لفخ ثيوسيديديز، تجعل إدارة العلاقات بين الولايات المتحدة والصين أمرًا بالغ الصعوبة.

وعلى الرغم من الاختلافات العديدة بينهما، فإن الولايات المتحدة والصين متشابهتان في أمر واحد على الأقل: كلاهما يعاني عقدة تفوُّق هائلة. وكل منهما يعتبر نفسه استثنائيًا، أو حرفيًا، لا نظير له. وفي حين تجسد عبارة محمد علي(*) الشهيرة "أنا الأعظم" الاختيال الأمريكي، فإن نظرة الصين إلى نفسها باعتبارها حلقة الوصْل الفريدة بين السماوات والبشر، ربما تكون أكثر بعدًا عن التواضع (من مجرد اختيال أو عجرفة)(**) إن الصدام بين هذين المتنافسيْن اللذين يحتلان المركز الأول، يتطلب تعديلات مؤلمة. فأي الأمرين سوف يكون أكثر صعوبة وإيلامًا، أن يقبل الصينيون نسخةً جديدةً معدلةً من علم الكونيّات cosmology، تعترف بوجود شمسين في الكون؟ أم أن تقبل الولاياتُ المتحدة التعايش مع قوة عظمى أخرى، أو ربما أكثر تفوقًا منها؟ وقد أعرب لي كُوان يِو عن شكوكه حول قدرة أمريكا على التكيف مع واقع جديد: "إن اقتلاع أمريكا، ليس من العالم، ولكن من غرب المحيط الهادي فقط، على أيدي شعب آسيوي طالما

(*) المقصود هو محمد علي كلاي Muhammad Ali Clay (17 كانون الأول/يناير 1942 - 3 حزيران/يونيو 2016)، الملاكم الأمريكي الأسطورة، الذي أجمع النقاد والمؤرخون الرياضيون على أنه أعظم رياضي في القرن العشرين. (المُعرِّب)

(**) أضفتُ الجملة بين القوسين إلى النص الأصلي بهدف مزيد من الإيضاح للمقارنة التي تتضمنها الفقرة. (المُعرِّب)

احتقره الأمريكيون، شعب آسيوي عومل بازدراء لزمن طويل، ونُبِذ باحتقار باعتباره ضعيفًا، وفاسدًا، وغير كفؤ، أمر يصعب جدًا قبوله. إن إحساس الأمريكيين بالتفوق الثقافي، سوف يضاعف من صعوبة هذا التعديل"[23].

في بعض النواحي، يبدو الإحساس الصيني بالتميز والاستثنائية أكثر حدة من نظيره الأمريكي. "لقد كانت الإمبراطورية الصينية ترى نفسها مركزًا للكون المتحضر"، على حد تعبير الباحث هاري غيلبر Harry Gelber، الذي يضيف: "لم يكن العالِم أو البيروقراطي الصيني يفكر في الصين أو الحضارة الصينية، بالمعنى الحديث على الإطلاق. فبالنسبة له، كان هناك شعب الهان(*) Han People فقط، وكل مَن عداهم هم مجرد "همجيين". فكل مَن لم يكن متحضرًا، لم يكن له سوى تعريف واحد "همجي"[24]. وكما يرصد كيفين رود، يشعر الصينيون بالفخر بقدرتهم على الصمود وبإنجازاتهم الحضارية، وهذا الإحساس بالتميُّز والاستثنائية يفسر أسلوبَهم الخاص في التفكير، حيث استطاعوا تخليقَ فكرٍ فلسفيٍ يقوم على تبجيل الذات[25].

على المقلب الآخر، يبجِّل الأمريكيون إنجازاتهم الحضارية، خاصة السياسية منها، بحماسة تكاد تكون دينية. لقد منحهم التاريخ الثوري للبلاد، شغفًا بالحرية، يصعب أن تجد له نظيرًا حول العالم. وهو شغف مكرس في جوهر العقيدة السياسية الأمريكية ودرّتها، إعلان الاستقلال، الذي يقرر أن "كل البشر خلقوا سواسية" وأن الخالق "منحهم حقوقًا معينة غير قابلة للتصرف فيها". وينص الإعلان على أن هذه الحقوق تشمل "حق الحياة، وحق الحرية، وحق السعي وراء السعادة"، وأن هذه الحقوق

(*) يُقصد بالهان في الأصل السلالة أو الأسرة الإمبراطورية، التي حكم أبناؤها الصين من عام 206 قبل الميلاد إلى عام 220 ميلادية، وإن تخللتها بعض أوقات الضعف القصيرة جدًا، ضاع خلالها الحكم من أيديهم. خلال تلك الفترة، توسعت الصين جغرافيًا، حيث ضمت منطقة منغوليا إلى أراضيها، وخلال الفترة نفسها تبنت الدولة، رسميًا، العقيدة الكونفوشيوسية. ورغم قِدَم هذه الحقبة، فقد استطاع أباطرتها، من خلال منظومة إدارية وثقافية مُحكمة، الاحتفاظ بكثير من الوثائق التي تلقي الضوء على صين الهان. في عصرنا هذا، غالبًا ما يُقصد بتعبير شعب الهان، العِرق الذي تنتمي إليه الغالبية العظمى من الصينيين. (المُعرِّب)

أمريكا والصين: صدام ثقافتين

	أمريكا	الصين
النظرة الذاتية	الدولة رقم واحد	مركز الكون
القيمة الأساسية	الحرية	النظام
النظرة إلى الحكومة	شر لا بد منه	خير لا بد منه
شكل الحكومة	جمهورية ديمقراطية	استبدادية تجاوبيّة
النموذج الأصلي	تبشيري	لا يضاهى
الموقف من الأجانب	استيعابي	إقصائي
الأفق الزمني	الحاضر	الأبدية
وسيلة التغيير	الاختراع	الترميم والتطور
السياسة الخارجية	النظام الدولي	التراتبية المتناغمة

ليست مسألة رأي، بل هي "حقائق بديهية". ففي سعيه إلى أن يشرح لزملائه في مجلس اللوردات البريطاني دوافع المتمردين في المستعمرات الأمريكية، قال ويليام بيت الأكبر William Pitt the Elder: "إن هذه الروح الاستقلالية التي تحفز الأمة الأمريكية، ليست جديدة عليهم، إنها، بالنسبة لهم مبدأ راسخ، وستبقى هكذا إلى الأبد. إنهم يفضلون الفقر مع الحرية، على السلاسل الذهبية والغنى القذر، وهم مستعدون للموت دفاعًا عن حقوقهم كرجال، بل كرجال أحرار"[26]. وكما يقول المؤرخ الاجتماعي الأمريكي المعاصر الكبير ريتشارد هوفستادتر Richard Hofstadter: "إن قَدَرنا كأمة هو ألا تكون لنا أيديولوجية، بل أن نكون نحن، في حد ذاتنا، أيديولوجية"[27].

في المقابل، تلتزم الصين بالوصية الأولى لكونفوشيوس: "اعرَفْ مكانك"[28]. فالنظام هو القيمة السياسية المركزية بالنسبة للصينيين، وليس للنظام بديل سوى الفوضى. وينشأ النظام المتناغم من خلال التراتب الهرمي، الذي لا يملك فيه كل فرد في المجتمع مكانًا، فقط، بل إنه يعرف

هذا المكان جيدًا. في الصين التقليدية، كان الإمبراطور مسؤولاً عن الحفاظ على هذا النظام، من خلال موقعه على قمة التراتبية الهرمية للمجتمع. وكما يشرح هنري كيسنجر، "كان الإمبراطور الصيني حاكمًا سياسيًا ومفهومًا ميتافيزيقيًا في آنٍ واحد. كان الصينيون ينظرون إلى الإمبراطور باعتباره المحور الرئيسي للتناغم العظيم بين كل الأشياء، كبيرة كانت أو صغيرة"[29]. ومن ثَمّ، فإن الحرية، وفقًا للمفهوم الأمريكي لهذا المصطلح، يمكن أن تُسبب إرباكًا للتراتبية الهرمية، كما يمكن أن تكون بمثابة دعوة إلى الفوضى.

تنعكس هذه الاختلافات الفلسفية بين الصين والولايات المتحدة على مفهوم الحكومة لدى كلٍ منهما. وقد لُخصت الفكرة الأمريكية في كتيب كان الأوسع انتشارًا والأكثر قراءة خلال الثورة الأمريكية: الفطرة السليمة Common Sense، تأليف توماس باين Thomas Paine. فقد أوضح باين في كتيِّبه أن "المجتمع في أية دولة هو نعمة، بينما الحكومة، حتى في أفضل حالاتها، ليست سوى شرٍ لا بد منه، وهي في أسوأ حالاتها شرٌ لا يمكن تحمُّله"[30]. ومع أن الآباء المؤسسين لأمريكا كانوا ينطلقون من إحساس عميق بعدم الثقة في السلطة، فقد أدركوا أن المجتمع يحتاج إلى حكومة. فمَن سوى الحكومة يستطيع أن يحمي المواطنين من التهديدات الأجنبية، ومن انتهاك حقوقهم على أيدي مجرمين من أبناء وطنهم؟ لكنهم وجدوا أنفسهم في صراع مع معضلة حقيقية: إن أية حكومة قوية إلى حدٍ يكفي لأداء وظائفها الأساسية، سوف تجنح إلى الطغيان. ولمواجهة هذه المعضلة، صمم الآباء المؤسسون حكومة تتكون من "مؤسسات منفصلة، تتقاسم السلطة في ما بينها"، كما يقول ريتشارد نويشتات[31]. وقد أدى هذا، تدريجيًا، إلى صراعات متواصلة بين الأفرع التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، وهو الأمر الذي يعني تأخيرًا، وارتباكًا، بل وحتى اختلالاً وظيفيًا. غير أنه، في الوقت نفسه، وفَّر ضوابط وتوازنات، تَحول دون إساءة استخدام السلطة. وقد عبَّر القاضي لويس برانديس عن هذه المعادلة

(ببلاغة)[*] حين قال: "لم يكن هدفهم رفع الكفاءة، ولكن منع الممارسة التعسفية للسلطة".

أما التصور الصيني للحكومة ودورها في المجتمع فهو مختلف تمامًا عن مثيله الأمريكي. فقد علّم التاريخ الصين قيمة النظام وحتمية الدور الحكومي في إرساء دعائمه. وكما يقول لي كُوان يِوْ، "إن سجلاّت البلاد التاريخية والثقافية تظهر لنا أنه عندما يكون المركز قويًا (سواء في بيجين أو نانجينغ)، يكون البلد آمنًا ومزدهِرًا. وعندما يكون المركز ضعيفًا، تسقط المحافظات والمقاطعات في أيدي أمراء حرب صغار"[32]. وبناء على ذلك، فإن الحكومة المركزية القوية التي يرى الأمريكيون أنها شرٌ لابد منه، يرى فيها نظراؤهم الصينيون العاملَ الأساسي لتعزيز النظام، وتحقيق الصالح العام في الداخل والخارج.

بالنسبة للأمريكيين، فإن ديمقراطية "حكم الشعب، بالشعب، وللشعب"، هي الشكل الشرعي الوحيد للحكومة. وهي مطلوبة لحماية حقوق المواطنين، وإتاحة فرص الازدهار أمامهم. وكما قال توماس جيفرسون Thomas Jefferson: "إن النظام الجمهوري هو الشكل الوحيد للحكومة، التي لا تتورط أبدًا، في حرب معلنة أو سرية ضد حقوق الإنسان"[33]. إن

(*) هكذا جاء الوصف في النص الأصلي، وقد نقلتُه إلى العربية كما هو، رغم أنني لا أرى في هذه العبارة أي وجه من أوجه البلاغة. فهل تقف شخصية قائل هذه العبارة وراء حرص المؤلف على اختيارها، ووصفها بهذا الوصف المبالغ فيه؟ ربما. فلويس ديمبيتز براندايز Louis Dembitz Brandeis (13 تشرين الثاني/نوفمبر 1856 - 5 تشرين الأول/أكتوبر 1941) يهودي أمريكي من أصل تشيكي، عمل أستاذًا للقانون، وقاضيًا بالمحكمة الدستورية العليا، كما كان واحدًا من أشهر زعماء الحركة الصهيونية العالمية، إذ انخرط ضمن صفوفها منذ سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، وبقي مخلصًا لها، ناشطًا بين صفوفها حتى وفاته. كان برانداي مقربًا من دوائر صنع القرار في البيت الأبيض، خاصة خلال عهد وودرو ويلسون Woodrow Wilson، الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة، وهو الأمر الذي أتاح له لعب دور كبير ومؤثر في دفع الولايات المتحدة إلى المشاركة في الحرب العالمية الأولى. كانت دوافع برانداي صهيونية شخصية بحتة، حيث كان يرى أن دخول الولايات المتحدة سوف يعجِّل بسقوط الدولة العثمانية، التي كان يرى فيها عقبة هائلة أمام تحقيق الحلم الاستعماري الصهيوني الكبير على أرض فلسطين. وقد كان له ما أراد أولًا وثانيًا، فقد سقطت الدولة العثمانية في حياته، وقام الكيان الصهيوني بعد رحيله. (المُعرِّب)

الشرعية السياسية لأية حكومة، وفقًا لما يؤمن به الأمريكيون، لا يمكن أن تُسْتَمَدَّ إلا من موافقة المحكومين ورضاهم.

وجهة النظر هذه، يختلف معها معظم الصينيين، فهم يعتقدون أن الشرعية السياسية تأتي من الأداء. ففي حديثه المثير للجدل "قصة نظامين سياسيين"، المرفوع على موقع حوارات تيد(*) TED Talk، يتحدى رأسماليُّ شانغهاي الشهير إريك لي Eric Li فكرة التفوُّق المفترض للديمقراطية قائلاً: "سُئلت مرة، إن الحزب لم يتم اختياره من خلال عملية انتخابية، من أين إذًا يستمد شرعيته؟ قلت، ماذا عن عنصر الكفاءة؟"، ويتابع لي مُذكِّرًا جمهوره: "كلنا نعرف الحقائق، فعندما تولى الحزب السلطة عام 1949، كانت الصين غارقة في حرب أهلية، وقد مزقت القوى الأجنبية أوصالها، ولم يكن متوسط العمر المتوقع، في ذلك الوقت، يتجاوز 41 سنة. اليوم، تمتلك الصين ثاني أكبر اقتصاد في العالم، وهي قوة صناعية كبرى، ويعيش سكانها في ازدهار متزايد"[34]. باختصار، من الأداء، يستمد نظام الحزب الواحد شرعيته.

لقد صُوِّرَت حكومة أمريكا على أنها جمهورية ديمقراطية، في حين أن أفضل ما يمكن أن توصف به الصين، هو أنها استبدادية تجاوبية(**) responsive authoritarianism، سواء عندما كانت تحت إمرة أباطرة شينغ أو بعد أن أصبحت تحت حكم زعماء الحزب الشيوعي. لقد أصبحت التصورات

(*) الحروف الثلاثة الأولى للكلمات الثلاث تكنولوجي Technology، ترفيه Entertainment، تصميم Design، وهو اسم مؤسسة إعلامية غير ربحية، تعمل بشكل أساسي على شبكة الإنترنت منذ عام 1984، من خلال موقعها المعروف www.TED.com. أسس هذه الشبكة المهندس المعماري ومصمم الرسومات الأمريكي ريتشارد سول وارمان Richard Saul Wurman، لتكون منتدى مفتوحًا لتبادل الآراء المختلفة، وطرح الأفكار البناءة في شتى مجالات الحياة. ولدعم هذه الرسالة، تقدم المؤسسة كل عام جائزة مالية تتجاوز ربع مليون دولار، لصاحب فكرة أو حلم مفيد للبشرية، بغرض مساعدته على تحقيق هذا الحلم. كما ترفع المؤسسة كافة أحاديث المشاركين فيها على موقعها، مصحوبة بترجمة إلى معظم لغات العالم، ومن بينها اللغة العربية. (المُعرِّب)

(**) مصطلح سياسي حديث نسبيًا، يُقصد به نوعية خاصة من النظم الاستبدادية حيث لا يكون الاستبداد مطلقًا، ولا تكون قرارات النظام وخياراته نابعة منه بشكل كامل. فوفقًا لمعظم

المتنافسة للشرعية السياسية نقطة خلاف مؤلمة في العلاقات بين الولايات المتحدة والصين. وقد أوجز هنري كيسنجر هذه المسألة إيجازًا ذكيًا: "لقد أقحمت القناعةُ بأن المبادئ الأمريكية مبادئ عالمية عنصرًا صعبًا في النظام الدولي، حيث يعني التسليم بهذه الفكرة أن الحكومات التي لا تلتزم بها، لا تتمتع بشرعية كاملة"[35]. ويشرح كيسنجر كيف أن هذا المبدأ، الذي نأخذه كأمرٍ بديهي أو حقيقةٍ مسلَّمٍ بها، يُولِّد، كما هو متوقع، السخط والاستياء بين الأمم التي أُريد لها أن تشعر أنها تعيش في ظل نظام سياسي غاشم، منتظرةً خلاصها على يد القيم الأمريكية .وغني عن القول إن هذا النوع من الطهارة أو الفضيلة، لا يجد لنفسه سوقًا رائجة في الصين.

تتبنّى الولايات المتحدة والصين، على الساحة الدولية، مقاربات مختلفة تمامًا، عندما يتعلق الأمر بتعزيز القيم السياسية الأساسية الخاصة بكل منهما. فالأمريكيون يعتقدون أن حقوق الإنسان والديمقراطية طموحات عالمية، لا تحتاج إلا إلى النموذج الذي تمثله أمريكا (وقد تحتاج أحيانًا إلى وكزة إمبريالية أو استعمارية)[*] كي تتحقق وتنتشر في كل مكان. لهذا السبب، يعتبر هانتينغتون أن "الولايات المتحدة أمة تبشيرية missionary nation، يقودها الإيمان بأن الشعوب غير الغربية يجب أن تلتزم بالقيم الغربية للديمقراطية، وحرية السوق، والحكومة المحدودة، وحقوق الإنسان، والفردية، وسيادة القانون، كما يجب أن تغرس هذه القيم في مؤسساتها"[36]. وفي ما يشبه إلى حد كبير اعتقاد تيدي روزفلت Teddy Roosevelt في بدايات القرن العشرين بأن انتشار القوة الأمريكية يمثل انتشارًا للحضارة نفسها، يؤمن معظم الأمريكيين في أوائل القرن الحادي

الدراسات التي تصدَّت لهذه النوعية من الأنظمة، تتأثر قرارات النظام، رغم استبداديتها، ببعض العوامل المجتمعية، غير أن طريقة هذا التأثير، ودرجاته، وآثاره الحقيقية، لا تزال أمورًا يكتنفها كثير من الغموض، خاصة في ما يتعلق بالصين. (المُعرِّب)

(*) وكزةٌ صغيرةٌ مُحِبَّةٌ، من اليد الأمريكية الحانية الرقيقة، على غرار ما حدث في أفغانستان، والعراق في الماضي القريب، وما يراد له أن يحدث في سوريا حاليًا، أو في المستقبل القريب. (المُعرِّب)

والعشرين بأن ممارسة الحقوق الديمقراطية ستفيد أي شخص، في أي مكان في العالم. وعلى مدار القرن العشرين، ترجم القادة في واشنطن ذلك الاعتقاد إلى سياسة خارجية سعت إلى تعزيز قضية الديمقراطية، حتى أنها، في بعض الأحيان، حاولت فرضها على أولئك الذين فشلوا في اعتناقها بإرادتهم(*).

في المقابل، يعتقد الصينيون أن الآخرين يجب أن يتطلعوا إليهم، وأن يُظهِروا إعجابهم بفضائلهم، بل وأن يحاولوا تقليد سلوكهم. لكنهم لا يحاولون تحويل هؤلاء الآخرين إلى هذه القيم. وكما يلاحظ كيسنجر، "لم تُصدِّر الصين أفكارها، ولكنها سمحت للآخرين بأن يسعَوا في طلب هذه الأفكار. ويؤمن الصينيون أن الشعوب المجاورة، باعترافها بسيادة وسلطان الحكومة الصينية، قد استفادت من التواصل مع الصين وحضارتها، وأن أولئك الذين لم يفعلوا ذلك، بقوا على حالهم، همجًا"[37].

كما أن الزعماء الصينيين مرتابون بشدة من الجهود الأمريكية لتحويلهم. وقد حذر دنغ شياو بينغ، وهو جد تحرير الاقتصاد الصيني، رفاقه من أعضاء الحزب الشيوعي الصيني قائلاً: "إن حديثهم عن حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية لا يُراد منه سوى حماية مصالح البلدان القوية والغنية، التي تستغل قوتها لممارسة البلطجة على البلدان الضعيفة، والتي تسعى إلى الهيمنة، وتمارس سياسة القوة[38].

تتطابق المواقف الصينية تجاه الأنظمة السياسية الأجنبية، مع وجهات النظر الصينية تجاه الأجانب بشكل عام. فالمجتمع الأمريكي مجتمع استيعابي inclusive، بينما المجتمع الصيني مجتمع إقصائي exclusive.

(*) شيء طيب أن يعترف المؤلف بأن الولايات المتحدة سعت إلى فرض الديمقراطية، أي أنها سعت إلى تطبيق النموذج الأمريكي بالقوة، ولست أدري كيف يمكن أن تكون عملية الفرض بالقوة أو بالإكراه نوعًا من الدعم للديمقراطية التي تقوم على الاختيار الحر! غير أنه ليس أمرًا طبيًا أن يتجاهل الاعتراف بحقيقة أن جميع تلك المحاولات لم تنته بالفشل فقط، بل أودت بالدول التي كانت مسرحًا لكل واحدة من تلك المحاولات إلى أوضاع أسوأ بكثير جدًا مما كان عليه قبل أن تتفضَّل عليه "ماما أمريكا"، وتتدخَّل فيها محاولةً دَمَقْرطتِها. (المُعرِّب)

وباعتبار أن أمريكا "أمة من المهاجرين"، يفخر معظم الأمريكيين بحقيقة أنه في مقدور أي شخص أن يصبح أمريكيًا. فكما كتب جورج واشنطن George Washington عام 1783، "إن حضن أمريكا مفتوح، ليس فقط لاستقبال الغريب الغني الذي يحظى بسمعة طيبة، ولكن لاستقبال المقهورين والمضطهدين من أبناء جميع الأمم، وأتباع كافة الأديان، الذين سنرحب بمشاركتهم إيانا جميع حقوقنا وامتيازاتنا، إذا أثبتوا، باللياقة والسلوك الطيب، أنهم يستحقون التمتع بتلك الحقوق والامتيازات"[39]. على النقيض من ذلك، لكي يكون الشخص صينيًا، يجب أن يكون قد وُلِد صينيًا. (الانعكاسات العملية لهذا الاختلاف بين الاستيعاب والإقصاء واضحة)[*] فأسواق العمل الأمريكية مفتوحة، وتعددية، ومرنة، وهو ما يوفر للأمة ميزة ملحوظة في المنافسة العالمية على اجتذاب المواهب: لقد أسَّس المهاجرون، في عام 2016، نصف الشركات الأمريكية الناشئة البالغ عددها 87 شركة، والتي تقدر قيمتها بأكثر من مليار دولار[40].

إن الأفقين الزمنيين الأمريكي والصيني، أي إحساس كل منهما بالماضي والحاضر والمستقبل، مختلفان اختلاف الليل والنهار. فبينما يتطلع الأمريكيون إلى الاحتفال بعيد ميلاد بلادهم رقم 250 في عام 2026، يشير الصينيون، بفخر، إلى أن تاريخهم يمتد على مدى خمسة آلاف عام. وبينما يدرك الأمريكيون أن أمتهم قد وُلِدت يوم 4 تموز/يوليو 1776، لا يعرف الصينيون تاريخًا محددًا لتكوين بلدهم أو نشوئه. وهكذا، وعلى عكس كل الدول الأخرى التي تتتبَّع تَطوُّرها على طول مسيرة حافلة بالصعود والهبوط، ترى الصين نفسها كمحور للكون: لقد كانت الصين دائمًا، وستبقى أبدًا. وبينما يستند القادة الأمريكيون إلى "التجربة الأمريكية"، ويبنون عليها سياساتهم العشوائية في بعض الأحيان، يرى الزعماء الصينيون أنفسهم، على النقيض من ذلك، أوصياءً على ميراث مقدس، ويتصرفون وفقًا لذلك.

(*) أضَفتُ الجملة الموجودة بين القوسين من عندي، لضمان وصول المعنى الذي يقصده المؤلف من طرح الأرقام الخاصة باستثمارات المهاجرين في أمريكا. (المُعرِّب)

وبسبب إحساس الصينيين الفسيح والممتد بالوقت، فهُم يحرصون على التمييز بين الخطير والمُزْمِن، وبين العاجل والمهم. فهل يمكن لأي شخص أن يتخيل زعيمًا سياسيًا أمريكيًا يقترح وضع مشكلة من المشاكل الرئيسية في مجال السياسة الخارجية على الرف لجيل كامل، كما فعل دنغ شياو بينغ مع اليابان في مسألة جزر سينكاكو/دياويو، عندما قَبِل الانتظار حتى إيجاد حل نهائي للنزاع، بدلاً من الإصرار على الحل الفوري؟ لقد أصبح السياسيون الأمريكيون أكثر حساسية لمتطلبات ماكينة الإخبار التي لا تكف عن الدوران، وأكثر ضعفًا أمام ضغوط الرأي العام، لذلك يسعون إلى وضع خططٍ سياسية شاملة ودقيقة ومحددة، تَعد بإيجاد حلول سريعة. أما الصينيون فيمتلكون صبرًا استراتيجيًا: فطالما أن اتجاهات الأحداث تتحرك لصالحهم، فإنهم يشعرون بالراحة وهم ينتظرون خارج حدود المشكلة.

يعتبر الأمريكيون أنفسهم حلّالي عقدٍ ومشاكل. وفي انعكاس لما يتميزون به من نزعة إلى التعامل مع الآجال القصيرة والأبعاد القريبة short-termism، ينظرون إلى المشاكل كمسائل منفصلة يجب معالجةُ كل منها، وحلُّها، الآن، حتى يتمكنوا من الانتقال إلى القضايا التالية. وفي هذا الشأن يقول لي كُوان يِو إنهم: "عندما يفشلون، يستجمعون أنفسهم ويبدأون من جديد. فالثقافة الأمريكية هي أن نبدأ من الصفر، ونتفوّق عليك. أيُّ طريقة من طرق التفكير تلك التي أوصلتهم إلى هذا الوضع! إنه جزء من تاريخهم. لقد ذهبوا إلى قارة فارغة، واستفادوا منها بأفضل ما يمكن"[41]. وفي ما أصبح معروفًا باسم الولايات المتحدة الأمنيسيّة(*)، بات كلُّ يوم "هو يوم جديد"، وكل أزمة "هي أزمة غير مسبوقة". وهو ما يتناقض بشدة مع الذاكرة الراسخة للصينيين، الذين يدركون أن لا جديد تحت الشمس.

(*) هذا هو المقابل الذي اخترتُه لتعريب مصطلح لي كوان يو United States of Amnesia، ويُقصد به الولايات المتحدة، الدولة التي فقدت ذاكرتها، أو التي تملأ ذاكرتَها فجواتٌ لأسباب مَرضية. وقد وجدتُ أن كتابة المصطلح بهذه الطريقة الاشتقاقية (الولايات المتحدة الأمنيسية)،

يعتقد الصينيون في واقع الأمر، أن كثيرًا من المشاكل يمكن التحكم فيها أو ضبطها فقط (أي دون أن يكون بالإمكان حلُّها)(*)، كما يعتقدون أن كل حل يؤدي حتمًا إلى خلق مزيدٍ من المشاكل. وبالتالي فإن التحديات طويلةُ الأجل ومترابطة. إن المشاكل التي يواجهونها اليوم نتجت عن عملية تطورت على مدار العام، أو العقد، أو حتى القرن، الماضي. وأية إجراءات سياسة جديدة تُتخذ اليوم، سوف تؤثر، ببساطة، على عملية التطور المستمر تلك. على سبيل المثال، يحكم تايوان منذ عام 1949، مَن تعتبرهم الصين "قوميين صينيين مارقين". وعلى الرغم من أن الزعماء الصينيين لا يزالون يصرون على أن تايوان جزءٌ لا يتجزأ من الصين، فهم لا يزالون راغبين في اتباع استراتيجية طويلة الأجل تتضمن تكثيف الشراكة والتداخلات الاقتصادية والاجتماعية، من أجل إعادة دمج الجزيرة ببطء في الصين.

تنبثق الفجوة بين الولايات المتحدة والصين، وهي الفجوة الأكثر ملاءمة لمواصفات فخ ثيوسيديديز، عن تصوراتٍ متنافِسة للنظام العالمي. فالصينيون يؤمنون بالتناغم من خلال التراتبية الهرمية، سواء في الداخل أو في الخارج. والطرق التي تعامل بها بكين مواطنيها هي وسيلة تعليمية شارحة ومفيدة، لمعرفة كيف سوف تتعامل الصين مع الدول الأخرى، عندما تصبح القوة المهيمنة في العالم. إن المُثُل الديمقراطية الأمريكية لا تنطبق، حتى الآن، على سياستها الخارجية. فمن ناحية، يتطلع الأمريكيون إلى سيادة قانون دولي يغلب عليه، بالضرورة، حكم القانون الأمريكي. ومن ناحية أخرى، يعترفون بواقع

يجعله على تناغم لفظي مع المصطلح الأصلي، وهو الولايات المتحدة الأمريكية United States of America، فضلًا عن أنه يحوِّل الصفة إلى اسم، مما يعني تأكيد هذه الصفة، وترسيخها. (المُعرِّب)

(*) أضَفتُ الجملة الموجودة بين قوسين من عندي، لضمان وصول المعنى الذي يقصده المؤلف، وحتى لا يختلط الأمر على القارئ، فيعتبر أن إدارة المشكلة أو التعامل معها، يعني بالضرورة التوصل إلى حل لها. (المُعرِّب)

القوة في غابة هوبز العالمية(*) global Hobbesian jungle، حيث "أن تكون أسدًا خيرٌ من أن تكون حَمَلاً". وفي كثير من الأحيان، تحاول واشنطن التخفيف من هذا التناقض من خلال رسم صورة لعالم تكون فيه الولايات المتحدة قوةً مهيمنةً خيِّرةً benevolent hegemon، تلعب دور المُشرِّع، والشرطي، والقاضي، والمحلفين.

فالأمريكيون يحثون القوى الأخرى على قبول "نظام دولي قائم على قواعد". لكن الصينيين ينظرون إلى هذا النظام باعتباره نظامًا يضع الأمريكيون قواعدَه، وعلى الآخرين تنفيذ أوامره. لقد أصبح الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة، مارتن ديمبسي Martin Dempsey، على دراية بالاستياء الذي تشعر به الصين تجاه هذه المسألة، وهو أمر لا يصعب توقعه. "من الأشياء التي تسحرني في الصينيين هو أنه عندما أتحدث معهم حول المعايير الدولية، أو قواعد السلوك الدولية، فإنهم يشيرون إلى أن تلك القواعد قد وُضِعت عندما كانوا غائبين عن المسرح العالمي". ويلفت ديمبسي الانتباه إلى أن الصينيين "لم يعودوا غائبين عن المسرح العالمي، ولذلك يجب إعادة التفاوض معهم من جديد، بشأن هذه القواعد(42)".

إذا كان هانتينغتون على صواب، وأنا أعتقد أنه على صواب، في أن الاختلافات الحضارية تصبح مع الوقت أكثر، وليس أقل، أهمية كمصدر للصراع، يجب على قادة الدولتَيْن في كل من الصين والولايات المتحدة، أن يكونوا أكثر تواضعًا في تطلُّعهم إلى ما يمكنهم تحقيقه. إن سوء الفهم أمر سهل، بينما التعاطف والتوافق أمران عسيران مراوغان. ففي عالم معولَم، وفي عصر الاتصالات الفورية والسفر السريع، الذي يجعل مهمة ماكارتني تبدو وكأنها قد جرت في العصر الحجري، لن يُشكِّل "صدام الحضارات"

(*) ترجع النسبة في هذا المصطلح إلى الفيلسوف والمنظِّر السياسي البريطاني توماس هوبز Thomas Hobbes (15 نيسان/أبريل 1588 - 4 كانون الأول/ديسمبر 1679). من أشهر مؤلفات هوبز كتاب الدولة الطاغية Leviathan، الذي يقول فيه إن أفضل وسيلة لتوفير الأمن لمجتمع مدني، هو أن يذعِن هذا المجتمع لسلطة سيادية مطلقة. (المُعرِّب)

في المستقبل مسار الدبلوماسية فحسب، بل يمكن أن يُشكِّل، أيضًا، المسار إلى الحرب.

صدام حضاراتٍ استراتيجي

لقد لاحظ صنَّاع السياسة الأمريكيون الذين شكَّلوا السياسة الأمريكية تجاه الصين، من هنري كيسنجر وبرنت سكوكروفت إلى توم دونيلون Tom Donilon مستشار الرئيس أوباما للأمن القومي، سماتٍ مميزةً في نظرة نظرائهم الصينيين إلى استخدام القوة العسكرية. ففي ما يتعلق بمبدأ شن هجوم على أحد الخصوم، أو كيفية شن هذا الهجوم وتوقيته، أثبت القادة الصينيون، في معظم الأحيان، أنهم عقلانيون وبراغماتيون. وبالتالي فإن "المنطق الذي يحكم هذا الوضع" يمثل الوسيلة الفُضْلى للحصول على إجابات لأسئلة من قبيل: متى يكون من المرجح أن ترتدع الصين عن القيام بعمل عسكري ضد الولايات المتحدة؟ أو كيف يمكن أن تتصرف الصين إذا شعرت بتهديد أو تعرضت لهجوم؟ بالإضافة إلى ذلك، تمكَّن صانعو السياسات والمحللون من تحديد خمسة افتراضات ونَزَعات توفر المزيد من المفاتيح اللازمة لفهم السلوك الاستراتيجي المحتمل للصين حال وقوع مواجهات.

أولاً، تقوم الاستراتيجية الصينية، في الحرب والسلام على حد سواء، على نهج الواقعية السياسية realpolitik بلا مواربة، ودون الالتزام بأي متطلبات جدية تُحتِّم البحث عن مبررات أو تفسيرات منطقية لسلوكها، سواء على مستوى القانون الدولي أو الأعراف الدينية. هذا الأمر يتيح للحكومة الصينية أن تكون مرنة بلا حدود، حيث ترى أنها لا تخضع لأي ضغوط للالتزام بتصرفات سابقة، وأنها محصَّنة إلى حد كبير إزاء انتقادات مَن يحاولون إبراز تناقضاتها. لهذا، على سبيل المثال، عندما وصل هنري كيسنجر إلى الصين، وجد أمامه محاورين لا يتسمون بضيق الأفق أو

التعصب الأيديولوجي، رغم التزامهم الواضح والقوي بالمصالح الوطنية للصين. ففي عام 1973، عندما شعر نيكسون وكيسنجر بضرورة وضع التسوية التي أنهت حرب فيتنام ضمن إطار "السلام المُشرِّف"، وضرورة إتاحة "فاصل زمني كافٍ" لتهدئة ردود الفعل السياسية داخل الولايات المتحدة، لم يشعر ماو بالحاجة إلى التظاهر بأنه عندما يقيم علاقات مع أمريكا الرأسمالية لتعزيز موقف الصين الشيوعية في مواجهة الاتحاد السوفياتي، إنما يعزز، بطريقة ما، توسيع الحركة الدولية الاشتراكية.

إن النهج الواقعي الذي تعتمده الصين في السياسة الدولية يمنحها ميزة على الولايات المتحدة، وتعزز هذه الميزة أيضًا نظرة الصين الاستراتيجية الشمولية إلى العالم. فالمخططون الصينيون يرون أن كل شيءٍ متصلٌ بسائر الأشياء. ووفقًا لقوانين سُنْ تسو Sun Tzu، فإن السياق المتطور الذي يظهر في إطاره وضع استراتيجي ما هو أمر بالغ الأهمية، لأنه يحدد الـ "شِي" الخاص بهذا الوضع. وشِي Shi كلمة صينية لا ترجمة مباشرة لها في أي من اللغات الغربية، غير أن أقرب ما يمكن أن توصف به هو أنها الطاقة الكامنة potential energy، أو القوة الدافعة momentum، المتأصلة في وضع معيَّن، في لحظة معينة. يدخل في إطار هذا المفهوم الجغرافيا، والتضاريس، والطقس، وتوازن القوى، وعنصر المفاجأة، والروح المعنوية، وعناصر أخرى متعددة. وكما يشرح كيسنجر: "كل عامل يؤثر على الآخر، مما يفسح المجال لتحولات خفية في القوة الدافعة والميزة النسبية"[43]. وهكذا، يقضي الخبير الاستراتيجي الماهر معظم وقته، بصبر، في "مراقبة التغيرات في المشهد الاستراتيجي وصقلها"، ولا يتحرك إلا عندما تصبح في حالة انتظام أو محاذاة مُثْلى. ثم، يضرب بسرعة، وفي توقيت دقيق، "بطاقاته التي تشبه قوسًا مشدودًا إلى أقصى مداه" (بنص كلمات سُنْ تسو)، مندفعًا بقوة تبدو غير قابلة للإيقاف، ليحطم خصمه، كَحَجَرِ طاحونٍ يسحق البَيض"[44]. بالنسبة لأي

مراقب، تبدو هذه النتيجة حتمية لا مفر منها. وكما يقول عالم الصينيَّات Sinologist(*) الفرنسي فرانسوا جوليان François Jullien، إذا اتخذ استراتيجيٌ بارعٌ إجراءً ما في اللحظة المثالية، فإنه لا يمكن حتى اكتشافه: فالعملية التي تؤدي إلى النصر عملية جرى تحديدها سلفًا، منذ فترة بعيدة(45). أو هي عملية تشبه "وضع حجر متحرك، على منحدر شديد الانحدار" كما يقول سُنْ تسو، الذي يضيف: "القوة المستخدمة هنا ضعيفة جدًا، لكن النتائج هائلة"(46).

الحرب بالنسبة للاستراتيجيين الصينيين هي في المقام الأول حرب نفسية وسياسية؛ أما الحملات العسكرية فتأتي في المقام الثاني. فوفقًا للتفكير الصيني، ربما يكون لإدراك الخصم للحقائق على الأرض، ما للحقائق نفسها من أهمية(**). إن تصوير الحضارة الصينية باعتبارها حضارة متفوقة تمثل مركز الكون، والعمل على ديمومة هذه الصورة، يردع الأعداء عن تحدي الهيمنة الصينية. كما يلعب الاقتصاد الصيني، بحجمه الكبير مقارنة بالدول الأخرى، دورًا مهمًا في كبح هذه الدول، سواء من خلال تسهيل التجارة معها، أو إغلاق الأبواب في وجهها. وإذا فشل الردع النفسي والحوافز الاقتصادية، يمكن وضع "أولئك الهَمَج" الذين يعيشون خارج حدود الصين، في مواجهة بعضهم البعض، ليتورطوا في سباق يخسر فيه الجميع باستثناء الصين. إن استنزاف قدرات العدو المادية والمعنوية، وحَشْرَه في زقاقٍ لا مَخرج منه، أفضلُ بكثير من إلحاق الهزيمة به في ساحة المعركة.

(*) مصطلح يُقصد به الباحث والمستكشف المتخصص في كل ما يتعلق بالحضارة الصينية، تمامًا مثل عالم المصريات Egyptologist، وهو الباحث والمستكشف المتخصص في كل ما يتعلق بالحضارة المصرية، القديمة طبعًا. (المُعرِّب)

(**) بعبارة أخرى، إذا عرف خصمُك حجمَ قوتك وما تستطيع هذه القوة تحقيقه حال استخدامها، ربما تكون هذه المعرفة كافية، في حد ذاتها، لتحقيق المُراد من استخدامها، دون تحريك جندي واحد، أو إطلاق طلقة واحدة، وذلك إما بسبب الخوف من التعرض لويلاتها اليوم، أو طمعًا في أن يستفيد من ميزاتها غدًا. (المُعرِّب)

لا يسعى الصينيون إلى تحقيق النصر من خلال معركة حاسمة، ولكن من خلال خطوات متتالية تهدف إلى تحسين وضعهم تدريجيًا. وهنا، نقتبس من هنري كيسنجر، مرة أخرى: "نادرًا ما غامر الزعماء الصينيون بنتيجة صراعٍ ما، اعتمادًا على صدام واحد، يُحسَم على قاعدة كل شيء أو لا شيء، حيث أن أسلوبهم أقرب إلى المناورات المتقنة، التي تمتد على مدى عدة سنوات. وبينما يُثَمِّن التقليدُ الغربي الصدامَ الحاسم للقوى الذي يعتمد على أعمال البطولة الخارقة، يؤكد النموذج الصيني على البراعة، والمراوغة، والتراكم الصبور للمكاسب النسبية"[47]. وفي تشبيه تعليمي شارح، يوضح ديفيد لاي David Lai هذه الفكرة من خلال المقارنة بين لعبة الشطرنج، ونظيرتها الصينية وِيشِي weiqi، التي غالبًا ما يطلق عليها غو go. في لعبة الشطرنج، يسعى اللاعبون إلى السيطرة على المركز وقهر الخصم. بينما يسعى اللاعبون في لعبة وِيشِي إلى محاصرة الخصم. وإذا كان لاعب الشطرنج الجيد يستطيع أن يرى، أو يتوقع، خمس أو ست خطوات أو نقلات مقدمًا، يستطيع لاعب الوِيشِي الماهر أن يرى، أو يتوقع، عشرين أو ثلاثين نقلة. فالاستراتيجي الصيني يهتم بكافة أبعاد العلاقة الواسعة المدى مع الخصم، ويقاوم الاندفاع المبكر نحو النصر، ويعمل، بدلاً من ذلك، على بناء تفوُّقٍ تدريجي متصاعد. وكما يقول ديفيد لاي: "التقاليد الغربية تركز بشدة على استخدام القوة، حيث يقتصر فن الحرب على ساحات القتال، إلى حد كبير، وتقتصر طريقة القتال على مواجهة القوة بالقوة". ويضيف لاي أنه على النقيض من ذلك "تكمُن فلسفة لعبة غو في التنافس من أجل تحقيق مكسب نسبي، بدلاً من السعي إلى إبادة قوى الخصم بالكامل". وفي تذكير حكيم، يحذر لاي من "خطورة أن نلعب لعبة غو بعقلية الشطرنج. حيث يمكن أن يصبح المرء عُدوانيًا إلى درجة مفرطة، فيبسط قواته وينشرها على اتساع هائل، الأمر الذي يعرِّض أجزاءه الضعيفة للخطر، في ساحات القتال"[48].

يدور الجدل الأمريكي الحالي حول ما يسمى صراع "المنطقة الرمادية" (أو ما يعرف في روسيا باسم "الحرب الهجينة") في إطار من الجهل الواضح لقرون كثيرة أتقنت الصين خلالها أكثر من خمسين شكلاً من أشكال الحروب، كان الاستخدامُ الفعلي للقوات المقاتلة، خلالها، الملاذَ الأخير. وكما يشرح سُنْ تسو في كتابه فن الحرب: "إن أرقى أنواع النصر هو أن تهزم العدو دون قتال"[49]. لقد دفع تاريخُ الصين الحافل بالاضطرابات السياسية الداخلية والصراعات بين الممالك المتنافسة، مفكريها الاستراتيجيين إلى تفضيل وسائل أخرى غير القتال.

إن إدراك هذه النزعات أو الميول الاستراتيجية، هو بالطبع، مجرد خطوة أولى. فمن أجل تجنُّب الحرب مع الصين، أو التحكم في صراع فور ظهور بوادره، يتعيَّن على القادة الأمريكيين أن يدرسوا كيف يمكن أن يؤدي اختلاف الرؤى الاستراتيجية لبيجين وواشنطن حول ما يجري في العالم، إلى كارثة، وكيف يمكن لهذا الاختلاف، فور ظهوره، أن يشكل صدامًا. تتفق العاصمتان على أن أكبر نقطة توتّر اليوم تتمثَّل في بحر الصين الجنوبي. ولنفهم كيف يمكن أن يؤدي "التموضع الاستراتيجي الخاطئ" هناك إلى نتائج مأساوية، يجب أن ندرك، بوضوح، وجهة النظر الصينية بشأن هذه المنطقة.

عينُ الصين على بحارها

كنتيجة منطقية لاستمرار الصين في استعادة سلطتها ونفوذها في شرق آسيا، بدأ وضع الولايات المتحدة في غرب المحيط الهادي في التراجع، وفقًا لوجهة نظر الصين. وقد ساعدت التصرفات والأفعال الصينية في المنطقة على تسريع عملية التراجع هذه، وهو ما يظهر بوضوح كبير من خلال الأوضاع في بحر الصين الجنوبي.

فعلى مدار عقود من الزمان، كان الأمريكيون يفتقدون القدرة على رؤية الصورة الكبيرة للأوضاع في شرق آسيا، لأسباب ليس أقلها "صعوبةُ رؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون"، إذا أردنا أن نعيد صياغة مقولة روبرت بيرنز(*). فكل رئيس منذ نيكسون كان يؤمن بأن الولايات المتحدة ترحب بالصين كجزء من النظام الاقتصادي والسياسي الدولي. ولكن على المقلب الآخر، وكما يقول كيسنجر بوضوح، فإن كل زعيم صيني التقى به، كان يؤمن أن استراتيجية أمريكا هي "احتواء" الصين. وإذا كان هناك ما أسهَمَ في تأكيد قراءة الصين البراغماتية للنوايا الأمريكية، فهو تحوُّل إدارة أوباما المحوري، الذي حظي بتغطية إعلامية واسعة، من قضايا أوروبا والشرق الأوسط إلى قضايا آسيا. وكما وصفت وزيرة الخارجية آنذاك، هيلاري كلينتون، هذا التحول في عام 2011: "إن التزامنا ببناء شبكة شاملة ودائمة من المؤسسات والعلاقات عبر الأطلسي، في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، قد أثمر، ولا يزال يثمر، نتائج طيّبة كثيرة. وقد حان الوقت كي تقوم الولايات المتحدة باستثمارات مماثلة كقوة في المحيط الهادي"[50].

كان التنبؤ بأثر هذا الإعلان على الصين أمرًا ممكنًا، نظرًا إلى عقلية قادتها التي تعمل وفقًا لفكرة الواقعية السياسية، كما كان من المستحيل عدم ملاحظة هذا التأثير أثناء اللقاءات الدبلوماسية التي جرت في السنوات التي تلت ذلك. ففي عام 2014، عاد كل من كيفين رود وبرنت سكوكروفت من الصين، بعد أن أجرى كل منهما هناك محادثات موسعة منفصلة، وكل منهما يحمل وجهة نظر مطابقة لوجهة نظر الآخر، في ما أسمياه "الإجماع" المدهش، والمثير للقلق، الذي يسود أوساط صُنَّاع القرار في الصين. فوفقًا للانطباع الذي عاد به المسؤولان الأمريكيان، يؤمن قادة الصين أن استراتيجية أمريكا الكبرى للتعامل مع الصين تتضمن خمسة

(*) إشارة إلى بيت للشاعر الإسكتلندي الشهير روبرت بيرنز، الذي عاش في القرن الثامن عشر، يقول فيه: اللهم امنحنا القوة... كي نرى أنفسنا... كما يرانا الآخرون. (المُعرِب)

أهداف: عزل الصين، واحتواء الصين، وتقليص الصين، وتقسيم الصين داخليًا، وإعاقة مهام القيادة الصينية. وكما أوضح رود، فإن هذه الاتهامات "نابعةٌ من استنتاج صيني بأن الولايات المتحدة لم ولن تقبل أبدًا الشرعية السياسية الأساسية للإدارة الصينية، لأنها ليست ديمقراطية ليبرالية". وعلاوة على ذلك، ووفقًا لرود أيضًا، فإن هذه الاتهامات تستند إلى "استنتاج صيني عميق الرسوخ وشديد الواقعية، بأن الولايات المتحدة لن تتنازل أبدًا عن وضعها كقوة إقليمية وعالمية متميزة، وأنها ستبذل كل ما في وسعها للحفاظ على هذا الوضع"[51].

وترى الصين أن الحملة الأمريكية ضدها في بحر الصين الجنوبي، بما في ذلك تشجيعها للفيليبين في عام 2013 على نقل الخلاف بينها وبين الصين إلى محكمة التحكيم الدائمة في لاهاي، وتجنيدها جوقة تدين الصين عندما رفضت القرار الذي أصدرته المحكمة لصالح الفيليبين، وإجراء العمليات التي حملت اسم حرية الملاحة في المنطقة، التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة، توفر أدلة أكثر من كافية لإثبات صحة وجهة نظرها في النوايا الأمريكية. وهكذا، تُواصل أمريكا ممارسة لعبة الشطرنج، بينما تُعيد الصين ترتيب الحجارة على رقعة لعبة غو، وتعمل بطريقة منهجية، لإنهاء هذه التوغلات من خلال إحداث تغيير تدريجي ساحق على مسرح الأحداث الذي يقع على مقربة من الأراضي الصينية.

بينما تتكشف المنافسة في بحر الصين الجنوبي، سوف تتشكل هذه المنافسة من خلال الافتراضات الاستراتيجية الأساسية للخصمين، والنقاط غير الواضحة للعيان لدى كل منهما. لذا، فإن محاولة تقييم مسار تلك المنافسة، وعلى وجه الخصوص معرفة ما إذا كانت الصين ستستخدم القوة العسكرية القاتلة لتعزيز مصالحها أم لا، سوف تتطلب البحث عن الإشارات الدالة على ذلك، التي يمكن استخلاصها من الحضارة والثقافة والتقاليد الاستراتيجية الصينية.

أولاً، يبدو واضحًا أن الصين سوف تستخدم منظورًا طويل الأجل،

للمواجهة مع الولايات المتحدة في بحر الصين الجنوبي، حيث ترى أن هذه المواجهة جزءٌ من التطور التاريخي، وتتوقع أن يتشكل مستقبل تلك المواجهة من خلال معطيات الجغرافيا، والاقتصاد، ومدى اليقظة والانتباه. لهذا، سوف يتحلى الصينيون بالصبر في هذه "اللعبة الطويلة النفَس" مع الولايات المتحدة، وهي منافَسة يُراكِم خلالها الصينيون، بثبات، المزايا والفوائد، واثقين من أنهم أكثر قدرة على الصمود، في المنطقة، من الأمريكيين. قد تركز الولايات المتحدة اهتمامها في بعض الأحيان على الأحداث في بحر الصين الجنوبي أو بحر الصين الشرقي، أما الصينيون فيتوقعون أن يعود الأمريكيون، في نهاية المطاف، إلى تركيزهم على الحروب المتواصلة في الشرق الأوسط، أو التهديدات الروسية لأوروبا، أو المشاكل المحلية في الداخل الأمريكي.

ومن قبيل الحذر والاحتياط أيضًا أن نفترض أن الحكومة الصينية سوف تتعامل بواقعية لا هوادة فيها، عند تقييم علاقة الارتباط المتبادَل بين القوة العسكرية للبلدين، الصين والولايات المتحدة، وبالتالي عند التنبؤ بنتيجة أي مواجهة عسكرية محتملة بينهما. ولأن الأمر سيستغرق ما لا يقل عن عقدٍ من الزمن وربما أكثر، حتى تصبح القدرات العسكرية الصينية مساوية للقدرات العسكرية الأمريكية، حتى في المناطق الأقرب إلى الصين، سوف تتوخى الصين الحذر، وتتسلح بالحكمة، في ما يتعلق بأي استخدام قاتل للقوة ضد الولايات المتحدة. فبدلاً من ذلك، ومن خلال تغيير الحقائق تدريجيًا على الأرض، وفي المياه، في جميع أنحاء بحر الصين الجنوبي، والتكيُّف مع المقاومة التي سوف تواجهها وهي تنفِّذ ذلك، سيفوز الصينيون بتراكم هائل للمزايا، تمامًا كما هو الحال في لعبة وِيشِي.

علاوة على ذلك، سوف تكون الصين "دولة استراتيجية" ذات خصائص صينية، تتعامل مع القوة العسكرية كأداة ثانوية من أدوات أرْكَسَة سياستها الخارجية، التي لا تسعى إلى النصر في معركة حربية، بل إلى تحقيق الأهداف الوطنية. سوف تعزز الصين العلاقات الدبلوماسية

والاقتصادية مع جيرانها، فتُعَمِّق اعتمادهم عليها، وتستخدم النفوذ الاقتصادي لتشجيع تلك الدول (أو إكراهها) على التعاون معها في القضايا الأخرى. فالصين تأمل أن يؤدي تنفيذ هذه الاستراتيجية، ذات الطابع الصيني، إلى زيادة تأثيرها على محيطها، وإلى تقويض العلاقات بين هؤلاء الجيران والولايات المتحدة. بل ربما تحاول الصين أن تستخدم "الهمجيين ضد الهمجيين"، للحيلولة دون قيام تحالف موازٍ معادٍ لها، فتؤلِّب، على سبيل المثال، اليابان ضد كوريا الجنوبية، أو روسيا ضد الولايات المتحدة. وفي الوقت المناسب، سوف تصبح الصين أكثر قوة، وتميل الكفة لصالحها، الأمر الذي سوف يجبر الأطراف الأخرى في المنطقة على قبول هيمنتها، بكل بساطة، ليس فقط لأنها أمرٌ حتمي، ولكن أيضًا لأنها أمرٌ لا يمكن مقاومته.

وعلى الرغم من أن الصين لن تلجأ إلى الحرب إلا كحلٍ أخير، فهي إذا ما استنتجت أن خطوط الأحداث والتوجهات الطويلة الأجل لم تعد تتحرك لصالحها، وأنها تفقد القدرة على المساومة، قد تُشعل، عندئذ، صراعًا عسكريًا محدودًا لمجرد تلقين الخصم درسًا. وقد أظهر العالِم السياسي تايلور فرافل Taylor Fravel، في دراسة له، أن الصين استخدمت القوة في ثلاثة فقط من النزاعات الإقليمية الثلاثة والعشرين التي خاضتها منذ عام 1949. وتشير تلك الحالات إلى أن الصين تصبح ميالة إلى استخدام القوة عندما ترى أن الخصم يُغيِّر ميزان القوى ضدها، خلال فترة انشغالها باضطرابات داخلية. وقد أوضح فرافل، في تحليله لهجمات بيجين ضد الهند عام 1962، وضد الاتحاد السوفياتي عام 1969، وضد فيتنام عام 1979، أن الصين تميل إلى استخدام القوة العسكرية ضد الخصوم الذين يمتلكون قوة تعادل قوتها أو تزيد عنها، في حين أنها تكون أكثر استعدادًا للتفاوض مع الخصوم الأضعف منها[52].

باختصار، ما دامت التطورات في بحر الصين الجنوبي تتحرك بشكل عام لصالح الصين، من غير المرجح أن تستخدم الصين القوة العسكرية.

ولكن إذا تغيرت توجهات القوى المترابطة في غير صالحها، خاصة في فترة من فترات عدم الاستقرار السياسي المحلي، قد تبدأ الصين صراعًا عسكريًا محدودًا، حتى ضد دولة أكبر وأكثر قوة منها، مثل الولايات المتحدة. كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الصراع؟ هذا سيكون محور الفصل التالي.

هوامش

الفصل السابع

(1) الصين، والأمم المتحدة، والنظام العالمي China, the United Nations, and the World Order، تأليف صمويل كيم Samuel Kim، 1979.
(2) سفيرنا الأول إلى الصين: حياة ومراسلات جورج، إيرل ماكارتني، وتجربته في الصين، كما رواها بنفسه Our First Ambassador to China: The Life and Correspondence of George, Earl of Macartney, and His Experiences in China, as Told by Himself، تأليف هيلين هـ. روبنز Helen H. Robbins، 1908.
(3) الإمبراطورية الثابتة The Immobile Empire، تأليف ألان بيريفيت Alain Peyrefitte، ترجمة جون روثشيلد John Rothschild، 1992.
(4) عن الصين، تأليف هنري كيسنجر.
(5) بعثة إلى الصين؛ السجل الذي احتفظ به لورد ماكارتني أثناء بعثته إلى الإمبراطور شين لونغ، An Embassy to China; being the journal kept by Lord Macartney during 1794-1793 his embassy to the Emperor Ch'ien-lung, 1793 - 1794، تأليف ج. ر. كرانمر-بينغ J. R. Cranmer-Byng، 1963.
(6) الإمبراطورية الثابتة، تأليف ألان بيريفيت.
(7) المرجع السابق.
(8) المرجع السابق.
(9) المرجع السابق.
(10) أول فرمان من شين لونغ إلى الملك جورج الثالث (أيلول/سبتمبر 1793)، ضمن كتاب البحث عن الصين الحديثة: مجموعة وثائقية The Search for Modern China: A Documentary Collection، أعدها كل من باي كاي شينغ Pei-Kai Cheng، ومايكل ليستز Michael Lestz، وجوناثان سبينس Jonathan Spence، 1999.
(11) صدام الحضارات؟، مقال نشره صامويل هانتينغتون في العدد 3، مجلد 72، من مجلة فورين أفّيرز، الذي صدر في صيف 1993.
(12) المرجع السابق.
(13) نهاية التاريخ؟ The End of History، مقال نشره فرانسيس فوكوياما، في العدد 16، من مجلة ناشيونال إنتريست National Interest، الذي صدر في صيف 1989.
(14) صدام الحضارات؟، مقال لصامويل هانتينغتون.

(15) المرجع السابق.
(16) صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي، تأليف صمويل هانتينغتون، 2003.
(17) المرجع السابق.
(18) المرجع السابق.
(19) تشريح ثورة The Anatomy of a Revolution، تأليف كرين برينتون Crane Brinton.
(20) صدام الحضارات إعادة تشكيل النظام العالمي، تأليف صمويل هانتينغتون.
(21) المرجع السابق.
(22) يمكن مراجعة المقال المعنون عقيدة أوباما The Obama Doctrine، الذي كتبه جيفري غولدبِرغ Jeffrey Goldberg في عدد نيسان/أبريل 2016 من مجلة أتلانتيك Atlantic، من خلال الرابط التالي: http://www.theatlantic.com/magazine/archive/2016/04/the-obama-doctrine/471525/.
(23) لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم، تأليف غراهام أليسون وآخرين.
(24) أممٌ من رحِم إمبراطوريات: القومية الأوروبية وتحولات آسيا Nations Out of Empires: European Nationalism and the Transformation of Asia، تأليف هاري غيلبر Harry Gelber، 2001.
(25) يمكن مراجعة الموضوع المعنون "مستقبل العلاقات الأمريكية الصينية تحت حكم شِي جينْبينْغ: نحو إطار جديد للواقعية البناءة من أجل هدف مشترك"، الذي كتبه كيفين رود Kevin Rudd يوم 12 نيسان/أبريل 2015، من خلال الرابط التالي: https://www.belfercenter.org/publication/summary-report-us-china-21.
(26) يمكن مراجعة خطاب ويليام بيت William Pitt، إيرل شاثام Earl of Chatham، أمام مجلس اللوردات البريطاني يوم 20 كانون الثاني/يناير 1775، من خلال الرابط التالي: http://quod.lib.umich.edu/cgi/t/text/text-idx?c=evans;idno=N11398.0001.001.
(27) معاداة الفكر في الحياة الأمريكية Anti-intellectualism in American Life، تأليف Richard Hofstadter، 1963.
(28) عن الصين، تأليف هنري كيسنجر.
(29) المرجع السابق.
(30) الفطرة السليمة: رسالة إلى سكان أمريكا Common Sense: Addressed to the Inhabitants of America، تأليف توماس باين Thomas Paine، 1856.
(31) السلطة الرئاسية والرؤساء المعاصرون: سياسات الزعامة من روزفلت إلى ريغان، تأليف ريتشارد نويشتات.
(32) يمكن مراجعة الكلمة التي ألقاها لي كُوان يِوْ خلال حفل التكريم الذي أقيم له في العاصمة الأمريكية واشنطن يوم 18 تشرين الأول/أكتوبر 2011، بمناسبة منحه ميدالية أبراهام لينكولن، من خلال الرابط التالي: https://www.mfa.gov.sg/content/mfa/overseasmission/washington/newsroom/press_statements/2011/201110/press/201110_01/html.
(33) رسالة توماس جيفرسون Thomas Jefferson إلى ويليام هنتر William Hunter، في 11 آذار/مارس 1790.
(34) يمكن الاستماع إلى حديث إريك لي، الذي رفع على الإنترنت في حزيران/يونيو 2013، من خلال الرابط التالي: https://www.ted.com/talks/eric_x_li_a_tale_of_two_political_systems/transcript?language=en.
(35) النظام العالمي، تأليف هنري كيسنجر.

(36) صدام الحضارات، تأليف صمويل هانتينغتون.
(37) عن الصين، تأليف هنري كيسنجر.
(38) النظام العالمي، تأليف هنري كيسنجر.
(39) من خطاب ألقاه جورج واشنطن في جمع من أعضاء اتحاد المتطوعين، وجماعات من مواطني مملكة آيرلندا، يوم وصولهم إلى مدينة نيويورك في 2 كانون الأول/ديسمبر 1783. يمكن الاطلاع على نص الخطاب من خلال الرابط التالي: http://founding.com/founders-library/american-political-figures/george-washington/address-to-the-members-of-the-volunteer-association-and-other-inhabitants/.
(40) دراسة بعنوان "المهاجرون يؤسسون 51 في المائة من شركات أمريكية ناشئة قيمتها مليار دولار" كتبها يوري كوه Yoree Koh، ونشرتها صحيفة وول ستريت جورنال يوم 17 آذار/مارس 2016. يمكن مراجعة النص الكامل للدراسة من خلال الرابط التالي: http://blogs.wsj.com/digits/2016/03/17/study-immigrants-founded-51-of-u-s-billion-dollar-startups/.
(41) لي كُوان يِوْ: رؤية المُعلِّم الأعظم للصين، والولايات المتحدة، والعالم، تأليف غراهام أليسون وآخرين.
(42) يمكن مراجعة موضوع "ملاحظات الرئيس: حوار مع مارتن ديمبسي"، الذي نشرته مجلة فورين أفيرز، في عدد أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر 2016، من خلال الرابط التالي: https://www.foreignaffairs.com/interviews/2016-08-01/notes-chairman.
(43) عن الصين، تأليف هنري كيسنجر.
(44) فن الحرب The Art of War، تأليف سُنْ تسو، ترجمه إلى الإنجليزية صمويل ب. غريفيث Samuel B. Griffith، 1971.
(45) النزعات الطبيعية للأشياء: نحو تاريخ للكفاءة في الصين The Propensity of Things: Toward a History of Efficacy in China، تأليف فرانسوا جوليان François Jullien، 1999.
(46) فن الحرب، تأليف سُنْ تسو.
(47) عن الصين، تأليف هنري كيسنجر.
(48) يمكن مراجعة المرجع السابق، وموضوع التعلم من الأحجار: إجادة الاستراتيجية الصينية شِي من خلال لعبة غو Learning from the Stones: A Go Approach to Mastering China's Strategic, Shi، الذي كتبه ديفيد لاي David Lai، في أيار/مايو 2004، لحساب معهد الدراسات الاستراتيجية التابع لكلية الحرب الأمريكية، من خلال الرابط التالي: http://www.strategicstudiesinstitute.army.mil/pubs/display.cfm?pubID=378.
(49) فن الحرب، تأليف سُنْ تسو.
(50) يمكن مراجعة الموضوع الذي نشرته هيلاري كلينتون في مجلة السياسة الخارجية، بعنوان قرن أمريكا الباسيفيكي.
(51) يمكن مراجعة الموضوع المعنون "مستقبل العلاقات الأمريكية الصينية تحت حكم شِي جِينْ بِينْغ، الذي كتبه كيفين رود.
(52) حدود قوية، أمة آمنة: الصراع والتعاون في نزاعات الصين الحدودية Strong Borders, Secure Nation: Conflict and Cooperation in China's Territorial Disputes، تأليف م. تايلور فرافل M. Taylor Fravel.

الفصل الثامن

من هنا، إلى الحرب

فكِّروا في التأثير الواسع للصدفة في الحرب، قبل أن تتورطوا فيها. فمِن الأخطاء الشائعة عند الذهاب إلى حرب، أن نبدأ من نقطة النهاية الخطأ، أن نتصرف أولًا، ثم ننتظر الكارثة.

ـــ سفير أثينا، مخاطبًا مجلس العموم الأسبرطي، عام *432* قبل الميلاد

إيّاكم، وإيّاكم، ثم إيّاكم، أن تعتقدوا أن أية حرب يمكن أن تكون سلسة وسهلة، أو أن تعتقدوا أن أيَّ شخص يستطيع، بعد الشروع في رحلة غريبة، أن يُقدِّر حركة المد والجزر والأعاصير التي سيواجهها خلال الرحلة. يجب على رجل الدولة الذي يصاب بحمى الحرب، أن يدرك أنه بمجرد إطلاق الإشارة ببدئها، لا يعود سيدًا للسياسة، بل عبدًا لأحداث لا يمكن التنبؤ بها أو السيطرة عليها.

ـــ ونستون تشرشل

الحرب مجال تحكمه الصدفة. هذه الدخيلة التي تزيد الريبة المحيطة بكل ظرف من الظروف وتشوِّش على مسار الأحداث، ينبغي أن لا ندعها تحكم أيَّ مجال آخر من مجالات النشاط البشري.

ـــ كارل فون كلاوسفيتز(*)

هل يجرؤ زعيم صيني، يسيطر بالكاد على بلاده بعد حرب أهلية طويلة،

(*) كارل فون كلاوسفيتز Carl von Clausewitz (1 حزيران/يونيو 1780 - 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1831)، قائد عسكري، ومنظِّر استراتيجي بروسي، أثرى المكتبة بالكثير من المؤلفات التي تُعدّ مراجع مهمة في مجال الدراسات العسكرية الاستراتيجية حتى اليوم. من أشهر مؤلفاته كتاب

على مهاجمة قوة عظمى سحقت اليابان وأنهت الحرب العالمية الثانية قبل خمس سنوات بإلقاء قنبلتين ذريتين؟ عندما دفع الجنرال دوغلاس ماك آرثر Douglas MacArthur القوات الكورية الشمالية نحو الحدود الصينية في عام 1950، لم يكن يتخيل وقوع ذلك. لكن ماو فعلها، وكان لفعلته تلك وقعُ الصاعقة على رأس ماك آرثر. فقد استطاعت القوات الصينية أن تعيد القوات الأمريكية إلى خط عرض 38، الذي يقسم شبه الجزيرة الكورية إلى كوريتين، شمالية وجنوبية. ومع نهاية تلك الحرب، كان ما يقرب من ثلاثة ملايين شخص، من بينهم 36 ألف جندي أمريكي، قد لقوا حتفهم.

وعلى نحو مشابه، في عام 1969، لم يكن القادة السوفييت يتصورون أن الصين ستردُّ على نزاعٍ حدودي طفيف، بضربة استباقية ضد قوة تتمتع بتفوُّق نووي ساحق. لكن هذا بالضبط ما فعله ماو عندما بدأ الحرب الحدودية بين الصين والاتحاد السوفييتي. لقد أظهرت تلك المناورة الافتتاحية gambit(*) للعالم كله أن الصين تعتنق مبدأ "الدفاع النشط". لقد بعث ماو برسالة لا لبس فيها: لن يُخيفَ الصينَ أحدٌ بعد اليوم، بما في ذلك الخصوم الذين يملكون القدرة على محوِها عن الخارطة.

وهنا يطرح سؤالٌ نفسَه: هل يمكن، خلال السنوات القادمة، أن يُشعِل صدامٌ بين السفن الحربية الأمريكية والصينية في بحر الصين الجنوبي، أو حركةُ استقلال وطني في تايوان، أو مُشاكساتٌ بين الصين واليابان حول جزر لا يرغب أحد في العيش فيها، أو عدمُ الاستقرار في كوريا الشمالية، أو حتى نزاعٌ اقتصادي متصاعد، شرارةَ حربٍ بين الصين والولايات المتحدة، رغم حقيقة أنه لا أحد يريد هذه الحرب؟ قد تبدو إمكانية وقوع

"عن الحرب Vom Kriege"، الذي يحظى بشهرة واحترام كبيرين رغم أن الكاتب توفي قبل إتمامه. وقد عُرِف عن كلاوسفيتز اهتمامه الشديد بدراسة العناصر السياسية والنفسية للحرب. (المُعرِّب)

(*) مصطلح ينتمي إلى عالم لعبة الشطرنج، حيث يقصد بالمناورة الافتتاحية قيام اللاعب بالتضحية بإحدى قطعه غير المهمة، في أولى حركاته، أملاً في تحقيق مكسب يفوق القطعة التي ضحى بها. (المُعرِّب)

ذلك أمرًا صعبًا، وفقًا لتقديرات معظم القراء، حيث إن عواقب تلك الحرب، لن تكون متناسبة على الإطلاق، مع أية مكاسب يأمل أيٌّ من الجانبين في تحقيقها[1]. فحتى الحرب التقليدية، غير النووية، التي تدور معاركها غالبًا في البحر وفي الجو يمكن أن تُسفِر عن مصرع آلاف المقاتلين من الجانبين. علاوة على ذلك، سوف تكون العواقب الاقتصادية لتلك الحرب هائلة. فقد بيَّنت دراسة أجرتها مؤسسة راند RAND عام 2016، أنه بعد عام واحد فقط من حرب تقليدية حامية الوطيس بين الصين والولايات المتحدة، يمكن أن ينخفض إجمالي الناتج المحلي الأمريكي بنسبة تصل إلى 10 بالمائة، وأن ينخفض إجمالي الناتج المحلي الصيني بنسبة 35 بالمائة، وهي انتكاسة مشابهة للكساد العظيم Great Depression[2]. وإذا تحولت تلك الحرب إلى حرب نووية، فإنها سوف تسفر عن تدمير البلدين تدميرًا كاملاً. وهو أمرٌ يدرك القادة الصينيون والأمريكيون أنهم لا يستطيعون السماح بوقوعه.

أن يكون أمرٌ ما غيرَ حكيمٍ أو غيرَ مرغوبٍ فيه، لا يعني أبدًا أن وقوعَه أمرٌ مستحيل. فالحروب تشتعل حتى عندما يعقد القادة العزم على تجنُّبها. إن الأحداث أو الأعمال التي يقوم بها الآخرون تُضيِّق أمام القادة مجال الاختيار، مما يجبرهم على اتخاذ خيارات تحمل مخاطر الدخول في حربٍ، بدلاً من الانصياع لبدائل تبدو غير مقبولة. فبيريكليس لم يكن يريد الدخول في حرب ضد أسبرطة، والقيصر لم يكن يسعى إلى حرب ضد بريطانيا، وماو عارض، في البداية، هجوم كيم إيل سونغ Kim Il-sung على كوريا الجنوبية عام 1950، خوفًا من ارتداداته السلبية. لكن الأحداث غالبًا ما تتطلب من القادة الاختيار بين المخاطر السيئة، وتلك الأكثر سوءًا. وبمجرد أن تتحرك الآلات العسكرية، يمكن أن يتصاعد سوء الفهم، والحسابات الخاطئة، والتشابكات المعقدة، ليتحول الأمر إلى صراع يتجاوز ما كان في نية أي شخص، عند بدء المشكلة.

ولفهم هذه المخاطر بشكل أفضل، طورت كلٌّ من واشنطن وبكين

سيناريوهات، وبرامج محاكاة، وألعاب حرب. وغالبًا ما يبدأ عمل تلك الوسائل بافتراض وقوع حادثة أو واقعة لم تكن متوقعة، وهنا، يبدأ دور الأفراد المعيَّنين للعب دور كل من الصين والولايات المتحدة. ومرة بعد مرة، يُفاجَأ المشاركون في هذه التمارين بكثرة وسهولة الحالات التي يمكن من خلالها أن تولَد حرائقُ حربٍ هائلةٍ، من مُسْتَصْغرِ الشرر. في هذا الفصل، سوف نستعرض أربع حالات تاريخية شنت الصين خلالها حربًا محدودة، ونلخص أربعة مفاهيم يدرسها مخططو الحرب لفهم مصادر النزاع، ونرسم خمسة مسارات معقولة يمكن أن تقود إلى حرب بين القوتين الأعظم في عالمنا اليوم.

كوريا، 1950-1953

في 25 حزيران/يونيو 1950، بدأ كيم إيل سونغ (جَدُّ الزعيم الكوري الشمالي الحالي كيم جونغ أون Kim Jong-un) غزوًا مفاجئًا لكوريا الجنوبية. ومع حلول اليوم الرابع، استولت كوريا الشمالية على سيول Seoul، عاصمة الجنوب. وفي غضون شهر، كانت القوات الكورية الجنوبية على وشك الاستسلام.

غير أنه، وفي اللحظة الحاسمة، تدخلت لإنقاذ كوريا الجنوبية قوة تتألف أساسًا من القوات الأمريكية، وتعمل بتفويض من الأمم المتحدة(*)، ويقودها الجنرال دوغلاس ماك آرثر Douglas MacArthur، القائد الأعلى لقوات الحلفاء في اليابان. دخلت الحربَ ثلاثُ فرق من الجيش الأمريكي،

(*) يسود لدى الكثيرين انطباع خاطئ بأن الأمم المتحدة كانت الطرف الرئيسي في الحرب الكورية، وأن القوات الأمريكية التي خاضت تلك الحرب كانت جزءًا من قوة دولية كبيرة شكلتها الأمم المتحدة لهذا الغرض، بينما الحقيقة عكس ذلك تمامًا. لقد كانت القوة التي شكلتها الأمم المتحدة من جنود الدول الراغبة في المشاركة جزءًا صغيرًا من القوة القتالية الأساسية، التي شكلتها كل من كوريا الجنوبية والولايات المتحدة لخوض تلك الحرب. فقد بلغ عدد القوات الكورية الجنوبية 340 ألف مقاتل، وبلغ عدد القوات الأمريكية 260 ألف مقاتل، في حين لم يتجاوز عدد قوات الأمم المتحدة 35 ألف مقاتل، أي بنسبة تقل عن 6 في المائة من مجموع

مدعومة بقاذفات من طرازي B-26 وB-29(*)، اللذين استُخدما في تدمير أجزاء كبيرة من اليابان. وفي الأشهر الثلاثة التالية، استطاعت تلك القوات إجبار الكوريين الشماليين على التراجع إلى خط العرض 38.

ولأن ماك آرثر كان يتوقع أن تنتهي الحرب بحلول عيد الميلاد، أمر قواته بعبور خط العرض 38، دون أن يفكر جديًا في طبيعة رد فعل الصين. عبرت القوات الخط بالفعل، متقدمة بسرعة نحو نهر يالو Yalu، الذي يمثل فاصلاً حدوديًا بين كوريا الشمالية والصين، حتى أن الأمر بدا وكأن كوريا سوف تتوحد أخيرًا، تحت حكم حكومة سيول، التي تدعمها الولايات المتحدة. لقد تجاهل ضباط المخابرات الأمريكية التحذيرات المتكررة التي كانت تبثها وسائل الإعلام الصينية، كما تجاهلوا بعض الإشارات التكتيكية التي صدرت عن الجنود الصينيين الذين تم أسرهم، وبالتالي، استبعدوا إمكانية أن تتدخل الصين نيابة عن كوريا الشمالية. كانت الحرب الأهلية الصينية قد انتهت قبل أقل من عام، بعد أن مزّق هذا النزاع المتوحش البلاد، وأزهق أرواح ما يصل إلى 3.5 مليون شخص[3]. فما الذي يدفع نظامًا، لا يزال يعاني من آثار حرب أهلية طاحنة، إلى أن يخاطر بحياته، ويهاجم القوة النووية التي أجبرت الإمبراطورية اليابانية على الاستسلام دون قيد أو شرط؟[4]

ومع ذلك، استيقظ ماك آرثر في بداية تشرين الثاني/نوفمبر ليجد طليعة جيش صيني قوامه 300 ألف جندي تنقضُّ بعنف على القوات الأمريكية والقوات المتحالفة معها. تعرَّض الأمريكيون، الذين أُخِذوا على

جيوش التحالف الأمريكي. وفي الوقت نفسه، وصل عدد قوات كوريا الشمالية والقوات الصينية مجتمعة إلى 866 ألف مقاتل. هي إذن أكذوبة تُشبِه وتَسبِق أكذوبة التحالف الدولي الوهمي الذي أعلن جورج بوش الابن تشكيله، عندما قرر غزو العراق. ذريةٌ بعضُها من بعض، حيث لا فارق بين أن يكون ساكنُ البيت الأبيض، ذي السجل الأسود، ديمقراطيًا أو جمهوريًا. (المُعرِّب)

(*) استخدمت الولايات المتحدة طائرات الطراز الأول (B-26)، في شن غارات مدمرة على اليابان، في أعقاب إغراق الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر، كما استخدمت طائرتين من الطراز الثاني (B-29)، في ضرب هيروشيما بالقنبلة الذرية يوم 6 آب/أغسطس 1945، وفي ضرب ناغازاكي بقنبلة أخرى، بعد ثلاثة أيام من ضرب هيروشيما. (المُعرِّب)

حين غرة، لخسائر فادحة. حتى أن فوجًا واحدًا من أفواج فرقة الفرسان الأولى الأمريكية، فقدَ 600 رجل في غضون ساعات قليلة من القتال المتلاحم. وفي الأسابيع التي تلت ذلك، استطاع الجيش الذي كان ماك آرثر وزملاؤه من القادة ينظرون إليه بتعالٍ "كجيش من الفلاحين" أن يوقف تقدم الحلفاء، بل وأن يردّ قوات الأمم المتحدة(*) إلى خط العرض 38، مرة أخرى[5].

وبعدما خسر ماك آرثر حربًا ظن لفترة أنه قد فاز بها، طلب من الرئيس هاري ترومان Harry Truman التصريح له باستخدام الأسلحة النووية ضد الصين[6]. غير أن ترومان رفض قبول خطة الجنرال "المارق" الذي يحمل على كتفيه خمس نجوم، وفصله من الخدمة(**) تواصلت الحرب في طريق مسدود لمدة سنتين أخريين، إلى أن وقَّع خَلَفُ ترومان، الرئيس دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower، في نهاية المطاف، اتفاقية للهدنة عام 1953. وكما يلاحظ المؤرّخ ت. ر. فيهرنباخ T. R. Fehrenbach، "لأكثر من مائة عام، كانت القوات العسكرية الصينية موضع احتقار، حيث لم تكن تمتلك أية مهارة، أو وسيلة، أو إرادة للقتال"[7]. غير أن تلك الأيام قد ولَّت، إلى غير رجعة.

(*) الصحيح هنا أن نقول "القوات التي ترفع علم الأمم المتحدة". (المُعرِّب)

(**) ماك آرثر واحد من أكثر الشخصيات العسكرية إثارة للجدل في التاريخ الأمريكي. لقد أصيب بالانهيار تقريبًا بسبب الانتصارات التي أحرزتها القوات الصينية التي كان يستهين بها، بل ويحتقرها، وراح يُلِحّ على ترومان بأن يأذن له باستخدام السلاح النووي ضد الصين، في محاولة لتلافي هزيمة أوقعته فيها حساباتُه الخاطئة. غير أن ترومان، الذي يُروى عنه أنه لم يتردد في اتخاذ قرار قصف هيروشيما وناغازاكي بأول قنبلتين ذريتين في التاريخ، رفض الاستجابة لمطالب ماك آرثر، بل إنه اضطر للسفر للقائه وجهًا لوجه، في محاولة لإقناعه باستحالة الاستجابة لمطلبه. كانت الأجواء بين الرجلين متوترة للغاية، حتى قبل أن يلتقيا. وعندما هبط ترومان سلم الطائرة، تجاهل ماك آرثر، عن عمدٍ، تأدية التحية العسكرية لرئيسه. وتعددت الاجتماعات بين الرجلين، غير أنها انتهت بفشل كل منهما في إقناع الآخر بوجهة نظره، لذلك لم يجد ترومان أمامه سوى عزل ماك آرثر، وإعادته إلى أمريكا. ولعل أغرب ما في هذه التجربة أن الأمريكيين خرجوا إلى شوارع العاصمة واشنطن بالآلاف، ليستقبلوا ماك آرثر، المهزوم والمطرود من الخدمة، استقبالاً جماهيريًا حافلاً، لم يحظ به قائد عسكري منتصر، في التاريخ. (المُعرِّب)

الحرب الحدودية الصينية السوفييتية، 1969

بعد مرور تسعة عشر عامًا على شن هجومها الشتوي المفاجئ على الولايات المتحدة والقوات المتحالفة معها في كوريا، واجهت الصين القوةَ العظمى الثانيةَ في العالم. ففي ذروة التوترات بين الصين والاتحاد السوفييتي في أواخر الستينيات، تصادمت القوتان في سلسلة من الحوادث البسيطة عبر الحدود المتنازع عليها بينهما، على طول نهر أوزوري Ussuri المتجمد في سيبيريا. كانت القوات السوفييتية في المنطقة "تتحرك بشكل متواصل"، حسبما زعم ماو، وعمد اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية "مرارًا وتكرارًا" إلى زيادة قواته هناك، في محاولةٍ وصفَتها صحيفة الشعب اليومية الصينية بأنها تهدف إلى "إحاطة الصين بطوقٍ معادٍ لها"[8].

في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال، حشد الطرفان قواتهما على طول الحدود بينهما، حيث وجد أكثر من 650 ألف جندي صيني أنفسهم في مواجهة 290 ألف جندي سوفييتي، تدعمهم 1200 طائرة. كان ماو قد هدد "بحرب شعبية" ضخمة من شأنها أن تكون "ميدانًا لصراع بشري جسدي ومعنوي". ووفقًا لما قاله أركادي شيفتشينكو Arkady Shevchenko، الذي يُعدّ أرفع مسؤول سوفييتي يهرب إلى الغرب، كان أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي يشعرون بالهلع بسبب "كابوس رؤية ملايين الصينيين وهم يغزون الأراضي السوفييتية"، وهو الأمر الذي أصاب القادة السوفييت بحالة من "الفزع والارتباك الهائلَين"[9].

كانت القوات السوفييتية مسلّحة ومدربة بشكل أفضل، وكانت مدعومة بقوة جوية مهَيمنة. وعلاوة على ذلك، كانت تمتلك ترسانة تضم أكثر من 10000 سلاح نووي، بما في ذلك صواريخ SS-12 النووية التكتيكية، من عيار 500 كيلوطن، التي كانت موسكو قد نشرتها على طول المنطقة الحدودية. ومع أن الصين كانت قد اختبرت مُعدَّة نووية في عام 1964،

فهي لم تقم بتطوير سوى عدد قليل من الرؤوس الحربية، فضلاً عن أنها لم تملك وسيلة تحمل تلك الرؤوس وتنقلها لاستخدامها ضد موسكو. بل إن ماو نفسه كان قد اعترف، في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر 1968، بأن الصين "لا تزال، بمعنى ما، قوة غير نووية. فمع هذه الأسلحة النووية الصغيرة، لا يمكن اعتبارنا دولة نووية. وإذا تحتم علينا خوض حرب، فيجب أن نستخدم الأسلحة التقليدية"[10]. لقد آمن كثير من القادة العسكريين السوفييت بأن ضربة نووية وقائية أولى، هي السبيل الوحيد لإنهاء التهديد الصيني المتنامي. وقد كان الاتحاد السوفييتي، في واقع الأمر، شديد الجدية بشأن مهاجمة الصين، حتى أنه سعى بهدوء، مقتربًا من إدارة نيكسون في محاولة لقياس مدى ردة فعل الولايات المتحدة على هذا العمل. وفي وقت لاحق، أوضح هنري كيسنجر، الذي كان يشغل منصب مستشار الأمن القومي الأمريكي آنذاك، أن "الاتحاد السوفييتي كان أقرب إلى شن هجوم استباقي، مما كنا نظن في ذلك الوقت"[11]. ولم تسحب موسكو هذا الخيار، إلا بعد أن حذرتها واشنطن من أنها لن تقف مكتوفة الأيدي، إذا هاجمت الصين[12].

ومع ذلك، وفي مواجهة الاتحاد السوفييتي الغاضب، تبنّى ماو استراتيجية غير متوقعة: وجَّه نكْزة إلى الدب الروسي. لقد خطط الجيش الصيني لهجوم "يعتمد على عنصر المباغتة"، ويلقِّن موسكو "درسًا مريرًا"[13]. وهكذا، في 2 آذار/مارس 1969، نصب جيش التحرير الشعبي الصيني كمينًا لقوات حرس الحدود السوفييتية في جزيرة تشنباو Zhenbao الواقعة في نهر أوزوري، ثم أتبعه، بعد فترة وجيزة، بهجومٍ ثان، أسفر عن مقتل واحد وتسعين من الجنود السوفييت، في مقابلٍ ثلاثين جنديًا صينيًا[14].

لماذا أقدمت الصين على مثل هذه المناورة المتهورة؟ بالنسبة إلى ماو، كان ذلك إجراءً دفاعيًا أخيرًا، وكانت تلك المناورة استعراضًا وتأكيدًا لمفهوم الصين الاستراتيجي الأوسع لفكرة "الدفاع النشط"، أو ما وصفه

ماو بأنه "دفاع من خلال اشتباكات حاسمة"[15]. لم يكن الصينيون يهدفون، من وراء هذا الكمين، إلى إلحاق هزيمة عسكرية بالسوفييت، بقدر ما كانوا يسعون إلى توجيه ضربة معنوية إليهم. وكما يخْلُص مايكل جيرسون(*) Michael Gerson، كان الهدف "ردع أيٍّ عدوان أو إكراه سوفييتي ضد الصين في المستقبل... والتعبير بعنف عن شجاعة الصين، وعزمها، وقوتها، في مواجهة ما كان يُنظر إليه على أنه تهديد سوفييتي وشيك"[16].

أزمة مضيق تايوان، 1996

بعد رحيل ماو، واصلت الصين استخدام القوة العسكرية بشكل انتقائي، وبطرق مُخاطِرة توشك أن تحوِّل تلك العمليات العسكرية المحدودة إلى حرب واسعة النطاق، وذلك من أجل إرسال رسائل قوية إلى خصومها. ففي عام 1996، وخوفًا من أن يقوِّض الرئيس التايواني لي تنغ هوي Lee Teng-hui صيغة "الصين الواحدة" التي صمدت لفترة طويلة، وأن يتجه نحو الاستقلال، جنحت بيجين، مرة أخرى، إلى فكرة الخيار العسكري. ففي محاولة لإلحاق الهزيمة بالرئيس لي في الانتخابات الرئاسية التايوانية لعام 1996، عمدت الصين إلى ترويع الناخبين التايوانيين من خلال إطلاق وابل من الصواريخ التي أحاطت بالجزيرة، ووضعتها في قلب حلقة من النيران، وهددت الشحن التجاري الذي تعتمد عليه حياةُ سكانها.

في هذه المرة، فاجأت إدارةُ كلينتون الصينيين بردٍ قوي، حيث أرسلت المجموعةَ القتالية التي تضم حاملتي الطائرات يو إس إس نيميتز USS Nimitz، ويو إس إس إنديبيندانس USS Independence، لمساعدة تايوان. فتراجعت الصين. والحقيقة أن محاولة الصين التأثير على الناخبين

(*) صحافي أمريكي شهير، وقد تولى منصب رئيس الإدارة المعنية بكتابة الخطابات الرئاسية خلال عهد الرئيس جورج بوش (الابن)، خلال الفترة من 2001 إلى 2006، قبل أن يستقيل من منصبه، ليتفرغ للكتابة. (المُعرِّب)

التايوانيين جاءت بنتائج عكسية، فقد فاز الرئيس لي، وعزّزت الولايات المتحدة روابطها مع تايوان[17]. لكن سوء التقدير الذي اتصف به قرار بيجين، عمّق اقتناع المخططين العسكريين الأمريكيين بأن العناد والإصرار اللذين تمارس الصين من خلالهما تلك المجازفات السياسية، أو سياسة الوصول بالأمور إلى حافة الهاوية، إذا ما اقترنا بحادث عرضي، أو سوء فهم، يمكن أن يكونا سببًا لإشعال نيران حرب[18].

بحار الصين، في الوقت الراهن

كما أشرنا في الفصل السابع، عندما يحدِّق القادة الصينيون من خط الساحل، يرون بحارًا صينية. لهذا يؤمنون أن الوجود المستمر لسفن البحرية الأمريكية في مياههم، وطلعات طائرات التجسس الأمريكية اليومية على طول حدودهم، هي ممارسات شاذة وآثار بغيضة من مُخلّفات الحرب العالمية الثانية. لقد حاولت الصين إجبار الولايات المتحدة على الكف عن تلك العمليات، فور أن امتلكت القدرة على القيام بذلك. وهكذا، على سبيل المثال، في كانون الأول/ديسمبر 2013، بينما كان الطرَّاد الأمريكي يو إس إس كاوبينز USS Cowpens، المزوَّد بالصواريخ الموجهة، يراقب أول حاملة طائرات تابعة لبحرية جيش التحرير الشعبي الصيني، لياونينغ Liaoning، وهي تبدأ أولى مهامِها، تلقّى قائد الطرَّاد الأمريكي رسالة صارمة من قائد حاملة الطائرات الصينية، يأمره فيها بمغادرة المنطقة. وقد ردّ القائد الأمريكي بأنه يقوم بعمليات قانونية غير محظورة في المياه الدولية، ولذا سيتجاهل الأمر. بعد دقائق، اعترضت سفينة تابعة لجيش التحرير الشعبي الصيني طريق الطرَّاد كاوبينز، تاركة لقائده خيارين فقط: أن يصطدم بالسفينة الصينية فيسحقها، أو أن يقوم بحركة تملُّص، من شأنها أن تجنِّبه الاصطدام بالسفينة، رغم ظهورها أمام الصينيين كنوعٍ من التراجع. وقد فضل القائد الأمريكي الخيار الثاني[19].

كانت حادثة كاوبينز واحدة من حوادث كثيرة جرت في السنوات الأخيرة، وشاركت خلالها السفن والطائرات التابعة لجيش التحرير الشعبي في استفزازات متعمدة للسفن والطائرات الأمريكية، في اختبار لحدود صبر الضباط الأمريكيين، وقدرتهم على تحمل الاستفزازات، رغم ما تحمله تلك الاستفزازات من مخاطرةٍ بوقوع تصادم "عَرَضي" غير متعمد. وقد أمرت البحرية الأمريكية، من جانبها، سفنها بتجنب الدخول في مواجهة، وتخفيف حدة الموقف، عند التعرض لتلك التكتيكات الصينية، غير أن القوات الأمريكية لم تنجح دائمًا في التقيد بتلك الأوامر. ففي نيسان/أبريل 2001، حدثت مواجهة بين طائرة استطلاع أمريكية كانت تطير بالقرب من جزيرة هاينان Hainan، وطائرة مقاتلة صينية كانت تتحرش بها للتعبير عن اعتراض بيجين على تلك الطلعات المخصصة لجمع معلوماتٍ استخبارية. وقد انتهت المواجهة إلى مقتل الطيار الصيني، في حين أُجبِر الطيارون الأمريكيون على الهبوط في الأراضي الصينية، مما أثار الأزمة الدولية الأولى في عهد إدارة جورج بوش (الابن). وبعد عشرة أيام، أُطلِق سراح أفراد الطاقم الأمريكي، الذين احتُجِزوا بعد هبوطهم الاضطراري، بينما احتجز الصينيون الطائرة الأمريكية لمدة أطول، مما أتاح لهم الفرصة لاستكشاف ما تحتويه من أحدث معدات وتقنيات المراقبة التي تتصف بسرية بالغة. ومنذ تلك الواقعة، أحدث جيش التحرير الشعبي تغييرات في ملامح وتوازن القوى في المياه القريبة من الشواطئ الصينية. فقد استطاع الجيش الصيني خلق حقائق جديدة على الأرض، من خلال بناء الجزر، ونشر بطاريات الصواريخ، وتشييد المطارات، عبر بحر الصين الجنوبي، الأمر الذي شَكَّل تهديدًا أكبر للقوات الأمريكية في هذه الممرات البحرية المهمة والخطيرة.

تُوضِّح هذه الحالات الأربع، مجتمعةً، أنه عند النظر في متى، وكيف، تستخدم الصين القوة العسكرية، لا يكفي أن نسأل عما سنفعله لو كنَّا مكانها. فالقوة العسكرية بالنسبة للقادة الصينيين، هي آلة من آلات

أوركسترا الحرب، قد يستخدمونها بشكل استباقي، لمفاجأة خصم أقوى، لم يكن ليقوم بعمل مماثل.

الشرارات، والظروف المرافِقة، ومُسرِّعات الاشتعال، وسلالمُ التصعيد

عند إعداد سيناريوهات الحرب، يستعين المحللون بمفاهيم أساسية مألوفة، تنتمي إلى عالم حُرَّاس الغابات في الولايات المتحدة. فمُشْعِلو الحرائق لا يتسببون إلا في جزء صغير من حرائق الغابات، في حين تُعتبر أعقاب السجائر التي تُلقى عشوائيًا، ونيران المخيمات التي لم تُخْمد جيدًا، والحوادث الصناعية، وومضات البرق الصاعقة، مسبِّبات أكثر شيوعًا لتلك الحرائق. ولحسن الحظ، أن في العلاقات بين الدول، كما في الغابات، معظم الشَرارات لا يُشْعِل حريقًا.

غالبًا ما تُحدِّد الظروف المرافقة background conditions الشَرَر الذي يمكن أن يتحول إلى حرائق. وبينما يتوجه التحذير المنشور في الغابات (يُطلق عليه تحذير "سْموكي بير"(*) Smoky Bear)، إلى المُخَيِّمين والمُتَنزهين، منبِّهًا إياهم من الشَرَر، إذ ينص على ما يلي: "أنت وحدك مَن يستطيع منع حرائق الغابات"، ينشر حُرَّاس الغابات تحذيرات إضافية في أعقاب فترات الجفاف الطويلة، أو فترات الحرارة الشديدة، كما يغلقون، بين الحين والآخر، المناطق الشديدة الخطورة. علاوة على ذلك، ينظم حُرَّاس الغابات قواعد تخزين المواد الكيميائية القابلة للاشتعال، وخزَّانات غاز البروبان propane، ومستودعات الغاز، ويصبحون أكثر صرامة مع تدهور الأوضاع.

(*) عبارة تعني الدُب المُدَخَّن Smoky Bear، وهو الاسم العامي الشائع الذي يطلقه الأمريكيون على البرنامج التعاوني لمنع اندلاع حرائق الغابات The Cooperative Forest Fire Prevention Program، المعروف اختصارًا ببرنامج CFFP. يستمد البرنامج اسمه هذا من صورة حقيقية لدب صغير، عُثر عليه والدخان يتصاعد من فرائه بينما يحاول الهرب من نيران حريق شبَّ في الغابة التي يسكنها. وقد أنشئ هذا البرنامج عام 1944، بغرض الحفاظ على وعي الجمهور بالحاجة إلى منع حرائق الغابات التي تسببها بعض التصرفات البشرية، وتنمية هذا الوعي. (المُعرِّب)

وفي ما يخُصُ العلاقات بين الصين والولايات المتحدة اليوم، تمتد الظروف المرافقة ذاتُ الصلة، من الجغرافيا والتاريخ والثقافة، إلى الدروس التي استخلصتها كل حكومة من حالات المواجهة العسكرية التي شهدتها مؤخرًا. فخلافًا للوضع بين ألمانيا وبريطانيا، تقع كل من الولايات المتحدة والصين على الجانب الآخر من العالم. وإذ يدرك الاستراتيجيون الصينيون هذه الحقيقة، فهُم يُذَكِّرون نظراءهم الأمريكيين، بأن إمكانية وقوع صِدَام عَرَضي غير مقصود بين السفن الأمريكية والسفن الصينية في البحر الكاريبي هي حاليًا ضئيلة جدًا. ويقولون إن البحرية الأمريكية، إذا اتبعت النموذج الذي تطبقه الصين في شرق وجنوب بحر الصين وبقيت في نصف الكرة الأرضية الخاص بها، فلن تواجه خطر الاصطدام بالسفن الصينية. علاوة على ذلك، يثير ما يطلق عليه المخططون في البنتاغون اسم طُغيان المسافة tyranny of distance، تساؤلات حول قدرة أمريكا على تكبُّد مشاق حملة ضد الصين في تلك البحار.

ومع ذلك، فإن الظروف المرافقة الأكثر صلة بالموضوع هي أعراض القوى الصاعدة والقوى الحاكمة التي شخَّصها ثيوسيديديز، وتُمثلها الصين والولايات المتحدة بصورة كاملة. والواقع أن ملامح هذه الأعراض تبدو أكثر حدة في ضوء قرن الإذلال الذي عاشته الصين، ولا سيما ذلك الإحساس الدفين بالغضب من الفظائع التي عانت منها البلاد على يد الغزاة والمحتلين اليابانيين. لذلك، تحمل النزاعات بين اليابان والصين، حول بعض الجزر في بحر الصين الشرقي، مَخاطر خاصة. وإذا نجحت حكومة رئيس الوزراء الياباني شينزو آبي Shinzo Abe، أو من يخلفه، في تعديل دستور اليابان الذي يتسم بطابع مُسالِم، ومن ثَمَّ تعزيز قدراتها العسكرية، بما في ذلك إنزال البرمائيات للاستيلاء على الجزر المتنازع عليها، فلن تكتفي الصين بمجرد الإحاطة علمًا بما يجري.

لقد لاحظ هنري كيسنجر في كتابه الأول أن "التاريخ هو ذاكرة الدول"[20]. وتُلقي هذه الذاكرة حِمْلاً ثقيلاً على القرارات الوطنية

المستقبلية. يدرك الجيشان الأمريكي والصيني أن الولايات المتحدة قد خسرت، أو على الأقل فشلت في تحقيق الفوز، في أربعٍ من الحروب الخمسة الكبرى التي خاضتها منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية[21]. (فقد كانت نتيجة الحرب الكورية، في أفضل الأحوال، تعادلاً، وكانت نتيجة حرب فيتنام خسارة، بينما لا يُنتظر أن تنتهي الحرب في العراق وأفغانستان إلى نتيجة طيبة. وحدها الحرب التي شنها جورج بوش (الأب) عام 1991، لإجبار صدام حسين على الانسحاب من الكويت يمكن أن نعتبرها انتصارًا واضحًا). في هذا السياق، صرح وزير الدفاع الأمريكي السابق روبرت غيتس Robert Gates، بما يبدو أمرًا بديهيًا واضحًا، عندما قال: "في رأيي أنّ أيّ وزير دفاع مستقبلي يقترح على الرئيس أن يرسل، مرة أخرى، جيشًا بريًا أمريكيًا كبيرًا، إلى آسيا أو إلى الشرق الأوسط أو أفريقيا، يجب أن تُفحص قواه العقلية، على حد التعبير الدقيق الذي قاله الجنرال ماك آرثر"[22]. فخلال العقود الأخيرة، أبدى المواطنون الأمريكيون، وصانعو السياسة الذين أرسلوا القوات الأمريكية إلى الحرب، مستوى متدنيًّا، بشكل غير مسبوق، من التسامح مع مسألة إزهاق أرواح الأمريكيين في القتال. هذا النفور من فكرة سقوط ضحايا، له تأثير شديد: فالمخطّطون العسكريون باتوا الآن يستبعدون نوعيات كاملة من العمليات بسبب خطورتها على الجنود، والسياسيون يتحدثون عن النصر أقل مما يتحدثون عن حماية القوات. والقادة الصينيون يدركون هذا التوجه الأمريكي جيدًا، وقد أدرجوه كعنصر مهم في مخططاتهم. وعُرِف أن بعضهم يقول متهكمًا في المحادثات التي تجري خارج الأطر الرسمية، إنّ لدى الصينيين فائضًا يقدَّر بعدة ملايين من الرجال العُزَّاب، المستعدين للموت من أجل بلدهم.

وعلى نحوٍ يماثل العلاقة بين الغازولين والكبريت أو الثقاب، يمكن للعوامل الـمُسَرِّعة accelerants أن تُحوِّل تصادُمًا عَرَضيًا، أو استفزازًا يقوم به طرفٌ ثالث، إلى حرب. ومن بين عناقيد الـمُسَرِّعات، ما يُطلِق عليه كلاوسفيتز "ضباب الحرب". ففي إطار توسيع نطاق رؤية ثوسيديديز

للحرب باعتبارها "قضية مصادفات"، يلاحظ كلاوسفيتز في كتابه المعنون عن الحرب Vom Kriege، أن "الحرب عالم مجهول، وثلاثة أرباع العوامل التي يُسْتَنَد إليها في حالة الحرب، مغلَّفة، بدرجة أو بأخرى، بضبابٍ من الريبة"[23]. هذه الريبة العميقة يمكن أن تدفع القائد أو صانع السياسة إلى التصرف بعدوانية، في حين أن توفُّر مجموعةٍ من الحقائق الأكثر اكتمالاً ووضوحًا، يمكن أن يدفعه باتجاه توخّي الحذر، والعكس صحيح.

في عام 1964، وبعد يومين من هجومٍ شنّته سفن تابعة لفيتنام الشمالية في جزيرة تونكين Tonkin، على المدمرة الأمريكية يو إس إس مادوكس USS Maddox، المخصصة لجمع المعلومات الاستخباراتية، أعلنت المخابرات الأمريكية أن المدمرة تعرضت لهجوم ثان. استفزت هذه الجرأة الفيتنامية الشمالية وزيرَ الدفاع الأمريكي روبرت ماكنمارا، فقاد حملة أقنعت الكونغرس بتمرير قرار خليج تونكين The Gulf of Tonkin Resolution، الذي جاء بمثابة إعلان رسمي للحرب على فيتنام الشمالية. ولم يعرف ماكنمارا إلا بعد عدة عقود أن تقرير المخابرات عن الهجوم الثاني لم يكن صحيحًا(*). وقد كتب ماكنمارا في ما بعد: "خُلاصة الأمر، أن الرئيس جونسون أذِنَ بالقصف، ردًا على ما اعتقد أنه هجوم ثانٍ، وهو هجوم لم يحدث". لقد لعب إنذار خاطئ دورًا أساسيًا في وضع الولايات المتحدة على الطريق إلى الفشل في فيتنام[24].

إن ظهور الأسلحة المدمِّرة التي تُحدِث "الصدمة والرعب" يجعل الضباب وعدم اليقين أكثر سوءًا. فعندما يهاجم طرف أنظمة القيادة والتحكم المتوفرة لدى خصمه، بما في ذلك الأقمار الاصْطناعيّة التي أصبحت

(*) حدث ذلك في آب/أغسطس 1964، ورغم أن أصواتًا كثيرة ارتفعت داخل الولايات المتحدة مُشككة في ما أعلنه الرئيس جونسون بنفسه عن تعرض مدمرتين أمريكيتين لهجوم من قِبَل فيتنام الشمالية، ورغم تأكيد البعض أن هذا الهجوم لم يقع في الأساس، تجاهلت الإدارة والكونغرس تلك الأصوات، ومضت في مخطط تصعيد الحرب، التي كانت قد بدأت قبل عدة سنوات. موقف لا يختلف كثيرًا عما سوف يقال بعد سنوات طويلة من تلك الواقعة، عن امتلاك العراق أسلحة دمارٍ شامل، كمبرر لغزوه. تراثٌ أمريكي أصيل، ينتقل من جيلٍ إلى جيل: مبررات، بل ووثائق، كاذبة، لتبرير سيناريوهات عدوانية معدَّة سلفًا. (المُعرِّب)

ضرورية لاستهداف البيانات والاتصالات، فإنه يستطيع شل القيادة العسكرية لذلك الخصم. ففي معارك "عاصفة الصحراء" ضد صدام حسين عام 1991، أظهرت القوات الأمريكية النسخة الأولى أو الإصدار 1.0 من هذا الخيار. لقد دمرت تلك القوات مخابرات صدام وقطعت خطوط الاتصال بينه وبين القادة العراقيين في الميدان. فوجدت قوات صدام نفسها تضرب في الأرض على غير هدى، بعد أن تم عزلها، الأمر الذي جعل الهجمات الجوية الأمريكية عليها، أشبه بعملية "إطلاق النار على أسماكٍ في برميل"، على حد تعبير بعض الطيارين الأمريكيين.

تُعتبر الأسلحة المضادة للأقمار الاصْطناعيّة واحدة من الـمُسَرِّعات التي يَتوقع المخططون العسكريون أن تلعب دورًا كبيرًا في أي صراع بين الولايات المتحدة والصين. فهذه الأسلحة، التي كانت موضوعًا لكثير من قصص الخيال العلمي لفترة طويلة، هي اليوم حقيقة واقعة من حقائق الحياة. في عام 2007، نجحت الصين في تدمير قمر اصطناعي للأرصاد الجوية، وهي منذ ذلك الحين تختبر بانتظام قدراتها المضادة للأقمار الاصْطناعيّة، وإن بشكل أقل دراماتيكية. على الجانب الآخر، تمثل الأقمار الاصْطناعيّة الأمريكية حلقة وصل حاسمة في كل جهد عسكري أمريكي تقريبًا، من الإنذار المبكِّر عند انطلاق القذائف البالستية المعادية، وتوفير الصور والتنبؤات الخاصة بالطقس، إلى التخطيط للعمليات. كما توفر الأقمار الاصْطناعيّة المخصصة لتحديد المواقع عبر العالم Global Positioning Satellites الدقة لجميع أنواع العتاد العسكري والذخائر الموجهة بدقة، وتسمح للسفن والطائرات والوحدات الأرضية بتحديد مواقعها في ساحة المعركة. إن الولايات المتحدة تعتمد على هذه التكنولوجيا أكثر من أي خصمٍ لها، وبدون تلك التكنولوجيا، لا يستطيع القائد العام نقل أوامره إلى قواته المنتشرة على الأرض، أو سفنه التي تجوب البحار، أو طائراته التي تُحلِّق في الجو. ويبقى أن نشير إلى أن الأسلحةَ المضادةَ للأقمار الاصْطناعيّة هي منظومةٌ كاملةٌ من العتاد الحربي، تبدأ بالأسلحة "الحركية"

التي تدمر أهدافَها فعليًا وتنشر حطامَها المداري في الفضاء، إلى الأنظمة الهادئة التي تستخدم أشعة الليزر للتشويش على الأقمار الاصْطناعيّة أو لتضليلها، مما يجعلها غير صالحة للعمل.

كذلك يوفر الفضاء السيبراني المزيد من الفرص للتحولات التكنولوجية المدمرة، التي يمكن أن تكون ميزة حاسمة، من جهة، ولكنها، من جهة أخرى، قد تحمل مخاطر تصعيد غير منضبط. صحيح أن التفاصيل الخاصة بالأسلحة السيبرانية الهجومية لا تزال سرية إلى أقصى درجة، وصحيح، أيضًا، أنها تتطور باستمرار، غير أن الجمهور قد شاهد لمحاتٍ منها في بعض الحالات، مثل الهجمات السيبرانية الأمريكية ضد البرنامج النووي الإيراني[25]. تستطيع الآن المنظمات السيبرانية الرئيسية في الولايات المتحدة، أي وكالة الأمن القومي National Security Agency، والقيادة السيبرانية الأمريكية US Cyber Command، وكذلك نظراؤها الصينيون، استخدام الأسلحة السيبرانية لإغلاق الشبكات العسكرية، ومرافق البنية التحتية المدنية الحيوية مثل شبكات الكهرباء، دون حاجة إلى ضجيج المدافع. علاوة على ذلك، يستطيع الأمريكيون والصينيون على حدٍ سواء، من خلال توظيف الخوادم الوسيطة proxies، وتجميع شبكة دولية من أجهزة الكمبيوتر المُختَرَقة، إخفاء المصدر الأصلي للعملية السيبرانية، مما يؤدي إلى إبطاء قدرة الضحية على الكشف عن هوية المهاجم.

وعلى غرار الأسلحة المضادة للأقمار الاصْطناعيّة، يمكن أن تغير الأسلحة السيبرانية ميزان المعركة بشكل حاسم، من خلال تعطيل منظومة القيادة والتحكم، واستهداف المعلومات التي تعتمد عليها الجيوش الحديثة، فضلاً عن أنها تقوم بذلك كله دون إراقة الدماء. لكنّ هذا الأمر ينطوي على مفارقة خطيرة: فالأعمال ذاتها التي يعتقد المهاجمون أنها سوف تُخمِد الصراع وتُنهيه (بأن تقتله وهو لا يزال في مهده)(*)، يمكن أن يراها

(*) أضفت الجملة الموجودة بين قوسين من عندي، لإيضاح إبهام نص المؤلف في هذه العبارة. (المُعرِّب)

الطرف الذي يقع عليه الهجوم أعمالاً متهورة ومستفزة (تتطلب الرد عليها، ربما بأعنف منها)(*) حتى لو اقتصرت ساحة المعركة الفعلية أو المادية على بحر الصين الجنوبي، فإن القدرات السيبرانية تسمح لكل طرفٍ بالوصول إلى عناصر البنية التحتية غير الحصينة لدى الطرف الآخر، مثل تعطيل الشبكات الكهربائية، أو المستشفيات، أو أجزاء من المنظومة المالية. بالمثل، فإن الهجمات السيبرانية التي تعطل الاتصالات، سوف تزيد ضبابَ الحربِ كثافةً وقتامةً، مما يخلق ارتباكًا يضاعف احتمال سوء التقدير والحسابات الخاطئة.

صحيح أن كلاً من الولايات المتحدة والصين تملك ترسانة نوويةً يمكن أن تنجو من الضربة الأولى التي يشنها عليها الطرف الآخر وتظل قادرة على توجيه ضربة انتقامية، لكنّ أيًا منهما ليست على يقين من أن ترسانتها السيبرانية تستطيع أن تتحمل هجومًا سيبرانيًا خطيرًا. فعلى سبيل المثال، قد يشل هجومٌ سيبرانيٌ صينيٌ واسع النطاق ضد شبكات الجيش الأمريكي، ولو مؤقتًا، قدرةَ واشنطن على الرد بهجومٍ سيبراني مماثل، أو قدرتَها على تشغيل بعض أنظمة القيادة والتحكم وأنظمة المراقبة المهمة. وهذا يفرِض ديناميكية خطرة تقوم على فكرة مفادها "إما أن أستخدم قوتي، أو أخسرها"، مولِّدةً لدى كل طرف حافزًا للهجوم على الروابط الأساسية في شبكات الكومبيوتر الخاصة بالطرف الآخر لتعطيلها، قبلَ أن تُعَطِّل شبكاتُ الخصم تلك شبكاتِه هو.

قد يدعو فصيل في بيجين أو واشنطن إلى شن هجوم سيبراني صغير الحجم، يكون بمثابة إطلاق طلقة تحذير، لا تقتل أحدًا، ولا تثير حالة من الذعر وسط الجماهير، لكنها تحمل رسالة تهديد بشن هجمات سيبرانية واسعة النطاق، على البنية التحتية العسكرية أو المدنية. ولكن، إذا لم يفسر الخصمُ المُهاجَمُ الهجوم الصغير بهذه الطريقة، قد يؤدي ذلك إلى حدوث

(*) أضفت الجملة الموجودة بين قوسين من عندي، لإيضاح إبهام نص المؤلف في هذه العبارة. (المُعرِّب)

تصعيد سيبراني سريع على طريقة العين بالعين. ومع إدراك الجانبين لمفهوم "إما أن تستخدم قوتك، أو تخسرها"، وخوف كل منهما من نقاط ضعفه، قد يُسيء أيٌّ منهما تفسير هجوم جارٍ، فيردُّ منتقمًا، بشكل غير متناسب، منتهزًا فرصة أن أسلحته السيبرانية لا تزال سليمة.

كذلك، قد تؤدي سلسلةٌ من الـمُسَرِّعات الخطيرة في الفضاء السيبراني، إلى وضع الولايات المتحدة والصين، دون تعمُّد، في حالة صراع. أولاً، يمكن أن تنظم الصين حملة من الإنكار والخداع كفيلة بإقناع المحققين بأنها لم تكن متورطة في هجوم عدائي، مما يدفعهم إلى إلقاء اللوم على طرف ثالث، بدلاً منها. وعادةً ما تستخدم مثل هذه الحملات شخصيات كاذبة تنشط على وسائل التواصل الاجتماعي، أو منظمات إعلامية شريكة، أو مؤشرات كاذبة زرعتها برمجيات خبيثة malware، لصرف المحققين الأمريكيين عن الحقيقة. وإذا كانت هذه الحملة فعّالة، فهي تزيد ضبابَ الحربِ كثافةً وقتامةً.

قد يعمل مُسَرِّع آخر على تعريض سرية الشبكات الحساسة للخطر. بعض هذه الشبكات يكون ظاهرًا، مثل تلك التي تُشَغِّل أجهزة القيادة والتحكم النووية. البعض الآخر يمكن أن ينظر إليه كل طرف بشكل مختلف. ولنأخذ مثلاً منظومة جدار الحماية الصينية الكبرى Great Firewall، وهي مجموعة من الأجهزة والبرامج التي تُمكِّن بيجين من مراقبة ومنع أجزاء واسعة من المحتوى المتداول عبر الإنترنت. تستطيع واشنطن أن تعطل أحد الأنظمة الأساسية لهذه المنظومة، وذلك بنيّة استخدام هذا التعطيل كتحذير سري متواضع. غير أن القادة الصينيين، الذين يعتبرون القدرة على التحكم في المعلومات التي يتصفحها المواطنون الصينيون أمرًا حيويًا، يمكن أن يسيئوا فهم الإجراء الأمريكي ويعتبروه رأس رمح لعملية تهدف إلى تغيير النظام.

مقارنة بالمعدات الحربية الأكثر فتكًا، خاصة القنابل النووية، تَعِد الأسلحة السيبرانية بمستوى متميز من الدقة والإحكام. غير أن هذا الوعد

خادع. فالترابط المتزايد بين الأنظمة والأدوات والأجهزة، يؤدي إلى حدوث ما يعرف بتأثير الدومينو domino effect. وبما أن المهاجمين أو المُقرْصِنين لا يستطيعون تحديد كيف يمكن أن يؤثر اختراق نظام ما على الأنظمة الأخرى، سيكون من الصعب عليهم تقييم آثار عملياتهم بدقة، من أجل تجنُّب أيّ تصعيد غير مقصود. في عام 2016، كان هناك 180 ألف نظام من أنظمة المراقبة الصناعية المتصلة بالإنترنت، تعمل حول العالم[26]. ومع انتشار ما يُطلق عليه إنترنت الأشياء(*) Internet of Things، الذي يشمل حوالي 10 مليارات جهاز في جميع أنحاء العالم، أصبحت الأهداف التي تُغري الخصوم بالهجوم عليها تتزايد بسرعة كبيرة. إن الأضرار الجانبية في المجال السيبراني يمكن أن تكون قاتلة ومدمرة، كما هو الحال بالنسبة للأضرار التي تحدثها الحروب التقليدية. فقَرْصَنةَ هدفٍ عسكري، على سبيل المثال، قد تُعطل عن غير قصد نظامًا يستخدمه مجمع طبي أو مالي. وفي حين يؤكد القادة الأمريكيون، مرارًا وتكرارًا، أن الولايات المتحدة تملك أكبر أسلحة الحرب السيبرانية، فإنهم يعترفون، أيضًا، بأن الولايات المتحدة تعيش في أشد البيوت الزجاجية هشاشة.

في الستينيات من القرن الماضي، اقترح عالم المُستقبليَّات هيرمان كاهْن Herman Kahn (أحد أبرز خبراء الاستراتيجية في زمن الحرب الباردة، والذي مثَّله بشكل ساخر الممثل بيتر سيلرز Peter Sellers، في فيلم دكتور سترانجلوف(**) سلَّمًا تصاعديًا مكوَّنًا من 44 درجة، تبدأ من

(*) أحدث تطبيقات أو استخدامات شبكة الإنترنت، حيث يتم توصيل الأشياء أو الأدوات التي نستخدمها في حياتنا اليومية بالشبكة العالمية، الأمر الذي يتيح لمالك الجهاز تشغيله أو إيقافه عن بُعد، من خلال هاتفه المحمول. على سبيل المثال، يمكن تشغيل الفرن الكهربائي لتسخين الطعام وإغلاقه بعد إتمام عملية الطهو، أو تشغيل أجهزة التكييف لتبريد المنزل أو تدفئته، قبل الوصول إليه بفترة كافية. كما تستطيع الأجهزة المتصلة بإنترنت الأشياء، مثل البرادات وغسالات الملابس والمكيفات والتلفزيونات، أن تتصل مباشرة بمراكز الصيانة المتخصصة للإبلاغ عن أي عطل ألمَّ بها، حتى قبل أن يكتشف المالك وجود هذا العطل. (المُعرِّب)

(**) يشير المؤلف هنا إلى فيلم دكتور سترانجلوف أو: كيف تعلمت أن أكف عن القلق وأعشق القنبلة Dr. Strangelove or: How I Learned to Stop Worrying and Love the Bomb، وهو

"مناورة أزمة فرعية" وصولاً إلى حرب نووية على نطاق شامل[27]. تحتل أولى درجات سلَّم هيرمان كاهْن الأزمةُ الظاهريةُ(*) ostensible crisis، أو الشرارة spark. وقد أوضح كاهْن أنه في وقت الأزمات، نادرًا ما تعتلي قوتان درجات السلم بطريقة منهجية، وبتصاعدٍ تدريجي. فالظروف المرافقة والـمُسَرِّعات يمكن أن تدفع إحداهما أو كلتاهما إلى تخطي بعض الدرجات. وبينما تتحرك الدولتان صعودًا على درجات السلم، تقيِّم كل منهما موقعها من منافِستها عند كل درجة من تلك الدرجات، وتحسب كيف سيكون موقع كل منهما على الدرجة التالية من درجات السلم. وقد تُشكِّل عملية التقييم المتواصلة هذه استعدادًا لقبول حالة الجمود أو الهزيمة، كبديل للتصعيد إلى مستوياتٍ أكثرَ تدميرًا من الحرب. في كثير من الأحيان، قد تتمتع إحدى الدولتين بالتفوق على مدى عدة خطوات أو درجات، ثم لا تلبث أن تجد نفسها الأضعف في الدرجات الأعلى من السلم. وبينما يفضل كل طرف أن يستقر في نقطة يكون له عندها اليد العليا، يجب أن يجد شروطًا تحظى بقبول خصمه الذي يعرف أنه يمتلك خيار التصعيد إلى مستويات أكثر تدميرًا من الصراع، ستكون له فيها اليد العليا.

لقد شبَّه عالِم الاقتصاد، الحائز على جائزة نوبل، توماس شيلينغ Thomas Schelling، المنافسة الاستراتيجية الأساسية بين القوى النووية العظمى، بلعبة الدجاج(**) game of chicken. ففي الشكل الكلاسيكي للعبة، التي كان المراهقون الباحثون عن الإثارة يلعبونها في الخمسينيات من القرن الماضي، يقف اثنان من سائقي سيارات الهوت-رود hot-rods(***)

واحد من أبرز أفلام الكوميديا السوداء التي أنتجت في حقبة الستينيات التي شهدت نهضة سينمائية أوروبية. وقد أخرج هذا الفيلم المخرج البريطاني الشهير ستانلي كوبريك Stanley Kubrick، عام 1964، عن رواية حالة استعداد قصوى Red Alert، التي كتبها الروائي البريطاني بيتر جورج Peter George، عام 1958. (المُعرِّب)

(*) أي الأزمة التي يوحي مظهرها بأنها أزمة حقيقية، وربما خطيرة، بينما هي، في الحقيقة، ليست كذلك. (المُعرِّب)

(**) تُعرف هذه اللعبة في بعض الأدبيات بلعبة الصقر والحمامة hawk-dove game. (المُعرِّب)

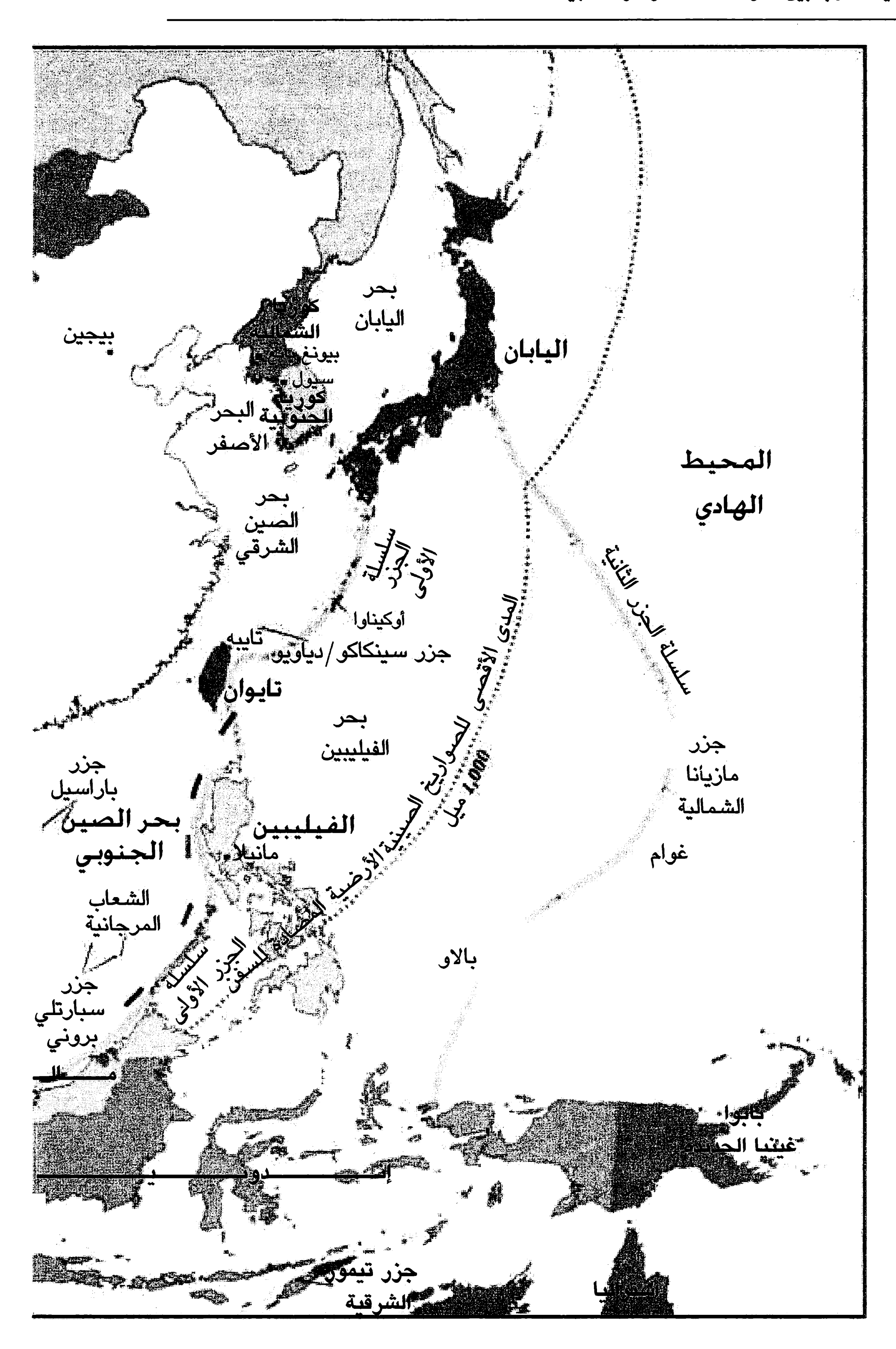
(***) تسمية تطلق على نوعية من السيارات القديمة، التي يجرى تزويدها بمحرك جديد قوي، قادر

أحدهما في مواجهة الآخر، بحيث يضع كل منهما الدولاب الأيسر لسيارته على الخط الأوسط من الطريق. ثم يقود كل منهما سيارته في الاتجاه المعاكس لاتجاه الآخر بسرعة هائلة، في مسارٍ يقود إلى تصادمٍ حتمي عنيف بين السيارتين. ووفقًا لقواعد اللعبة، فإن السائق الذي ينحرف عن ذلك المسار، متفاديًا التصادم، هو الدجاجة(*)، بينما يحصل الآخر على جائزة اللعبة، وهي عادة فتاة. وإذا لم ينحرف أحدهما، مُتنحيًا جانبًا، يقع التصادم بين السيارتين، ويموت السائقان.

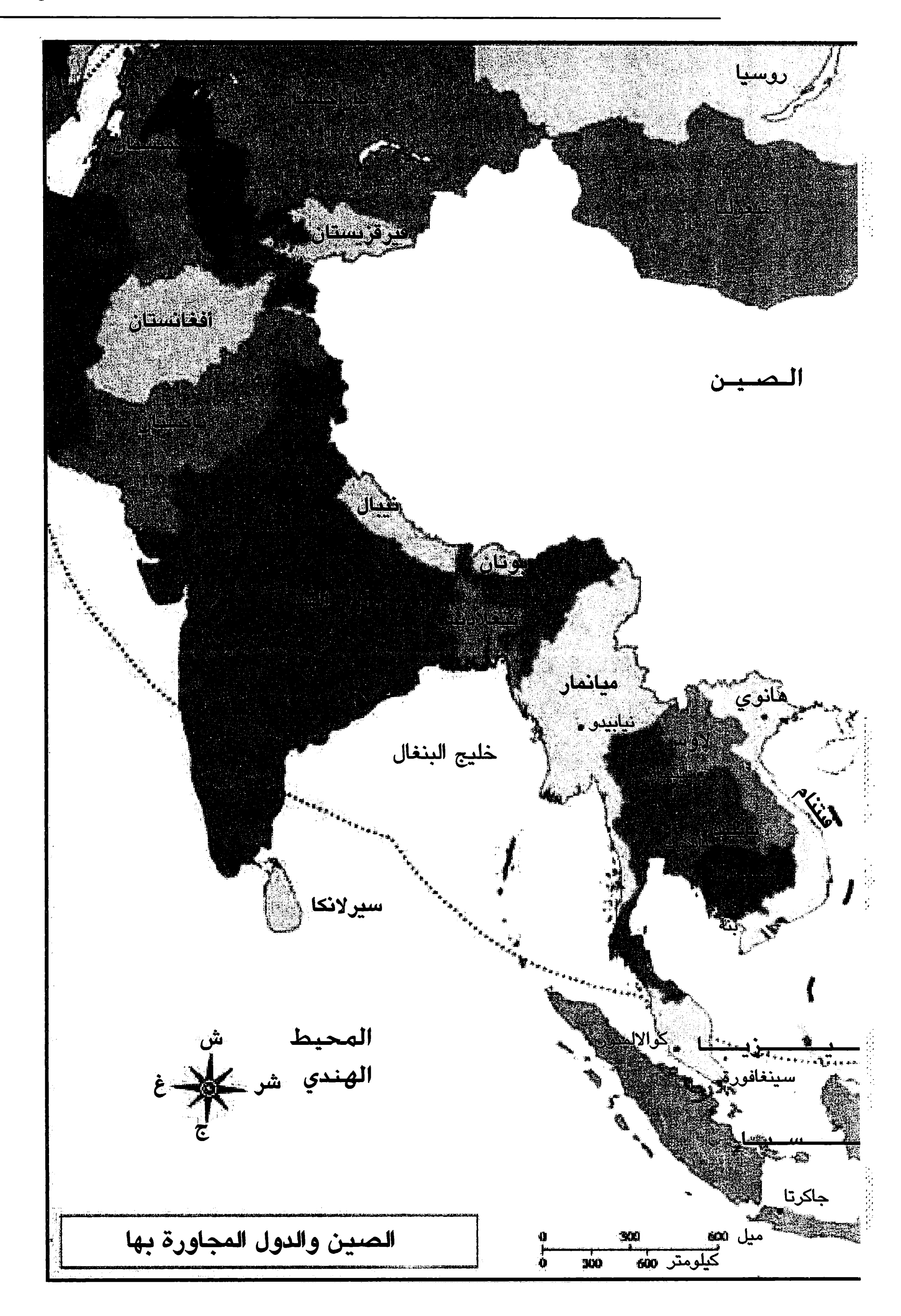
من خلال تحميل السفن وإطلاق أزيز الطائرات لاحتلال أو بناء الجزر، يمكن للدولة أن تجبر خصمها على المشاركة في هذه اللعبة القاتلة: امضِ قُدُمًا في طريقِك، وجازِفْ بوقوعِ تصادمٍ قاتلٍ، أو تَجنَّب هذا التصادم، ولكن في مقابل الخضوع والاستسلام. والخصم الذي يميل دائمًا إلى التخلي عن موقعه بدلاً من المخاطرة بالتصادم، سوف يُدْفَع، خطوة بخطوة، إلى خارج الطريق، أو إلى خارج الممرات البحرية بالكامل. كل طرف يعرف هذا، ويعرف أن الطرف الآخر يعرف أنه يعرف. لهذا، وكما علَّمَنا شيلينغ، فإن الصراع الاستراتيجي الذي لا يصل إلى الحرب الساخنة، هو في الأساس مسابقة في المجازفة. فالدولة التي تستطيع إقناع خصمها بأنها أكثر التزامًا منه بتحقيق هدفها، أو أكثر استعدادًا للمجازفة في سعيِها إلى تحقيقه، تستطيع أن تجبر الخصم على أن يكون أكثر إحساسًا بالمسؤولية، وأكثر استعدادًا للتنحي جانبًا.

على الانطلاق بسرعة منتظمة. ونادرًا ما تُستعمل هذه السيارات في أغراض أخرى، بخلاف سباق التصادم المعروف بلعبة الدجاج. وفي هذا السياق يطلق على سائق هذه النوعية من السيارات هوت-رودّر Hot-rodder. (المُعرِّب)

(*) المقصود هنا هو ما تعنيه كلمة دجاجة في العامية الأمريكية، حيث يطلق لفظ دجاجة على الشخص الجبان، الذي يهرب من المواجهة، بغض النظر عن موضوع أو نوعية تلك المواجهة. (المُعرِّب)



بحر
اليابان
اليابان
بيجين
بيونغ يانغ
سيول
البحر
الأصفر
بحر
الصين
الشرقي
المحيط
الهادي
سلسلة الجزر الأولى
سلسلة الجزر الثانية
أوكيناوا
جزر سينكاكو/دياويو
تايبيه
تايوان
المدى الأقصى للصواريخ الصينية الأرضية المضادة للسفن
1,000 ميل
بحر
الفيليبين
جزر
مازيانا
الشمالية
غوام
جزر
باراسيل
بحر الصين
الجنوبي
الفيليبين
مانيلا
الشعاب
المرجانية
جزر
سبارتلي
بروني
بالاو
سلسلة الجزر الأولى
جزر تيمور
الشرقية



الصين والدول المجاورة بها

صِدامٌ غير مقصود في البحر

الشَرَر المحتمل عادي إلى حدٍ مخيف. ففي الوقت الحالي، تعمل السفن الحربية والطائرات التابعة للولايات المتحدة وحلفائها، على مقربة من نظيراتها الصينية، أقرب من أي وقت مضى. والمُدَمِّرات البحرية الأمريكية المزودة بصواريخ موجهة، تمارس بشكل دوري، ما يعرف بحرية الملاحة، بالقرب من الجزر التي تسيطر عليها الصين، في المياه المتنازع عليها في بحر الصين الجنوبي. وهنا، فلنفترض أنه خلال عملية روتينية، مرت مُدَمِّرة أمريكية بالقرب من جزيرة ميسْشِيف Mischief Reef، وهي واحدة من الجزر التي شيَّدتها الصين وبنت عليها مدارج للطائرات، ونصَّبت على أرضها أنظمةً دفاعية مضادة للطائرات والصواريخ. (لتخيُّل هذا السيناريو وما سيليه من سيناريوهات، يمكن إلقاء نظرة على خريطة الصين والمناطق المحيطة، الموجودة على صفحتي (330، 331). ونعود إلى السيناريو الافتراضي. بينما تقترب المُدَمِّرة الأمريكية من الموقع المتنازَع عليه، تتحرش بها بعضُ سفن خفر السواحل الصينية، مثلما فعلت خلال حادث كاوبينز. لكن على العكس مما حدث في الماضي، تمتنع المُدَمِّرة عن القيام بحركة تملُص (أو تعجز عن القيام بها في الوقت المناسب)، فتصطدم بسفينة صينية، وتُغرقها، وتقتل جميع مَن كانوا على متنها.

يضع هذا الحادث الحكومةَ الصينية أمام ثلاثة خيارات. المسار المسالم، وهو تجنُّبُ التصعيد من خلال السماح للمُدَمِّرة الأمريكية بمغادرة المنطقة، وتقديم احتجاج على أفعالها من خلال القنوات الدبلوماسية؛ أو المسار التصعيدي الذي تسلك فيه الصين منهج العين بالعين، فتُغرق المُدَمِّرة باستخدام الطائرات أو الصواريخ المتمركزة في الجزيرة؛ أو المسار الوسط الذي يمكن أن تختاره بيجين إذا رفضت أن تكون "دجاجة" وفي الوقت نفسه لم ترغب في التصعيد. وفي هذا المسار الوسط، بينما تحاول المُدَمِّرة الأمريكية مغادرة المنطقة، يعترض طريقَها طرَّادٌ تابعٌ لجيش

التحرير الشعبي الصيني، ويجبرها على دخول المياه الإقليمية الصينية، ويُطالب أفراد طاقمها بالاستسلام، لتقديمهم إلى العدالة، بتهمة قتل أفراد من خفر السواحل.

قد تعتقد الصين أنها تمنع التصعيد من خلال اتباع سياسة تسمح بحل دبلوماسي مماثل للصفقة التي سمحت للطاقم الأمريكي بالعودة إلى الوطن في أعقاب حادثة الطائرة التي اضطرت للهبوط قرب جزيرة هاينان، عام 2001. غير أن الولايات المتحدة ترى أن مضايقات الصين المتهورة للمُدَمِّرة هي السبب الرئيسي لوقوع التصادم، وأن محاولة الصين اعتقال البحارة الأمريكيين في المياه الدولية من شأنها أن تُقوِّض مبادئ قانون البحار، وأن الاستسلام سوف تكون له تداعيات بعيدة المدى: فإذا لم يقف الجيش الأمريكي في مواجهة الصين للدفاع عن العمليات التي تقوم بها البحرية الأمريكية، فما هي الرسالة التي يرسلها هذا الامتناع إلى حلفاء أمريكا، بما في ذلك اليابان والفيليبين؟

ولأن الولايات المتحدة غير مستعدة لتقويض مصداقيتها من خلال الاستسلام، يمكنها أن تأمر المُدَمِّرة، ببساطة، بأن تُغْرِق الطرَّاد الصيني الذي يعترض طريقها. كما يمكنها، بدلاً من ذلك، ولتجنُّب إراقة مزيد من الدماء، ولإظهار قدر من الحساسية أو الاحترام للضغوط القومية التي يواجهها القادة الصينيون في الداخل، أن تختار استعراض القوة من أجل إجبار الطرَّاد على أن يتراجع سلميًا. وفي هذا المجال، تستطيع القيادة الأمريكية في المحيط الهادي، التي يقع مقرها في هاواي، بالتشاور مع القادة في واشنطن، أن ترسل أية طائرة قريبة، لتُحلِّق فوق المنطقة، وأن ترسل واحدة من حاملات الطائرات التي تتمركز في اليابان إلى بحر الصين الجنوبي، ثم ترسل القاذفات من طراز B-2 إلى غوام Guam. وبهذه الإجراءات، يعتقد المسؤولون الأمريكيون أنهم يثبتون جديتهم، دون المخاطرة بأي تصعيد آخر.

غير أن بيجين ترى هذه الأحداث بصورة مختلفة، خاصة مع انتشار

ضباب الحرب. فالوضع كما تراه الصين الآن، هو كما يلي: لقد أغرقت الولايات المتحدة، بالفعل، سفينة صينية. وها هي عشرات الطائرات الأمريكية تُحلِّق عاليًا، مهددة بالهجوم على الطرَّاد الصيني، وسفن حربية صينية أخرى، فضلاً عن المنشآت العسكرية الصينية في الجزر المجاورة. وإذ يدرك القادة الصينيون غضب شعبهم، فإنهم يدركون أيضًا، وبشكل خاص، أن أي سفك دماء إضافي من جانب الولايات المتحدة، سوف يجبرهم على الانتقام بقوة.

لكن الأحداث تخرج عن نطاق سيطرة بيجين. فمع اندفاع الطائرات المقاتلة الأمريكية إلى مكان الحادث لمساعدة المُدَمِّرة التي تقطعت بها السبل، ينتاب الذعرُ طاقمَ بطارية مدفعية صينية مضادة للطائرات، فيطلق النار على الطائرات القادمة. وتقوم الطائرات الأمريكية بحركات مُراوِغة يائسة للإفلات من النيران الصينية، وتبدأ المُدَمِّرة في إطلاق النار على مواقع المدفعية الصينية المضادة للطائرات في الجزيرة. وهنا يأمر القائد الصيني المحلي، الذي يتعرض لهجوم من البحر والجو، بقصف المُدَمِّرة الأمريكية بالصواريخ المضادة للسفن، من البطاريات التي تتمركز على أرض الجزيرة. تنطلق الصواريخ الصينية بالفعل، وتصيب أهدافها، مما يُسفر عن مقتل المئات من البحارة، وغرق المُدَمِّرة. بينما تتقطعُ السبلُ بمن نجحوا في الفرار، في قوارب النجاة الصغيرة.

يبذل القادة الصينيون محاولات يائسة لتجنُّب الدخول في حرب شاملة مع الولايات المتحدة، لكنهم لا يستطيعون الاعتراف بأن تسلسل قيادتهم قد انهار. لهذا، يزعمون أن أفعالهم كانت استجابة دفاعية متناسبة، وأن المُدَمِّرة الأمريكية، المسؤولة عن غرق سفينة حرس سواحل صينية، هي المعتدية. يصاب المسؤولون الأمريكيون بصدمة هائلة، لأن الصينيين قد أغرقوا مُدَمِّرة تبلغ قيمتها 3 مليارات دولار، وقتلوا مئات البحارة الأمريكيين. ورغم القلق من الدخول في حرب مع الصين، لا يستطيع أولئك الذين يجلسون في غرفة الطوارئ في البيت الأبيض أن يتراجعوا. فالفيديو

الذي يُظْهر حطام المُدَمِّرة، والبحارة الأمريكيين الذين تقطعت بهم السبل، والذي يُبَث على الشبكات الإخبارية، وشبكات التواصل الاجتماعي، يجعل التراجع أمرًا مستحيلاً، خاصة أن كل ذلك يجري بينما يدعو الكثيرون من أعضاء الكونغرس الإدارة إلى الموافقة على خطط الحرب القائمة على العقيدة القتالية التي كانت تُعرف في السابق باسم المعركة البحرجويَّة، والتي تدعو إلى شن غارات جوية مكثفة ضد أنظمة الصواريخ والرادار في البر الصيني الرئيسي. غير أن الرئيس الأمريكي، الذي يدرك أن الهجوم على البر الصيني الرئيسي سوف يؤدي إلى نشوب حرب شاملة، يأذن لقيادة قواته في المحيط الهادي بتدمير القواعد العسكرية الصينية المُقامة على الجزر المتنازع عليها في بحر الصين الجنوبي. ويرى الرئيس أن قراره هذا يمثل ردًا متناسبًا، لأن هذه الجزر مسؤولة، بشكل مباشر، عن إغراق المُدَمِّرة، بالإضافة إلى أن إزالة هذه القواعد العسكرية، سيسمح للسفن الأمريكية بإنقاذ البحارة الذين تقطعت بهم السبل في المنطقة. والأهم من ذلك، أن مثل هذا الإجراء لا يستهدف سوى الجزر الاصْطناعيّة التي أنشأتها الصين مؤخرًا، دون المساس ببرِّ الصين الأصلي، أو أرض الصين الأم.

غير أن الرئيس شِي جينْ بينْغ وغيره من المسؤولين الصينيين لا يعترفون بهذا التمييز. فعلى مدار سنوات، كانوا يؤكدون لجماهير شعبهم أن الصين تتمتع بسيادة لا تُنازَع على هذه الجزر، وأن تلك الجزر، بالنسبة لهم، جزء لا يتجزأ من الصين، وقد هاجمتها الولايات المتحدة للتو. (يجب على الأمريكيين الذين يسخرون من هذا أن يتذكروا أن الهجوم الياباني على بيرل هاربور لم يصطدم بالبر الرئيسي ولا حتى بولاية أمريكية، ومع ذلك استطاع أن يحشد الأمة للحرب). ويطالب الكثيرون في الصين الرئيس شِي بأن يأمر جيش التحرير الشعبي بتدمير القواعد العسكرية الأمريكية في غوام، واليابان، وأماكن أخرى في المحيط الهادي، بل إن البعض يريد أن تهاجم الصين أراضي الولايات المتحدة نفسها. لا أحد يدعو الصين إلى ممارسة ضبط النفس. كل ذلك بينما يُذَكِّر المواطنون حكومتَهم، من خلال

ملايين التعليقات التي رفعوها على صفحات وسائل التواصل الاجتماعي، بأن الحزب الشيوعي الحاكم وعد الشعب الصيني، بعد قرن الإذلال على أيدي القوى الأجنبية بأن "لن ننس ذلك ما حيينا، ولن نسمح بتكراره أبدًا!".

ومع ذلك، فإن الرئيس شِي لا يزال متمسكًا بالأمل في إمكانية تجنُّب الحرب، وهو أمل سوف يصبح مستحيلاً إذا بدأت الصين في مهاجمة القواعد العسكرية الأمريكية في غوام أو اليابان، فتقتل الجنود والمدنيين، وتفتح الباب أمام هجمات انتقامية، تشنها أمريكا على البر الصيني الرئيسي. لذلك، ورغبة منه في الرد بشكل متناسب على الهجوم الأمريكي على القواعد المقامة على الجُزر الصينية، يوافق شِي على خطة بديلة اقترحها رئيس قوة الدعم الاستراتيجي الجديدة التابعة لجيش التحرير الشعبي وهي استخدام أسلحة الليزر، والأسلحة الإلكترونية، والأسلحة الحركية، لتدمير أو تعطيل جميع الأقمار الاصْطناعيّة العسكرية الأمريكية، التي تتخذ لنفسها مدارًا فوق منطقة الأزمة، وشن هجمات سيبرانية لعرقلة أنظمة القيادة والتحكم الأمريكية في جميع أنحاء منطقة آسيا والمحيط الهادي. والهدف من ذلك هو تخفيف حدة التوتر، حيث يأمل شِي في إصابة الولايات المتحدة بصدمة تدفعها إلى التراجع.

(غير أن الأمور لا تسير كما كان يتوقع الرئيس الصيني، أو كما كان يتمنى)[*]. فالولايات المتحدة ترى أن هذه الهجمات التي أصابت منظومتها العسكرية بالعمى، لا يمكن تمييزها عن المرحلة الأولى من الهجوم المنسق على حاملة الطائرات الأمريكية، ومجموعتها الضاربة المبحرة من اليابان، وهو الحدث الذي قضى جيش التحرير الشعبي، من أجله، عشرات السنين في تطوير صواريخه البالستية، التي تُسمى "قاتلة حاملات الطائرات". إن حاملة الطائرات التي يبلغ وزنها 90000 طن، المدينة العائمة التي يسكنها

(*) أضفتُ الجملة الموجودة بين قوسين من عندي، لإيضاح إبهام نص المؤلف في هذه العبارة. (المُعرِّب)

5500 بحار، وتصفها الولايات المتحدة بأنها أرض أمريكية ذات سيادة، هي ببساطة أكبر من أن تُهزم. إن الرئيس غير مستعد للمجازفة. لكنه، وبناء على نصيحة من رئيس هيئة الأركان المشتركة، يوافق، على مضضٍ، على الخطة الوحيدة الجاهزة في غضون مهلة قصيرة، والتي توفر فرصة لإنقاذ حاملة الطائرات، وهي خطة حرب تستند إلى فكرة الحرب البحرجوية. فباستخدام الأصول التي لا تزال صالحة للاستعمال بعد الهجوم الصيني، يبدأ الجيش الأمريكي في تدمير "سلسلة القتل" الصينية، التي تتكون من أنظمة الأقمار الاصْطناعيّة، وأجهزة المراقبة المختلفة، التي تسمح لبيجين باستهداف حاملات الطائرات الأمريكية بدقة، من خلال صواريخها المضادة للسفن. كذلك تشن القوات الأمريكية هجمات بصواريخ كروز وأخرى بصواريخ تطلقها الطائرات القاذفة الشبحية التي لا يمكن لأجهزة الرادار كشفها، على مواقع صواريخ جيش التحرير الشعبي الصيني، وعدد من القواعد الجوية في بر الصين الرئيسي، التي يمكن أن تستخدم في أي لحظة لإغراق السفن الأمريكية في أي مكان نطاق سلسلة الجزر الأولى.

تستفز تلك الهجمات، بالضبط، ما كان يُفْترض أن تُخْمِده. إن بر الصين الرئيسي يتعرض الآن للهجوم، وأنظمة تحديد الهدف اللازمة لتشغيل الأسلحة الصينية المضادة للسفن توشك على الضياع، ويجب على الصين أن تستخدمها قبل أن تخسرها. لهذا، يأمر شِي قواته بالهجوم على جميع السفن الحربية الأمريكية التي تقع في مرمى النيران الصينية، بما في ذلك مجموعة حاملات الطائرات. تعترض طائراتُ القوات الجوية الأمريكية والطائراتُ المرافقةُ للوحدات البحرية، الطائراتِ الصينيةَ القاذفةَ والمقاتلةَ، التي تنطلق نحو حاملة الطائرات، لكن سربًا من الصواريخ البالستية DF-21D، المسماة بقاتلة حاملات الطائرات، والذي أطلِق باتجاه الحاملة، أثبت أنه أكبر مما يمكن التعامل معه أو مواجهته. ويصل ما يكفي من تلك الصواريخ إلى هدفه لإغراق الناقلة وقتل أكثر من 5500 بحار كانوا على متنها، وهو عدد يفوق بكثير عدد مَن لقوا حتفهم خلال الهجوم على بيرل

هاربور. وهكذا، يمكن القول إن ديناميكيات لعبة الدجاج بالأسلحة السيبرانية والفضائية بدلاً من سيارات الهوت-رودّ، حوَّلت شرارةً صغيرةً، فوق بحر الصين الجنوبي، إلى جحيمٍ من النيران المُسْتَعِرة.

تايوان تتحرك نحو الاستقلال

لو كانت تايوان دولة مستقلة، لأصبحت من بين أكثر البلدان نجاحًا في العالم. فقد طور سكانها المجتهدون، البالغ عددهم ثلاثة وعشرين مليونًا، اقتصادَ سوقٍ يصل حجمه إلى ضعف حجم اقتصاد الفيليبين، أو تايلاند، أو فيتنام. وعلى الرغم من أن الكثيرين في تايوان يريدون الاستقلال، فإن الصين تعتبرها مقاطعة صينية، وهي مستعدة لبذل كل ما بوسعها لمنعها من تأكيد سيادتها. أضِفْ إلى ذلك كله، أنه لا توجد دولة أخرى، مستعدة لمحاربة الصين بسبب هذه القضية.

فلنفترض أن الحكومة الصينية، رغم ذلك، قررت أن تزيد القمع في الداخل بشكل كبير، بما في ذلك في هونغ كونغ، حيث كانت قد وعدت بالحفاظ على قدر كبير من الحكم الذاتي والحرية، عندما استردت السيطرة على المدينة من بريطانيا عام 1997. سوف يسيطر الغضب العارم على سكان هونغ كونغ، بسبب تراجع الحكومة الصينية عن وعودها السابقة، فيخرجون إلى الشوارع، مطالبين بأن تحافظ بيجين على الالتزام الذي قطعته على نفسها وهو "دولة واحدة، ونظامان". ومع استمرار الاحتجاجات لأسابيع دون أن يبدو في الأفق حلٌّ، يأمر شِي الجيش الصيني بأن يفعل ما فعله في ساحة تيانانمن عام 1989، أي قمع الاحتجاجات.

يصدم العنف الذي نتج عن نزول الجيش مواطني تايوان، وخاصة من الجيل الأصغر سِنًّا. تتصاعد المشاعر المؤيدة للاستقلال والمعادية لبيجين. ووسط هذه الأجواء الملتهبة، تُشجِّع تلك المشاعرُ الغاضبةُ الرئيسةَ التايوانية، فتكثِّف الخطاب الذي يؤكد على حقوق شعبها والديمقراطية، اللتين

اكتسبهما الشعب بشق الأنفس. ويذهب حلفاء الرئيسة السياسيون إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث يصرون على أن ما حدث في هونغ كونغ يثبت أن تايوان لا تستطيع أبدًا أن تضمن حرية مواطنيها دون أن تكون دولة مستقلة ذات سيادة. على صعيد آخر، وفي إشارة واضحة إلى عدم الموافقة على تراجع الصين عن تعهداتها تجاه هونغ كونغ، يعلن الرئيس الأمريكي بوضوح عن احترامه لموقف الرئيسة التايوانية القوي، ويعلن أن قانون العلاقات مع تايوان Taiwan Relations Act الذي أُقِّر عام 1979 يُلزم الولايات المتحدة بالدفاع عن تايوان ضد الغزو الصيني.

يُمثِّل هذا الإعلان خرْقًا كبيرًا لسياسة "الغموض الاستراتيجي"، التي تتبعها الولايات المتحدة حيال قضية تايوان، منذ فترة طويلة، كما تترجمه الرئيسة التايوانية على أنه تأييد ضمني لتحركها نحو الاستقلال. وفي مقابلة مع صحيفة نيويورك تايمز، تعلن أن بلادها سوف تتقدم بطلب للحصول على عضوية كاملة في الأمم المتحدة (وهي الخطوة التي تعارضها الصين منذ فترة طويلة)، كما تعلن رفضها لما يسمى بتوافق 1992، الذي قَبِل الطرفان بموجبه مفهوم "الصين الواحدة" مع السماح بوجود تفسيرات مختلفة لما يعنيه هذا المفهوم على أرض الواقع. ولمعاقبة تايوان على تمردها وإجبارها على التراجع، تنفذ الصين نسخة مُطورة من ردها على أزمة مضيق تايوان، فتُغرِق المياه التايوانية بطوفان من تجارب الصواريخ البالستية وصواريخ كروز، الأمر الذي يُعيق بشدة الملاحة التجارية التي تُمثِّل شريان الحياة الذي يربط الجزيرة بالعالم. وعندما تصر تايبيه على عدم سحب طلب العضوية في الأمم المتحدة، تستخدم الصين أسلحة أخرى، بما في ذلك الألغام التي تزرعها طائرات بلا طيار، لتعطيل الشحن من وإلى تايوان.

تستورد تايوان، التي تتكوَّن من جزيرة صغيرة واحدة، 70 في المائة من غذائها ومعظم مواردها الطبيعية، بما في ذلك الطاقة[28]. ومن شأن إحكام الحصار عليها أن يعطل اقتصادها ويتسبب بنقص هائل في المواد

الغذائية. لذلك، تشعر الإدارة الأمريكية أن الواجب يحتِّم عليها ألا تسمح بخنق الجزيرة، رغم أنها تعارض طلب تايوان الحصول على عضوية كاملة في الأمم المتحدة. فيطالب كثيرون من أعضاء الكونغرس الأمريكي المؤيدون لتايوان بأن يرسل البيت الأبيض حاملاتِ طائراتٍ لمساعدة تايوان، تمامًا مثلما فعل بيل كلينتون أثناء أزمة 1995-1996[29]. ولكن الإدارة تعلم أن الصواريخ البالستية الصينية المضادة للصواريخ، سوف تُشكِّل تهديدًا خطيرًا لأية حاملة طائرات أمريكية تنتقل إلى المنطقة، وتعلم، كذلك، أن الرأي العام الأمريكي لا يستطيع تحمُّل معاناة وتبعات حربٍ أخرى.

وبدلاً من الاستجابة لمطالب أعضاء الكونغرس، تعرض قيادة القوات الأمريكية في المحيط الهادي، إرسال قطع بحرية لمرافقة سفن الشحن التجاري عبر المياه المتضررة من الإجراءات الصينية، وهي بادرة تُظهر الدعم لتايوان دون أن تعني الرغبة في القتال من أجلها. (لعل القراء يتذكرون كيف أن مناورة رمزية مثل هذه، جاءت بنتائج عكسية لأثينا، عندما أرسلت قوة ردع محدودة جدًا لدعم كوركيرا)(*). غير أن حملة المرافقة هذه، يمكن أن تُعرِّض السفن الحربية الأمريكية لخطر الغرق بوابل من الصواريخ الصينية، إما عمدًا أو بطريق الخطأ، وهو حدث يمكن أن يقتل على الفور أكثر من ألف أمريكي، ويشعل صرخات المطالبة بالانتقام. طبقًا لهذا السيناريو الافتراضي، يُغْرِق صاروخ صيني مضاد للسفن، أُطلِق ظاهريًا كجزء من عملية اختبار جارية، السفينة يو إس إس جون م. مورثا USS John P. Murtha، وهي سفينة نقل برمائية، تعمل كمرافقة لسفن الشحن المدنية، ويلقى ما يقرب من 800 من البحارة ومشاة البحرية الذين

(*) تذكير بما جاء في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وبالتحديد في الجزء المعنون "شرارة": "ترسل أثينا إلى كوركيرا أسطولاً رمزيًا صغيرًا، مزودًا بأوامر مشددة بعدم المشاركة في القتال إلا إذا تعرض لهجوم مباشر. لكن، لسوء الحظ، أثبتت فكرة الردع الدفاعي هذه أنها صغيرة إلى الحد الذي يجعلها غير رادعة، وكبيرة إلى الحد الذي يجعلها مثيرة للقلق والانزعاج. لقد سيطر الغضب والسخط على الكورينثيين لأن الأثينيين رفعوا السلاح ضدهم". (المُعرِّب)

كانوا على متن السفينة الغارقة حتفهم، وهو عدد يفوق عدد الأمريكيين الذين قُتِلوا خلال العام الأول من حرب العراق(*).

تُصِر الصين على أن غرق السفينة كان حادثًا عارضًا، فكل ما في الأمر أن السفينة مورثا قد وُجِدت بالصدفة في طريق صاروخ كان قد أُطلِق على رقعة عشوائية من المحيط. ولكن في واشنطن، يحث كل من وزيرِ الدفاع ورئيسِ هيئة الأركان المشتركة، الرئيسَ الأمريكي على ألا ينخدع بهذا التفسير، وأن يأذن لقيادة المحيط الهادي بتنفيذ خطة المعركة البحرجويَّة، في مواجهة مواقع إطلاق صواريخ جيش التحرير الشعبي المضادة للسفن، داخل بر الصين الرئيسي.

في هذه الحالة أو الحالات المشابهة، سوف يلعب تاريخ أمريكا الحديث من التدخلات العسكرية، وما يحفل به من ضحايا بسبب تلك التدخلات، دورًا طاغيًا في تشكيل رد فعل واشنطن تجاه تلك الواقعة. فإذا ما أخذ الرئيس الأمريكي بعين الاعتبار المستنقعات التي وجد أسلافُه أنفسَهم فيها في العراق وأفغانستان، قد يُرجِّح الكفة المعارضة للحرب. كما قد يتنصل من احترام التزامات الأمة تجاه تايوان، تَحَسُّبًا لعودة ظهور النزعة الشعوبية والانعزالية. ومع ذلك، فإن مقتل 800 من البحارة ومشاة البحرية في حادث دراماتيكي واحد، قد يجيِّش الأمريكيين نحو المطالبة بالانتقام.

لهذا، وعندما يجد نفسه وجهًا لوجه أمام عملية إغراق السفينة مورثا، يرضخ الرئيس لضغوط مستشاريه العسكريين والسياسيين، ويوافق على توجيه ضربة استباقية على الأنظمة المضادة للصواريخ الباليستية وغيرها من الأنظمة الصاروخية الموجودة في بر الصين الرئيسي. ولأن صواريخ الصين التقليدية وصواريخها النووية محفوظة في الموقع ذاته وأنظمة قيادة والتحكم الخاصة بها متشابكة، تظن بيجين، خطأً، أن الولايات المتحدة تحاول إزالة ترسانتها النووية بضربة أولى مفاجئة.

(*) بل الأصح، خلال العام الأول من "احتلال العراق". (المُعرِّب)

وفي محاولة يائسة "للتهدئة من خلال التصعيد"، وهي عقيدة أورويلية Orwellian doctrine ومع ذلك تُعدُّ ركيزة من ركائز الاستراتيجية العسكرية الروسية، تطلق الصين واحدًا من صواريخها البالستية ذات الرؤوس النووية، على منطقة خالية من المحيط الهادي، تقع جنوب أوكيناوا Okinawa. وهكذا، يكون قد تم عبور العتبة النووية. صحيح أن أية أرواح لم تُزهَق نتيجة لتلك الضربة، إلا أن الطريق من هنا إلى الحرب النووية الشاملة، ليست سوى خطوة قصيرة.

حربٌ يشعلُها طرفٌ ثالث

لا يتطلب انطلاق الشرارة التي تؤدي إلى صدام صيني أمريكي إسهامًا أوليًا مباشرًا من القوات المسلحة الأمريكية أو الصينية. فبدلاً من ذلك، يمكن أن تنتج تلك الشرارة عن مواجهة مع، أو من خلال، طرف ثالث، يمثله حلفاء الطرفين. وقد كان هذا السيناريو على وشك التحقق عام 2010، عندما أغرقت كوريا الشمالية السفينة الحربية الكورية الجنوبية تشونان Cheonan، مما أسفر عن مقتل 46 من أفراد طاقمها. بيجين دعمت إنكار كوريا الشمالية للمسؤولية عن هذا الحدث، بينما أصرت سيول على محاسبة بيونغ يانغ. وفي النهاية، تراجعت الكوريتان وحلفاؤهما، مبتعدين عن حافة الهاوية. ولكن اليوم، مع وجود مجموعة جديدة من الظروف المحيطة والمُسَرِّعات، من الواضح أنه لن يكون من السهل تجنُّب الحرب، خاصة إذا كان مَن يمثلون الطرف الثالث المتورط، أقل اعتيادًا على ذلك النوع من التوترات البطيئة والطاحنة، التي عانت منها شبه الجزيرة الكورية على مدار عدة عقود.

وإلى جانب كوريا الجنوبية، فإن الحليف الأمريكي الرئيسي الآخر في المنطقة المجاورة للصين مباشرة هو اليابان، وهو بلد اتبع سياسة مسالمة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لكن سياساته أصبحت تميل إلى

العسكرة بشكل متزايد في السنوات الأخيرة. وبات السياسيون اليابانيون المحافظون يتحدثون بقوة أكثر من أي وقت مضى، عن مراجعة الدستور المسالم الذي فرضته الولايات المتحدة على بلادهم. كما أنهم يشعرون بالغضب بسبب المزاعم الصينية بالسيادة على بحر الصين الشرقي، وبحر الصين الجنوبي. وفي أية أزمة تكون بيجين، المنافسةُ التاريخيةُ لليابان، أحدَ أطرافها، من المؤكد أن تلك الذكريات وموقف الحكومة اليابانية المتحول نحو القوة العسكرية، سوف تلعب جميعها دورًا في تحديد طبيعة أية خطوة تُقْدِم طوكيو على اتخاذها.

ومن بين نقاط الالتهاب أو الاشتعال المحتملة، جُزُر سينكاكو Senkaku (المعروفة في الصين باسم جُزرُ دياو يو Diaoyu)، التي تقع بالقرب من مناطق الصيد الغنية، والطرق التجارية، والاحتياطيات النفطية المحتملة، في بحر الصين الشرقي. لقد سيطرت الولايات المتحدة على تلك الجزر، بصورة مؤقتة بعد الحرب العالمية الثانية، لكنها أعادتها إلى اليابان في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، بناء على مُطالبات يابانية كانت قد بدأت منذ القرن التاسع عشر. ولكن، في السبعينيات أيضًا، ادعت الصين كذلك السيادة على تلك الجزر. وقد اعتادت السفن الصينية المرور بشكل منتظم عبر المياه المحيطة بتلك الجزر، مما يزيد من التوتر بين بيجين وطوكيو، وينذر بصدام قد يؤدي إلى سلسلة من ردود الأفعال.

فلنتأمل ذلك السيناريو الذي يعتمد على خطٍ درامي للعبة حرب حديثة، صممتها مؤسسة راند[30]. يبدأ سيناريو القصة أو اللعبة عندما تبحر مجموعة من القوميين اليابانيين المتشددين إلى جُزُر سينكاكو في مراكب مدنية صغيرة. لقد أوضحوا، من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، أنهم متجهون إلى كوبا جيما Kuba Jima، وهي واحدة من الجزر الصغيرة، التي يعتزمون المطالبة بها واحتلالها نيابة عن اليابان. يهبط أفراد المجموعة على الجزيرة، ويبدأون في تشييد أبنية يصعب تحديد ماهيتها. وفي محاولة واضحة لتقليد قواعد اللعبة الصينية، يبثون ما يقومون به من أنشطة، على

الهواء مباشرة، كي يراها العالم كله. تردُّ الصين بسرعة، حيث يصل جنود خفر السواحل الصينيون في غضون ساعات قليلة، بصحبة مجموعة من الضباط الذين يعتقلون الشُبَّان اليابانيين، ويقتادونهم إلى البر الصيني الرئيسي، لمحاكمتهم. هل سوف تسمح اليابان بأن يَمْثُل مواطنوها أمام محكمة صينية؟ كان ذلك في مقدورها، ولكنها، بدلاً من ذلك، وحفاظًا على ماء وجهها، ترسل بعضًا من سفن خفر السواحل اليابانية لاعتراض السفينة التي تُقِّل المتشددين المعتقلين، وتمنع ترحيلهم إلى الصين.

يترتب على هذا الأمر قيام القوات البحرية التابعة لجيش التحرير الشعبي، وقوات الدفاع الذاتي البحرية اليابانية، بنشر سفن حربية وطائرات مقاتلة في المنطقة. ويرفض كلا الجانبين التراجع عن موقفه. ويزيد الطين بِلّة، قيام بعض السفن اليابانية بإنزال قوات برمائية على جزيرة كوبا جيما لاحتلالها، في مزايدة على تصرفات القوميين المتشددين. وهكذا تتحول المناوشة إلى مواجهةٍ عسكرية. وفي مكالمة عاجلة، يُذكِّر رئيسُ الوزراء الياباني الرئيسَ الأمريكي بأن طوكيو تتوقع من الولايات المتحدة أن تحافظ على معاهدة الدفاع المتبادل الأمريكية اليابانية، التي مضى على توقيعها سبعة عقود، مشيرًا إلى أن كبار المسؤولين الأمريكيين أكدوا مرارًا أن التزام الولايات المتحدة ينطبق على جُزُر سينكاكو[31].

مع دخول المواجهة يومها الثالث، يصبح من المحتم على الرئيس وأعضاء مجلس الأمن القومي أن يقرروا: هل تستجيبُ الولايات المتحدة لنداء اليابان بصدق، وترسل قوة جوية للتحليق فوق الجزيرة المتنازع عليها، لحماية القوات اليابانية الموجودة الآن على الأرض هناك؟ أم أن هناك وسيلة أخرى أكثر تحفظًا، تُرضي اليابانيين، دون أن تُغضب الصينيين وتزيد من حدة المواجهة البحرية المتوترة؟ ينحاز الرئيس الأمريكي للخيار الثاني، فيوجِّه مجموعة الهجوم التابعة لحاملات الطائرات الأمريكية المتمركزة في اليابان، بالقيام بدوريات خارج نطاق صواريخ جيش التحرير الشعبي، المعروفة باسم قاتلة الناقلات، ولكن مع إبقاء الطائرات والغواصات

قريبة بما فيه الكفاية، لمساعدة السفن والأراضي اليابانية إذا ما تدهورت الأوضاع.

وبالفعل، تدهورت الأوضاع. ففي صباح اليوم التالي، تصطدم مُدَمِّرة صينية بقارب صيد ياباني في المياه المزدحمة قبالة سينكاكو، وعلى الفور، تثير الطائرات الحربية لكل جانب حفيظة سفن الجانب الآخر، بتحليقها المنخفض وأزيز محركاتها. وتتحول المواجهة إلى معركة بحرية دموية قصيرة، عندما يسقط قائد إحدى السفن اليابانية، واحدة من الطائرات المقاتلة الصينية التي تحلق على ارتفاع منخفض، خوفًا على سلامة سفينته، فترد عليه القوات البحرية التابعة لجيش التحرير الشعبي الصيني، بإغراق سفينته.

وهكذا، يقف الجانبان الآن على حافة الحرب، ومعهما الولايات المتحدة، التي هي في وضع يُتيح لغواصاتها الهجومية الخفية وطائراتها الرابضة فوق سطح حاملات الطائرات، إغراق السفن الصينية. ولكن، في هذه اللحظات الحرجة، وقبل اتخاذ القرار التالي، يحدث شيء غيرُ متوقَّع. تنقطع تمامًا كافة الاتصالات بين وحدات القوات اليابانية المنتشرة حول جُزُر سينكاكو، وعلى أراضيها.

لقد ألحقت هجماتٌ سيبرانيةٌ عُطلاً هائلاً بأحد أنظمة القيادة والتحكم في الجيش الياباني. وعلى الفور، تُلقي الولايات المتحدة واليابان باللوم على الصين. لقد ترك المهاجم وراءه مؤشراتٍ واضحة، تُشير إلى وحدة القرصنة الهجومية التابعة لجيش التحرير الشعبي. لم يكن هناك كثير من التردد سواء لدى واشنطن أو لدى قيادة القوات الأمريكية في المحيط الهادي، حول طبيعة الخطوة التالية. فللحيلولة دون تدمير القوات البحرية اليابانية، العاجزة عن التواصل في ما بينها أو مع العالم الخارجي، تُغرق الغواصات الأمريكية، بطوربيداتها، ثلاث سفن حربية تابعة لجيش التحرير الشعبي الصيني، قبالة سواحل سينكاكو. وها هي الصين واليابان والولايات المتحدة، قد أطلقت للتو، طلقاتها الافتتاحية في حرب ثلاثية الأطراف.

ولكن ماذا لو لم يكن جيش التحرير الشعبي، بعد كل ما جرى، مسؤولاً عن شن الهجوم السيبراني؟ ماذا لو كانت العملية برمتها، فخًا مُحْكمًا نفذته روسيا بدقة، وفي توقيت مناسب، لتوريط الولايات المتحدة في صراعٍ مع الصين، بهدف صرف انتباه واشنطن عن صراعها مع روسيا بخصوص أوكرانيا؟ عندما تكتشف وكالاتُ الاستخبارات في جميع أنحاء العالم الحقيقة، يكون قد فات الأوان. لقد استخدمت موسكو أصابعها الخفية ببراعة منقطعة النظير.

من جُزُر سينكاكو، تتسع منطقة الحرب، إذ تهاجم الصين المزيد من السفن اليابانية في أماكن أخرى من بحر الصين الشرقي. تشعر اليابان بحاجة ماسة إلى أن تقحم الولاياتُ المتحدة المجموعةَ القتالية المرافقة لحاملة الطائرات في القتال. فإذا فعلت واشنطن ذلك، ربما تتجاوز نقطةَ اللاعودة ذاتها، كما حدث في السيناريو السابق: إن تدمير إحدى جواهر التاج الخاصة بالبحرية الأمريكية، وفُقْدان أرواح كل من كانوا على متنها، سوف يكون مأساة تجبر الإدارة الأمريكية على الانتقام لها، بتوسيع نطاق الهجمات على القوات الصينية، وتحويلها إلى حرب شاملة في المحيط الهادي.

انهيار كوريا الشمالية

يُسلِّمُ الجميع بأن كوريا الشمالية قنبلةٌ موقوتة. فنظام كيم جونغ أون يمكن أن ينهار في أية لحظة، مخلفًا وراءه فوضى عارمة، مما يهدد المصالح الوطنية الحيوية ليس فقط للولايات المتحدة والصين، ولكن لكوريا الجنوبية واليابان أيضًا. إن كل عام إضافي يقضيه نظام كوريا الشمالية في السلطة، يزيد حجم ترسانتها النووية. ويُعتقد أن لدى بيونغ يانغ، في الوقت الحاضر، حوالي عشرين رأسًا حربيًا نوويًا، وأن من المحتمل أن يصل العدد إلى مائة رأس، بحلول عام 2020[32]. وفي الوقت نفسه، تواصل

كوريا الشمالية تطوير برنامج الصواريخ الخاص بها، بحيث يكتسب بسرعة، القدرة على توجيه واحدٍ أو أكثر من هذه الرؤوس النووية، ضد أهداف في كوريا الجنوبية، واليابان، والقواعد الأمريكية في غوام وأوكيناوا، بل وحتى في هاواي. بالنسبة لكثير من الاستراتيجيين الأمريكيين، يمثل الوصول إلى هذا الوضع تجاوزًا لخطٍ أحمر لا يمكن أبدًا السماح لكوريا الشمالية بتجاوزه. وبالنسبة للصين، فإن احتمال سيطرة كوريا الجنوبية على كوريا الشمالية، ومن ثَمَّ انتشار القوات الأمريكية على الحدود الصينية، أمرٌ غيرُ مقبول اليوم، كما كان غيرَ مقبولٍ عام 1950. ولكن إذا انهارت الحكومة في بيونغ يانغ، فمن الصعب تخيل استمرار رئيس أو رئيسة لكوريا الجنوبية في الحياة السياسية، إذا رفض، أو رفضت، إرسال قوات لتهدئة الأوضاع في شبه الجزيرة. وبالفعل، فإن الخطط الحربية الأمريكية الحالية، حسبما يُقال(*)، تدعو القوات الأمريكية والكورية الجنوبية إلى الزحف نحو الشمال لتحقيق الاستقرار في البلاد وإعادة توحيد الدولتين في نهاية المطاف.

وبينما تمت مناقشة هذه القضايا بإسهاب في محادثات المسار الثاني Track II conversations، بين المسؤولين الأمريكيين والصينيين السابقين(**)، لم تنظر الحكومتان بجدية في خيارات للتخفيف من المخاطر

(*) استخدم المؤلف هنا كلمة reportedly (يُقال)، للتعبير عن أن ناقل هذه المعلومة لا يؤمن بأنها صحيحة بالضرورة. (المُعرِّب)

(**) مبادرة دولية غير حكومية، وُلِدت في السبعينيّات من القرن الماضي، على يد مجموعة من الأكاديميين، والبيروقراطيين ذوي التفكير الحر في وزارة الخارجية، والمثقفين المعنيين بالشأن الدولي العام. وقد انبثقت دبلوماسية "المسار الثاني" من ملاحظة مهمة تقول: إن الأفراد العاديين، الذين يجتمعون بشكل غير رسمي، يستطيعون التوصل إلى أرضية مشتركة لا يستطيع المفاوضون الرسميون التوصل إليها. أي أنه في مقدور المواطنين العاديين اتخاذ بعض الإجراءات، بدلاً من الاكتفاء بدور المتفرجين، خاصة بعد أن "أثبتت الحكومات الكبيرة أنها تتصرف، في كثير من الأحيان، بطريقة حمقاء"، على حد تعبير جوزيف ف مونتفيل Joseph V. Montville، الموظف السابق في وزارة الخارجية، الذي كان أول من استخدم هذا المصطلح، في مقال كتبه في صحيفة السياسة الخارجية Foreign Policy، قبل أكثر من 35 عامًا. وقد كانت الحكومات في الماضي تنظر إلى محادثات المسار الثاني على أنها نوع من الرفاهية الفكرية، أو التدريبات التي تهدف إلى تبرئة الضمير، وبثّ الإحساس بالراحة والرضى في نفوس ممارسيها. هذا بالطبع من وجهة نظر المسؤولين أصحاب النوايا الحسنة، أما أصحاب النوايا

التي تنطوي عليها خطط الطوارئ المتنافسة، التي يمكن أن تُحفِّز القوات الأمريكية والقوات الصينية الواحدة ضد الأخرى. لقد حدد المحللون أكثر من عشرة طرق تؤدي إلى الحرب التي تبدأ بانهيار النظام في كوريا الشمالية. من بين تلك الطرق، ثلاثة تكفي لتبيان ما نسعى إلى تبيانه.

أولاً، إذا مات كيم جونغ أون دون أن يترك وراءه وريثًا واضحًا، قد تتنافس الفصائل العسكرية على السلطة، فتشعل حربًا أهلية، وتُغرق البلاد في الفوضى. وفي الفراغ الذي يعقب ذلك، يمكن أن يُحمِّل القائد العسكري الذي يسيطر على الآلاف من قطع المدفعية على طول الحدود مع كوريا الجنوبية، سيول مسؤولية موت كيم، ويهدد بتدمير المدينة، التي تبعُد ثلاثين ميلاً فقط عن الحدود بين الدولتين. وخوفًا من أن ينفذ هذا القائد تهديداته، تسعى الطائرات الأمريكية إلى أن تُدمِّر، بشكل استباقي، قطع المدفعية الواقعة تحت سيطرته. في غضون ذلك، تشعر الصين بالقلق من أن توفِّر ضربات قائد كوريا الشمالية اليائسة لسيول، ذريعة للقوات الأمريكية والقوات الكورية الجنوبية، لغزو كوريا الشمالية وإعادة توحيد شطري شبه الجزيرة تحت سيطرة سيول. ومن دون علم واشنطن، ترسل بيجين، القلقة والمصممة على كبح جماح كوريا الشمالية، قواتها الخاصة إلى المنطقة، حيث قد يُقتل أفرادها في الهجوم الأمريكي على مدفعية كوريا الشمالية. ترى بيجين أن الهجوم الأمريكي على قواتها كان متعمَّدًا، فتردُّ

السيئة من بينهم، فكانوا يعتبرون أنها تمثِّل تهديدًا حقيقيًا. فالدبلوماسية الشعبية أو الحرة freelance diplomacy، يمكن، من وجهة نظر هؤلاء، أن تلحق بالدبلوماسية الاحترافية الحقيقية ضررًا كبيرًا. واليوم، بعد ما يقرب من أربعة عقود على ظهور فكرة المسار الثاني، يعترف كثير ممن كانوا يعارضون هذا النوع من الدبلوماسية، بأن عهد الصراعات غير التقليدية الذي نعيشه، يحتاج إلى حلول غير تقليدية. وفي ما يتعلق بالعلاقات الصينية الأمريكية وتعقيداتها، يعمل كل من مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية Center for Strategic and International Studies، والمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية International Institute for Strategic Studies، ومنظمات أهلية أخرى، على الجمع بين قادة عسكريين ودبلوماسيين من البلدين، والبلدان المجاورة للصين، في لقاءات غير رسمية، لمناقشة بعض القضايا الطارئة. وقد بدأت تلك الجهود في أعقاب قصف الطائرات الأمريكية للسفارة الصينية في بلغراد أثناء حرب البلقان عام 1999، وبعد إسقاط الصين طائرة التجسس الأمريكية فوق جزيرة هاينان عام 2001. (المُعرِّب)

بعمل انتقامي. ولأن الأمريكيين، الذين لا يعرفون أنهم قتلوا قوات صينية، يرون الهجوم الصيني عملاً عدوانيًا غير مبرَّر، يردُّ القادة العسكريون الأمريكيون، منتقلين إلى درجة أعلى، من درجات التصعيد.

إن صواريخ كوريا الشمالية المتوسطة المدى، والمتطورة بشكل متزايد، يمكن أن تكون المُحرِّك للفصل الثاني. فبينما تنزلق كوريا الشمالية إلى الفوضى بعد وفاة كيم، يبذل الأمريكيون قصارى جهدهم لتدمير أنظمة الأسلحة القادرة على حمل رأس حربي نووي وإطلاقه على كوريا الجنوبية، أو اليابان، أو منطقة غوام الأمريكية. إن القيادة الأمريكية المشتركة للعمليات الخاصة، تضطلع، منذ فترة طويلة، بمهمة تأمين الأسلحة النووية التي لا تخضع لسيطرة نظامٍ مسؤول loose nukes، وقد تدرَّبت على دخول كوريا الشمالية، للسيطرة على منشآتها النووية، قبل أن يتمكن القادة المارقون من الاستيلاء على ما تحتويه من أسلحة، وتهريبها إلى أسواق السلاح الدولية. ولكن، بما أن مواقع هذه الأسلحة يُعتقد أنها تقع على مقربة من الحدود الصينية، من المرجح أن تجد القوات الأمريكية نفسها، عندما تصل إلى تلك المواقع، في مواجهة القوات الخاصة الصينية. وكما حذر الجنرال رايموند توماس Raymond Thomas، الرئيس السابق للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة، فإن محاولة تأمين الأسلحة النووية لكوريا الشمالية قد تؤدي إلى سباق مضمارٍ عمودي vertical track meet، بين القوات الصينية من جهة والأمريكية والكورية الجنوبية من جهة ثانية[33]. إن قوات العمليات الخاصة لكل دولة، التي لا يدرك كل منها وجود الأخرى، يمكن أن تجد نفسها وسط تبادل لإطلاق النار في معركة قد تسفر عن سقوط عشرات القتلى. وبالرغم من أن هذه النتيجة كانت غير مقصودة، فقد رأى كل طرف من طرفي المعركة أن الآخر قد نصب له كمينًا عن عمد، مما جعله يشعر بأنه مجبرٌ على الرد على هذا الكمين.

ثالثًا، خوفًا من حالة عدم الاستقرار على حدودها، ترسل الصين أعدادًا كبيرة من القوات إلى كوريا الشمالية، لتحقيق الاستقرار في المنطقة،

وإقامة دولة عازلة بينها وبين حليف أمريكا العسكري في كوريا الجنوبية. على الجانب المقابل، وتحت ضغط قوي من مواطنيها، لتحرير أولئك الذين عاشوا في ظل أكثر الأنظمة وحشية على وجه الأرض، ترسل حكومة كوريا الجنوبية، أيضًا، قوات إلى كوريا الشمالية. ولأن القوات البرية والجوية الأمريكية المتمركزة في كوريا الجنوبية تتكامل مع القوات الكورية الجنوبية في الخطط العسكرية التنفيذية، تجد القوات الأمريكية والصينية نفسها في مواجهة مباشرة، كما حدث عام 1950. ولا أعتقد أن القارئ في حاجة إلى تذكيره بمصير تلك المواجهة.

من صراعٍ اقتصادي، إلى حربٍ عسكرية

هل يمكن أن يتصاعد نزاعٌ تجاريٌّ، حتى يصل إلى حربٍ حاميةٍ، تنتهي بقصف أراضي الخصم بأسلحة نووية؟ أمرٌ غيرُ محتملٍ، لكنه ليس مستحيلاً: تذكروا بيرل هاربور.

تخيَّل إدارةً أمريكية تأتي إلى السلطة وقد عقدت العزمَ على أن تعكس اتجاه المد الذي سمح لاقتصاد الصين بأن يصبح أكبر من اقتصادها. يقدم الفريق الاقتصادي للرئيس الجديد تحليلاً يحدد مُتَّهمًا واضحًا: الصين تمارس الغش، في ما يتعلق بالاتفاقيات التجارية، والعملة، والملكية الفكرية، والدعم الصناعي، والصادرات الرخيصة بشكل مصطنع. تمهيدًا لساحة النزال، يأمر الرئيسُ وزير الخزانة الأمريكية بأن يطلق على الصين لقب المتلاعب بالعملة currency manipulator، الأمر الذي يتطلب من واشنطن بدء محادثات معها. ومع افتتاح المفاوضات، يُغرِّد الرئيس على تويتر كاتبًا: إن العجز في التجارة الثنائية قد نما بأكثر من 250 في المائة، منذ انضمام الصين لأول مرة إلى منظمة التجارة العالمية WTO في عام 2001، وهو يبلغ اليوم أكثر من 345 مليار دولار[34]. وفي مؤتمر صحفي يُعْقد في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، يكشف الرئيس عن تقرير أصدره مجلس المستشارين الاقتصاديين، جاء فيه أن

الصين حققت، خلال السنوات الخمس عشرة الماضية، فائضًا تجاريًا مع الولايات المتحدة، تصل قيمته إلى 3.86 تريليون دولار، بفضل التنازلات التي فازت بها الصين عند الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية. ويقول الرئيس: "لقد حان الوقت ليس فقط من أجل التغيير، ولكن من أجل رد الدَيْن"، ويطالب الصين بأن تتعهد بالقضاء على هذا الفائض في غضون عامين. ومع انهيار المحادثات بين مسؤولي الخزانة في الدولتين، يُذكِّر وزير الخارجية الأمريكي نظيره الصيني بأن قانون التجارة لعام 1930 يسمح للرئيس بفرض عقوبات تصل إلى 50 في المائة على واردات مختارة من الدول "التي تمارس تمييزًا" ضد الولايات المتحدة.

تستجيب الصين لهذا التهديد، بالموافقة على التوقف عن التدخل في أسواق العملات. ولكن بما أن الحكومة الصينية كانت تشتري الرِنْمِينْبِي(*) renminbi، فإن سحب دعمها يتسبب في انخفاض قيمة العملة بحدّة، مما يُلحِق مزيدًا من الضرر بمبيعات المنتجات الأمريكية في الصين. وفي الوقت نفسه، يبدأ مسؤولو الجمارك الصينيون في تأخير صادرات أغذية أمريكية معيَّنة على حدودهم، مُدَّعين أن عمليات التفتيش الصحي أثبتت عدم صلاحيتها، الأمر الذي يُجبر الولايات المتحدة إما على إعادة شحنها إلى أمريكا، أو تركها لتفسد على أرصفة موانئ الصين. كذلك تبدأ بعض المصانع الأمريكية في الصين تعاني من عمليات التباطؤ، والتوقف، والاحتجاجات المفاجئة، كما تبدأ بيجين في بيع جزءٍ من أكثر من تريليون دولار من سندات الخزانة الأمريكية، التي تملكها، الأمر الذي يسبب إرباكًا في أسواق السندات، وارتفاعًا في أسعار الفائدة.

تتفاعل الأسواق العالمية مع بدء المستثمرين في بيع الأسهم الأمريكية، فتهبط المؤشرات الرئيسية لسوق الأسهم بشكل كبير، وتتزايد تقلبات سوق

(*) الرِنْمِينْبِي هو النظام النقدي السائد في الصين منذ عام 1945. تعني تلك الكلمة في اللغة الصينية "عملة الشعب". واليوان yuán هو الوحدة الأساسية للرِنْمِينْبِي، وهو اللفظ الأكثر شيوعًا للحديث عن العملة الصينية، خاصة خارج الصين. (المُعرِّب)

السندات. وعلى الرغم من اضطراب السوق، تواصل واشنطن إصرارها على المواجهة مع الصين حول التجارة، مطالبة بـ"تجارة متوازنة دون عجز".

ولتعزيز قضيته، ينشر البيت الأبيض تقريرين تصفهما الصحافة بأنهما قنبلتان اقتصاديتان. يشرح التقرير الأول، الصادر عن مدير الاستخبارات الوطنية، استراتيجية الصين للهيمنة على صناعة أشباه الموصِّلات من خلال شراء شركات أمريكية ودولية، والحصول على تراخيص لتكنولوجياتها، والاستثمار في الشركات الناشئة في وادي السيليكون Silicon Valley، وإقامة علاقات تسويقية مع المشترين الرئيسيين. ويكشف التقرير أن الصين وجدت، في كل من هذه المجالات، طُرقًا للالتفاف على لجنة الاستثمار الأجنبي Committee on Foreign Investment في الولايات المتحدة، وهي لجنة سرية تضم وكالاتٍ متعددةً، تسعى إلى حماية الأمن القومي الأمريكي من التدخل الاقتصادي الأجنبي. والتقرير الثاني، هو تقرير وزارة الخزانة عن سرقات الصين السيبرانية الاقتصادية الضخمة. فاستنادًا إلى بيانات الاستخبارات الأمريكية، يُقدِّر التقرير قيمة الملكية الفكرية المسروقة بنحو 1.23 تريليون دولار. ويطالب الرئيس الأمريكي بتعويض كامل. ويعلن أنه إلى أن تتلقى الولايات المتحدة تلك التعويضات، سوف يفرض رسومًا جمركية على الشركات الصينية التي تستغل الملكية الفكرية المسروقة، بما في ذلك شركة هُواوي Huawei للاتصالات، وشركة ميديا Midea لتصنيع الأجهزة(*). فتردُّ الصين بفرض تعريفات جمركية على المنتجات الأمريكية المماثلة.

مع تقدُّم الدولتين على درجات سلَّم التصعيد، تعاني الأسواق المالية

(*) شركة صينية أُسست عام 1965، وتركِّز حاليًا على إنتاج الأجهزة المنزلية، خاصة مكيفات الهواء، بالإضافة إلى أجهزة التكييف الكبيرة الحجم، التي تُسْتخدم في الأغراض الصناعية والتجارية. لا يقتصر عمل الشركة على إنتاج وبيع المنتجات التي تحمل اسمها، حيث تصنع، في الوقت نفسه، مكونات أساسية تدخل في تصنيع معدات تنتجها شركات أخرى original equipment manufacturer (OEM)، كما تعمل كمصمم ومُصنِّع رئيسي لكثير من المنتجات التي يتم تسويقها تحت شعار مُصنِّعين آخرين original design manufacturer (ODM). (المُعرِّب)

الأمريكية من سلسلة من الأعطال السيبرانية المفاجئة، على غرار الانهيار الخاطف flash crash، الذي وقع عام 2010، عندما تسبب المضاربون بتداولاتهم العالية التردد(*) high-frequency traders في خسارة سوق الأسهم تريليون دولار خلال نصف ساعة فقط (على الرغم من تعافيه بسرعة)[35]. وعلى عكس هذا الحدث الفريد، تتكرر حوادث الانهيار الخاطف هذه على مدار أسبوع، وعلى الرغم من أن الأسواق تستعيد عافيتها في كل مرة، فهي لا تسترد خسائرها. وعند التحقيق في أسباب تلك الحوادث، يكتشف مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI أن برمجيات خبيثة قد أُدْخِلت إلى الأنظمة المالية المهمة. وفي حين تشير التوقيعات الرقمية إلى الصين، لا يستطيع العملاء تجاهل احتمال أن تكون تلك التوقيعات أو الإشارات مُزيّفة. ويخلص المحققون إلى أن الضرر، في حالة تفعيل البرمجيات الخبيثة، لن يقتصر على توقف مؤقت للخدمة، بل سوف يمتد إلى فقدان سجلات المعاملات والحسابات المالية.

ويحذِّر وزيرُ الخزانة الرئيسَ من أن مجرد الشائعات حول البرمجيات الخبيثة يمكن أن تثير تساؤلات حول سلامة النظام المالي الأمريكي بأكمله، وأن تسبب الذعر. يستحضر هذا التحذير، في ذهن الرئيس، ذكريات عام 2008(**)، عندما تحملت الحكومة نفقات إنقاذ عالم المال، لأنها كانت

(*) التداول العالي التردد هو شكل من أشكال المضاربة، أو تداول الأسهم، من خلال وسائل إلكترونية معقدة، اختصارًا للوقت. ورغم صعوبة تعريف هذه النوعية من التداول في عبارات سهلة، أقتبس هنا شرح إيرين ألدريدج Iren Aldridge، في كتابها التداول العالي التردد: دليلٌ عملي للاستراتيجيات الخُوارزمية وأنظمة التداول High-Frequency Trading: A Practical Guide to Algorithmic Strategies and Trading Systems. تقول ألدريدج، وهي كاتبة متخصصة في الاقتصاد والتداول الرقميين، وأستاذة زائرة بجامعة كورنيل الأمريكية: التداول العالي التردد هو نوعٌ من التداول الخُوارزمي الذي يتميز بسرعات عالية، ودورة رأس مال سريعة التردد، ومعدلات تدوير عالية، ونسب عالية من أوامر البيع والشراء، التي تستفيد من التدفق السريع للبيانات المالية العالية التردد، وأدوات التداول الإلكترونية السريعة. والتداول الخُوارزمي، بشكلٍ عام، طريقة لتنفيذ طلب تداول كبير الحجم، باستخدام تعليمات التداول المبرمجة مسبقًا، التي تراعي متغيرات كثيرة مثل الوقت والسعر والحجم. (المُعرِّب)

(**) يشير المؤلف هنا إلى الأزمة المالية العالمية لعام 2008، التي يؤمن الخبراء أنها كانت أسوأ أزمة مالية تضرب العالم منذ الكساد العظيم في ثلاثينيات القرن الماضي. بدأت تلك الأزمة بانهيار

تخشى أن يؤدي فشل أحد البنوك الكبرى إلى انهيار النظام المصرفي بأكمله[36].

وفي الوقت الذي تدور فيه المشاورات داخل البيت الأبيض، يقوم مُقَرْصِنون أجانب بتنشيط البرمجيات الخبيثة داخل شبكات أكبر ثلاثة بنوك أمريكية. وتنتشر الأخبار المُدَمِّرة: لقد مُحِيَت، نهائيًا، المعلومات الخاصة بحساب مئات الآلاف من العملاء. ولدى دخول هؤلاء العملاء على شبكة الإنترنت للاطمئنان على أرصدتهم، يكتشفون أن تلك الأرصدة قد اختفت، تاركة إياهم مفلسين. تشعل قصص هؤلاء وسائل التواصل الاجتماعي، وشبكات التلفزة. وفي إطار خوف كل مواطن أمريكي من أن يكون الضحية التالية، يحاول ملايين الأمريكيين سحب مدخراتهم من البنوك وصناديق الاستثمار المشتركة، وحتى المؤسسات المالية التي لم تتعرض لهجمات البرمجيات الخبيثة تصاب بالشلل من جراء تلك المحاولات. وتطغى على الرئيس ومستشاريه أفكار حافلة بنُذُر الشؤم، إذ يتذكر بعضهم التحذير الذي أطلقه رئيس الاحتياطي الفيدرالي السابق بن برنانكي Ben Bernanke، في عام 2008: "ما لم نتَّخذ إجراءً فوريًا حاسمًا، قد لا يكون لدينا اقتصاد يوم الاثنين"[37].

لمنع محاربي السيبر الصينيين من إلحاق مزيد من الضرر، يقرر الرئيس شن هجوم سيبراني على المصدر. ولكن، على الرغم من الجهود الهائلة التي تبذلها قيادة السايبر الأمريكية، يظل هذا الهجوم فعالاً بشكلٍ

سوق التمويل العقاري في الولايات المتحدة عام 2007، وتحولت بسرعة إلى أزمة مصرفية دولية شاملة، عقب الانهيار الكامل لبنك الاستثمار الشهير ليمان براذرز Lehman Brothers، في 15 أيلول/سبتمبر 2008. ورغم تكاتف الحكومات من خلال التشريعات والسياسات، والبنوك والمؤسسات المالية الكبرى من خلال الدعم المالي بكافة أشكاله، لحماية النظام المالي العالمي من انهيار كان يبدو وشيكًا، أسفرت الأزمة عن انكماش اقتصادي عالمي كبير. على الجانب المضيء، كانت تلك الأزمة ناقوس خطر صادحًا، دفع كثيرًا من دول العالم إلى تعديل تشريعاتها المالية، حيث اعتمد معظم هذه الدول ما يُعرف باسم معايير بازل 3 لرأس المال والسيولة Basel III capital and liquidity standards، كما أصدرت الولايات المتحدة، عام 2010، قانون دود-فرانك لإصلاح وول ستريت وحماية المستهلك Dodd-Frank Wall Street Reform and Consumer Protection Act، الذي يهدف إلى تعزيز الاستقرار المالي للولايات المتحدة. (المُعرِّب)

جزئي فقط، حيث تتم قَرْصنة المزيد من المؤسسات المالية. هنا يوصي المستشارون العسكريون الرئيس بشن ضربات جوية، لتدمير جميع المواقع المعروفة لوحدات الحرب السيبرانية الصينية.

ولكن، أملاً في تفادي حربٍ عسكرية مع بيجين، يغوص الرئيس في أعماق حقيبة البنتاغون السوداء، العامرة بالخيارات السرية، ويأمر الجيش باستخدام طائرة بدون طيار، لم يُكشَف عنها حتى الآن، لمهاجمة المقر الرئيسي لوحدة جيش التحرير الشعبي الصيني 61398، في شنغهاي، التي تضم أرقى ما وصلت إليه الصين من قدرات حربية سيبرانية. هذه الطائرة ليست فقط شبحية، فهي قادرة على التمويه التَكَيُّفي adaptive camouflage، وهذه تقنية يشبِّهها مصمِّموها بعباءة هاري بوتر Harry Potter الخفية، لأنها تسمح للطائرة بالاندماج أو الذوبان في محيطها[38]. وبهذا الخيار، تأمل الولايات المتحدة أن تكون قد وجدت نوعًا من الإنكار المعقول.

ولكن، سرعان ما يتبين أن هذا الأمل لم يكن سوى وهْمٍ مُضلِّل، إذ يخترق الصينيون شبكات الكمبيوتر الخاصة بالجيش الأمريكي، اختراقًا شاملاً، لدرجة أنهم لا يعرفون فقط أن أمريكا تمتلك طائرات شبحية تطير دون طيّار، بل يعرفون أيضًا أن هذه الطائرات قد أرسِلت إلى قاعدة كادينا الجوية Kadena Air Base في اليابان، لتتمركز هناك. ولأن الصين واثقة تمام الثقة من أن الولايات المتحدة هي مصدر الهجوم، فهي تنتقم من خلال شن هجمات صاروخية على كادينا، مما يسفر عن مقتل العشرات من الجنود الأمريكيين (وبعض عائلاتهم)، بالإضافة إلى مئات المدنيين المقيمين في التجمعات العمرانية المحيطة بالقاعدة.

يصر الرأي العام الياباني على أن تردّ حكومته، وحليفتها، حكومة الولايات المتحدة، على هذا الهجوم الصيني غير المبرَّر. وهكذا، تحولت حربٌ تجاريةٌ، إلى حرب مسلحة تتصاعد أحداثها خارج نطاق سيطرة كل من واشنطن وبيجين.

الحرب بين الولايات المتحدة والصين ليست حتمية، لكنها ممكنة. وفي واقع الأمر، لقد أوضحت هذه السيناريوهات أن التوتر الكامن بسبب صعود الصين المزعج، يخلق الظروف التي يمكن أن تؤدي فيها أحداث عرضية أو غير ذات صلة، إلى صراع واسع النطاق. عند اتخاذ خيارات لردع البلطجة، أو الوفاء بالتزامات تفرضها معاهدة قائمة منذ وقت طويل، أو للمطالبة بالاحترام الذي تستحقه دولهم، قد يقع قادة كل من الجانبين في فخٍّ يعرفون أنه موجود، لكنهم يعتقدون أنهم يستطيعون تجنُّب السقوط في حبائله. إن التقدم المستمر للتكنولوجيات الجديدة، من الأقمار الاصطناعية المضادة للأسلحة، والأسلحة السيبرانية، إلى أسلحة أخرى لا تزال حتى أسماؤها مصنفة على درجة عالية من السرية، يضاعف التأثيرات المحتملة، ولكن لا يمكن فهمُ هذه التأثيرات بشكل كامل قبل استخدامها في صراع حقيقي. وفي واقع المسارات الراهنة، يمكن القول إن حربًا كارثيةً بين الولايات المتحدة والصين، في العقود المقبلة، ليست ممكنة فحسب، بل إنها أكثر ترجيحًا مما يرغب معظمنا في توقُّعه.

هوامش

الفصل الثامن

(1) لدعم هذا الرأي، يعود البعض إلى كتاب تحدي الصين: تشكيل خيارات قوة صاعدة China Challenge: Shaping the Choices of a Rising Power تأليف توماس كريستنسن Thomas Christensen، 2015. الذي يشرح كيف أن التغيرات في الشؤون الاقتصادية والسياسية العالمية تخفض احتمال نشوب حرب القوى الكبرى بين الولايات المتحدة والصين. لكن كريستنسن يقر بأن نشوب مثل هذا النزاع لا يزال ممكنًا. كما يقر بأن تصاعد مزايا الصين العسكرية سيزيد من صعوبة إدارة التحديات الكامنة في العلاقات الثنائية بين الدولتين (مثل المنازعات الإقليمية). يمكن الاطلاع على المزيد بهذا الشأن في الفصلين الثاني والرابع تحديدًا من كتاب كريستنسن.

(2) الحرب مع الصين: البحث في ما لا يصَدَّق War with China: Thinking Through the Unthinkable تأليف دايفد غومبرت وأستريد سيفالّوس وكريستينا غارافولا David Gompert, Astrid Cevallos, and Cristina Garafola، 2016.

(3) الحلول النهائية: قتل جماعي وإبادة في القرن العشرين Final Solutions: Mass Killing and Genocide in the Twentieth Century تأليف بنجامن فالنتينو Benjamin Valentino، 2005.

(4) خطآن استراتيجيان في الاستخبارات في كوريا، 1950: التصورات والواقع Two Strategic Intelligence Mistakes in Korea, 1950: Perceptions and Reality، مقالة كتبها ب. ك. روز P. K. Rose في مجلة دراسات في الاستخبارات Studies in Intelligence، عدد خريف - شتاء 2001.

(5) هذا النوع من الحرب: دراسة في اللاجهوزية This Kind of War: A Study in Unpreparedness تأليف ت. ر. فيهرنباخ T. R. Fehrenbach، 1963.

(6) بحسب وصف فيهرنباخ، كان ماك آرثر ينوي إرسال قوات بحرية إلى نقطة قريبة من البر الصيني لدرجة استدراج رد صيني عنيف يمكن استخدامه بعد ذلك كذريعة للتصعيد إلى استخدام الأسلحة النووية.

(7) هذا النوع من الحرب، تأليف ت. ر. فيهرنباخ.

(8) النزاع الحدودي الصيني السوفييتي: الردع، والتصعيد، وتهديد الحرب النووية في عام 1969 The Sino-Soviet Border Conflict: Deterrence, Escalation, and the Threat of Nuclear War in 1969، دراسة أعدها مايكل جيرسون Michael Gerson لمركز التحليل البحري Center for Naval Analyses في تشرين الثاني/نوفمبر 2010، ومتوفرة من خلال الرابط التالي: https://www.cna.org/CNA_files/PDF/D0022974.A2.pdf.

(9) المرجع السابق.
(10) أضرار جانبية: التنافس الصيني السوفييتي وفسخ التحالف الصيني الفيتنامي Collateral Damage: Sino-Soviet Rivalry and the Termination of the Sino-Vietnamese Alliance تأليف نيكولاس كهوو Nicholas Khoo.
(11) عن الصين، تأليف هنري كيسنجر.
(12) دبلوماسية، تأليف هنري كيسنجر.
(13) النزاع الحدودي الصيني السوفييتي، تأليف مايكل جيرسون.
(14) حدود قوية، أمة آمنة، تأليف م. تايلور فرافل.
(15) المرجع السابق.
(16) النزاع الحدودي الصيني السوفييتي، تأليف مايكل جيرسون. مرجع سبق ذكره.
(17) رأى علماء صينيون، وكان رأيهم مصيبًا، أن تحرك لي تنغ هوي الرامي إلى الانفصال أصبح أيضًا ملائمًا أكثر.
(18) يمكن مراجعة مقالة بعنوان عندما تتصادم الحكومات في مضيق تايوان When Governments Collide in the Taiwan Strait، كتبها والاس ثايز وباتريك براتون Wallace Thies and Patrick Bratton لمجلة الدراسات الاستراتيجية Journal of Strategic Studies، المجلد 27، العدد 4، كانون الأول/ديسمبر 2004؛ وكذلك مقالة: المواجهة في مضيق تايوان 1995–1996 The 1995-96 Taiwan Strait Confrontation، كتبها روبرت روس Robert Ross لمجلة الأمن الدولي International Security، المجلد 25، العدد 2، خريف 2000.
(19) يمكن مراجعة مقالة بعنوان السفن الحربية الأمريكية والصينية تكاد تصطدم في بحر الصين الجنوبي American and Chinese Navy Ships Nearly Collided in South China Sea، كتبتها جاين بيرليز Jane Perlez لصحيفة نيويورك تايمز New York Times في 14 كانون الأول/ديسمبر 2013، من خلال الرابط التالي: http://www.nytimes.com/2013/12/15/world/asia/chinese-and-american-ships-nearly -collide-in-south-china-sea.html.
(20) عالمٌ مرمَّم: ميترنيخ، كاسلراي، ومشكلة السلام A World Restored: Metternich, Castlereagh, and the Problems of Peace، تأليف هنري كيسنجر، 1957.
(21) قال هنري كيسنجر في مقابلة معه في عام 2014 ضمن برنامج "العالم" على البث الدولي للإذاعة العامة: "خاضت الولايات المتحدة خمسة حروب منذ الحرب العالمية الثانية. ولم تحقق هدفها المعلن إلا في واحدة فقط من تلك الحروب. ووصلت إلى مأزق في حرب أخرى وانسحبنا في الحروب الثلاث الباقية. ففي حرب العراق الأولى حققنا هدفنا، وفي الحرب الكورية وصلنا إلى مأزق، وفي فيتنام وحرب العراق الثانية وأفغانستان أجرينا انسحابًا أحادي الجانب". المزيد على الرابط التالي: http://www.pri.org /stories/2014-09-11/henry-kissinger-would-not-have-supported-iraq-war-if-hed-known-what-he-knows-now.
(22) ملاحظات وزير الدفاع روبرت غيتس في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في وست بوينت West Point، في 25 شباط/فبراير 2011، وهي متاحة على الرابط التالي: http://archive.defense.gov /Speeches/Speech.aspx?SpeechID=1539.
(23) عن الحرب On War، تأليف كارل فون كلاوسفيتز Carl von Clausewitz، 1989.
(24) استرجاع: مأساة فيتنام ودروسها In Retrospect: The Tragedy and Lessons of Vietnam، تأليف روبرت ماكنمارا Robert McNamara، 1996.
(25) يمكن الاطلاع على المواجهة والإخفاء: حروب أوباما السرية والاستخدام المفاجئ للقوة الأمريكية Confront and Conceal: Obama's Secret Wars and Surprising Use of American Power، تأليف ديفيد سانغر David Sanger، 2012.

(26) بيان صحافي صادر عن مختبرات كاسبرسكاي حول اكتشاف أن لدى بعض المنظمات الكبرى أنظمة مراقبة صناعية هشة، في 11 تموز/يوليو 2016، ومتاح على الرابط التالي: http://usa.kaspersky.com/about-us/press-center/press-releases/2016/Kaspersky-Lab-Discovers-Vulnerable-Industrial-Control-Systems-Likely-Belonging-to-Large-Organizations.

(27) عن التصعيد: استعارات وسيناريوهات On Escalation: Metaphors and Scenarios، تأليف هيرمان كاهْن، 1965.

(28) مقال بعنوان الطريق إلى الأمن الغذائي The Road to Food Security، كتبه أودري وانغ Audrey Wang في صحيفة تايوان اليوم Taiwan Today، في 1 تموز/يوليهُ ومتاح على الرابط التالي: http://taiwantoday.tw/ct.asp?xItem=167684$CtNode=124؛ ومقال للكاتب نفسه بعنوان تايبيه تايمز Taipei Times، في 26 تموز/يوليه 2010، ومتاح على الرابط: http://www.taipetimes.com/News/editorials/archives/2010/07/26/2003478832.

(29) مقالة المواجهة في مضيق تايوان 1995-1996، كتبها روبرت روس.

(30) هذا السيناريو مبني على لعبة حرب صممتها مؤسسة راند RAND لمجلة السياسة الخارجية Foreign Policy. لمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على مقال بعنوان "كيف تعثرت السياسة الخارجية فوقعت في حرب مع الصين، وخسرت" How FP Stumbled Into a War with China - and Lost، كتبه دان ده لوسه وكيث جونسون Dan De Luce and Keith Johnson، لمجلة السياسة الخارجية في 15 كانون الثاني/يناير 2016. وهو متاح على الرابط التالي: http://foreignpolicy.com/2016/01/15/how-fp-stumbled-into-a-war-with-china-and-lost.

(31) أوضح الرئيس أوباما ذلك حين أعلن: "إن التزامنا بضمان أمن اليابان بموجب المعاهدة التزام مطلق، والمعاهدة تشمل كل الأراضي التي تقع ضمن إدارة اليابان، بما في ذلك جزر سينكاكو". وجدد الرئيس ترامب تأكيد هذا الالتزام بعد فترة قصيرة على توليه مهامه الرئاسية. التفاصيل في المؤتمر الصحافي المشترك بين الرئيس أوباما ورئيس وزراء اليابان شينزو آبه Shinzo Abe في 24 نيسان/أبريل 2014، المتاح على الرابط https://obamawhitehouse.archives.gov/the-press-office/2014/04/24/joint-press-conference-president-obama-and-prime-minister-abe-japan؛ والبيان المشترك بين الرئيس دونالد ترامب ورئيس الوزراء الياباني شينزو آبه، في 10 شباط/فبراير 2017، المتاح على الرابط https://www.whitehouse.gov/the-press-office/2017/02/10/joint-statement-president-donald-j-trump-and-prime-minister-shinzo-abe.

(32) مقال بعنوان "الصين تحذِّر من تصاعد التهديد النووي لدى كوريا الشمالية" China Warns North Korean Nuclear Threat Is Rising، كتبه جيريمي بايج وجاي سولومون Jeremy Page and Jay Solomon لصحيفة وال ستريت جورنال Wall Street Journal في 22 نيسان/أبريل 2015، وهو متاح على الرابط http://www.wsj.com/articles/china-warns-north-korean-nuclear-threat-is-rising-1429745706.

(33) مقال بعنوان "الإعداد لسقوط كوريا الشمالية المحتوم" Preparing for North Korea's Inevitable Collapse كتبه إيلي لايك Eli Lake لوكالة بلومبرغ Bloomberg في 20 أيلول/سبتمبر 2016، وهو متاح على الرابط https://www.bloomberg.com/view/articles/2016-09-20/preparing-for-north-korea-s-inevitable-collapse.

(34) تجارة السلع مع الصين، معلومات من التعداد الأمريكي، متاحة على الرابط التالي: http://www.census.gov/foreign-trade/balance/c5700.html.

(35) مرتكبو الانهيار الخاطف: ثورة في وول ستريت Flash Boys: A Wall Street Revolt، تأليف مايكل لويس Michael Lewis، 2014.

(36) أكبر من الفشل: قصة من كواليس معركة وول ستريت وواشنطن لإنقاذ النظام المالي، وإنقاذ أنفسهم Too Big to Fail: The Inside Story of How Wall Street and Washington Fought to Save the Financial System - and Themselves، تأليف أندرو روس سوركن Andrew Ross Sorkin، 2011.

(37) مقال بعنوان لدى خروج أزمة الائتمان عن السيطرة، الإنذار يؤدي إلى الفعل As Credit Crisis Spiraled, Alarm Led to Action، كتبه أندرو روس سوركن وآخرون في صحيفة نيويورك تايمز في 1 تشرين الأول/أكتوبر 2008، وهو متاح على الرابط التالي: http://www.nytimes.com/2008/10/02/business/02crisis.html.

(38) مقال بعنوان كيف سيجعل التمويهُ المستمر الطائراتِ الصغيرة التي تطير من دون طيار طائراتٍ غير مرئية How Active Camouflage Will Make Small Drones Invisible، كتبه دايفد هامبلنغ David Hambling في مجلة Popular Mechanics في 14 تشرين الثاني/نوفمبر 2015، وهو متاح على الرابط التالي: http://www.popularmechanics.com/flight/drones/a18190/active-camouflage-make-small-drones-invisible.

الجزء الرابع

لماذا الحربُ ليست حتميّة



الفصل التاسع

اثنتا عشرة فكرة للسلام

الحرب عمل شِرّير. توصيف مألوف للجميع، حتى أن الإسهاب في شرحه سوف يكون أمرًا مُملًا. لا أحد يُجبَر على الانخراط في الحرب بسبب الجهل، كما لا أحد يُجبَر على البقاء بعيدًا عنها بسبب الخوف. وإذا كان طرفا الحرب قد اختارا اللحظة الخاطئة للتصرف، فإن نُصحَهما بإحلال السلم لن يكون عديم الفائدة. هذا النصح، الذي لم نكن ندرك فائدته، هو أكثر ما نحتاج إليه في المرحلة الحالية.

ـ ثيوسيديديز، هرموقراتس مخاطبًا الصقليين، عام *424* قبل الميلاد

من حُسْن الحظ، أن الهروب من فخ ثيوسيديديز ليس مجرد مسألة نظرية. فقد قدّمت السنوات الخمسمائة الماضية أربع حالات على الأقل نجحت فيها كل من القوى الصاعدة والقوى الحاكمة في قيادة سفينة الدولة عبر أمواجٍ غادرة، بدون حرب.

وقعت أولى هذه الحالات في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، عندما صَعَدت إسبانيا لتُنافس البرتغال، وتحل محلها في النهاية، كقوة بحرية عالمية مهيمنة. وأحدث هذه الحالات هو صعود ألمانيا، لتصبح القوة المهيمنة في أوروبا منذ نهاية الحرب الباردة. أما الحالتان الأكثر دلالة بين هذه القصص الجيدة فتنتميان إلى القرن العشرين: وقعت

الأولى عندما أزاحت الولاياتُ المتحدةُ المملكةَ المتحدةَ عن موقعها كقوة عالمية رائدة؛ ووقعت الثانية عندما هدد الاتحادُ السوفييتي الصاعد مركز أمريكا كقوة القطب الواحد. وتوفر الحالتان معًا مجموعة غنية من الأفكار، للقادة الذين يسعون إلى جعل صعود الصين حالة خامسة من عدم الحرب.

إسبانيا في مواجهة البرتغال

نهاية القرن الخامس عشر

على مدار معظم سنوات القرن الخامس عشر، تحكمت الأساطيل البرتغالية في طرق التجارة عبر المحيط، ملقيةً بظلالِها على منافِستها وجارتها الأيبيرية، مملكة قشتالة الإسبانية Spanish kingdom of Castile. وقد جاء نجاح البرتغال انعكاسًا لتطورها التاريخي. ففي عام 1249، أصبح البرتغاليون أول شعب أوروبي يُفلت من الحكم الإسلامي، فنشأت أمّةٌ مستقلةٌ على طول حدود البرتغال كما نعرفها اليوم تقريبًا. بعد ذلك، في عام 1348، حصد الموت الأسود(*) Black Death أرواح ثلث سكان البلاد، ولم يترك سوى عدد قليل من العمال القادرين على العمل في فلاحة تربة البلاد الصخرية[1]. لهذا تحوَّل البرتغاليون، المشهورون بالإقدام وحب المغامرة، إلى المحيط الأطلسي، وأصبحوا، في ذلك الوقت، أمهر صيادي أوروبا وأكثرهم نجاحًا. وقد نمت قوة البلاد البحرية بعد عام 1415، عندما استولى البرتغاليون على أول منطقة لهم في الخارج، بالقرب من مضيق جبل طارق. كان الأمير البرتغالي العظيم هنري الملاح، قد عقد العزم على إثراء بلاده وتاجه، لذلك دعم تطوير تقنيات الملاحة البحرية الجديدة، بما في ذلك بناء المراكب الكبيرة التي تتميز بالسرعة والرشاقة، وتحسين حبال الأشرعة والصواري، ورسم الخرائط التفصيلية[2]. ولأن البرتغال كانت رائدة

(*) الاسم الأكثر انتشارًا في الثقافة الأوروبية لما نطلق عليه نحن الطاعون plague، وهو الاسم العلمي لهذا المرض. (المُعرِّب)

في مجال العلوم البحرية إلى حد كبيرٍ جدًا، كانت هي القوة الدافعة الأساسية وراء انطلاق ما يعرف بحركة التوسع الأوروبي"[3]. وفي عام 1488، كان المستكشفون البرتغاليون أول أوروبيين يدورون حول رأس الرجاء الصالح Cape of Good Hope، بحثًا عن طرق تجارية تقودهم إلى الهند وتجارة التوابل المربحة معها.

خلال معظم سنوات القرن الخامس عشر، كانت يدُ البرتغال مطلقة في إرساء قواعد هيمنتها على المنطقة، حيث كانت مملكة قشتالة منشغلة بالصراعات الداخلية[4]. ولكن هذا الوضع تغير في عام 1469، عندما تزوجت إيزابيلا Isabella أميرة قشتالة البالغة ثمانية عشر عامًا، من فرديناند Ferdinand أمير أراغون البالغ من العمر سبعة عشر عامًا. فقد أسفرت تلك الزيجة عن دمج المملكتين في إسبانيا موحدة. وقد استطاع الزوجان باندماج مملكتيهما استرداد الأراضي التي كان المحتلون الموريون[*] Moorish قد استولوا عليها، كما تمكّنا من استعادة غرناطة. وفي عام 1942، العام الذي دعما خلاله أولى رحلات بَحّارٍ من جَنَوَة، يدعى كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus، طردا الموريين تمامًا من شبه الجزيرة الأيبيرية.

مع عودة الأوضاع الداخلية في إسبانيا إلى حالتها الطبيعية، بدأ الاقتصاد الإسباني في النمو. فارتفعت عائدات التاج ثلاثين مرة ما بين 1474 و1504[5]. وقد شجع هذا الثراء إسبانيا على البحث عن الذهب، والتوابل، وعن علاقات تجارية جديدة عبر البحار، مثلما فعلت جارتُها البرتغال منذ قرن تقريبًا. كان توقيت بدء صعود إسبانيا مصادفةً سعيدةً غيرَ متوقعة. فمع وفاة هنري الملاح عام 1460، تضاءلت جهود البرتغال في مجال رعاية الابتكار ودعمه، وأصبحت قبضتها أقل تشددًا في ما

(*) يطلق لفظ المور Moor على عرب المغرب، الذين احتلوا شبه جزيرة أيبيريا في القرن الثامن الميلادي، وأقاموا هناك ما يعرف بالدولة الإسلامية في الأندلس، التي دامت سبعة قرون، إلى أن سقطت في القرن الخامس عشر. والمور، عرقيًا، جنس مختلط، يمتزج فيه العرب مع البربر. (المُعرِّب)

يتعلق بتطبيق ما كانت تفرضه من حظر صارم على تصدير خبرات بناء السفن ورسم الخرائط وتقنياتها. وبحلول عام 1480، بدأت دول أخرى في استغلال هذه المهارات، لتحصل لنفسها على موقع يماثل ما كان للبرتغال من سيادة على المحيط الأطلسي. وعندما سعى كريستوفر كولومبوس لدى الملك جون الثاني، خليفة هنري الملاح، للحصول على أموال للإبحار غربًا بحثًا عن طريق جديد إلى الهند، مع منحه حق الحصول على عائدات على الأراضي المكتشفة، أجابه الملك جون بالرفض. لهذا، تحول كولومبوس إلى فرديناند وإيزابيلا، طالبًا تزويده بثلاث سفن، ومنحه لقب أمير المحيط، وتعيينه نائبًا للملك على ما قد يكتشفه من أراضٍ، بالإضافة إلى منحه عُشْر العائدات التي تُدِرُّها تلك الأراضي[6]. وقد وافق ملك وملكة إسبانيا على تلك الطلبات[7].

عندما عاد كولومبوس منتصرًا، رأى الملك جون أنه قد ارتكب خطأً كبيرًا. فبفضل اكتشاف كولومبس، ظهرت إسبانيا كقوة منافسة خطيرة لإمبراطورية البرتغال الخارجية وطرقها البحرية، مما يهدد الاحتكار الظاهري للبرتغال. وشعرت الدولتان بالقلق إزاء احتمال نشوب صراع بينهما، لا سيما في الأراضي الجديدة، وخشي قادة كل منهما الثمن الباهظ من الدماء والثروات، الذي سوف تتطلبه أي حرب شاملة بين هاتين القوتين العسكريتين[8].

لحسن حظ الدولتين، قرر فرديناند وإيزابيلا الاحتكام إلى سلطة أعلى: البابا ألكسندر السادس Pope Alexander VI. (وقد صودف أن البابا كان من أصل إسباني، كما كان قد انتُخب مؤخرًا بدعم إسبانيا) وبصفته مُحكِّمًا، رسم ألكسندر السادس خطًا يمتد من الشمال القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، ليقسم نصف الكرة الغربي إلى نصفين، على أن تذهب ملكية الأراضي التي تقع غرب هذا الخط إلى إسبانيا، وتذهب ملكية الأراضي التي تقع شرقه إلى البرتغال. وقد رفضت البرتغال في البداية هذا الحكم، الذي اعتبرته منحازًا لإسبانيا بشكل غير عادل. ومع ذلك، أصبح هذا الحكم نقطة انطلاق للمفاوضات التي أدت إلى معاهدة توردسيياس Treaty of

Tordesillas، التي وُقِّعت عام 1494. (يمر الخط المتفق عليه خلال البرازيل كما نعرفها اليوم، وهو الأمر الذي يفسر لماذا يتحدث البرازيليون اللغة البرتغالية، في حين أن معظم دول أمريكا الجنوبية تتحدث الإسبانية)(*). وقد اعتبر الحكام في العاصمتين هذا الحكم انتصارًا لهم. فإسبانيا شَرْعَنت رهانها على مشروع الاستكشاف، بينما أكدت البرتغال ملكيتها لما تعتبره أفضل طريق إلى الهند. وكما يلاحظ المؤرخ أ. ر. ديزني A. R. Disney "لقد أصبحت معاهدة توردسيياس ميثاقًا للسيطرة، يحدد لكل طرف المجالات المفتوحة أمامه، لاستكشاف الأراضي والاستيلاء عليها، طوال القرن الثامن عشر"[9].

لقد خلق الدورُ البابوي في تحديد مجالات النفوذ هذه حوافزَ للوفاء بشروط المعاهدة. فقد كان حكام كلا الدولتين خاضعين للسلطة البابوية، بما في ذلك سلطة الحرمان الكنسي excommunication. وبررت كل من الدولتين غزواتها بأنها بعثة أو مهمة تهدف إلى تحويل الوثنيين إلى المسيحية. وفي واقع الأمر، عندما ظهرت طموحات استعمارية جديدة لدى كلٍ من إنجلترا، وفرنسا، وهولندا، على مدار العقود اللاحقة، زاد تمسك كل من إسبانيا والبرتغال بالإطار المُعتمَد من الفاتيكان، وزاد التزامهم باحترامه، باعتبار أنهما حماة للأمر الواقع على الأرض. وبالتالي، لم تكن هناك أعمال عدائية كبيرة بين البلدين على مدار ما يقرب من قرن كامل.

الفكرة الأولى: يمكن للسلطات العليا المساعدة في حل التنافس من دون حرب.

يحلم المُنظِّرون بعالم يحكمه القانون الدولي، منذ أن صاغ العالِم

(*) جرت تلك العملية تحت اسم تقسيم العالم غير المسيحي بين إسبانيا والبرتغال، وقد كان خط التقسيم الذي رسمه البابا يقع عند خط الطول 38. وخلال محادثات توردسيياس جرى تحريك خط التقسيم في اتجاه الغرب، ليستقر عند خط الطول 46، الأمر الذي أدى إلى زيادة المساحة المخصصة للبرتغال، بنسبة لا بأس بها. (المُعرِّب)

القانوني الهولندي هوغو غروتيوس Hugo Grotius، في القرن السابع عشر، فكرة مجتمع عالمي واحد يضم الدول القومية. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، سعى زعماء دول العالم إلى تحقيق هذا الطموح من خلال إنشاء الأمم المتحدة. وقد وضع ميثاق المنظمة إطارًا من القانون الدولي، وأنشأ مجموعة من المنظمات، يشرف عليها مجلس الأمن، الذي يُعدُّ أعضاء المنظمة، رعايا له، وإن نظريًا. ورغم ذلك، وفي موقفٍ له مغزاه وتأثيره، أصرت القوى العظمى الخمس في ذلك الوقت، الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي، والصين، وبريطانيا، وفرنسا، على أن يكون لكل منها، منفردة، حق النقض veto، أي حق الاعتراض على قرارات المجلس.

يدعو ميثاق الأمم المتحدة كل دولة عضو إلى قبول قيود على سلوكها، بما في ذلك استخدام القوة العسكرية ضد غيرها من الدول الأعضاء. غير أن تفسير تلك القيود متروك للأعضاء. كما تمنح المادة 51 من الميثاق كل دولة "حق الدفاع عن النفس". وقد توسعت الولايات المتحدة في استخدام هذا الحق، فوصلت به إلى أبعادٍ جديدة، عام 2003، عندما أصرَّت على أن هجومها على العراق كان مبررًا باعتباره دفاعًا استباقيًا عن النفس، زاعمةً أن صدام حسين كان لديه

(*) الحقيقة أن ما فعلته الولايات المتحدة عندما قامت بغزو العراق لم يكن تدخلاً استباقيًا أو إجهاضيًا كما ادَّعت، لكنه كان تدخلاً وقائيًا. وفي هذا الشأن يقول ريتشارد هاس: "لقد أظهرت تجربة حرب العراق عام 2003 عدم وجود أي دعم دولي لفكرة التدخل الوقائي. وكثيرًا ما يُستخدم تعبير الضربة الاستباقية أو الإجهاضية، لوصف ما فعلته الولايات المتحدة في العراق، وهو التعبير الذي استخدمته إدارة جورج بوش (الابن) في وثيقة الأمن القومي لعام 2002. غير أن هذا يمثل خلطًا بين مصطلحين يختلفان من عدة أوجه اختلافًا كبيرًا، ويواجه كل منهما موقفًا دوليًا يختلف تمامًا عما يواجهه الآخر. لإيضاح هذا الأمر أقول، إن ما فعلته الولايات المتحدة في عام 2003 هو شن عمل وقائي، يهدف إلى إيقاف تهديد كانت نُذُره قد بدأت تتجمع، وهو الاعتقاد بأن العراق يطوِّر سلاحًا نوويًا. يثير مثل هذا الإجراء كثيرًا من الجدل لأسبابٍ وجيهة، فالحكومات ترى دون أدنى شك تهديدات متفاوتة تتجمع من كل حدب وصوب، ومن ثم فإن عالمًا مملوءًا بالعمليات العسكرية الوقائية المتكررة، ضد تهديدات تتجمع أو تتشكل، سوف يتحول خلال وقت قصير إلى عالم مملوءٍ بالصراعات والحروب المتكررة. على العكس من ذلك، تلقى فكرة الإجهاض أو الاستباقٍ، وهو العمل العسكري الذي يهدف إلى منع خطر عسكري

أسلحة دمار شامل، تُشكِّل تهديدًا وشيكًا(*). وفي فترة لاحقة، دفع الرئيس أوباما هذا الحق إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما أصدر، بشكل منفرد، أوامر بشن هجمات ضد مجموعات تصفها الولايات المتحدة بأنها "إرهابية" في سبعة بلدان[10].

وفقًا لما يطرحه أنصار القانون الدولي، شهدت العقود السبعة الماضية تقدمًا مطردًا في قبول "نظام دولي يقوم على قواعد". غير أن أصحاب النظرة الواقعية يختلفون مع هذه القراءة، خاصة عندما يتعلق الأمر باستخدام القوة العسكرية، ويشيرون إلى أن الدول القوية قد استخفَّت مرارًا وتكرارًا بهذا النظام، عندما رأت أن هذا الاستخفاف يخدم مصالحها القومية. ففي عام 2016، على سبيل المثال، قادت الولايات المتحدة حملة لإدانة رفض الصين الكُلّي لحكم محكمة التحكيم الدائمة، الذي أسقط مزاعم بيجين في بحر الصين الجنوبي. وقد رأى بعض المراقبين في تصرف الولايات المتحدة نوعًا من النفاق، في إشارةٍ إلى أن واشنطن سبق أن رفضت حكمًا أصدرته محكمة العدل الدولية ضدها، عندما فخَّخت وكالة المخابرات المركزية CIA موانئ نيكاراغوا بالألغام في الثمانينيات، في محاولة للإطاحة بحكومة الساندينستا Sandinista[11]. من الواضح، في هذه المرحلة، أن الخضوع للسلطات الدولية له حدود أو معوقات حقيقية. ومع ذلك، وبقدر ما يمكن إقناع الدول بالإذعان لقيود وقرارات السلطات أو الأطر القانونية فوق الوطنية، كما فعل حكام إسبانيا والبرتغال في القرن الخامس عشر، يمكن أن تلعب هذه العوامل أدوارًا مهمة في إدارة الصراعات التي قد تنتهي إلى حرب، إذا لم يتحقق ذلك الإذعان.

وشيك الوقوع، قبولًا واسع النطاق، بل إن بعض السلطات والهيئات القانونية الميدانية، تذهب في تأييدها إلى حد اعتبار مثل هذه الأفعال "توقُّعًا أو استبصارًا مشروعًا". المهم، أن يكون صاحب الضربة قادرًا على إقناع العالم بأن الخطر كان بالفعل وشيك الوقوع، وهو شرطٌ لا ينطبق إطلاقًا على عراق 2003. (بتصرف، عن كتاب عالمٌ في حيص بيص، تأليف ريتشارد هاس، تعريب وتعليق إسماعيل بهاء الدين سليمان، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان 2017). (المُعرِّب)

ألمانيا في مواجهة بريطانيا وفرنسا

من التسعينيات، إلى وقتنا الحالي

لقد أشار هنري كيسنجر إلى واحدة من سخريات تحوُّل القدر، عندما قال: "بعد سبعين سنة من هزيمة المساعي الألمانية للهيمنة على أوروبا، ولأسباب معظمها اقتصادية، يتوسل المنتصرون الآن إلى ألمانيا، كي تتولى قيادة أوروبا"[12]. في عام 1989، بعد انهيار جدار برلين، حثَّت رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر Margaret Thatcher الرئيس جورج بوش (الأب) على وقف الاندفاع نحو إعادة توحيد ألمانيا، محذرةً من أن "الألمان سيحصلون بالسلام، على ما لم يتمكن هتلر من الحصول عليه بالحرب"[13]. في الواقع، صحيح أن تصرفات ألمانيا الموحدة والأكثر قوة أثارت الاستياء في بعض الأحيان، إلاّ أن هيمنة ألمانيا الحالية على أوروبا لم تحدث فقط دون حرب، ولكن أيضًا في سياقٍ أصبح فيه الصراع العسكري مع جيرانها الأوروبيين أمرًا مستبعدًا. وأسباب هذه التطورات توحي وتُذكِّر بالكثير.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية كانت القوات السوفييتية تحتل الجزء الشرقي من ألمانيا، بينما احتفظت القوات التي تقودها الولايات المتحدة بالجزء الغربي منها. وقد اعتبر كثيرٌ من الاستراتيجيين الأوروبيين هذا التقسيم حلاً لمشكلة ألمانيا، التي كانت السبب الرئيسي لحربين عالميتين في القرن العشرين. وعندما أُسْدِل الستار الحديدي عبر القارة، على حد تعبير تشرشل، أصبحت المنافسة بين الاتحاد السوفييتي و"العالم الحر" خطَّ الصدع الأساسي في أوروبا. وللرد على ذلك الوضع، أنشأت الولايات المتحدة منظمة حلف شمال الأطلسي North Atlantic Treaty Organization. كانت مهمة الحلف، كما حرص على تكرارها ساخرًا أول أمين عام له(*)،

(*) إنه هاستينغ إيسماي Hasting Ismay (21 حزيران/يونيو 1887 -17 كانون الأول/ديسمبر 1965)، واحد من كبار القادة البريطانيين أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث عمل كبيرًا لمستشاري

هي "إبعادُ السوفييت، وإبقاءُ الأمريكيين، والحيلولةُ دون صعود الألمان"[14].

ولأن القادة الأوروبيين الحكماء، مثل جان مونيه(*) Jean Monnet، وروبرت شومان(**) Robert Schuman، كانوا قد عقدوا العزم على عدم تكرار أنماط السياسة الدولية التي جعلت من أوروبا ميدانًا للقتل على مدار سنوات طويلة من القرن العشرين، فقد عززوا الترابط الاقتصادي الكثيف بين دول أوروبا، وعلى وجه خاص بين فرنسا وألمانيا. وسرعان ما نمت هذه الشبكة التجارية لتصبح سوقًا أوروبيةً مشتركة، يتم في إطارها تداول السلع بحُرّية، وبدون تعريفات جمركية. كما أصبحت هذه السوق حجر الأساس الأول في مشروع أوروبي أكبر وأكثر طموحًا، يهدف إلى إخضاع عناصر السيادة الوطنية لإدارة مؤسساتٍ أوروبيةٍ عابرة للقوميات. وفي المعاهدة التي أنشأت الجماعةَ الأوروبيةَ للفحم والصلب European Coal and Steel Community، وهي واحدة من أهم أسلاف الاتحاد الأوروبي، وصف مونيه الجماعة بأنها مؤسسةٌ "تضع الأسس الملموسة الأولى للاتحاد الأوروبي، الذي لا غنى عنه للحفاظ على السلام"[15]. بعض أصحاب الرؤية الثاقبة من القادة الذين نسّقوا هذا الجهد ذهبوا حتى إلى تصوُّر أوروبا

رئيس الوزراء ونستون تشرشل العسكريين. وقد تولى إيسماي أمانة حلف شمال الأطلسي خلال الفترة من 24 آذار/مارس 1952 إلى 16 أيار/مايو 1956. (المُعرِّب)

(*) جان أومير ماري غابرييل مونيه Jean Omer Marie Gabriel Monnet (9 تشرين الثاني/نوفمبر 1888- 16 آذار/مارس 1979) دبلوماسي وعالِم اقتصادي وسياسي فرنسي. كان واحدًا من أقوى المناصرين لفكرة الاتحاد الأوروبي، حتى أنه يُعرف باسم "أبو أوروبا". ورغم أنه لم يُنتخب لتولي منصبٍ عام، كانت جهوده من وراء الستار القوة الدافعة الأكثر أهمية وفعالية على طريق تحقيق حلم الوحدة الأوروبية. (المُعرِّب)

(**) جان باتيست نيكولاس روبرت شومان Jean-Baptiste Nicolas Robert Schuman (29 حزيران/يونيو 1886 -4 أيلول/سبتمبر 1963) ولد لوالد يحمل الجنسية الألمانية فوَرثها عنه. وقد شغل عدة مناصب وزارية في فرنسا، كما تولى رئاسة الوزارة مرتين. يُعد شومان واحدًا من أهم الأعمدة التي قام عليها النظام الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية، كما يُعد من أبرز الآباء المؤسسين للاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي. وهو صاحب فكرة الجمع بين فرنسا وألمانيا بنسيج متماسك من العلاقات، بحيث تصبح فكرة قيام حرب جديدة بينهما أمرًا غيرَ واردٍ على الإطلاق. (المُعرِّب)

موحدة على غرار الولايات المتحدة الأمريكية(*). ومع ذلك، بدا أن الجميع، بما في ذلك الألمان أنفسهم، متفقون على أن ألمانيا ستظل شريكًا صغيرًا. ولأنهم استوعبوا أبعاد المحرقة(**) Holocaust، وغيرها من الجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبها النظام النازي، ارتاب الألمان في أنفسهم، وقبلوا، دون تردد، دورًا ثانويًا في المؤسسات الأوروبية.

ولكن في آخر فصل من فصول الحرب الباردة، عندما انهار جدار برلين، برزت احتمالات إعادة توحيد ألمانيا. لقد كان شركاء ألمانيا الغربية الأوروبيون، على وجه الخصوص، يعارضون التوحيد معارضة شديدة. فقد ذهبت رئيسة الوزراء البريطانية تاتشر، والرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، إلى الرئيس جورج بوش (الأب) عدة مرات، لحثِّه على منع قيام تلك الوحدة. كما أبدى السفير الفرنسي لدى ألمانيا اعتراضه على تلك الوحدة علانية، مؤكدًا أنها "ستؤدي إلى هيمنة ألمانيا على أوروبا، وهكذا أوروبا لا يريدها أحد، لا في الشرق ولا في الغرب"[16]. ومع ذلك، مضى الرئيس

(*) لقد وصل الأمر حد أن البعض قد أطلق على هذه الدولة الحُلم اسم الولايات المتحدة الأوروبية United States of Europe. وبعيدًا عن السياسة والسياسيين، ظهر هذا المصطلح للمرة الأولى في أواخر القرن العشرين، من خلال أعمال الكاتب الأمريكي إريك فلينت Eric Flint، التي تنتمي إلى ما يعرف بالتاريخ البديل Alternate History، وهي أعمال روائية تمزج بين الخيال العلمي، والدراسات التاريخية، حيث يتناول الكاتب حدثًا تاريخيًا معروفًا، ليعيد كتابته، ويسلك بوقائعه مساراتٍ مختلفةً، تؤدي إلى نتائج تختلف عما انتهى إليه الحدث، كما ورد في كتب التاريخ. (المُعرِّب)

(**) لا أعرف عبر التاريخ شعبًا، غير الألمان، ألصِقت به، أو بنظام حكمه يومًا ما، تهمةٌ باطلةٌ بشعة، مثل حرق الآلاف من اليهود في أفران جماعية، فيقرر أن يقضي عمره كله، محاولاً إقناع نفسه بأنه قد ارتكب تلك الجريمة، وأن يركز جهوده على ابتكار شكل جديد للندم والاعتذار كل يوم، بدلاً من تسخير إمكاناته المادية والبحثية لإثبات زيف هذا الادعاء. رغم أن كثيرًا من المفكرين اليهود، الذين يعمل بعضهم في جامعات الكيان الصهيوني، يشككون في تلك المزاعم، سواء من حيث وقوعها أصلاً، أو من حيث حجمها، ويصفونها بأنها تجارة تدر على مَن اغتصب حق تمثيل يهود العالم، أرباحًا معنوية ومادية هائلة. وهنا تجدر الإشارة إلى كتاب مثل صناعة الهولوكوست The Holocaust Industry، للباحث اليهودي الأمريكي نورمان فينكليشتاين Norman Finkelstein. ففي هذا الكتاب الذي لا ينكر مؤلفُه وقوع هولوكوست بشكل أو بآخر، تأكيدٌ على أن المسألة قد تحولت إلى صناعة وتجارة، وأن المتاجرين بها قد أسرفوا في توظيفها لتحقيق مكاسب اقتصادية ومادية، ولخدمة مصالح "إسرائيل". (المُعرِّب)

بوش وفريقه للأمن القومي قُدُمًا في دعمهم لإعادة توحيد ألمانيا. لكنهم أصروا على أن تظل ألمانيا الموحدة عضوًا في حلف الناتو، وألا تُترك بمفردها، منزوعة السلاح، أو محايدة، على النحو الذي كان الزعيم السوفييتي ميخائيل غورباتشوف يسعى إليه. لقد كان بوش يؤمن أن المؤسسات الأوروبية التي تقودها ألمانيا الموحدة، سوف تصبح المركز الرئيسي لرؤيته حول "أوروبا المتكاملة الحرة"[17].

وعلى النحو الذي تنبأت به تاتشر، ووافقها عليه ميتران، فإن القوة الاقتصادية المتنامية لألمانيا، منحتها، بشكل متزايد، صوتًا سياسيًا مُهيمنًا في القارة الأوروبية. ففي عام 1989، كان إجمالي الناتج المحلي الألماني مساويًا تقريبًا لمجموع الناتج المحلي الإجمالي لبريطانيا وفرنسا معًا. واليوم، أصبح هذا الناتج أكبر مما كان عليه بنحو 40 في المائة[18]. وعندما تحولت الجماعة الأوروبية إلى الاتحاد الأوروبي، وتخلى معظم أعضاء الاتحاد عن عملاتهم الوطنية، ليحل محلها اليورو كعملة مشتركة، كان من الطبيعي أن تكون ألمانيا مقرًا للبنك المركزي الأوروبي. ومع ذلك، ورغم تزايد أهميتها وتفوُّقها، ازداد تمسُّك ألمانيا باستراتيجية التكامل مع جيرانها. وكما قالت الباحثة الألمانية الشهيرة هيلغا هافتندورن Helga Haftendorn، لقد سمح الاتحاد الأوروبي بتوجيه القوة الألمانية نحو مصلحة أكبر، وخَلَق ألمانيا مُأَوْربة "Europeanized Germany"، بدلاً من أوروبا المُؤَلْمنة "German Europe"[19].

ولكن، وحتى وقت كتابة هذه السطور، لا تزال التجربة الأوروبية مُلْتبِسةً. فعندما ضغطت الأزمة المالية العالمية على التناقضات التي ينطوي عليها نظام اليورو، وكشفتها (التناقضات التي تتمثل في اتباع سياسة نقدية مشتركة، دون وجود سلطة مالية مشتركة)، وأجبرت الألمان على التدخل لإنقاذ اليونان وغيرها، تكهَّن الكثيرون بنهاية العملة الأوروبية المشتركة. ومع ذلك، لا يزال اليورو على قيد الحياة. وعندما أغرقت أوروبا جموعُ اللاجئين الفارين من البلدان التي عصفت بها فوضى ما بعد الربيع العربي، رفع المُشككون في اليورو من جديد لافتاتهم التي تعلن أن "النهاية

قريبة". وكان التصويت على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، المعروف باسم بريكسيت(*) Brexit، الذي جرى في حزيران/يونيو 2016، علامةً من العلامات النهائية للانهيار الوشيك لنظام ما بعد الحرب الباردة. لكن، وبحسب نظرة مهندسي المشروع الأوروبي، قد تكون الأزمات التي تهدد بقاء الاتحاد لا مفر منها، أما الانهيار فليس حتميًا. فالأزمات، من وجهة نظر هؤلاء، تتيح فرصًا فعليةً لتعزيز التكامل، بطرق كان من الممكن أن تكون مستحيلة بسبب العناد السياسي.

وعلى الرغم من قوة ألمانيا الاقتصادية، وزعامتها السياسية التي يتزايد نشاطها باستمرار، فقد ظلت، من الناحية العسكرية، رجلاً مَخْصيًّا. ففي عام 1945، نُزِع سلاحها بالقوة، وجُرِّدت من كافة مظاهر العسْكرة، كجزء متمِّم لعمليةٍ أُطلِق عليها القضاء على النازية(**) denazification. لقد كانت الضمانة الأمنية الأمريكية، وخاصة "المظلة النووية" الأمريكية، التي بقيت بعد إعادة التوحيد، بمثابة رسالة تطمين لجيران ألمانيا، من خلال إزالة أي سبب قد يدفع ألمانيا إلى زيادة قواتها العسكرية. ومع مرور الوقت، رشَّد زعماء ألمانيا هذا الوضع، عن طريق تبني مفهوم للنظام الدولي يتخطى الحداثة، إذ يرى أن الأمن هو في الأساس شأن من الشؤون الطبيعية. وقد أصبح الجيش الألماني، مع جيوش معظم الدول الأوروبية، رمزيًا واحتفاليًا، أكثر منه جيشًا عملانيًا. وبهذا المعنى، يمكن القول إن ألمانيا "الـمَخْصيَّة" عسكريًا، ليست دولة "طبيعية" في السياسة الدولية.

(*) أطلق على الاتفاقية هذا الاسم الذي يتكوَّن من مختصر اصطلاحي لكلمتين هما بريطانيا Britain، وخروج Exit، صوّت لصالح هذه الاتفاقية اثنان وخمسون في المائة ممن شاركوا في الاستفتاء، وطبقًا للمادة الخمسين من معاهدة تأسيس الاتحاد الأوروبي، يجب أن تبدأ إجراءات خروج المملكة المتحدة في نهاية آذار/مارس عام 2017، على أن تكتمل هذه الإجراءات تمامًا مع حلول آذار/مارس عام 2019. وقد أصبحت نتائج الاستفتاء نهائية، وبدأت إجراءات الخروج، عندما صوّت مجلس العموم البريطاني على تطبيقها في 14 آذار/مارس 2017. (المُعرِّب)

(**) جرت عملية القضاء على النازية بين عامي 1945 و1949، وقد تضمنت، بالإضافة إلى القضاء على كافة مظاهر العسكرة في المجتمع الألماني، تقديم كوادر النظام الاشتراكي القومي الكبيرة والمتوسطة إلى المحاكمة، وتطهير كافة مرافق الدولة ومؤسساتها من العناصر النازية. (المُعرِّب)

الفكرة الثانية: يمكن إدماج الدول ضمن الكيانات الاقتصادية والسياسية والأمنية الأكبر، التي تقيّد السلوكيات "الطبيعية" التاريخية.

ألمانيا هي النموذج الكلاسيكي الكامل للعملاق الاقتصادي والسياسي الذي لا يزال قزمًا من الناحية العسكرية. إنها مُدمَجة اقتصاديًا مع جيرانها، وتحميها قوة أمنية أمريكية عليا، مزودة بمظلة نووية. وإذا ما أدى مزيج من العوامل مثل الضغوط الاقتصادية، والمهاجرين، وانتعاش القومية الشعوبية، إلى تفكيك عُرى الاتحاد الأوروبي، فهل ستبقى ألمانيا التي تزداد قوة يومًا بعد يوم، دولةً لا تشكل تهديدًا لجيرانها؟ وإذا ما اضطُرت الولايات المتحدة إلى تقليص أو حتى سحب الغطاء الأمني لحلف الناتو، هل سوف نرى إعادة إحياء القوى العسكرية القومية في أوروبا، بما في ذلك ألمانيا؟ وإذا حدث ذلك، فهل يمكن للديناميكيَّات الثيوسيديديزية أن تجعل الحرب بين ألمانيا وبعض جيرانها، مرة أخرى، أمرًا يمكن تصوُّره؟ أم أنّ التغيرات الثقافية توغّلت في أعماق الوجدان الألماني، لدرجة يستحيل معها استعادة تقاليد الألمان العسكرية؟[20].

الولايات المتحدة في مواجهة بريطانيا

أوائل القرن العشرين

إن نجاح ثيودور روزفلت في قيادة الولايات المتحدة لإزاحة بريطانيا عن موقعها كقوة مسيطرة على نصف الكرة الغربي، يعكس تغيرات في الروابط الأساسية بين القوى. ففي العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر، كانت الولايات المتحدة تنفض عن كاهلها رماد حربها الأهلية، لتصبح عملاقًا اقتصاديًا. وفي عام 1850، كان عدد سكان بريطانيا وأمريكا متساويين تقريبًا. وبحلول عام 1900، وصل عدد الأمريكيين إلى ضعف

عدد البريطانيين[21]. وقد تجاوز الاقتصاد الأمريكي اقتصاد بريطانيا في عام 1870، وواصل النمو ليصل إلى ضعف حجمه بحلول عام 1914[22]. وفي عام 1880، كانت بريطانيا تُنتِج 23. في المائة من الإنتاج الصناعي العالمي. ولكن بحلول عام 1914، انخفضت حصتها السوقية إلى 13 في المائة، بينما ارتفعت حصة أمريكا إلى 32 في المائة[23].

وقد بقيت العلاقات الأنجلو-أمريكية متوترة بعد انفصالهما الغاضب والمرير. ففي حرب عام 1812، أحرق البريطانيون البيت الأبيض(*)، بينما اعتدى الأمريكيون على كندا البريطانية. وخلال الحرب الأهلية، فكرت بريطانيا جديًا في دعم الكونفدرالية، وهي حقيقة لم ينسها كثيرٌ من الأمريكيين، بما في ذلك ثيودور روزفلت نفسه[24]. ومع نمو القوة الأمريكية، تزايد إصرار الولايات المتحدة على أن تحظى بالاحترام والنفوذ على أرضها. وفي عام 1895، عندما نشأ نزاع إقليمي بين فنزويلا وغيانا البريطانية، طالب وزير الخارجية ريتشارد أولني Richard Olney بريطانيا بقبول التحكيم بموجب مبدأ مونرو، مُسْتندًا إلى أن "الولايات المتحدة، عمليًا، صاحبة سيادة على هذه القارة[25]". رفضت لندن مطالب واشنطن، حيث أصرَّ جوزيف تشامبرلين Joseph Chamberlain وزير الاستعمار البريطاني، على أن "بريطانيا العظمى هي قوة أمريكية(**) ذات مساحة إقليمية أكبر من مساحة الولايات المتحدة نفسها"[26]. ولكن، عندما ردَّ

(*) كان حريق البيت الأبيض، الذي وقع في 24 كانون الأول/ديسمبر 1814، لحظة فارقة في تاريخ الولايات المتحدة، حيث أُسقط مقر السلطة الأمريكية ورمزها، وسُوِّي بالأرض تمامًا. غير أن هذا الحريق كان بمثابة لحظة الذروة الدرامية للحرب التي بدأت قبل أكثر من عامين، بين الولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية. وبعد أسبوعين من الحريق، أحدثت القوات الأمريكية خرقًا هائلًا في الحرب ضد البريطانيين، وألحقت بهم هزيمة ساحقة في معركة جرت في بالتيمور Baltimore. فبعد أربعة أشهر من تلك المعركة، وقَّع الطرفان على معاهدة غِنْت Ghent في هولندا، وفور التصديق على المعاهدة في شباط/فبراير 1815، بدأت عملية إعادة البناء التي أشرف عليها المعماري جيمس هوبان James Hoban، الذي صمم وأشرف على بناء البيت المُدمَّر. وفي خريف 1817، في عهد الرئيس جيمس مونرو James Monroe، اكتملت عملية إعادة البناء. (المُعرِّب)

(**) النسبة هنا، في كلمة أمريكية، هي إلى القارة الأمريكية بالطبع، وليس إلى الولايات المتحدة الأمريكية. (المُعرِّب)

الرئيس غروفر كليفلاند بتهديدٍ مُبطَّنٍ بالحرب، وافق البريطانيون على قبول مبدأ التحكيم[27].

قبل أن يمضي وقت طويل على رسالة كليفلاند، نبَّه رئيس الوزراء البريطاني اللورد ساليسبري Lord Salisbury وزيرَ مالية بلاده بأن الحرب مع الولايات المتحدة "في المستقبل غير البعيد أصبحت أكثر من مجرد إمكانية". كما أصدر تعليماته إلى قيادة القوات البحرية بمراجعة ميزانياتها وفقًا لتلك التوقعات، محذرًا من أن الولايات المتحدة خصمٌ محتمل أكثر من التحالف الفرنسي الروسي[28]. صحيح أن البحرية الأمريكية كانت لا تزال صغيرة مقارنة بالبحرية الملكية، لكنها كانت تزداد نموًا، خاصة بعد الحرب الإسبانية-الأمريكية، وصعود ثيودور روزفلت إلى سُدَّة الرئاسة. وقد وصف وزير البحرية الملكية إيرل سيلبورن Earl of Selborne، هذا الوضع بشكل صارخ: "إذا اختار الأمريكيون أن يدفعوا مقابل ما يستطيعون تحمُّل نفقاته بسهولة، سوف يتمكنون تدريجيًا من بناء بَحرية كاملة، في حجم بحريتنا، ثم أكبر منها"[29].

وفي مواجهة منافسين متعددين، ومع التورط في حرب مزعجة في جنوب أفريقيا، لم تعد بريطانيا قادرة على مواجهة كل هذه التهديدات مواجهة مباشرة. وبينما كانت الولايات المتحدة أقوى منافسيها الصاعدين، كانت ألمانيا وروسيا تُشكِّلان خطرًا أقرب. علاوةً على ذلك، وخلافًا لأوروبا، حيث يمكن لبريطانيا أن تستفيد من وضعها كمُوازن بين القوى المتنافسة، لم يكن نصف الكرة الغربي يضم منافسين للولايات المتحدة تستطيع بريطانيا تجنيدهم كحلفاء لها. كما أن المستوطنة البريطانية في كندا لم تكن لديها أية قدرة للدفاع عن نفسها[30].

وجَّهت هذه الحقائق القاسية أفكارَ القادة البريطانيين بشأن الترتيبات اللازمة لتجنُّب الدخول في صراع عسكري مع الولايات المتحدة، بأي ثمن تقريبًا. كانت قيادة القوات البحرية الملكية تُشكِّل، في ذلك الوقت، قمرة القيادة لسياسة الأمن القومي البريطاني. وفي عام 1904، أخبر الضابط

البحري الأعلى رتبة، اللواء جاكي فيشر Jacky Fisher، رؤساءه المدنيين، بكل وضوح وصراحة، أن بريطانيا "يجب أن تستخدم كل الوسائل الممكنة لتجنُّب مثل هذه الحرب"، وأضاف محذرًا: "لأننا لن نستطيع، تحت أي ظرف يمكن تصوُّره، أن نُفلت من هزيمة ساحقة ومهينة، على يد الولايات المتحدة". وواصل فيشر حديثه كاشفًا العواقب المهينة لتلك الهزيمة، التي تتمثل في: "ترك كندا لتواجه مصيرها بمفردها، بغضِّ النظر عن سبب الشجار أو مزايا القضية"[31]. ولخص سيلبورن الموقف قائلاً: "لن أدخل في نزاع أبدًا مع الولايات المتحدة، إذا كان بمقدوري أن أتجنَّبه"[32]. وفي انعكاس لتلك الرؤية، استثنت بريطانيا الولايات المتحدة من تطبيق معيار القوة المزدوجة، الذي يُلْزِم المملكة المتحدة بالمحافظة على عدد من السفن الحربية، يساوي عدد السفن التي تمتلكها أكبر دولتين منافستين لها، مجتمعتيْن[33].

علاوة على ذلك، أدركت قيادة البحرية البريطانية أنها لا تستطيع أن تنافس الهيمنة الأمريكية في نصف الكرة الغربي، دون أن تقلل حجم القوات البحرية التي تحمي مناطق أخرى أكثر أهمية (بما في ذلك أرض الوطن نفسه)، ولذلك تجاهلت تلك القيادة طلبات الجيش المتكررة لوضع خطط عملياتية للدفاع عن كندا في حالة الحرب مع أمريكا. وبدلاً من ذلك، أوصت البحرية الملكية، ببساطة، بالحفاظ على العلاقات الأنجلو-أمريكية الطيبة[34]. لقد أدى اعتراف بريطانيا بهذا الواقع المزعج إلى تقديم تنازلات متتالية في النزاعات التي شهدها النصف الغربي من الكرة الأرضية. ونتيجة لذلك، وفقًا لما خلُصت إليه المؤرخة آن أوردي Anne Orde، "بحلول أواخر عام 1903... رضخت بريطانيا للتفوق الأمريكي في نصف الكرة الأرضية الغربي من فنزويلا إلى ألاسكا"[35]. وقد عكست الرغبة البريطانية في التسليم بالمطالب الأمريكية، ولو جزئيًا، الاعتقاد بأن الدولتين لا تشتركان فقط في التراث العرقي واللغوي، ولكن أيضًا في الثقافة السياسية العامة وفي نموذج الحكم. غير أن المحرك الرئيسي كان الواقعية الباردة cold realism[36].

وفي مواجهة تهديدات أكثر شؤمًا، وأقرب إلى الوطن، كانت خيارات بريطانيا مقيَّدة. هل كان بإمكان بريطانيا أن تتصرف بشكل أكثر قوة وحسمًا، لو لم تظهر روسيا، ومن بعدها ألمانيا، كمصدرَي تهديد قوي في هذه الفترة؟ هذا أمر غير واضح. لكن الأمر الواضح هو أن ميزان القوى النسبي في هذه المرحلة، قد تغيَّر، إلى درجة أن المسؤولين البريطانيين لم ينظروا إلى الحرب كوسيلة فعالة للحد من صعود أمريكا. وقد عبَّر رئيس الوزراء اللورد ساليسبري بأسى عن ذلك في عام 1902: "إنه لأمر محزن للغاية. ولكنني أعتقد أن الولايات المتحدة مصممة على المضي قدمًا، ولم يعد هناك شيء يمكن أن يُعيد الندِّية بيننا. لو كنا تدخّلنا في الحروب الكونفدرالية، لكان بإمكاننا تقليل قوة الولايات المتحدة إلى مستوى يمكن التحكم فيه. لكن الأمة الواحدة لا تُمنَح فرصتين من هذا القبيل، خلال مسيرتها"[37].

وفي مقارنة بين ردَّي فعل بريطانيا تجاه قوتين صاعدتين، الألمان إلى الشرق والأمريكيين إلى الغرب، حدد أرنست ماي Ernest May، أعظمُ مؤرخي تاريخ العالم في القرن العشرين، "جنوح بريطانيا إلى اللين والتسامح تجاه الولايات المتحدة" باعتباره "مفتاح ما حدث"، إلى جانب "قرار ألمانيا بأن تضع استعراض مظاهر استقلالها، وقوتها العسكرية والبحرية، قبل أي شيء آخر". فبينما كان الرئيس روزفلت ميّالاً إلى القتال عند أيّ نزاع صغير، كان، على حد قول ماي، "حريصًا على تجنُّب الخطأ الذي ارتكبه القيصر عندما شكَّل تهديدًا فعليًا لأمن بريطانيا". لقد استطاعت بريطانيا إقناع نفسها بأن البحرية الأمريكية يمكن أن تخدم المصالح البريطانية في نصف الكرة الغربي أو شرقي آسيا. ومما شجع على التوصل إلى هذه القناعة أن المحيط الأطلسي الشاسع الذي يفصل بين البلدين، يقلل من التهديد الأمني الأمريكي المباشر لبريطانيا. أما ألمانيا فكانت أقرب بكثير، وكان من الواضح أن قوتها البحرية تهدف إلى ردع بريطانيا أو محاربتها. وفي مواجهة أفق استراتيجي مليء بالتحديات، اختارت بريطانيا،

كما أشار ماي، "أن تتصرف من منطلق مُكْرهٌ أخاك لا بطل، وأن تتنحَّى عن موقعها للأمريكيين في كل نزاع، مع الاستفادة من ذلك الموقف، قدر الإمكان". وبحلول عام 1906، عندما تولَّت السلطة في بريطانيا حكومةٌ ليبرالية جديدة، أعلن وزير الخارجية إدوارد غراي Edward Grey أن الحفاظ على علاقات جيدة مع الولايات المتحدة أصبح "السياسة الأساسية لبريطانيا"[38].

إن مهارة القادة البريطانيين في إيجاد الوسائل المناسبة لإرضاء المطالب الأمريكية، بما في ذلك غير المعقولة منها، دون التضحية بالمصالح الوطنية البريطانية الحيوية، نموذج يُحتذى به للدبلوماسية الجيدة التنفيذ. فمن خلال وضع الأساس لما أسماه المؤرخون التقارب الكبير Great Rapprochement، ساعدت بريطانيا على التئام جرح العداء القائم منذ فترة طويلة بين الدولتين، إلى درجة أنه عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في عام 1914، استطاعت بريطانيا أن تعتمد على الولايات المتحدة كمصدر أساسي للمال والعتاد اللازمين لمجهودها الحربي. وبعد أن بدأت الغواصات الألمانية في مهاجمة السفن الأمريكية، دخلت واشنطن الحرب إلى جانب لندن. فلو لم تتمكن بريطانيا من الحصول على القروض والإمدادات الأمريكية، ثم في وقت لاحق، الشراكة العسكرية الأمريكية، ربما كان النصر، في الحرب العالمية الأولى، من نصيب ألمانيا. وفي مفاوضات السلام التي جرت في قصر فرساي Versailles، اتخذت الولايات المتحدة وبريطانيا موقفًا متضامنًا. وعندما عقدت الولايات المتحدة، بعد الحرب، معاهدة واشنطن البحرية Washington Naval Treaty، التي تضع قيودًا وطنية على عدد السفن الحربية الكبيرة التي يُسمح لكل دولة بامتلاكها، كوفئت بريطانيا بمساواتها بالولايات المتحدة، رغم أن ديونها بعد الحرب كانت تعني أنها لا تستطيع أن تنافس قدرات البحرية الأمريكية المتزايدة[39]. وعندما اجتاحت الحربُ العالميةُ الثانية العالمَ، بعد أقل من جيل واحد، خاضت الدولتان الحرب كحليفتين حميمتين، وبعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها، عملتا معًا

لبناء السلام، مما عزز ما تطلق عليه كلٌّ من واشنطن ولندن حتى الآن "العلاقة الخاصة"(*).

الفكرة الثالثة: قادة الدول الماكرون يستفيدون مما هو متاح، ويفرِّقون بين ما يحتاجون إليه، وما يرغبون فيه.

الحقائق القاسية يصعب تجاهُلُها.. فمع تفوُّق الولايات المتحدة على بريطانيا على كافة المستويات المهمة، أصبح واضحًا تصميمُ القادة الأمريكيين على إعلاء كلمتهم. لقد كان بوسع بريطانيا أن تجازف باختيار الحرب، عندما حدثت الخلافات في فنزويلا، أو عندما نشب الصراع بين الولايات المتحدة وكندا حول ذيل ألاسكا السمين، لكنها أدركت أن تكلفة الحرب سوف تكون باهظة، وأن فرصة تحقيق الانتصار فيها ضئيلة. كما كانت بريطانيا تواجه تهديدات استراتيجية أخرى أشدّ خطورة وأكثر قُرْبًا إلى أرضها. لهذا، رضيت بنصيبها، وحاولت بحكمة الاستفادة منه بأفضل ما يمكن، وتمكنت من استيعاب المطالب الأمريكية دون التضحية بمصالحها الحيوية الخاصة. وقد فعلت ذلك بطرق رسّخت في ذهن الطبقة الحاكمة في الولايات المتحدة المصالح التي تتقاسمها الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وقللت من شأن المصالح التي تفرِّق بينهما، الأمر الذي مهّد الطريق إلى مزيد من التعاون (ومزيد من الفوائد للندن) في المستقبل. كان من السهل على بريطانيا، وإمبراطوريتُها العالمية ترتبط بقوة بإحساسها بذاتها، أن تخطئ التصرف، انطلاقًا من أنها تصنِّف مصالحها الأمنية في الأمريكتين على أنها حيوية وضرورية، فتختار

(*) وفي بدايات القرن الحادي والعشرين، تحولت العلاقات بين أمريكا وبريطانيا، على يد الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) وتابعِه رئيس الوزراء البريطاني توني بلير من علاقة سياسية خاصة special political relation، تقوم على التكامل، إلى علاقة أكثر من خاصة، تقوم على الانصياع الكامل. (المُعرِّب)

الحرب دفاعًا عن تلك المصالح. غير أنها لم تفعل ذلك. إن قرار بريطانيا بإخراج أسطولها من النصف الغربي للكرة الأرضية، أثبت أنه لم يسفر عن تضاؤل مكانتها العالمية، أو تعريض وضعها الأمني للخطر، حيث أعاد التوازن لقواتها، في الوقت المناسب تمامًا، قبل الحرب العالمية الأولى، كما أنه أطال أمد نفوذها في الشؤون الدولية.

الفكرة الرابعة: التوقيت أمر حيوي.

تحين الفرصة المناسبة، غالبًا، بشكل غير متوقع، وتضيع، أيضًا، دون تحذير مُسَبَّق. إن ملاحظة رئيس الوزراء اللورد ساليسبري الصريحة تُجسِّد هذا الأمر بشكل مؤثر. فلو أن القادة البريطانيين خَلُصوا عام 1861 إلى أن الهيمنة القارية الأمريكية المتصاعدة سوف تشكل تهديدًا لا يُحتمل للمصالح البريطانية الأساسية، لكان الخيار الذكي هو التدخل في الحرب الأهلية الأمريكية إلى جانب الكونفدراليين، و"تقليل" قوة الولايات المتحدة إلى "درجة تجعل التحكم فيها أو التعامل معها أمرًا سهلاً". ولو فعلت بريطانيا ذلك، لكان من الممكن أن تكون هناك، مع بداية القرن العشرين، دولتان أمريكيتان ضعيفتان، بل ومتناحرتان، على الأرض التي تشغلها اليوم الولايات المتحدة الأمريكية. وفي ظل هذه الظروف، كان من المرجح أن تجد بريطانيا، التي تمتلك تفوُّقًا بحريًا، وموقعًا آمنًا في كندا، نفسَها في مواجهة أمريكتين أقل تطلُّبًا بكثير في ما يتعلق بالنزاعات الإقليمية في فنزويلا، وألاسكا، وأماكن أخرى. ولكن، في تاريخ الأمم، كما هو الحال في حياة الأفراد، الفرص التي لا تُقْتَنص، تنقضي بلا رجعة.

يمثل التدخل الوقائي مُعضلة كلاسيكية بالنسبة للأفراد، تزيد صعوبتُها أضعافًا مضاعفة بالنسبة للدول الديمقراطية. فعندما تكون تكلفة التدخل منخفضة، وفعالية الإجراء مرتفعة، تكون الحاجة إلى العمل ملتبسة وغير مؤكدة، وعندما تتضح أهمية التدخل، بالنسبة

لجميع الأطراف الذين لا يمكن الاستغناء عن دعمهم وتأييدهم، تكون تكلفة التدخل الفعال قد ارتفعت لتصل في بعض الأحيان إلى مستويات تجعل منه أمرًا محظورًا. فبالنسبة للحكومات، لا سيما الديمقراطية منها، حيث يتعين الحصول على موافقة الكثير من الأطراف قبل اتخاذ أي إجراء، تُرجِّح هذه المعضلة كفّةَ الميزان، بشكل ملحوظ، نحو المماطلة أو التسويف، بدلاً من المنع أو الوقاية، سواء عند التعامل مع القوى المنافِسة الصاعدة، أو الكوارث الإنسانية المتكررة.

الفكرة الخامسة: الـمُكَوِّنات الثقافية الـمُشتركة يمكن أن تساعد على منع نشوب صراع.

ولأن بريطانيا والولايات المتحدة تتقاسمان ثقافة اللغة والسياسة، يواسي البريطانيون ذوو النفوذ أنفسَهم بفكرة أن قِيَم بريطانيا، الإمبراطورية التي لم تعد الرقم واحد على معظم الصعد، سوف تبقى مسيطرة. كما يمكنهم أن يتجاهلوا أولئك الذين يروِّجون لفكرة أن بريطانيا كانت في مواجهة الاختيار بين الدخول في صراع مع الولايات المتحدة، أو التسليم بالقضاء على أسلوب البريطانيين ورسالتهم في الحياة. فعلى العكس من ذلك تمامًا: اعتنق كثيرٌ من الإنجليز فكرة أن "الشعوب الناطقة بالإنجليزية" ستواصل حكم العالم .وهذا ما عناه هارولد ماكميلان Harold Macmillan، الذي كان رئيسًا لوزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، حين قال: "هؤلاء الأمريكيون يمثلون الإمبراطورية الرومانية الجديدة، ونحن البريطانيون، مثل الإغريق القدماء، يجب أن نعلِّمهم كيف ينجحون"[40].

الاتحاد السوفييتي في مواجهة الولايات المتحدة

من أربعينيات إلى ثمانينيات القرن الماضي

من الصعب على معظم الأمريكيين اليوم أن يتصوروا أن الاتحاد السوفييتي كان يمثل تحديًا خطيرًا لزعامة أمريكا للعالم، خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. فالأمريكيون، منذ انهيار الاتحاد السوفييتي في عام 1991، ينظرون إلى روسيا على أنها قوة منحدرة: ضعيفة، ومرتبكة، ومؤخرًا، في عهد فلاديمير بوتين، دولة يُعميها الغضب. لقد أُطيح بالشيوعية، كأيديولوجية يمكن أن يتبناها الناس طواعية، إلى مزبلة التاريخ. وقد أظهرت الاقتصادات والسياسات الموجَّهة، مرارًا وتكرارًا، أنها فاشلة. وهكذا، فإن الطلاب في جامعة هارفارد يشعرون بالارتباك عندما يقرأون، بطلبٍ مني، فصلاً من الكتاب الاقتصادي الذي كان الأكثر شيوعًا في منتصف القرن العشرين، اقتصاديات: تحليل تمهيدي Economics: An Introductory Analysis، للكاتب بول صامويلسون Paul Samuelson، والصادر عام 1964، وذلك لأنه توقع فيه أن يتفوَّق الناتج القومي الإجمالي السوفييتي على مثيله الأمريكي، بحلول منتصف الثمانينيات من القرن العشرين[41].

لقد لطخت القرنَ العشرين سلسلةٌ من الحروب العالمية: الأولى، والثانية، وشبح الثالثة، التي كان من الممكن أن تكون آخر الحروب. ففي تلك المنافسة النهائية، كان الخصمان يؤمنان بأن الرهانات عالية جدًا، إلى درجة أن كلاً منهما كان على استعداد للمخاطرة بمصرع مئات الملايين من مواطنيه، ثمنًا لإلحاق الهزيمة بالآخر. ففي عام 1989، بعد صراع دام أربعة عقود، تصدَّع جدار برلين وتهاوى؛ وفي عام 1990، انهار حلف وارسو[*] Warsaw Pact؛ وفي يوم عيد الميلاد عام 1991، انفجرت إمبراطورية الشر

(*) معاهدة للدفاع المشترك والتعاون العسكري، وُقِّعت في العاصمة البولندية وارسو في 14 أيار/مايو 1955، كنوع من الرد السياسي والعسكري من قِبَل ما كان يُعرف بدول المعسكر الشرقي الشيوعية بزعامة الاتحاد السوفييتي، على قرار الدول الغربية بالموافقة على قبول ألمانيا الغربية عضوًا في حلف شمال الأطلسي. (المُعرِّب)

من الداخل. وهكذا، انتهت الحرب الباردة بالأنِين، بدلاً من تنتهي بالانفجار الكوني النهائي، الذي كان قادة الجانبين يخشونه بحق. وتمثل تلك الخاتمة انتصارًا نادرًا للولايات المتحدة على مدار السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية. ولكن كيف انتهت الحرب الباردة نهاية طيبة، في حين انتهى كثير من الحروب الساخنة التي خاضتها أمريكا منذ عام 1945، نهاية سيئة للغاية؟ وما هي الرؤى والأفكار التي يمكن لقادة الدول، اليوم، استخلاصها من هذه المحنة؟

ما من أحدٍ له فضل في ابتكار مصطلح "الحرب الباردة" سوى جورج أورويل، صاحب الرواية الشهيرة "1984". لقد خرجت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي من الحرب الأكثر دموية في التاريخ، في حالة من الإعياء والإرهاق الواضحين. وكان هذا الصراع قد أجبرهما على القتال كحلفاء، لأن النصر على النازيين كان يتطلب التعاون. (وكما قال تشرشل، إذا قام هتلر بغزو جهنم، فإن أقل ما سوف يفعله هو "الإشادة بالشيطان في مجلس العموم"[42]. ولأنه أصبح واضحًا أن الجيوش السوفييتية ستبقى في بلدان أوروبا الشرقية التي حررتها من النازيين، اجتهد صانعو السياسة الأميركيون لتصميم استراتيجية لعالم ما بعد الحرب، الذي أصبح فيه مَن كان حليف الولايات المتحدة في يوم من الأيام، عدوَّها الأعظم.

كانت نقطة البداية لهذه الاستراتيجية قناعة مانوية(*) Manichaean conviction حول الاتحاد السوفييتي. فقد رأى هؤلاء القادة أن الاتحاد السوفييتي، كخصم، "غيرُ متوافقٍ مع الديمقراطية، تمامًا مثل النازية

(*) المانوية واحدة من الديانات القديمة، يُعتقد أنها ظهرت لأول مرة في بلاد فارس، في القرن الثالث الميلادي، ومن هناك انتشرت في كثير من أنحاء العالم، لتصل إلى ذروة انتشارها في القرن السابع الميلادي. يؤمن المانويون بأن الكون ذو طبيعة ثنائية، وأنه يتكوَّن من عنصرين لا ثالث لهما، الخير والشر، أو النور والظلام، أو الروح والمادة. ويُطلق تعبير أصحاب القناعة المانوية على المفكرين والقادة الذين يرون أن الدول صنفان لا ثالث لهما، دول خيرٍ مطلق تمثلها الولايات المتحدة وحلفاؤها، ودول شرٍ مطلق يمثلها الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه، بل وحتى كل من لا يناصبه عداءً صريحًا. (المُعرِّب)

والفاشية"، على حد تعبير جيمس فورستال James Forrestal، أول وزير دفاعٍ أمريكي[(43)]. وفي برقية تاريخية مطوَّلة من موسكو، بعد تسعة أشهر فقط من يوم الانتصار في أوروبا[(*)] V-E Day، حذّر جورج كينَّان (الذي كان آنذاك قائمًا بالأعمال في السفارة الأمريكية هناك) من أن الشيوعية السوفييتية التوسعية، "قوة سياسية ملتزمة، بتعصب، بعقيدة مفادها أن لا تعايشَ سلميًا دائمًا مع الولايات المتحدة". فالشيوعيون السوفييت، كما يقول كينَّان، يؤمنون في قرارة أنفسهم بأن بقاء القوة السوفييتية يحتِّم أن تتمزق مجتمعاتُنا، وأن تُدَمَّر طريقةُ حياتِنا التقليدية، وأن تُحطَّم السلطةُ الدولية التي تحظى بها بلادنا"[(44)]. وفي مواجهة خصمٍ كهذا، لا يمكن لأمريكا البقاء إلا من خلال تدمير الاتحاد السوفييتي، أو تحويله[(**)].

وقد أقنع اندفاعُ الاعتداءات السوفييتية في فترة ما بعد الحرب مباشرة، صانعي السياسة الأمريكيين بصحة هذا التحليل. فقد وفَّرت أحداثٌ مثل الانقلاب الذي رعاه السوفييت في تشيكوسلوفاكيا عام 1948، وانتصار الشيوعيين الصينيين عام 1949، وغزو كوريا الشمالية لكوريا الجنوبية بدعمٍ من السوفييت عام 1950، صورةً لمسيرة شيوعية تمضي قُدمًا. وفي عام 1949، أجرى السوفييت اختبارًا لقنبلتهم الذرية الأولى، مسجِّلين انتهاء احتكار الولايات المتحدة المنفردة لذلك "السلاح المطلق"[(45)]. وعلى الرغم من تدمير الاقتصاد السوفييتي خلال الحرب العالمية الثانية، تعافى المجتمع الروسي بشكل أسرع مما فعل في أعقاب الحرب العالمية الأولى[(46)]. فخلال السنوات العشر الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ازداد حجم

(*) عطلة رسمية جرى الاحتفال بها لأول مرة في 8 أيار/مايو 1945، وهو اليوم الذي أعلن فيه الحلفاء الموافقة على قرار ألمانيا باستسلام قواتها المسلحة استسلامًا كاملًا ودون شروط. ولأن بعض الوحدات العسكرية الألمانية، التي كانت تحتل بعض المناطق خارج أوروبا، لم تعلن الاستسلام إلَّا في اليوم التالي، يعتبر المؤرخون يوم 9 من الشهر نفسه، التاريخ الرسمي لانتهاء الحرب العالمية الثانية. (المُعرِّب)

(**) وقد تحقق الشرطان بالفعل، فقد تم تدمير الاتحاد السوفييتي كإمبراطورية سياسية، وبعدها جرى تحويل معظم الدول التي كانت تعيش تحت مظلته، طوعًا أو كرهًا، إلى دويلات تلهث وراء الانضواء بعضوية حلف شمال الأطلسي. (المُعرِّب)

الاقتصاد السوفييتي بأكثر من الضعف، ثم ازداد، مرة أخرى، بمقدار النصف، خلال العقد الثاني[47]. وقد تمَّ تخصيص جزء كبير من هذه الثروة الجديدة للإنفاق العسكري. وكما يقول روبرت غيتس Robert Gates، الذي كان مسؤولاً استخباراتيًا أمريكيًا رفيع المستوى أثناء الحرب الباردة وفي ما بعد وزيرًا للدفاع[*]: "لقد اضطلع الاتحاد السوفييتي، طوال خمسة وعشرين عامًا، بأكبر عملية بناء قوة عسكرية في التاريخ، بما لذلك من عواقب وخيمة على التوازن الدولي للقوى"[48]. نتيجة لذلك، عندما أطلق الزعيم السوفييتي خروتشوف، عام 1956، قولته الشهيرة: "إن التاريخ في صفِّنا، وسوف ندفنكم"، لم يعتبر أحدٌ أن ما قاله مجرَّدُ نكْتة أو دعابة.

قبل العصر النووي، كان تنفيذ مثل هذا التهديد يتطلب حربًا شاملة، حامية الوطيس، مثل الحرب التي خاضتها الولايات المتحدة وبريطانيا وحلفاؤهما ضد ألمانيا الهتلريَّة. وفي تلك الحرب، لا يمكن أن يكون الهدف أقل من استسلام العدو استسلامًا كاملاً وغير مشروط. ويمكن القول إن الولايات المتحدة كان لديها فرصة لمهاجمة الاتحاد السوفييتي وإلحاق الهزيمة به، بعد الحرب العالمية الثانية، وقد بحثت ذلك الخيار بشكل جدي، إلا أنها أحجمت عن القيام بذلك[49]. ولكن، بعد أن اختبر السوفييت أول قنبلة ذرية، بدأ الخبراء الاستراتيجيون الأمريكيون يقلِّبون فكرةً مؤداها أن في الصراع مع الاتحاد السوفييتي، ربما تكون الحرب كما يعرفونها، قد فقدت صلاحيتها، وأصبحت جزءًا من الماضي[50].

وفي أعظم قفزة للخيال الاستراتيجي في تاريخ الدبلوماسية الأمريكية، وعلى مدار أربع سنوات تبدأ ببرقية كينَّان المطوَّلة، وخطاب وزير الخارجية

(*) وهو الرجل الذي وصل إلى منصب مدير وكالة المخابرات المركزية في عهد جورج بوش (الأب)، وشغل منصب وزير الدفاع خلال الفترة من 2006 إلى 2011، وذلك خلال الفترة الرئاسية الثانية لجورج بوش (الابن). كما واصل عمله وزيرًا للدفاع لفترة قصيرة، خلال الولاية الأولى لباراك أوباما، قبل أن يعلن تقاعده. وقد عُرِف عن غيتس تحذيره الدائم من خطورة ما أسماه "الإفراط في الاعتماد على التدخل العسكري، كوسيلة من وسائل تنفيذ السياسة الخارجية الأمريكية". (المُعرِّب)

جورج مارشال George Marshall، في حفل تخرُّج بجامعة هارفارد (الذي أشار فيه إلى خطة مارشال)، وتنتهي بمذكرة بول نيتز Paul Nitze، المرفوعة إلى مجلس الأمن القومي، والتي تحمل الرقم NSC-68، (وهي مذكرة سرية للغاية، توجز الأسس العسكرية لهذا الصراع)، نجح القادة الأمريكيون، الذين نصِفُهم حاليًا بـ"الحكماء"، في تطوير استراتيجية شاملة لشكلٍ من أشكال القتال لم يسبق له مثيل[51]. لقد علَّمنا كلاوسفيتز أن نفهم الحرب على أنها امتداد للسياسة الدولية بوسائل أخرى[52]. فبعد أن تبذل السياسة الخارجية، والدبلوماسية، والتفاوض، كل ما في وسعها لتأمين مصلحة الأمة، يمكن للجيوش والبحرية والقوات الجوية، أن تواصل هذا الجهد باستخدام وسائل تأثيرٍ أخرى. ولكن، ماذا لو كان الصراع العسكري المباشر نوعًا من المخاطرة بانتحار قومي؟ في ظل هذه الظروف، كان لا بد من استكشاف بدائل أخرى، وهكذا، اخترع أولئك الحكماء "الحرب الباردة"، وهي حرب تُستخدم فيها كافة الوسائل ما عدا القنابل والرصاص التي يستخدمها المقاتلون الرئيسيون، بشكل مباشر، بعضهم ضد بعض. لقد شنَّت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، الواحدة ضد الأخرى، هجمات منتظمة ومتواصلة من كل الأصناف، باستثناء صنف واحد: الهجمات العسكرية المباشرة. فقد شملت تلك الهجمات الحرب الاقتصادية، وحرب المعلومات، والأعمال السرية، بل وحتى الحروب بالوكالة كتلك التي وقعت في كوريا (حيث قام الطيارون السوفييت بتنفيذ مهام سرية ضد القوات الأمريكية)، وفي فيتنام (حيث أسقط الجنود السوفييت، الذين كانوا يعملون على وسائل الدفاع الجوي الفيتنامية، عشرات الطائرات الأمريكية)، وفي أنغولا وأفغانستان (حيث دعمت المخابرات المركزية الأمريكية، بشكلٍ سري، المجاهدين الذين يقاتلون القوات السوفييتية).

لدى مباشرة هذا الشكل الجديد من أشكال الحرب، أدرك كلا الجانبين أن الصراع "البارد" يمكن أن يتحول بسهولة إلى صراع "ساخن". وقبِلَ كل منهما، لتأمين نفسه من هذا الخطر ولو بشكل مؤقت، عددًا من مظاهر

الأمر الواقع غير المقبولة. وقد شملت تلك المظاهر الهيمنة السوفييتية على الدول المُكرَهة على أمرها في أوروبا الشرقية، والأنظمة الشيوعية في الصين وكوبا وكوريا الشمالية. وبالإضافة إلى ذلك، أحاط الغريمان منافَستَهما، بشبكة معقدة من القيود المتبادلة، التي وصفها الرئيس جون كينيدي بـ"القواعد المؤقتة للوضع الراهن"[53]. وللتقليل من خطر وقوع هجمات نووية مفاجئة، تَفاوض الغريمان، على سبيل المثال، للتوصل إلى معاهداتٍ للحد من التسلح، توفر شفافية أكبر، وتزيد، بدرجة كبيرة، ثقة كل طرفٍ في أن الطرف الآخر لا يتأهب لشن ضربة نووية أولى. ولتجنُّب الاصطدام العرضي بين طائرات الطرفين أو سفنهما، توصَّلا إلى قواعد دقيقة تحكم الطرق الجوية والبحرية. وبمرور الوقت، وافق كل من المتنافسيْن، ضمنيًا، على لاءات الطرف الآخر الثلاثة: لا، لاستخدام الأسلحة النووية، ولا، للقتال المباشر بين القوات المسلحة للطرفين، ولا، للتدخل العسكري في مناطق نفوذ الطرف الآخر المعترف بها[54].

بالنسبة للطلاب الأمريكيين في القرن الحادي والعشرين، ربما تكون المفاجأة الكبرى في ما يتعلق بالحرب الباردة، هي حقيقة أن الولايات المتحدة كان لديها، بالفعل، وعلى مدار أربعة عقود، استراتيجية عظمى وشاملة، تحظى بتأييد الحزبين (الجمهوري والديمقراطي). إن معظم الناس يتذكرون سياسة الاحتواء containment. في واقع الأمر، اعتمدت الولايات المتحدة خلال سنوات الحرب الباردة، استراتيجية معقدة، تستند إلى ثلاث ركائز رئيسية: تُعرِّف الركيزة الأولى الاتحاد السوفييتي بأنه يمثِّل تهديدًا وجوديًا لمصالح أمريكا الأساسية، وبعبارة أكثر دقة، يمثِّل تهديدًا لوجود الأمة. فتحتَ رايةِ المبادئ الماركسية–اللينينيّة Marxist-Leninist ideology، هددت القواتُ السوفييتية بابتلاع الدول الرئيسية في أوروبا وآسيا، مثلما انتشرت قوى الإسلام كالنار في الهشيم في القرن السابع الميلادي(*). لم

(*) أرجو ملاحظة أن الكاتب قد استخدم هنا تعبير قوى الإسلام Forces of Islam، ولم يستخدم تعبير قوات الإسلام أو قوات المسلمين. وهو في رأيي اختيار مقصود، حيث إن الحديث يدور عن

يكن الاتحاد السوفييتي يوطِّد دعائم إمبراطورية خارجية تضم، فقط، دولاً مُحتلَّة في أوروبا الشرقية، بل كان يهدد، كذلك، الدول المتحالفة مع الولايات المتحدة، بما فيها اليونان وفرنسا وإيطاليا، بمزيج من الدسائس الداخلية، والترهيبات الخارجية. وكما أوضحت المذكرة NSC-68 المرفوعة إلى مجلس الأمن القومي الأمريكي: "إن الاتحاد السوفييتي، بخلاف القوى السابقة الطامحة إلى الهيمنة، يتحرك مدفوعًا بدِين جديد متعصب، مناقض لمعتقداتنا، ويسعى إلى فرض سلطته المطلقة على بقية العالم". وفي غياب ردٍّ قوي، يمكن أن تقع المجتمعات المحبَطة بحرب مدمرة، والـمُستَنزَفة اقتصاديًا، بسرعة، ضحية للتوسع الشيوعي، كما يعتقد الاستراتيجيون الأمريكيون(*).

تُقدِّم الركيزة الثانية من ركائز الاستراتيجية الأمريكية للحرب الباردة، إجابة عن السؤال الجوهري حول هدف السياسة الخارجية الأمريكية. وكما أوضحت وثيقة مجلس الأمن القومي NSC-68، دون مواربة، وفي سطرٍ واحد: كان الهدف الأساسي هو "الحفاظ على الولايات المتحدة كدولة حرة، وحماية مؤسساتنا وقيمنا الأساسية من أي عبث". هذه المانترا تستحق وقفة تأمل. ففي عالم يرى في زعامة أمريكا مبررًا لمطالبتها بأن تلعب دور

الانتشار الأيديولوجي للعقيدة، الذي يتم عبر وسائل كثيرة جدًا، لعل آخرها، سواء في حالة العقيدة الإسلامية أو في حالة الفكر الماركسي، الاحتلال العسكري. (المُعرِّب)

(*) استنتاج لا يحتاج إلى فكرٍ استراتيجي. فالشعوب التي يصفها هؤلاء بأنها محبطة بسبب حرب، هي ضحية حرب تحرير ضد قوى استعمارية غربية، أو ضحية حرب أهلية زرع بذورَها قبل الرحيل مستعمرٌ غربي. والشعوب التي يصفونها بأنها مستنزفة اقتصاديًا، هي ضحية لمستعمرٍ مُسْتَنْزِفٍ غربي. فإلى مَن يمكن أن يتجه هؤلاء غير الاتحاد السوفييتي، بكامل إرادتهم، وليس كفرائس سقطوا في براثنه. وأنا هنا لا أتحدث عن أوروبا الشرقية، التي كانت تجربتها مختلفة عن دول العالم الثالث، التي تحالفت مع الاتحاد السوفييتي، أو مالت باتجاهه. أضف إلى هؤلاء وأولئك فئة ثالثة من الدول. دول كانت ترغب في بناء نفسها اقتصاديًا، فرفض الغرب مساعدتها، إلا إذا قبض مقدمًا، ثمنًا سياسيًا يحدده هو. وفي تجربة مصر مع السد العالي خير مثالٍ على ذلك. فمصر لم تضع يديها الاثنتين في يد الاتحاد السوفييتي، إلا بعد أن رفض البنك الدولي، بتحريض من الولايات المتحدة، تمويل مشروع بناء السد العالي. (المُعرِّب)

شرطي العالم، المسؤول عن الدفاع عن غير القادرين على أو غير الراغبين في الدفاع عن أنفسهم، فإن التزام محاربي الحرب الباردة الواضح بمبدأ "أمريكا أولاً"، سوف يصدم الكثيرين من مؤيدي سياسات التعاون الدولي internationalists، الذين يرون أنه مبدأ مُهين، عفا عليه الزمن. لكن هؤلاء القادة لم يُظهروا تراجعًا أو اعتذارًا، فبقاء الولايات المتحدة ونجاحها كأمة حرة، لم يكن فقط ما ينبغي على الأمريكيين أن يهتموا به ويعملوا من أجله أكثر من أي شيء آخر، بل كان الشرط الأساسي لأي هدفٍ أوسع تحققه القوة الأمريكية في أي مكان في العالم.

الركيزة الثالثة هي فكرة كبيرة تعتمد على الركيزة الثانية، حيث تدعو إلى خروج غير مسبوق عن كراهية أمريكا التاريخية للارتباط بالتحالفات. فبينما كان لدى الولايات المتحدة خيار التقوقع والانسحاب إلى حصن أمريكا Fortress America، كما فعلت بعد الحرب العالمية الأولى وفي القرون السابقة، رأى محاربو الحرب الباردة أن هذا الأسلوب لم يعد قابلاً للتطبيق في عالم يزداد ترابطًا. إن بقاء أمريكا ورفاهيتها يتطلبان، على أقل تقدير، بناء نظام دولي جديد. لكن على النقيض من الرومانسية الخيالية التي عُرِف بها قادة ما بعد الحرب العالمية الأولى، من أمثال الرئيس وودرو ويلسون، الذين تصوروا أنهم قد انتهوا من "الحرب التي أنهت جميع الحروب"، أدرك استراتيجيو الحرب الباردة أن ضمان البقاء والنجاة في ظل التهديد السوفييتي، سيكون مشروعًا طويل المدى.

يقوم هذا المشروع، في الأساس، على مراكز الجاذبية الاقتصادية والاستراتيجية: أوروبا واليابان. وفي إطار موجة من الاندفاع والمبادرة، خلق هؤلاء الحالمون البراغماتيون خطة مارشال (لإعادة بناء أوروبا)؛ وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والاتفاق العام للتعريفات الجمركية والتجارة GATT (لتوفير النظام الاقتصادي العالمي الأساسي)؛ ومنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو)، وتحالف الولايات المتحدة واليابان (لضمان دمج أوروبا واليابان بعمق في الحملة ضد الاتحاد السوفييتي)؛ ومنظمة الأمم

المتحدة، باعتبار هذه الكيانات لَبِنات لنظام عالمي يسعون إلى بنائه، طابقًا بعد الآخر، على مدار عدة عقود. كان الهدف من هذا النظام دحر الخصم السوفييتي، وبالتالي تعزيز قضية السلام والازدهار والحرية، للأمريكيين أولاً، ولحلفائهم ثانيًا، ثم للأمم الأخرى بعد ذلك.

وهدفت هذه الاستراتيجية، من خلال مواجهة الاتحاد السوفييتي، إلى تحقيق ثلاثة أهداف متوازية: احتواء contain التوسع السوفييتي، وردع deter السوفييت عن العمل ضد المصالح الأمريكية الحيوية، وتقويض undermine الشيوعية فكرًا وممارسةً. وقد منعت سياسةُ الاحتواء الاتحادَ السوفييتي من الحصول على قدرات إضافية. والأهم من ذلك أنها كانت تهدف إلى هزيمة الأدبيات الماركسية عن حتمية تاريخية للتقدم. إن التوسع السوفييتي لا يمكن إيقافه عن طريق محاربة القوات السوفييتية، بل من خلال الردع، أي التهديد بصدقية، بأن الرد على العدوان السوفييتي سوف يتم بطرق تفرض تكاليف لا تُحتمل.

بدأ تطبيق سياسة تقويض الخصم السوفييتي بإظهار أن ديمقراطيات السوق الحرة التي تقودها الولايات المتحدة، تتفوّق على الاقتصاد الموجَّه والسياسات الشمولية، في تحقيق ما يريده المواطنون. كما تعمَّد منفِّذو تلك السياسة، تضخيم تناقضات الاستراتيجية السوفييتية، من خلال التدخل في الشؤون الداخلية لبعض الدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي مثل بولندا، أو الدول الحليفة مثل الصين، بغرض تشجيع الاتجاهات القومية داخلها، لثقة هؤلاء المنفذين في أن الهويات الوطنية ستثبت أنها أكثر قدرة على الاستمرار، مقارنةً بأحلام خلق "إنسان اشتراكي جديد". وبالإضافة إلى ذلك، عملت الاستراتيجية الأمريكية على نشر قيم الحرية وحقوق الإنسان، من خلال إقناع القادة السوفييت بالتعهد كتابيًا بالالتزام بالمبادئ العامة الواردة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة، واتفاقات هلسنكي، لثقة هذه الاستراتيجية في أن هذه المبادئ تراثٌ بشريٌ صحيح. واستكمالاً لهذه الجهود، واصلت تلك الاستراتيجية

حملة من الإجراءات العلنية والسرية داخل الاتحاد السوفييتي وتابعيه، لتقويض الأيديولوجية والحكومات الشيوعية[55].

الفكرة السادسة: لا جديدَ تحت الشمس، إلّا الأسلحة النووية.

يعتبر بعض المراقبين أن القرن الحادي والعشرين يختلف كثيرًا عن القرون التي سبقته، حتى أن الدروس المستفادة من التجارب السابقة لم تعد ذات صلة. من المؤكد أنّ من الصعب العثور على سوابق تُماثل المستويات الحالية من التكامل الاقتصادي، والعولمة، والاتصالات التي تغطي العالم كله، أو التهديدات العالمية من الاضطراب المناخي إلى التطرف الإسلامي العنيف. ولكن، كما يذكِّرنا زميلاي كارمن راينهارت Carmen Reinhart، وكينيث روغوف Kenneth Rogo، في تحليلهما لـــ350 أزمة مالية وقعت على مدار القرون الثمانية الماضية، تخيَّلت أجيالٌ كثيرة سابقة أن "هذا العصر مختلف"[56]. ويتفق الباحثان مع ثيوسيديديز في استنتاج أنّ ما دام الإنسان إنسانًا، يمكننا توقُّع أنماط متكررة في ما يتعلق بالشؤون الإنسانية. في الأساس، كان كتاب الوهم العظيم The Great Illusion، تأليف نورمان أنجِل Norman Angell، واحدًا من الكتب الأكثر مبيعًا في أوروبا، في العقد السابق للحرب العالمية الأولى. لقد أقنع الكتاب الملايين من القراء، بما في ذلك كثير من ذوي المناصب الرفيعة، مثل فيسكَونت إيشِر Viscount Esher (الذي كان مسؤولاً عن إعادة بناء الجيش البريطاني بعد أدائه الهزيل في حرب البوير التي انتهت عام 1902)، بأن الاعتماد الاقتصادي المتبادل جعل الحرب مجرد وَهْمٍ: عقيمة هي، فالمتعطشون للحرب لا يرثون الأرض[57].

ومع ذلك، تختلف أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين عن كل ما سبقها، في واحد من المجالات الحاسمة: إن الأسلحة النووية ليس لها مثيل سابق. لقد لاحظ أينشتين Einstein،

بعد أن أسقطت الولايات المتحدة قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناغازاكي، أن الأسلحة النووية "غيرت كل شيءٍ، ما عدا طريقة تفكيرنا". ومع ذلك، فإن طريقة تفكير أولئك الذين يتحمَّلون المسؤولية عن الأسلحة النووية تتغير بمرور الوقت. فقادة الدول يعرفون أن ترسانات الأسلحة النووية، اليوم، تضم قنابل نووية تفوق القوة التفجيرية لكل واحدة منها القوة التفجيرية لجميع القنابل التي أسقطت في جميع الحروب عبر التاريخ. وهُم يدركون أن حربًا نوويَّة واسعة النطاق يمكن في الواقع أن تمحو أيَّ شكل من أشكال الحياة على كوكب الأرض. وهكذا، فإن الأسلحة النووية لديها ما يسميه طلاب العلاقات الدولية "تأثير الكرة البلُّورية" crystal ball effect[58]. إن أيَّ زعيم يفكر في شن هجوم نووي على دولة تمتلك ترسانة نووية قادرة على الانتقام، يواجه شبح قتل عشرات أو حتى مئات الملايين من أبناء شعبه. ومن الواضح أن ذلك يقودهم، وبشكل متكرر، إلى أن يعيدوا التفكير في هذا الأمر[59].

الفكرة السابعة: التدمير الـمُتبادَل المؤكَّد يجعل الحرب الشاملة ضربًا من الجنون.

بعد قيام الاتحاد السوفييتي بتفجير قنبلته الأولى عام 1949، طور بسرعة ترسانة نووية هائلة وبالغة التعقيد، إلى حد أنها خلقت ما يطلق عليه الاستراتيجيون النوويون التدمير الـمُتبادَل المؤكَّد mutual assured destruction، المعروف اختصارًا بـMAD. ويوصف هذا الأمر بأنه حالة لا يمكن فيها لأي من الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتي أن يتأكد من تدمير ترسانة خصمه بضربة نووية أولية، قبل أن يتمكن هذا الخصم من إطلاق رد نووي قاتل. وفي ظل هذه الظروف، فإن قرار إحدى الدولتين بقتل الدولة الأخرى، هو، في الوقت نفسه، قرار بالانتحار الذاتي.

واقع الأمر، أن التكنولوجيا جعلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي (والآن روسيا) توأمين سياميين لا يمكن فصلهما(*). ففي حين أن كل واحد منهما لا يزال لديه رأس، ودماغ، وإرادة للتصرف، فإن عموديهما الفقريين قد تم دمجهما ليصبحا واحدًا. وفي صدريهما المندمجين يدق قلبٌ واحدٌ. ويوم يتوقف القلب عن النبض، يموت كلاهما بدون شك. هذه الاستعارة، بقدر ما هي غريبة وغير مريحة، تُجسد حقيقة محددة حول علاقة الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفييتي خلال سنوات الحرب الباردة. كما أنها تبقى الحقيقة الفارقة، التي يتخيل كثير من الأمريكيين في القرن الحادي والعشرين، بطريقة ما، أنها قد تلاشت مع انتهاء الحرب الباردة. إن الولايات المتحدة وروسيا تحتفظان بترسانات نووية عظمى. وهكذا، مهما كانت روسيا شريرة، ومهما كانت شيطانية، ومهما كانت خطيرة، ومهما كانت تستحق القضاء عليها، يجب على الولايات المتحدة أن تناضل من أجل إيجاد طريقة للعيش معها، أو مواجهة الموت معًا. وطبقًا لمقولة ريغان التي تختصر هذا الوضع وكثيرًا ما تُقتبَس: "الحرب النووية حربٌ لا يمكن أن تُكسَب، وبالتالي يجب ألا تُخاض أبدًا"[60].

واليوم، طورت الصين أيضًا ترسانة نووية قوية إلى حد أنها تخلق نسخة خاصة بالقرن الحادي والعشرين من فكرة التدمير الـمُتبادَل المؤكَّد مع الولايات المتحدة. وتعترف الولايات المتحدة بهذه الحقيقة الواقعة، من خلال طريقة توزيع دفاعاتها الصاروخية المضادة للصواريخ الباليستية، حيث تستثني روسيا والصين من مصفوفة التهديد التي يتعيَّن عليها مواجهتها (لأنه في ظل الظروف الحالية، ليس من الممكن إقامة دفاع فعَّال ضدهما)[61]. وهكذا، في حالة ثانية، كما لاحظ تشرشل عن الاتحاد السوفييتي: "فإن سخرية الأقدار العليا" جعلت "الأمان طفلاً قويًا للإرهاب، والاستمرارية توأمًا للإبادة"[62].

(*) تسمية شائعة تطلق على التوأمين الملتصقين، والنسبة هنا إلى سيام Siam، تايلاند حاليًا، حيث سُجلت هناك، في القرن التاسع عشر، أول حالة معروفة من تلك الحالات. (المُعرِّب)

الفكرة الثامنة: الحرب الساخنة بين القوى النووية العظمى، لم تعد خيارًا مُبرَّرًا.

إن القيود التي فرضتها فكرة التدمير الـمُتبادَل المؤكَّد على المنافسة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، تعني الكثير بالنسبة للاستراتيجيين الأمريكيين الذين يفكرون في الصين اليوم. فمن الخمسينيات وحتى الثمانينيات، خلق صعود الاتحاد السوفييتي إلى مكانة القوة العظمى، ما عُرف بأنه عالم ثنائي القطبية bipolar world. لقد آمن كل من البلدين أن بقاءه يتطلب القضاء على الآخر، أو تحويله. ولكن، إذا كان الرئيس ريغان مُحقًا، فيجب أن يتحقق ذلك بدون حرب.

إن القاسم المشترك بين استراتيجية الولايات المتحدة تجاه الصين، والمنافسة الأمريكية السوفييتية، هو أمر يصعب قبوله، بقدر ما يستحيل إنكاره: بمجرد أن تمتلك دولتان ترسانتين نوويتين غير قابلتين للاختراق، تصبح الحرب الساخنة بينهما خيارًا غير مبرر. ومن ثم على كل من البلدين إدماج هذه الحقيقة المجردة في سياسته الخارجية. وللتكرار أقول: نحن توأمان سياميان لا ينفصلان. وهو ما يعني أن على كل من الطرفين التنازل للآخر، بطرق ربما لا تكون مقبولة في ظروف أخرى، وأن يمتنع هو وحلفاؤه عن اتخاذ إجراءات يمكن أن تتصاعد إلى حرب شاملة.

لقد رسَّخت الحرب الباردة هذه الحقيقة في فكر مجتمع الأمن القومي الأمريكي وما يقوم به من عمليات، أثناء مواجهاته للاتحاد السوفييتي. لكن اليوم، يرفض كثير من صانعي السياسة هذا الأمر، إذ يعتبرونه "تاريخًا قديمًا". كما لم يشارك أحدٌ من الجيل الحالي من القيادات الأمريكية في ذلك التاريخ. ربما اختبره قليل منهم، بشكل غير مباشر. ورغم أن الصين تبني ترسانتها النووية ببطء، ورغم

أنها، على خلاف روسيا البوتينية في السنوات الأخيرة، لم تشارك أبدًا في أية مبارزة بالأسلحة النووية، لا يزال بعض الضباط العسكريين الصينيين يرددون مقولة ماو الجريئة، إنه حتى بعد أن تخسر الصين 300 مليون مواطن في تبادل للقصف النووي، فهي سوف تبقى على قيد الحياة[63].

سوف يتطلب الأمر محادثات متكررة وصريحة بين القادة السياسيين الأمريكيين والصينيين، وكذلك مناقشات بين الضباط العسكريين، تنعشها مناورات حربية يهدد خلالها الطرفان باستخدام الأسلحة النووية، أو يستخدمانها بالفعل، لمساعدة قادة الجانبين على استيعاب الحقيقة غير الطبيعية بأن الحرب لم تعد خيارًا مقبولاً. ولكن لا يزال من الصعب مساعدة القادة في المجتمعين على إدراك انعكاسات هذه الفكرة الكبيرة.

الفكرة التاسعة: ومع ذلك، يجب أن يكون قادة القوى النووية العظمى مستعدين للمجازفة بخوض حربٍ، لا يستطيعون كسبها.

إن المفارقة النووية أمر لا مفر منه. ففي منافسة تقيِّدها فكرة التدمير المُتبادَل المؤكَّد، لا يمكن لأي أمة الفوز في حرب نووية، غير أن هذه ليست نهاية الأمر. فمن المفارقات العجيبة هنا، أن على كل طرفٍ من الطرفين أن يبرهن عن استعداده لخسارة مثل هذه الحرب، وإلاّ وجد نفسه وقد أطيح به بعيدًا عن الطريق. ولنفكر مرة أخرى في لعبة الدجاج التي عرضناها في الفصل الثامن. فلنفكر في كل بند من بندَي المفارقة. فمن ناحية، إذا وقعت الحرب، تخسر كلتا الدولتين. وليست هناك قيمة يمكن أن يختار القادة العقلانيون، من أجلها، موت مئات الملايين من مواطنيهم. من هذا المنطلق، كان الرئيس كينيدي

والرئيس خروتشوف، أثناء أزمة الصواريخ الكوبية، طرفين في كفاح مشترك، لمنع وقوع كارثة متبادلة. ولكن هذا هو الوضع بالنسبة للبلدين، ويدرك قادة البلدين ذلك. ومن ناحية أخرى، إذا كانت أي من الدولتين غير راغبة في المخاطرة بشن (أي خسارة) حرب نووية، فإن خصمها يمكن أن يفوز بأي هدف، من خلال خلق الظروف التي تجبر القوة الأكثر إحساسًا بالمسؤولية، على الاختيار بين الإذعان، والمخاطرة بالتصعيد إلى الحرب. لهذا، ومن أجل الحفاظ على المصالح والقيم الحيوية، يجب على القادة أن يكونوا مستعدين لاختيار المسارات التي تنطوي على مخاطرة بالتعرض للتدمير.

يمكن رصدُ ديناميكية مماثلة، لكنها لحسن الحظ أقل فتكًا، في مجال المنافسة الاقتصادية والسيبرانية بين الولايات المتحدة والصين. فخلال الحملة الرئاسية لعام 2012، أعلن المرشح الجمهوري ميت رومني Mitt Romney: "في اليوم الأول من رئاستي سوف أُعلِن الصين دولة متلاعبة بالعملة، وأتخذُ الإجراءات المضادة المناسبة"[64]. وقد رفضت السلطات السياسية والاقتصادية تهديده، إذ اعتبرته خطابًا طائشًا، يحمل نُذُرَ حربٍ تجاريةٍ كارثية. وبالمثل رفضت هذه السلطات التهديدات المماثلة التي أطلقها الرئيس دونالد ترامب خلال حملة الانتخابات الرئاسية لعام 2016. ولكن، إذا لم تكن واشنطن ترغب في المخاطرة بمواجهة تجارية مع الصين في أي ظرف من الظروف، فلماذا يوقف الزعماء الصينيون "التلاعب بالأمريكيين بمهارة، والضحك في عبِّهم" (والاقتباس هنا من استعارة رومني المزدوجة)[65]، أو لماذا يتوقفون عن "اغتصاب بلدنا" (تعبير لترامب)[66]، من خلال تخفيض قيمة عملتهم، ودعم المنتجين المحليين، وحماية أسواقهم، وسرقة الملكية الفكرية؟ ومثل ما يجب على الولايات المتحدة أن تكون على استعداد للمخاطرة بحرب اقتصادية مع الصين، من أجل تحفيز القيود التي تحافظ على

مصالحها الاقتصادية، كذلك يجب عليها أن تحتفظ بالأسلحة النووية ضمن مجموعة أدواتها، لردع خصوم حقيقيين أو محتملين، مثل الصين.

ومن مجموع تلك الحالات، تنبثق ثلاثة دروس أخرى:

الفكرة العاشرة: الاعتماد الاقتصادي المتبادَل يزيد تكلفة الحرب، ولهذا يقلل احتمال اندلاعها.

في العقود التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وصل اقتصادا المملكة المتحدة وألمانيا إلى درجة من الاعتماد المتبادَل أعاقت قدرة أي من الطرفين على إلحاق الأذى باقتصاد الطرف الآخر دون أن يؤذي نفسه. وقد أمِل كثيرون أن تمنع هذه الشبكة المترابطة للتجارة والاستثمارات نشوب حربٍ بين البلدين. وقد كان هؤلاء مخطئين. ولكن عندما اندلعت الحرب، كانت عواقبها الاقتصادية، على برلين ولندن، غير عادية.

وبالمثل، تشهد العلاقات الاقتصادية الحالية بين الولايات المتحدة والصين حالةً من الاعتماد المتبادل الوثيق، إلى حد أنها تخلق وضعًا يماثل الوضع الذي خلقته فكرة التدمير الـمُتبادَل المؤكَّد، لذلك اصطلح على تسمية الوضع الجديد التدمير الاقتصادي الـمُتَبَادل الـمؤكَّد mutual assured economic destruction[67]. إن الولايات المتحدة هي أكبر سوق للصادرات الصينية، والصين هي أكبر دائن لأمريكا. فإذا منعت الحربُ الولايات المتحدة من شراء السلع الصينية، ومنعت الصينَ من شراء الدولارات الأمريكية، فإن التأثير الاقتصادي والاجتماعي على كل منهما سوف يفوق بالتأكيد أية مكاسب يمكن أن تحققها الحرب. وإلى جانب الاعتراف بأن نورمان أنجِل قدم حجة مماثلة قبل الحرب العالمية الأولى، قدم المؤيدون لجدوى فكرة

التدمير الاقتصادي الـمُتبادَل المؤكَّد اعتبارين آخرين. يرى البعض أن أنجِل كان على حق. فما تَكبَّده جميع أطراف الحرب العالمية الأولى من تكلفة، تجاوز بكثير الفوائد التي حققها المنتصرون. وإذا أُتيحت لأطراف تلك الحرب فرصة الاختيار من جديد، لن يفعل أي منهم ما فعله. وبما أن هذا واضح الآن، فإن قادة الدول القادمين سيكونون أكثر ذكاء. والبعض الآخر يركز على الاختلافات بين الحالة السابقة، والعلاقات الاقتصادية الحالية بين الولايات المتحدة والصين. صحيحٌ أن مستويات التجارة والاستثمار مماثلة للمستويات التي كانت عليها قبل الحرب العالمية الأولى، ولكن السلسلة الإنتاجية التي تربط المنتِج الذي لا غنى عنه، بالمستهلك الذي لا بديل له، أصبحت متكاملة بحيث أن كل شيء يباع في الولايات المتحدة، من هواتف الآي فون إلى طائرات البوينغ، مصنوع بمكونات صُنِعت في الصين.

علاوة على ذلك، وضعت الحكومة الصينية "رهانًا كونيًا" على سوق عالمي مفتوح يمكنها أن تبيع فيه منتجاتها، وعلى وصول ناقلات نفط إليها بشكل يومي منتظم، محملة بالوقود اللازم لتشغيل مصانعها وسياراتها وطائراتها. كل هذه العناصر ضرورية، للحفاظ على المعدل غير العادي للنمو الاقتصادي الذي يعتمد عليه الحزب الشيوعي لتأكيد شرعيته السياسية، أو تفويضه السماوي. كل هذه الصادرات والواردات، عرضة لهجمات أمريكية تقطع خطوطها. غير أن الولايات المتحدة ليست فقط السوق الرئيسية للمنتجات الصينية. إن ثلثي واردات الصين النفطية تنتقل عبر المحيطات، حيث البحرية الأمريكية هي الحارس والوصي المطلق، وهو وضع سوف تستأثر به أمريكا لفترة طويلة قادمة. وبالتالي، فإن الحرب بين الولايات المتحدة والصين تعني بالتأكيد نهاية الاقتصادين كما نعرفهما اليوم. حتى أولئك الذين يرون في فكرة التدمير الاقتصادي الـمُتبادَل المؤكَّد نوعًا من المبالغة، يوافقون على أن تكثيف الاعتماد الاقتصادي المتبادَل

يخلق في داخل المجتمَعَيْن أطرافًا فاعلة مؤثرة، لها مصلحة كبيرة في وجود علاقة مثمرة بين الطرفين، مما يشجعهم على التحول إلى جماعات ضغط من أجل السلام.

الفكرة الحادية عشرة: التحالفات يمكن أن تكون استقطابًا قاتلًا.

من رد فعل أسبرطة تجاه أثينا، إلى رد بريطانيا على ألمانيا، تُظهر الأمثلة في ملف حالات فخ ثيوسيديديز كيف أن ديناميكية رفع قاعدة التحدي يمكن أن تؤدي بكل طرف إلى البحث عن حلفاء يكونون بمثابة قوة مُقابِلة مُوازِنة. فعلى مدار العقد الماضي، فوجئ القادة الصينيون بما تميزت به الردود على عزمهم وإصرارهم من خبث وحقد. فاليابان، وكوريا الجنوبية، وفيتنام، وحتى الهند، لم تصبح، فقط، أكثر حرصًا على إرضاء الولايات المتحدة، بل أصبحت أكثر تعاونًا في ما بينها. السائد تاريخيًا هو أن هذه الائتلافات تخلق توازن قوى، للحفاظ على السلام والأمن الإقليميين. لكنها أيضًا تخلق بعض المخاطر، لأن روابط تلك الائتلافات أو التحالفات تعمل في الاتجاهين. ولا تظهر تلك الحقيقة بشكل أكثر وضوحًا مما ظهرت عليه في العقود التي أدت إلى الحرب العالمية الأولى، كما هو موضَّحٌ في الفصل الرابع. ففي محاولة لمنع سفك الدماء، أقام الزعماء الأوروبيون ماكينة دمار شامل، سمحت لعملية اغتيال غير منطقية، وغير ذات أهمية، بأن تؤدي إلى حرب عالمية.

كما أن سجلات التاريخ ترشدنا إلى أن المعاهدات ليست كلها متساوية. إن التحالفات الدفاعية مشروطة، مثل وعد أثينا بأن تهبَّ إلى نجدة كوركيرا، إذا وقعت ضحية لهجوم غير مبرر، أو التزام الولايات المتحدة تجاه تايوان، إذا كانت الصين هي المعتدية. على الطرف الآخر من الطيف، الشيك على بياض، أو التعهد المفتوح الذي منحه القيصر لإمبراطور النمسا، شجع الأخير على القيام بمخاطرته

المتهورة، التي أشعلت الحرب عام 1914. وفي حين أن الالتزام الذي تفرضه على الولايات المتحدة المادة 5 من معاهدة الدفاع المشترك بينها وبين اليابان، لا يعادل الضمانة التي قدمها القيصر إلى النمسا، يمكن للمرء أن يربك معظم الدبلوماسيين الأمريكيين بمطالبتهم بشرح سبب هذا الاختلاف بين الالتزامين. وبالنظر إلى حقيقة أن القوة المتنامية للصين تخلق طلبًا أكبر على الحماية الأمريكية في المنطقة، يجب على واضعي السياسات في واشنطن أن يراجعوا بدقة واهتمام، الالتزامات الحقيقية التي تفرضها على أمريكا، اتفاقياتُها مع حلفائها الآسيويين.

الفكرة الثانية عشرة: ما يجري في الداخل، يلعب دورًا حاسمًا.

ما تفعله الدول داخل حدودها له من الأهمية ما لا يقل عن أهمية ما تفعله في الخارج. وفي هذا المجال، تلعب ثلاثة عوامل دورًا يفوق أدوار غيرها: الأداء الاقتصادي يخلق البنية التحتية للقوة الوطنية؛ والكفاءة في الحوكمة تسمح بتعبئة الموارد للأغراض الوطنية؛ والروح الوطنية تدعم كلاهما. مع مرور الوقت، يكون للدول ذات الاقتصادات الأقوى، والحكومات الأكثر كفاءة، والدعم الوطني الموحد، تأثير أكبر على خيارات وأفعال الآخرين. وكما يقول دامون رونيون(*) في عبارة تُستخدم بكثرة: "رغم أن السباق لا يفوز به دومًا الأسرع، ورغم أن المعركة لا يفوز بها دائمًا الأقوى، هذه هي الطريقة الوحيدة للمراهنة".

رأت بريطانيا الولايات المتحدة وهي ترتفع من اقتصاد يبلغ نصف

(*) ألفريد دامون رونيون Alfred Damon Runyon (4 تشرين الأول/أكتوبر 1880- 10 كانون الأول/ديسمبر 1946)، صحافي وكاتب قصة قصيرة أمريكي، كتب عشرات القصص القصيرة التي حُوِّل عشرون منها إلى أفلام سينمائية، كما حُوِّل بعض قصصه إلى مسرحيات، والبعض الآخر إلى تمثيليات إذاعية. (المُعرِّب)

حجم الاقتصاد البريطاني في عام 1840، إلى التساوي معه في سبعينيات القرن التاسع عشر، قبل أن يصل إلى ضعف حجم اقتصادها بحلول عام 1914. وكما أشرنا سابقًا، قاد هذا التطورُ أصحابَ النظرة الواقعية في البحرية الملكية إلى اعتماد سياسة التكيُّف. فلو تعثر الاقتصاد الأمريكي، أو انقسمت الأمة إلى قسمين، أو فسدت حكومتها، أو أصيبت بالشلل السياسي بسبب خلافات مثل تلك التي أدت إلى الحرب الأهلية، لكان من الممكن أن يستمر دور بريطانيا في النصف الغربي من الكرة الأرضية، خلال القرن العشرين.

ولو أن الاتحاد السوفييتي استطاع الحفاظ على معدل نمو اقتصادي يعادل ضعف معدل النمو الاقتصادي للولايات المتحدة ليصبح القوة الاقتصادية الرائدة في العالم، ولو أثبتت الأيديولوجية الشيوعية أنها قادرة على التغلب على النزعة القومية، من خلال بناء "الإنسان الاشتراكي الجديد"، لكان بوسع موسكو تعزيز موقفها المهَيْمِن، ليس فقط في أوروبا، لكن، أيضًا، في آسيا. ولو أن شريكتها الصاعدة، الصين الشيوعية، أصبحت طليعة للتوسع الشيوعي من خلال "حروب التحرير"، كما كان معظم صناع السياسة في الولايات المتحدة ينظرون إلى حرب فيتنام، لكان من الممكن أن تكتسح الكتلة الشيوعية الأحادية "العالم الحر"، الذي تقوده الولايات المتحدة. ولو كانت أزمة الرأسمالية، التي كان يُنْظر إليها على أنها السبب الرئيسي للكساد العظيم الذي ضرب العالم في ثلاثينيات القرن العشرين، استمرت خلال العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، لكانت دول أوروبا الغربية قد استسلمت لجاذبية مسيرة الاشتراكية التي لا ترحم، من جهة، ومؤامرات لجنة أمن الدولة KGB، من ناحية أخرى.

لحسن الحظ، هذه مجرد مجموعة من الـماذا لو what ifs. فبدلاً من ذلك، وكما توقع كينَّان، أثبتت الأسواق الحرة والمجتمعات الحرة قدرتها على تحقيق المكاسب الاقتصادية والسياسية والشخصية، التي أرادها الناس. وعلى الرغم من عدة عقود من السطوة الدرامية والمخيفة، فشل الاتحاد

السوفييتي، لأن التزاماته الأساسية بالاقتصاد الموجَّه والسياسات الشمولية، لم تكن قادرة على المنافسة.

الآن، وقد تسلَّحنا بهذه المجموعة من الأفكار الـمُسْتقاة من الماضي، إلى أين نتوجه، من هنا؟

هوامش

الفصل التاسع

(1) "عشية انتشار الموت الأسود (الطاعون) في القرن الرابع عشر، كان عدد سكان البرتغال 1.5 مليون، بمعدل 17 شخصًا في الكيلومتر المربع الواحد، وهو معدل سُجل في معظم أوروبا. ولكن هذا المعدل انخفض في عام 1348 ما بين الثلث والنصف وظل مراوحًا عند هذا المستوى مع بعض الفروقات حتى عام 1460، عندما بدأت مرحلة التعافي". هذا ما جاء في الفصل المخصص للبرتغال الذي كتبه أرميندو دي سوزا Armindo de Sousa، في موسوعة كامبريدج الجديدة لتاريخ القرون الوسطى، المجلد السابع The New Cambridge Medieval History، 1998. ومن المثير للاستغراب أن عدد البرتغاليين الذين قضوا بالموت الأسود، بحسب رواية أخرى، قد يكون فاق أعداد الضحايا في بلدان أخرى: "في البرتغال، سجلت التقديرات أن عدد الوفيات بلغ الثلثين أو تسعة أعشار"، وردت في فصل بعنوان قشتالة ونافارا والبرتغال Castile, Navarre and Portugal كتبه بيتر لاينهان Peter Linehan في موسوعة كامبريدج الجديدة لتاريخ القرون الوسطى، المجلد السادس.

(2) تاريخ البرتغال والإمبراطورية البرتغالية من البدايات وحتى عام 1807 A History of Portugal and the Portuguese Empire from Beginnings to 1807، المجلد الثاني، تأليف أ. ر. ديزني A. R. Disney، 2009.

(3) التوسع البرتغالي Portuguese Expansion، فصل في المجلد الأول من موسوعة كامبريدج الجديدة لتاريخ القرون الوسطى، كتبه هـ. ف. ليفرمور H. V. Livermore.

(4) التقدم البرتغالي والتوسع القشتالي حوالي عام 1492 Avance portugués y expansion castellana en torno a 1492، فصل أعدَّه جورف بيريز Joseph Pérez في كتاب العلاقات بين البرتغال وقشتالة في عصر الاستكشاف والتوسع الاستعماري Las Relaciones entre Portugal y Castilla en la Época de los Descubrimientos y la Expansión Colonial، صادر في إسبانيا، 1994.

(5) خلق اقتصاد دولي: رأسمالية التاجر، والاستعمار، والتجارة الدولية 1400-1825 Creating a World Economy: Merchant Capitalism, Colonialism, and World Trade, 1400-1825، تأليف ألان سميث Alan Smith، 1991.

(6) البرتغال والبحث عن جزر الهند Portugal and the Quest for the Indies، تأليف كريستوفر بيل Christopher Bell، 1974.

(7) تجدر الإشارة إلى أن فرديناند وإيزابيلا لم يستجيبا لطلب كولومبوس تمويل رحلته، لدى محاولته الأولى، ولكنهما وافقا بعد إعادة النظر في الطلب.

(8) لم تشأ البرتغال تعريض نفسها لخطر تكرار الحرب المكلِفة التي خاضتها ضد قشتالة قبل عقدين. وكانت حرب الخلافة القشتالية التي دارت رحاها بين العامين 1475 و1479، حول السماح أم لا بقيام الوحدة بين قشتالة وأراغون. فإذا أدت الحرب الأهلية في قشتالة إلى تثبيت إيزابيلا، التي تزوجت من فرديناند ملك أراغون، ملكة على قشتالة، تقوم الوحدة. أما إذا انتصر مؤيدو خوانا (التي كانت متزوجة من ألفونسو الخامس ملك البرتغال)، فتتوحد قشتالة مع البرتغال. وبالطبع حاربت البرتغال مع الجانب الذي كان يسعى إلى تنصيب خوانا على عرش قشتالة وليس إيزابيلا. وبالتالي، بدلاً من فهم ذلك على أنه سيناريو لفخ ثيوسيديدين، حيث تخشى البرتغال صعود القوة القشتالية نتيجة وحدتها مع أراغون وتدفعها خشيتها هذه إلى الهجوم عليها، نفهمه كمحاولة من البرتغال للاستحواذ على قشتالة على أنها إرث لها. ترد تفاصيل أخرى حول هذه الأحداث في الملحق الأول.

(9) تاريخ البرتغال والإمبراطورية البرتغالية، تأليف أ. ر. ديزني.

(10) سمح أوباما، في فترتَي حكمه، بالقيام بعمليات عسكرية في كل من أفغانستان، والعراق، وسوريا، وليبيا، وباكستان، والصومال، واليمن. كما قدمت قوات العمليات الخاصة الأمريكية الدعم العملي في مطاردة الإرهابيين في ثماني دول أخرى على الأقل. للتفاصيل، يمكن مراجعة مقال بعنوان لأوباما، تركة غير متوقعة لفترتَي حكم سادت الحرب طوالهما For Obama, an Unexpected Legacy of Two Full Terms at War، كتبه مارك لاندلر Mark Landler في صحيفة نيويورك تايمز في 14 أيار/مايو 2016، وهو متاح على الرابط http://www.nytimes.com/2016/05/15/us/politics/obama-as-wartime-president-has-wrestled-with-protecting-nation-and-troops.html.

(11) في حالة نيكاراغوا، عندما حكمت المحكمة لصالحها وأمرت الولاياتِ المتحدة بدفع التعويضات، رفضت هذه الأخيرة الحكم واستخدمت حق النقض (الفيتو) لإسقاط ستة قرارات لمجلس الأمن الدولي تطالبها بتنفيذ الحكم. وقد أوجزت مندوبة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة جاين كيركباتريك آنذاك وجهة نظر بلدها في هذه المسألة حين وصفت المحكمة بأنها "هيئة شبه قانونية وشبه قضائية وشبه سياسية، تقبل بها الأمم أحيانًا ولا تقبلها أحيانًا أخرى". للتفاصيل، يمكن مراجعة المقال المعنون الصين، على غرار جميع القوى العظمى، ستتجاهل بالطبع حكمًا قانونيًا دوليًا Of Course China, Like All Great Powers, Will Ignore an International Legal Verdict، كتبه غراهام أليسون Graham Allison في مجلة ديبلومات Diplomat في 11 تموز/يوليو 2016، وهو متاح على الرابط http://thediplomat.com/2016/07/of-course-china-like-all-great-powers-will-ignore-an-international-legal-verdict/.

(12) المقابلة: هنري كيسنجر The Interview: Henry Kissinger، أجراها جاكوب هايلبرون Jacob Heilbrunn لموقع ناشيونال إنتريست في 19 آب/أغسطس 2015، وهي متاحة على الرابط http://nationalinterest.org/feature/the-interview-henry-kissinger-13615.

(13) ألمانيا موحدة وأوروبا متحولة: دراسة في كفاءة إدارة الدولة Germany Unified and Europe Transformed: A Study in Statecraft، تأليف فيليب زيليكوف وكوندوليزا رايس Philip Zelikow and Condoleezza Rice، 1995. وقد جاء في ملفات مكتب رئاسة الوزراء البريطانية التي رُفعت عنها السرية مؤخرًا، أن تاتشر أثارت قلق إدارة بوش عندما اعتبرت في عام 1990، أن تحالفًا بين بريطانيا والاتحاد الروسي قد يكون ضروريًا لتحقيق التوازن مع القوة الألمانية في أوروبا. للتفاصيل، يمكن مراجعة المقال المعنون تاتشر رأت في السوفييت حلفاء ضد ألمانيا Thatcher Saw Soviets as Allies Against Germany، الذي كتبه هنري مانس Henry Mance في صحيفة فايننشيال تايمز في 29 كانون الأول/ديسمبر 2016، والمتاح على الرابط https://www.ft.com/content/dd74c884-c6b1-11e6-9043-7e34c07b46ef.

(14) حرب أوروبا الباردة Europe's Cold War، فصل من كتيِّب أوكسفورد عن التاريخ الأوروبي ما بعد الحرب The Oxford Handbook of Postwar European History، كتبه جوسّي م. هانهيماكي Jussi M. Hanhimaki، 2012.

(15) فشل اليورو The Failure of the Euro، مقال كتبه جون لانكستر John Lanchester في مجلة نيويوركر New Yorker في 24 تشرين الأول/أكتوبر 2016، وهو متاح على الرابط www.newyorker.com/magazine/2016/10/24/the-failure-of-the-euro.

(16) الخيار لأوروبا: المسؤولية الاجتماعية وقوة الدولة من مَسينة إلى ماستريخت The Choice for Europe: Social Purpose and State Power from Messina to Maastricht، تأليف أندرو مورافتشك Andrew Moravcsik، 1998.

(17) أعلن بوش، في خطاب ألقاه في ماينز بألمانيا في 31 أيار/مايو 1989: "لا يمكن التنكر لشغف الحرية إلى الأبد. لقد انتظر العالم ما فيه الكفاية. آن الأوان لتكون أوروبا كاملة وحرة". التفاصيل متاحة على الرابط http://usa.usembassy.de/etexts/ga6-890531.htm.

(18) قاعدة بيانات آفاق الاقتصاد العالمي، لصندوق النقد الدولي.

(19) مرحلة النضج: السياسة الخارجية الألمانية منذ 1945 Coming of Age: German Foreign Policy Since 1945، تأليف هيلغا هافتندورن Helga Haftendorn، 2006.

(20) يمكن طرح الأسئلة نفسها حول الحالة الشاذة الكبرى الأخرى لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ألا وهي اليابان.

(21) التقارب الكبير: انجلترا والولايات المتحدة، 1895-1914 The Great Rapprochement: England and the United States, 1895-1914، تأليف برادفورد بيركنز Bradford Perkins، 1968.

(22) يمكن الاطلاع على مستويات الناتج المحلي الإجمالي في اثنتي عشرة دولة في أوروبا الغربية للفترة 1869–1918، وفي الدول الغربية غير الأوروبية للفترتين 1500–1899 و1900–1955، في كتاب اقتصاد العالم The World Economy، للمؤرخ أنغوس ماديسون Angus Maddison.

(23) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(24) كان الرأي العام المؤيد لأمريكا من الأسباب التي ثنت بريطانيا عن موقفها. يمكن الاطلاع على فصل بعنوان تحوُّل القوة ومفاعيلُه A Power Transition and Its Effects، تأليف إرنست ر. ماي وزهو هونغ Ernest R. May and Zhou Hong، في كتاب القوة وضبط النفس: رؤية مشتركة للعلاقات الأمريكية الصينية Power and Restraint: A Shared Vision for the U.S.-China Relationship، 2009.

(25) تحت وطأة الولايات المتحدة: تاريخ السياسة الأمريكية تجاه أمريكا اللاتينية، تأليف لارس شولتز.

(26) تحوُّل القوة ومفاعيلُه، تأليف إرنست ر. ماي وزهو هونغ.

(27) في الواقع، سعت بريطانيا إلى معاهدة تنظِّم التحكيم في الخلافات، وقَّعت عليها الإدارة الأمريكية ولكن رفضها مجلس الشيوخ. يمكن الاطلاع على كتاب التقارب الكبير، تأليف برادفورد بيركنز مرجع سبق ذكره؛ وكتاب اللورد ساليسبري والسياسة الخارجية: ختام القرن التاسع عشر Lord Salisbury and Foreign Policy: The Close of the Nineteenth Century، تأليف ج. أ. س. غرنفيل J.A.S. Grenville، 1964؛ وكتاب الديمقراطية الإمبريالية: بزوغ أمريكا كقوة عظمى، تأليف إرنست ماي.

(28) بريطانيا وتوازن القوى في أمريكا الشمالية، 1815–1908، تأليف كينيث بورن.

(29) المرجع السابق.

(30) تحوُّل القوة ومفاعيلُه، تأليف إرنست ر. ماي وزهو هونغ.

(31) روى سيلبورن كيف صدمه إلى حدٍ ما موقف فيشر الحاد، قائلًا: "قال فيشر إنه لن يخصص رجلًا واحدًا ولا جُنيهًا واحدًا للدفاع عن كندا. وكان يعني ما يقول". فقد أدت إعادة توزيع الأسطول التي أمر بها فيشر إلى تقليص حضور البحرية الملكية في الأمريكتين بشكل فادح. يمكن مراجعة كتاب العملاق المُنهَك: بريطانيا وتجربة الانحدار النسبي 1895–1905، تأليف آرون فريدبيرغ. مرجع سبق ذكره. وفي غضون سنتين أنيط الدفاع عن أرض كندا بالكنديين أنفسهم، وانسحب آخر الجنود البريطانيين. يمكن مراجعة كتاب بريطانيا وتوازن القوى في أمريكا الشمالية، 1815–1908، تأليف كينيث بورن.

(32) قال سيلبورن ذلك في عام 1901. يمكن مراجعة كتاب بريطانيا وتوازن القوى في أمريكا الشمالية، 1815–1908، تأليف كينيث بورن.

(33) أوضح سيلبورن لزملائه في مجلس الوزراء أن "ما أراه الآن معيارًا صحيحًا لا يمكن ذكره علنًا". يمكن مراجعة العملاق المُنهَك: بريطانيا وتجربة الانحدار النسبي 1895–1905، تأليف آرون فريدبيرغ.

(34) المرجع السابق.

(35) كسوف بريطانيا العظمى: انحدار الولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية، 1895–1956 The Eclipse of Great Britain: The United States and British Imperial Decline, 1895-1956، تأليف آن أوردي Anne Orde، 1996.

(36) تحوُّل القوة ومفاعيلُه، تأليف إرنست ر. ماي وزهو هونغ. مرجع سبق ذكره. كما آمن بعض الأمريكيين برابطٍ أنجلو–أمريكي طبيعي، ولكنهم كانوا أقل عددًا من البريطانيين الذين آمنوا بذلك.

(37) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.

(38) تحوُّل القوة ومفاعيلُه، تأليف إرنست ر. ماي وزهو هونغ.

(39) المرجع السابق.

(40) حليف أمريكا المفقود America's Lost Ally، مقال كتبه جورج ويلّ George Will في صحيفة الواشنطن بوست في 17 آب/أغسطس 2011، وهو متاح على الرابط https:// www.washingtonpost.com/opinions/americas-lost-ally/2011/08/16/gIQAYxy8LJ_story.html?utm_term=.3188d2889da3.

(41) اقتصاديات: تحليل تمهيدي Economics: An Introductory Analysis، تأليف بول صامويلسن Paul Samuelson، 1964.

(42) الحرب العالمية الثانية، المجلد الثالث: التحالف الكبير The Second World War, vol. 3: The Grand Alliance، تأليف ونستون تشرشل، 1950.

(43) رسالة من جيمس فورِّستال James Forrestal إلى هومِر فِرغوسون Homer Ferguson، مؤرخة 14 أيار/مايو 1945. من كتاب يوميات فورِّستال The Forrestal Diaries، إعداد والتر ميلِس Walter Millis، 1951.

(44) النص الكامل للبرقية الطويلة متاح في أرشيف الأمن القومي في جامعة جورج واشنطن، وعلى الرابط http://nsarchive.gwu.edu/coldwar/documents/episode-1/kennan.htm.

(45) السلاح المطلق: القوة النووية والنظام العالمي The Absolute Weapon: Atomic Power and World Order، تأليف برنارد برودي وآخرين Bernard Brodie et al، 1946.

(46) الاتحاد السوفييتي بعد 1945: انتعاش اقتصادي وقمع سياسي The Soviet Union After 1945: Economic Recovery and Political Repression، تأليف مارك هاريسون Mark Harrison، 2011.

(47) يمكن الاطلاع على مستويات الناتج المحلي الإجمالي في بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد

السوفييتي سابقًا للفترتين 1820–1949 و1950–2002، في كتاب اقتصاد العالم The World Economy، للمؤرخ أنغوس ماديسون Angus Maddison.

(48) من الظلال: القصة النهائية من الداخل لخمسة رؤساء وكيف انتصروا في الحرب الباردة From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and How They Won the Cold War، تأليف روبرت غايتس Robert Gates، 1996.

(49) فكَّر المسؤولون الأمريكيون الرفيعو المستوى في شن حرب وقائية في حالتين على الأقل خلال العقد الأول من الحرب الباردة. وعللوا ذلك بأن الحرب الوقائية ضرورية لإجبار السوفييت على القبول بمراقبة دولية للأسلحة النووية ومن ثم ضمان سلام دائم قبل أن يتمكن السوفييت من تطوير قدرات نووية متينة. ففي الأشهر الأولى من الحرب الكورية في عام 1950، أكد وزير البحرية فرانسيس ماتيوز Francis Matthews: "للحصول على السلام، يجب أن نكون مستعدين وأن نعلن عن نيتنا لدفع أي ثمن، حتى ثمن شن حرب لفرض التعاون من أجل السلام". وكتب غوردُن دين Gordon Dean بُعَيد تنحّيه من رئاسة لجنة الطاقة الذرية، في عام 1954: "هل نستطيع كأمة، ويستطيع العالم الذي أصبح اليوم حرًا، السماح للسوفييت بالوصول إلى مركز القوة هذا؟ إنهم سوف يصلون إلى هذه القوة؛ وكل ما لدى الشعوب الحرة في كل مكان من آمال محتدمة، لن يمنعهم من تحقيق هذه القوة المهولة إلا إذا تحولت هذه الآمال إلى عملٍ ما، يُسقط الستار الحديدي ويوقف برنامج الأسلحة الضخم... هذه هي بكل صراحة مشكلة السنتين 1953–1954". في نهاية المطاف، لا ترومان ولا آيزنهاور قبل هذا التعليل، حيث اشتهر ترومان بمقولته: "لا تستطيع منع أي شيء بواسطة الحرب، إلا السلام".

(50) كتب برنارد برودي: "حتى الآن، كان الهدف الرئيسي لمؤسستنا العسكرية كسبَ الحروب. أما من الآن وصاعدًا، فيجب أن يكون هدفها تفادي الحروب. ولن يكون أي هدف آخر مفيدًا لها". يمكن الاطلاع على كتاب السلاح المطلق، تأليف برنارد برودي.

(51) خطاب جورج مارشال متاح على الرابط: http://www.oecd.org/general/themarshallplanspeechatharvarduniversity5june1947.htm؛ ونص المذكرة NSC-68 التي تحمل عنوان أهداف الولايات المتحدة وبرامجها للأمن القومي United States Objectives and Programs for National Security، متاح على الرابط http://fas.org/irp/offdocs/nsc-hst/nsc-68.htm. ولتفاصيل أوفى عن استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة وأدائها في فترة ما بعد الحرب، يمكن الاطلاع على فصل بعنوان استراتيجية الأمن القومي للتسعينيات National Security Strategy for the 1990s، كتبه غراهام أليسون Graham Allison في كتاب مصالح أمريكا العالمية: أجندة جديدة America's Global Interests: A New Agenda، 1989.

(52) عن الحرب، تأليف كلاوسفيتز.

(53) نظرة ثانية: درسٌ من أزمة الصواريخ الكوبية، مقال كتبه غراهام ألّيسون في صحيفة بوسطن غلوب Boston Globe، في 26 تشرين الأول/أكتوبر 1987، وهو متاح على الرابط http://belfercenter.org/publication/1334/second_look.html.

(54) السلام الطويل: تحقيقات في تاريخ الحرب الباردة The Long Peace: Inquiries into the History of the Cold War، تأليف جون لويس غادِّس John Lewis Gaddis، 1987.

(55) لتأريخ موثوق لعملية صياغة استراتيجيات أمريكا وتدخلاتها خلال الحرب الباردة، يمكن الاطلاع على كتاب استراتيجيات الاحتواء: تقييم نقدي لسياسة الأمن القومي الأمريكية ما بعد الحرب Strategies of Containment: A Critical Appraisal of Postwar American National Security Policy، تأليف جون لويس غادِّس، 1982، وكتاب الحرب الباردة: تاريخ جديد The Cold War: A New History، تأليف غادِّس، 2005. ولتقرير نهائي عن التدخلات

السوفييتية والأمريكية في تلك الفترة، يمكن الاطلاع على مقال بعنوان الحرب الباردة العالمية: التدخلات في العالم الثالث وصناعة زمننا، تأليف أُودّ أرنه ويستاد Odd Arne Westad، 2005. ولسرد مضيء لتاريخ العمليات السرية الأمريكية في الحرب الباردة والتي كانت تهدف إلى تغيير الأنظمة الخارجية، يمكن الاطلاع على كتاب انقلاب: قرن أمريكي من تغيير الأنظمة من هاواي إلى العراق، 2006.

(56) هذا الزمن مختلف: ثمانية قرون من الحماقة المالية This Time Is Different: Eight Centuries of Financial Folly، تأليف كارمن راينهارت وكينيث روغوف Carmen Reinhart and Kenneth Rogoff، 2009.

(57) يمكن الاطلاع على مقال بعنوان نورمان أنجِل والوهم الكبير: واقعة من الفترة السَلامية ما قبل 1914 Norman Angell and The Great Illusion: An Episode in Pre-1914 Pacifism، كتبه هاورد واينروث Howard Weinroth في مجلة هيستوريكال دجورنال Historical Journal في أيلول/سبتمبر 1974.

(58) العيش مع الأسلحة النووية Living with Nuclear Weapons، تأليف مجموعة الدراسات النووية في جامعة هارفرد Harvard Nuclear Study Group، 1983.

(59) شهد النصف الثاني من القرن العشرين سلسلة حالات كان ثيوسيديديز سيرى فيها تطبيقًا لديناميته، لأن الدول واجهت تغيُّرًا وشيكًا ليس في ميزان القوى عامة بل في جانب حاسم من القوة العسكرية. ففي سبع من هذه الحالات، عندما وصل منافس إلى عتبة اقتناء أسلحة نووية وبناء ترسانة نووية تشكل تهديدًا وجوديًا حقيقيًا، فكَّر منافسُه الذي يملك فعلًا أسلحة نووية في شن هجوم وقائي. وفي نهاية 1949، بعدما أجرى الاتحاد السوفييتي اختبارًا لأول سلاح نووي له، حث رئيس أركان القوات الجوية الأمريكية الرئيس ترومان على السماح بشن هجوم وقائي لنزع سلاح موسكو. وعندما اقتربت الصين من نقطة التحول إلى النووي، خطط الاتحاد السوفييتي لعملية استباقية ضد الصين حتى أنه استشار الولايات المتحدة بشأن هذه الخطوة. وهكذا بالنسبة إلى الهند إزاء الصين، وباكستان إزاء الهند، وكوريا الشمالية إزاء الولايات المتحدة (حيث كان وزير الدفاع آشتون كارتر Ashton Carter من أبرز المتحمسين لمثل هذا الخيار). دولة واحدة فقط نفذت مثل هذه الخطوة وهي: إسرائيل. فقد قامت إسرائيل، لإثبات سياستها بشأن مكافحة الانتشار النووي، بتدمير مفاعِل نووي عراقي في عام 1981، ومفاعِل نووي سوري في عام 2007، وهي تواصل اليوم توجيه تهديد حقيقي بمهاجمة برنامج إيران النووي. وفي هذا السياق، تتردد إلينا أصداء من الحرب العالمية الأولى. عندما سارعت روسيا إلى استكمال خطوط السكك الحديدية التي تسمح لها بنقل جيشها الضخم بسرعة إلى الحدود مع ألمانيا، أثارت قلق الطاقم العسكري الألماني، لأن ذلك سيضطر ألمانيا، عند وقوع الحرب، إلى القتال على حدودها الشرقية والغربية في آنٍ معًا. واليوم، بدأ المفكرون الاستراتيجيون يتخيَّلون حصول خروقات من شأنها أن تتيح مثلًا لدولة معينة أن تعطل أنظمة إطلاق الأسلحة النووية لخصمها، وبالتالي خلق حوافز مماثلة لشن هجوم وقائي.

(60) بيان الرئيس رونالد ريغان في الذكرى الأربعين لقصف هيروشيما، في 6 آب/أغسطس 1985، وهو متاح على الرابط http://www.presidency.ucsb.edu/ws/?pid=3897.

(61) "وحدهما روسيا والصين لديهما القدرة على شن هجوم واسع النطاق بالصواريخ الباليستية على أرض الولايات المتحدة، ولكن هذه المسألة ليست محور تركيز دفاعاتها المضادة للصواريخ الباليستية". هذا ما جاء في تقرير لوزارة الدفاع الأمريكية صادر في شباط/فبراير 2010، وهو متاح على الرابط http://www.defense.gov/Portals/1/features/defenseReviews/BMDR/BMDR_as_of_26JAN10_0630_for_web.pdf.

(62) خطاب تشرشل بعنوان لا تيأسوا أبدًا، ألقاه أمام مجلس العموم في 1 آذار/مارس 1955، وهو

متاح على الرابط -http://www.winstonchurchill.org/resources/speeches/1946-1963 elder-statesman/never-despair.

(63) غروميكو يقول إن ماو أراد أن يقصف السوفييت قنبلة نووية على مجندي القوات الأمريكية Gromyko Says Mao Wanted Soviet A-Bomb Used on G.I.'s، مقال كتبه فيليب توبمان Philip Taubman في صحيفة نيويورك تايمز في 22 شباط/فبراير 1988، وهو متاح على الرابط -http://www.nytimes.com/1988/02/22/world/gromyko-says-mao-wanted soviet-a-bomb-used-on-gi-s.html?pagewanted=all.

(64) رومني يقول إن أوباما يتخذ الاتجاه الخطأ بشأن الصين Romney: Obama Going in Wrong Direction on China، تقرير صحافي لوكالة رويترز، 16 شباط/فبراير 2012، وهو متاح على الرابط -http://www.reuters.com/article/usa-campaign-china idUSL2E8DG26A20120216.

(65) موقف رومني بشأن تلاعب الصين بالعملة Romney on China's Currency Manipulation، مقال كتبه مايكل وارن Michael Warren في مجلة ويكلي ستاندارد Weekly Standard في 12 تشرين الأول/أكتوبر 2011، وهو متاح على الرابط /http://www.weeklystandard.com romney-on-chinas-currency-manipulation/article/595779.

(66) ترامب يقول لا نستطيع مواصلة السماح للصين باغتصاب بلدنا Trump: 'We Can't Continue to Allow China to Rape Our Country، مقال كتبه نِك غاس Nick Gass في مجلة بوليتيكو Politico في 2 أيار/مايو 2016، وهو متاح على الرابط /http://www.politico.com blogs/2016-gop-primary-live-updates-and-results/2016/05/trump-china-rape-america- 222689.

(67) من بين الذين استخدموا هذه الجملة لتوصيف العلاقات الأمريكية الصينية: إيان بريمّر Ian Bremmer في مقال بعنوان الصين في مواجهة أمريكا: معركة القرن China vs. America: Fight of the Century، نشر في مجلة بروسبكت Prospect في نيسان/أبريل 2010، وهو متاح على الرابط -http://www.prospectmagazine.co.uk/magazine/china-vs-america fight-of-the-century؛ ودايفد رابكن ووليام تومبسون David Rapkin and William Thompson في فصل بعنوان هل سيشجع الاعتماد الاقتصادي المتبادل الصين والهند على الصعود السلمي؟ Will Economic Interdependence Encourage China's and India's Peaceful Ascent؟ نشر في آسيا الاستراتيجية 2006–2007: تجارة واعتماد متبادل وأمن، Strategic Asia 2006-07: Trade, Interdependence, and Security، 2006؛ وجايمس دوبِّنز ودايفد غومبرت ودايفد شلاباك وأندرو سكوبِل James Dobbins, David C. Gompert, David A. Shlapak, and Andrew Scobell في الصراع مع الصين: آفاقه وعواقبه واستراتيجيات ردعه Conflict with China: Prospects, Consequences, and Strategies for Deterrence, 2011، وهو متاح على الرابط /http://www.rand.org/pubs occasional_papers/OP344.html.

الفصل العاشر

إلى أين نتجه من هنا؟

في كثير من الحالات، كان الرجال قادرين على رؤية الخطر الذي يتهددهم، لكنهم استسلموا لإغواءِ فكرةٍ قادَتْهم إلى كارثة مبرمة... بسبب حماقتهم، لا بسبب سوء حظهم.

— ثيوسيديديز، الأثينيون مخاطبين الملينين، عام *416* قبل الميلاد

ربما نكون قد خلقنا فرانكنشتاين.

— ريتشارد نيكسون

وفقًا لسيناريوات واشنطن المعتادة، يجب أن يتمحور هذا الفصل حول اقتراح استراتيجية جديدة للولايات المتحدة في تنافسها مع الصين، استراتيجية مكتملة، مزوَّدة بقائمة تفنِّد ما ينبغي عمله to-do list، لضمان علاقات سلمية ومزدهرة مع بيجين. لكن أية محاولة لإقحام هذا التحدي في ذلك القالب، من شأنها أن تبرهن على شيء واحد فقط، ألا وهو عدم فهم جوهر المعضلة التي شخَّصها هذا الكتاب.

لا تحتاج أمريكا، في هذه الآونة، إلى استراتيجية جديدة للتعامل مع الصين، أو ما يسمى استراتيجية في واشنطن هذه الأيام، بل تحتاج، بدلاً

من ذلك، إلى وقفة جادّة للتفكير. فإذا كان التغيُّر التِكْتوني الناجم عن صعود الصين يُشكِّل معضلةً ذات أبعادٍ ثيوسيديديزية أصيلة، فإن الدعوات إلى محور "أكثر صلابة" أو "أكثر قوة" لن تكون أكثر من مجرد تناول دواءٍ مُسكِّنٍ قوي المفعول لعلاج السرطان. فإذا واصلت الولايات المتحدة السير على المنوال الذي تسير عليه الآن، سوف يقارن المؤرخون في المستقبل هذه "الاستراتيجية" الأمريكية بالأوهام التي تمسَّك بها قادة بريطانيا وألمانيا وروسيا عندما كانوا "يسيرون نيامًا" إلى كارثة عام 1914.

لا يوجد ما يمكن أن يوصف بأنه "حلٌّ" للانبعاث الدراماتيكي لحضارة عمرها 5000 سنة وشعب يبلغ تعداده 1.4 مليار نسمة. إنها حالة، حالة مزمنة يجب أن يجري التعامل معها على مدى جيل كامل. ويتطلب بناء استراتيجية تتناسب مع هذا التحدي، جهدًا متعدد السنوات ومتعدد الأطياف الفكرية. جهدٌ لن يكون أقل طموحًا من النقاش الذي استمر لأربع سنوات، من برقية كينَّان المطوَّلة، إلى تقرير نيتز إلى مجلس الأمن القومي، الذي يحمل اسم NSC-68، من أجل تشكيل ما عُرِف في نهاية المطاف بـ"استراتيجية أمريكا للحرب الباردة". سوف يتطلب ذلك رؤىً ثاقبة كتلك التي كانت موجودة في عقول مَن عُرفوا في تلك الفترة بـ"القادة الحكماء". باختصار، سوف يتطلب الأمر شيئًا يتجاوز كل ما رأيناه منذ بدء عملية الانفتاح على الصين. إن هذا الكتاب يأمل في إثارة نقاش مماثل اليوم. ومن أجل هذه الغاية، يقدم هذا الفصل مجموعة من المبادئ والخيارات الاستراتيجية، لأولئك الذين يسعون للهروب من فخ ثيوسيديديز، وتجنُّب الحرب العالمية الثالثة.

البدء بالحقائق البنيوية

لقد كان بسمارك مُبالِغًا عندما وصف فن الحكم بأنه يشبه، بشكل أساسي،

الإنصات ترقُّبًا لسماع خطى الله، ثم الإمساك بطرف ثوبه، أثناء مروره، والسعي في ركابه. فإدارة الدولة هي أقرب إلى ركوب موجات التاريخ، منه إلى صناعتها. فكلما كان القادة أكثر وضوحًا في ما يتعلق بالمسارات الضمنية، كانوا أكثر مهارة في رسم منحنى ما هو ممكن.

السؤال الأول الذي يطرحه المسؤولون في واشنطن عند ظهور قضيةٍ ما هو: ما العمل؟ لكن هذا السؤال وما يتبعه مثل "لا تأخذ موقفًا فقط، بل افعل شيئًا" هو رد فعل سياسي، وليس طرحًا استراتيجيًا. فالاستراتيجية تقتضي أن يسبق التشخيصُ تحديدَ العلاج. فمن الطبيعي أن تعترض إذا بدأ الجرّاح في الإعداد لإدخالك إلى حجرة العمليات، فور سماعه عن الأعراض التي تعتريك. وبالمثل، على الرغم مما تفرضه الأزمات المتكررة من ضغوط سياسية للظهور كصاحب موقف حاسم، لا ينبغي لأي رئيس أن يأخذ على محمل الجد توصيات المستشارين السياسيين الذين لم يُثبتوا، بدايةً، أنهم يحيطون إحاطة عميقة بأبعاد التحدي الذي يواجهونه.

عندما بدأ نيكسون وكيسنجر استكشاف إمكانية الانفتاح على الصين، لم يكن أيٌّ منهما يتصوَّر أنه سيرى، وهو على قيد الحياة، أن الصين ستتمكن من خلق اقتصاد يماثل في حجمه وقوته اقتصاد الولايات المتحدة. كان تركيزهما منصبًّا على الاتحاد السوفييتي، خصم الولايات المتحدة، وكان الغرض من الانفتاح على الصين توسيع الشرخ الذي طرأ على العلاقات بين أطراف الكتلة الشيوعية، بسبب الخلاف الصيني السوفييتي. وقد نجح نيكسون في تحقيق هذا الهدف. ولكنه في أواخر أيام حياته، وتعليقًا على مجريات الأحداث في ما يتعلق بالصين، اعترف لصديقه وكاتب خطاباته السابق ويليام سافَيْر William Safire: "ربما نكون قد خلقنا فرانكنشتاين"[1].

نعم، وأي وحشٍ يمكن أن يكون هذا الفرانكنشتاين!، فخلال ثلاثة عقود ونصف، منذ أن أصبح رونالد ريغان رئيسًا للولايات المتحدة، ارتفع اقتصاد الصين، وفقًا لأفضل طرق قياس الأداء الاقتصادي، من 10 في

المائة إلى 60 في المائة من حجم الاقتصاد الأمريكي عام 2007، ثم إلى 100 في المائة عام 2014، وإلى 115 في المائة اليوم. وإذا واصل اقتصاد الصين التقدم بهذا المنوال، سوف يصبح أكبر من اقتصاد الولايات المتحدة بنسبة 50 في المائة بحلول عام 2023. وبحلول عام 2040، يمكن أن يصل إلى ثلاثة أمثال الاقتصاد الأمريكي تقريبًا[2]. وهذا يعني أن الصين يمكنها أن تستثمر ثلاثة أمثال ما تستطيع الولايات المتحدة استثماره، بغرض التأثير على اتجاهات ونتائج العلاقات الدولية.

يمكن لمثل هذه المزايا الاقتصادية والسياسية والعسكرية الهائلة، أن تخلق عالمًا يتخطى كل ما يستطيع صانعو السياسات الأمريكيون تخيُّله الآن. إن المفاهيم الأمريكية المتعلقة بالنظام الدولي، تبدأ بالصدارة العسكرية الأمريكية. لكن لماذا تمتلك واشنطن القوة العسكرية المهيمنة في العالم اليوم؟ الإجابة، لأنها استثمرت في مجال الدفاع، على مدار العقود الثلاثة الماضية، أكثر بأمثال عدة مما استثمره منافسوها مجتمعين. إن ميزانية الدفاع الأمريكية لعام 2016، تتجاوز ميزانيات الدفاع الصينية والروسية واليابانية والألمانية، مجتمعة. لماذا تمكنت الولايات المتحدة من الاحتفاظ بحق كتابة قواعد نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية؟ إن كثيرًا من الأمريكيين يرغبون في تملُّق أنفسهم بالقول إن سبب ذلك هو ذكاؤهم، أو استقامتهم، أو سحرهم الخاص، غير أن الحقيقة، التي لا شك فيها، هي أن وزن الأمة الساحق كان العامل الحاسم.

إن التحولات الهائلة في الاقتصاد العالمي تزيد من صعوبة الحفاظ على هذا النظام العالمي الذي تقوده أمريكا. ففي السنوات التي تلت الأزمة المالية في عام 2008 والركود العالمي الذي نتج عنها، أصر قادة جميع الدول على أن النمو الاقتصادي هو أولويتهم العليا. ومع ذلك، انهار معدل النمو في الاقتصادات الرئيسية في جميع أنحاء العالم. لقد أُصيب النمو في الولايات المتحدة بحالة من الركود، حيث بالكاد بلغ متوسطه 2 في المائة.

كما كانت اقتصادات الاتحاد الأوروبي أسوأ حالاً، حيث ظل إجمالي الناتج المحلي، حتى عام 2016، عند مستوى يقل عن مستوى ما قبل الركود.

واحدٌ فقط من بين الاقتصادات الرئيسية أثبت قدرته على تخطي تلك الظروف. فقد واصلت الصين، رغم انخفاض معدل نموها إبان الأزمة الاقتصادية لعام 2008، تحقيق نموٍ بمعدل يزيد على 7 في المائة سنويًا. ونتيجة لذلك، قدَّمت دولةٌ واحدة فقط، هي الصين، 40 في المائة من إجمالي النمو الاقتصادي العالمي منذ عام 2007 حتى اليوم. وهنا تجدر الإشارة إلى أن العنصر الذي ينبغي إيلاؤه الأهمية الأكبر عند المقارنة بين قوة (اقتصاد) اثنين من المتنافسين، هو النمو النسبي relative growth، لا النمو المطلق absolute growth أي، إلى أي درجة تفوق سرعةُ نمو اقتصادِك، سرعةَ نمو اقتصاد منافسك. من خلال هذه الفجوة في النمو growth gap، يبدو أداء الصين أكثر جدارة بالإعجاب. فمنذ وقوع الأزمة المالية، اتسعت فجوة النمو بين الصين والولايات المتحدة، من معدل نمو صيني تزيد سرعته على معدل سرعة مثيله الأمريكي بنحو 6 في المائة، في العقد السابق لعام 2007، إلى معدل تزيد سرعته على 7 في المائة في السنوات التي تلت 2007.

يُقال إن التحدي الأساسي في مجال فن الحكم هو إدراك "وقوع تغيُّر في البيئة الدولية، يمكن أن يمثل تهديدًا للأمن القومي، إلى حد يُحتِّم التصدي له، بغض النظر عن شكل هذا التهديد، أو ظاهره الشرعي"[3]. هل تُمثِّل الصين الأكبر والأقوى من الولايات المتحدة، تحديًا من هذا النوع؟ هل "التفوُّق العسكري" ضروري لضمان المصالح القومية الأمريكية الحيوية؟ هل يمكن للولايات المتحدة أن تزدهر في عالم تضع الصين قواعدَه وقوانينَه؟ عالم تعيد فيه الصين صياغة النظام الدولي؟ بعد أن أدركنا الحقائق الهيكلية الجديدة، لا يكفي أن نكون مستعدين لطرح أسئلة راديكالية وغير مريحة على الإطلاق، بل ينبغي أيضًا الإجابة عليها.

الاستفادة من عِبَر التاريخ

التاريخ التطبيقي Applied History هو علمٌ جديدٌ ناشئ يسعى إلى إلقاء الضوء على المآزق والخيارات الحالية، من خلال تحليل الأحداث التاريخية السابقة والمماثلة. فالمؤرخون العاديون، وهم الأغلبية، يبدأون بحدث أو حقبة، ويحاولون تقديم تقرير عما حدث ولماذا حدث. بينما يبدأ المؤرخون التطبيقيون باختيار قرارٍ أو مأزقٍ حالي، وينقِّبون في سجلات التاريخ ويحللونها، لتقديم منظور، وشحْذ الخيال، والعثور على إيحاءات تشير إلى ما قد يحدث، واقتراح تدخلات ممكنة، وتقييم النتائج المحتملة. بهذا المعنى، يمكن أن نقول إن التاريخَ التطبيقي مُشْتَقٌّ derivative، يعتمد على التاريخ بمفهومه السائد، مثل اعتماد الهندسة على الفيزياء، أو اعتماد الطب على الكيمياء الحيوية. وقد اقترحنا، زميلي نيال فيرغسون وأنا، في "مانيفستو التاريخ التطبيقي"(*)، أن ينشئ البيت الأبيض مجلسًا للمستشارين التاريخيين، مشابهًا لمجلس المستشارين الاقتصاديين[4]. واقترحنا أن تكون المهمة الأولى للمجلس، الإجابة عن ثلاثة أسئلة رئيسية حول صعود الصين.

الأول: ما هي طبيعة المنافسة الأمريكية الصينية؟ في عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية، كل شيءٍ يوصف بأنه "غير مسبوق". لكن المؤرخين التطبيقيين يسألون: هل رأينا شيئًا كهذا من قبل؟ إذا كان الأمر كذلك، فماذا حدث في الوقائع المماثلة السابقة؟ ما هي الأفكار أو القرائن التي يمكننا استخلاصها من تلك الحالات السابقة للتعامل مع القضية المطروحة؟ وبالطبع سوف يحذِّر هؤلاء المؤرخون صانعي السياسة الكثيري الانشغال، من خطر التشبيه السطحي. إن إغراء العثور على سابقة رائعة (على سبيل

(*) المانيفستو manifesto، بيان عام يحمل في الغالب معالم سياسة معيَّنة، أو يحدد أهداف مرحلة معيَّنة، أو يضع الخطوط العريضة لتحقيق سياسة معيَّنة أو أهداف محددة. وقد يجمع بين المهام الثلاث، وفي هذه الحالة يكون بيانًا موسعًا. (المُعرِّب)

المثال، صعود ألمانيا)، والاستنتاج بأن صعود الصين هو "مثل صعود ألمانيا تمامًا"، ومن ثَمَّ التحرك مباشرة لتطبيق وصفة طبية، هو في حد ذاته فخٌ. وكما كان زميلي الراحل إرنست ماي يقول ويكرر من دون كلل: إن للاختلافات أهمية لا تقل عن أهمية التشابه[5].

وفي حين أن مشاكل القرن الحادي والعشرين فريدة من نوعها (وهذا الكتاب يُقِر بأن حجم، وسرعة، ومدى صعود الصين غير مسبوق، في نواح هامة)، فإن لكل هذه المشاكل نظائر مفيدة، ليس أقلها الأمثلة الموجودة في ملف حالات فخ ثوسيديديز. وقد حذَّر هنري كيسنجر، باعتباره واحدًا من أكثر ممارسي التاريخ التطبيقي تأثيرًا، من أن "التاريخ، بالطبع، ليس كتاب طهي يقدم وصفات مُجرَّبة"، ورأى أن التاريخ يستطيع "إلقاء الضوء على عواقب الأعمال التي وقعت في مواقف متشابهة، ولكن يجب على كل جيل أن يكتشف بنفسه المواقف التي يمكن، بالفعل، إجراء مقارنة بينها"[6].

السؤال الثاني الذي يجب أن يجيب عليه مجلس البيت الأبيض هو: كيف وصلنا إلى ما نسميه الآن "التحدي الصيني"؟ إن ما نراه اليوم هو مجرد لقطة خاطفة، فماذا عن الفيلم الذي أوصلنا إلى هذه النقطة؟ إن وضْعَ التنافس الحالي في إطار منظور زمني أكثر عمقًا، يمكن أن يساعد في الكشف عن مدى تعقيد المشكلة. كما يمكن أن يُذَكِّرنا بأنه حتى عندما يتم "حل المشكلة"، ربما تظل بعض القضايا الأساسية عالقةً لسنوات قادمة. إن مراجعة تسلسل المشاهد التي وصلت بنا إلى هذه النقطة، تساعد صانعي القرار على مقاومة مَيْل الأمريكيين إلى التركيز على ما يرونه اليوم، في بحثهم عن إجابة فورية على سؤال: ماذا نفعل؟ وذلك من منطلق: دع الماضي وشأنه، وتطلع إلى المستقبل فقط.

ثالثًا: كيف تنظر الجهات الخارجية المعنية إلى تطور الأحداث ذاتها؟ لقد أشار المؤرخ البارز مايكل هاوِرد إلى أن "كل ما نؤمن به عن الحاضر، يعتمد على ما نؤمن به عن الماضي"[7]. إن صانعي السياسات لا يتوجب عليهم، فقط، فهم تاريخ القضية المطروحة قبل اتخاذ أي إجراء، بل

يجب عليهم، أيضًا، أن يحاولوا إدراك كيف يفهم نظراؤهم الأجانب ذلك التاريخ.

الاعتراف بأن الاستراتيجية الأمريكية تجاه الصين لِما بعد الحرب الباردة، تنطوي على تناقضات جوهرية

كان التحول المحوري باتجاه آسيا، الذي تبنَّته إدارة أوباما، المبادرة التي أرفقت بأكبر قدر من الطبل والزمر في مجال السياسة الخارجية الأمريكية، غير أنه لم يكن، في واقع الأمر، سوى إعادة صياغة بلاغية للاستراتيجية التي اتبعتها أمريكا تجاه الصين في ظل حكم كل من الجمهوريين والديمقراطيين منذ نهاية الحرب الباردة[8]. تُعرف هذه الاستراتيجية باسم "انْخَرِطْ ولكن تَحوَّطْ"[9]. ويكمن خلل هذه السياسة الأساسي في أنها تسمح بكل شيء، ولا تحظر أي شيء.

بيروقراطيًا، سمحت هذه العقيدة لكل إدارة حكومية بأن تتبع ميولها الطبيعية. فمن ناحية، "تنخرط" وزارتا الخارجية والخزانة في العلاقة مع الصين، وتبديان كل ترحاب بها باعتبارها دولةً عُضوًا في طبق حساء الأبجدية[*] الذي يضم عشرات الاتفاقات والمؤسسات الدولية، من التجارة والتمويل ونقل التكنولوجيا، إلى التعليم والمناخ. صحيح أن الوزارتين، في

(*) حساء الحروف الأبجدية alphabet soup، هو طبق شوربة شهير يحتوي على قطع من الباستا أو المكرونة المصنوعة على هيئة حروف أبجدية صغيرة، غالبًا ما تكون ملوَّنة. والمؤلف يستعير هنا قولًا أمريكيًا شائعًا، يصف الحكومة الفيدرالية الأمريكية بأنها طبق من حساء الحروف الأبجدية، وذلك بسبب العدد الهائل من الوكالات والهيئات التي تنضوي تحت لوائها، والتي يشار إليها في معظم الأحيان بأسماء مختصرة، تتكوّن من الحروف الأولى لكلمات اسمها الكامل مثل: CIA، و FBI، و NASA، و ASA، وغير ذلك كثير. كما أن ظاهرة إدمان المختصرات تلك، انتقلت إلى المجال الدولي، حتى أصبح من النادر أن يشار إلى معاهدة أو اتفاقية أو منظمة باسمها الكامل، فمعاهدة خفض الأسلحة الاستراتيجية START، والاتفاق العام للتعريفات الجمركية والتجارة GATT، ومنظمة الأمم المتحدة UN، ومنظمة التجارة العالمية WTO، ومنظمة الصحة العالمية WHO، وهكذا. (المُعرِّب)

بعض الأحيان، تُهاجمان الصين بسبب بعض الممارسات غير العادلة، لكن يبقى الحفاظ على العلاقات معها، أولوية قصوى بالنسبة لهما. لذلك يتجاهل المسؤولون الأمريكيون، عادة، الخداع الصيني المستمر، أو يوافقون على مطالب الصين بالحصول على شروط ميسرة باعتبارها دولة "نامية". من ناحية أخرى، "تتحوَّط" وزارة الدفاع وأجهزة الاستخبارات، فتسعى للحفاظ على التفوق العسكري، وتقوية الروابط الدفاعية مع الحلفاء والأصدقاء الرئيسيين، وتحديدًا مع اليابان وكوريا الجنوبية والهند، وتطوير الأصول الاستخبارية، والتخطيط للصراع مع عدو لا يُسمَحُ بذِكْر اسمه، تمامًا كما هو الحال مع فولدمورت(*)، ولكنها تطور لمواجهته، أنظمة أسلحة محددة وخططًا لعمليات حربية.

تتصوَّر هذه الاستراتيجية، في جوهرها، أن الصين تسير على خطى ألمانيا واليابان. وعلى غرار هاتين الدولتين، من المتوقع أن تقبل الصين مكانها في النظام الدولي، القائم على قواعد محددة، الذي تقوده الولايات المتحدة. وعندما يواجه أصحاب هذه الاستراتيجية ضغوطًا تدعوهم إلى شرح نظريتهم، يدافعون بأن الصين، عندما تصبح أكثر ثراء، سوف تحصل على حصة أكبر في النظام الدولي الذي سمح لها بذلك، وبالتالي سوف تصبح، في الوقت المناسب، "طرفًا مسؤولاً"[10]. علاوة على ذلك، عندما يصبح المواطنون الصينيون أكثر ثراءً، بسبب ثراء بلادهم، سوف يطالبون بدور أكبر في حكم أنفسهم، مما يمهد الطريق لإصلاحات ديمقراطية من النوع الذي شهدناه في اليابان، وكوريا الجنوبية، وتايوان.

خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، عندما كانت هزيمة الاتحاد السوفييتي الشغل الشاغل والتحدي الحاسم لصانعي السياسة في

(*) اللورد فولدمورت Lord Voldemort، هو الشخصية الشريرة الرئيسية، والعدو الأول للبطل، في سلسلة روايات هاري بوتر Harry Potter، والسلسلة الفيلمية التي أنتجت عنها. وقد بلغ من قوة قدرات هذه الشخصية الشريرة أن جميع شخصيات العمل تقريبًا يتحاشون ذكر اسمه، ويشيرون إليه بعبارات غير مباشرة مثل: إللي بالي بالك، أو إللي ما يتسمَّاش. (المُعرِّب)

الولايات المتحدة، كان هناك منطق معيَّن وراء جهود تقوية الصين من خلال دعم نموها الاقتصادي، بل وحتى من خلال المساعدة في بناء قدراتها العسكرية والاستخباراتية. ولكن بعد أن انتهت الحرب الباردة، واختفى الاتحاد السوفييتي في عام 1991، كان من الواجب على الاستراتيجيين الأمريكيين أن ينتبهوا إلى التحدي الأساسي الذي حذَّر منه كيسنجر، وأن يتساءلوا كيف يمكن أن تؤدي التغييرات الأساسية على الساحة الدولية إلى تقويض المصالح الأمريكية الحيوية(11). غير أن معظمهم انغمس، بدلاً من ذلك، في لفَّةِ النصر(*) victory lap، منتشين بالفوز وراغبين في التناسي. وتوالت بيانات مولد عصر جديد أحادي القطبية unipolar era، وبلاغات إشهار نهاية التاريخ، حيث سوف تتبنى جميع الدول السيناريو الأمريكي، وتتخذ أماكنها كديمقراطيات قائمة على اقتصاد السوق، داخل أُطُرِ النظام الدولي الذي صمَّمته الولايات المتحدة. وسط تفاصيل هذه اللوحة، كانت الصين الشيوعية مجرد فكرة ثانوية.

عند تقييم لي كُوان يو لاستراتيجية "انْخرِط ولكن تَحَوَّط" الأمريكية، حدَّد خللين قاتلين. أولاً، الصين ليست على وشك أن تصبح ديمقراطية، لأنها، حسبما قال بصراحة: "سوف تنهار، لو فعلت ذلك". ثانيًا، إن مقارنة الصين بألمانيا واليابان تُسْقِط حقيقة أن الأخيرتين هُزِمتا أولاً في حرب ساخنة، واحتلتهما القوات الأمريكية، وبعد ذلك حكمهما لفترة من الزمن، كبار القادة الأمريكيين الذين حتى كتبوا لهما دستوريهما. أما الصين، فهي على النقيض من ذلك، سوف تصر على "أن تُقبَل ضمن هذا النظام الدولي الجديد، باعتبارها الصين، وليس كعضو فخري في منظومة الغرب" على حد تعبير لي كُوان يو(12).

(*) تعبير دارج في عالم سباقات السرعة، خاصة في سباقات الدراجات النارية، حيث يقوم الفائز بالمركز الأول باللف حول المضمار ببطء، حتى يتسنى له تحية المشاهدين وتلَقّي تحيَّتهم. (المُعرِّب)

استعراض كافة الخيارات الاستراتيجية، بما فيها الكريهة منها

لا تستطيع "استراتيجية" (في حالتنا هذه نقصد استراتيجية "انْخرِط ولكن تحوَّط") أن تستمر على مدار ثلاث إدارات، ديمقراطية وجمهورية، إلا إذا كانت لها جذور في السياسات وفي البيروقراطية. لا أحد يشكِّك في أن إدماج الصين كانت له فوائد ضخمة للشركات الأمريكية التي استخدمت عمالاً صينيين منخفضي الأجر لإنتاج السلع، وللمستهلكين الأمريكيين الذين اشتروا هذه السلع. كما أن التحوُّط ضد هذا الخصم الكبير سمح للبنتاغون بتبرير، وتمرير، موازنة سنوية بقيمة 600 مليار دولار، وأنظمة الأسلحة الرئيسية التي ترتبط بها الخدمات العسكرية.

والسؤال هو عمَّا إذا كانت هناك بدائل استراتيجية مختلفة إلى حد كبير، يمكن أن تكون أكثر جدوى من البديل الحالي، وأفضل منه. وعلى أمل تحفيز خيال القراء، ومسؤولي الأمن القومي، وغيرهم من أعضاء المجتمع الاستراتيجي الذين يتحملون مسؤولية السياسة الأمريكية تجاه الصين، سوف نختتم هذا الفصل بتخطيطات موجزة لأربعة خيارات استراتيجية محتملة. تمتد هذه الخيارات من التكيُّف (مستعينة، في الأساس، بمؤشرات من السياسة البريطانية تجاه الولايات المتحدة خلال القرن العشرين)، إلى تغيير النظام أو حتى تقسيم البلاد (وهذا ما كانت بريطانيا لتفعله مع الولايات المتحدة، لو أنها ساعدت الكونفدرالية في الحرب الأهلية؛ وهذا أيضًا ما يعتقد البعض أن الولايات المتحدة كانت تفعله عندما شجعت أوكرانيا على الانتقال إلى أحضان الغرب). قد تبدو معظم هذه الخيارات الاستراتيجية إما فظّة أو غير حكيمة. لكنها، عند التعامل معها كحزمة واحدة، توفر للولايات المتحدة نطاقًا متسعًا من الفرص، في تصديها للصين الصاعدة.

التَكَيُّف

التَكَيُّف ليس كلمة سيئة. لكن المعارضين لها يسعون إلى الخلط بينها وبين الاسترضاء appeasement، رغم أن الكلمتين، في مجال الاستراتيجية، ليستا مترادفتين. فالتَكَيُّف هو جهد جادّ يُبذل بغرض التواؤم مع تَوازنِ قوىً جديد، من خلال تعديل في العلاقات مع منافس جدّي، للخروج بأفضل نتائج ممكنة في ظل ظروف غير مواتية، دون اللجوء إلى الوسائل العسكرية. والتَكَيُّف نوعان: تَكَيُّف أُحادي محدَّد الغرض ad-hoc، وتَكَيُّف يُتَفاوض بشأنه negotiated.

تُقدِّم السياسة البريطانية تجاه الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بعد أن خلُصت الحكومة البريطانية إلى أنها مُضطرة إلى تجنب الحرب بأي ثمن تقريبًا، نموذجًا للتَكَيُّف الأُحادي المحدَّد الغرض. ويبيِّن لنا هذا النموذج كيف يمكن تحقيق هذا النوع من التكيُّف بأمان، وبإدراك واضح للأولويات، وبطريقة تساعد القوة العظمى الناشئة على تقدير أهمية المصالح المتداخلة. فكما عرضنا في الفصل التاسع، كان تبنِّي بريطانيا لخيار الصبر والتحمُّل في مواجهة الولايات المتحدة عاملاً رئيسيًا في تجنُّب الحرب. ففي ما يتعلق بالخلافات حول بعض الأراضي في فنزويلا، على سبيل المثال، وافقت بريطانيا في نهاية المطاف على المطلب الأمريكي بأن يقبل البريطانيون التحكيم بموجب مبدأ مونرو. وبالمثل، وافقت بريطانيا على استثناء الولايات المتحدة من معيار القوة المزدوجة، الذي يُلزِم المملكة المتحدة بالحفاظ على قوات بحرية مساوية لقوات أكبر منافسيْن لها، مجتمعة.

من ناحية أخرى، يوضِّح اتفاق يالطا Yalta Agreement، الذي رسم فيه روزفلت، وتشرشل، وستالين، حدود أوروبا ما بعد الحرب، إمكانيات (ومآزق) التَكَيُّف المُتفاوَض بشأنه. ففي مؤتمر يالطا لعام 1945، قبلت الولايات المتحدة، وبريطانيا، والاتحاد السوفييتي، بشكل أساسي الأوضاع

التي فرضها الأمر الواقع العسكري على الأرض. ولأن تشرتشل وروزفلت كانا يتوقعان انتقاداتٍ علنية بأنهما قد تنازلا للسوفييت أكثر من اللازم، عمِلا على إقناع ستالين بقبول إعلان أوروبا المحررة Declaration of Liberated Europe، الذي يُلزم القوى العظمى بالسماح بإجراء انتخابات حرة، وإقامة حكم ديمقراطي في دول أوروبا الشرقية، في مقابل قبول الحدود الروسية كما كانت عام 1941، وقبول حكومة لوبلِن Lublin، التي نصَّبتها موسكو في بولندا[13]. ولكن عندما نقض ذلك الاتفاق الدكتاتورُ الذي لم يسبق له السماح بإجراء انتخابات في بلاده، وهو أمرٌ كان متوقعًا، اتُّهِم روزفلت بالخيانة.

إذا كانت الولايات المتحدة تبحث عن التَكَيُّف، فهل يمكن أن تقبل، على سبيل المثال، تقليص التزامها تجاه تايوان، مقابل تنازلات صينية في بحر الصين الجنوبي وبحر الصين الشرقي[14]؟ هل يمكن أن تتوصل الولايات المتحدة والصين إلى تفاهم حول مستقبل شبه الجزيرة الكورية، بحيث تسحب الولايات المتحدة قواتها من كوريا الجنوبية، مقابل قيام الصين بنزع أسلحة كوريا الشمالية النووية، والاعتراف بشبه الجزيرة دولةً موحدةً، تحكمها سيول؟ هل يمكن أن تعترف الولايات المتحدة بمجال النفوذ الصيني، الموجود فعلاً وواقعًا، حول حدودها؟

التقويض

إن أية استراتيجية لإحداث تغيير في نظام الدولة، أو حتى تأليب أقاليمها بعضها ضد بعض، تتطلب من القادة في واشنطن أن يوسِّعوا خيالهم. إذا ما سعت الولايات المتحدة إلى تقويض منافستها الصاعدة، فما هي الوسائل التي يمكن أن تستخدمها؟ هل تُشكِّك علانية في شرعية الحزب الشيوعي الصيني، على طريقة رونالد ريغان عندما وصف الاتحاد السوفييتي، عام 1983، بإمبراطورية الشر؟ قد لا يكون هذا تصرفًا متطرفًا كما يبدو.

فالزعماء الصينيون، كما يقول كيفين رود، يؤمنون، منذ زمن طويل، بأن واشنطن لن تعترف أبدًا بشرعية الحزب الشيوعي[15]. فلماذا إذًا التظاهر بعكس ذلك؟ وإذا كان القادة الأمريكيون يذهبون بعيدًا، إلى حد إعلان معارضتهم الأساسية للحكومة الصينية، فلماذا لا يَخْطون خطوة أخرى ويحاولون القيام بشيء حيالها؟

من الواضح أن الشيوعية قد انكشفت كنوع من الاحتيال في كل بلد جرَّبتها. لماذا يجب أن تحكم مجموعةٌ صغيرة لا تزال تدعو نفسها بالشيوعيين، 1.4 مليار مواطن[*]؟ هل المواطنون الصينيون أقل استحقاقًا لحقوق الإنسان، التي نصَّ إعلان استقلال أمريكا على أنها هبة من الله، لجميع الناس؟ وإذا كانت الديمقراطية هي أفضل أشكال الحكم عند جميع الدول، فلماذا لا تكون كذلك بالنسبة إلى الصين؟ نحن نعلم، عن تجربة، أن الشعب الصيني بارع في ممارسة الديمقراطية: لقد أقام 23 مليون شخص فرُّوا من ماو، ديمقراطيةً ناجحةً في تايوان، مع اقتصاد قائم على السوق، كان ليضعها في عِداد الثلث الأفضل اقتصاديًا، من بين الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، لو اعترف العالم بها دولةً مستقلة. لقد أيدت الولايات المتحدة حق الإسكتلنديين في إجراء اقتراع حر على إعلان الاستقلال عن المملكة المتحدة، كما أيدت الكوسوفيين عندما انفصلوا عن صربيا. فلماذا لا تفعل بالمثل، وتؤيد استقلال التيبت وتايوان، كخيط من خيوط استراتيجية تهدف إلى تقسيم الصين، وإضعاف معنويات النظام في بيجين؟ لا شك في أن الصين سترِدُّ بعنف على مثل هذه الخطوات. لكن استبعاد هذا الخيار، يمثل تجاهلاً لسجل الولايات المتحدة الطويل في دعم حركات الاستقلال[**] رغم اعتراضات الخصوم، ويفقدها النفوذ.

(*) وصل عدد أعضاء الحزب الشيوعي الصيني عام 2016 إلى 89 مليون و450 ألف عضو، من بينهم 22 مليون و98 ألف امرأة. ووفقًا لهذه الأرقام الرسمية، يمثل عدد أعضاء الحزب نحو 6.4 في المائة من تعداد سكان الصين. (المُعرِّب)

(**) سجِلّ الولايات المتحدة الطويل في دعم حركات الاستقلال؟ بل سجِلّ الولايات المتحدة الطويل في "دعْس" حركات الاستقلال، وسحقها، أو على الأقل، محاولة ذلك، واسألوا إيران مصدِّق،

تضم الصين الآن أكبر عدد من مستخدمي الإنترنت في العالم. وتسمح الهواتف الذكية للصينيين برؤية العالم الخارجي (داخل إطار تحدده الحكومة)، وهو ما تفعله، أيضًا، السياحة، وتعليم أبناء النخبة الوليدة في الخارج. فالمواطنون الصينيون، عندما يُمنحون حق الاختيار، يمارسون حرية الوصول إلى أي موقع إلكتروني يختارونه، ويشترون ما يريدون، ويسافرون إلى حيث يرغبون. وهنا، تستطيع واشنطن الاستفادة من هذا الحب الوليد للحرية السياسية. لقد شنَّت الولايات المتحدة، خلال الحرب الباردة، حملات علنية وسرية، لتقويض شرعية الحكومة السوفييتية، وهدْم أساسها الأيديولوجي. ويستطيع صانعو السياسة الأمريكية اليوم أن يجدوا في سجل أحداث تلك الفترة الكثير مما يمكن أن يساعدهم على إحداث تغيير في النظام في الصين. يمكن للولايات المتحدة، على سبيل المثال، أن تستخدم قدراتها السيبرانية لسرقة تقارير تتضمن حقائق مدمِّرة عن انتهاكات جرت في الماضي، وأخرى تجري في الحاضر، ثم تسريب تلك التقارير، عن طريق طرف ثالث، إلى الداخل الصيني، لتكشف، على سبيل المثال، كيف أصبح قادتها الحاليون أثرياء(*). كما تستطيع الولايات المتحدة زرع وتشجيع الجماعات المنشقة في الصين، كما فعلت في الدول الأوروبية التي كان

وكوبا كاسترو، ومصر عبد الناصر. أما إذا كنتم ممن لا يستهويهم التاريخ، يكفي أن تسألوا الشعب الفلسطيني. (المُعرِّب)

(*) يُسجَّل تناقض واضح بين ما يقوله الكاتب هنا وما قاله في جزء سابق من هذا الكتاب. كيف ينصح الكاتب الحكومة الأمريكية باستغلال ثراء القادة، لهدم نظام يقول عنه، حرفيًا، في الفصل الأول من هذا الكتاب: "لم تتوقف آثار النمو الاقتصادي الصيني عند حد انتشال مئات الملايين من ضائقة الفقر فقط، لكنه أدى إلى ظهور طبقة جديدة، تضم عددًا غير عادي من المليونيرات والمليارديرات. ويكفي أن نعرف أن الصين قد تجاوزت الولايات المتحدة، لتصبح منذ عام 2015 الدولة التي تضم بين سكانها أكبر عدد من المليارديرات، وهي تضيف الآن إلى تلك القائمة مليارديرًا جديدًا كل أسبوع".... "لقد اشترى المتسوقون الصينيون، عام 2015، نصف ما بيع في العالم كله من السلع الكمالية الباهظة الثمن"... "إن شركات مثل سوثبي Sotheby وكريستي Christie، لم تعد تعقد مزادات معروضاتها الباهظة الثمن في نيويورك ولندن، بل في بيجين وشنغهاي". (المُعرِّب)

الاتحاد السوفييتي يحتلها، أو كما فعلت في الاتحاد السوفييتي نفسه، خلال الحرب الباردة. كما يمكن استغلال الصينيين الذين يدرسون في الولايات المتحدة، والذين انتقلت إليهم، بشكل طبيعي، عدوى مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان وسيادة القانون، وتشجيعهم على التحرك للمطالبة بالتغيير السياسي، عندما يعودون إلى الصين(*).

وفي خيار متطرف، يمكن أن تدرِّب القوات الأمريكية المتمردين الانفصاليين، وأن تدعمهم بشكل سري. فالانشقاقات داخل الدولة الصينية موجودة بالفعل. التيبت هي، في الأصل، أرض محتلة. وشين جيانغ منطقة إسلامية تقليدية في غرب الصين، تؤوي بالفعل حركة الانفصاليين اليِغور Uighur، المسؤولة عن شن عمليات تمرد محدودة المدى ضد بيجين. بينما لا يحتاج التايوانيون، الذين يشاهدون طغيان بيجين في هونغ كونغ، إلى التشجيع على معارضة إعادة التوحيد مع هذه الحكومة التي تزداد تسلطًا. هل يمكن للدعم الأمريكي لهؤلاء الانفصاليين أن يُقحم بيجين في صراعات مع الجماعات الإسلامية المتطرفة في جميع أنحاء آسيا الوسطى والشرق الأوسط؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن أن تصبح هذه المواجهات مُسْتنقعًا يماثل التدخل السوفييتي في أفغانستان، حيث استنزف "المجاهدون" المدعومون من الولايات المتحدة الاتحاد السوفييتي؟

إن جهدًا خفيًا ومركَّزًا، يسعى لإبراز التناقضات في قلب الفكر الشيوعي الصيني، وكشف محاولات الحزب لقمع المطالب المتزايدة للمواطنين بالحرية، يستطيع، مع مرور الوقت، أن يُقوِّض النظام، وأن يشجع حركات الاستقلال في تايوان، وشين جيانغ، والتيبت، وهونغ كونغ. إن تشتيت الصين وتقسيمها داخليًا، وإغراق بيجين في محاولات الحفاظ على

(*) إذا كان الكاتب يرى أن قيمًا مثل الحرية وحقوق الإنسان وسيادة القانون هي أمراضٌ تنتقل بالعدوى عن طريق المخالطة أو المعايشة، يجب عليه ألا ينسى أن جهاز المناعة الأيديولوجي لدى المواطن الصيني الذي يتعلم في أمريكا، يحميه من تلك العدوى، خاصة إذا كان هذا المواطن، كما قال المؤلف بنفسه، ابن الصفوة الجديدة، أي ابن مَن استفادوا من النظام الحاكم، وبالتالي لا مصلحة لهم في التحريض عليه. (المُعرِّب)

الاستقرار الداخلي، يُمَكِّنُ الولايات المتحدة من أن تتجنب، أو على الأقل أن تؤخر إلى حدٍ كبير، تحدي الصين للهيمنة الأمريكية.

التفاوض على سلامٍ طويل الأمد

لو طُرِحت مسألة السلام الطويل الأمد للتفاوض، لربما استطاعت الولايات المتحدة والصين التوصل إلى هدنة لمدة ربع قرن، تُفرَض خلالها قيودٌ قويةٌ على بعض مجالات التنافس بينهما، ليتفرغ كلٌ منهما للبحث عما فيه مصلحته في مجالات أخرى. فمنذ الاتفاق الذي وقعه بريكليس مع الأسبرطيين عام 445 قبل الميلاد، الذي أسفر عن ثلاثين عامًا من السلام، إلى الانفراجة السياسية الأمريكية السوفييتية في السبعينيات من القرن العشرين، وجد المتنافسون، عبر التاريخ، طرقًا كثيرة لقبول ظروف غير محتملة (لكنها غير قابلة للتغيير مؤقتًا) من أجل التركيز على أولويات أكثر إلحاحًا، لا سيما في ما يتعلق بشؤونهم الداخلية.

لقد عكس استعداد نيكسون وكيسنجر للتفاوض على مجموعة من الترتيبات التي أنتجت ما وصفته الحكومتان الأمريكية والسوفييتية بـ "الانفراجة"، إحساسهما بأن الولايات المتحدة تحتاج إلى فُسْحة من الوقت لإصلاح الانقسامات الداخلية التي أحدثتها حرب فيتنام، وحركة الحقوق المدنية. من بين تلك الترتيبات، معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية SALT، التي جمدت عملية تكديس القذائف النووية المُدمِّرة، ومعاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية ABM، التي تلزم كل منافس بالتخلي عن دفاعاته المضادة لصواريخ الخصم، وبالتالي الموافقة على وضعٍ يترك مجتمعه عرضة للتدمير من جانب الآخر؛ واتفاقات هلسنكي Helsinki Accords، التي شرّعت تقسيم أوروبا. وكما أوضح كيسنجر، كان الترابط المتزامن linkage أحد العناصر الحاسمة في تحقيق تلك الانفراجة. فقد ربطت الولايات المتحدة تنازلاتها بشأن القضايا التي تهم الاتحاد

السوفييتي، مثل الاعتراف بألمانيا الشرقية، بما تبديه موسكو من ضبط للنفس تجاه القضايا التي تعتبرها واشنطن مهمة، بما في ذلك حرية الوصول إلى برلين الغربية، والتغاضي عن التصعيد الأمريكي لحملة قصف فيتنام.

كانت التكلفة السياسية لتلك الترتيبات باهظة، حتى أن المحللين لا يزالون منقسمين بشأن مزاياها. فالبعض يشيد بدور هذه الترتيبات في إقامة نظام دولي جديد، تخلت فيه كل من موسكو وواشنطن عن طموحاتها بالإطاحة بنظام الأخرى. غير أن آخرين يرون أن ما فعلته هذه الترتيبات، في المقام الأول، هو أنها اشترت مزيدًا من الوقت، لإظهار مَنْ مِنَ المجتمعَين ونظامَي الحكم، أكثر تفوُّقًا. غير أن مؤيدي وجهة النظر الثانية، الذين انضموا إلى إدارة ريغان عام 1981، لم يجدوا غضاضةً في التفاوض على اتفاقيات أخرى مع القادة السوفييت، في الوقت الذي كانوا يسعون فيه إلى تقويض نظام إمبراطورية الشر[16].

تواجه الحكومتان الصينية والأمريكية في المرحلة الحالية من التنافس بينهما، مطالب داخلية مُلِحّة. فقد أظهرت الصين، على مدار التاريخ، انطلاقًا من وجهة نظرها بأن التطور عملية تجري وتكتمل على مدار عقود وقرون، بدلاً من الأيام والشهور، قدرةً على تنحية المشاكل جانبًا لفترات طويلة، كما فعلت في عملية التوصل إلى بيان شانغهاي عام 1972، الذي نحى قضية تايوان جانبًا، أو في عام 1978 عندما اقترح دنغ شياو بينغ على اليابان تجميد النزاعات حول الجزر في بحر الصين الشرقي لجيل كامل[17]. على الجانب الآخر، يبدو الأمريكيون أقل صبرًا. ومع ذلك، فإن قائمة التفاهمات المحتملة طويلة ومثمرة: معاهدة لتجميد النزاعات في بحر الصين الجنوبي وبحر الصين الشرقي، وأخرى لتأكيد حرية الملاحة لجميع السفن في المياه الدولية كلها، وثالثة للحد من الهجمات السيبرانية على النطاقات المتفق عليها واستبعاد غيرها (على سبيل المثال البنية التحتية الحيوية)، ورابعة لمنع أشكالٍ معينة من تدخل إحدى الدولتين في السياسات الداخلية للدولة الأخرى.

وكما كان الحال خلال انفراجة الحرب الباردة، يمكن للولايات المتحدة والصين الربط بين القضايا، للتوصل إلى اتفاقات تعطي كلاً منهما المزيد في القضايا التي ترى أنها أكثر أهمية بالنسبة لها من غيرها. على سبيل المثال، يمكن أن توافق الولايات المتحدة على تخفيف انتقاداتها لانتهاكات حقوق الإنسان في الصين، بإيقاف نشر التقرير السنوي لوزارة الخارجية عن حقوق الإنسان فيها، وأن توقف الاجتماعات الرفيعة المستوى مع الدالاي لاما، في مقابل تغليظ القيود المفروضة على ممارسة الصين للتجسس بهدف تحقيق مكاسب اقتصادية. وإذا كانت بيجين مستعدة لإزالة الصواريخ المضادة للصواريخ، والصواريخ المضادة للسفن، من الجزر التابعة لها في بحر الصين الجنوبي، يمكن أن تُحِدّ واشنطن من عمليات المراقبة التي تجريها على طول حدود الصين، خاصة بالقرب من المنشآت العسكرية الصينية في جزيرة هاينان، وهو أمر يطالب به القادة الصينيون منذ فترة طويلة. كما يمكن أن توافق الصين على إنهاء الدوريات المنتظمة التي تقوم بها بالقرب من جزر سينكاكو في بحر الصين الشرقي، في مقابل موافقة الولايات المتحدة على إيقاف عمليات الاستكشاف والملاحة الاستفزازية في بحر الصين الجنوبي. تستطيع الولايات المتحدة، أيضًا، أن تقترح على الصين أن تجمد إنشاء الجزر في بحر الصين الجنوبي، وأن تقبل فرض حدودٍ لعملية تحديث أسطول غواصاتها وأسلحتها المضادة للأقمار الصناعية، وأن تُحِدَّ من قدراتها الحربية البرمائية، مقابل قيام الولايات المتحدة بإبطاء تطوير منظومة الأسلحة التقليدية المعروفة باسم الضربة العالمية الفورية(*) Prompt Global Strike، أو حتى إيقافها، وتأخير

(*) منظومة تعتمد على أسلحة هجوم تقليدية موجهة بدقة فائقة، تستطيع الوصول إلى أي مكان في العالم، خلال ساعة واحدة من اكتشاف تهديد جدّي صادر عن تلك المنطقة المستهدفة. تتضمن تلك المنظومة صواريخ أرض-أرض، وصواريخ تطلقها الطائرات، وأخرى تنطلق من الغواصات، وجميعها تسافر بسرعة تفوق سرعة الصوت. ولمعرفة قيمة تلك المنظومة، يكفي أن نشير إلى أن توجيه ضربة باستخدام ما يُعرف بوحدات الاستكشاف الجوي، يحتاج إلى 48 ساعة، وأن توجيه ضربة تشارك فيها المجموعات القتالية التابعة لحاملات الطائرات، يحتاج إلى 96 ساعة. كل هذه الساعات الطويلة، تختصرها المنظومة الجديدة في ساعة واحدة فقط. لمزيد

نشر أنظمة الدفاع الصاروخية المتقدمة على أراضي كوريا الجنوبية واليابان أو إزالة ما هو قائم منها، والاعتراف بالسيادة الصينية على جزر باراسيل. كما يمكن أن تُحِدّ الولايات المتحدة من مبيعات الأسلحة لتايوان، أو حتى أن توقفها، وأن تسحب بعض قواتها من كوريا الجنوبية، إذا ما أجبرت الصين بيونغ يانغ على عدم إجراء اختبارات أخرى للأسلحة النووية والقذائف البعيدة المدى[18].

إعادة تعريف العلاقة

في عام 2012، اقترح شِي جينْ بينغ على الرئيس أوباما أن يتشاركا في اختراع "شكلٍ جديدٍ من أشكال العلاقات بين القوى العظمى"، تحترم بموجبه كلٌ من الولايات المتحدة والصين المصالح الجوهرية للطرف الآخر. ويعني احترامُ المصالح الجوهرية بالنسبة لشِي، أن يحترم كل طرف مجال النفوذ الفعلي للطرف الآخر، علمًا بأن نفوذ الصين في نظره، لا يشمل تايوان والتيبت فحسب، بل أيضًا مطالب الصين الإقليمية في بحر الصين الجنوبي. وقد رفضت إدارة أوباما اقتراح شِي برُمتِّه، لعدم رغبتها في قبول تلك الشروط، وبالمثل، لم يكترث الرئيس ترامب للاقتراح[19]. ومع ذلك، يمكن للولايات المتحدة أن تقترح مفهومًا خاصًا بها، عن "شكلٍ جديدٍ من أشكال العلاقات بين القوى العظمى".

في السنوات الأخيرة من الحرب الباردة، وخلال نزهة خاصة سيرًا على الأقدام، جمعت الرئيسين ريغان وغورباتشوف ومترجميهما، دون غيرهم، بادر الرئيس ريغان بطرح سؤال: إذا تعرضت الأرض لغزو مُعادٍ شنَّه سكان المريخ، فكيف يرد الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة[20]؟

من المعلومات يمكن مراجعة الوثيقة التالية، التي صدرت عن مركز الأبحاث التابع للكونغرس الأمريكي، في 6 نيسان/أبريل 2018، أي أثناء إعداد النسخة العربية من الكتاب للطبع: https://fas.org/sgp/crs/nuke/R41464.pdf. (المُعرِّب)

في البداية، أساء المترجم الروسي فهم سؤال ريغان، فأثارت ترجمته الدهشة: هل كان ريغان يخبر غورباتشوف أن المريخيين قد غزوا الأرض للتو؟ وبعد إزالة اللبس الذي حدث، أتْبَع ريغان سؤالَه بما يوضحه. لقد كان هدفه التأكيد على المصالح الجوهرية التي يتقاسمها الطرفان، رغم ما بينهما من خصومة قاتلة.

إذا حذونا حذو ريغان، هل تواجه الولايات المتحدة والصين اليوم تهديداتٍ مشابهةٍ لغزوٍ تشنُّه كائنات فضائية، وهي تحديات شديدة الخطورة، إلى درجة تجبر الطرفين على العمل معًا؟ الإجابة بـ"نعم" على هذا السؤال لا تتطلب أيَّ عناء. فهناك أربعةُ "تهديدات هائلة" تفرض نفسها على ما عداها من تهديدات: الأرماغدُّون النووي (الحرب العالمية النووية)؛ والفوضى النووية؛ والإرهاب العالمي، لا سيما ما تهدد به الجماعات الجهادية الإسلامية؛ والتغيُّرات المناخية. ويبدو واضحًا أن في مواجهة كل تهديد من تلك التهديدات، تكون المصالح الوطنية الحيوية التي تتقاسمها القوتان، أكبر بكثير جدًا من تلك التي تفرق بينهما.

وبسبب المنطق الذي لا مفر منه لفكرة التدمير المتبادل المؤكَّد، إذا انزلقت الولايات المتحدة والصين إلى حرب تستخدمان خلالها كامل ترسانتيهما النوويتين، سوف تُمحى الدولتان من الخريطة. ولذلك فإن المصلحة الحيوية العليا لكل منهما تحتِّم تَجنُّبَ مثل هذه الحرب. علاوة على ذلك، يجب أن تتوصل الدولتان إلى مجموعة من التوافقات والضوابط، التي تجنبهما تكرار لعبة الدجاج، التي قد تؤدي، دون قصد، إلى هذه النتيجة المرعبة.

تشكل الفوضى النووية، في حد ذاتها، تهديدًا هائلاً. فإذا ما حصلت دول كثيرة على ترسانات نووية كبيرة، يمكن أن يتحول بعض النزاعات التقليدية إلى نزاعات نووية وأن يجد بعض الأسلحة النووية طريقه إلى أيدي جماعات إرهابية. إن أية حرب نووية بين الهند وباكستان، يمكن أن تقتل مئات الملايين، وأن تتسبب في كارثة بيئية عالمية. كما أن قيام كوريا

الشمالية ببيع قطعة سلاح نووي إلى أحد مُتَحوِّلات(*) (طفرات) mutations إرهابيي القاعدة أو شين جيانغ، وتفجير هذه القطعة في نيويورك أو بيجين، من شأنه أن يغيِّر عالمنا بشكل جذري.

لقد فطِن الرئيس كينيدي هذا التهديد عام 1963، متنبئًا بأن مع حلول السبعينيات سوف يصبح عدد الدول التي تمتلك أسلحة نووية من خمس وعشرين إلى ثلاثين دولة. ولأنه أدرك ما يعنيه ذلك بالنسبة لبقاء أمريكا ورفاهيتها، أطلق عددًا من المبادرات التي تركزت حول معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية(21) Non-Proliferation Treaty. وقد أسهمت هذه الجهود في تغيير قوس التاريخ arc of history هذا(**). فاليوم تسع دول فقط، لا خمس وعشرون ولا ثلاثون، تمتلك أسلحة نووية(***). وبفضل التعاون

(*) مصطلح علمي يقصد به التغيرات التي تطرأ على بنية الجين، مما يؤدي إلى ظهور شكل مختلف لكائن ما، وهي تغيرات تتسم بالديمومة، حيث تنتقل وراثيًا إلى الأجيال اللاحقة لهذا الكائن. من أبرز إنجازات هذه العملية، قدرة المتخصصين في علم الوراثة على استنباط مجموعة من طيور الزينة، الببغاوات وما دونها، تحمل ألوانًا أكثر ثراءً وتنوعًا من الألوان الأصلية للطائر. والمقصود بمُتحولات أو طفرات تنظيم إرهابي التنظيمات التي تنبثق عن التنظيم الأصلي، كما انبثقت داعش عن القاعدة. وكما يكون الطائر المتحول أكثر جمالاً من الأصل الذي ينحدر منه، يكون التنظيم المتحول أكثر خطورة وتطرفًا من مصدره الأصلي. (المُعرِب)

(**) يقتبس المؤلف هنا تعبيرًا بليغًا استخدمه لأول مرة بطل الحقوق المدنية الشهير، الزعيم الأمريكي مارتن لوثر كينغ Martin Luther King، عندما قال: إن القوس أو المنحنى الأخلاقي للكون طويل، لكنه يميل باتجاه العدالة the arc of the moral universe is long, but it bends towards justice. وبينما يعبِّر القوس عن صعود يعقبه هبوط، يعبِّر قوس كينغ عن هبوط يعقبه صعود، وهنا وجه بلاغة عبارته. (المُعرِّب)

(***) يحدد الكاتب عدد الدول التي تمتلك أسلحة نووية بتسع دول، لكنه عند التفصيل يكتفي بذكر ثلاثة فقط من الأعضاء الأربعة الجدد في النادي النووي، متجاهلاً الإشارة إلى الكيان الصهيوني، رابع هؤلاء الأعضاء. لقد شكل ذلك الكيان أول حالة خرق للقاعدة التي قصرت امتلاك الأسلحة النووية على الدول الخمس التي سُمِح لها بامتلاكها بموجب معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية. ريتشارد هاس يستخلص من تلك الحقائق أن "الدعم الدولي لفكرة تجنُّب انتشار مزيدٍ من أسلحة الدمار الشامل والأسلحة النووية كان قويًا من حيث المبدأ، ضعيفًا من حيث التطبيق العملي". ويضيف هاس أن ذلك الخرق غير المعلن، تحوَّل إلى أمر واقع في أواخر الستينيات، رغم أنه لم يكن سوى معلومة ظنيّة، "حيث تجنبت إسرائيل الاعتراف علانية بامتلاك سلاح نووي، حتى لا تجد نفسها أكثر عزلة على الصعيد الدولي،

الذي أبدته كل من الصين وروسيا، نجحت المفاوضات في كبح طموحات إيران النووية وتجميدها لعقد أو أكثر. ومع ذلك، فإن تزايد الأسلحة والمواد النووية، لا سيما في كوريا الشمالية وباكستان، يزيد بشكل كبير من خطر الإرهاب النووي. وفي هذا الصدد، لا توجد دولة أكثر قدرة من الولايات المتحدة والصين على مجابهة هذه التحديات، خاصة إذا عملتا في إطار من تنسيق الجهود، وإذا نجحتا في إقناع روسيا بالانضمام إليهما. إن حل مشكلة تهديدات الانتشار النووي التي تطرحها كوريا الشمالية وباكستان، سيقلل ليس فقط من خطر الإرهاب النووي، بل أيضًا من الانتشار النووي الرسمي في دول مثل كوريا الجنوبية واليابان. فإذا فشلت الولايات المتحدة والصين في القيام بذلك، علينا أن نتوقع انفجار قنبلة نووية في مدينة مثل مومباي، أو جاكرتا، أو لوس آنجلوس، أو شنغهاي، في مرحلة ما من حياتنا[22].

بالإضافة إلى ما تقدم، هناك أنواع أخرى من الإرهاب الهائل، تُشكِّل تهديدات أقل، لكنها تظل تهديدات غير عادية، بالنسبة للولايات المتحدة والصين. لقد كان التكامل بين الهندسة والفيزياء، القوة الدافعة وراء التطورات التكنولوجية التي شهدها النصف الثاني من القرن العشرين، وهي التطورات التي أنتجت كل شيء من شريحة الكمبيوتر والإنترنت، إلى القنبلة النووية. يقابل ذلك في القرن الحادي والعشرين، التكامل بين الهندسة وعلم الجينوم genomics والبيولوجيا التخليقية synthetic biology، وهو تكامل لم يوفر لنا، فقط، الأدوية الإعجازية لعلاج سرطانات معينة، بل أقحم أيضًا

وحتى لا تقدِّم للدول العربية مبررًا منطقيًا للسعي بدورها وراء امتلاك أسلحة نووية. لقد كانت هناك رغبة لدى الولايات المتحدة وأوروبا في أن تغضَّ الطرف عن تلك الحقيقة، من منطلق أن الدول العربية لم تقبل حق إسرائيل في الوجود، ناهيك عن العيش في سلام، ومن ثم كانوا ينظرون، الولايات المتحدة وأوروبا، إلى الأسلحة النووية باعتبارها الحارس المطلق للدولة اليهودية". للتفاصيل يمكن مراجعة "عالمٌ في حيص بيص"، تأليف ريتشارد هاس، تعريب وتقديم إسماعيل بهاء الدين سليمان، الصادر عام 2017، عن دار الكتاب العربي في بيروت. (المُعرب)

على حياتنا الأسلحة البيولوجية، التي يمكن أن يستخدمها عالِمٌ واحدٌ مارقٌ، ليقتل، بمفرده، مئات الآلاف من البشر[23]. لقد قدمت لنا الطبيعة، بنفسها، لمحة مسبقة عن هذا الخطر، من خلال وباء سارس SARS عام 2003، ووباء إيبولا في أفريقيا عام 2014. ولنتصور معًا، الآن، إرهابيًا ينجح في أن يُخَلِّق داخل مختبر للتكنولوجيا الحيوية، فيروسًا أو ميكروبًا مسببًا لجيل جديدٍ من الجدري قادر على مقاومة المضادات الحيوية، ويطلقه في مطار في كونمينغ Kunming، أو شيكاغو Chicago. لن تستطيع أي من الدولتين مواجهة هذا الخطر بمفردها، حيث لا غنى مطلقًا عن التعاون المكثف، من خلال التبادل الثنائي للمعلومات الاستخبارية، والمنظمات المتعددة الأطراف مثل الإنتربول، ووضع المعايير العالمية للمواجهة[24].

رابع فرسان قوى الشر في معركة نهاية العالم الكارثية المرتقبة، هو تواصل انبعاث غازات الاحتباس الحراري، إلى أن يُصْبح المناخ العالمي غير متوافق مع الوجود البشري الطبيعي. لقد حذر العلماء من أننا قد نشهد، عندما تصل غازات الاحتباس الحراري إلى 450 جزءًا في المليون، زيادة قدرها 3 درجات فهرنهايت في متوسطات درجات الحرارة العالمية، مما يتسبب في آثار بيئية كارثية. وفي مواجهة هذه الكارثة التي تتحرك ببطء، لا يوجد ما يمكن لأي من الولايات المتحدة أو الصين القيام به منفردة، داخل حدودها. وحتى لو بادرت الصين والولايات المتحدة، اللتان تشكلان المصدرين الرئيسيين للانبعاثات الكربونية، إلى تخفيض انبعاثات الكربون الخاصة بهما إلى صفر، فلن يسفر ذلك إلا عن ترحيل تأثير الاحتباس الحراري على المناخ العالمي لعدة سنوات، إذا ما بقيت معدلات الدول الأخرى ثابتة على ما هي عليه. وقد اعترف الرئيسان شِي جينْ بينْغ وباراك أوباما بهذه الحقيقة عند صياغة الاتفاق الثنائي بينهما، الذي مهد الطريق لتوقيع اتفاقية باريس عام 2016، التي تلزم الدول بأن تضع سقفًا لانبعاثات الكربون بحلول عام 2030، وأن تبدأ في تخفيضها بعد ذلك. وبينما يحتفل العالم بهذا الاتفاق، وهو احتفال في محله، تبرز حقيقتان قاسيتان: أولاً، مع الاستمرار في استخدام التقنيات الحالية، يبدو

تحقيق هذين الهدفين أمرًا مستحيلاً. ثانيًا، حتى لو أوفت جميع الدول بتعهداتها، سوف يزداد الاحتباس الحراري سوءًا (وإن كان بمعدل أبطأ مما لو لم نفعل شيئًا)[25]. إن الولايات المتحدة والصين، أكبر اقتصادين في العالم، تتحملان مسؤولية قيادة دول العالم نحو مخرج من هذه الأزمة الوجودية، خاصة أنهما تمتلكان القدرة والنفوذ على أداء ذلك الدور.

قد تبدو هذه التحديات الأربعة مروِّعة، بل وربما يبدو التغلب عليها أمرًا مستحيلاً. لكن، لحسن الحظ، تتوفر مجموعة من الفرص المربِحة لكل الأطراف، التي تثبت أهمية التعاون، وتُحَفِّز الولايات المتحدة والصين على الارتقاء إلى مستوى التهديدات الهائلة التي تواجه العالم. لقد أنتجت التجارة والاستثمار على مستوى العالم، دون شك، كعكة هائلة الحجم، تمتلك كل من الدولتين نصيبًا كبيرًا منها. إن النقاش الدائر حول كيفية تقسيم هذه الكعكة بينهما، وفي ما بين الدول الأخرى، ثم على المجتمعات المختلفة داخل الدولتين، يزداد حدَّة يومًا بعد يوم. لم يعد أحدٌ يدعم فكرة التكامل الاقتصادي، خاصة وأن المزيد والمزيد من الناس يعتقدون أن العولمة قد أدارت لهم ظهرها(*)، الأمر الذي يغذي موجات الشعبوية، والقومية، وكراهية الأجانب. وعلى الرغم من الاختلافات الكثيرة بين الولايات المتحدة والصين، تجمعهما مصلحة مشتركة في إدارة هذه القوى الصاعدة، وضمان أنها لن تؤدي إلى تفكيك نسيج الاقتصاد العالمي.

وثمة قوة أخرى أكثر تفلُّتًا ولكنها حقيقية، وهي الوعي المتنامي في أوساط "المليار الذهبي"(**) الأكثر نشاطًا من بين قاطني الكرة الأرضية.

(*) وهو، للأسف، أكثر قبحًا من وجهها! (المُعرِّب)

(**) مصطلح اقتصادي مثير للجدل، يقصد به في الأصل تلك الشريحة من البشر، الذين يستهلكون نصيب الأسد من موارد العالم وثرواته. وفي حين ينتشر هذا المصطلح في الدراسات الاقتصادية الروسية، وفي دول ما كان يعرف بالكتلة الشرقية، يندر العثور عليه في أدبيات الاقتصاديين الغربيين. ينطلق المصطلح، بشكل غير مباشر، من نظرة ديمغرافية تشاؤمية قديمة، كان أصحابها يؤمنون أن العالم تحت أي ظرف من الظروف، لن يكون قادرًا على إنتاج طعام يكفي لأكثر من مليار نسمة. (المُعرِّب)

فهؤلاء يشتركون في مجموعة من التصورات والمعايير والممارسات، بدرجة لم يسبق لها مثيل في التاريخ. لقد قلَّصت شبكات الاتصالات المنتشرة في كل مكان، مساحةَ الكرة الأرضية، مما سمح للنُخب في كل مكان بأن تكون على دراية بكل شيء، وبشكل فوري تقريبًا. فالهواتف الذكية تجلب الصور والكلمات من كل ركن من أركان الأرض. والانفجارات، والأعاصير، والاكتشافات، التي تقع في أي مكان، تؤثر في وعي البشر، في كل مكان. وتجربة السفر إلى الدول الأخرى، التي لا تقوم بها النخبة فقط، ولكن أيضًا مواطنون عاديون، هي الآن ظاهرة شائعة. فحوالي 800 ألف من أفضل وأذكى المواطنين الصينيين، يتلقون تعليمهم في الخارج، من بينهم 300 ألف يدرسون في الولايات المتحدة. ولنتوقف قليلاً لنتأمل حقيقة أن الرئيس الحالي للصين شِي جينْ بينْغ وزوجته، أرسلا ابنتهما الوحيدة، ليس إلى كلية شِي في جامعة تسينغ هوا Tsinghua الصينية، ولكن إلى جامعة هارفارد الأمريكية، حيث تخرجت عام 2014. وثمة معضلة في معرفة كيف يمكن التوفيق بين وجهات نظر جيل جديد من الأمميين(*) internationalists، من جهة، والميول القومية أو الشعبوية لسائر مواطنيهم، من جهة أخرى. لهذا، يظل العثور على طرق يمكن من خلالها ترجمة فهم الأمميين للعالم، إلى أشكال جديدة من التعاون، في مقدمة أكثر الفرص إثارة للاهتمام[26].

(*) مؤيدو سياسات التعاون بين الأمم والدول المختلفة. (المُعرِّب)

هوامش

الفصل العاشر

(1) استخدم نيكسون هذه العبارة من الثقافة الشعبية، وهو في الواقع يقصد "الوحش الذي خلقه فرانكنشتاين". يمكن الاطلاع على مقال بعنوان الاقتراع الأكبر The Biggest Vote، كتبه ويليام سافَيْر في صحيفة نيويورك تايمز في 18 أيار/مايو 2000، وهو متاح على الرابط: http://www.nytimes.com/2000/05/18/opinion/essay-the-biggest-vote.html.

(2) تقديرات مركز بِلفر Belfer Center، تشرين الأول/أكتوبر 2016، المستندة إلى قاعدة بيانات آفاق الاقتصاد في العالم (للفترة 1980–2016) التي يصدرها صندوق النقد الدولي.

(3) الدبلوماسية، تأليف كيسنجر.

(4) إنشاء مجلس مستشارين تاريخيين في البيت الأبيض الآن، مانيفستو وضعه غراهام ألّيسون ونيال فيرغسون في أيلول/سبتمبر 2016، وهو متاح على الرابط http://belfercenter.org/project/applied-history-project.

(5) في معرض تذكيرنا بمخاطر التعويل على التشابه، يصر إرنست ماي Ernest May على ضرورة التوقف قليلًا عند إيجاد سابقة تبدو لافتة جدًا، ورسم خط عمودي وسط الصفحة وتخصيص عمود لأوجه التشابه والعمود الثاني لأوجه الاختلاف. وإذا لم يجد الباحث ثلاثة أوجه تشابه وثلاثة أوجه اختلاف ناتئة على الأقل، فينبغي في هذه الحالة تناول حبة أسبيرين واستشارة مؤرخ.

(6) سنوات البيت الأبيض White House Years، تأليف هنري كيسنجر، 1979.

(7) إنشاء مجلس مستشارين تاريخيين في البيت الأبيض، تأليف ألّيسون وفيرغسون.

(8) في أواسط التسعينيات من القرن العشرين، اقترحت استراتيجيةُ البنتاغون الأمنية بشأن شرق آسيا والمحيط الهادي، التي أعدها جوزف ناي الذي كان مساعد وزير الخارجية لشؤون الأمن الدولي آنذاك، نسخةً صالحة من نظرية "انْخَرِطْ ولكن تَحوَّطْ". فمن جهة، رأت هذه النظرية أن الصين، إذا تعاملت معها الولايات المتحدة كعدو، ستصبح عدوًا بالتأكيد. ولذلك، اقترحت بدلًا من ذلك العمل على أن تنخرط الصين في النظام الدولي وتدمج فيه. وفي الوقت نفسه، اعترفت بأن هناك احتمالًا كبيرًا أن لا تنجح هذه الجهود. ومن جهة ثانية، دعت الاستراتيجية إلى التحوُّط عن طريق تعزيز العلاقة مع اليابان و"الإبقاء على قوات عسكرية قوامها 100 ألف عنصر لتعزيز مصالحنا الاستراتيجية الإقليمية، وتوفير دليل على انخراط الولايات المتحدة والتزامها غير المنقوصين". يمكن الاطلاع على نص الاستراتيجية The United States Security Strategy for the East Asia-Pacific Region, 1998 في وثائق وزارة الدفاع الأمريكية.

(9) يمكن الاطلاع على عرض لتطور هذه النظرية في فصل بعنوان تقييم النموذج الجديد لعلاقات القوة بين الصين والولايات المتحدة، Assessing the New Model of Major Power Relations Between China and the United States، أعده ريتشارد وايكسنغ هو Richard Weixing Hu، في كتيب عن العلاقات الأمريكية الصينية Handbook of US-China Relations، 2016.

(10) الصين إلى أين: من العضوية إلى المسؤولية Whither China: From Membership to Responsibility، ملاحظات أدلى بها روبرت زولّك Robert Zoellick أمام اللجنة القومية للعلاقات الصينية الأمريكية، نيويورك، 21 أيلول/سبتمبر 2005، وهي متاحة على الرابط https://2001-2009.state.gov/s/d/former/zoellick/rem/53682.htm. وبينما أساء البعض تفسير قول زولّك عن أن الصين طرف مسؤول، أكد هو أن ذلك ما نطمح إليه وليس ما تحقق بالفعل.

(11) الدبلوماسية، تأليف كيسنجر.

(12) لي كُوان يو، تأليف ألّيسون وبلاكوِل ووِاين.

(13) الدبلوماسية، تأليف كيسنجر.

(14) لقد دعا شارلز غلازر Charles Glaser إلى مثل هذه الصفقة الكبرى. يمكن الاطلاع على فصل كتبه غلازر بعنوان صفقة كبرى أمريكية صينية؟ A U.S.-China Grand Bargain?، في مجلة الأمن الدولي International Security، عدد ربيع 2015.

(15) مستقبل العلاقات الأمريكية الصينية في ظل شِي جين بينغ، تأليف كيفن رود. ترد تفاصيل التحليل الذي كتبه رود لنظرة القادة الصينيين إلى الولايات المتحدة، في الفصل السابع من هذا الكتاب.

(16) يمكن الاطلاع على كتاب استراتيجيات الاحتواء، تأليف جون لويس غادّيس.

(17) قال دنغ شياو بينغ، في عام 1978، عن مأزق سينكاكو: "لا يهم إذا وُضعت هذه المسألة على الرف لفترة معيَّنة، عشر سنوات مثلًا. فجيلنا لا يتمتع بالحكمة اللازمة لإيجاد لغة مشتركة حول الموضوع. أما الجيل المقبل فسيكون حتمًا أكثر حكمة، وسيجد حلًا مقبولًا للجميع". يمكن الاطلاع على فصل بعنوان شرح الاستقرار في النزاع على جزر سينكاكو (دياويو) Explaining Stability in the Senkaku (Diaoyu) Islands Dispute كتبه م. تايلور فرافِل M. Taylor Fravel في كتاب رسم مثلث واضح: إدارة العلاقات بين الصين واليابان والولايات المتحدة Getting the Triangle Straight: Managing China-Japan-US Relations، 2010.

(18) بحثَ لايل غولدشتاين Lyle Goldstein في هذه الفكرة وأفكار أخرى، في إطار مفهوم أسماه "لولب التعاون" cooperation spirals، وذلك في كتابه لقاء الصين في منتصف الطريق: كيف يُنزع فتيل المنافسة بين الولايات المتحدة والصين Meeting China Halfway: How to Defuse the Emerging US-China Rivalry، 2015.

(19) للتفاصيل عن اقتراح شِي، يمكن الاطلاع على مقال بعنوان الحماسة الصينية والسخرية الأمريكية حول الشكل الجديد للعلاقات بين القوتين العظميين Chinese Enthusiasm and American Cynicism over the 'New Type of Great Power Relations، كتبه شِنغ لي ولوسي شو Cheng Li and Lucy Xu، في نشرة China-US Focus، في 4 كانون الأول/ديسمبر 2014، وهو متاح على الرابط http://www.chinausfocus.com/foreign-policy/chinese-enthusiasm-and-american-cynicism-over-the-new-type-of-great-power-relations/. لم يرفض أي مسؤول في إدارة أوباما اقتراح شِي بشكل رسمي، كما أن الرئيس ومساعديه سحبوا التعبير من التداول نهائيًا في أواخر 2014، بعدما بدأت الصين إنشاء جزر في بحر الصين الجنوبي. يمكن الاطلاع على تفاصيل الموضوع في مقال بعنوان الشكل

الجديد من العلاقات الذي طرحته الصين يفشل في ثني أوباما China's 'New Type' of Ties Fails to Sway Obama، كتبته جاين بِرليز Jane Perlez في صحيفة نيويورك تايمز في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2014، وهو متاح على الرابط https://www.nytimes.com/2014/11/10/world/asia/chinas-new-type-of-ties-fails-to-sway-obama.html.

(20) ريغان وغورباتشوف يوافقان على محاربة "الأطباق الطائرة" Reagan and Gorbachev Agreed to Fight UFOs، مقال كتبه جيمي أورّ Jimmy Orr في صحيفة كريستشن ساينس مونيتور Christian Science Monitor في 24 نيسان/أبريل 2009، وهو متاح على الرابط http://www.csmonitor.com/USA/Politics/The-Vote/2009/0424/reagan-and-gorbachev-agreed-to-fight-ufos.

(21) يمكن الاطلاع على مقال بعنوان الخطوة التي لم نتخذها بعد لخلق عالم خالٍ من الأسلحة النووية The Step We Still Haven't Taken to Create a NukeFree World كتبه غراهام ألّيسون في مجلة أتلانتك Atlantic في 23 آذار/مارس 2014، وهو متاح على الرابط https://www.theatlantic.com/international/archive/2014/03/the-step-we-still-havent-taken-to-create-a-nuke-free-world/284597/.

(22) الإرهاب النووي: الكارثة القصوى التي يمكن تجنُّبها Nuclear Terrorism: The Ultimate Preventable Catastrophe، تأليف غراهام ألّيسون Graham Allison، 2004.

(23) قصة التكنولوجيا في القرن الحادي والعشرين: التقاء البيولوجيا بالهندسة والعلوم الفيزيائية The 21st Century's Technology Story: The Convergence of Biology with Engineering and the Physical Sciences، محاضرة ألقتها سوزان هوكفيلد Susan Hockfield في معهد كينيدي للحكومة في جامعة هارفرد، في 12 آذار/مارس 2014، وهي متاحة على الرابط iop.harvard.edu/forum/21st-centurys-technology-story-convergence-biology-engineering-and-physical-sciences.

(24) يمكن الاطلاع على العالم في خطر: تقرير اللجنة المعنية بمنع انتشار أسلحة الدمار الشامل والإرهاب World at Risk: The Report of the Commission on the Prevention of WMD Proliferation and Terrorism، 2008.

(25) أشار تحليل نشرته مجلة الطبيعة Nature (عدد حزيران/يونيو 2016) لاتفاق باريس وما رافقه من تعهدات من فرادى الدول، إلى أن الهدف المطلوب تحقيقه في المرحلة ما بعد 2030 بخفضٍ مستويات الاحترار العالمي الحالية إلى ما دون 2 من درجات سِلسيوس Celsius، هو تحدٍّ شاق... ومن الضروري أن تبذل جهات أخرى غير الدول المتعهدة جهودًا كبرى إضافية، على الصعيد الوطني ودون الوطني إلى جانب جهات غير تابعة للحكومات، من أجل الحفاظ على إمكانية معقولة لإبقاء الاحترار دون 2 من درجات سِلسيوس. كتب هذا التحليل جوري روجلج وآخرون Joeri Rogelj et al.، وهو متاح على الرابط http://www.nature.com/nature/journal/v534/n7609/full/nature18307.html.

(26) لاستكشاف الإمكانات المتاحة في هذا الاتجاه، يمكن الاطلاع على بحث بعنوان انصهار الحضارات The Fusion of Civilizations كتبه كيشور محبوباني ولورنس سمرز Kishore Mahbubani and Lawrence Summers في مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs، عدد أيار/مايو-حزيران/يونيو 2016، وهو متاح على الرابط https://www.foreignaffairs.com/articles/2016-04-18/fusion-civilizations.

الخَاتِمة

سوف أشعر بالامتنان، إذا اعتُبِر كتابي هذا مفيدًا لأولئك الذين يرغبون في معرفة الماضي معرفة دقيقة، ليكون لهم عونًا على فهم المستقبل، الذي يجب أن يشبه الماضي في مجال الشؤون الإنسانية، إن لم يكُن انعكاسًا له.

ـــ ثيوسيديدين، تاريخ الحرب البيلوبونيزية

بحكم عملي بالتدريس في جامعة هارفارد لخمسة عقود، رأيت آلافًا من الطلاب والأساتذة ذوي العقول النيِّرة يأتون ويذهبون. مئات ممن كانوا يبدون وكأن العظمةَ قدَرُهم، مضوا محبَطين، بينما استطاع مئات آخرون، ممن يتمتعون بمزايا أقل، ارتقاء سلَّم النجاح. فالانطباعات الأولى غالبًا ما تكون مخطئة، ومسارات الحياة تأخذ انعطافات وتقلبات غير متوقعة.

وفي هذا الصدد، يُعدّ هنري كيسنجر نموذجًا. فعندما بدأتُ دراستي الجامعية في جامعة هارفارد عام 1964، كان مُشرفًا عليّ. وُلِد كيسنجر لأبوين يهوديين في بلدة صغيرة في ألمانيا، وهاجر إلى الولايات المتحدة، هربًا من النازيين، والتحق بالجيش الأمريكي، حيث تمكن، بمساعدة قانون جي آي(*) .G.I

(*) التسمية الشائعة لقانون تصحيح أوضاع المجندين لعام 1944 Serviceman's Readjustment Act of 1944. يُلْزِم هذا القانون الحكومة الأمريكية بأن توفر للمجندين السابقين الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية مجموعة من المميزات المادية. من بين هذه المميزات الحصول على معاش شهري، أو مسكن ذي إيجار منخفض غير قابل للزيادة، أو قرض بفائدة منخفضة لشراء منزل أو لبدء مشروع تجاري خاص، أو مساعدات مالية لاستكمال التعليم بكافة درجاته. ورغم نُبْل فكرة هذا القانون الإنساني، سقطت عمليات تطبيقه ضحية للنزعة

Bill، من الالتحاق بجامعة هارفارد، ليصبح، في نهاية المطاف، أستاذًا. هل كان مُقدَّرًا لكيسنجر أن يصبح يومًا ما مستشار الأمن القومي الأمريكي الذي نجح، بالاشتراك مع نيكسون، في تصميم سياسة الانفتاح على الصين؟ فكرة لم يكن من الممكن أن تخطر على بال أي شخص في الأربعينيات أو الخمسينيات، اللهم إلاَّ إذا كان ذلك الشخص قد فقد عقله. الأمر نفسه ينطبق على بيل غايتس Bill Gates، الذي قطع دراسته في هارفارد بعد عامين، سعيًا وراء شغفه بالحوسبة، الذي تحوَّل إلى كيان هائل اسمه ميكروسوفت. كما ينطبق على مارك زوكربيرغ Mark Zuckerberg، الطالب غير المكترث، الذي قضى معظم وقته في إنشاء أداة للتواصل عبر الإنترنت مع زملائه في السكن الجامعي، الأداة التي انفجرت لتتحوَّل إلى ما نعرفه اليوم باسم الفايسبوك Facebook.

كيف يجب أن نفهم مُحَصِّلاتٍ كهذه؟ يعتقد الكتّاب المسرحيون اليونانيون العظماء، أمثال سوفوكليس Sophocles، الذين هيمنت تراجيدياتُهم على المشهد الأدبي في اليونان القديمة، أن الإجابة الصحيحة هي: القدر(*). ففي مسرحياتهم، كتبت الآلهةُ على أوديب Oedipus أن يقتل والدَه وأن يتزوج والدته، ولم يكن أمامه مهربٌ من الدور الذي خطَّته له يد القدر. غير أن ثيوسيديديز يختلف مع تلك المقولة، لأن له مفهومًا مختلفًا تمامًا للشؤون الإنسانية. لقد قدَّم لنا ثيوسيديديز نسخةً جديدةً من علم التاريخ، حيث يلعب البشر، لا الآلهة، أدوار البطولة، وحيث القدر يوزع أوراق اللعب، بينما البشر يحركون الأوراق في لعبة الحياة.

العنصرية المتعصبة التي كانت تسود الولايات المتحدة في ذلك الوقت، فوفقًا للمؤرخ الأمريكي الشهير إيرا كاتزنِلسون Ira Katznelson، لم يكن من بين الدفعة الأولى من المستفيدين من قروض الإسكان التي يقدمها هذا القانون، وعددها 67 ألف محارب سابق، سوى 100 من الملوَّنين، كما أن عدد الملونين الذين حصلوا على منح لاستكمال تعليمهم لم يتجاوز 20 ألفًا من مجموع 100 ألف محارب سابق ملوَّن، تقدموا للحصول على تلك المنح. لمزيد من المعلومات، يمكن مراجعة كتاب: عندما كان التمييز الإيجابي أبيضَ: التاريخ المسكوت عنه للتفرقة العنصرية في الولايات المتحدة في القرن العشرين When affirmative action was white: an untold history of racial inequality in twentieth-century America، الذي ألّفه كاتزنِلسون عام 2006. (المُعرِّب)

(*) أو كما يقول الإنسان المصري البسيط: "الوعد والمكتوب". (المُعرِّب)

يقدم تاريخ ثيوسيديديز(*) سجلاً واقعيًا للخيارات التي اتخذها بريكليس وزملاؤه الأثينيون بملء إرادتهم الحرة. ولو أنهم اختاروا خيارات مختلفة، لكانت خياراتهم أسفرت عن نتائج مختلفة. كان هدف ثيوسيديديز من إعادة بناء النقاش الذي دار في مجلس العموم الأثيني، هو تعليم قادة الدول في المستقبل ألاَّ يتقبلوا مصيرهم، بل أن يتخذوا قرارات أكثر حكمة. لم يكن الأثينيون مجبرين على الدخول في حرب مع أسبرطة عام 430 قبل الميلاد. في الواقع، إن ما يقرب من نصف عدد أعضاء مجلس العموم في أثينا، صوَّت ضد التحالف الذي أدى إلى تلك الحرب. ألم يكن في إمكان بريكليس، الرجل الذي تفاوض من أجل سلام دام ثلاثين عامًا، أن يتنبأ بالصراع بين كورينث وكوركيرا، وأن يتخذ إجراءات لنزع فتيل ذلك الصراع، قبل أن يتحوَّل إلى حرب؟

في أعقاب الحرب العالمية الأولى، حاول بِتمان هولفيغ(**)، مستشار القيصر، التهرب من مسؤوليته عن أفعاله، من خلال الادِّعاء بأن الحرب بين ألمانيا وبريطانيا كانت قدَرًا مكتوبًا. بينما لو استخدم الأوراقَ ذاتها زعيمٌ أكثر حنكة، مثل بسمارك، لكان وجد طريقة مختلفة لتحريك تلك الأوراق، للحفاظ على تحالف ألمانيا السري مع روسيا، أو، ربما حتى، للدخول في تحالف مع بريطانيا، لتجنُّب الصراع(***).

في عام 1936، انتهك هتلر معاهدة فرساي، وشكَّل تهديدًا لأوروبا من خلال إعادة تسليح الراينلاند(****) Rhineland. فلو أن بريطانيا وفرنسا

(*) المقصود بالطبع هو كتاب ثيوسيديديز "تاريخ الحرب البيلوبونيزية". (المُعرِّب)

(**) تيوبالد فون بِتْمان هولفيغ Theobald von Bethmann Hollweg، المستشار الذي قاد ألمانيا خلال معظم سنوات الحرب العظمى، حيث عمل مستشارًا لألمانيا ورئيسًا لوزراء بروسيا منذ عام 1909 حتى عام 1917. وبعد أن ترك منصبه سادت البلاد حالة من الفوضى السياسية أدت إلى أن يتعاقب على المنصب ثلاثة مستشارين خلال أقل من عام ونصف العام. (المُعرِّب)

(***) يستعير المؤلف هنا، وإن بشكل غير مباشر، قولاً مأثورًا للزعيم الهندي جواهر لال نهرو Jawaharlal Nehru، يقول فيه: "الحياة مثل لعبة الورق أو الكوتشينة. اليد التي يتم التعامل بها هي الحتمية determinism، والطريقة التي تلعب بها هي الإرادة الحرة free will. (المُعرِّب)

(****) منطقة تقع غربي ألمانيا، يتدفق منها نهر الراين، لهذا سميت باسمه. (المُعرِّب)

أرسلتا قوات عسكرية لفرض المعاهدة، وهو ما دعا إليه تشرشل بقوة في ذلك الوقت، لكانت القوات الألمانية تراجعت، وتمكن الجنرالات الألمان (الذين عارضوا بقوة تحرك هتلر الطائش) من الإطاحة به، وربما لم تكن الحرب العالمية الثانية لتنشب على الإطلاق.

تقدم لنا أزمة الصواريخ الكوبية أمثلة صارخة كثيرة على تكهنات مغايرة للوقائع (من نوع "لو أن... لكان")، ودروسًا ذات صلة وثيقة بالمعضلة الحالية بين الولايات المتحدة والصين. فبمراجعة سجل الخطوات التي اتخذتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، لم يكن من الصعب تحديد عشرات المسارات التي كان من الممكن أن تنتهي بقذائف نووية تنفجر في واشنطن أو موسكو[1]. ومنها على سبيل المثال: طيار تركي أو ألماني تابِع لحلف شمال الأطلسي، يقود قاذفة مقاتلة من طراز F-100، محملة بقنابل نووية، يطير من تلقاء نفسه، عن طريق الخطأ أو في لحظة جنون، إلى موسكو، ويُمطرها بحمولته. أو غواصة سوفييتية محملة برؤوس نووية، في منطقة الكاريبي، يخطئ قائدُها في تفسير العمليات الأمريكية المضادة للغواصات، ويعتبر تلك العمليات هجومًا شاملاً، فيطلق صواريخه على عدد من المدن الأمريكية، دون أن يطلب تفويضًا أو أمرًا إضافيًا من موسكو.

في محاولة لمواجهة هذه المخاطر النووية التي لا مفر منها، تجاهل كينيدي أكثر من مرة توجيهات مستشاريه الذين كانوا يحثّونه على سرعة الرد، واختار بدلاً من ذلك أن يمنح خروتشوف مزيدًا من الوقت لإعادة التفكير والتكيّف والتعديل. وهكذا، عندما أُسقطت طائرة تجسس أمريكية من طراز U-2 فوق كوبا في آخر سبتٍ من أيام الأزمة، أرجأ كينيدي شنَّ هجومٍ انتقامي، ليجرب خدعة دبلوماسية أخيرة. ولتنفيذ تلك الخدعة، ابتكر كينيديٍ كوكتيلاً دبلوماسيًا فريدًا من نوعه، يتكوَّن من صفقةٍ علنيةٍ، وإنذارٍ غير معلن، ورشوةٍ سرية، كل ذلك في تحدٍ لنصيحة معظم أعضاء مجلس الأمن القومي. إذا وافق خروتشوف على سحب الصواريخ من كوبا (التي

كان قد ادّعى أنها ضرورية للدفاع عن كوبا ضد غزو أمريكي)، فإن الولايات المتحدة تتعهد بعدم غزو الجزيرة. في الوقت نفسه، منح الإنذار النهائي غير المعلن خروتشوف مهلة 24 ساعة للرد، مع التهديد بشن هجمات جوية على تلك الصواريخ لتدميرها، فور انقضاء المهلة. أما الرشوة فتمثلت في أنه، مع التأكيد على أن الأمر ليس مقايضة، إذا سحب السوفييت صواريخهم من كوبا، سوف تسحب الولايات المتحدة صواريخها الموجودة في تركيا، في غضون ستة أشهر.

كان جون كينيدي يعرف أن الخطوات الاستباقية التي تهدف إلى تجنُّب مثل هذه المواجهات، يمكن أن تكلِّف أثمانًا باهظة، من بينها المساومة على قضايا سياسية حسَّاسة، وتأجيل مبادرات تتصف بالأهمية، رغم كونها غير أساسية. لكنه خلُص إلى أن هناك ما يستحق أن تُدفَع من أجله تلك الأثمان. لقد كان الدرس الصعب لأزمة الصواريخ الكوبية، على حد تعبير كينيدي: "أولاً، وقبل أي شيء آخر، يجب علينا، كقوة نووية، ونحن ندافع عن مصالحنا الحيوية الخاصة، أن نحرص على تجنُّب المواجهات التي تجبر العدو على الاختيار بين الانسحاب المهين والحرب النووية"[2].

من أجل اتخاذ خيارات حكيمة مماثلة، يحتاج القادة الأمريكيون إلى حشد مزيج من التفكير الجاد والعمل الشاق. وفي هذا الشأن، يمكنهم البدء بأربع أفكار أساسية:

تحديد المصالح الحيوية

إن الدفاع عن المصالح الحيوية لأمريكا، يعتمد على تحديد هذه المصالح أولاً، لأن منح الأولوية لكل شيء، يعني في واقع الأمر عدم منحها لأي شيء، وهذا هو ما تفعله واشنطن بطريقة تلقائية. إن خوض صراع يتصف بما يتصف به الصراع بين الصين والولايات المتحدة من طبيعة ملحمية، يوجب على القادة الأمريكيين أن يميزوا بين الحيوي vital، والحي vivid[3].

على سبيل المثال، هل يمثل الحفاظ على تفوُّق الولايات المتحدة في غرب المحيط الهادي، مصلحة وطنية حقًا؟ هل الأمريكيون مستعدون لتحمُّل أية أعباء، من أجل منع الصين من الاستيلاء على بعض الجزر في بحر الصين الجنوبي، أو حتى لمنعها من استعادة تايوان؟ هذه ليست أسئلة بلاغية. إن المشاريع الجيوسياسية، أو حتى وسائل مواجهة الأزمات، إذا ما عُزلت عن الأولويات الوطنية، محكوم عليها بالفشل.

لقد علَّمنا الفيلسوف الألماني نيتشه Nietzsche أن "أكثر أشكال الغباء البشري شيوعًا هو أن ينسى المرء ما يحاول أن يفعله". فعندما نفكر بوضوح في دور أمريكا في العالم، لا يمكننا أن نأتي بأفضل من الواجب الذي حمَّلنا إياه حكماء الحرب الباردة. وهو ما يعني، كما أوضحنا في الفصل التاسع، الحفاظ على الولايات المتحدة "كدولة حرة، والحفاظ على مؤسساتنا وقيمنا الأساسية سليمة من أي أذى". إن الوفاء بهذا الواجب، لا يتطلب الدفاع عن كل مطلبٍ للفيليبين أو فيتنام في بحر الصين الجنوبي. بل إنه لا يتطلب حتى الدفاع عن الفيليبين. لكنه يتطلب تجنُّب أية حرب نووية مع الصين.

استيعاب ما تحاول الصين تحقيقه

لتطبيق منطق مشورة كينيدي، يجب على القادة الأمريكيين أيضًا أن يفهموا مصالح الصين الجوهرية، وأن يقدِّروها، بشكل أفضل. لقد خلُص خروتشوف، على الرغم من خطابه المتشدد عندما وُوجِه بشكل مباشر، إلى أنه يستطيع المساومة على الأسلحة النووية في كوبا. وبالمثل، أثبت الزعيم ماو، وهو المُنظِّر الشهير، أنه بارع في التنازل عن موقفه، عندما يكون ذلك في مصلحة الصين. إن كلاً من شِي وترامب يبدأ بالحد الأقصى من المطالب، لكنهما، أيضًا، يجيدان عقد الصفقات. وكلما زاد فهم الحكومة الأمريكية لأهداف الصين، كان استعدادها لحل الخلافات معها أفضل. لا

تزال المشكلة مشكلة إسقاط نفسي: فحتى المسؤولون المحنكون في وزارة الخارجية غالبًا ما يفترضون خطأً أن مصالح الصين الحيوية، صورة مرآوية لمصالح أمريكا الخاصة. إن الحكمة تقتضي أن يقرأ هؤلاء قول سُنْ تْسو: "إذا كنت تعرف العدو، وتعرف نفسك، لا داعي للخوف من نتيجة مائة معركة. وإذا كنت تعرف نفسك، لكنك لا تعرف العدو، سوف تلحق بك الهزيمة، مع كل نصر تحرزه. وإذا كنت لا تعرف العدو، ولا تعرف نفسك، سوف تستسلم في كل معركة" [(4)].

لقد أصبحت الحرب الباردة خيارًا محظورًا في العلاقات الدولية، يجب تجنُّبه بأي ثمن تقريبًا .لكن بعد ربع قرن من تفكك الإمبراطورية السوفييتية (وفي وقت يتجدد فيه القلق والخوف المتبادلان بين واشنطن وموسكو)، يجدر بنا التفكير في عناصر العلاقة الأمريكية السوفييتية القديمة، التي يمكن الاعتماد عليها. إن التظاهر يقود إلى الغموض؛ والصراحة تُخَلِّف الوضوح. إن تصريحات مثل "سوف ندفنكم"، و"إمبراطورية الشر"، لم تدع مجالاً للشك في موقف كلٍ منهما. لكن مثل هذه التوصيفات القاسية، لم تَحُل دون وجود اتصالات ذات مغزى، ومحادثات صريحة، بل وحتى توافق بنَّاء. وإذا كان من أثرٍ لتلك الادعاءات، فهو أنها أطلقت حرية القادة في مواصلة المفاوضات، من منطلق ما توفره الروح المعنوية العالية من إحساسٍ بالأمان.

تستطيع كل من الصين والولايات المتحدة تحقيق فائدة أكبر، ليس من خلال "دبلوماسية إلزامية" عدوانية سلبية (تدعو الآخر إلى التصرف بشكل أفضل)، ولا من خلال خطاب بلاغي متعالٍ عن المعايير الجيوسياسية، ولكن، من خلال حرص كل منهما على مصالحه الوطنية، بشكل لا يستوجب اعتذارًا. ففي العلاقات التي ترتبط بمصالح عُليا، تكون القدرة على التنبؤ والاستقرار، أكثر أهمية من الصداقة. لهذا، يجب على الولايات المتحدة أن تتوقف عن ممارسة "لعبة التظاهر".

وكما رأينا في الفصل الأول، يتظاهر الكثيرون في الولايات المتحدة

بأن صعود الصين ليس أمرًا مدهشًا، بالقدر الذي هو عليه بالفعل. كما يتظاهرون بما هو غير حقيقي، في ما يتعلق بمعرفة السبب الحقيقي لتركيز الصين على النمو الاقتصادي .صحيح أن بقاء الحزب الشيوعي يعتمد على تحقيق معدلات نمو عالية. لكن بروز الصين كقوة رقم واحد في آسيا، وطموحها إلى أن تكون القوة رقم واحد في العالم، لا يعكس فقط حتمية النمو الاقتصادي، بل يعكس، أيضًا، إحساسًا بالتفوق على الكون كله، وهو إحساس مرتبط بالهوية الصينية. ففي كتابه رسالة إلى أطفالي Letter to My Children، كشف ويتاكر تشامبرز Whittaker Chambers عما شعر بأنه المحرك الفلسفي للشيوعية الثورية: "إنه الإيمان البديل العظيم للبشرية... رؤية يأخذ فيها العقل الإنساني مكان الإله، كقوة مبدعة للعالم. رؤية للعقل الإنساني المتحرر بقوة المعرفة العقلانية وحدها، رؤية تُعيد توجيه مصير الإنسان، وتُعيد تنظيم حياته، وحياة العالم كلِّه"[5]. وبينما لم يَعُدْ شِيـ والمندريون الحزبيون الجدد يعتنقون المذهب الماركسي-اللينيني، لا ينبغي لأحد أن ينجرف إلى الاعتقاد بأن النظام اليوم هو حركة متخطية للأيديولوجية post-ideological movement، تركِّز على قوتها الخاصة فقط. لقد شدد الفصل السابع على القيم الحضارية الجذرية الاختلاف، التي تفصل بين الصين والغرب، وهي حقيقة مزعجة غالبًا ما تحجبها الدبلوماسية المهذبة.

التفكير الاستراتيجي

يتعرض التفكير الاستراتيجي في واشنطن هذه الأيام، للتهميش، أو حتى الاستهزاء. وفي لحظة تأمُّل وتمعُّن، "أفتى" الرئيس كلينتون بأن السياسة الخارجية، في هذا العالم المتغير بسرعة، أصبحت نسخةً من موسيقى الجاز: أي أنها أصبحت واحدة من فنون الارتجال. ومن بين أشد التصريحات غباءً، لواحد من أكثر الرؤساء ذكاءً، باراك أوباما، قوله إنه نظرًا لإيقاع التغيرات اليوم: "في الواقع لا أحتاج حتى إلى جورج كينّان"[6].

صحيحٌ أن الصياغة المتأنية للاستراتيجية لا تضمن النجاح، لكن غياب استراتيجية متماسكة ومستدامة هو طريقٌ مؤكدٌ إلى الفشل.

نادرًا ما يدّعي صانعو القرار السياسي في واشنطن، ولو مجرد ادعاء، أنهم يتعاملون بجدية مع موضوع الاستراتيجية. وبدلاً من ذلك، فإنهم في تصديهم للتحديات التي تمثلها الصين، أو روسيا، أو التنظيمات الجهادية الإسلامية، يقولون، "إن مسارات جهودنا هي... ". بينما يتم تجاهل وثائق استراتيجية الأمن القومي الرسمية. فعلى مدار العقد الماضي، لم ألتق بواحد من كبار أعضاء فريق الأمن القومي الأمريكي، سبق وأن قرأ استراتيجيات الأمن القومي الرسمية.

وهكذا، بدلاً من تقرير الأمن القومي رقم NSC-68، أو المراجعة التي أجرتها إدارة ريغان وتحمل الرقم NSDD-75، فإن أجندة واشنطن بشأن الصين اليوم، توجهها مجرد طموحات كبيرة، ذات جاذبية سياسية، مع قائمة مرفقة تتضمن عددًا من الإجراءات المتنوعة. كل حالة، إذا ما نظر إليها خبير استراتيجي جادّ، سوف يصف هدفها المعلن بأنه لا يمكن تحقيقه، من خلال أية إجراءات تستطيع الولايات المتحدة اتخاذها بشكل معقول. لذا، فإن الجهود الحالية محكوم عليها بالفشل.

ففي ما يتعلق بالصين، تسعى السياسة الأمريكية، في الأساس، إلى التشبث بالوضع الراهن، وهو السلام الأمريكي Pax Americana، الذي تأسس بعد الحرب العالمية الثانية. وتُذكِّر واشنطن الصينيين، بشكل متكرر، وهي محقة في هذا، بأن هذا الوضع سمح بأطول فترة سلام، وأكبر زيادة على الإطلاق في الرفاهية الاقتصادية للدول الآسيوية، وعلى وجه التحديد الصين. غير أن هذا الوضع الراهن لا يمكن أن يستمر بعدما مال ميزان القوة الاقتصادية الأساسي بشكل كبير لصالح الصين. لذا، فإن الاستراتيجية الحقيقية لأمريكا، إذا كنا نتحرى قول الصدق، هي الأمل.

إن تصور وبناء استراتيجية كبيرة تتناسب مع هذا التحدي، يتطلب

من كبار المسؤولين الحكوميين أن يُكرِّسوا لهذا الغرض ليس فقط رأس مالهم السياسي، ولكن أيضًا فطنتهم الفكرية. وخلافًا لما قاله أوباما، فإن استراتيجية الأمن القومي الأمريكي اليوم، هي طبعًا بحاجة إلى كينّان، جنبًا إلى جنب مع نظرائه المعاصرين أمثال، مارشال(*)، وأتشيسون(**)، وفاندنبرغ(***)، ونيتز(****)، وترومان.

إيلاء التحديات الداخلية أهمية محورية

لو اتّبع كل من شِي وترامب نصيحة لي كوان يو، لركَّزا أولاً على الأمور الأكثر أهمية، ألا وهي مشاكلهما الداخلية. ما هو التحدي الأكبر الوحيد للأمن القومي الأمريكي اليوم؟ ما الذي يشكل أكبر تهديد منفرد لمكانة أمريكا في العالم؟ الإجابة هي: إخفاقات النظام السياسي الأمريكي. ما هو التحدي الأكبر الوحيد للأمن القومي الصيني اليوم؟ ما الذي يشكل أكبر

(*) جورج مارشال George Catlett Marshall (31 كانون الأول/ديسمبر 1880 - 16 تشرين الأول/أكتوبر 1959)، قائد عسكري وزعيم سياسي أمريكي، شغل منصب رئيس قيادة الأركان المشتركة في عهد الرئيس فرانكلين روزفلت، كما شغل منصبي وزير الخارجية، ووزير الدفاع، في عهد الرئيس هاري ترومان. وفي عام 1953، فاز مارشال بجائزة نوبل للسلام عن دوره في إعادة إعمار أوروبا بعد أن دمرتها الحرب العالمية الثانية، من خلال المشروع الذي حمل اسمه. (المُعرِّب)

(**) دِين أتشيسون Dean Gooderham Acheson (11 نيسان/أبريل 1893 - 12 تشرين الأول/أكتوبر 1971)، سياسي أمريكي، شغل منصب وزير الخارجية لفترة قصيرة في عهد الرئيس هاري ترومان، وكان له دور كبير في تحديد معالم السياسة الخارجية الأمريكية خلال سنوات الحرب الباردة. (المُعرِّب)

(***) هويت فاندنبرغ Hoyt Vandenberg (24 كانون الثاني/يناير 1899 - 12 نيسان/أبريل 1954)، طيَّار أمريكي، عمل رئيسًا لقيادة الأركان المشتركة للقوات الجوية، كما عمل مديرًا للمخابرات المركزية الأمريكية. (المُعرِّب)

(****) بول نيتز Paul Henry Nitze (16 كانون الثاني/يناير 1907 - 19 تشرين الأول/أكتوبر 2004)، سياسي أمريكي عمل وكيلًا لوزارة الدفاع، ووزيرًا للبحرية، ومديرًا لإدارة التخطيط السياسي في وزارة الخارجية. من أشهر إنجازات نيتز إعداد تقرير الأمن القومي رقم NSC-68، الذي يُعدّ التقرير الأشهر، والأكثر أهمية في التاريخ الأمريكي المعاصر. وقد أسهم نيتز في رسم السياسة الدفاعية الأمريكية خلال سنوات الحرب الباردة، بتكليف من عدد من الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين. (المُعرِّب)

تهديد منفرد لمكانة الصين في العالم؟ الإجابة هي: إخفاقات الحكم. إن المراقبين الأمناء، في كلا المجتمعين، يدركون بشكل متزايد أن لا الديمقراطية "المتفسخة" (في الولايات المتحدة) ولا الاستبدادية "التجاوبية" (في الصين)، تستطيع مواجهة أكثر الاختبارات قسوة في القرن الحادي والعشرين.

أنا متفائل بالفطرة في ما يتعلق بأمريكا، لكنني قلق بسبب الأعراض المرضية القاتلة التي طفحت على جسد الديمقراطية الأمريكية. لقد أصبحت DC(*)، مختصرًا لمصطلح Dysfunctional Capital، أي عاصمة مختلة: لقد أصبحت العاصمة الأمريكية مستنقعًا تنمو فيه الحزبية السامة، وأدت العلاقات بين البيت الأبيض والكونغرس إلى إصابة الوظائف الأساسية مثل الميزانيات والاتفاقيات الخارجية بحالة من الشلل، واختفت ثقة الجمهور في الحكومة. تعود جذور هذه الأعراض إلى تراجع الأخلاق العامة، والفساد القانوني والمؤسساتي، والناخبين ذوي التعليم الضعيف الذين يعانون من نقص الانتباه، وصحافة التربص أو صحافة "قفشتك"(**) gotcha press، وهي عوامل تُفاقِم خطرَها الوسائلُ الرقمية، ومنصات التواصل الاجتماعي التي تروِّج للإثارة وتحط من شأن النقاش العقلاني المتروي.

وكما حذر أبراهام لنكولن(***) Abraham Lincoln بشكل نبوءاتي، فإن أي بيت منقسم على نفسه لن يستطيع الصمود. وإذا لم يُظهِر الرئيس زعامة قوية وتصميمًا لا يلين، وإذا لم تسترد الطبقة الحاكمة إحساسها بالمسؤولية المدنية، قد تتبع الولايات المتحدة أوروبا على طريق التقهقر.

(*) مختصر لمصطلح مقاطعة كولومبيا District of Columbia، وهو الاسم الذي يطلق على المنطقة الإدارية التي تضم العاصمة واشنطن، حيث من المعروف أن العاصمة لا تتبع أية ولاية أمريكية، رغم أنها محصورة بين ولايتي ميريلاند Maryland، وفيرجينيا Virginia. (المُعرِّب)

(**) كلمة عامية مصرية تعني "أمسكتُ بك متلبسًا بجرم ما". (المُعرِّب)

(***) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية. ولد لنكولن في 12 شباط/فبراير 1809، وتوفي في 15 نيسان/أبريل 1865، في اليوم التالي لإطلاق النار عليه من قبل أحد مناصري الكونفدرالية، أثناء حضور عرض مسرحي، ليكون لنكولن، الذي يعرف بمحرر العبيد، الرجل الذي قاد البلاد خلال سنوات الحرب الأهلية، أول رئيس أمريكي يتم اغتياله. (المُعرِّب)

وفي الوقت نفسه، فإني أتفق مع لي كوان يو في انتقاداته اللاذعة لـــ"نظام التشغيل" في الصين. إن التكنولوجيا تجعل نظام الحكم الحالي في الصين باليًا وعتيقًا. لا يمكن أن يُحكَمَ شباب المدن الذين يملكون هواتف ذكية، على نحو مستدام من قبل البيروقراطيين في بيجين، الذين يحصون على المواطن حركاته في كل مكان، باعتباره جزءًا من نظام "الائتمان الاجتماعي". لقد حدد لي كوان يو مجموعة من المعوقات التي يرى أن الصين لن تتمكن من تغييرها بسهولة، وهي: غياب سيادة القانون؛ والسيطرة المركزية المفرطة؛ والعادات الثقافية التي تحد من الخيال والإبداع؛ ولغةٌ تُشكِّل التفكير من خلال الحِكَم الساخرة و4000 سنة من النصوص التي تشير إلى أن كل ما يستحق أن يُقال، قد قاله الأولون بالفعل، وبطريقة أفضل؛ وعدم القدرة على اجتذاب المواهب، من مجتمعات أخرى في العالم، واستيعابها[7]. لم يوصِ لي كوان يو بديموقراطيةٍ على الطريقة الأمريكية (التي باعتقاده يمكن أن تؤدي إلى انهيار الصين)، بل أوصى بالعمل على استعادة القيم الماندرينية الأصيلة، في ظل حكومة يرأسها زعيم قوي. على هذا الصعيد، ربما تساعد نزعة شِي القومية التي ترتكز على القيم، على استعادة سلامة ونزاهة نظام التشغيل الصيني، الذي جوَّفته المادية الفاسدة.

ولتوسيع مجال ما استخدمناه من استعارات رقمية نقول، يجب على كلا المتنافسَين إعادة النظر في مدى ملاءمة تطبيقاتهم للقرن الحادي والعشرين. فقد حدد نيال فيرغسون في كتابه الحضارة Civilization، ستة تطبيقات قاتلة killer apps، وهي أفكار ومؤسسات أدت إلى الاختلاف الاستثنائي في مستوى الرخاء بين الغرب وبقية العالم بعد عام 1500. هذه التطبيقات هي: المنافسة، والثورة العلمية، وحقوق الملكية، والطب الحديث، والمجتمع الاستهلاكي، وأخلاقيات العمل[8]. يلاحظ نيال فيرغسون عودة التقارب الكبير، في مستويات الرخاء، بين الصين والغرب منذ عام 1970، ولكنه يتساءل عما إذا كانت الصين تستطيع الحفاظ على تقدمها هذا، بدون

الالتزام بالتطبيق القاتل رقم ثلاثة وهو حماية حقوق الملكية الخاصة. إنني أشعر بالقلق لأن أخلاقيات العمل الأمريكية تسير نحو الانهيار، بينما يتجه مجتمع المستهلكين نحو البذخ والتفسخ.

إذا أدرك القادة في كلا المجتمعين خطورة المشاكل التي يواجهونها على الجبهة الداخلية، ومنحوها الأولوية التي تستحقها، فإن المسؤولين التابعين لهم سوف يكتشفون أن استنباط طريقة "لتقاسم القرن الحادي والعشرين في آسيا" لم يكن التحدي الأكثر خطورة الذي يواجههم.

هل سوف يدركون هذه الحقيقة؟ هل سوف تقوم أي من الدولتين، أو كلتاهما، بشحذ الخيال وحشد الجَلَد اللازمين لمواجهة تحدياتهما الداخلية؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل سوف تتوفر لهما المهارة الكافية لتأمين مصالحهما الحيوية دون التردي في هوة الحرب؟ لن يجد السياسيون الساعون إلى القيام بذلك نقطة بداية أفضل من إعادة قراءة كتاب ثيوسيديديز "تاريخ الحرب البِلوبونيزية".

هل سوف ينجحون؟ آه، لو كنا، فقط، نعرف. لكننا، على أية حال، نعرف أن شكسبير كان على حق عندما قال: مصيرنا مخبوء "ليس في نجومنا، ولكن في أنفسنا".

هوامش

الخاتمة

(1) جوهر القرار: شرح أزمة الصواريخ الكوبية Essence of Decision: Explaining the Cuban Missile Crisis، تأليف غراهام أليسون وفيليب زيليكوف Graham Allison and Philip Zelikow، 1999.

(2) من خطاب ألقاه كينيدي في حفل تخرُّج في الجامعة الأمريكية، في 10 حزيران/يونيو 1963، وهو متاح على الرابط https://www.jfklibrary.org/Asset-Viewer/BWC7I4C9QUmLG9J6I8oy8w.aspx.

(3) يمكن الاطلاع على تقرير عن المصالح القومية الأمريكية America's National Interests المقدم إلى لجنة المصالح القومية الأمريكية Commission on America's National Interests، إعداد روبرت إلسوورث وأندرو غودبارستر وريتا هاوسر Robert Ellsworth, Andrew Goodpaster, and Rita Hauser، 2000.

(4) فن الحرب، تأليف سُن تسو Sun Tzu.

(5) فصل بعنوان شاهد A witness، تأليف وِتّاكر تشامبرز Whittaker Chambers، في كتاب مبادئ المحافظين في أمريكا منذ 1930: قارئ Conservatism in America Since 1930: A Reader، 2003.

(6) مقال بعنوان قطع المسافة: في الطريق من آن لآخر مع باراك أوباما Going the Distance: On and Off the Road with Barack Obama، كتبه دايفد رِمنيك David Remnick في صحيفة نيويوركر، في 27 كانون الثاني/يناير 2014، وهو متاح على الرابط http://www.newyorker.com/magazine/2014/01/27/going-the-distance-david-remnick.

(7) لي كوان يو، تأليف أليسون وبلاكويل ووابن.

(8) الحضارة: الغرب وبقية العالم Civilization: The West and the Rest، تأليف نيال فرغيسون Niall Ferguson، 2011.

شُكرٌ وتَقْدير

إن الاعتراف بما تراكم عليّ من ديون خلال الرحلة الفكرية التي أنتجت هذا الكتاب يتطلب مقالا مُستقلاً. فمنذ سنتي الأولى في كلية ديفيدسون Davidson College، عندما قدمني البروفيسور لابان إلى ثيوسيديديز، وحتى مجموعة العمل المعنية بالصين التي تجتمع الآن شهريًا في جامعة هارفارد، كنت أتعلم يوميًا بطرق أثْرت هذا التحليل. فقد علمني كرين برينتون Crane Brinton، المشرف الرئيسي على أطروحتي (مؤلف كتاب تشريح ثورة Anatomy of a Revolution) كيف أتعرف على أنماط التاريخ المختلفة. ومن خلال دراستي للفلسفة التحليلية في جامعة أكسفورد، تعلمت من أ. ج. أير A. J. Ayer، وإشعيا برلين Isaiah Berlin، وغيلبرت رايل Gilbert Ryle، وبيتر ستراوسون Peter Strawson، الاختلافات بين الأُطُر المفاهيمية والعالم الحقيقي. وأثناء دراستي لنيل درجة الدكتوراه في جامعة هارفارد، أتيحت لي فرصة استثنائية كي أتعلم، على يد ثلاثة من أساطير التاريخ التطبيقي، هنري كيسنجر، وإرنست ماي، وريتشارد نويشتات، كيفية تحديد التحديات الحالية. وقد بحثت في أطروحة الدكتوراه أزمة الصواريخ الكوبية في عام 1962، لإلقاء الضوء على تعقيدات عملية اتخاذ القرار في الحكومة، وكذلك المخاطر الخاصة التي تفرضها ترسانات القوى العظمى النووية، التي ربطت بين الخصوم بعلاقة غير قابلة للكسر.

وخلال الحرب الباردة، أتيحت لي فرصةٌ للتعلم والمساهمة في فهم هذا التهديد الوجودي بأشكل مختلفة، كخبير، ومستشار، ومشارك، بالإضافة

إلى المساهمة في تطوير استراتيجياتٍ استطاعت، في نهاية المطاف، أن تهزم إمبراطورية الشر. كذلك كان لي شرف العمل لحساب: الرئيس رونالد ريغان ووزير دفاعه كاسبار واينبرغر Caspar Weinberger (الذي عَمِلت كمستشار خاص له)، والرئيس بيل كلينتون ووزراء دفاعه ليه أسبن Les Aspen، وبيل بيري Bill Perry (الذي عمِلت معه كمساعدٍ لوزير الدفاع)، وعشرةٍ من وزراء الدفاع من واينبرغر إلى آش كارتر Ash Carter (حيث كنت عضوًا في مجلس سياسات الدفاع الذي رأسه)، ومديري وكالة المخابرات المركزية CIA، من ستان تيرنر Stan Turner (الذي عملت معه كمستشارٍ خاص) إلى ديفيد بيتريوس David Petraeus، بالإضافة إلى زملاء آخرين كثيرين.

لكن الأهم من ذلك كله، جامعة هارفارد، وبالتحديد كلية جون ف. كينيدي للدراسات الحكومية في جامعة هارفارد، التي أثْرَت وشكَّلت تفكيري بشكل عام، والأفكارَ الواردةَ في هذا الكتاب بشكل خاص. ففي أواخر السبعينيات وخلال الثمانينيات، تشرفت بالعمل "كعميدٍ مؤسسٍ" لتلك الكلية، حيث قدت بالاشتراك مع كل من آل كارنسالي Al Carnesale، وجوي ناي Joe Nye، مشروع تجنُّب الحرب النووية الذي استقطب العشرات من الطلاب وحملة الدكتوراه، في محاولة لفهم كيف يمكن تقييد المنافسة النووية إلى الحد اللازم للحفاظ على بقاء المتخاصمين الألداء. وفي حقبة ما بعد الحرب الباردة، ترأستُ مركز بِلفِر للعلوم والشؤون الدولية في جامعة هارفارد، حيث تعلَّمت من العشرات من زملائي وأعضاء هيئة التدريس في الكلية الكثير عن أهم التحديات في ما يتعلق بالشؤون الدولية. وطوال تلك الفترة، أسعدني الحظ بأن أكون جزءًا مما أسماه أ. ن. وايتهيد A. N. Whitehead "توحيد الشباب وكبار السن في السعي المبتكر للتعلم".

كما أنني أواصل الاستفادة من برنامج تعليمي مستمر حول الصين، ينظمه أعضاء مجموعة العمل المعنية بالصين في مركز بِلفِر، التي تضم كلاً من هوس كارترايت Hoss Cartwright، ومارك إليوت Mark Elliott، وتايلور

فرافِل Taylor Fravel، وكيلي سيمز غالاغِر Kelly Sims Gallagher، وبول هيير Paul Heer، وألاستير إيان جونسون Alastair Iain Johnston، وويليام كيربي William Kirby، ورودريك ماكفاركوهار Roderick MacFarquahar، وميغان سوليفان Meghan O'Sullivan، ودوايت بيركنز Dwight Perkins، وستابلتون روي Stapleton Roy، وكيفن رود Kevin Rudd، وأنتوني سايش Anthony Saich، وعزرا فوغل Ezra Vogel، وأُود أرني ستاد Odd Arne Westad. وللحصول على مساعدة واثقة ومتأنية في ما أبذله من محاولات لفهم اقتصاد الصين، كان مارتن فيلدشتاين Martin Feldstein مرشدي الرئيسي، بدعم من ريتشارد كوبر Richard Cooper، وستانلي فيشر Stanley Fisher، ولاري سمرز Larry Summers، وروبرت زوليك Robert Zoellick. وفي إطار الجهود المبذولة لتطبيق التاريخ، كان زميلي المشارك في إطلاق مشروع التاريخ التطبيقي في جامعة هارفارد، نيال فيرغسون، من أكثر الزملاء أهمية بالنسبة لعملي هذا، بالإضافة إلى ما تلقيته من مشورة حكيمة من كل من، ديفيد أرميتاج David Armitage، ودرو فاوست Drew Faust، وفريدريك لوغيفال Fredrick Logevall، وتشارلز مائير Charles Maier، وستيف ميلر Steve Miller، وريتشارد روسكرانس Richard Rosecrance، وستيفن فان إيفيرا Stephen Van Evera.

وكما لاحظ ونستون تشرشل، فإن "كتابةَ كتابٍ تشبه مغامرةً، تبدأ كلعبة وتسلية، ثم تصبح عشيقة، ثم تغدو سيدًا، ثم تتحول إلى طاغية. وفي آخر مراحلها، وبينما توشك على التصالح مع حالة العبودية، تقتلُ ذلك الوحش، وترمي به إلى الجمهور".

وعلى عكس كتبي السابقة، ساعدني أشخاصٌ كثيرون في قتل هذا الوحش. كان رئيس التحرير جوش بوريك Josh Burek مصدرًا دائمًا للإلهام، والبصيرة، والإصرار على الوصول إلى خط النهاية. وقد أظهر مساعدُه الرئيسي، آدم سيجل Adam Siegel، روحًا طيبةً، ومهارةً كبيرةً في تنظيم عمل مساعدي الأبحاث والطلاب، بما في ذلك جيون بايك Jieun

Baek، وليور بن شورين Leore Ben-Chorin، وإيديت ديكيشتاين Edyt Dickstein، وكريس فارلي Chris Farley، وبول فرايولي Paul Fraioli، وإليانور فروند Eleanor Freund، وإيك فريمان Eyck Freymann، وجوش غولدشتاين Josh Goldstein، وتيس هيلغرين Tess Hellgren، وآرجون كابور Arjun Kapur، وزخاري كيك Zachary Keck، وناثان ليفيني Nathan Levine، وويسلي مورغان Wesley Morgan، وويليام أوسوفّ William Ossoff، وكريسيانّا باباداكيس Krysianna Papadakis، وسام راتنر Sam Ratner، وهنري روم Henry Rome، وتيم ساندول Tim Sandole، ورايت سميث Wright Smith. كما أنني مدينٌ بشكر خاص لجون ماسكو John Masko، الذي قام بتحرير المسوّدة الأولية لملف فخ ثيوسيديديز في الملحق رقم (1). كما قدَّم اثنان من الباحثين البارزين مساهمات مهمة: بن رود Ben Rhode، الذي ساعدني على فهم الطريق الذي أدى إلى الحرب العالمية الأولى؛ وسيث جافي Seth Jaffe، الذي قيَّم بخبرته النموذج الأصلي لفخ ثيوسيديديز في اليونان القديمة.

كما قام بوب بلاكويل Bob Blackwill، ويوري فريدمان Uri Friedman، ومايكل مارتينا Michael Martina، وجيم ميلر Jim Miller، وجو ناي Joe Nye، ومايكل سولماير Michael Sulmeyer، ومارك توهر Mark Toher، وأود أرني ويستاد Odd Arne Westad، وعلي وين Ali Wyne، وبوب زوليك، بمراجعة أقسام الكتاب وقدموا تعليقات قيمة.

وقد أسفرت التعليقات الجماعية لهذه المجموعة الجليلة عن عشرات التصحيحات والتحسينات، أما الأخطاء المتبقية فهي مسؤوليتي وحدي.

وفي مركز بِلفِر، كان المديران التنفيذيان غاري سامور Gary Samore، وباتي والش Patty Walsh، رفيقين ممتازيْن، وهما السبب الرئيسي وراء عدم تفويت المركز فائتة واحدة، أثناء صياغة هذا الكتاب. وقد أدّى زملاؤنا بن كريغ Benn Craig، وآرييل دوركين Arielle Dworkin، وأندرو فاسيني Andrew Facini، وأندريا هيلر Andrea Heller، وهنري

كايمف Henry Kaempf، وسيمون أوهانلون Simone O'Hanlon، وشارون ويلك Sharon Wilke، خدماتٍ جليلة من وراء الستار، فشكرًا لهم أجمعين.

كما أشكر وكيل أعمالي ميخائيل كارليسلي Michael Carlisle، الذي أدرك أهمية هذا الكتاب في مرحلة مبكرة، ولم يغير رأيه هذا أبدًا. إن فريق العمل الخاص بدار النشر Houghton Mifflin Harcourt، يستحق شكرًا وتقديرًا إضافيين، لدوره في التعامل مع مخطوطاتي، ومع تقلباتي المزاجية: لاري كوبِر Larry Cooper، لوري غلازِر Lori Glazer، كلارا غراي Carla Gray، بن هايمان Ben Hyman، أليكساندر ليتيلفيلد Alexander Littlefield، عائشة ميزرا Ayesha Mirza، بروس نيكولاس Bruce Nichols، تارين رويدر Taryn Roeder. شكرًا لكم جميعًا.

والأهم من ذلك كله، أنني أشعر بالامتنان لزوجتي إليزابيث التي لم تكن فقط حبَّ حياتي، بل أصبحت أعز صديقة لي، وأكثر من يحرص على إبراز الحقيقة، أثناء مراجعتها لكل فصل من فصول الكتاب.

الملحق الأول

فخ ثيوسيديديز: ملف الحالات

الرقم	العصر	القوة الحاكمة	القوة الصاعدة	نطاق الصراع	النتيجة
1	أواخر القرن (15)	البرتغال	إسبانيا	الهيمنة الإمبراطورية عالميًا، والتجارية	لا حرب
2	النصف الأول من القرن (16)	فرنسا	هابسبورغ	الهيمنة البرية في غرب أوروبا	حرب
3	القرنان (16)، (17)	هابسبورغ	الإمبراطورية العثمانية	الهيمنة البرية في وسط وشرق أوروبا الهيمنة البحرية في البحر المتوسط	حرب
4	النصف الأول من القرن (17)	هابسبورغ	السويد	الهيمنة البرية والبحرية في شمال أوروبا	حرب
5	منتصف القرن (17) إلى نهايته	هولندا	إنجلترا	الهيمنة الإمبراطورية عالميًا، والهيمنة البحرية، والتجارية	حرب
6	نهاية القرن (17): منتصف (18)	فرنسا	بريطانيا العظمى	الهيمنة الإمبراطورية، والقوة البرية في أوروبا كلها	حرب
7	أواخر القرن (18) وبدايات القرن (19)	المملكة المتحدة	فرنسا	الهيمنة البرية والبحرية الأوروبية	حرب
8	منتصف القرن (19)	فرنسا والمملكة المتحدة	روسيا	الهيمنة الإمبراطورية عالميًا، وصراع على النفوذ في آسيا الوسطى، وشرق البحر المتوسط	حرب

9	منتصف القرن (19)	فرنسا	ألمانيا	الهيمنة البرية في أوروبا	حرب
10	أواخر القرن (19) وبدايات القرن (20)	الصين وروسيا	اليابان	الهيمنة البرية والبحرية في شرق آسيا	حرب
11	بدايات القرن (20)	المملكة المتحدة	الولايات المتحدة	الهيمنة الاقتصادية على العالم، والتفوق البحري في نصف الكرة الغربية	لا حرب
12	بدايات القرن (20)	المملكة المتحدة مدعومة من كل من فرنسا وروسيا	ألمانيا	الهيمنة البرية في أوروبا، والبحرية على مستوى العالم	حرب
13	منتصف القرن (20)	الاتحاد السوفييتي فرنسا والمملكة المتحدة	ألمانيا	الهيمنة البرية والبحرية في أوروبا	حرب
14	منتصف القرن (20)	الولايات المتحدة	اليابان	الهيمنة البحرية، وصراع على النفوذ في منطقة آسيا-الباسيفيك	حرب
15	من أربعينيات إلى ثمانينيات القرن (20)	الولايات المتحدة	الاتحاد السوفييتي	الهيمنة العالمية	لا حرب
16	من تسعينيات القرن (20) حتى اليوم	المملكة المتحدة وفرنسا	ألمانيا	النفوذ السياسي في أوروبا	لا حرب

1: البرتغال في مواجهة إسبانيا

العصر: أواخر القرن الخامس عشر

القوة الحاكمة: البرتغال

القوة الصاعدة: إسبانيا

مجال الصراع: إمبراطورية وتجارة عالمية

المحصلة النهائية: لا حرب.

على مدار معظم سنوات القرن الخامس عشر، طغت البرتغال على منافستها التقليدية وجارتها، مملكة قشتالة الإسبانية، من خلال قيادة العالم في مجالي

الاستكشافات البحرية والتجارة الدولية. ومع حلول تسعينيات القرن الخامس عشر، بدأت إسبانيا، التي جددت عمليةُ التوحيد شبابَها، في تحدي الهيمنة التجارية البرتغالية، والسعي نحو تبوُّء زعامة الحركة الاستعمارية في العالم الجديد، مما وضع القوتين الإيبيريَّتين على شفا الحرب. غير أن تدخُّل البابا، وتوقيع معاهدة تُوردِسيياس Treaty of Tordesillas عام 1494، حال دون وقوع صراع مدمِّر.

في منتصف القرن الخامس عشر، برز الأمير الطموح هنري الملاح كنصير رئيسي لرحلات الاستكشاف البرتغالية. وقد استثمر هنري في تقنيات الملاحة البحرية الجديدة، وأرسل البحرية البرتغالية في رحلات بعيدة للبحث عن الذهب، وتعزيز شراكات تجارية جديدة، ونشر المسيحية. ومع انشغال قشتالة، المنافِسة الرئيسية للبرتغال، في عدة حروب، بسبب الخلافات على العرش، وبسبب سعيها إلى استعادة ما تبقى من المعاقل الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية، أمَّنت البرتغال تفوُّقها التجاري. لذلك كان الأمير هنري "مطلق اليد في تنفيذ سياسة توسعية ديناميكية ومتماسكة"[1]، في ماديرا Madeira، والأزور The Azores، وسواحل غرب أفريقيا. وقد بلغت السيادة البرتغالية على البحار ذروتها في عام 1488، عندما أصبح المستكشف بارتولوميو دياز Bartolomeu Dias أول أوروبي يدور حول رأس الرجاء الصالح، ليؤسس بذلك طريقًا بحريًا جديدًا إلى الهند وجزر الهند الشرقية الغنية بالثروات.

ولكن حتى مع استمرار نمو إمبراطورية لشبونة، كان المنافس القشتالي يضع نفسه في موقع تحدٍ للتفوق البرتغالي. وقد وحَّد الزواج الذي جمع بين سُلالتين ملكيتين كاثوليكيتين، إيزابيلا القشتالية وفرديناند الأراغوني، عام 1469، هاتين المملكتين تحت إمرة تاج واحد، وركَّز في يد هذا التاج القوة والنفوذ في العالم الناطق بالإسبانية[2]. وفي عام 1492، أكمل فرديناند وإيزابيلا الاستيلاء على آخر إمارة إسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية، غرناطة.

وعلى الرغم من أن البرتغال حافظت على تفوُّقها في ما يتعلق

بالتوسع خارج حدودها، حيث لم يمتد نفوذ إمبراطورية إسبانيا إلى ما هو أبعد من جزر الكناري Canary Islands، لم يستغرق الأمر طويلاً حتى أثار صعودُ إسبانيا قلق البرتغال، القوة المهيمِنة. فبعد الاستيلاء على غرناطة عام 1492، شعرت لشبونة بالقلق من احتمال أن "ينقل القشتاليون المنتصرون حروبهم، على الفور، إلى شمال أفريقيا، فيشكلوا تهديدًا لطموحات البرتغال في ذلك الجزء من العالم"[3].

وقد تزايدت مخاوف البرتغال بعد أن وصل كريستوفر كولومبوس إلى العالم الجديد في عام 1492. كان كولومبوس، الذي صدّه الملك جون الثاني عندما طلب منه أن تدعم البرتغال رحلته، قد لجأ إلى فرديناند وإيزابيلا اللذين دعماه مقابل تسعة أعشار إيرادات الأراضي التي يستطيع أن يضع يده عليها[4]. لقد حولت رحلاتُ كولومبوس إسبانيا إلى منافس خطير للإمبراطورية البرتغالية في ما وراء البحار.

وهكذا، تغيَّر ميزان القوى بين الخصمين بين عشية وضحاها تقريبًا. فوفقًا للمؤرخ الاقتصادي ألكسندر زوكاس Alexander Zukas، "كان من الواضح أن الصراع سوف ينشأ قريبًا حول المطالب المتنافسة لإسبانيا والبرتغال على الأراضي التي لم يدِّع الأوروبيون ملكيَّتَها من قبل[5]". وبالفعل، عندما راجت في إسبانيا إشاعة بأن الملك جون يؤمن "بأن الجزر التي اكتشفها كولومبوس مِلْكٌ له... وأنه بدأ بالفعل في إعداد أسطول للاستيلاء على تلك الجزر"، مالت كفّةُ الترجيحات باتجاه نشوب حرب بين الدولتين[6].

تذكرت إسبانيا الدروس المريرة لحرب وراثة العرش القشتالية في سبعينيات القرن الخامس عشر، التي تقاتلت خلالها قشتالة وأراغون والبرتغال لخمس سنوات، وانتهت إلى حالة من الجمود التام. فتحولت إلى البابا ألكسندر السادس، المنحدر من أصل إسباني، للتحكيم بينها وبين البرتغال. وبالفعل، وجدت إسبانيا لدى البابا أذنًا مصغية وعقلاً متعاطفًا. فقد رسم ألكسندر خط طولٍ يبعد نحو 320 ميلاً إلى الغرب من جزر

الرأس الأخضر، وقرر أن تؤول ملكية أية أراضٍ جديدة تقع إلى الشرق من هذا الخط إلى البرتغال، وأن تؤول ملكية أية أراضٍ جديدة تقع غرب هذا الخط إلى إسبانيا[7]. وقد أثار حكم البابا غضب البرتغاليين، فرفضوا الالتزام به، بسبب ضآلة نصيبهم من العالم الجديد، والقيود التي فرضها هذا الحكم على الطرق التجارية المؤدية إلى الهند وأفريقيا[8].

وفي محاولة أخيرة لتجنُّب الحرب، وافقت القوتان على تعديل اقتراح البابا في معاهدة تُوردِسيياس Tordesillas 1494. فقد حرَّكت المعاهدةُ خطَ التقسيم في اتجاه الغرب، بحيث يتطابق مع خط الزوال السادس والأربعين، وليمرّ بشرق البرازيل كما نعرفها حاليًا، وهو ما أتاح للبرتغال إمكانية الوصول إلى الهند وأفريقيا. وكما يقول المؤرخ أ. ر. ديزني A. R. Disney، "لقد أصبحت معاهدة تُوردِسيياس ميثاقًا للسيطرة، يحدد لكل طرف المجالات المفتوحة أمامه، لاستكشاف الأراضي والاستيلاء عليها، طوال القرن الثامن عشر"[9]. وقد صمدت هذه المعاهدة على الرغم من الاستكشافات الكثيرة التي جرت في القارة الأمريكية الشاسعة، والتي كشفت عن حصول إسبانيا على نتائج أفضل بكثير من وراء هذه الصفقة، في الأمريكتين[10].

لماذا لم تتقاتل الدولتان، حتى بعد أن أدركت البرتغال أن اكتشافات إسبانيا ستؤثر بشكل كبير على توازن القوى؟ أحد الأسباب هو أن الملك جون الثاني كان يعلم أن البرتغال "لا تستطيع تحمُّل حرب أخرى مع إسبانيا"[11]. كما أن إسبانيا، بدورها، كانت مقيدة اقتصاديًا وعسكريًا، بعد أن أكملت، للتو، استعادة غرناطة. من المؤكد أن ذكرى حرب الوراثة القشتالية قد أحبطت الآمال في قدرة أيٍ من الطرفين على تحقيق نصر حاسم. لكن الأهم من ذلك، كانت مراسيم البابا ألكساندر السادس تحمل وراءها التهديد بالحرمان الكنسي، وهو أمر يُمثِّل ضربة قاتلة لهيبة أي ملك كاثوليكي. لقد استطاع البابا أن يجنِّب البلدين الحرب، لأن كلا التاجين، الإسباني والبرتغالي، رأى أن شرعيته الخاصة أهم بكثيرٍ جدًا من توازن القوى.

لقد صمدت معاهدة تُوردِسيياس في وجه الزمن[12]. فرغم تواصل التنافس بين إسبانيا والبرتغال، أبدى كلاهما اهتمامًا بإبعاد القوى الأخرى عن العالم الجديد. ومع تجاوز بريطانيا وفرنسا وهولندا للدولتين من حيث القوة الاقتصادية والعسكرية، ازداد تشبثت إسبانيا والبرتغال بمواقفهما المعتمدة من الفاتيكان، كحماة للوضع القائم[13].

2: فرنسا في مواجهة هابسبورغ

العصر: النصف الأول من القرن السادس عشر

القوة الحاكمة: فرنسا

القوة الصاعدة: هابسبورغ

مجال الصراع: القوة البرية في غرب أوروبا

المحصلة النهائية: حرب هابسبورغ - فالْوَا (1519–1559)،
بما في ذلك الحرب الإيطالية (1521–1526)

لقد شجّع انتخاب الملك تشارلز ملك إسبانيا عام 1519، كإمبراطور روماني مقدس، آل هابسبورغ الصاعدين، ومثَّل تحديًا للتفوُّق الفرنسي في أوروبا. ولأن العاهل الفرنسي فرنسيس الأول كان عازمًا على الحفاظ على النفوذ الفرنسي في أوروبا الغربية، وخوفًا من تطويق آل هابسبورغ لأراضيه، قام بحشد حلفائه، لغزو الأراضي التي يسيطر عليها آل هابسبورغ، ويبدأ بذلك أربعين عامًا من الحرب المتقطعة بين القوتين المتخاصمتين، انتهت بسيادة آل هابسبورغ، على مدار قرن كامل.

بعد تفكيك دوقية بورغوندي Duchy of Burgundy القوية، وضم نصفها عام 1477، وبعد ضم دوقية بريتاني Brittany عام 1491، دخلت فرنسا القرن السادس عشر كقوة برية مهيمنة على أوروبا الغربية. وقد دفع ازدهار فرنسا المتنامي البابا ليو العاشر Leo X إلى أن يعلن في عام 1519، أن فرانسيس الأول ملك فرنسا " قد تجاوز كل الملوك المسيحيين، سواء من حيث الثروة أو من حيث السلطان"[14]. في تلك السنة، كان فرانسيس واحدًا من المتنافسين البارزين على خلافة ماكسيميليان الأول كإمبراطور روماني مقدس، ولكن ما اعترى عملية الاختيار من فساد، أدى

إلى منح اللقب إلى خليفةٍ من آل هابسبورغ، تشارلز ملك إسبانيا. وفور انتخاب تشارلز، الذي شكَّل إضافة هائلة لقوة آل هابسبورغ الصاعدة، توقع فرانسيس الأول "نشوب الحرب، ليس ضد الكفَّار، بل بينه وبين تشارلز"[15].

أثار تعيين تشارلز كثيرًا من المخاوف في نفس فرانسيس. لقد كانت هناك قائمة من النزاعات المتشابكة بين العاهليْن: نزاع على نافاري (التي كانت في حيازة آل هابسبورغ بينما يطالب بها الفرنسيون)، ونزاع حول بورغوندي (التي كانت في حيازة فرنسا، بينما يطالب بها آل هابسبورغ)، بالإضافة إلى السيطرة على دوقية ميلانو. هذه القائمة من النزاعات كانت تشير إلى أن الميزة الجديدة التي فاز بها تشارلز، تشكل تهديدًا خطيرًا للنفوذ الفرنسي. كما أنها زادت من احتمالات تطويق فرنسا بأراضٍ خاضعةٍ لسيادة آل هابسبورغ[16].

ازداد نفوذ الملك الإسباني، وتصاعد قلق جيرانه، إذ عزز سيطرته على أجزاء من الإمبراطورية الرومانية المقدسة في هولندا، كانت خاضعة من قبل لسيطرة آل هابسبورغ، ومناطق تقع في فرانش كونتي Franche-Comté، وإيطاليا الحديثة، وإمبراطورية إسبانيا في العالم الجديد. وقد لاحظ المؤرخ جون لينش John Lynch: "سواء كان تشارلز الخامس يتطلع إلى إمبراطورية عالمية أم لا، فقد كانت سلطته، حتى بدون حساب أي من المناطق الخلافية، أي ميلان وبورغوندي، قد أصبحت سلطة عالمية بالفعل، وألحقت الأذى بكثير جدًا من المصالح، إلى حدٍ أثار استياءً واسع النطاق"[17]. وقال المؤرخ روبرت كنيكت Robert Knecht إن فرانسيس كان قد عبَّر عن هذه المخاوف قبل تتويج تشارلز إمبراطورًا مقدسًا، وسعى إلى الحصول على هذا المنصب، لأنه كان يرى أن تشارلز، حال فوزه، وبالنظر إلى حجم ممالكه وممتلكاته، سوف يلحق به أضرارًا لا يمكن تقدير حجمها[18].

وفي محاولة لإيقاف صعود تشارلز، دفع فرانسيس حلفاءه لغزو الأراضي التي يسيطر عليها آل هابسبورغ، في لوكسمبورغ ونافاري (التي

تشغل جزءًا من شمال شرق إسبانيا وجنوب غرب فرنسا في الوقت الحاضر). وقد ردَّ تشارلز بحشد تأييد الإنجليز والبابا ودعمهما ضد عدوان فرنسا، كما شنَّ حملة ناجحة على المقاطعات الفرنسية في إيطاليا. وقد أُسِر فرانسيس في معركة بافيا عام 1525، وسُجِن في مدريد. ولتأمين الحصول على حريته، اضطُّر فرانسيس إلى التوقيع على معاهدة مدريد عام 1526، التي تخلى بموجبها عن مطالبه في إيطاليا وبورغوندي وفلاندرز وأرتوا. وقد أثارت قوة تشارلز المتنامية، ومعاملتُه المُهينة للعاهل الفرنسي، هزاتٍ في جميع أنحاء أوروبا، مما سهَّل على فرانسيس، إلى حدٍ كبير، تشكيل تحالفٍ مضاد فور عودته إلى باريس. وقد ضم ذلك التحالف شركاء غير مُتوَقعين مثل البابا الجديد كليمنت السابع Clement VII، والسلطان العثماني سليمان القانوني (يمكن النظر إلى الحالة 3). غير أن ذلك لم يكن كافيًا لمنع تشارلز من غزو أجزاء كبيرة من إيطاليا في أوائل عام 1527، وهو الغزو الذي بلغ ذروته بصدمة الاستيلاء على روما، وأسر البابا كليمنت نفسه في أيار/مايو من العام نفسه.

وقد استمر الصراع بين فرنسا وهابسبورغ، على نحو متقطع، إلى أواخر خمسينيات القرن السادس عشر، حتى عندما بدأ صعود الإمبراطورية العثمانية يهدد سلطة هابسبورغ. عند هذه النقطة، وبعد أن استنفد الطرفان مواردهما المالية، وافقا على تعليق أعمالهما القتالية. وقد مهد السلام الطويل الطريق لملك هابسبورغ الإسباني الجديد، فيليب الثاني Philip II، لممارسة "سيادة لا ينازعه عليها أحدٌ في العالم المسيحي"[19]، بينما عاشت فرنسا عقودًا من الاضطرابات الداخلية، خلال ما عرف باسم الحروب الفرنسية الدينية(*) French Wars of Religion. وقد استُؤنِف الصراع في أوائل القرن السابع عشر، حيث واجه ملك إسبانيا فيليب الرابع، فرنسا الصاعدة في

(*) سلسلة من الحروب الداخلية الطاحنة بين الكاثوليك والبروتستانت. بدأت تلك السلسلة عام 1562، واستمرت لمدة 36 عامًا، إذ انتهت عام 1598. وقد سقط أثناء تلك الحروب وبسببها أكثر من 3 ملايين شخص، قُتل بعضهم أثناء الأعمال الحربية المباشرة، ولقي البعض الآخر حتفه بسبب ما نتج عن تلك الحروب من أوبئة ومجاعات. (المُعرِّب)

عهد الملك لويس الثالث عشر. وفي عهد خليفته لويس الرابع عشر، الملقب بملك الشمس، أصبحت فرنسا، مرة أخرى، القوة القارّية المهيمنة في أوروبا.

3: هابسبورغ في مواجهة الإمبراطورية العثمانية

العصر: القرنان السادس عشر والسابع عشر

القوة الحاكمة: آل هابسبورغ

القوة الصاعدة: الإمبراطورية العثمانية

مجال الصراع: النفوذ البري في شرق ووسط أوروبا، والنفوذ البحري في البحر المتوسط

المحصلة النهائية: الحروب العثمانية – الهابسبورغية، بما في ذلك حروب السلطان سليمان القانوني(*) Suleiman the Magnificent (1526-1566)، والحرب الممتدة Long War (1593–1606)، والحرب التركية الكبرى Great Turkish War (1683-1699).

في أوائل القرن السادس عشر، هدد التوسع السريع للإمبراطورية العثمانية على الأرض، وتزايد مواردها، بتغيير الوضع الراهن في أوروبا التي يهيمن عليها الهابسبورغيون، خاصة بعد أن تحولت الطموحات التركية للتوسع باتجاه أوروبا الشرقية والبلقان إلى حقيقة واقعة. وقد وضع هذا التوسع القوتين كلٌّ في مواجهة الأخرى، في سلسلة من الحروب التي شملت استيلاء العثمانيين على معظم أجزاء أوروبا الشرقية، وأكدت صعود الإمبراطورية إلى القمة متفوقة على غيرها من الدول الأوروبية.

مع انتخاب الملك الهابسبورغي القوي تشارلز الخامس إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا عام 1519، بدا أن إقامة "ملَكية شاملة، يحكم من خلالها آل هابسبورغ شعبًا موحدًا ومرة أخرى من المسيحيين الكاثوليك الصرف، أصبحت احتمالاً واقعيًا"[20]. وعندما هزم تشارلز فرنسا في الحرب

(*) سليمان خان الأول بن سليم خان الأول، عاشر سلاطين الدولة العثمانية. وُلِد سليمان في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1494، وقد حكم الدولة العثمانية من 20 أيلول/سبتمبر 1520، وحتى وفاته في 6 أيلول/سبتمبر 1566. وخلال فترة حكم سليمان القانوني، التي امتدت 46 عامًا، وصلت الإمبراطورية العثمانية إلى أقصى اتساع لها، كما أصبحت أقوى دولة في العالم. عُرف سليمان الأول في الغرب باسم سليمان العظيم لمكانته ومكانة الدولة العثمانية في عهده، بينما عُرف في الشرق بسليمان القانوني، لدوره الرائع في إصلاح النظام القضائي للدولة العثمانية، وإعلاء شأن القانون في حياة مواطنيها، حكامًا ورعايا. (المُعرِّب)

الإيطالية بعد خمس سنوات (يمكن النظر إلى الحالة 2)، حقق مركزًا مهيمنًا في أوروبا، حيث سيطر على النمسا، وإسبانيا، وجنوب إيطاليا، وهولندا كما نعرفها حاليًا. وفي عام 1525، سعى فرانسيس الأول، الملك المهزوم، في محاولة يائسة لاستعادة نفوذه، إلى التحالف مع العدو السابق لجميع القوى الأوروبية العظمى، ألا وهو الإمبراطورية العثمانية، التي يحكمها السلطان سليمان القانوني. وكما كتب المؤرخ خليل إينالجك Halil Inalick: كان العثمانيون يمثلون لفرنسيس "القوة الوحيدة القادرة على ضمان بقاء الدول الأوروبية في مواجهة تشارلز الخامس"[21].

كان الطموح العثماني أمرًا لا يمكن إنكاره. ففي منتصف القرن السابق، استولى السلطان محمد الفاتح على العاصمة البيزنطية القسطنطينية، وزرع في جميع أنحاء أوروبا المسيحية الخوف من "سياسة غزو ما فتئت تزداد عدوانية"[22]. وفي مطلع القرن السادس عشر، حولت الحرب العثمانية الثانية مع البندقية الإمبراطورية العثمانية إلى قوة بحرية هائلة، تمتلك أكثر من 400 سفينة بحلول عام 1515، وأكثر من 100 رصيف بحري على البحر الأسود بحلول أوائل العشرينيات من القرن السادس عشر[23]. وقبل ثمانية أعوام من نداء فرانسيس، كان العثمانيون قد أكملوا غزو الإمبراطورية المملوكية، وضموا مصر كما نعرفها اليوم، وسوريا، وشبه الجزيرة العربية، فضاعفوا بذلك ممتلكات السلطان من الأراضي، ووسعوا قاعدته الضريبية. ووفقًا لأندرو هيس Andrew Hess، فإن هذه الفتوحات "عززت الدولة العثمانية إلى درجة يتعذر قياسها"، مما وفر لها منافع اقتصادية، وأكسبها شرعية دينية في العالم الإسلامي[24]. واستخدم العثمانيون ثرواتهم وقوتهم البحرية الجديدة ليوسعوا مجال نفوذهم غربًا في البحر الأبيض المتوسط، وإلى الشمال الغربي باتجاه فيينا[25]. وخلف جدران فيينا، كانت تقع إمبراطورية تشارلز الرومانية المقدسة.

في عام 1526، هاجم سليمان القانوني المجر، واستولى على ثلث أراضيها، بعد انتصاره في معركة موهاتش Mohács. وقد توفي لويس الثاني

ملك المجر، أثناء تقهقره أمام القوات العثمانية. وبينما كان سليمان يتقدم باتجاه الحدود النمساوية، أصبح تشارلز، كما قال ريتشارد ماكِّينّي Richard Mackenney، "مشغولاً" بالغزاة "قاهري الجميع، الذين لا يُقْهرون". وفي عام 1527، دعا تشارلز المجلس التشريعي الإسباني إلى الانعقاد "لتنظيم وسائل الدفاع اللازمة لمواجهة الأتراك"[26]، الذين كان هدفهم النهائي، كما أدرك تشارلز، الإمبراطورية الرومانية المقدسة نفسها. "وهنا، يمكن أن يتعرض عدوهم الرئيسي، آل هابسبورغ، والأمراء الألمان الذين يدعمونهم، إلى ضربة قاصمة"، هكذا كتب المؤرخ بريندان سيمّز Brendan Simms، الذي أضاف: "علاوة على ذلك، لن يستطيع سليمان الادعاء بحق الإمبراطورية العثمانية في أن ترث الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إلاّ من خلال احتلال ألمانيا"[27].

ظهرت الشرارة التي أشعلت الحرب بين القوتين بسرعة، فخوفًا من أن يستغل العثمانيون فراغ السلطة الذي تعاني منه المجر بعد وفاة لويس الثاني، نصَّب أسقف هابسبورغ النمساوي فرديناند الأول Ferdinand I نفسه ملكًا على المجر وبوهيميا. وبدعم من منافس فرديناند الرئيسي على عرش المجر، جون زابوليا أمير ترانسلفانيا John Zápolya of Transylvania، رد السلطان سليمان على تلك الخطوة بفرض حصارٍ على فيينا، عام 1529.

ورغم نجاح فرديناند في صد الهجمات العثمانية على فيينا مرتين، فقد فشل في استعادة الكثير من الأراضي في المجر، أو تسجيل أي انتصار بحري كبير في البحر الأبيض المتوسط، فاضطر إلى قبول هدنة مُهينة في أدريانوبل Adrianople عام 1547. فقد فرضت شروط تلك الهدنة عليه التخلي عن معظم مطالب هابسبورغ في المجر، ودفع جزية باهظة عن تلك الأجزاء الصغيرة التي بقيت تابعة إسميًا لهابسبورغ. كما أشارت شروط الهدنة إلى تشارلز الخامس، لا بصفته إمبراطورًا، ولكن كمجرد ملك لإسبانيا، الأمر الذي أتاح لسليمان أن يعلن نفسه "قيصرًا فعليًا" للعالم كلِّه[28].

وقد عزز انتصارُ الإمبراطورية العثمانية موقعَها كلاعب أساسي في

المشهد السياسي الأوروبي. فواصلت اختبار حدود توسعها في أوروبا الوسطى والبحر الأبيض المتوسط خلال القرن ونصف القرن التاليين، حتى عندما عانت نكسة بحرية في معركة ليبانتو Lepanto عام 1571. ولم يتمكن أمير هابسبورغ يوجين السافوايي Eugene of Savoy من استعادة معظم أجزاء المجر، إلاَّ عند ختام الحرب التركية الكبرى عام 1699، لترتد حركة التوسع العثماني في أوروبا على عقيبها بشكل حاد، وليتواصل التدهور المطول للعثمانيين، وصولاً إلى القرن العشرين.

4: آل هابسبورغ في مواجهة السويد

العصر: النصف الأول من القرن السابع عشر

القوة الحاكمة: آل هابسبورغ

القوة الصاعدة: السويد

مجال الصراع: النفوذ البري والبحري في شمال أوروبا

المحصلة النهائية: جزء من حرب الثلاثين عامًا (تورطت السويد خلال الفترة 1630 – 1648)

عندما انتُخِب فرديناند الثاني إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا عام 1619، كان أقوى حاكم في وسط أوروبا. فقد امتدت إمبراطوريته المدعومة بالسلطة البابوية، من البحر المتوسط إلى شمال ألمانيا. غير أن صعوده إلى السلطة تزامن مع واحد من أكبر التهديدات التي واجهتها الإمبراطورية على الإطلاق: صعودُ الشمال اللوثري Lutheran north. فقد تحولت محاولات فرديناند لسحق حالات معزولة من التمرد اللوثري، وإعادة تأكيد حكم آل هابسبورغ، إلى ما يُعرف تاريخيًا باسم "حرب الثلاثين عامًا"(*)، كما أنها أقحمته في صراع مع القوة الأسرع صعودًا في المنطقة، وهي السويد.

(*) اشتعلت الشرارة الأولى لهذه الحرب، أو بالأحرى لهذه السلسلة من الحروب، عندما حاول آل هابسبورغ The Habsburgs، الذين كانوا يحكمون النمسا، فرض المذهب الكاثوليكي على رعاياهم الذين كانوا يعتنقون المذهب البروتستانتي. وهذا ما أدى إلى إشعال نيران ذلك المسلسل الدموي بين البروتستانت والكاثوليك، وبين الإمبراطورية الرومانية وفرنسا، وبين ألمانيا والإمبراطورية الرومانية، وبين فرنسا وإسبانيا. كما تورطت في تلك الحروب، طواعيةً أو مكرهةً، دول أخرى من بينها روسيا وهولندا وسويسرا. وقد راح ضحية لهذه الحرب أكثر من 8 ملايين إنسان. ومع نهايتها كانت خريطة أوروبا الجغرافية والسياسية بل والدينية قد تغيّرت بشكل ملحوظ. فقد استقلت سويسرا عن النمسا، واستقلت هولندا عن إسبانيا، وفازت السويد ببعض

خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، وتجاوبًا مع حركات التمرد الوليدة في المقاطعات الألمانية الشمالية، تطوعت عدة قوى بروتستانتية من خارج الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بما في ذلك إنجلترا والجمهورية الهولندية، لتمويل إرساء ولاية بروتستانتية قوية عسكريًا في شمال ألمانيا، لمواجهة الجنرال الإمبراطوري ألبريخت فون فالِّنشتايْن Albrecht von Wallenstein. وكان كريستيان الرابع Christian IV، ملك الدانمارك، أول ملك ينال هذه الفرصة. كان كريستيان أقل قوة ومهارة من خصمه، لذلك سرعان ما وجد نفسه مطرودًا إلى الدانمارك، تاركًا خلفه الإمبراطور الروماني المقدس فرديناند الثاني أكثر سلطة ونفوذًا، كقوة مهيمنة على جميع أنحاء ألمانيا وبقية شمال أوروبا. لقد أثار وصول فالِّنشتايْن إلى شواطئ بحر البلطيق، وخطته التي ترمي إلى تأكيد سيطرته على بحر البلطيق من خلال بناء أسطول هابسبورغ الشمالي، انزعاجًا شديدًا لملك السويد، القوة الأسرع صعودًا في المنطقة.

فمن خلال الحروب التي خاضها ملك السويد غوستافوس أدولفوس Gustavus Adolphus، ضد الدنمارك وروسيا وبولندا، رسَّخ موقعه كواحدٍ من أكثر القادة قدرة في أوروبا. ومن خلال مزيج من النمو الاقتصادي، والابتكار العسكري، والتوسع الإقليمي، استطاع أن يُحوِّل السويد من دولة فقيرة ومتخلفة، إلى واحدة من أقوى الإمبراطوريات في أوروبا. فبين عامي 1590 و1630، ارتفع عدد جنود الجيش السويدي الإقليمي البسيط من 15 ألف إلى 45 ألف جندي[29]. وقد ساعدت الطرق المبتكرة في استخدام المدفعية، ونظام التجنيد الإلزامي (الأول من نوعه في أوروبا)، على بناء آلة عسكرية مجهزة تجهيزًا جيدًا[30]. كما سمحت انتصارات غوستافوس المتتالية، على روسيا عام 1617، وعلى الكومنولث البولندي الليتواني عام

المقاطعات فضلًا عن تعويضات مادية، واستحوذت فرنسا على معظم أجزاء إقليم الألزاس واللورين Alsace-Lorraine، وأخيرًا وليس بآخرٍ، توقفت محاولات الإلغاء المتبادلة بين الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية. (المُعرِّب)

1625، بتعزيز سيطرة السويد على دول البلطيق. وبعد الاستيلاء على جزء من بولندا عام 1629، أصبحت السويد تسيطر على "جميع الموانئ المهمة التي تقع على الشاطئ الجنوبي لبحر البلطيق"[31].

لم يغفل الجنرال الهابسبورغي فالِّنشتايْن عن التحدي الذي يمثله هذا التوسع السويدي. وكما يلاحظ المؤرخ الإنجليزي صموئيل غاردينر Samuel Gardiner، فإن فالِّنشتايْن "كان يشعر بالقلق منذ فترة طويلة، بسبب الخطر الذي يتهدده من السويد... حيث لا يمكن لأي إنسان أن يتوقع أن يكتفي غوستافوس بمراقبة هادئة، بينما تتشكل قوة عسكرية عظمى على الساحل الجنوبي لدول البلطيق"[32]. ووفقًا للمؤرخ بيتر ويلسون Peter Wilson، اعتبر فالِّنشتايْن "خطة البحرية الامبراطورية خطة دفاعية بحتة"، كوسيلة لحماية هيمنة هابسبورغ على شمال أوروبا، حيث كان "يخشى بالفعل تدخلاً سويديًا"[33].

ولكن، تبيَّن لاحقًا أن ما اعتبره الهابسبورغيون تدبيرًا دفاعيًا، كانَ أكثر استفزازيةً مما أُريدَ له أن يكون. فقد مارس غوستافوس ضغوطًا من أجل تدخلٍ عسكريٍ مسلحٍ في ألمانيا، على أساس أن آل هابسبورغ كانوا يسعون لاحتواء النمو السويدي، وأنها لا تزال تمثِّل تهديدًا وشيكًا لأمن السويد. لقد بدأ غوستافوس في النظر إلى المواجهة العسكرية باعتبارها أمرًا حتميًا لا مفر منه[34]. ووفقًا للمؤرخ بريندان سيمّز Brendan Simms، دفع غوستافوس أمام البرلمان السويدي Swedish Rijkstag، بأن من الأفضل "التصرف بشكل استباقي لنقل ميدان المعركة وويلاتها إلى أرض العدو"[35]. وفي عام 1627، أخبر غوستافوس نبلاءه: "العصبة الكاثوليكية تقترب مِنَّا رويدًا رويدًا، تمامًا كما تتوالى الموجاتُ واحدةً بعد الأخرى. لقد أخضعوا بالقوة جزءًا كبيرًا من الدانمارك، وهنا يجب أن نفهم أنهم سوف يتقدمون بسرعة نحو حدودنا، إذا لم يُقاوَموا بقوة في الوقت المناسب"[36]. وكما فعلت كثير من القوى الصاعدة التي تواجه محاولات احتواءٍ من قِبَل قوة راسخة، اتهم غوستافوس عدوَّه، بما كان هو، على وجه التحديد، يوشك على القيام به: مواصلة التوسع وإطلاق التهديدات العسكرية.

ورغم أن دوافع غوستافوس كانت أمنيّة في المقام الأول، راح يلتمس الدعم المالي عن طريق إعلان نفسه بطلاً للبروتستانت في مواجهة الإمبراطورية الكاثوليكية. وقد ساعده هذا النهج على الحصول على تمويل من جميع أنحاء أوروبا. حتى باريس، قدمت دعمًا كبيرًا، حيث كانت تسعى إلى التحقق من قوة آل هابسبورغ، وترغب في الحفاظ على موقع مؤثر لها، في إطار نظام محتمل ما بعد الحرب، تهيمن عليه السويد[37]. وهكذا، وفقًا للمؤرخ مايكل روبرتس Michael Roberts، "أصبحت القضية البروتستانتية قضية السويد أيضًا؛ وأصبح الساحل الشمالي الألماني شأنًا سويديًا"[38]. بدأ غوستافوس هجومه على يوزدوم Usedom، بالقرب من الحدود البولندية الألمانية، في يوليو 1630. وقد أحرز السويديون نجاحاتٍ مبكرة، حيث استولوا على بوميرانيا Pomerania، ثم تحركوا إلى الداخل. ومع تزايد قوة غوستافوس، تزايدت طموحاته: لقد عقد العزم على "إضعاف الإمبراطور"، و"التأكد من أنه لن يكون، أبدًا، في وضع يُمكِّنه من أن يشكل خطرًا مرة أخرى"[39].

ورغم أن غوستافوس نفسه قُتل أثناء المعركة، حققت السويد انتصارات حاسمة، أبرزها في معركة ويتستوك Wittstock عام 1636. وخلال الحرب، احتلت القوات السويدية نصف ألمانيا، وانعكس نصر السويد في تسوية جاءت لصالحها، من خلال معاهدة سلام ويستفاليا عام 1648[*]. لقد أصبحت السويد أقوى دولة في شمال أوروبا، وثالث أكبر دولة في القارة (بعد روسيا وإسبانيا). واستمر ما يطلق عليه المؤرخون "عصر عظمة السويد" حتى أوائل القرن الثامن عشر.

(*) وُقعت هذه المعاهدة في مدينة ويستفاليا Westphalia التي تقع في الشمال الغربي لألمانيا في 24 تشرين الأول/أكتوبر 1648، لتنهي مسلسل حرب الثلاثين عامًا الذي كان قد بدأ عام 1618. ومن أفضل ما كتب عن هذه المعاهدة، وأكثره إيجازًا، عبارة للمؤرخ الشهير بيتر ويلسون Peter Wilson يقول فيها: "لا تكتسب معاهدة ويستفاليا أهميتها من كمِّ الصراعات التي سعت إلى حلِّها، بل من الطرق والنماذج التي وظفتها لتحقيق ذلك الهدف... دول مستقلة تتفاعل (بشكل رسمي) على قدم المساواة داخل إطارٍ قانونيّ مُعَلْمَنٍ secularized، بغضّ النظر عن حجم كل دولة وقوتها، أو مكوناتها". (المُعرِّب)

5: الجمهورية الهولندية في مواجهة انجلترا

العصر: من منتصف القرن السابع عشر إلى أواخره

القوة الحاكمة: الجمهورية الهولندية

القوة الصاعدة: إنجلترا

مجال الصراع: إمبراطورية عالمية، والنفوذ البحري، والتجارة

المحصلة النهائية: الحرب الأنجلو - هولندية (1652-1674)

في الوقت الذي حصلت فيه الجمهورية الهولندية على اعتراف كامل باستقلالها من خلال معاهدة ويستفاليا عام 1648، كانت قد ظهرت بالفعل كقوة تجارية أوروبية بارزة. وسرعان ما أدخلتها هيمنتُها على البحار، وإمبراطوريتُها الاستعمارية الوليدة، في صراع مع الإنجليز، الذين وسّعوا ممتلكاتهم في أمريكا الشمالية وحضورهم التجاري في جزر الهند الشرقية. وخلال عدد من الحروب البحرية الأنجلو - هولندية، بقيت هيمنة الجمهورية الهولندية صامدة، إلى أن توحدت جهود الدولتين خلال ما عُرف بثورة 1688 المجيدة (*) Glorious 1688 Revolution.

احتلت الجمهورية الهولندية مركز الصدارة في مجال التجارة الدولية، في منتصف القرن السابع عشر، من خلال المراكز التجارية التابعة لها عبر طريق الحرير، وفي أمريكا الجنوبية، وغرب أفريقيا، واليابان، وجزر المحيط الهادي، وكذلك المستعمرات في الهند، وما أصبح في ما بعد نيويورك. وقد استغلت هولندا هذه المكانة لبناء نظام عالمي "لا يعرف حدودًا"، مما مكّنها وهي بلد صغير الحجم، من ترجمة الإنتاجية والكفاءة العاليتين إلى قوة سياسية واقتصادية هائلة. وهكذا منحت طرقُ التجارة المربحة شركةَ الهند الشرقية الهولندية Dutch East India Company، المملوكة للقطاع العام، دورًا رائدًا في تجارة التوابل العالمية.

(*) الثورة المجيدة Glorious Revolution، أو ثورة 1688، هي الثورة التي قام بها أنصار الحياة النيابية في إنجلترا. وقد أطاحت هذه الثورة بجيمس الثاني ملك إنجلترا، وهو الذي يطلق عليه أحيانًا جيمس السابع ملك إسكتلندا، ونصّبت مكانه ابن شقيقته وزوج ابنته ويليام الثالث الحاكم العام لهولندا. وقد أسفرت هذه الثورة عن صدور إعلان الحقوق الإنجليزي Bill of Rights، عام 1689. (المُعرِّب)

وقد شَيَّد الهولنديون، الذين يمكن القول بأنهم كانوا حينها أكثر الأوروبيين تقدمًا في الملاحة البحرية، أسطولاً يتناسب مع إمبراطوريتهم التجارية الضخمة في ما وراء البحار. ومع ذلك، لن يمر وقت طويل قبل أن تسعى إنجلترا إلى توسيع حصتها من التجارة والسيطرة على البحار، وإنشاء مستعمرات منافسة على الساحل الأمريكي الشرقي. كما بدأ الإنجليز في التشبث بالوصول إلى طرق لتجارة التوابل فأنشأوا شركة مثيلة هي شركة الهند الشرقية الإنجليزية، في الوقت الذي وسَّعوا فيه أسطولهم البحري (من 39 سفينة رئيسية في عام 1649 إلى 80 سفينة عام 1651)، ليكون قادرًا على حماية النقل البحري الإنجليزي. وبحلول عام 1650، ارتفع حجم القوة العسكرية الإنجليزية (الذي ظل بين 20 و30 ألف رجل من عام 1470 حتى عام 1600)، إلى أكثر من الضعف، ليصل إلى 70 ألف، وفي أعقاب الحرب الأهلية الإنجليزية أصبحت تلك القوة على درجة من الاحترافية أعلى بكثير مما كانت عليه[40].

كانت نوايا إنجلترا بشأن التفوق الاقتصادي الهولندي واضحة لا لبس فيها .ففي منتصف السلسلة القادمة من الحروب، قال الجنرال الإنجليزي جورج مونك George Monck عن محاربة الهولنديين: "ما أهمية هذا السبب أو ذاك؟ ما نريده هو الجزء الأكبر من التجارة التي يمتلكها الهولنديون الآن"[41]. ويشرح ذلك المؤرخ ج. ر. جونز J. R. Jones: "لقد كانت السياسات الخارجية والتجارية المُغامِرة" من بين الطرق التي لجأ إليها وزراء تشارلز الثاني "لزيادة سلطة التاج، وتعزيز صلاحياته"[42].

كان المسؤولون الهولنديون يشعرون بقلق بالغ حيال ما اعتبروه، وهم محقون في ذلك، سعي إنجلترا الدؤوب إلى امتلاك النفوذ التجاري والوسائل العسكرية اللازمة للدفاع عنه. وقد وصف المؤرخ بول كينيدي النفوذ الهولندي بأنه كان "راسخًا بقوة في عالم المال والتجارة والصناعة"[43]. وإذا لم تُكبح إنجلترا، فهي قد تُنهي السيطرة الهولندية على البحار وتهدد وضع هذه الدولة الصغيرة كقوة عظمى[44].

وهكذا أصبح نزاعٌ اقتصادي في ظاهره نزاعًا جيوسياسيًا. وكما يرى الباحث السياسي جاك ليفي Jack Levy، تميزت هذه الفترة بـ"تحوُّل التنافس التجاري إلى تنافس استراتيجي، لم يلبث أن تصاعد إلى حرب. يرى البعض أن أول حربين بحريتين بين إنجلترا وهولندا كانتا حربين تجاريتين خالصتين، إلا أن التفسير الاقتصادي البحت مسألة مضللة. ففي واقع الأمر، ترجع الإمكانات التصعيدية للنزاع الاقتصادي، في جزء كبير منها، إلى العلاقة الوثيقة بين القضايا الاقتصادية والقضايا الاستراتيجية"[45]. ويوافق المؤرخ جورج إدموندسون George Edmundson على أن كلاً من هاتين الدولتين "كانت تدرك غريزيًا أن مصيرها مكتوب على سطح الماء، وأن السيادة على البحار ضرورة لا غنى عنها للوجود الوطني"[46].

في عام 1651، رفض الهولنديون محاولات الإنجليز لتوقيع معاهدة توحِّد البلدين ضد القوى الكاثوليكية في أوروبا، وربما كانت إنجلترا تهدف إلى التسلل من خلال هذه المعاهدة إلى التجارة الهولندية. وردًّا على هذا الرفض، أقرَّ البرلمان الإنجليزي، الذي تتزايد ثقته بنفسه وبلده، أول قانون للملاحة، يحظر دخول أية واردات أوروبية إلى إنجلترا، إذا كانت محمَّلة على سفن يملكها طرفٌ ثالث، ويحظر على السفن الأجنبية نقل الواردات إلى إنجلترا أو مستعمراتها في آسيا، أو إفريقيا، أو أمريكا. لم يكن هدف هذا التشريع سرًا في لندن أو لاهاي: فقد كان جزء كبير من الأسطول التجاري الهولندي، يركز على هذا النوع من النشاط بالتحديد.

عالِم الاجتماع إيمانويل والِّرشتاين Immanuel Wallerstein، يصف تصرفات إنجلترا قائلاً: "بما أن الهولنديين كانوا في الواقع تسلُّطيين، لم يكن هناك سوى طريقتين محتملتين لتعزيز التجارة الإنجليزية: أن تقدِّم الدولة مساعداتٍ للتجار الإنجليز، أو أن تفرض قيودًا على التجار الأجانب... وهو ما يجعل من الصعب تصوُّر كيف كان يمكن تجنُّب اختبار القوة العسكرية. لقد استُفِزَّ الهولنديون بشدة، حتى لو ظن البريطانيون أن

قراراتهم كانت مجرد إجراءات دفاعية[47]. وقد تزايد غليان التوترات في بحر الشمال في السنة التالية، عندما دفعت المواجهةُ إنجلترا إلى إعلان الحرب، لتبدأ أولى الحروب البحرية الإنجليزية - الهولندية الثلاثة، التي دارت رحاها بين عامي 1652 و1674. ورغم أن تلك الحروب أدت إلى استيلاء إنجلترا على نيويورك، وإلى نمو هائل في حجم الأسطول البريطاني (بإضافة أكثر من 200 سفينة خلال الفترة التي وقعت بين إعدام تشارلز الأول[*] Charles I عام 1649 وعودة الهدوء والنظام إلى البلاد عام 1660)[48]، أثبتت البحرية الهولندية أنها الأقوى في أوروبا، وألحقت بالإنجليز هزيمة ساحقة من خلال الهجوم الذي شنته على ميدواي Medway، عام 1667.

في النهاية، حافظت هولندا على سيادتها البحرية والتجارية، وتلاشى التنافس الإنجليزي - الهولندي مع غزو بريطانيا من قبل الأمير الهولندي ويليام الثالث، والثورة المجيدة التي تلت ذلك في عام 1688. وبعد ذلك وحَّدت الدولتان جهودهما لمواجهة عدو ويليام اللدود، لويس الرابع عشر ملك فرنسا.

(*) هو تشارلز الأول، ابن جيمس السادس James VI ملك إسكتلندا، وُلِد في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1600. وفي سن الخامسة والعشرين تُوِّج ملكًا على الممالك الإنجليزية الثلاث، إنجلترا، وإسكتلندا، وايرلندا. كان تشارلز يؤمن بأن الملوك يتمتعون بحق إلهي، يعطيهم الحق في الحكم المطلق دون شريك أو رقيب، لذلك دخل في خلافات عنيفة مع أنصار الحياة النيابية، والسياسيين ورجال الحكم في عصره. ثم اتسعت دائرة معارضيه لتضم معظم فئات الشعب، عندما تزوج من الأميرة الفرنسية هنرييتا ماريا Henrietta Maria، وهي من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وكذلك بسبب تقاعسه عن نصرة التحالف البروتستانتي خلال حرب الثلاثين عامًا. وقد تسببت سياسات تشارلز وتصرفاته في إحداث انقسامات خطيرة في البلاد، ثم لم تلبث تلك الانقسامات أن تحولت إلى حرب أهلية دامت نحو تسع سنوات. ورغم هزيمة تشارلز ثم إعدامه في 30 كانون الثاني/يناير 1649، استمرت الحرب عامين آخرين، قبل أن تنتهي بانتصار ساحق لأنصار الحكم البرلماني. (المُعرِّب)

6: فرنسا في مواجهة بريطانيا العظمى

العصر: من أواخر القرن السابع عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر

القوة الحاكمة: فرنسا

القوة الصاعدة: بريطانيا العظمى

مجال الصراع: إمبراطورية عالمية، والنفوذ البري في أوروبا

المحصلة النهائية: حرب السنوات التسع (1689–1697)، وحرب وراثة العرش الإسباني (1701–1714)، وحرب وراثة العرش النمساوي (1740–1748)، وحرب السنوات السبع (1756–1763)

خلال فترة حكم لويس الرابع عشر، أصبحت فرنسا "القوة البارزة" في أوروبا[49]. غير أن مستعمرات بريطانيا العظمى المزدهرة في القارة الأمريكية، ونجاح ثورتها المجيدة، سرعان ما شجعاها على تحدي التفوُّق الفرنسي من خلال سلسلة من الحروب. في البداية، استمدت بريطانيا قوتها، بشكل أساسي، من تحالفها مع الجمهورية الهولندية، واعتمدت على هذا التحالف في صراعها مع فرنسا. ولكن مع استمرار نمو بريطانيا كقوة تجارية وبحرية تهدد التفوُّق الفرنسي القاري والاستعماري، امتدت ساحة الصراع بينهما، لتغطي العالم كله، وهو الصراع الذي انتهى بتحوُّل بريطانيا العظمى إلى قوة استعمارية مهيمنة، بلا شريك أو منازع.

رغم أن لويس الرابع عشر كان يتمتع بمركز المهيمن في أوروبا في أواخر القرن السابع عشر، فقد أدخله بحثُه المستمر عن الأمن المطلق لفرنسا في صراع مع تحالف كبير من القوى الأوروبية المعادية له. ورغم أنه كان، من الناحية العملية، في حالة سلام مع جيرانه، ظل يعزز موقعه بشكل منهجي عام 1680، من خلال الاستيلاء على مناطق عازلة على الحدود مع كل من ستراسبورغ Strasbourg، ولوكسمبورغ Luxembourg، وكازال Casale. وقد أرفق هذه المكاسب بمزيد من الحشد العسكري، الأمر الذي يشير إلى طموحات لمزيد من الغزوات. فبينما كانت فرنسا تمتلك بالفعل أكبر جيش في أوروبا (وبحلول عام 1689، أصبحت تمتلك أكبر أسطولٍ بحري فيها)، عزز لويس الرابع عشر مَنَعة القلاع الفرنسية، وأدخل 36 فرقة من المشاة إلى الخدمة، ووضع 140 ألف رجل آخر على أهبة الاستعداد لتلبية نداء الحرب[50].

أزعجت طموحات لويس جيرانه. وفي عام 1686، شكَّل الأمير الهولندي ويليام الثالث، بتشجيع من إمبراطور هابسبورغ الروماني المقدس ليوبولد الأول Leopold I، عُصْبة أوغسبورغ League of Augsburg، وهو تحالف من القوى التي تهدف إلى ضبط التوسع الفرنسي. وفي أيلول/ سبتمبر 1688، عبر الفرنسيون نهر الراين إلى فيلِّيبسبورغ Phillipsburg. وقد خاف ويليام من النفوذ الفرنسي على والد زوجته الكاثوليكي، جيمس الثاني ملك إنجلترا، الذي كان كثيرون من رعاياه يشعرون بالاستياء بسبب السلالة الكاثوليكية التي يُتوقع أن تخلفه على العرش. كذلك كان ويليام الثاني يعرف أن إنجلترا بدون جيمس الثاني، يمكن أن تكون حليفًا قويًا في قمع ازدهار وصعود فرنسا. وهكذا، بعد أقل من ستة أسابيع من عبور لويس الرابع عشر نهر الراين، غزا ويليام الثاني إنجلترا، بدعم من الكثير من الإنجليز المتعاطفين معه. ولاذ جيمس الثاني بالفرار. وفي عام 1689، أصبح البروتستانتي ويليام الثاني ملكًا على إنجلترا، وإلى جواره على العرش، زوجته الملكة ماري.

في أوائل عام 1689، حشدت عُصْبة أوغسبورغ قواها، ردًا على عبور لويس نهر الراين في الخريف الماضي. واستعادت بريطانيا، التي وحَّدت بينها وبين الجمهورية الهولندية قيادة مشتركة، مكانتَها كواحدة من الشركاء الرئيسيين للعُصْبة في حرب السنوات التسع Nine Years' War ضد فرنسا (1689–1697). وكما يقول المؤرخان ديريك ماكّاي Derek McKay وهـ. م. سكوتّ H. M. Scott: "إن ثورة ويليام المجيدة، كما أُطلِق عليها، أدخلت بريطانيا إلى المسرح القاري، بشكل حاسم، كقوة عسكرية، ودبلوماسية، وبحرية"[51].

ووفقًا للمؤرخ السير جورج كلارك Sir George Clark، فإن ويليام ورفيقه، زعيم عُصْبة أوغسبورغ، الإمبراطور الروماني المقدس، "اعتبرا الحرب فرصة لتقليص قوة فرنسا إلى مستوى يمكن أن تتقبله بقية دول أوروبا"[52]. ورغم أن الحرب نجحت، في نهاية المطاف، في تقويض

مخططات لويس الإقليمية، استؤنفت الأعمال العدائية في عام 1701، عندما وحَّد ويليام وآل هابسبورغ قواهما، للتصدي لمحاولة لويس الرابع عشر المخادعة لتنصيب أحد أقربائه من آل بوربون Bourbon على عرش إسبانيا. لم يتمكن التحالف من منع حفيد لويس من تولّي العرش، لكنه نجح في إجباره على التخلي عن بعض مستعمراته في العالم الجديد لصالح بريطانيا، من خلال معاهدة أوتريخت(*) Treaty of Utrecht.

جنت بريطانيا مكاسب اقتصادية كبيرة من مستعمراتها خلال القرن الثامن عشر، وذلك لعدة أسباب يرجع جزءٌ منها إلى المزايا التي حصلت عليها بموجب معاهدة أوتريخت. "فقد ارتفعت الصادرات إلى أمريكا الشمالية من متوسط سنوي قدره 525 ألف جنيه إسترليني في أواخر عشرينيات القرن الثامن عشر، إلى ما يزيد قليلاً على مليون جنيه إسترليني بعد عشرين عامًا"، وفقًا للمؤرخ لورانس جيمس Lawrence James[53]. كما استفاد البريطانيون من مجموعةٍ من الإصلاحات المالية القائمة على النموذج الهولندي[54]. وسبَّب نمو بريطانيا لمنافسيها الفرنسيين قلقًا بالغًا. فعلى حد تعبير المؤرخيْن روبرت وإيزابيلا تومس Robert and Isabelle Tombs، كان "المسؤولون الفرنسيون مذهولين من القوة المالية البريطانية، ومهووسين بها"[55]. لقد أثبت هذا النمو الاقتصادي حاجته إلى مزيد من التوسع العسكري: فبعد حرب وراثة عرش إسبانيا War of the Spanish Succession، تجاوز الأسطول البحري البريطاني قوة البحرية الفرنسية والإسبانية مجتمعتين[56]. كما أصبحت بريطانيا، بفضل قوتها المالية، قادرة على جمع الأموال بسرعة في أوقات الصراعات. ورغم القوة البرية الهائلة لفرنسا، "تمكنت بريطانيا، عندما

(*) يطلق هذا الاسم على سلسلة متوازية من المعاهدات الثنائية، التي أنهت ما يُعرف في تاريخ أوروبا بحرب وراثة عرش إسبانيا War of the Spanish Succession، التي استمرت 13 عامًا. وُقِّعت هذه المعاهدات خلال شهري مارس/آذار ونيسان/أبريل 1713، وقد شارك في التوقيع عليها ممثلون لفرنسا، وبريطانيا، وإسبانيا، والنمسا، إلى جانب ممثلي بعض الإمارات الصغيرة. من أبرز ما تضمنته المعاهدة من شروط، تعهُّد كل من فرنسا وإسبانيا بعدم السعي إلى الاتحاد تحت علم واحد، وملك واحد، تحت أي ظرفٍ من الظروف. (المُعرِّب)

تَحتّم عليها ذلك، من التفوُّق على فرنسا، وتخصيص ما يصل إلى خمسة أضعاف النسبة التي تخصصها عدوَّتُها من ناتجها القومي الإجمالي لتمويل النفقات العسكرية"، كما لاحظ روبرت وإيزابيلا تومس[57].

كذلك أدى نمو الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية السريع في أمريكا الشمالية، إلى تزايد الصراع مع الفرنسيين حول حقوق التجارة والأراضي. وهكذا، امتدت معارك حرب وراثة عرش النمسا War of the Austrian Succession عام 1740[*]، إلى القارة الأمريكية. وفي حين أنهى سلام عام 1748، الذي جرى توقيعه في إيكس لا شابيل Aix-la-Chapelle[**]، ذلك الصراع بانتصار آل هابسبورغ وبريطانيا، لم يفعل ذلك السلام شيئًا للتخفيف من حدّة التنافس الفرنسي-البريطاني، الذي "استمر وازداد عمقًا بعد عام 1748"، كما يقول المؤرخ الإنجليزي لورنس جيمس Lawrence James، الذي أشار إلى أن "الفرنسيين ظلوا على قناعتهم بأن عدوَّهم يهدف، على المدى الطويل، إلى خنق تجارتهم وتجريدهم من مستعمراتهم"[58]. وفي تأكيد لمخاوف فرنسا، أخذت بريطانيا على عاتقها عملية توسيعٍ هائلةٍ لقدراتها العسكرية، بعد انتهاء حرب وراثة عرش النمسا، بالإضافة إلى زيادة إنفاقها العسكري بين عامي 1740 و1760، بنسبة 500 في المائة، في حين تمكنت فرنسا من زيادة إنفاقها العسكري، خلال الفترة نفسها، بنسبة لا تتجاوز 150 في المائة[59].

في عام 1756، احتدم الصراع الفرنسي البريطاني خلال حرب السنوات السبع Seven Years' War. وقد أدى انتصار بريطانيا الحاسم على فرنسا في نهاية تلك الحرب عام 1763، إلى إعادة ترتيب كلية لميزان القوى في أمريكا الشمالية وأوروبا. ورغم أنها سوف تفقد قريبًا أجزاءً كثيرة من

(*) صراع دار لمدة ثماني سنوات في وسط أوروبا. وقد شاركت فرنسا في هذا الصراع على أمل الحط من شأن أعدائها التاريخيين آل هابسبورغ، بينما خاضته بريطانيا للدفاع عنهم.

(**) الاسم الذي يُطلق على مدينة آخِن Aachen الألمانية في اللغات الفرنسية واللاتينية والإنجليزية القديمة. (المُعرِّب)

إمبراطوريتها الأمريكية، لأسباب كثيرة من أهمها التدخل الفرنسي، استطاعت بريطانيا أن تنتزع موقع فرنسا كأكبر قوة إمبريالية في أوروبا، وهو الوضع الذي حافظت عليه حتى عهد نابليون.

7: المملكة المتحدة في مواجهة فرنسا

العصر: أواخر القرن الثامن عشر، وبدايات القرن التاسع عشر

القوة الحاكمة: بريطانيا العظمى/المملكة المتحدة

القوة الصاعدة: فرنسا

مجال الصراع: النفوذ البري والبحري في أوروبا

المحصلة النهائية: حروب الثورة الفرنسية (1792 – 1802) والحروب النابليونية (1803 – 1815)

من خلال الإبداع والسيطرة على البحار، تقدمت بريطانيا العظمى على منافسيها في أواخر القرن الثامن عشر، لتصبح واحدة من الدول الصناعية الرائدة في أوروبا. ولكن، بدايةً من الثورة الفرنسية، عادت الآلة العسكرية الفرنسية إلى الظهور من جديد، بعد إعادة تنشيطها. احتلت فرنسا النابليونية الكثير من الأراضي الأوروبية، وهدّدت التفوُّق البريطاني، مما قاد البلدين، بريطانيا وفرنسا، إلى مواجهة عنيفة. أما بريطانيا، فقد تمكنت، عبر تمويل قواتٍ مناهضةٍ لنابليون في أوروبا، والقتال ببراعة في البحر، من تجنُّب التعرض لغزو نابليوني وتسريع سقوط نابليون عن السلطة.

خلال ثمانينيات القرن الثامن عشر، أدت موجة الابتكارات البريطانية إلى تحوُّل محلي نحو التصنيع، وازدهار التجارة مع المستعمرات، حيث تضاعفت حركة الشحن التجاري بين عامي 1782 و1788[60]. وبحلول عام 1793، كانت بريطانيا تعتمد على 113 سفينة خطية[*] ship of the line،

(*) نوعية خاصة من السفن الحربية الشراعية الكبيرة، بدأ تشييدها في منتصف القرن السابع عشر، لتصبح العمود الفقري والقوة الرئيسية لأيّ أسطول. وقد بقيت هذه النوعية من السفن مستخدمة حتى ظهور الماكينات البخارية، في أربعينيات القرن التاسع عشر، فتغيرت بظهورها مواصفاتُ السفن الحربية والتجارية على حدٍ سواء. كانت السفن الخطية تُستخدم أساسًا لتنفيذ التكتيك القتالي المعروف باسم خط المعركة line of battle، حيث تصطفُّ السفن في خطين، ويبدأ الخطان في المناورة، كل خط في اتجاه، من أجل ضمان صبّ أقصى قدر من القذائف المدفعية الثقيلة على سفن العدو. (المُعرِّب)

لحماية هذه المصالح التجارية، ولتتضاءل أمام قوةِ سفنِها قوةُ السفنِ الـ 76 التي تملكها فرنسا، القوة التجارية والاقتصادية الأولى في أوروبا[61]. ورغم ذلك، لم يمض وقت طويل، حتى كانت بريطانيا، الدولة الجزرية الصغيرة، تواجه تحديًا جديدًا من قِبَل منافستها الكبيرة عبر القنال الإنجليزية.

ورغم أن الاقتصاد الفرنسي بقي متعثرًا خلال السنوات التي أعقبت ثورة 1789، هددت تطوراتُ فرنسا السياسية غير العادية، ونزعتُها العسكرية المتزايدة، الأوضاعَ الراهنة في أوروبا[62]. فبسبب القلق من الثورة الراديكالية المتصاعدة، والخوف على سلامة الملك لويس السادس عشر Louis XVI وزوجته ماري أنطوانيت Marie-Antoinette، أصدر الإمبراطور الروماني المقدس ليوبولد الثاني Leopold II وملك بروسيا فريدريك ويليام الثاني Frederick William II، عام 1971، إعلان بيلنيتز Declaration of Pillnitz، الذي دعا القوى الأوروبية إلى إعلان الحرب على فرنسا، إذا تعرضت العائلة المالكة للخطر. غير أن هذا الإعلان، الذي أُريد منه أن يكون مجردَ تحذير، أدى إلى تسارع وتيرة الصراع، إذ شعر المتطرفون الفرنسيون بالخطر الذي يتهددهم، فأعلنوا الحرب في نيسان/أبريل التالي، واجتاحوا، بنجاح، هولندا النمساوية(*) Austrian Netherlands.

لقد زرعت تلك الحملة الخوف عبر أوروبا الملكية، لا سيما بعد أن "أعلنت فرنسا أهدافًا حربية جديدة أُعِدت بدقة، لا لإرهاب النظم الملكية وعزلها فقط، بل لهدم كامل التراتبية الهرمية الاجتماعية التي تستند إليها تلك الأنظمة وتستمد منها قوتها"[63]. وقد أكدت التحولات التي طرأت على أسلوب تنظيم العسكرية الفرنسية، وأيدلوجيتها، وعدوانيتها، مخاوف الأوروبيين من أن التيارات الراديكالية الفرنسية لا يمكن احتواؤها. لقد أدى

(*) اسم كان يطلق على الأجزاء الجنوبية من هولندا خلال الفترة 1714 - 1797، بعد أن ضم آل هابسبورغ تلك المناطق إلى سيطرتهم، وفقًا لبنود معاهدة راستات Rastatt، التي وقعتها فرنسا والنمسا عام 1714، في نهاية ما عرف بحرب وراثة العرش الإسباني. وقد اقتدت تلك المعاهدة ببنود معاهدة أوتريخت، التي سبقتها بنحو عام. (المُعرِّب)

تحوُّل فرنسا من الاعتماد على قيادات عسكرية أرستقراطية، إلى الاعتماد على قيادات عسكرية شعبية، إلى فتح طرق الترقّي أمام مواهب جديدة، كما أدى إلى تزايد حماس العامة للانخراط في الخدمة العسكرية؛ ففي عام 1792 وحده، تمكن الجيش من ضم 180 ألف مجند جديد، وفي العام التالي، زاد برنامج التجنيد الإلزامي أعداد العسكريين، وبثَّ في صفوفهم مزيدًا من الحماس الثوري[64].

بثَّ هذا الزواج بين القوة العسكرية المتصاعدة، والسياسة الراديكالية، الذعر في بريطانيا. وفي رسالة إلى مجلس العموم عام 1793، طلب الملك جورج الثالث "زيادة إضافية لقواته البرية والبحرية" كوسيلة لمواجهة "رؤى الطموح والعظمة لدى فرنسا، والتي تشكِّل خطرًا دائمًا على المصالح العامة لأوروبا، وهي أشد خطرًا على وجه الخصوص عندما تترافق مع تفشي مبادئهم التي تهدم، بشكل نهائي، السِلْم والنظام اللذين يقوم عليهما المجتمع المدني[65]. ووفقًا للمؤرخ البريطاني ويليام دويل William Doyle، في حين وضع الغزو الفرنسي للبلدان المنخفضة Low Countries بريطانيا في حالة تأهب، كان إعدام الملك لويس السادس عشر في كانون الثاني/ يناير 1793، القشة الأخيرة التي حفَّزت البريطانيين إلى العمل، وحضَّت بريطانيا على "تشكيلِ تحالفٍ كبيرٍ مناهضٍ للفرنسيين"[66]. وبحلول أوائل 1793، دخل تحالف القوى الأوروبية الحرب، في محاولة لاسترداد المكاسب الإقليمية التي حققتها فرنسا خلال الفترة السابقة. غير أن هذه الجهود أثبتت فشلها: فقد زادت فرنسا رقعتها عام 1790، من خلال ضم مزيدٍ من الأراضي في هولندا، وشمال إيطاليا، ومن خلال الاستحواذ على إقليم لويزيانا الأمريكي، لفترة وجيزة.

ارتفعت المخاوف البريطانية من التوسع الفرنسي إلى مستوى التهديد الوجودي، عندما استولى نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte على السلطة عام 1799، من خلال انقلاب 18 برومير Brumaire(*)، وشرع في

(*) الشهر الثاني من أشهر التقويم الجمهوري الفرنسي، الذي استخدم خلال الفترة

حملة تهدف إلى الهيمنة على أوروبا[67]. فعلى وجه التحديد، كان نابليون قد نبَّه حكومة المديرين Directoire الفرنسية(*) عام 1997، إلى أن فرنسا "يجب أن تدمِّر الملَكية الإنجليزية، أو فلتتوقع أن تدمرها تلك الملَكية"، وتعهد "بإبادة إنجلترا، فإن فعلنا ذلك، سوف تسقط أوروبا كلها تحت أقدامنا"[68]. أخذت بريطانيا تلك التهديدات على محمل الجد. فكما قال جورج الثالث عام 1803: "نحن هنا نتوقع في كل يوم أن يشن بونابرت الغزو الذي هدد بشنِّه"[69]. وحتى عندما فشل نابليون في تنفيذ تهديده في المدى القريب، عززت التطورات التي حققها في القارة اعتقاد بريطانيا الراسخ بأن أمنها يتطلب الحيلولة دون سيطرة قوة منفردة على أراضي أوروبا، حيث إن عدم وجود منافسين لهذه القوة على الأرض، سوف يتيح لها تحويل مواردها المادية نحو الأسطول. وقد ردَّ رئيس الوزراء ويليام بيت William Pitt باستراتيجية يقول عنها المؤرخ العسكري مايكل ليجيار Michael Leggiere: "إنها لا تهدف فقط إلى استعادة توازن القوى في أوروبا، من خلال إجبار فرنسا على التخلي عن المناطق التي استولت عليها، مثل البلدان المنخفضة، لكنها تسعى إلى تنصيب بريطانيا سيدة لبحار العالم، وصاحبة احتكار واضح في ميدان التجارة العالمية"[70].

لحسن حظ بريطانيا، لم يطوِّر نابليون سلاح البحرية بالشكل الذي يمكِّنه من التفوُّق على الهيمنة البحرية البريطانية. ففي عام 1805، هزم نائب الأدميرال هوراشيو نيلسون Horatio Nelson الأسطول الفرنسي في الطرف الأغر Trafalgar، مُنْهيًا آمال نابليون في غزو بريطانيا، ومحافظًا على وضع بريطانيا الآمن، كداعم مالي لأعداء نابليون الأوروبيين. بعد ذلك، وبينما

(1793-1805)، ويبدأ هذا الشهر، وفقًا للتقويم الميلادي التقليدي يوم 22 تشرين الأول/أكتوبر، وينتهي يوم 20 تشرين الثاني/نوفمبر. وبذلك يكون انقلاب نابليون قد وقع يوم 8 تشرين الثاني/نوفمبر 1799. (المُعرِّب)

(*) واحدة من أشكال الحكم التي أتت بها الجمهورية الفرنسية الأولى، وهي لجنة تتكوَّن من خمسة أعضاء، تولَّت حكم فرنسا اعتبارًا من عام 1795، بعد أن حلت محل لجنة السلامة العامة. وقد أطاح نابليون بونابرت بهذه اللجنة في انقلاب عام 1799، المُشار إليه سابقًا. (المُعرِّب)

واصل نابليون التوسع في القارة الأوروبية رغم تراكم الدين العام بحجم هائل، تزايدت مكاسب بريطانيا الاقتصادية والدبلوماسية على نحو لا يمكن إنكاره، وأصبحت لندن الأمل الكبير لأوروبا المعادية للنابليونية. وكما يشرح بول كينيدي: "لا يمكن أبدًا أن تثق حكومة باريس في أن القوى القارية الأخرى ستقبل، بشكل دائم، الوجود الفرنسي، ما دامت بريطانيا، التي تزوِّد تلك الدول بالإعانات والذخائر، وربما حتى القوات، دولة مستقلة"[71]. وبعد أن اهتز نابليون بعنف بسبب هزيمته الرئيسية الأولى، في غزوه غير المبرَّر لروسيا عام 1812، تعرض إلى مزيد من الهزائم على نطاق واسع، وجاءت نهايته على يد ائتلاف تقوده بريطانيا، في واترلو Waterloo، عام 1815.

8: فرنسا والمملكة المتحدة في مواجهة روسيا

العصر: منتصف القرن التاسع عشر

القوى الحاكمة: الإمبراطورية الفرنسية (برًا)، والمملكة المتحدة (بحرًا)

القوة الصاعدة: روسيا

مجال الصراع: إمبراطورية عالمية، والنفوذ في وسط آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط

المحصلة النهائية: حرب القِرْم (1853 – 1856)

غرست روسيا الخوف في أوروبا، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت تكتسب مزيدًا من الأراضي، وتزيد قوتها العسكرية باطراد. كانت فرنسا والمملكة المتحدة، اللاعبتان المؤهلتان في مجال التجارة العالمية، اللتان تمتلكان مستعمراتٍ وشبكة طرق في الشرق الأوسط وجنوب آسيا، متوترتين بشكل خاص من جهود سان بطرسبرغ المتكررة لاستغلال الإمبراطورية العثمانية المنهارة. وقد وصلت هذه التوترات إلى ذروتها في حرب القِرْم Crimean War، وهو صراع كرَّس الهيمنة البريطانية والفرنسية وكشف عن الضعف الكامن وراء صعود روسيا.

حصلت روسيا على تسويات سخية للغاية في أعقاب الحروب الروسية التركية (1806–1812 و1828–1829)، فأضافت مقاطعاتٍ جديدة إلى المناطق الواقعة تحت حمايتها في أوروبا الشرقية والقوقاز، ووسعت نطاق مرورها إلى البحر الأسود. وقد أسفرت هذه الحروب، إلى جانب

الحملات الروسية في بلاد فارس وأوروبا الشرقية، عن توسيع المناطق الخاضعة لروسيا إلى درجة هائلة: استحوذت روسيا على كل أراضي البلدان التالية كما نعرفها اليوم، أو أجزاء منها: فنلندا، وبولندا، وجورجيا، وأذربيجان، وأرمينيا، في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر فقط، وهو ما وضعها على مقربة خطيرة من مراكز القوة الأوروبية[72]. وكما اتسعت الأراضي الروسية، زاد حجم جيشها: فبعدما كان حجمه يوازي ضعف حجم الجيش الفرنسي أو الجيش البريطاني عام 1820، تزايد بدرجة هائلة، ليصل حجمه في عام 1853، إلى أكبر بكثير من حجم هذين الجيشين مجتمعين[73].

ومع كل تقدم أحرزته روسيا، تزايدت المخاوف من إمكانية أن تهدد توازن القوى العالمي من خلال تحويل "رجل أوروبا المريض"، كما كان القيصر يصف الإمبراطورية العثمانية، إلى محمية روسية[74]. لقد أقنعت معاهدة أدريانوبل Treaty of Adrianople التي وُقِّعت عام 1829، بين سان بطرسبرغ St. Petersburg والقسطنطينية Constantinople، اللورد هايتسبوري Lord Heytesbury، السفير البريطاني في روسيا، بأن روسيا ستجعل العثمانيين قريبًا "خاضعين لأوامر القيصر، خضوعَ أيٍ من أمراء الهند لأوامرِ شركة الهند الشرقية البريطانية"[75]. انطلاقًا من هذه الروح، تدخلت كل من بريطانيا وفرنسا، دبلوماسيًا، إلى جانب العثمانيين، في الحرب العثمانية المصرية(*) التي دارت معاركها خلال الفترة من 1831 إلى 1833، لإيمانهما بأن إضعاف الإمبراطورية العثمانية سوف يجعلها أكثر عُرضة للضغوط الروسية.

محاولات روسيا المتكررة لاغتصاب السلطة العثمانية وتأكيد نفوذها في أوروبا الشرقية، أقنعت بريطانيا بأن روسيا، كما يقول المؤرخ بريندان

(*) المقصود هنا ما يعرف بالحرب المصرية العثمانية الأولى، أو الحرب المصرية التركية الأولى، أو الحرب السورية الأولى. شنَّ الجيش المصري هذه الحرب بعد أن تجاهل البابُ العالي مطالب محمد علي، حاكم مصر، بمنحه حكم سوريا الكبرى، مكافأة له على وقوفه إلى جانب الدولة العثمانية خلال معارك حرب الاستقلال اليونانية. وقد حصل محمد علي بقوة الجيش المصري، على ما رفض السلطان العثماني أن يمنحه إياه بالتراضي. (المُعرِّب)

سيمِّز: "لا تعتزم فقط تقسيم الإمبراطورية العثمانية، بل الهيمنة على أوروبا كلها"[76]، وضمان السيطرة على مضيق الدردنيل Dardanelles، الذي من شأنه أن يُوفِّر للأسطول الروسي في البحر الأسود موطئ قدم في البحر الأبيض المتوسط. وهكذا، أثارت ما تسمى المسألة الشرقية Eastern Question تهديدًا قويًا للهيمنة البحرية البريطانية. بل إن البعض في بريطانيا كانوا يعتقدون أن روسيا ربما تتحدى النفوذ البريطاني الاستعماري في الهند[77].

يطرح هنري كيسنجر تفسيرًا واحدًا للقلق البريطاني والفرنسي: "إن كل ما يتعلق بروسيا – من نظام حكمها المطلق، وحجمها، إلى طموحاتها التي تمتد بطول الكرة الأرضية وعرضها، وإحساسها بعدم الأمان– كان بمثابة تحدٍ ضمني للمفهوم الأوروبي التقليدي للنظام الدولي"[78]. لقد كان القلق الذي وصفَه كيسنجر واضحًا حتى في أوساط العامة من الناس في فرنسا وبريطانيا. وفي واحد من الأمثلة الحية على ذلك، وصفت مطبوعة سياحية فرنسية شهيرة، روسيا في ذلك الوقت بأنها تمتلك طموحًا "جامحًا وهائلاً"، مع "التخطيط لممارسة الاستبداد على الدول الأخرى"[79]. ورغم هذا، لم تدرك روسيا أو خصومها أنها كانت تمثالاً ضخمًا يقف على ساقين من صلصال، إلا بعد أن اختبرت قوتها في بوتقة الحرب[80].

في عام 1853، طالب القيصر نيقولاس الأول Nicholas I السلطان عبد المجيد بالاعتراف بحماية روسية على الرعايا الأرثوذكسيين في القسطنطينية والأراضي المقدسة. وقد حاول الدبلوماسيون البريطانيون التوسط في هذا النزاع، لكنهم، في النهاية، فشلوا في التوصل إلى تسوية يقبلها السلطان العثماني. وفور فشل الجهود الدبلوماسية، أعلن السلطان الحرب على روسيا، غير أن القيصر بادر ببدء الهجوم، فأرسل قواته لاحتلال مقاطعتين تقعان على نهر الدانوب (مولدوفا ورومانيا كما نعرفهما اليوم)، وبدأ في تجميع أسطوله في البحر الأسود في مدينة سيفاستوبول Sevastopol، عاصمة شبه جزيرة القِرْم. وبعد أن نجح الروس في تدمير

أسطولٍ عثماني في سينوب Sinope، لم تعد بريطانيا وفرنسا في حاجة إلى مزيد من الانتظار. فرغم إصرار القيصر على عدم صحة استنتاجاتهما، كانت الدولتان تخشيان انهيار الإمبراطورية العثمانية، وما سوف ينتج عن ذلك من فراغ تنفرد القوة الروسية بملئه. فبالنسبة لبريطانيا، سوف يشكِّل احتلال روسيا للقسطنطينية، تهديدًا لا يمكن تحمُّله، لموقعها ومصالحها في البحر الأبيض المتوسط. لقد وحَّد الخوف من التوسع الروسي بريطانيا وفرنسا في عمل مشترك شمل إرسال أسطول إلى البحر الأسود، وإصدار إنذار نهائي يطالب روسيا بالانسحاب من إمارتي الدانوب. وعندما رفضت روسيا الإنذار، أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب عليها، وأرسلتا حملة عسكرية عاجلة إلى شبه جزيرة القِرْم.

لقد خذل التخلف التقني والتنظيمي روسيا في المعركة، وبددت هزيمةُ القوات الروسية في سيفاستوبول، في نهاية المطاف، وهْم التفوُّق العسكري الروسي، وعززت الهيبة والثقة الفرنسية والبريطانية، وأنقذت الدولةَ العثمانية المريضة، ومنحتها فرصة الحياة لنحو 65 سنة أخرى. ووفقًا لما يستخلصه المؤرخ البحري آدم لامبرت Adam Lambert، "لقد خاضت بريطانيا وفرنسا وروسيا معركة على المستوى العالمي، من أجل السيادة على أوروبا، وهي الجائزة التي ذهبت مؤقتًا إلى الفرنسيين، ومن أجل السيادة على العالم، التي احتفظ بها البريطانيون لجيلين آخرين"[81].

9: فرنسا في مواجهة ألمانيا

العصر: منتصف القرن التاسع عشر

القوة الحاكمة: فرنسا

القوة الصاعدة: ألمانيا

مجال الصراع: النفوذ البري في أوروبا

المحصلة النهائية: الحرب الفرنسية البروسية (1870 – 1871)

ظهرت فرنسا في عهد نابليون الثالث، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، "قوية وواثقة"[82]، وفقًا لتعبير المؤرخ بول كينيدي، باعتبارها القوة البرية

الرئيسية في أوروبا الغربية. ولكن سرعان ما سعى القائد البروسي أوتُّو فون بِسْمارك، وهو زعيم سياسي يتمتع بمهارة نادرة، يقود دولة ذات اقتصاد متصاعد، إلى تحقيق طموحاته التي تتمثل في إنشاء ألمانيا الموحدة، والاستيلاء على المكانة التي تحتلها فرنسا. وبينما رأى بِسْمارك الحرب ضرورية لتوحيد الولايات الألمانية، تبنَّت فرنسا مبدأ الصراع كوسيلة للحد من صعود بروسيا المذهل. وقد أثبتت الحرب التي دامت سنة واحدة ما يتمتع به بِسْمارك من رؤية استراتيجية، وعززت مكانة ألمانيا كقوة عظمى وموحدة.

في عام 1850، امتدت الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية في جميع أنحاء العالم، من جزر المحيط الهادي ومنطقة البحر الكاريبي، إلى غرب أفريقيا وجنوب شرق آسيا .وكان اقتصاد فرنسا الذي يعتمد على التصنيع المحلي، الاقتصاد الأعلى إنتاجية في أوروبا كلها[83]. وقد تجاوزت نفقاتها العسكرية بحلول عام 1860 نفقات أيٍّ من منافسيها باستثناء روسيا، ونمت قواتها البحرية بشكل كبير، حتى أنها، وكما يقول بول كينيدي: "في بعض الأحيان... أثارت الذعر على الجانب الآخر من القنال الإنجليزي"[84]. من ناحية أخرى، وبحلول عام 1860 أيضًا، أثبتت التدخلات العسكرية الفرنسية الأخيرة في شبه جزيرة القِرْم، وفي حرب الاستقلال الإيطالية الثانية Second War of Italian Independence، أن باريس هي الضامن الرئيسي لأمن القارة الأوروبية. غير أن هذا التفوُّق كان قصير الأجل، فبعد عشر سنوات فقط، واجه نابليون الثالث Napoleon III دولةً تمتلك واحدةً من أعظم الماكينات العسكرية التي رأتها أوروبا على الإطلاق، هي بروسيا أوتُّو فون بِسْمارك.

بعد الانتصار على الدنمارك في عام 1864، وعلى النمسا في عام 1866، وضعت بروسيا فرنسا، كما يلاحظ المؤرخ مايكل هاورد Michael Howard، "في واحدة من أشدِّ الحالات المزاجية خطورة، حالة القوة العظمى التي ترى نفسها وهي تتدهور لتهبط إلى المرتبة الثانية"[85]. ففي حين أن عدد سكان بروسيا في عام 1820 لم يكن يتجاوز ثلث عدد سكان فرنسا، أوصلت عمليات الضمِّ والإلحاق التي جرت في ستينيات القرن التاسع عشر، هذه النسبة إلى أربعة أخماس عدد سكان فرنسا بحلول عام 1870. كما استطاع بِسْمارك أيضًا،

بفضل نظام التجنيد الإلزامي، أن يحشد جيشًا يزيد حجمُه على حجم الجيش الفرنسي بمقدار الثلث[86]. وقد أشار مؤرخ فرنسي في وقت لاحق إلى أن العالم لم يسبق له أن شاهد جيشًا يصل تعداده إلى 1.2 مليون جندي، "منذ جيوش زركسيس(*) Xerxes الأسطورية"[87]. وقد ارتفع إنتاج بروسيا الصناعي بمعدل هائل مماثل، حيث زاد إنتاجها من الحديد والصلب من نصف إنتاج فرنسا عام 1860، ليتجاوزه بعد عشر سنوات[88]. كما طوَّر بِسْمارك منظومة نقل بالسكك الحديدية، قادرة على مواكبة زيادة حجم الجيش عددًا وعتادًا، وتزايد الإنتاج الصناعي. وكما يقول المؤرخ جيفري واورو Geoffrey Wawro، "كانت تلك التطوراتُ السريعة مؤشراتٍ مقلقة، تهدد بكسوف القوة الفرنسية بشكل كُلّي"[89]. لذلك، لا غرابة في أن "بروسيا قد هيمنت على السياسة الخارجية والداخلية [الفرنسية] بعد عام 1866"[90].

كان بِسْمارك يهدف إلى ضَمِّ الولايات الألمانية الجنوبية، بادن Baden، وفورتمبورغ Württemberg، وبافاريا Bavaria، وهيسِّى Hesse، إلى اتحاد شمال ألمانيا الكونفدرالي الذي تهيمن عليه بروسيا[91]. ولأن بِسْمارك صاحبُ عقلية استراتيجية بارزة، فقد خلُص إلى أن حربًا ضد فرنسا، تُخيف دول جنوب ألمانيا المستقلة وتدفعها إلى الارتماء في أحضان بروسيا، هي خطوة حيوية على الطريق نحو توحيد ألمانيا. وكما صرَّح بِسْمارك في ما بعد: "لم أشكّ يومًا في حتمية قيام حرب فرنسية – ألمانية، قبل أن يكون بالإمكان بناء ألمانيا الموحدة"[92].

كل ما كان على بروسيا أن تفعله هو استفزاز الفرنسيين ليبدأوا هم الحرب. كان بِسْمارك يدرك قلق نابليون بشأن مخاطر صعود بروسيا التي تقع شرق فرنسا، فوجد فرصة مثالية لتأجيج الخوف الفرنسي، من خلال

(*) المقصود هنا هو الملك الفارسي زركسيس الأول (518 قبل الميلاد - 465 قبل الميلاد)، الذي يطلق عليه باللغة الفارسية القديمة "خشايارشا"، وهو ابن الملك الفارسي العظيم داريوس الأول Darius I. حكم زركسيس من عام 486 حتى اغتياله عام 465 على يد قائد حرسه الخاص. وقد اشتهر زركسيس في كتب التاريخ الغربي بحملته الفاشلة على بلاد اليونان، وهزيمة أسطوله في معركة سالاميس Salamis عام 480 قبل الميلاد. (المُعرِّب)

التهديد بتنصيب أمير ألماني من بيت هوهنزولِّرن House of Hohenzollern على عرش إسبانيا[93]. ساعتها، سوف تجد فرنسا نفسها مضطرة إلى مواجهة القوة الألمانية من جهتين.

لقد أسهم ترشيحُ سليل هوهنزولِّرن وبرقيةُ إيمز Ems Telegram (وهي رسالة صحافية نصف صحيحة تلاعب بها بِسْمارك للإيحاء بوقوع مواجهة بين ملك بروسيا والسفير الفرنسي) في دفع نابليون إلى إعلان الحرب على بروسيا في تموز/يوليو 1870. وبهذا التصرف، ارتكبت فرنسا خطأً استراتيجيًا كثيرًا ما تقع فيه القوى الحاكمة، ألا وهو اتخاذ إجراء تعتقد أنه سيمنع القوة الصاعدة من تمرير موقفها، بينما هو، في الواقع، يُسَرِّع الحدث المؤسف، أي انقلاب الأدوار، الذي تخشى القوة الحاكمة وقوعه. لقد كانت فرنسا عام 1870 واثقة (بشكل خاطئ، كما اتضح في ما بعد) أنها تستطيع هزيمة ذلك الخطر البروسي، لكنها شعرت بالحاجة إلى شنِّ حرب وقائية، قبل أن تصعد بروسيا أكثر[94]. ولأن الولايات الجنوبية اعتبرت أن فرنسا هي الطرف المعتدي، انضمت إلى الاتحاد الألماني الشمالي، تمامًا كما توقَّع بِسْمارك. وكما يقول مايكل هاوِرد: "ليس هناك أدنى شك في أن فرنسا كانت هي المعتدي المباشر، كما لا شك في أن الاستفزازات المباشرة التي دفعتها إلى الحرب كانت من افتعال بِسْمارك"[95]. وهكذا، بعد تحقيق نصر حاسم، ظهرت ألمانيا على الساحة الدولية، دولةً موحدةً، تمتلك أقوى جيش في القارة. "لقد أصبحت عملاقًا بكل المعايير"[96]، كما كتب بريندان سيمّز. وهكذا، بدا أن الحرب التي رفعت بِسْمارك إلى مصاف رجال الدولة العظماء، وأدت إلى اعتقال نابليون ونفيه، كانت في البداية خيارًا جيدًا لفرنسا، بقدر ما كانت خيارًا جيدًا لبروسيا.

10: الصين وروسيا في مواجهة اليابان

العصر: أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين

القوة الحاكمة: الصين وروسيا

القوة الصاعدة: اليابان

مجال الصراع: النفوذ البري والبحري في شرق آسيا

المحصلة النهائية: الحرب الصينية اليابانية الأولى (1894 – 1895)، والحرب الروسية اليابانية (1904 – 1905)

مع دخول العقد الأخير من القرن التاسع عشر، سيطرت قوتان على القارة الآسيوية: أسرة تشينغ الصينية Qing Dynasty، القوة الإقليمية المهيمنة على مدار عدة قرون، والإمبراطورية الروسية، وهي قوة عظمى أوروبية، لها طموحات قديمة العهد في منطقة آسيا والمحيط الهادي. ولكن منذ نهضة ميجي Meiji Restoration عام 1868، واجهت الدولتان تهديدًا جديدًا، تمثل في عملية التحديث السريع التي تعيشها اليابان، الدولة الجُزُريَّة. وبحلول عام 1905، قاست الصين وروسيا ويلات حربين بحريتين مدمرتين ضد اليابان المشحونة بالطموح، واضُطرت الدولتان إلى التعامل مع قوة جديدة في المحيط الهادي، لا تبدو على معدلات نموها أية مؤشرات للتباطؤ.

سهَّل النمو الاقتصادي السريع والتطورات العسكرية صعودَ اليابان في أواخر القرن التاسع عشر: فقد زاد الناتج القومي الإجمالي ثلاثة أمثال تقريبًا بين عامي 1885 و1899، وزاد الإنفاق العسكري بشكل كبير مع قيام الإمبراطور ميجي ببناء جيش وقوات بحرية هائلين ودائمين[97]. وشكَّلت النفقات العسكرية عام 1880، نسبة 19 في المائة من الميزانية اليابانية، وبحلول عام 1886، ارتفعت هذه النسبة إلى 25 في المائة، ثم واصلت الارتفاع لتصل إلى 31 في المائة، عام 1890[98].

عمَّقت قوة اليابان المتزايدة شعورَ قادتها بالاستياء تجاه موقعها الثانوي في المنطقة، مقارنة بالقوى الغربية والصين، وشجَّعت "الإحساس بالحاجة الملحّة إلى التحرك بنشاط أكبر" لتوسيع مجال النفوذ الياباني[99]. وقد سمحت المكاسب التي حققتها القوة العسكرية لقادة البلاد بأن يفكروا بجدية في التوسع الإقليمي في جزر المحيط الهادي وفي القارة الآسيوية،

الأمر الذي يُشكّل تحديًا مباشرًا للهيمنة الصينية، وللخطط الروسية المعروفة جيدًا في المنطقة. ولكن، لاستعراض قوتهم بشكل فعَّال، احتاج اليابانيون إلى موطئ قدم على البر الرئيسي: شبه الجزيرة الكورية.

بدءًا من سبعينيات القرن التاسع عشر، كانت سياسات اليابان، التي تتطور تدريجيًا، تجاه كوريا بمثابة مقياس لثقة طوكيو وعزيمتها المتزايدتين كقوة صاعدة. وقد ركزت هذه السياسات، في البداية، وبشكل أساسي، على تشجيع الإصلاحات التي تهدف إلى تعزيز الحكومة الكورية ومؤسساتها في مواجهة أي تدخل صيني، وتوسيع مجالات النفوذ الياباني في كوريا، وسحب كوريا، برفق، بعيدًا عن بيجين. وكما كتب بيتر دوس Peter Duus المؤرخ المتخصص في تاريخ اليابان: "لم تكن أهمية كوريا الاستراتيجية نابعة من مجرد قربها الجغرافي من اليابان، ولكن من عدم قدرتها على الدفاع عن نفسها ضد التدخلات الأجنبية... فإذا بقيت كوريا "متخلفة" أو "غير متحضرة"، فإنها ستبقى ضعيفة، وإذا بقيت ضعيفة، فإنها ستجذب إليها الطامعين والمفترسين الأجانب[100]. ولكن عشية الحرب الصينية اليابانية Sino-Japanese War عام 1894، وكما يلاحظ المؤرخ أكيرا إيريي Akira Iriye "لم يعُد هدف اليابان الحفاظ على التوازن بينها وبين الصين، ولكن طرد النفوذ الصيني من شبه الجزيرة الكورية"[101].

وقد عززت مخاوفُ اليابان الطويلة الأمد بشأن النفوذ الغربي، ولا سيما الروسي، في شرق آسيا تصميمَها المتزايد. لقد خشي الإمبراطور أن تردّ روسيا على صعود اليابان السريع، من خلال استخدام السكك الحديدية الجديدة العابرة لسيبيريا (التي بدأت في عام 1891) للتدخل في شبه الجزيرة الكورية، وربما حتى لغزو اليابان[102]. وقد قال ذلك بصراحة ووضوح عام 1893 المُشير ياماغاتا أريتومو Yamagata Aritomo، الذي شغل منصب رئيس وزراء اليابان: "لا الصين ولا كوريا عدونا: أعداؤنا هم بريطانيا، وفرنسا، وروسيا"[103].

في عام 1894، أجبر تمرُّد الفلاحين الكوريين المسمى انتفاضة

تونغاك Tonghak Uprising ملك كوريا يي مِيونغ بوك Yi Myeong-bok، على دعوة القوات الصينية للمساعدة في إخماد أعمال العنف. غير أن اليابان، غير الراغبة في رؤية نفوذها الذي غرسته بعناية في كوريا، وهو ينهار بسبب التدخل الصيني، أرسلت قواتها الخاصة إلى كوريا، الأمر الذي وضعها في مواجهة مباشرة مع الصينيين. وهناك، فاجأت اليابان خصومها بجاهزيتها العسكرية، حيث استطاعت القوات الإمبراطورية طرد الصينيين من بيونغ يانغ Pyongyang خلال فترة قصيرة، كما أنها حققت انتصارًا غير متوقع ضد أسطول بِييانغ Beiyang الصيني، وهبطت في جنوب شرقي منشوريا، ثم سارت في اتجاه الشمال الغربي إلى الأراضي الصينية. وقد انتهت الحرب الصينية اليابانية، بعد عام واحد، نهايةً مُذِلّة لبيجين، التي أُجبرت على توقيع معاهدة شيمونوسيكي Shimonoseki. ومن خلال تلك المعاهدة اعترفت الصين باستقلال كوريا (وهي في واقع الأمر إشارة رمزية، فقد تحولت كوريا من تابع صيني، إلى تابع ياباني)، كما تنازلت الصين لليابان عن تايوان، وجزر بيسكادورِس Pescadores Islands، وشبه جزيرة لياودونغ Liaodong Peninsula.

أثبتت المخاوف اليابانية بشأن نية روسيا احتواء قوتها بُعْد نظر اليابان. فقد أصاب القلق والاضطراب روسيا وفرنسا وألمانيا نتيجة لانتصار اليابان الساحق على الصين، والشروط القاسية التي فرضتها معاهدة شيمونوسيكي على الدولة المهزومة، فنظمت تدخلاً ثلاثيًا فوريًا[*]. وقد أسفر هذا التدخل، الذي أذعنت له اليابان المرتبكة على مضض، إلى إبطال ما قضت به المعاهدة في شأن انتقال جنوب شرق منشوريا من الصين إلى اليابان، الأمر الذي أبقى مخاطر التوسع الياباني، بعيدة عن عتبات روسيا.

(*) رغم ما قد يوحي به لفظ "تدخُّل"، لم يكن التدخل الثلاثي تدخلاً عسكريًا على الإطلاق، بل كان تدخلاً دبلوماسيًا محضًا. ففي 23 نيسان/أبريل 1895، أعلنت الدول الثلاث اعتراضها على شروط المعاهدة. وبعد جهود دبلوماسية شاركت فيها المملكة المتحدة والولايات المتحدة، أعلن رئيس وزراء اليابان، في 5 أيار/مايو الموافقة على سحب القوات اليابانية من شبه جزيرة لياودونغ. (المُعرِّب)

وبالإضافة إلى ذلك، عزز التدخل الثلاثي تصميم اليابان على القضاء على التهديد الروسي. "فمنذ إهانة عام 1895"، كما يكتب المؤرخ ج. ن. ويستوود J. N. Westwood، كانت الحكومة اليابانية "تستعد عمدًا لحرب منتظرة ضد روسيا"[104]. كانت استعدادات اليابان دراماتيكية، حيث زاد حجم القوات البحرية الإمبراطورية ثلاثة أمثال خلال السنوات العشر التالية للحرب الصينية اليابانية، كما زاد عدد أفراد الجيش تسعة أمثال[105]. وردًا على ما قامت به روسيا من حشدٍ للدعم الفرنسي والألماني لتنفيذ عملية التدخل الثلاثي، حاولت اليابان تجنّب المزيد من محاولات التطويق الأوروبية، من خلال إبرام التحالف الأنجلو-ياباني مع بريطانيا عام 1902. كانت اليابان مصممة على إخراج روسيا من منشوريا.

ولعدم القدرة على التفاوض من أجل انسحاب القوات الروسية، شنَّت اليابان هجومًا مفاجئًا على الأسطول الروسي في بورت آرثر (التي تقع على الساحل المنشوري) في شباط/فبراير 1904. وقد أدى الهجوم إلى نشوب حرب روسية يابانية استمرت عامًا ونصف العام. ومرة أخرى، حققت القوات اليابانية انتصارًا مُفْحِمًا، وحققت هدفها المتمثل في الانسحاب الروسي الكامل من منشوريا، وفقًا لشروط معاهدة بورتسموث Treaty of Portsmouth التي أنهت هذه الحرب. وبهزيمة روسيا في منشوريا، أزالت اليابان عقبة أخرى في طريقها إلى الهيمنة على المحيط الهادي.

11: المملكة المتحدة في مواجهة الولايات المتحدة

العصر: أوائل القرن العشرين

القوة الحاكمة: المملكة المتحدة

القوة الصاعدة: الولايات المتحدة

مجال الصراع: الهيمنة الاقتصادية العالمية، والسيادة البحرية في نصف الكرة الغربي

المحصلة النهائية: لا حرب

في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، ارتفعت القوة الاقتصادية الأمريكية لتتخطى الإمبراطورية الأولى في العالم، المملكة المتحدة، كما كان أسطولها

المتنامي منافسًا مزعجًا محتملًا للبحرية الملكية. عندما بدأت الولايات المتحدة في تأكيد تفوُّقها في نصف الكرة الأرضية الخاص بها، استطاعت بريطانيا، التي تواجه تحديات ذات تهديدات أكثر قُربًا إلى أراضيها، والتي تسعى للحفاظ على إمبراطورية استعمارية مترامية الأطراف، أن تستوعب صعود أمريكا. لقد استطاعت الولايات المتحدة فرض هيمنتها على نصف الكرة الغربي بطريقة سلمية، بفضل التنازلات التي قدمتها لها بريطانيا. وقد أرسى هذا التقارب الكبير حجر الأساس للتحالفات الأمريكية البريطانية خلال حربين عالميتين، و "العلاقة الخاصة" الدائمة، التي تعتبرها الدولتان أمرًا مسلَّمًا به.

في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر، كانت الولايات المتحدة قد نهضت من رُكام حربها الأهلية لتصبح عملاقًا اقتصاديًا. فالناتج المحلي الإجمالي الأمريكي، الذي تجاوز الناتج المحلي الإجمالي البريطاني في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، تفوَّق على كامل اقتصاد الإمبراطورية البريطانية بأكملها بحلول عام 1916[106]. وما بين عامي 1890 و1914، استهلكت الولايات المتحدة التي تنمو بسرعة كبيرة، ثلاثة أمثال ما استهلكته بريطانيا من مصادر الطاقة، وأنتجت ثلاثة أمثال ما أنتجته المصانع البريطانية من الحديد والصلب، وهي مؤشرات تُعَدُّ المقياس الحقيقي لمستوى التصنيع في أية دولة في العالم[107]. مع زيادة ثقة الولايات المتحدة بسبب حالة الازدهار التي تعيشها، أصبحت واشنطن أكثر حزمًا في ما يتعلق بإدارة شؤون النصف الغربي من الكرة الأرضية، وأكثر إصرارًا على الاضطلاع بمسؤولية التحكيم في النزاعات بين الدول الأوروبية ودول أمريكا اللاتينية. وقد أدى هذا الدور الإقليمي الموسع إلى الخوف من صراع وشيك بين القوتين العظميين. ففي أواخر عام 1895، تسبب الخوف من أن يؤدي تورُّط الولايات المتحدة في نزاع إقليمي بين بريطانيا وفنزويلا إلى حرب أنجلو أمريكية، بحالة من الذعر في سوق الأوراق المالية في نيويورك[108]. وفي كانون الثاني/يناير 1896، نبَّه رئيس الوزراء البريطاني اللورد ساليسبري وزيرَ مالية بلاده بأن الحرب مع الولايات المتحدة "ليس هذا العام، بل في المستقبل غير البعيد، أصبحت أكثر من مجرد احتمال"[109].

كانت البحرية الأمريكية لا تزال صغيرةً مقارنة بالبحرية الملكية البريطانية، ولكنها كانت تنمو (خاصة بعد الحرب الإسبانية الأمريكية، وصعود زعيم الصقور تيودور روزفلت إلى الرئاسة). فقد زاد حجم حمولة البحرية الأمريكية ثلاثة أمثال تقريبًا بين عامي 1900 و1910[(110)]. وأقر وزير البحرية الملكية(*) عام 1901 أنه "إذا اختار الأمريكيون أن يدفعوا مقابل ما يستطيعون تحمُّل نفقاته بسهولة، سوف يتمكنون تدريجيًا من بناء بَحرية كاملة، في حجم بحريتنا، ثم أكبر منها" .ومع أخذ هذه الحقيقة في الاعتبار، أكَّد الوزير البريطاني "لن أدخل في نزاع أبدًا مع الولايات المتحدة، إذا كان بمقدوري أن أتجنَّبه"[(111)].

وفي خطوة أثارت ذعر مكتب الحرب البريطاني، أعفت قيادة البحرية الملكية الولايات المتحدة، بكل هدوء، من تطبيق معيار القوة المزدوجة، الذي يُلْزِم المملكة المتحدة بالمحافظة على عدد من السفن الحربية، يساوي عدد السفن التي تمتلكها أكبر دولتين منافستين لها، مجتمعتيْن. كانت القيادة مشغولةً بتهديدات أقرب إلى الوطن، وبذلت قصارى جهدها لتجنُّب الحاجة إلى تخطيطٍ احترازي لحرب مع أمريكا. وفي عام 1904، أخبر الضابط البحري الأعلى رتبة(**) رئيسه المدني، بكل وضوح وصراحة، أن بريطانيا "يجب أن تستخدم كل الوسائل الممكنة لتجنُّب مثل هذه الحرب"، وأضاف محذرًا: "لأننا لن نستطيع، تحت أي ظرف يمكن تصوُّره، أن نُفلت من هزيمة ساحقة ومُهينة على يد الولايات المتحدة... لهذا فإن التحضير لمثل هذه الحرب، مضيعة للوقت تمامًا"[(112)].

وقد أعرب ساليسبري عن أسفه للكثير من البريطانيين لفشله في تحدّي التهديد الأمريكي في وقت سابق: "إنه لأمر محزن للغاية. ولكنني أعتقد أن الولايات المتحدة مصممةٌ على المضي قدمًا، ولم يعد هناك شيء يمكن أن يُعيد الندِّية بيننا. لو كنا تدخّلنا في الحروب الكونفدرالية، لكان

(*) إيرل سيلبورن Earl of Selborne. (المُعَرِّب)

(**) اللواء البحري جاكي فيشر Jacky Fisher. (المُعرِّب)

بإمكاننا تقليل قوة الولايات المتحدة إلى مستوى يمكن التحكُّم فيه. لكن الأمة الواحدة لا تُمنَح فرصتين من هذا القبيل، خلال مسيرتها"[113].

وهكذا، بدلاً من تحدي صعود أمريكا عبر الحرب، تكيَّفت المملكة المتحدة مع هذا الوضع، معتمدةً سياسة "التقارب الكبير". ففي مواجهة تهديدات قريبة وأكثر شؤمًا في أماكن أخرى، ومع اضطرارها للدفاع عن ممتلكاتها الإمبراطورية المترامية الأطراف، وفي غياب أي منافسين للولايات المتحدة في نصف الكرة الغربي يمكن استقطابهم ليصبحوا حلفاء لها، لم يكن أمام بريطانيا خيار سوى أن تستوعب الأمريكيين. وقد أذعنت إلى ما اعتبره كثيرٌ من البريطانيين مطالب أمريكية غير معقولة بشأن نزاعات إقليمية في كندا وأمريكا اللاتينية، وحقوق الصيد المربحة، والتحكُّم في قناة بنما المزمع شقُّها. ومع نهاية عام 1903، كما تقول المؤرخة آن أوردي "من خلال سلسلة من التنازلات التي لم تقدم الولايات المتحدة مقابلاً لها، رضخت بريطانيا للتفوُّق الأمريكي في نصف الكرة الأرضية الغربي من فنزويلا إلى ألاسكا"[114].

لو أعرب البريطانيون عن استيائهم بسبب عدم امتنان الولايات المتحدة لما تمتعت به من أمن مجاني على مدار قرن كامل[115]، لما لامهم أحدٌ على ذلك الاستياء. لكن استعداد لندن لتقديم تنازلات ساعد على شفاء جراح العداء القائم بين الدولتين منذ فترة طويلة، ويكفي أنه عندما قامت الحرب عام 1914، كانت الولايات المتحدة مصدرًا أساسيًا لتزويد بريطانيا بالمال والعتاد. لقد أثبتت قروض الولايات المتحدة والدعم الذي قدمته خلال الحرب العالمية الأولى، ثم دخولها الحرب، في نهاية المطاف، كحليف لبريطانيا، أن العلاقة الخاصة بين البلدين، كانت عنصرًا حاسمًا في هزيمة ألمانيا.

12: المملكة المتحدة في مواجهة ألمانيا

العصر: أوائل القرن العشرين

القوة الحاكمة: المملكة المتحدة، مدعومة من فرنسا وروسيا

القوة الصاعدة: ألمانيا

مجال الصراع: النفوذ البري في أوروبا، والنفوذ البحري حول العالم

المحصلة النهائية: الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918)

أصبحت ألمانيا، بعد توحيدها تحت قيادة بِسْمارك، القوة العسكرية والاقتصادية الرائدة في القارة الأوروبية. وقد صعدت إلى أبعد من ذلك، لتشكِّل تهديدًا للتفوق الصناعي والبحري البريطاني، وكذلك تهديدًا بزعزعة استقرار توازن القوة في أوروبا. ورغم أن ألمانيا كانت تهدف، في بادئ الأمر، من تعزيز قوتها البحرية، إلى مجرد كسب الاحترام، فقد أطلقت هذه القوةُ المتزايدة سباقًا بحريًا ضاريًا مع بريطانيا. وقد لعب التنافس الأنجلو – ألماني، بالإضافة إلى فخٍّ ثيوسيديديزي ثانٍ بين ألمانيا وروسيا الصاعدة التي تقع على الحدود الشرقية لألمانيا، دورًا حيويًا في تحويل صراعٍ إقليمي في منطقة البلقان إلى الحرب العالمية الأولى.

بين عامي 1860 و1913، ارتفعت حصة ألمانيا في التصنيع العالمي من 4.8 في المائة إلى 14.8 في المائة، متخطية منافِستها الرئيسية، المملكة المتحدة، التي تراجعت حصتها من 19.9 في المائة إلى 13.6 في المائة[116]. كانت ألمانيا قبل التوحيد في عام 1870، تُنتج نصف ما تنتجه بريطانيا من الفولاذ؛ وبحلول عام 1914، أصبحت تُنتج ضعف ما تنتجه بريطانيا[117]. وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، استحوذ بِسْمارك على مستعمرات في أفريقيا، ومنافذ تجارية في الصين، وغينيا الجديدة، وعددٍ من الجزر في جنوب المحيط الهادي. لم يكن هناك أي وجه شبه بين حجم تلك الحيازات، وحجم الإمبراطورية البريطانية أو الفرنسية، كما أن بِسْمارك لم يكن متحمسًا للاستعمار، لكن الإمبراطور الألماني الجديد، فيلهِلم الثاني، الذي أقال بِسْمارك عام 1890، كان مصممًا على أن تصبح بلاده "قوة عالمية"، وهو وضعٌ يتطلب امتلاك أسطول هائل.

في تسعينيات القرن التاسع عشر، وضع الأدميرال الألماني ألفريد

تيربيتز Alfred Tirpitz خطة لمنافسة القوة البحرية الأولى في أوروبا، بريطانيا. ورغم أن ذلك كان يهدف إلى ضمان الحصول على احترام بريطانيا، فقد أخاف الحشدُ البحري الألماني القادةَ البريطانيين، وأطلق سباقَ تسلحٍ مكثفًا. وقد شدَّد وزير البحرية البريطاني، إيرل سيلبورن على هذا القلق في عام 1902: "أنا مقتنع بأن البحرية الألمانية الجديدة العظيمة يتم بناؤها بعناية من منظور الحرب علينا... وقد كان السفير البريطاني في ألمانيا مقتنعًا بأنه عند اتخاذ قرار بشأن سياستنا البحرية، لا يمكننا تجاهل الكراهية الخبيثة التي يكنُّها لنا الشعب الألماني، أو النية الواضحة للبحرية الألمانية"[118].

لم يؤثر أسطول ألمانيا الجديد على السياسة البحرية البريطانية فحسب، بل على أفق سياستها الخارجية برمَّته. وكما صرحت المؤرخة مارغريت ماكميلِّان: "فإن السباق البحري الذي قصدت ألمانيا أن يكون وسيلة لإجبار بريطانيا على أن تكون ودودة معها، قد أقنع بريطانيا بدلاً من ذلك، ليس فقط بالتفوُّق على ألمانيا، ولكن بالتخلي عن عزلتها المفضلة تجاه أوروبا، والتقرب من فرنسا وروسيا"[119]. لقد زادت قوة ألمانيا المتنامية احتمالات قدرتها على القضاء على منافسيها القاريين، والسيطرة على الخط الساحلي المقابل لبريطانيا. وقد اعتبرت لندن ذلك، بالإضافة إلى أي تحدٍ للتفوق البحري البريطاني، تهديدًا غير مقبول.

واجهت برلين ديناميكية ثيوسيديديزية ثانية تتمثل في قوة روسيا المتنامية. فبحلول عام 1910 تقريبًا، كانت روسيا قد تعافت من هزيمتها العسكرية السابقة أمام اليابان، ومن آثار فترة شهدت تصاعد الاضطرابات الثورية، وبدا عليها أنها ترتفع الآن كقوة عسكرية حديثة ومجدَّدَة، على الحدود الألمانية مباشرة. وفي عام 1913، أعلنت روسيا عن "البرنامج الكبير" لتوسيع جيشها، الذي يبدأ تفعيله في العام التالي. كان من المتوقع، طبقًا لهذا البرنامج، أن يفوق عداد الجيش الروسي عداد القوات الألمانية بنسبة ثلاثة إلى واحد بحلول عام 1917. وكانت عمليات تطوير السكك الحديدية الاستراتيجية

الروسية، التي تتولاها فرنسا، تشكِّل تهديدًا حقيقيًا لخطة الحرب الألمانية بأكملها. كانت الخطة الألمانية للحرب على جبهتين تستوجب إلحاق هزيمة سريعة بفرنسا، قبل أن تستدير للتعامل مع التهديد الروسي البطيء الحركة. ولكن، بحلول عام 1914، كان الاستثمار الفرنسي المكثف قد سمح بتطوير منظومة سكك حديدية روسية تُقصِّر الزمن اللازم لإتمام التعبئة العامة إلى أسبوعين، بدلاً من الأسابيع الستة المفترضة في الخطة الألمانية[120].

لقد شجَّع صعودُ روسيا السريع، والاعتقاد القدَري بحتمية حرب أوروبية في نهاية المطاف، القيادةَ السياسية والعسكرية في ألمانيا على اتخاذ موقف عدواني. فقد اعتنق الكثيرون فكرة شن حرب وقائية حين كانت لا تزال هناك فرصة لإلحاق الهزيمة بروسيا، خاصة وأن الانتصار في هذا الصراع، يسمح لألمانيا بفك الطوْق الذي تضربه حولها كل من روسيا وفرنسا وإنجلترا[121]. وفي تموز/يوليو 1914، منحت برلين فيينا ما أسماه المؤرخون "الصك الأسود السيِّئ السمعة"، بعد عملية اغتيال الأرشيدوق النمساوي في سراييفو قبل شهر واحد، وذلك، في المقام الأول، بسبب الخوف من انهيار حليفتها الوحيدة، النمسا–المجر، إذا لم تتمكن تلك الحليفة من سحق أعدائها في البلقان، وهو ما يعني أن تُتْرَك ألمانيا بمفردها، دون مُعين، في أي صراع مستقبلي ضد روسيا[122].

منذ اندلاع الأعمال العدائية، وتجري بين العلماء المتخصصين مناقشات مطوَّلة حول كيفية توزيع اللوم أو المسؤولية عن اشتعال الحرب العالمية الأولى؛ بينما يرفض آخرون مجرد طرح تساؤل كهذا من الأساس[123]. ورغم أن تسمية الجناة تعكس بالضرورة نوعًا من التبسيط، تتحمل ثنائيتان من المنافسات الثيوسيديديزية (ألمانيا/بريطانيا وألمانيا/روسيا) المسؤولية الأساسية عن تحويل صراع إقليمي بين النمسا –المجر وصربيا إلى حريق قاري، تواصلت حرائقه على مدار عدة سنوات.

في عام 1914، أصبحت الديناميكيات المتزامنة بين لندن وبرلين، وبين برلين وموسكو متشابكة. إن تصميم ألمانيا على دعم حليفتها، وإحباط

التهديد الذي تمثله روسيا الصاعدة، وبالتالي ضمان البقاء على قيد الحياة أدى بها إلى إعلان الحرب على القيصر وحليفته فرنسا. وفي تهديدها بسحق فرنسا، وإسقاط توازن القوى الأوروبي، عبرت ألمانيا ما تعتبره بريطانيا خطًا أحمر. وعلى حد تعبير المؤرخ بول كينيدي "في ما يعني الحكومتين البريطانية والألمانية، فقد كان الدافع الأساسي لتورُّط الطرفين في الصراع الذي جرى بين عامي 1914 و1918، أن القوة الأولى كانت ترغب في الحفاظ على الوضع الراهن كما هو، بينما كانت الثانية، بسبب مزيج من الدوافع الهجومية والدفاعية، تتخذ خطوات تهدف إلى تغيير هذا الوضع. بهذا المعنى، كان الصراع بين لندن وبرلين في زمن الحرب مجرد استمرار لما كان يحدث منذ ما لا يقل عن خمسة عشر أو عشرين عامًا مضت"[(124)]. ومن بين مجموعة من الأسباب الأخرى للحرب، لم يكن أي منها مُدمِّرًا بقدر ما كان فخُ ثيوسيديديز.

13: الاتحاد السوفييتي وفرنسا والمملكة المتحدة، في مواجهة ألمانيا

العصر: منتصف القرن العشرين

القوة الحاكمة: الاتحاد السوفييتي، وفرنسا، والمملكة المتحدة

القوة الصاعدة: ألمانيا

مجال الصراع: النفوذ البري والبحري في أوروبا

المحصلة النهائية: الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945)

قاد أدولف هتلر انتعاشًا ثلاثيًا متزامنًا لقوة ألمانيا الاقتصادية، وقدراتها العسكرية، وكرامتها الوطنية، فاسخًا معاهدة فرساي، ومُشْتهينًا بنظام ما بعد الحرب الذي تصونه وترعاه كل من فرنسا والمملكة المتحدة. وبسط هتلر بطريقة منهجية، الهيمنة النازية على النمسا وتشيكوسلوفاكيا، في سعيه إلى الليبِنسراوم[(*)] Lebensraum، أو المجال الحيوي الذي تحتاج إليه ألمانيا. ولأن إدراك فرنسا والمملكة المتحدة لطموحات هتلر استغرق وقتًا طويلًا، لم تعلنا

(*) مصطلح ألماني يقصد به الأرض التي تعتقد الدولة أو الأمة أنها ضرورية لممارسة حياتها، بما تتضمنه الحياة من تطور طبيعي، واحتياجات متزايدة. ورغم عمومية المصطلح، ارتبط في كثير من الدراسات التاريخية والاجتماعية بل والديمغرافية، بالفكر النازي. (المُعرِّب)

الحرب عليه إلَّا بعد أن غزت قواته بولندا، فعجزتا، بالتالي، عن إيقاف الهيمنة الألمانية، إلى أن غيرت ملايين القوات السوفييتية والأمريكية مسار الأحداث، في نهاية الحرب العالمية الثانية.

بعد خروج القوتين الحاكمتين، فرنسا والمملكة المتحدة، من الحرب العالمية الأولى منتصرتين، انشغلتا طوال عشرينيات القرن العشرين، بإعادة بناء اقتصادهما وقوتهما العسكرية، في حين بقيت ألمانيا دولة تابعة، قزَّمت قواها الشروطُ العقابية لمعاهدة فرساي. فقد اقتضت المعاهدة منها دفع تعويضات اقتصادية باهظة، وفرضت على جيشها قيودًا صارمة، وحظرت عليها امتلاك الطائرات والدبابات، كما اشترطت ألا يتجاوز تعداد جيشها 100 ألف جندي. كما أُجبِرت ألمانيا على التخلي عن مستعمراتها في الخارج، وعلى التنازل عن 13 في المائة من أراضيها الأوروبية (و10 في المائة من سكانها)، بالإضافة إلى القبول باحتلال قوات الحلفاء لمنطقة الراين Rhineland، قلب الصناعات الألمانية[125]. وكان أكثر ما ألحق الضرر بالكبرياء الألماني هو "وِزْر الحرب"، الذي ألقى بمسؤولية الحرب على عاتق ألمانيا مباشرة. لقد قوبلت "معاهدة العبودية"[126] المزعومة "باستياء مرير من جميع الألمان تقريبًا"[127]. ومع ذلك، "تركت تلك المعاهدة الرايخ سليمًا إلى حد كبير من الناحيتين الجغرافية والاقتصادية، وحافظت على وحدة ألمانيا السياسية، وقوتها الكامنة كأُمَّة عظيمة"[128]. وبعد عشرين عامًا فقط من الحرب العظمى، استخدم أدولف هتلر تلك القوة في محاولة ثانية لإسقاط النظام الأوروبي.

عمِل هتلر بتركيزٍ وبلا هوادة على تحقيق نهضة ألمانيا[129]. فبعد فوز حزبه القومي الاشتراكي في انتخابات عام 1933، انتقل إلى تعزيز سلطته من خلال وسائل غير ديمقراطية. وقد أضفى على نفسه شرعية من خلال الدعوة إلى توجيه "جميع الطاقات الوطنية الألمانية" نحو الهدف الوحيد الذي يتمثل في إعادة التسلح لتأمين رؤيته الخاصة بخلق مجال حيوي "ليبِنسراوم" للشعب الألماني. "لقد أراد أوروبا الوسطى كلها، وروسيا بكاملها، وصولاً إلى نهر الفولغا Volga، ليتخذ منها "ليبِنسراوم"

يؤمِّن لألمانيا الاكتفاء الذاتي، ويضمن وضعها كقوة عظمى"، على حد تعبير بول كينيدي[130]. كانت عملية البناء العسكري سريعةً. فعندما أصبح هتلر مستشارًا لألمانيا، كانت فرنسا وبريطانيا معًا تنفقان على الدفاع ضعف ما تنفقه ألمانيا. وفي عام 1937، عكست ألمانيا هذه النسبة، فأصبحت تنفق بمفردها ضعف ما تنفقه فرنسا وبريطانيا مجتمعتين[131]. وقد تمثلت عملية إعادة تسليح ألمانيا الباهظة في إنتاجها من الطائرات الحربية: ففي عام 1933 أنتجت 368 طائرة فقط، ولكن بحلول عام 1938 زادت إنتاجها إلى 5235 طائرة، أي أكثر مما أنتجته بريطانيا وفرنسا مجتمعتين[132]. كما توسع الجيش الألماني من 39 فرقة في عام 1936، إلى 103 فرق في عام 1939، ووصل مجموع جنوده إلى 2.76 مليون رجل[133].

وُجِهت عمليةُ إعادة تسليح ألمانيا في البداية بردٍّ "ضعيف"[134] من خصومها المستقبليين، الذين لم يظهروا "سرعة في إدراك هذا الخطر"[135]. ورغم تحذيرات ونستون تشرشل المتخوفة والمتكررة من أن ألمانيا "لا تخشى أحدًا"، وأنها "تسلح نفسها بطريقة لم يسبق لها مثيل في التاريخ الألماني"، رأى رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشامبرلين Neville Chamberlain أن ما يفعله هتلر هو مجرد محاولة لإصلاح أخطاء معاهدة فرساي. ووافق تشامبرلين، في ميونيخ في أيلول/سبتمبر 1938، على الإجراء الألماني بضم سوديتنلاند(*) Sudetenland[136]. ومع ذلك، زاد قلق تشامبرلين بعد أن كشف قرارُ هتلر باحتلال بقية تشيكوسلوفاكيا في آذار/مارس 1939، عن نواياه التوسعية. وقد تساءل تشامبرلين ببلاغة: "هل هذه نهاية مغامرة قديمة، أم أنها بداية مغامرة جديدة؟ هل هذا هو الهجوم الأخير على دولة صغيرة، أم أن هجماتٍ أخرى سوف تتبع هذا الهجوم؟ هل هذه، في الواقع، خطوة في اتجاه محاولة السيطرة على العالم

(*) الاسم الألماني لإقليم يقع غرب جمهورية التشيك حاليًا، وكانت تسكنه أغلبية مطلقة من الناطقين باللغة الألمانية. وبقي الوضع هكذا حتى تم تهجير هؤلاء السكان إلى ألمانيا، بعد الحرب العالمية الثانية. (المُعرِّب)

بالقوة؟[137]" في هذه الأثناء، كما يشرح كيسنجر: "كان الإحباط قد أصاب فرنسا، إلى درجة أعجزتها عن التصرف"[138]. في هذا الوقت، قرر ستالين أن أفضل ما يخدم مصالحه هو توقيع معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا، وقد تضمنت المعاهدة بروتوكولاً سريًا لتقسيم أوروبا الشرقية[139].

بعد أسبوع من التصديق على الاتفاقية مع ستالين، قامت قوات هتلر بغزو بولندا، مما دفع بريطانيا وفرنسا إلى إعلان الحرب في 3 أيلول/سبتمبر 1939. هكذا، بدأت الحرب العالمية الثانية. وفي غضون سنة، احتل هتلر فرنسا، إلى جانب أجزاء كثيرة من أوروبا الغربية والدول الاسكندنافية. لقد هُزمت بريطانيا في القارة، رغم أنها صمدت أمام الهجمات الجوية الألمانية. وفي حزيران/يونيو 1941، خان هتلر، ستالين، شريكه في اتفاقية عدم الاعتداء، وغزا الاتحاد السوفييتي. وعندما اكتملت هزيمة ألمانيا بعد أربع سنوات، كانت معظم أجزاء القارة الأوروبية قد دُمرت، ووقع نصفها الشرقي تحت السيطرة السوفييتية للأربعين سنة القادمة. ما كان بالإمكان تحرير أوروبا الغربية بدون تدخل الولايات المتحدة(*)، التي تواصل أوروبا الاعتماد على قوتها العسكرية. لقد كانت الحرب التي أشعلها هتلر، الحرب الأكثر دموية في العالم على الإطلاق.

(*) هذه مقولة خطيرة، تتضمن جزمًا لا يمكن الإقرار به، الأمر الذي يجعلها مجرد رأي شخصي، تختلف معه آراء أكاديمية كثيرة موثّقة. إن الحديث عن العوامل التي أدت إلى تحرير أوروبا، يجب أن يجيء ثانيًا، بعد الحديث عن العوامل التي أدت إلى هزيمة ألمانيا النازية. فالوقائع تقول إن هزيمة ألمانيا سبقت تحرير أوروبا، وأن ألمانيا النازية كانت قد سقطت، قبل أن يهبط الأمريكيون على شواطئ نورماندي. أوروبا تحررت لأن ألمانيا كانت قد هُزِمت بالفعل، وليس العكس. وألمانيا كانت قد هُزِمت لأسباب كثيرة جدًا، لا يأتي على رأسها دخول أمريكا إلى الحرب، ولكن من المؤكد أن من بين هذه الأسباب قرار هتلر نشر قواته على مساحات شاسعة تفوق قدراته اللوجستية، وكانت بدايةُ ذلك الخطأ/الخطيئة، يومَ قرر غزو الاتحاد السوفييتي، الذي كان صموده أسطوريًا. (المُعرِّب)

14: الولايات المتحدة في مواجهة اليابان

العصر: منتصف القرن العشرين

القوة الحاكمة: الولايات المتحدة

القوة الصاعدة: اليابان

مجال الصراع: النفوذ البحري، والنفوذ في آسيا-المحيط الهادي

المحصلة النهائية: الحرب العالمية الثانية (1941 – 1945)

أصبحت الإمبراطورية اليابانية، المدعومة بالانتصارات الحاسمة في حروبها ضد كل من الصين وروسيا، ومجال نفوذها المتنامي الذي يضم كوريا وتايوان، قوة مهيمنة كبيرة في القرن العشرين. وبينما كان التوسع الياباني، ولا سيما في الصين، يهدد سياسة "الباب المفتوح" التي تقودها الولايات المتحدة في المحيط الهادي، أصبحت الولايات المتحدة أكثر عدائية تجاه اليابان في الثلاثينيات. وبعد أن سعت الولايات المتحدة لاحتواء اليابان من خلال حظر وارداتها من المواد الخام، هاجمت اليابان بيرل هاربور، مما دفع الأمريكيين، الذين كانوا مترددين حتى الآن، إلى دخول الحرب العالمية الثانية.

في عام 1915، استخدم رئيس الوزراء الياباني، أوكوما شيجينوبو Okuma Shigenobu، نفوذ بلاده الجديد ليفرض على جمهورية الصين "واحدًا وعشرين مطلبًا"، من أجل زيادة سلطة اليابان الاقتصادية الإقليمية على آسيا والمحيط الهادي. شكّلت هذه المطالب تحديًا كبيرًا، ليس للصين فحسب، بل أيضًا للنظام الإقليمي الذي أرست أسسَه سياسةُ البابِ المفتوح الأمريكية التي أُعلنت عام 1899. وخشي وزير الخارجية هنري ستيمسون Henry Stimson أن تشكِّل هذه المطالب اليابانية خطرًا على هذا النظام، وعلى أسلوب الحياة الأمريكي الذي يعتمد عليه[140].

وسعيًا إلى فرض "نظام جديد في شرق آسيا"، أطلقت اليابان، عام 1931، حملةً غير مبرَّرة للاستيلاء على منشوريا. وقد امتدت هذه الحملة إلى قلب الصين، ووصلت إلى ذروتها القاسية من خلال واقعة اغتصاب نانكينغ Rape of Nanking عام 1937. ورغم أن عدوان اليابان ضد حليف أمريكي، أصاب الولايات المتحدة بالذعر، امتنع الرئيس فرانكلين روزفلت في

البداية عن التصرف، حتى عندما قصفت اليابان سفينةً أمريكية كانت تسعى لإنقاذ بعض الأمريكيين قرب نانكينغ.

ومع ذلك، وخلال السنوات القليلة التالية، بدأت الولايات المتحدة في زيادة المساعدات إلى الصين، وفرضت عقوبات اقتصادية صارمة على اليابان. وحيث إن الدولة الجزيرة كانت تعتمد بالكامل، تقريبًا، على استيراد المواد الخام المهمة مثل النفط والمطاط والحديد الخردة، ولأنها تعتبر التوسع الإقليمي أمرًا حيويًا لشراء الموارد الطبيعية ولمستقبلها كقوة عظمى، اعتبرت القيادة اليابانية السعي لاحتوائها، تهديدًا قاتلاً. وقال السفير الياباني كيشيسابورو نومورا Kichisaburô Nomura لواشنطن يوم 2 كانون الأول/ ديسمبر 1941، "إن الشعب الياباني يعتقد أنه يتعرض لضغوط شديدة من قِبل الولايات المتحدة، لإجباره على الاستسلام للموقف الأمريكي؛ وإنه يفضل القتال، على الاستسلام للضغط"[141].

بينما كانت اليابان تتفاوض مع دول المحور في أوروبا Axis Powers، وفرنسا فيشي Vichy France، والاتحاد السوفييتي على تسويات من شأنها أن تسمح لها بتوسع إقليمي أسهل في جنوب شرق آسيا، قطعت الولايات المتحدة المفاوضات مع اليابان. لقد باتت واشنطن على قناعة، كما يقول المؤرخ ريتشارد ستورّي Richard Storry، بأن اليابان "تعيد رسم خريطة آسيا من أجل استبعاد الغرب"[142]. ومع تشديد العقوبات، أشار السفير الأمريكي لدى طوكيو جوزيف غرو Joseph Grew، في مذكراته، بتبصُّر، إلى أن "دائرة الانتقام والانتقام المضاد المُفْرغة تتواصل... والنتيجة الحتمية في نهاية المطاف هي الحرب"[143].

لقد أثبت الحظر الذي فرضه روزفلت على اليابان في شهر آب/أغسطس 1941 أنه القشة الأخيرة. وكما يشرح تشارلز ماكلينغ Charles Maechling، المسؤول السابق في وزارة الخارجية الأمريكية، "لم يكن البترول السبب الوحيد لتدهور العلاقات، إلاّ أنه، فور استخدامه كسلاح دبلوماسي، أصبحت الأعمال العدائية أمرًا لا مفرَّ منه. لقد قطعت الولايات المتحدة، بتهوُّرٍ، شريان

الحياة لخصم قوي دون إيلاء الاعتبار الواجب للنتائج المتفجرة المتوقعة"[144]. وفي حالة من اليأس، وافق القادة اليابانيون على خطة لتوجيه ضربة استباقية ضد الأسطول الأمريكي في المحيط الهادي، في بيرل هاربور، لتمهيد الطريق نحو الاستيلاء على الأراضي الغنية بالموارد في جنوب شرق آسيا، وجزر الهند الشرقية الهولندية. وكما يلاحظ الباحث جاك سنايدر Jack Snyder، فإن استراتيجية اليابان تعكس قناعاتها بأنه "إذا لم تكن الشمسُ مشرقةً، فهي إذًا قد أَفَلَتْ"، وأن الحرب مع الولايات المتحدة كانت "حتمية" نظرًا لطبيعة أمريكا "الجشعة بالفطرة"[145].

في ما بعد، أدرك رجال الدولة الأمريكيون تسرُّع قرار الحظر النفطي. وكما قال وزير الخارجية الأسبق دين آتشيسون Dean Acheson، فإن سوء فهم أمريكا للنوايا اليابانية لم يكن "بسبب ما تعتزم الحكومة اليابانية عمله في آسيا، وليس بسبب العداء الذي سيثيره حِصارُنا، ولكن بسبب المخاطر الفائقة التي قد يخوضها الجنرال توجو لتحقيق غاياته. لم يدرك أحدٌ في واشنطن أن توجو ونظامه ينظران إلى غزو آسيا ليس كإنجاز لحلم أو طموح، ولكن كعمل ضروري لبقاء النظام. لقد كان الأمر بالنسبة لهم، مسألة حياة أو موت"[146]. وكان هجوم اليابان على بيرل هاربور نجاحًا جزئيًا على المدى القصير، وقد واصلت اليابان تحقيق انتصارات تكتيكية عظيمة ضد أمريكا وبريطانيا، ولكن الصراع أدى في النهاية إلى تدميرها تدميرًا شبه كامل بحلول عام 1945. لقد كلفت حروبُ شرق آسيا اليابان، عشرات الملايين من الأرواح.

15: الولايات المتحدة في مواجهة الاتحاد السوفيتي

العصر: من أربعينيات إلى ثمانينيات القرن العشرين

القوة الحاكمة: الولايات المتحدة

القوة الصاعدة: الاتحاد السوفييتي

مجال الصراع: النفوذ العالمي

المحصلة النهائية: لا حرب

> في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ظهرت الولايات المتحدة كقوة عظمى في العالم بلا منازع. دولةٌ تستحوذُ على نصف الناتج المحلي الإجمالي لدول العالم كلِّها، وتمتلك قواتٍ عسكرية تقليدية هائلة، وتحتكر أحدث آلات الحرب وأشدَّها تدميرًا على الإطلاق، وهي القنبلة النووية. ومع ذلك، سرعان ما واجهت الهيمنةُ الأمريكية تحديًا من قبل حليفها في الحرب العالمية الثانية، الاتحاد السوفييتي. ورغم أن الحرب الباردة غلب عليها التوتر في أوقاتٍ كثيرة، فهي تُعتبر واحدة من أعظم العمليات الناجحة، عبر التاريخ، للفرار من فخ ثيوسيديديز. فمن خلال تطوير وسائل للمنافسة خارج نطاق النزاع المسلح، تمكنت القوتان من إدارة أقوى صراعِ مصالح بين القوى العظمى، على مر التاريخ، بشكل سلمي.

بعد أن حرَّر السوفييت دول أوروبا الشرقية من الحكم النازي بتكلفة باهظة، شعروا بأنهم يستحقون تعويضًا يتمثل في دائرة نفوذ يقيمونها على أنقاض أوروبا الشرقية، في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وبالفعل، نشر الاتحاد السوفييتي مستشارين عسكريين، وضباط استخبارات، ليتعاونوا مع السياسيين المحليين في إنشاء أحزابٍ شيوعية جديدة، والتدبير لتنفيذ انقلابات، وقمع القوى المُعارِضة. لقد بنى الاتحاد السوفييتي إمبراطورية تمتد إلى وسط ألمانيا، وبكلمات ونستون تشرشل، "من شتيتين Stettin في بحر البلطيق، إلى تريستِه Trieste في البحر الأدرياتيكي Adriatic Sea، أُسْدِلت ستارةٌ حديديةٌ... عبر القارة".

وسرعان ما أصبح واضحًا للكثيرين من صانعي السياسة في الولايات المتحدة أن الاتحاد السوفييتي، كما كتب المؤرخ جون غادّيس John Gaddis، "لا يسعى إلى استعادة توازن القوى في أوروبا، بل إلى

(*) يصف المؤلف جيمس فورستال هنا بأنه وزير البحرية الأمريكية، بينما وصفه في الفصل التاسع، عندما نقل عنه العبارة نفسها، بأنه أول وزير دفاعٍ أمريكي، والحقيقة أن الصفتين صحيحتان: فقد شغل فورستال منصب وزير البحرية خلالَ الفترة من 19 أيار/مايو 1944 إلى 17 أيلول/سبتمبر 1947. وهو اليوم الذي تولى فيه رسميًا منصب وزير الدفاع، الذي استحدثه الرئيس هاري ترومان، وأسنده إليه. وقد بقي فورستال في منصبه الجديد حتى 28 آذار/مارس 1949. كان فورستال استراتيجيًا مرموقًا، وقد اشتهر بحماسته الشديدة لفكرة المجموعات القتالية التي تعتمد، في القلب منها، على حاملات الطائرات، لذلك أطلق اسمه على أول حاملة طائرات استراتيجية عملاقة، هي USS Forrestal، التي دخلت الخدمة يوم عيد الاستقلال الأمريكي، في 14 تموز/يوليو 1952. (المُعرِّب)

الهيمنة على هذه القارة بشكل شامل، تمامًا كما حاول هتلر أن يفعل"[147].
ومن خلال الانتشار الحالي للاتحاد السوفييتي في أوروبا، يستطيع ستالين، بسهولة، أن ينشُر "شيوعيةَ إمبراطوريتِهِ الثورية" في جميع أنحاء العالم. وبعد تسعة أشهر من يوم الانتصار في أوروبا V-E Day، اتفقت برقية جورج كينّان المطولة في شباط/فبراير 1946، وخطاب الستار الحديدي لونستون تشرشل الذي أعقبها بعد أقل من أسبوعين، على تعريف الشيوعية السوفييتية على أنها تهديد وجودي للغرب. وقد عبَّر وزير البحرية جيمس فورستال(*) عن وجهات نظر الكثيرين من صانعي السياسة الأمريكيين عندما كتب أن الشيوعية السوفييتية "غيرُ متوافقةٍ مع الديمقراطية، تمامًا مثل النازية والفاشية، لأنها تستند إلى الاستعداد لاستخدام القوة لتحقيق غاياتها"[148].

بحلول عام 1949، نجح الاتحاد السوفييتي في كسر الاحتكار النووي الأمريكي من خلال اختبار قنبلته الذرية الأولى(*). وبعد ثماني سنوات، أطلق الاتحاد السوفييتي سبوتنيك Sputnik، أول قمر اصطناعي يُرسَل إلى الفضاء(**)، وهو ما وجَّه ضربة إلى التفوُّق الأمريكي المفترض في العلوم والتكنولوجيا. في هذه الأثناء، كان الاقتصاد السوفييتي قد بدأ في الصعود.

(*) أُجريت هذه التجربة يوم 28 آب/أغسطس 1949، في موقع مخصص للتجارب النووية في كازاخستان. لم يعلن السوفييت عن تلك التجربة فور إجرائها، غير أن طائرة تجسس أمريكية كانت تحلق فوق سيبيريا يوم 3 أيلول/سبتمبر، استطاعت تسجيل النشاط الإشعاعي الذي خلَّفه التفجير. وبعد عدة أيام، أبلغ الرئيس هاري ترومان الشعب الأمريكي أن السوفييت قد صنعوا قنبلة نووية. ومن سخرية الأقدار أن العالِم الألماني كلاوس فوكس Klaus Fuchs، الذي ساعد الولايات المتحدة على إنتاج القنبلة النووية، هو نفسه الذي ساعد السوفييت على إنتاج قنبلتهم، بعد أن نقل إليهم، أثناء الحرب العالمية الثانية، معلومات ووثائق مهمة عن البرنامج النووي الأمريكي. ومن أبرز ما نقله إليهم الرسوم التفصيلية الكاملة لأول قنبلة نووية أمريكية، القنبلة التي ألقيت على هيروشيما. لهذا، كانت القنبلة السوفييتية الأولى نسخة من سابقتها الأمريكية، خاصة من حيث القوة التدميرية التي بلغت 20 كيلوطن. يمكن الاطلاع على مزيد من التفاصيل على موقع قناة هيستوري History Channel الأمريكية، من خلال الرابط التالي: https://www.history.com/this-day-in-history/soviets-explode-atomic-bomb. (المُعرِّب)

(**) أُطلِق هذا القمر في 4 تشرين الأول/أكتوبر 1957، وكانت مهمته استكشافية، تتركز على تزويد العلماء بأكبر قدر ممكن من المعلومات عن مكوِّنات الطبقات العليا من الغلاف الجوي، الذي كان الوصول إليها عبر الأجهزة الأرضية مستحيلًا. (المُعرِّب)

فقد زاد الإنتاج الصناعي بنسبة 173 في المائة بحلول عام 1950 مقارنة بمستويات ما قبل الحرب، وبلغ متوسط النمو الاقتصادي السنوي (على الأقل كما تم الإعلان عنه رسميًا) 7 في المائة بين عامي 1950 و1970[149]، مما أثار المخاوف من أن الاتحاد السوفييتي قد ينافس بل وقد يتفوَّق اقتصاديًا على الولايات المتحدة[150]. وكان بول صامويلسون قد توقَّع في كتابه اقتصاديات: تحليل تمهيدي، الذي صدر عام 1964 وحقق أعلى المبيعات، أن يتفوَّق الناتج القومي الإجمالي السوفييتي على الولايات المتحدة بحلول منتصف ثمانينيات القرن الماضي[151]. ورغم أن توقُّع صامويلسون لم يتحقق، نجح الاتحاد السوفييتي، في أوائل السبعينيات، في تجاوز الولايات المتحدة في مجالين رئيسيين: الإنفاق العسكري وإنتاج الحديد والصلب[152].

واستجابة للتحدي، استخدمت الولايات المتحدة جميع الأدوات التقليدية للحرب، التي تخلو من القنابل والرصاص، وكثيرًا من الأدوات غير التقليدية أيضًا. لقد أصبحت هذه المواجهة معروفة بالحرب الباردة[153]. فرغم أن الطرفين كادا يصلان إلى حافة الهاوية مرات عدة (على سبيل المثال، أثناء أزمة الصواريخ الكوبية)، ورغم شن عددٍ من الحروب بالوكالة (في كوريا وفيتنام وأفغانستان وأماكن أخرى)، فقد نجحا في تجنُّب أية مواجهة عسكرية مباشرة بينهما[154]. وقد قدَّم المؤرخون تفسيرات مختلفة لعدم تحوُّل الحرب الباردة إلى حرب ساخنة (قتالية). الأغلبية عزت الفضل إلى الخوف من شبح الدمار النووي[155]، بينما أكد البعض على الدور الذي لعبه بُعْدُ المسافة الجغرافية بين الولايات المتحدة واتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية[156]، وكذلك نمو برامج الاستطلاع التي تقلل من احتمالات وقوع سوء تفاهم خطير[157]. كذلك، يشير الكثيرون إلى الاعتراف المتبادل بين البلدين بالقيود على المنافسة، التي سمحت لكل منهما بمهاجمة الآخر باستخدام جميع أشكال الحرب باستثناء الصدام المباشر[158]. ومع ذلك، كان هناك عامل آخر سمح للقوتين بالهروب من الحرب، ألا وهو ثقافة

التعاون التي تطورت من خلال ما جرى من مناقشات ومباحثات حول الأسلحة النووية، بدأت بمعاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية SALT عام 1972، وبلغت ذروتها من خلال لقاءات القمة التي جمعت بين رونالد ريغان وميخائيل غورباتشوف خلال ثمانينيات القرن العشرين. فهذه القمم لم تقلل من خطر وقوع حادث نووي فحسب، بل نجحت، أيضًا، في بناء قاعدة أساسية للثقة المتبادلة.

بمرور الوقت، أثبت نهج الولايات المتحدة، أي استراتيجيةُ الاحتواءِ التي استمرت أكثر من أربعة عقود، نجاحه. لقد أدى التباين بين نجاح ديمقراطيات السوق الحرة، والتناقضات الداخلية لنظام الحكم السلطوي الموجَّه، إلى تآكل النظام السوفييتي من الداخل على مدى عدة عقود. لقد عجز الاتحاد السوفييتي عن توفير البندقية والزبدة معًا(*)، فانهار في عام 1991، وانتهى الصراع الذي صبغ أواخر القرن العشرين، دون إراقة دماء.

16: المملكة المتحدة وفرنسا في مواجهة ألمانيا

العصر: من تسعينيات القرن العشرين، حتى وقتنا الحالي

القوة الحاكمة: المملكة المتحدة وفرنسا

القوة الصاعدة: ألمانيا

مجال الصراع: النفوذ السياسي في أوروبا

المحصلة النهائية: لا حرب

في ختام الحرب الباردة، توقَّع الكثيرون أن تعود ألمانيا، الموحدة حديثًا، إلى طموحاتها القديمة في الهيمنة. وبينما كانوا على حق في أن ألمانيا كانت على الطريق نحو استعادة قوتها السياسية والاقتصادية في أوروبا، اتسم صعود

(*) يشير المؤلف هنا إلى المعادلة الاقتصادية الشهيرة "البندقية في مواجهة الزبدة" guns versus butter، وهي المعادلة التي يُقصد بها العلاقة بين ما تنفقه دولة ما على إنتاج وشراء المعدّات العسكرية، وما تنفقه على إنتاج وشراء السلع والبضائع المدنية. ظهرت هذه الثنائية لأول مرة عام 1917، عندما أصدر الكونغرس الأمريكي تكليفًا لوزارة الزراعة التي كانت تتولى الإشراف على إنتاج الأسمدة الكيميائية في زمن السلم، بإنتاج المواد اللازمة لتصنيع المتفجرات في زمن الحرب العالمية الأولى، وقد وصفت الصحف الأمريكية هذا القرار عند صدوره بأنه تكليف للوزارة بأن تنتج الزبدة والبندقية. (المُعرِّب)

ألمانيا بالهدوء وخلا من الخطورة. لقد أدّى وعي القادة الألمان بالطريقة التي أوقع بها فخ ثيوسيديديز بلادهم في شِباكِهِ في الماضي، إلى انتهاج طريقة جديدة لممارسة السلطة والتأثير: من خلال الإمساك بزمام القيادة في نظام اقتصادي متكامل، بدلًا من الهيمنة العسكرية.

عندما طرح المستشار الألماني هيلموت كول Helmut Kohl مسألة إعادة توحيد ألمانيا في ختام الحرب الباردة، اعترض قادة قوى الوضع الراهن في أوروبا – المملكة المتحدة وفرنسا – على هذا الطرح، لما ينطوي عليه من احتمال عودة ألمانيا كدولة قوية مجددًا. كان كثيرٌ من الاستراتيجيين الأوروبيين قد اعتبروا أن تقسيم ألمانيا، في نهاية الحرب العالمية الثانية، هو الحل الدائم "للمشكلة الألمانية"، التي كانت واحدة من الأسباب الرئيسية لحربين عالميتين. لقد كانت مهمة الناتو الثلاثية في أوروبا، كما حرص على تكرارها ساخرًا أول أمين عام له، هي "إبعادُ السوفييت، وإبقاءُ الأمريكيين، والحيلولةُ دون صعود الألمان"[159].

كان من السهل فهم مخاوف بريطانيا وفرنسا: فألمانيا الموحدة سوف تكون أكبر دولة في أوروبا من حيث عدد السكان والقوة الاقتصادية. من هذا المنطلق، دفع السفير الفرنسي في ألمانيا في عام 1989 إلى القول بأن إعادة التوحيد "ستؤدي إلى هيمنة ألمانيا على أوروبا، وهكذا أوروبا لا يريدها أحد، لا في الشرق ولا في الغرب"[160]. من ناحية أخرى، ذهبت رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر بهذه المخاوف إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما أعربت للرئيس جورج بوش (الأب)، في جلسة خاصة، عن خوفها من "أن يحصل الألمان بالسلام، على ما لم يتمكن هتلر من الحصول عليه بالحرب"[161]. لمواجهة هذا التهديد المُتصوَّر، ناقشت رئيسة الوزراء تاتشر والرئيس فرانسوا ميتران تعزيز التحالف بين بريطانيا وفرنسا. ففكَّر ميتران، على سبيل المثال، في "التعاون العسكري الثنائي وحتى النووي مع بريطانيا لتشكيل قوة مقابلة"[162]. وبحسب الدبلوماسي السابق الباحث فيليب زيليكو Philip Zelikow، ووزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كوندوليزا رايس Condoleezza Rice، "يعتقد الأوروبيون، وخاصةً

الفرنسيين، أن أية عملية لإعادة إحياء القوة الألمانية، يجب أن تسير جنبًا إلى جنب مع إرساء هياكل أوروبية تمنع الدولة الألمانيّة من تعريض فرنسا للخطر"[163].

وكما تنبأ الزعماء الأوروبيون، تمكنت ألمانيا بالفعل من الاستفادة من قوتها الاقتصادية لاستعادة موقعها كأقوى صوت يُعبِّر عن أوروبا سياسيًا، كما استطاعت أن تملأ الفراغ السياسي الذي خلَّفه انهيار الاتحاد السوفييتي. غير أنه من اللافت للنظر أن هذه العودة قد جرت بسلام حتى الآن. كما أنها اكتسبت، مع مرور الوقت، دعم بريطانيا وفرنسا. كيف حدث إذًا، كما لاحظ هنري كيسنجر مؤخرًا، أنه "بعد سبعين سنة من هزيمة المساعي الألمانية للهيمنة على أوروبا، ولأسباب معظمها اقتصادي، يتوسل المنتصرون الآن إلى ألمانيا، كي تتولى قيادة أوروبا؟"[164].

يرجع التطور السلمي لألمانيا، في معظمه، إلى استراتيجيتها العريضة التي تهدف إلى تهدئة الشكوك الأوروبية، من خلال الإيماءات العلنية بحسن النية، والسعي إلى تدعيم الاعتماد الاقتصادي المتبادل مع خصومها السابقين. والأهم من ذلك أن القادة الألمان اختاروا، عن وعي، ألا يعيدوا تطوير حضورهم العسكري، بما يتناسب مع قوة بلادهم الاقتصادية.

لقد أصبح هذا المسار الجديد واضحًا بشكل خاص، عندما حققت ألمانيا السيطرة الاقتصادية، وأصبحت لاعبًا مهيمنًا في الأسواق الأوروبية المتكاملة، وقائدةً للبنك المركزي الأوروبي في فرانكفورت. وكما أشار وزير التجارة البريطاني السابق ستيفن غرين Stephen Green، فإن ألمانيا سلّطت قوتها بشكل أساسي على التأثير في الاقتصاد السياسي الأوروبي: "لم تُظهِر ألمانيا بأي حال من الأحوال أي استعداد للعب أي دور استراتيجي في عالم الشؤون الخارجية، خاصة من النوع الذي كان كل من البريطانيين والفرنسيين يعتبرون القيام به أمرًا مسلمًا"[165]. قضت استراتيجية التكامل، كما وصفتها عالِمة العلاقات الدولية هيلغا هافتندورن، "بالتعويض عن مكاسب ألمانيا في السلطة والسيادة، من خلال التأكيد على أهمية دمج هذه

الإمكانية في أوروبا جديدة، وخَلق ألمانيا مُأَوْربة، بدلاً من أوروبا المُؤَلْمَنة "[166].

ومن المهم الإشارة، إلى أن سعي ألمانيا إلى التكامل الاقتصادي بدأ قبل إعادة التوحيد[167]. وبالإضافة إلى ذلك، لا يمكن التشكيك في أن قرار ألمانيا بالتخلي عن التوسع العسكري بشكل يتناسب مع قوة وطول ذراعها الاقتصادي، قد تأثر بوجود أمريكا كضامنٍ للأمن الإقليمي، وقوةِ استقرارٍ في أوروبا. وأيًّا كانت الأسبابُ الحقيقية لهذا النهج، فقد أثبت، في نهاية المطاف، أنه مبعثُ طمأنينةٍ لخصوم ألمانيا السابقين، بما يُظهره من روح جديدة، يصفها محلل السياسات هانز كوندناني Hans Kundnani، في كتاب مفارقة القوة الألمانية The Paradox of German Power، بأنها "خليط غريب من الحزم الاقتصادي، والإحجام العسكري... إن ألمانيا، من منظور جيوسياسي، دولة حميدةٌ، غيرُ مؤذية"[168].

ولكن، في الآونة الأخيرة، أصبح النظام الأوروبي القائم - والقيادة الألمانية لهذا النظام - محل تساؤل، بسبب عدم الاستقرار الناجم عن تداعيات الأزمة المالية العالمية، والتدفق الكاسح للمهاجرين واللاجئين من سوريا والشرق الأوسط. وبغضّ النظر عن مستقبل أوروبا، أو الظروف التاريخية غير العادية للوجود الأمني الأمريكي في القارة، فإن النهج الذي تتبعه ألمانيا في هذه اللحظة الحرجة التي تشهد انتقالاً للسلطة، يوفر دروسًا دائمة ومهمة للقوى التي تسعى إلى تجنُّب السقوط في فخ ثيوسيديديز. لقد تعلمت ألمانيا أن زيادة الإنفاق الدفاعي ليكون موائمًا لمعدلات التنمية الاقتصادية يمكن أن يؤدي بسهولة إلى نشوب صراع، وأن هناك حاجة إلى إظهار بوادر حسن النية بشكل مستمر، للتغلب على الخوف العميق بين الدول المتنافسة. فمن خلال الاستقرار، والانفتاح، والاندماج مع خصوم سابقين، والرغبة في التخلي عن المزيد من استعراضات القوة بمفهومها التقليدي، تمكنت ألمانيا حتى الآن في الإفلات من فخ ثيوسيديديز.

الملحق الثاني

سبعةُ رجالٍ من قش

في النقاش الأكاديمي، يفضِّل العلماء، في كثير من الأحيان، مهاجمة رجال من قش[*] بدلاً من الطعن في أطروحة معلنة ومعروفة. هذا النمط بسيط جدًا: شيِّد رجلاً من قش، أشعل فيه النار، ثم ادّعِ أنك قد دحضت الأطروحة. فردًّا على المقال الذي نشرته الأتلانتيك Atlantic في أيلول/ سبتمبر 2015 الذي استعرض ما أثاره هذا الكتاب من حجج ونقاشات، خلق المنتقدون سبعة رجال من قش، وأحرقوهم أكثر من مرة.

1: الحتمية: يدعي فخ ثوسيديديز أن الحرب بين القوة الصاعدة والقوة الحاكمة واقعة لا محالة.

كما ورد في مقال الأتلانتيك وفي هذا الكتاب، لا يدَّعي فخ ثيوسيديديز أنّ لا مفر من وقوع الحرب. في الواقع، هناك أربع من الحالات الست عشرة التي يتضمنها ملف الحالات (الملحق الأول)، لم تسفر عن حرب. وعلاوة على ذلك، وكما لوحظ حتى من كتاب تاريخ الحرب البِلوبونيزية، فإن استخدام ثيوسيديديز لكلمة "حتمية"، كان يقصد منه، بوضوحٍ، الغلو أو المبالغة hyperbole.

(*) المعنى المعجمي المباشر لمصطلح رجلُ من قش straw man، هو الشخص الذي يتولى منصبًا كبيرًا، لكنه لا يستطيع ممارسة صلاحيات هذا المنصب، عجزًا أو خوفًا. وفي مجال الدراسات والنقاشات الأكاديمية، يقصد برجال من قش مجموعة الحجج أو الفرضيات الزائفة، التي يضعها منتقدو نظرية أو فرضية معيَّنة، لا لغرض إلا إثبات خطأ تلك النظرية أو الفرضية. (المُعرِّب)

2: **النقاط الحرجة، أسلاك التعثر، أو نقاط التحوُّل**: لقد تم عبور نقطة حرجة معيَّنة أثناء عملية انتقال السلطة، دون أن تشتعل حرب، لذا فإن ثيوسيديديز مخطئ.

لا تدَّعي فرضية فخ ثيوسيديديز وجود لحظة واحدة من المرجح أن تحدث الحرب عندها. فالديناميكية الثيوسيديديزية يمكن أن تحدث أثناء صعود القوة الجديدة، أو عند لحظة التعادل بين القوتين، أو بعد أن تتفوَّق قوة على قوة أخرى.

3: **التحيُّز في الاختيار**: فخ ثيوسيديديز مذنبٌ بجُرم الاختيار الانتقائي لإثبات استنتاجه، فهو يختار الحالات التي أدت إلى الحرب فقط.

يتضمن ملف الحالات جميع الحالات التي تَمكَّنا من العثور عليها في السنوات الماضية، والتي هددت فيها قوةٌ صاعدة كبرى، بإزاحة أو تنحية قوة حاكمة. ولأن هذا الملف يشمل عالم تلك الحالات بأكمله (على عكس الدراسات التي تعتمد على عيِّنة تمثيلية فقط)، فإن الملف محصَّن ضد أي اتهام بالتحيُّز أو الانتقائية عند الاختيار. للاطلاع على عرض تفصيلي لمنهج فخ ثيوسيديديز، يمكن مراجعة الرابط التالي: http://belfercenter.org/thucydides-trap/thucydides-trap-methodology.

4: **حالات مفقودة**: ملف حالات فخ ثيوسيديديز غير مكتمل.

ملف حالات فخ ثيوسيديديز ملفٌ مفتوح. فمنذ نُشِر ملف الحالات جنبًا إلى جنب مع مقال الأتلانتيك عام 2015، دعا الموقع الخاص بمشروع فخ ثيوسيديديز القراء إلى اقتراح حالات إضافية من مناطق أخرى في العالم، أو من قوى أخرى أقل من القوى العظمى، أو من عصور أخرى. وفي ما يتعلق بهذا الطلب، كلما كانت الحالات أكثر، كان ذلك أفضل، حيث يمكن أن توفر الحالات الإضافية رؤى إضافية للديناميكيات الأساسية للقوى الصاعدة في مواجهة القوى الحاكمة. لاقتراح حالات أخرى، يمكن زيارة الموقع التالي: http://belfercenter.org/thucydides-trap/case-file

5: مجموعة البيانات صغيرة: يوفر ملف حالات فخ ثيوسيديديز باقة بيانات صغيرة جدًا، لا تكفي لدعم المزاعم المتعلقة بالقوانين أو الإجراءات المنتظمة، أو لاستخدام علماء الاجتماع الذين يسعون إلى القيام بذلك.

أتفق مع هذا الرأي. فالغرض من هذا البحث هو استكشاف ظاهرة، وليس اقتراح قوانين صارمة، أو إنشاء مجموعة من قواعد البيانات للإحصائيين.

6: ولكن ماذا عن ...: "إن الأحداث والقضايا التي وردت في هذا الملف هي أكثر تعقيدًا مما ورد فيه".

بالطبع: الأحداث والقضايا دائمًا أكثر تعقيدًا مما تبدو.

7: الأصالة: مفهوم فخ ثيوسيديديز ليس أصيلاً.

إن حقيقة أنه يُسمى فخ ثيوسيديديز، تشير إلى أننا بالضرورة نوافق على ذلك. فكما هو مذكور على الموقع الإلكتروني، منذ أن أكمل ثيوسيديديز عمله، ساهم علماء آخرون، على مر القرون، في تشكيل فهمنا لتحديات الهيمنة.

هوامش

الملاحق

(1) التقدم البرتغالي والتوسع القشتالي حوالي عام 1492، تأليف بيريز.

(2) في تقديمنا لهذه الحالة على أنها حالة "لا حرب"، تجدر الإشارة إلى أن البرتغاليين قاتلوا في حرب الخلافة القشتالية، التي استمرت من عام 1475 إلى عام 1479، حول ما إذا كان ينبغي السماح بقيام اتحاد قشتالة وأراغون. فإذا ما أدت هذه الحرب الأهلية القشتالية إلى تثبيت إيزابيلا، التي كانت متزوجة من الملك الأراغوني فرديناند، ملكةً قشتالية مقبلة، تقوم الوحدة. وإذا ما انتصر مؤيدو خوانا، التي كانت متزوجة من ملك البرتغال ألفونسو الخامس، تتوحد قشتالة مع البرتغال، بدلًا من ذلك. والبرتغال حاربت طبعًا من أجل إيصال خوانا وليس إيزابيلا إلى العرش. ولذلك، بدلًا من فهم هذه الحالة على أنها سيناريو لفخ ثيوسيديديز حيث إن الخوف من توحيد القوة القشتالية الصاعدة مع أراغون دفع البرتغاليين إلى شن هجوم، نفهمها على أنها محاولة برتغالية للحصول على قشتالية على أنها إرث لها. كان التوسع دافعًا أقوى من الخوف. وهناك مسألة أخرى تجعل هذه الحرب غير مشابهة لحالة فخ ثيوسيديديز لعام 1494. ففي السبعينيات من القرن الخامس عشر، كانت إمبراطورية البرتغال ما وراء البحار والثروة الناتجة عنها، تزداد اتساعًا بوتيرة أسرع بكثير من وتيرة توسُّع قشتالية. وقبل الحرب، كان قد انتشر خبر اكتشاف الذهب على شاطئ البرتغال الذهبي في غرب أفريقيا، كما كان استعمار البرتغال الزراعي المربح في الأزور والرأس الأخضر قد أصبح معروفًا جدًا. وكانت سلسلة من المراسيم البابوية الصادرة قبل الحرب قد صدَّقت على سيطرة البرتغال على تلك الأراضي. وبعدما دخلت البرتغال الحرب، هاجمت الملكة إيزابيلا الممتلكات البرتغالية في أفريقيا في محاولة لتحجيم البرتغاليين. لكن هذه المحاولات لم تفلح، بل بقيت البرتغال قوة استعمارية مهيمنة عند انتهاء الحرب. وقد ترسخت هذه الهيمنة في معاهدة ألكاسوفاس Treaty of Alcacovas. ولذلك، فبينما يبيِّن سيناريو الـ"لا حرب" في عام 1492 بوضوح التفاوض في ظرف تهدد فيه إسبانيا الصاعدة البرتغال الحاكمة، كانت المعارك الاستعمارية في حرب الخلافة القشتالية تدور في فترة كانت فيها كلا القوتان صاعدتين: صعود الاستعمار البرتغالي هدد بوضع حد لتوسع إسبانيا ما وراء البحار، حتى مع اكتساب إسبانيا أراضي في القارة.

(3) تاريخ التوسع البرتغالي ما وراء البحار 1400-1668 A History of Portuguese Overseas Expansion, 1400-1668، تأليف مالين نيوويت Malyn Newitt، 2005.

(4) البرتغال وسَعيُها إلى الجزر الهندية Portugal and the Quest for the Indies، تأليف كريستوفر بِلّ Christopher Bell، 1974.

(5) معاهدة تُوردِسيياس The Treaty of Tordesillas، فصل في موسوعة الاستعمار الغربي منذ 1450 Encyclopedia of Western Colonialism Since 1450، كتبه ألكسندر زوكاس Alexander Zukas، 2007.

(6) البرتغال وسَعيُها إلى الجزر الهندية، تأليف كريستوفر بِلّ.

(7) 1494: كيف أدى خلاف عائلي في إسبانيا القرون الوسطى إلى تقسيم العالم إلى نصفين 1494: How a Family Feud in Medieval Spain Divided the World in Half، تأليف ستيفن باون Stephen Bown، 2012.

(8) بالنظر إلى قلة معرفة أي شخص آنذاك بجغرافية الأمريكتين، من الصعب فهم الموقف العنيد الذي اتخذه الملك جون إزاء خط التقسيم الذي وضعه البابا. ففي عام 1494، لم تكن أيٌّ من القوتين تدري حتى بوجود الأمريكتين، ناهيك عن وجود جزء من البرازيل التي نعرفها اليوم شرق خط الطول 46. ومع ذلك، افترض كريستوفر بِلّ أن المستكشفين البرتغاليين في المحيط الهادي بينما كانوا في رحلة إلى أفريقيا قبل عام 1494 يمكن أن يكونوا قد لمحوا أرضًا بالصدفة عندما انحرفوا بالخطأ عن مسارهم. ولذلك، عندما رفض الملك جون الالتزام بتحكيم البابا في عام 1493، من المحتمل أنه كان على علم بوجود أرض بعد المحيط الهادي في نصف الكرة الجنوبي، وأن هذه الأرض، سواء كانت جزرًا أم لا، هي صالحة للاستعمار وتقع في جوار خط الطول 36 غرب. يمكن الاطلاع على البرتغال وسَعيُها إلى الجزر الهندية، تأليف كريستوفر بِلّ.

(9) تاريخ البرتغال والإمبراطورية البرتغالية، تأليف أ. ر. ديزني.

(10) أظهرت الرحلات الملاحية التي قام بها فرديناند ماجيلّان Ferdinand Magellan عام 1521، أن كولومبوس في الواقع لم يكتشف طريقًا نحو الغرب يؤدي إلى جزر الهند الشرقية، بل قارة أمريكية جديدة شاسعة.

(11) 1494: كيف أدى خلاف عائلي في إسبانيا القرون الوسطى إلى تقسيم العالم إلى نصفين، تأليف ستيفن باون.

(12) كانت المعاهدة فعالة إلى درجة أنها أوحت بمعاهدة أخرى مماثلة. ففي عام 1529، توصلت البرتغال وإسبانيا إلى حل خلافهما حول السيادة على جزر بحر مالوكا Molucca من خلال معاهدة سرقسطة Treaty of Zaragoza، التي وضعت خط طول ثانيًا يقسم بين الأراضي البرتغالية وتلك الإسبانية، ولكن هذه المرة في المحيط الهادي.

(13) إمبراطوريات ومستعمرات Empires and Colonies، تأليف جوناثان هارت Jonathan Hart، 2008.

(14) حروب آل هابسبورغ-فالْوَا، تأليف رودريغِز-سالغادو.

(15) المرجع السابق. كان شنُّ الحرب على المسلمين "الكفّار" من صلب لقب الإمبراطور الروماني المقدس. وقد أضفى فرانسيس، بقدرته على التنبؤ بالنزاع القادم، مصداقيةً على ما اعتبره العالِمُ السياسي دايل كوبلاند Dale Copeland حربًا وقائية عمَدَ فرانسيس إلى شنها على إمبراطورية هابسبرغ لمنعها من الصعود. يمكن الاطلاع على كتاب أصول الحروب الكبرى The Origins of Major War، تأليف دايل كوبلاند، 2000.

(16) إسبانيا 1469-1714 Spain, 1469-1714، تأليف هنري كامن Henry Kamen، 2014؛ وأصول الحروب الكبرى، تأليف دايل كوبلاند.

(17) إسبانيا في ظل حكم آل هابسبورغ Spain Under the Hapsburgs، تأليف جون لينش John Lynch، 1964.

(18) فرانسيس الأول Francis I، تأليف روبرت كنيكت Robert Knecht، 1982.

(19) حروب آل هابسبورغ–فالْوَا، تأليف رودريغِز–سالغادو..
(20) أوروبا: الصراع من أجل السيادة Europe: The Struggle for Supremacy، تأليف بريندان سيمّز Brendan Simms، 2013.
(21) الإمبراطورية العثمانية: العصر الكلاسيكي 1300–1600 The Ottoman Empire: The Classical Age, 1300-1600، تأليف خليل إينالجك Halil Ynalc، 2001.
(22) حلم عثمان: قصة الإمبراطورية العثمانية 1300–1923 Osman's Dream: The Story of the Ottoman Empire، تأليف كارولاين فينكِل Caroline Finkel، 2006.
(23) الاستيلاء العثماني على مصر (1517) وبداية الحرب العالمية في القرن السادس عشر The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth-Century World War، فصل كتبه أندرو هيس Andrew Hess في المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط International Journal of Middle East Studies (المجلد 4، العدد 1)، كانون الثاني/ يناير 1973؛ وكتاب الإمبراطورية العثمانية 1300–1650 The Ottoman Empire, 1300-1650، تأليف كولين إمبِر Colin Imber، 2009.
(24) الاستيلاء العثماني على مصر، تأليف أندرو هيس.
(25) المرجع السابق.
(26) أوروبا القرن السادس عشر: توسع وصراعات Sixteenth-Century Europe: Expansion and Conflict، تأليف ريتشارد ماكِّينّي Richard Mackenney، 1993.
(27) أوروبا: الصراع من أجل السيادة، تأليف بريندان سيمّز. مرجع سبق ذكره.
(28) الامبراطورية العثمانية، تأليف كولين إمبر.
(29) أوروبا في أزمة 1598–1648 Europe in Crisis, 1598-1648، تأليف جوفري باركر Geoffrey Parker، 1979.
(30) المرجع السابق.
(31) السويد والبلطيق 1611–1654 Sweden and the Baltic, 1611-1654، فصل كتبه مايكل روبرتس Michael Roberts في موسوعة كامبردج الجديدة للتاريخ الحديث The New Cambridge Modern History، 1970.
(32) حرب الثلاثين عامًا 1618–1648 The Thirty Years' War, 1618-1648، تأليف صموئيل راوسن غاردينر Samuel Rawson Gardiner، 1912.
(33) حرب الثلاثين عامًا: مأساة أوروبا The Thirty Years War: Europe's Tragedy، تأليف بيتر ويلسون Peter Wilson، 2009.
(34) الكلمات التي تحكم البشر: تفسير ثقافي لتدخل السويد في حرب الثلاثين عامًا Words That Govern Men: A Cultural Explanation of the Swedish Intervention into the Thirty Years War، رسالة دكتوراه أعدها إيريك رينغمار Erik Ringmar، 1993.
(35) أوروبا: الصراع من أجل السيادة، تأليف بريندان سيمّز.
(36) غوستافوس أدولفوس Gustavus Adolphus، تأليف مايكل روبرتس، 1992.
(37) أوضح الكاتب جوفري باركر أن غوستافوس تمكّن أساسًا من انتزاع تمويل كبير من فرنسا عبر ابتزازها بتخويفها من أن نجاح السويد سيؤدي إلى استبعادها من تسوية ما بعد الحرب: "لا تستطيع فرنسا المخاطرة بترك غوستافوس يحقق من دون مساعدتها مركز هيمنة يملي إعادة رسم خريطة ألمانيا... المبعوثون الفرنسيون... وعدوا السويد بدفع مليون جنيه سنويًا لفترة خمس سنوات، لتمويل حرب لحماية البلطيق والبحار المحيطية، وحرية التجارة، وتخليص الولايات المقموعة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد نُشرت المعاهدة فورًا مرفقة بمذكرة

تنص على أن فرنسا دفعت 300 ألف جنيه على الفور، مما أثار هياجًا. وقد اعتبرها كثيرون ضربة معلم للدبلوماسية السويدية. يمكن الاطلاع على كتاب أوروبا في أزمة، تأليف جوفري باركر.

(38) السويد والبلطيق، تأليف مايكل روبرتس.
(39) حرب الثلاثين عامًا: مأساة أوروبا، تأليف بيتر ويلسون.
(40) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.
(41) الربح والسلطة، تأليف تشارلز ويلسون.
(42) الحروب الأنجلو-هولندية في القرن السابع عشر The Anglo-Dutch Wars of the Seventeenth Century، تأليف ج. ر. جونز J. R. Jones، 1996.
(43) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.
(44) من المهم الإشارة إلى أن مفهوم الاقتصاد التجاري الذي اعتمدته القوتان كان سابقًا لما أوجده العالِم الاقتصادي الإسكتلندي آدم سميث (1723–1790)، فلم تُقرّا بأن التجارة الحرة يمكن أن تؤتي بفوائد متبادلة. ويشرح ف. ل. كارستِن أن الهولنديين كانوا يردون على "فكرة الهيمنة على البحار البريطانية ضد النظام، أو في غيبة النظام، الذي أسماها الهولنديون مبدأ البحار الحرة، والذي كانوا يدافعون عنه عندما تكون لهم الغلبة تجاريًا، أو عندما يُتوقّع أن تكون لهم تلك الغلبة. وفقط بعد مرور سنوات عدة وظهور إمكانات جديدة، بدأ الإدراك أن التجارة العالمية بالذات يمكن توسيعها وأن دولتين متنافستين وتملكان رأس المال يمكن أن تزدهرا من دون أن تدمر إحداهما الأخرى.
(45) صعود وانحسار العداء الإنجليزي – الهولندي، تأليف جاك ليفي.
(46) التنافس الإنجليزي الهولندي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، تأليف جورج إدموندسون.
(47) النظام العالمي الحديث (الجزء الثاني): النزعة التجارية وتوحيد الاقتصاد الأوروبي في العالم 1600–1750 The Modern World-System II: Mercantilism and the Consolidation of the European World-Economy, 1600-1750، تأليف إيمانويل والِّرشتاين Immanuel Wallerstein، 2011.
(48) الربح والسلطة، تأليف تشارلز ويلسون.
(49) حروب لويس الرابع عشر 1667–1714 The Wars of Louis XIV, 1667-1714، تأليف جون أ. لينّ John A. Lynn، 1999.
(50) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي (مرجع سبق ذكره)؛ حرب السنوات التسع 1688–1697 The Nine Years War, 1688-1697، فصل أعده السير جورج كلارك Sir George Clark في موسوعة كامبردج الجديدة للتاريخ الحديث The New Cambridge Modern History، 1970.
(51) صعود القوى العظمى 1648–1815 The Rise of the Great Powers, 1648-1815، تأليف ديريك ماكّاي وهـ. م. سكوتّ Derek McKay and H. M. Scott، 1983. يبدو أن الثورة المجيدة لا تشير فقط إلى عملية إسقاط جيمس التي قام بها ويليام، بل أيضًا إلى مجموعة من الإصلاحات الدستورية التي منحت سلطة أكبر للبرلمان. وكان ويليام مرتاحًا بشكل عام للموافقة على هذه الإصلاحات، لأنه كان قد ركز أولوياته على حشد الموارد الإنجليزية للحرب ضد فرنسا.
(52) حرب السنوات التسع، تأليف السير جورج كلارك.
(53) صعود وانهيار الإمبراطورية البريطانية The Rise and Fall of the British Empire، تأليف لورنس جيمس Lawrence James، 1996.

(54) أوتار القوة: الحرب والمال والدولة الإنجليزية 1688–1783 The Sinews of Power: War, Money and the English State, 1688-1783، تأليف جون بروور John Brewer، 1989.

(55) ذلك العدو اللطيف: الفرنسيون والبريطانيون منذ الملك الشمس حتى اليوم That Sweet Enemy: The French and the British from the Sun King to the Present، تأليف روبرت وإيزابيلا تومس Robert Tombs and Isabelle Tombs، 2006.

(56) صعود وانهيار الإمبراطورية البريطانية، تأليف لورنس جيمس.

(57) ذلك العدو اللطيف، تأليف روبرت وإيزابيلا تومس.

(58) صعود وانهيار الإمبراطورية البريطانية، تأليف لورنس جيمس.

(59) ذلك العدو اللطيف، تأليف روبرت وإيزابيلا تومس.

(60) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(61) حملات نابليون The Campaigns of Napoleon، تأليف ديفيد شاندلر David Chandler، 1966.

(62) كان اقتصاد فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر، مقارنة مع اقتصاد غريمتها بريطانيا، "غائبًا على نحو شبه تام"، على حد تعبير المؤرخ الفرنسي فرانسوا كروزيه François Crouzet، الذي كتب أيضًا: "هذا التفوُّق البريطاني الحاسم في البراعة والرغبة في الابتكار كان العامل الأساسي الذي عمَّق التفاوت الهيكلي بين الاقتصادين خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر". يمكن الاطلاع على كتاب فرانسوا كروزيه "الصعود البريطاني: قضايا مقارنة في التاريخ الاقتصادي الفرنسي البريطاني" Britain Ascendant: Comparative Issues in Franco-British Economic History، 1990.

(63) موسوعة أوكسفورد لتاريخ الثورة الفرنسية The Oxford History of the French Revolution، تأليف ويليام دويل William Doyle، 2002.

(64) المرجع السابق.

(65) موسوعة كوبِّت للتاريخ البرلماني في إنجلترا: من غزو النورمان في 1066 حتى عام 1803 Cobbett's Parliamentary History of England: From the Norman Conquest, in 1066, to the Year 1803، إعداد ويليام كوبِّت William Cobbet، 1806.

(66) موسوعة أوكسفورد لتاريخ الثورة الفرنسية، تأليف ويليام دويل.

(67) كان نابليون قد زاد حجم الجيش الفرنسي في عام 1815 بأكثر من ثلاثة أمثال ما كان عليه في عام 1789. يمكن الاطلاع على كتاب صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(68) الثورة الفرنسية ونابليون The French Revolution and Napoleon، تأليف شارلز داونر هازن Charles Downer Hazen، 1917.

(69) الجزيرة القلعة: الدفاع عن بريطانيا العظمى 1603–1945 Island Fortress: The Defense of Great Britain, 1603-1945، تأليف نورمان لونغمايت Norman Longmate، 1991.

(70) سقوط نابليون The Fall of Napoleon، تأليف مايكل ليجيار Michael Leggiere، 2007.

(71) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(72) إن مثل هذا المعدل من التوسع ليس غير مسبوق في التاريخ الروسي: فقد توسعت روسيا كل سنة بمقدار يفوق كامل أراضي العديد من الدول الأوروبية (بمعدل 100 ألف كيلومتر مربع في السنة) من عام 1552 إلى عام 1917. يمكن الاطلاع على كتاب النظام العالمي، تأليف هنري كيسنجر.

(73) قاعدة بيانات القدرات المادية الوطنية، لمشروع Correlates of War (بجامعة ميشيغان الأمريكية). يمكن الاطلاع على كتاب توزيع القدرات، والريبة، وحرب القوى الكبرى، 1820–1965، تأليف ج. ديفيد سينغر، وستيوارت بريمر، وجون ستاكي.

(74) تاريخ حرب القِرْم The Crimean War: A History، تأليف أورلاندو فيغِس Orlando Figes، 2010.

(75) المرجع السابق.

(76) أوروبا: الصراع من أجل السيادة، تأليف بريندان سيمّز.

(77) تاريخ حرب القِرْم، تأليف أورلاندو فيغِس.

(78) النظام العالمي، تأليف هنري كيسنجر.

(79) رسائل من روسيا Letters from Russia، تأليف أستولف دي كوستين Astolphe de Custine، 2002.

(80) روسيا في القرن التاسع عشر: أوتوقراطية، وإصلاح، وتغيير اجتماعي 1814–1914 Russia in the Nineteenth Century: Autocracy, Reform, and Social Change, 1814-1914، إعداد ألكساندر بولونوف، وتوماس أووِن، ولاريسّا زاخاروف Alexander Polunov, Thomas Owen, and Larissa Zakharova، 2005.

(81) حرب القرم: الاستراتيجية الكبرى التي اعتمدتها بريطانيا ضد روسيا 1853–1856 The Crimean War: British Grand Strategy Against Russia, 1853-56، تأليف آدم لامبِرت Adam Lambert، 1990.

(82) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(83) المرجع السابق.

(84) المرجع السابق.

(85) الحرب الفرنسية البروسية، تأليف مايكل هاورد.

(86) الحرب الفرنسية البروسية، تأليف جوفري واورو.

(87) الحرب الفرنسية البروسية، تأليف مايكل هاورد.

(88) قاعدة بيانات القدرات المادية الوطنية، لمشروع Correlates of War (بجامعة ميشيغان الأمريكية). يمكن الاطلاع على كتاب توزيع القدرات، والريبةٍ، وحرب القوى الكبرى، 1820–1965، تأليف ج. ديفيد سينغر، وستيوارت بريمر، وجون ستاكّي.

(89) الحرب الفرنسية البروسية، تأليف جوفري واورو.

(90) أوروبا: الصراع من أجل السيادة، تأليف بريندان سيمّز.

(91) بسمارك: قصة حياة، تأليف جوناثان شتاينبرغ Steinberg.

(92) بِسْمارك، الرجل ورجل الدولة، خواطر وذكريات أوتّو، أمير فون بِسْمارك، كما كتبها وأملاها بنفسه بعد تقاعده Bismarck, the Man and the Statesman, Being the Reflections and Reminiscences of Otto, Prince von Bismarck, Written and Dictated by Himself After His Retirement from Office، تأليف أوتّو فون بِسْمارك Otto von Bismarck، 1898.

(93) يدور جدالٍ بين الباحثين حول مدى نية بِسْمارك في افتعال حرب مع فرنسا عن طريق ترشيح هوهنزولِّرن. ولكن ثمة إجماع على أن بِسْمارك كان يرغب في الحرب وأن هذا الترشيح، سواء كان محض صدفة أو خطة بارعة، قد شكَّل "محور ذلك السعي إلى المواجهة". يمكن الاطلاع على كتاب أصول الحرب الفرنسية البروسية The Origins of the Franco-Prussian War، فصل كتبه س. ويليام هالبيرِن S. William Halperin في نشرة التاريخ الحديث Journal of Modern History، آذار/مارس 1973.

(94) نابليون الثالث وأوجيني Napoleon III and Eugenie، تأليف جاسبِر ريدلي Jasper Ridley، 1980.

(95) الحرب الفرنسية البروسية، تأليف مايكل هاورد.

(96) أوروبا: الصراع من أجل السيادة، تأليف بريندان سيمّز.

(97) إحصاءات دولية تاريخية: أفريقيا وآسيا وأوقيانوسيا، 1750–1993، تأليف ب. ر. ميتشيل.
(98) يمكن الاطلاع على جداول الإنفاق العسكري الياباني في كتاب إحداث الأمواج، تأليف ج. تشارلز شينكينغ.
(99) مسيرة اليابان نحو مركز القوة العظمى Japan’s Drive to Great-Power Status، فصل من تأليف إيريي Iriye، في موسوعة كامبريدج لتاريخ اليابان The Cambridge History of Japan، المجلد الخامس، القرن التاسع عشر، 1989.
(100) كتاب المِعْداد والسيف: الاختراق الياباني لكوريا، 1895–1910، تأليف بيتر دووس.
(101) مسيرة اليابان نحو مركز القوة العظمى، تأليف إيريي Iriye.
(102) الحرب الصينية اليابانية 1894–1895: التصورات والقوة والصدارة The Sino-Japanese War of 1894-1895: Perceptions, Power, and Primacy، تأليف س. ك. م. باين S.C.M. Paine، 2003.
(103) حرب اليابان الحديثة الأولى: الجيش والمجتمع في النزاع مع الصين 1894–1895 Japan’s First Modern War: Army and Society in the Conflict with China, 1894-1895، تأليف ستيوارت لون Stewart Lone، 1994.
(104) روسيا في مواجهة اليابان، 1904–1905: نظرة جديدة على الحرب الروسية–اليابانية، تأليف ج. ن. ويستوود.
(105) إحداث الأمواج، تأليف ج. تشارلز شينكينغ.
(106) الطوفان: الحرب الكبرى، وأمريكا، وإعادة صياغة النظام العالمي 1916-1931 The Deluge: The Great War, America, and the Remaking of the Global Order, 1916-1931، تأليف آدم توز Adam Tooze، 2014.
(107) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.
(108) الديمقراطية الإمبريالية: بزوغ أمريكا كقوة عظمى، تأليف إرنست ماي.
(109) بريطانيا وتوازن القوى في أمريكا الشمالية، 1815–1908، تأليف كينيث بورن.
(110) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.
(111) بريطانيا وتوازن القوى في أمريكا الشمالية، 1815–1908، تأليف كينيث بورن.
(112) العملاق المُنهَك: بريطانيا وتجربة الانحدار النسبي 1895–1905، تأليف آرون فريدبيرغ Aaron.
(113) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.
(114) أُفول بريطانيا العظمى: الولايات المتحدة وانحدار الإمبراطورية البريطانية، تأليف آن أوردي. ويمكن الاطلاع أيضًا على كتاب تحوُّل القوة ومفاعيله، تأليف ماي وهونغ.
(115) في الشرح الذي قدمه وُودْوُرد لمفهوم "الأمن المجاني"، أشار إلى أن القوات البحرية المكلفة التي قامت بحراسة المحيط الهادي وحمايته كان يعمل فيها ويدفع تكاليفها أفراد بريطانيون لأكثر من مائة عام، بينما تمتع الأمريكيون بهذا الأمن الإضافي من دون تكبُّد مصاريف إضافية. عصر إعادة التأويل، تأليف فان وُودْوُرد.
(116) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.
(117) صعود العداء الأنجلو–ألماني، تأليف بول كينيدي.
(118) الطريق البحري نحو الهاوية: السباق البحري الأنجلو–ألماني، 1895-1914، تأليف ماتيو س. سيليغمان وآخرين.
(119) الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.
(120) بحلول عام 1914، كان ربع الاستثمارات الفرنسية قد ذهب إلى روسيا المتحولة بسرعة إلى التصنيع. الحرب العالمية الأولى، تأليف هيو شتراخان.
(121) الحرب العالمية الأولى: ألمانيا والنمسا–المجر 1914-1918، تأليف هولغِر هـ. هيرفيغ.
(122) قلق الإمبراطور الألماني من تعريض نفسه للمهانة بسبب عدم وقوفه في وجه أعدائه في

الأزمات الأخيرة، ورأى في ذلك فرصة لإنهاء السيطرة الروسية في البلقان، حتى لو أدى ذلك إلى حرب مع موسكو. الحرب العالمية الأولى: ألمانيا والنمسا–المجر 1914-1918، تأليف هولغِر هـ. هيرفيغ. الحرب التي أنهت السلام، تأليف مارغريت ماكميلان.

(123) على سبيل المثال: السائرون نيامًا، تأليف كريستوفر كلارك.

(124) صعود العداء الأنجلو–ألماني، تأليف بول كينيدي.

(125) باريس عام 1919: ستة أشهر غيَّرت وجه العالم Paris 1919: Six Months That Changed the World، تأليف مارغريت ماكميلان Margaret MacMillan، 2003.

(126) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(127) الرايخ الثالث في السلطة 1933-1939 The Third Reich in Power, 1933-1939، تأليف ريتشارد ج. إيفانز Richard J. Evans، 2005.

(128) صعود وانهيار الرايخ الثالث: تاريخ ألمانيا النازية The Rise and Fall of the Third Reich: A History of Nazi Germany، تأليف ويليام شايرر William Shirer، 2011.

(129) الرايخ الثالث في السلطة، تأليف ريتشارد ج. إيفانز.

(130) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي؛ والحرب العالمية الثانية The Second World War، تأليف أنطوني بيفور Antony Beevor، 2012.

(131) أسباب الحرب: السلطة وجذور النزاع Causes of War: Power and the Roots of Conflict، تأليف ستيفن فان إيفيرا Stephen Van Evera، 1999.

(132) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(133) انتصار الظلام: تاريخ أوروبا الدولي 1933-1939 The Triumph of the Dark: European International History, 1933- 1939، تأليف زارا شتاينر Zara Steiner، 2011.

(134) الحرب العالمية الثانية، تأليف أنطوني بيفور.

(135) العالم يحمل السلاح: تاريخ عالمي للحرب العالمية الثانية A World at Arms: A Global History of World War II، تأليف غيرهارد واينبرغ Gerhard Weinberg، 2005.

(136) لا تستسلموا أبدًا!: خطابات ونستون تشرشل Never Give In!: Winston Churchill's Speeches، 2013.

(137) خطاب رئيس الوزراء في بيرمنغهام، 17 آذار/مارس 1939، وهو متاح على الرابط http://avalon.law.yale.edu/wwii/blbk09.asp.

(138) الدبلوماسية، تأليف هنري كيسنجر.

(139) يمكن الاطلاع على الحرب العالمية الثانية، تأليف أنطوني بيفور.

(140) صعود وانهيار القوى العظمى، تأليف بول كينيدي.

(141) الجزء الثاني من كتاب أوراق خاصة بالعلاقات الخارجية بين الولايات المتحدة واليابان، 1931-1941 Papers Relating to the Foreign Relations of United States and Japan, 1931-1941، إصدار وزارة الخارجية الأمريكية.

(142) اليابان وأفول الغرب في آسيا 1894-1943 Japan and the Decline of the West in Asia, 1894-1943، تأليف ريتشارد ستورّي Richard Storry، 1979.

(143) الطريق إلى بيرل هاربور: اقتراب الحرب بين الولايات المتحدة واليابان، تأليف هيربِرت فايس.

(144) بيرل هاربور: أول حروب الطاقة، تأليف تشارلز ماكلينغ.

(145) أساطير إمبراطورية، تأليف جاك سنايدر.

(146) حاضِر لدى عملية الخلق: سنواتي في وزارة الخارجية Present at the Creation: My Years in the State Department، تأليف دين آتشيسون Dean Acheson، 1969.

(147) الحرب الباردة: تاريخ جديد، تأليف جون لويس غادِّس.

(148) رسالة فورِّستال إلى هومِر فيرغسون، من كتاب يوميات فورِّستال، إعداد والتر ميلِّس.

(149) الحرب الباردة والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي للقرن العشرين The Cold War and the Social and Economic History of the Twentieth Century، فصل كتبه ويلفْريد لوث Wilfried Loth، في موسوعة كامبردج لتاريخ الحرب الباردة The Cambridge History of the Cold War، المجلد الثاني، 2010.

(150) بدأ وزير الخارجية جون فوستر دالاس John Foster Dulles يقلق من أنه "سيكون من الصعب كبح انتشار الشيوعية في معظم أنحاء العالم إذا لم نتمكن بطريقة ما من تقليد الجهود المكثفة التي تبذلها الشيوعية لرفع معايير الإنتاجية". يمكن الاطلاع على كتاب الشيطان الذي عرفناه: الأمريكيون والحرب الباردة The Devil We Knew: Americans and the Cold War، تأليف هـ. و. براندز H. W. Brands، 1993.

(151) اقتصاديات: تحليل تمهيدي، تأليف بول صامويلسون.

(152) قاعدة بيانات القدرات المادية الوطنية، لمشروع Correlates of War (بجامعة ميشيغان الأمريكية). يمكن الاطلاع على كتاب توزيع القدرات، والريبة، وحرب القوى الكبرى، 1820-1965، تأليف ج. ديفيد سينغر، وستيوارت بريمر، وجون ستاكي.

(153) اعتبر باحثون كثر، بدءًا من أولئك التابعين للمدرسة الفكرية التي تعيد كتابة التاريخ ووصولاً إلى الذين يدافعون عن الحرب الباردة، أن الولايات المتحدة بالغت في رد فعلها على التهديد السوفييتي. وهناك أدلة تاريخية عدة تدعم هذا الرأي. ولكن مواصفات فخ ثيوسيديديز لا تتضمن أن تكون نظرة القوة الحاكمة إلى القوة الصاعدة نظرة منطقية أو متناسبة مع التهديد. فهذا الفخ يقتضي بكل بساطة أن تكون القوة الصاعدة على الأقل صاعدة إلى حد ما، وأن يكون صعودها كافيًا لإثارة الخوف لدى القوة الحاكمة. وكلا الشرطان في هذه الحالة متوفران.

(154) في الحالات النادرة التي قاتل فيها الطرفان خفيةً، ومنها مثلًا إطلاق الطيارين السوفييت قذائف على كوريا الجنوبية خلال الحرب الكورية، لم يعترفا بذلك خوفًا من احتمال أن ينتج عنه تصعيد نووي ذو نتائج مدمرة.

(155) يمكن الاطلاع على حرب أمريكا الباردة America's Cold War، تأليف كريغ كامبل وفريديريك لوجفال Campbell Craig and Fredrik Logevall، 2009؛ ومن أجل روح البشر For the Soul of Mankind، تأليف ميلفن ليفلِر Melvyn Leffler، 2007؛ الحرب الباردة: تاريخ جديد، تأليف جون لويس غادِّس.

(156) يمكن الاطلاع على كتاب السلام الطويل: تحقيقات في تاريخ الحرب الباردة، تأليف جون لويس غادِّس.

(157) المرجع السابق.

(158) يمكن الاطلاع على قواعد التعقُّل البدائية: أسس المنافسة المسالمة Primitive Rules of Prudence: Foundations of Peaceful Competition، فصل كتبه غراهام ألّيسون Graham Allison في كتاب نوافذ الفرص: من الحرب الباردة إلى المنافسة السلمية في العلاقات الأمريكية السوفييتية Windows of Opportunity: From Cold War to Peaceful Competition in US-Soviet Relations، 1989.

(159) حرب أوروبا الباردة Europe's Cold War، فصل كتبه جوسّي م. هانهيماكي Jussi M. Hanhimaki في كتيِّب أوكسفورد عن تاريخ أوروبا ما بعد الحرب The Oxford Handbook of Postwar European History، 2012.

(160) الخيار لأوروبا: المسؤولية الاجتماعية وقوة الدولة من مَسينة إلى ماستريخت، تأليف أندرو مورافتشك.

(161) ألمانيا موحدة وأوروبا متحولة: دراسة في كفاءة إدارة الدولة، تأليف فيليب زيليكوف وكوندوليزا رايس.

(162) الخيار لأوروبا: المسؤولية الاجتماعية وقوة الدولة من مَسينة إلى ماستريخت، تأليف أندرو مورافتشك.

(163) ألمانيا موحدة وأوروبا متحولة: دراسة في كفاءة إدارة الدولة، تأليف فيليب زيليكوف وكوندوليزا رايس.

(164) المقابلة: هنري كيسنجر، أجراها جاكوب هايلبرون.

(165) السيد المتردد Reluctant Meister، تأليف ستيفن غرين Stephen Green، 2014.

(166) مرحلة النضج: السياسة الخارجية الألمانية منذ 1945، تأليف هيلغا هافتندورن.

(167) على نحو ما لاحظ مارتن ديدمان Martin Dedman، "إن هدف إدماج الاقتصاد الألماني الناهض ضمن أوروبا الغربية، في غياب أي تسوية سياسية رسمية مع الجانب المهزوم، أي ألمانيا التي كانت سابقًا مولعة بالقتال، قد تحقق من خلال التكامل الاقتصادي الذي خلق أسواقًا مشتركة كانت قائمة في البداية على الفحم والصلب في عام 1951 وأصبحت قائمة على السلع الصناعية في عام 1957. وهذا يعني أن نهوض ألمانيا كقوة اقتصادية لم يشكل تهديدًا سياسيًا أو عسكريًا لأوروبا في السنوات الخمس والأربعين التي أعقبت الحرب العالمية الثانية (بينما أثار صعود اليابان كقوة اقتصادية عظمى قلق جيرانها الآسيويين). يمكن الاطلاع على كتاب أصول الاتحاد الأوروبي وتطوره 1945-2008، تأليف مارتن ديدمان، 2009.

(168) مفارقة القوة الألمانية The Paradox of German Power، تأليف هانس كوندناني Hans Kundnani، 2014.





حتميّة الحرب

"يحدد فخ ثيوسيديديز تحديًا جوهريًا للنظام العالمي: تأثير القوة الصاعدة على القوة الحاكمة. لقد قرأت هذا الكتاب باهتمام كبير. وكل ما أتمناه هو أن تصبح العلاقة الأمريكية الصينية خامس حالة تحل نفسها بطريقة سلمية، وليس الحالة الثالثة عشرة التي تسفر عن حرب بين طرفيها".

هنري كيسنجر، وزير خارجية أمريكي سابق

"يضع غراهام أليسون أعقد معضلات السياسة الخارجية في متناول الخبراء والمواطنين العاديين على حد سواء. وهذا ما دفعني باستمرار إلى طلب نصيحته، سواء كعضو في مجلس الشيوخ، أو كنائب للرئيس. في كتابه "حتميّة الحرب"، يطرح ألّيسون واحدًا من التحديات التي ترسم معالم عصرنا، وأقصد بذلك كيفية إدارة العلاقة بين الصين والولايات المتحدة".

جو بايدن، نائب سابق لرئيس الولايات المتحدة

"واحد من أكثر ما قرأت من الكتب عمقًا وإثارةً للجدل، عن العلاقة الأكثر أهمية في العالم: العلاقة بين الولايات المتحدة والصين. فإذا كان غراهام ألّيسون على حق، وأظنه كذلك، فيجب على الولايات المتحدة والصين أن تستوعبا الدروس المتضمنة في هذه الدراسة الرائعة، لتتجنّبا حربًا لن يستطيع أيٌّ منهما أن ينتصر فيها".

الجنرال المتقاعد ديفيد بيتريوس، رئيس معهد KKR العالمي، رئيس سابق لوكالة المخابرات المركزية، وقائد سابق للقيادة المركزية الأمريكية

"هل تستطيع الولايات المتحدة تَجنُّبَ المواجهة مع الصين؟ هذا هو السؤال الجيوبوليتيكي الأول لعصرنا. إن هذا الكتاب المهم والرائع يستخلص من التاريخ دروسًا حول كيفية تَجنُّب صدامٍ كهذا".

والتر آيزاكسون، مؤلف كتاب *Steve Jobs*

"مُنَظِّرٌ يحظى باحترام كبير، وممارِسٌ مهم في مجال الأمن القومي المعاصر، بالإضافة إلى كونه واحدًا من أساطين علم التاريخ التطبيقي، هذا هو غراهام ألّيسون. نستطيع أن نراهن على أن قادة الصين سوف يقرأون تحذير ألّيسون بشأن فخ ثيوسيديديز. غير أنني أتمنى لو كنت واثقًا بالقدر نفسه من أن القادة الأمريكيين سوف يقرأونه. وفي الحالتين، ينبغي على كل مواطن مهتم بما يجري حوله أن يقتني نسخة من هذا الكتاب".

نيال فيرغوسون، زميل معهد هوفر، جامعة ستانفورد، ومؤلف كتاب *The War of the World*

ISBN: 978-9953-27-440-9



دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان